













**إهداء ٢٠٠٧**

اسرة المرحوم الدكتور / عيد الجليل عيده شلى

**جمهورية مصر العربية**



كتاب الشعب

# تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن  
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

تتميزكم من تعلم القرآن وفهمه  
رعد پٹ شریف



إذا كان « القرطبي » مسجل في مجلد واحد لتتبع هذه الورقة



ما كان حُرْم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاعتناء به عولم بأمره يحتظر طعامه  
يترك ميله من السماء ، ولو ترك السبي في ترك ما يتقذى به لكان لنفسه قاتلاً . وقد كان  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله ، ولم يترك عليه طعام حتى الصيام  
وكان يتحرلأهله قوت ستة حتى فتح الله عليه الفتوح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلاً  
أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكل أو أطلقه وأتوكل ؟  
قال : " أعقله وتوكل "

قلت : ولا حجة لهم في أهل الشفة ، فإنهم كانوا اقراء يفعلون في المسجد ما يحرقون  
ولا يتحرقون ، ليس لهم كسب ولا مال ، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان ، ومع ذلك  
فإنهم كانوا يحتطبون بالثار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرءون  
القرآن بالليل ويصلون . هكذا وصفهم البخاري وغيره . فكانوا يتسببون . وكان صلى الله  
عليه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم ، وإن كانت صدقة خصمهم بها ، فلما كثرت الفتح  
واقشर الإسلام خرجوا وتأمرأوا كأي هزيمة وغيره - وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب  
التي يطلب بها الرزق ستة أنواع :

أعلاها كسب نييأ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قال : " جعل رزقي تحت ظل وعي وجعل  
الذلة والصغار على من خالف أمرى " . أخرجه الترمذي وخصه . فجعل الله رزق نييأ صلى الله  
عليه وسلم في كسبه لفضله ، وخصه بأفضل أنواع الكسب ؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

الثاني - أكل الرجل من عمل يده ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن أطيب ما أكل  
الرجل من عمل يده وإن نية الله داود كان يأكل من عمل يده " أخرجه البخاري . وفي التنزيل  
« وَعَسَاءَ صَنَعَةَ لِبُؤْسٍ لَكُمْ » ، ويروي أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه .

الثالث - التجارة ، وهي كانت عمل جبل الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة  
المهاجرين ؛ وقد دل عليها التنزيل في غير موضع .



**الرابع - الخوف والحرص .** وقد يتبادر في سورة البقرة .

**الخامس - إلقاء التكاليف وتعليقها ، وقد مضى في الفاتحة .**

**سادس -** يا أيها الذين آمنوا إنا أخرجناكم من أوطانكم ، قال صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد اتقاء الله من الله ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » . نرجعه البخاري .  
وراء أبو هريرة رضي الله عنه .

**السابعة -** قوله تعالى : ( إِنْ شَاءَ ) دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد ، وإنما هو من فضل الله تعالى ليست بين عباده ، وذلك بين في قوله تعالى : « نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مِيسَمُهُمْ لِيُحْلِلَ اللَّهُ لَهُمُ الْآيَةَ » .

قوله تعالى : فَتَنَّا الَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ  
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٦﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

**الأولى -** قوله تعالى : ( فَتَنَّا الَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ) لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقرؤا المسجد الحرام ، وجد الماسمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها ، قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » الآية . على ما تقدم .  
ثم أحل في هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك ، فجعلها عوضاً عما منعهم من موافاة المشركين بتجارته . فقال الله عز وجل : « فَتَنَّا الَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقتهم على هذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر لإكرامهم ، ولكونهم علمين بالتوحيد والرسول والشرائع والمال ، وخصوصاً

(١) رابع ٢٢ ص ٢٣ ح ٢٤ الآية ٢٦ .

(٢) ٢٦ سورة الزيف .

(٣) أمضى لهم على امر واحد ، فجزا طه .



ذِكْرُ مَجْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنَّةَ وَأَمْنَهُ . فَلَمَّا أَنْكَرُوا نَأْكَدَتْ طَلْعُهُمُ النُّجْمَةُ وَعَظُمَتْ مِنْهُمْ  
الْجُرْمَةُ ، فَبَيَّ عَلَى عَمَلِهِمْ ثُمَّ جَعَلَ لِلْقِتَالِ غَايَةً ، وَهِيَ إِعْطَاءُ الْجِزْيَةِ بَدَلًا عَنْ الْقِتْلِ . وَهُوَ  
الصَّحِيحُ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : سَمِعْتُ أَبَا الْوَفَاءِ عَلَى بَنِ عَقِيلٍ فِي مَجْلِسِ النَّظَرِ يَتَلَوُّهَا وَيُخْتِجُّ بِهَا -  
فَقَالَ : « قَاتِلُوا » وَذَلِكَ أَمْرٌ بِالْعُقُوبَةِ . ثُمَّ قَالَ : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وَذَلِكَ بَيَانٌ لِلذَّنْبِ  
الَّذِي أَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ . وَقَوْلُهُ : « وَلَا يَأْتِيَوْمُ الْآخِرُ » تَأْكِيدٌ لِلذَّنْبِ فِي جَانِبِ الْإِعْتِقَادِ .  
ثُمَّ قَالَ : ( وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ) زِيَادَةُ لِلذَّنْبِ فِي مَخَالِفَةِ الْأَعْمَالِ . ثُمَّ قَالَ :  
( وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ) إِمَارَةٌ إِلَى تَأْكِيدِ الْمَعْصِيَةِ بِالْإِتْحَارَافِ وَالْمَعَانِدَةِ وَالْإِنْفُسَةِ عَنْ  
الْإِسْلَامِ . ثُمَّ قَالَ : ( مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ) تَأْكِيدٌ لِلْحُجَّةِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا  
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . ثُمَّ قَالَ : ( حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ) فَيَبِينَ النِّسَايَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ  
إِلَيْهَا الْعُقُوبَةُ ، وَعَيْنَ الْبَدْلِ الَّذِي تَرْتَفِعُ بِهِ .

الثَّانِيَةُ - وَقَدْ اختلف العلماء فِيمَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ .  
لَا يَقْبَلُ الْجِزْيَةَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً ، عَرَبًا كَانُوا أَوْ عَجَمًا لِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ  
خُصُّوا بِالذِّكْرِ فَتَوَجَّهَ الْحُكْمُ إِلَيْهِمْ دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ ، فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ  
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وَلَمْ يَقُلْ : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ كَمَا قَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ  
مَنْجُوشٍ بِالسَّنَةِ ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَأَبُو ثَوْرٍ . وَهُوَ مَذْهَبُ الثَّوْرِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ .  
وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ كُلِّ عَابِدٍ وَتَنَّى أَوْ نَارٍ أَوْ جَاهِدٍ أَوْ مَكْتَبٍ . وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ  
مَالِكٍ ، فَإِنَّهُ رَأَى أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الشَّرْكِ وَالْبَغْدَدِ ، عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمِيًّا ، تَقْلِيًّا  
أَوْ قَرَشِيًّا ، كَأَنَّا مِنْ كَانَ ، إِلَّا الْمُرْتَدُّ . وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَبُو هَنْدٍ وَنَحْوُهُمْ : تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ مِنْ  
بَحْرٍ مِنَ الْعَرَبِ وَالْأُمَمِ كُلِّهَا . وَأَمَّا عَبْدَةُ الْأَوْتَانِ مِنَ الْعَرَبِ فَلَمْ يَسْتَنْ اللَّهَ فِيهِمْ جِزْيَةً ، وَلَا يَبْقَى  
فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَهِ الْقِتَالُ إِلَّا بِالسَّلَامِ . وَيُوجَدُ لِابْنِ الْقَاسِمِ : أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ  
مِنْهُمْ ، كَمَا يَقُولُهُ مَالِكٌ . وَذَلِكَ فِي التَّفَرُّجِ لِأَنَّ الْجَلَّابَ ، وَهُوَ الْخِتَالُ لَا تَنْتَهِى وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ :



لا هبيل الجزية من مجوس العرب وتقبل من قيرهم . قال : لأنه ليس في العرب مجوس  
إلا وجميعهم أسلم ، فمن وُجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد ، يقتل بكل حال إن لم يسلم ،  
ولا تقبل منهم جزية . وقال ابن الجهم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام ؟  
إلا ما أجمع عليه من كفار قريش . وذكر في تطيل ذلك أنه إكرام لهم عن القلة والصغار  
لمكاتبهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح  
مكة . والله أعلم .

الثالثة - وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم .  
وفي الموطأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال :  
ما أدري كيف أصنع في أمرهم . فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهدُ سمعتُ رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : " سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ " . قال أبو عمر : يعني في الجزية  
خاصة . وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ " دليل  
على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هذا جمهور الفقهاء . وقد روى عن الشافعي أنهم كانوا  
أهل كتاب فبذلوا . وأظنه ذهب في ذلك إلى شيء روى عن علي بن أبي طالب من وجه  
فيه ضعف ، يدور على أبي سعيد البقال ، ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى  
أنه قد كان بُعث في المجوس نبي اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعة - لم يذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهم . وقد  
اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منهم ؛ فقال عطاء بن أبي رباح : لا توقيت فيها ،  
وإنما هو على ما صولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري ؛ إلا أن الطبري  
قال : أقله دينار وأكثره لا حد له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف :  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البحرين على الجزية . وقال الشافعي : دينار  
على النخعي والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شيء ؛ واحتج بما رواه أبو داود وغيره  
من معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل عالم



ديناراً في الجزية . قال الشافعي : وهو المئين عن الله تعالى مراده . وهو قول أبي قور . قال الشافعي : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطأت بذلك أنفسهم قبل . منهم . وإن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز ، إذا كانت الضيافة معلومة في الخبز والشعير والتبن والإدام ، وذكر ما على الوسط من ذلك وما على الموسر ، وذكر موضع التزول والكنق من البرد والحر . وقال مالك فيما رواه عنه ابن القاسم وأشعث ومحمد بن الحارث ابن زنجويه : إنها أربعة دنائير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الوريق ، الفنى والفقيير سواء ولو كان مجوسياً . لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر ، لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إن الضعيف يُخفف عنه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا يُنقص من فرض عمر لمسر ولا يزداد عليه . لفتى . قال أبو عمر : ويؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر ، وأربعة وعشرون . وأربعون . قال الثوري : جاء عن عمر بن الخطاب في ذلك ضرائب غنقة ، فللوالى أن يأخذ . بابها شاء ، إذا كانوا أهل ذمة . وأما أهل الصلح فاصولحوا عليه لا غير .

الخامسة — قال عطاءنا رحمة الله عليهم : والذي دلّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ؛ لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ » إلى قوله — « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . ويدلّ على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلاً ؛ لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حَتَّى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يُعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على مجاهم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المفلولين على عقولهم والشيخ الفانى . واختلف في الرهبان ؛ فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مطرف وابن المسيكس ، هذا إذا لم يترهب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهب لم يسقطها ترهبه .

السادسة — إذا احتل أهل الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ؛ إلا أن يتجهروا في بلاد غير بلادهم حتى أقرروا فيها وصولحوا عليها . فإن خربوا



تجاراً عن بلادهم التي أقروا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونصّ من ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك في السنة مراراً؛ إلا في حملهم الطعام الخنطة والزيت إلى المدينة ومكة خاصة، فإنه يؤخذ منهم نصف العشر على ما فعل عمر. ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر في تجارتهم الأجرة في الحول، مثل ما يؤخذ من المسلمين، وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعة من أئمة الفقهاء. والأقول قول مالك وأصحابه.

السابعة - إذا أذى أهل الجزية جزيّتهم التي ضربت عليهم أو صولحوا عليها خُلّي بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهم وعصرها ما ستروا خورهم ولم يطنوا بيعها من مسلم. ومُنَعُوا من إظهار الخمر والخمر في أسواق المسلمين؛ فإن أظهروا شيئاً من ذلك أُرقيت الخمر عليهم، وأُذِب من أظهر الخمر. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان. وقيل: لا يجب، ولو غصبها وجب عليه ردّها. ولا يُعترض لهم في أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالريا. فإن عاكوا إلينا فالحاكم غير، إن شاء حكم بينهم بما أنزل الله وإن شاء أعرض. وقيل: يحكم بينهم في المظالم على كل حال، ويؤخذ من قوتهم لضعفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم. وعلى الامام أن يقاتل عنهم مذوهم ويستعين بهم في قتالهم. ولا حظ لهم في القىء، وما صولحوا عليه من الكائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وهى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها. ويأخذون من اللباس والهيئة بما يمتنعون به من المسلمين، ويمتنعون من التشبه بأهل الاسلام. ولا بأس باشتراء أولاد العدو منهم إذا لم تكن لهم ذقة. ومن لد في أداء جزيته أذّب على لئده وأخذت منه صاغراً

الثامنة - اختلف العلماء فيما وجبت الجزية منه؛ فقال علماء المالكية: وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر. وقال الشافعي: وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار. وقائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنه الجزية لما مضى، ولو أسلم قبل تمام الحول يوم أو بعده عند ملك. وعند الشافعي أنها دين مستقر في الذمة فلا يسقطه



الإسلام كأجرة النار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا من قتلهم والجهاد . واختاره القاضي أبو زيد وزعم أنه مرّ الله في المسألة . وقول مالك أحم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس على مسلم جزية » . قال سفيان ؛ معناه إذا أسلم الذي بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه . أخرجه الترمذي وأبو داود . قال عساكنة ؛ وعليه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجزية من يَدِهم صاغرون » لأن الإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤدون الجزية عن يَدِهم صاغرون . والثاقفي لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذي قاله الله تعالى . وإنما يقول ؛ إن الجزية دين ، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقّف شر القتل ، فصارت كالديون كلها .

الثامنة - لو عاهد الإمام أهل بلد أو حصن ثم قتلوا عهدهم وأمتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها ، وامتنعوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا ، وكان الإمام غير جائر عليهم ؛ وجب على المسلمين غزوهم وقتالهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وقبضوا حكم فيهم بالحكم في دار الحرب سواء . وقد قيل ؛ هم ونسأؤهم فيه ولا تُخس فيهم ؛ وهو مذهب

المأثرة - فإن خرجوا متلصحين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمتنعوا الجزية . ولو خرجوا متظاهرين نظر في أمرهم وردوا إلى الذمة وأُصِفُوا من ظالمهم ، ولا يُسْتَرْق منهم أحد وهم أحرار . فإن قبض بعضهم دون بعض فن لم ينقض على عهده ، ولا يؤخذ بتقضى غيره ، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين

الحادية عشرة - الجزية وزنها فاعلة ؛ من جرى يجرى إذا كافأ عما أسدى إليه ؛ فكانهم أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن ، وهي كالقعدة والجلسة . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

لجزئك أو يئى عليك وإن من . أئى عليك بما لئت كن تجزى



الثانية عشرة - روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حزام ومروءة بن أبي ناس عن الأنباط<sup>(١)</sup> بالشام قد ألبسوا في الشمس - في رواية : وصَّب على رؤوسهم الزرث - فقال : ما شائهم؟ فقال يجلسون في الجزيرة . فقال هشام : أشهدُ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يذب الذين يذبون الناس في الدنيا " . في رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد بن فلسطين ، فدخل عليه فحدثه فأمرهم بخلوا . قال معاوية : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التكن بخافز ، فأما مع تبيين عجزهم فلا تحل عقوبتهم ؛ لأن من عجز عن الجزيرة سقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أدامها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " من ظلم مهادنا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة "

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( عَنْ يَدٍ ) قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنهب فيها أحدا . روى أبو البخترى عن سامان قال : مذمومين . وروى معمر عن قتادة قال : من قهر . وقيل : « عن يد » عن إتمام منك عليهم ؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزيرة فقد أنهم طيعهم بذلك . عكرمة : يدفعها وهو قائم والأخذ جالس ؛ وقاله سعيد بن جبيرة . ابن العربي : وهذا ليس من قوله : « عن يد » وإنما هو من قوله : « وهم صاغرون » .

الرابعة عشرة - روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة " وروى " واليد العليا هي المعطية " . فجعل يد المعطى في الصدقة طيا ، وجعل يد المعطى في الجزيرة سفلى . ويد الأخذ طيا ؛ ذلك بأنه الرفع الخافض ، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، لا إله غيره .

الخامسة عشرة - عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إن أرض الخراج يجز عنها أهلها فأعمرها وأزرعها وأزدي نراجها؟ فقال لا . وجاءه آخر



فقال له ذلك ؛ فقال لا ، وتلا قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ »  
إلى قوله « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أي عمد أحدكم إلى الصغار في عنق أحدهم فينتزعه فيجعله  
في عنقه ! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمر اشتريت أرضا ؛ قال ؛ الشراء حسن .  
قلت : فإني أعطى عن كل حرب أرض درهما وقفية طعام . قال : لا تجعل في عنقك  
صغارا . وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما يسرنى أن لى الأرض  
كلها بجزية خمسة دراهم أقر فيها الصغار على نفسي

قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ  
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ  
قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل .

الأولى — قرأ حاصم والكسائي «عزير» ابن الله ، بثوين عزير . والمعنى أن «أبا» مل  
هذا خبر ابتداء عن عزير ، و «عزير» ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كثير ونافع  
وأبو عمرو وابن عامر «عزير بن» بترك التنوين لاجتماع الساكنين ؛ ومنه قراءة من قرأ  
« قل هو الله أحد الله الصمد » . قال أبو علي : وهو كثير في الشعر . وأنشد الطبري  
في ذلك ؛

لَتَجِدَنِي بِالْأَمِيرِ بَرًّا • وَبِالْفَقَةِ بِذِصَابٍ مَكْرًا  
• إِذْ خُطِيفُ السُّلَيْمِ قَرَا •

ثانية — قوله تعالى : ( وَقَالَتِ الْيَهُودُ ) هذا لفظ نرجح على العموم ومعناه  
المتخصص ؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهذا مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالُوا لِمِ

(١) الجرب من الأرض ؛ طائر يلطم الفراخ والحاسة . وهنجد ؛ نجل .

(٢) رجل عصى (العين والصاد) ؛ طعان .



الناس . ولم يخل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى عن اليهود سلام بن مشكم  
ونهبان بن أبي أنف وشاس بن قيس ومالك بن الصيف ، قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم . قال  
النفاس : لم يبق يهودى يقولها ، بل انقضىوا ، فإذا قالها واحد فتيوجه أن تزم الجماعة شتمه  
للقالة ، لأجل نهاية القائل فيها . وأقوال النباه أبدا مشهورة في الناس يخرج بها . فمن  
ها هنا صح أن يقول الجماعة قول نبيها . والله أعلم . وروى أن سبب ذلك القول أن اليهود  
قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرفع الله عنهم التوراة وعماها من قلوبهم ، فخرج عزير  
يصيح في الأرض ، فأذه جبريل فقال : " أين تذهب ؟ " قال : أطلب العلم ، فعلمه التوراة  
مكلمها بغاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلمهم . وقيل : بل حفظها الله عزيرا كرامة منه  
له ، فقال لبني إسرائيل : إن الله قد حفظني التوراة ، بفعلوا يدرسونها من عنده . وكانت  
التوراة مدفونة ، كان دفنها علماءهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب ، وقتل  
يُختصر إياهم . ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي متساوية لما كان عزير يدرس ،  
فضلوا عند ذلك وقالوا : إن هذا لم يتبا لعزير إلا وهو ابن الله ، حكاة الطبري . وظاهر  
قول النصراني أن المسيح بن الله ؛ إنما أرادوا بنوة النسل ، كما قالت العرب في الملائكة .  
وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما . وهذا أشنع الكفر ، قال أبو المعالي :  
أطبقت النصراني على أن المسيح إله وأنه ابن إله . قال ابن عطية : ويقال إن بعضهم  
يمتقدها بنوة حق ورحمة . وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البتة عليه ، وهو كفر .

الثالثة - قال ابن العربي : في هذا دليل من قول ربنا تبارك وتعالى على أن من  
أخبر عن كفره الذي لا يجوز لأحد أن يتدبى به لأخرج عليه ، لأنه إنما ينطق به على معنى  
الاستعظام له والرد عليه ، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد ، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد  
لُذّن بالإخبار عنه ، على معنى إنكاره بالقلب واللسان ، والرد عليه بالحق والبرهان .



الرابعة - قوله تعالى : ( ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ) قيل : مثله لما كذب ؛ كقوله تعالى :  
 « يَكْتُمُونَ الْكَلْبَ بِأَيْمِهِمْ » وقوله ، « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » وقوله ، « لَوْلَا ضَعْفُ  
 فِي الصُّورِ نَفْثَةُ وَاحِدَةٍ » ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قول ساذج ليس فيه بيان  
 ولا برهان ، وإنما هو قول بالتم مجزء نفس دعوى لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن  
 الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ؛ فهو كذب وقول لاسي فقط ، بخلاف  
 الأقوال الصحيحة التي تمسدها الأدلة ويقوم عليها البرهان . قال أهل المعاني : ان الله  
 سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً ؛ كقوله : « يَقُولُونَ  
 بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » و « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »  
 و « يَقُولُونَ بِاللَّيْلِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »

الخامسة - قوله تعالى : ( يَصْهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ) و « يَصْهَتُونَ »  
 يشابهون ؛ ومثله قول العرب : امرأة ضياءً للتي لا تحيض أو التي لا تدى لها ؛ كأنها أشبهت  
 الرجال . وللعلماء في « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأول - قول صيدة الأوثان : الآلات  
 والمزى ومناة الثالثة الأخرى . الثاني - قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثالث -  
 قول أسلافهم . فقلدهم في الباطل وأبعوهم على الكفر ؛ كما أخبر عنهم بقوله ، « إِنَّا وَجَدْنَا  
 آبَاءَنَا عَلَى آثِمَةٍ »

السادسة - اختلف العلماء في « ضياء » هل يمد أم لا ؛ فقال ابن ولاد : امرأة ضياءً  
 وهي التي لا تحيض ؛ مهموز غير ممدود . ومنهم من يمد وهو صيويه فيجعلها على فعلاء بالمد ،  
 والهمزة فيها زائدة ؛ لأنهم يقولون نساء ضيى ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال في

- (١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة الحاقة .  
 (٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران . (٥) آية ٦ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة التفتح .  
 (٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزمزم .



النَّبِيِّينَ : ضِيَاءَ بِلَدٍ وَالْمَاءِ . جَمَعَ بَيْنَ صِلَاتِي تَأْتِي ؛ حَكَاهُ عَنْ أَبِي عَمْرِو الشَّيْثَانِي فِي الْوَادِعِ . وَأَنْشَدَ :

• ضِيَاءُ أَوْ عَاقِرٌ جَدُّدٌ •

أَبْنُ عَطِيَّةٍ : مَنْ قَالَ « بِضَاهُوتُنْ » مَأْخُذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : امْرَأَةٌ ضِيَاءٌ فَقَوْلُهُ خَطَأٌ ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ ، لِأَنَّ الْمَذْمُومَةَ فِي « ضَاهَا » أَصْلِيَّةٌ ، وَفِي « ضِيَاءٍ » زَائِدَةٌ كَحَمْرَاءَ .

السَّابِعَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ( قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفِكُونَ ) أَيْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ ، يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، لِأَنَّ الْمَلْعُونِ كَالْمَقْتُولِ . قَالَ أَبُو جَرِيحٍ : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ » هُوَ بِمَعْنَى التَّعْجِبِ . وَقَالَ أَبُو عِيَّاسٍ : كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ قَتْلٌ فَهُوَ لَعْنٌ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ تَيْلَبٍ :

قَاتَلَهَا اللَّهُ تَلْعَانِي وَقَدْ طَلَسْتُ • أَتَى لِنَفْسِي إِفْسَادِي وَإِصْلَاحِي

وَحَكَى التَّفَاسُ أَنَّ أَوَّلَ « قَاتَلَ اللَّهُ » الدُّعَاءُ ، ثُمَّ كَثُرَ فِي اسْتِعْمَالِهِ حَتَّى قَالَهُ عَلَى التَّعْجِبِ فِي الْخَلِيرِ وَالشَّرِّ ، وَهُوَ لَا يَرِيدُونَ الدُّعَاءَ . وَأَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ :

بِاقَاتَلَ اللَّهُ لَيْسَ كَيْفَ تَعَجَّبِي • وَأَخْبَرَ النَّاسَ أَنِّي لَا أَبَالِيهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى : اأَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبْتَغَاهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( اأَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ) الْأَجْبَارُ جَمْعُ حَبْرٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْسُنُ الْقَوْلَ وَيَنْظُمُهُ وَيَتَقَنَّهُ بِحَسَنِ الْبَيَانِ عَنْهُ . وَمِنْهُ تَوْبُ حَبْرٍ أَيْ جَمْعُ الزُّنَّةِ . وَقَدْ قِيلَ فِي وَاحِدِ الْأَجْبَارِ : حَبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ . وَالْمُفْسِّرُونَ عَلَى فَتْحِهَا . وَأَهْلُ اللُّغَةِ عَلَى كَسْرِهَا . قَالَ يُونُسُ : لَمْ أَسْمَعْ إِلَّا بِكَسْرِ الْحَاءِ ، وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَبْعٌ يَرِيدُونَ مَدَادَ عَالَمٍ ، ثُمَّ كَثُرَ الِاسْتِعْمَالُ حَتَّى قَالُوا لِلدَّادِ حَبْرٌ . قَالَ الْفَرَّاءُ : الْكُسْرُ وَالْفَتْحُ

(١) فِي الْأَمْوَالِ « جَدَادٌ » بِالزُّنُونِ ، وَهُوَ تَعْرِيفٌ . وَابْتِجَاءٌ : الثَّانِيَةُ الَّتِي لَا يَنْبَغِيهَا .







قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنُورِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ  
إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ) أى دلائله وحججه على توحيده . جعل  
البراهين بمثابة النور لما فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام ؛ أى أن يُخمدوا دين الله  
بتكذيبهم . (بأنُورِهِمْ) جمع نُورَه على الأصل ؛ لأن الأصل فى قيم نُورَه ، مثل حوض  
وأحواض . (وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ) يقال : كيف دخلت «إلا» وليس فى الكلام  
حرف قىء ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزم القراء أن «إلا» إنما دخلت لأن فى الكلام  
طرفا من المتحد . قال الزجاج : الجحد والتحقيق لهما بذوى أطراف . وأدوات الجحد : ماء  
ولا ، وإن ، وليست ، وهذه لا أطراف لها يُنطق بها ، ولو كان الأمر كما أراد بلز كرهت  
إلا زيدا ، ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أبى . والتقدير : ويأبى الله كل شئ إلا أن  
يتم نوره . وقال علي بن سليمان : إنما جاز هذا فى «أبى» لأنها مع أو امتناع ، فصارحت  
لنفى . قاله الناس : فهذا حسن ؛ كما قال الشاعر :

وعل لى لم قريبا لى تركتها . أبى الله إلا أن أكون لما آتيت

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ  
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . (وَالْهُدَى)  
أى بالقرآن . (وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أى بالهجرة والبراهين . وقد أظهره على  
شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شئ منها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : «ليظهره»  
أى ليظهر الدين الإسلام على كل دين . قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول ميسى  
عليه السلام . وقال الشئبى : ذاك عند خروج المهدي ؛ لا يبق أحد إلا دخل فى الإسلام  
وأدى الجزية . وقيل : المهدي هو ميسى فقط ، وهو خير صحيح ؛ لأن الأخبار الصالح قد



نوارت على أن المهدي من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز حمله على عيسى .  
والحديث الذي ورد في أنه لا مهدي إلا عيسى غير صحيح . قال البيهقي في كتاب البعث  
والنشور : لأن راويه محمد بن خالد الحنفي وهو مجهول ، يروي عن ابن بن أبي عباس  
— وهو متروك — عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع . والأحاديث التي  
قبله في النصيص على خروج المهدي ، وفيها بيان كون المهدي من عترة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أصح إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هذا وزدناه بيانا في كتابنا ( كتاب التذكرة ) وذكرنا أخبار المهدي  
مستوفاة والحمد لله . وقيل : أراد « يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » في جزيرة العرب ، وقد فعل .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ  
لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْأَفِصَّةَ وَلَا يَتَّبِعُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الاولى — قوله تعالى : ( لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ) دخلت اللام على يفعل ،  
ولا تدخل على فعل ، لمضارعة يفعل الأسماء . والأخبار علماء اليهود . والرهبان مجتهدو النصراني  
في العبادة . ( بِالْبَاطِلِ ) قيل : إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم  
الكفاس والبيع وغير ذلك ؛ مما يرمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى ؛  
وهم خلال ذلك يمجسون تلك الأموال ؛ كالذي ذكره سنان الفارسي عن الراهب الذي  
استخرج كثره ؛ ذكره ابن إسحاق في السير . وقيل : كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم  
ضرائب باسم حماية الدين وللقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون في الأحكام ؛ كما يفعله اليوم



كثير من الولاة والحكام . وقوله : ( **وَالْبَاطِلُ** ) يبيع ذلك كله . ( **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** )  
أى يمتنعون أهل دينهم عن الدخول في دين الإسلام ، وأتباع محمد عليه السلام .

الثانية - قوله تعالى : ( **وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ** ) الكثر أصله في اللغة  
الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة ، ألا ترى قوله عليه السلام : " **أَلَا أُخْبِرُكُمْ**  
**بِمَجِرٍ مَا يَكْتَرُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةَ الصَّالِحَةَ** " . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :  
ولم تزود من جميع الكثر • غير بخيوط و <sup>(١)</sup> وَيَبِثْ بَرِّ  
وقال آخر :

لَا دَرْدَرَى إِنْ أَطْعِمْتُ جَانَّتَهُمْ • قَرَفَ الْحَقِّيَّ وَعِنْدَى الْبُرِّ سَكَنُوزِ  
قرف الحقي هو سويق المقل . يقول : إنه تزل يقوم فكان قراه ضمم سويق المقل ،  
وهو الحقي ، فلما تزلوا به قال هو : لَا دَرْدَرَى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر  
لأنه مما لا يطلع عليه ، بخلاف سائر الأموال . قال الطبري : الكثر كل شئ بمجموع بضمه  
إلى بعض ، في بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسعى الذهب ذهباً لأنه يذهب ، والفضة  
لأنها تنفض فتفقر ، ومنه قوله تعالى : « **لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ** » وقد مضى هذا المعنى  
في آل عمران <sup>(٢)</sup> .

الثالثة - واختلفت الصحابة من المراد بهذه الآية ؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها  
أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأئمة ؛ لأن قوله : « **وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ** » مذكور بعد قوله :  
« **إِنْ كَثُرَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَا تَكُونْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** » . وقال أبو ذر وغيره : المراد  
بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة  
لقال : **وَيَكْتَرُونَ** ، وبشر والذين . فلما قال : « **وَالَّذِينَ** » فقد استأنف معنى آخر يبين أنه  
عطف جملة على جملة . فالذين يكترون كلام مستأنف ، وهو رفع على الابتداء . قال السدي :  
عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيه دليل على أن الكفار عديم

(١) الزيت : البالي ، واليز : نوع من التياب . (٢) المقل تمر شجر الدم ينجح و يرقل .  
(٣) داجع ج ٤ ص ٢٤٤ طبعه أدل أو ثانية .



مخاطبون بفروع الشريعة . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فانا  
 أنا باني فَرَقَلْتُ له : ما أتراك متراك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختطقت أنا ومعاوية  
 في « الذين يَكْتُمُونَ الذهب والفضة ولا يَتَّقُونَ الله » فقال معاوية : نزلت في أهل  
 الكتاب . قلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك . فكتب إلى عثمان يشكوني ،  
 فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ،  
 فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تَحَيَّيْتُ فكَتَمْتُ قريبا ، فذاك الذي أُنْزِلَ هذا للمقتل ،  
 ولو أمروا على حبشياً لسمعت وأطعت .

الرابعة — قال ابن خُوَيْرِمْ مَتَدَاد : تضمنت هذه الآية زكاة الدين ، وهي عجب بأربعة  
 شروط : حرية ، وإسلام ، وسوَلٌ ، ونصاب سليم من الدين . والنصاب مائتا درهم أو عشرون  
 ديناراً . أو يكفل نصاب أحدهما من الآخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا .  
 وإنما قلنا إن الحرية شرط ، فلأن المبد ناقص الملك . وإنما قلنا إن الإسلام شرط ، فلأن  
 الزكاة طهيرة والكافر لا تلحقه طهيرة ، ولأن الله تعالى قال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »  
 فخطب بالزكاة من خطب بالصلاة . وإنما قلنا إن الحول شرط ، فلأن النبي صلى الله عليه  
 وسلم قال : « ليس في مالي زكاة حتى يحول عليه الحول » . وإنما قلنا إن النصاب شرط ،  
 فلأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في أقل من مائتي درهم زكاة وليس في أقل  
 من عشرين ديناراً زكاة » . ولا يرأى كمال النصاب في أول الحول ، وإنما يرأى عند آخر  
 الحول ، لا نفاهم أن الربح في حكم الأصل . يدل على هذا أن من كانت معه مائتا درهم  
 فتجبر فيها فضاوت آخر الحول ألفاً أنه يؤدى زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فانا  
 كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك أعفوا أنه  
 لو كان له أربعون من الفهم ، فتواللت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلا واحدة منها ،  
 وكانت السحال ثمة النصاب فإن الزكاة تُخرج عنها .



**الخلاصة -** واختلف العلماء في المال الذي أُدِّيت زكاته هل يسمى كترًا أم لا، فقال قوم نعم - ورواه أبو القشعم من جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه، قال علي : أربعة آلاف فادونها ثقة، وما كثر فهو كتر وإن أدِّيت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدِّيت زكاته منه أو من غيره عنه قليس يكثر . قال ابن عمر : ما أدَّى زكاته فليس يكثر وإن كان تحت نسج أرضين، وكل ما لم يؤدَّ زكاته فهو كتر وإن كانت فوق الأرض . ومثله من جابر، وهو الصحيح . وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالا فلم يؤدَّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيران يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيته يعني شذيقه ثم يقول أنا مالك أنا كترك - ثم تلا - « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ » الآية . وفيه أيضا عن أبي ذر، قال : انتهت إليه - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « والذي تصي بيده - أو والذي لا إله غيره أو كما حلف - ما من رجل تكون له إبل أو بئر أو فم لا يؤدِّي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأثمنه تكلؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أنحرها ردت عليه أولاهما حتى يقضى بين الناس » . فدل دليل خطاب هذين الحديين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر في صحيح البخاري هذا المعنى . قال له أعرابي : أخبرني عن قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ لِلنَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال ابن عمر : من كثرها فلم يؤدَّ زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال . وقيل : الكثرة ما فضل عن الحاجة . روى عن أبي ذر، وهو مما قل من منعه، وهو من شدائده وما آخرد به رضي الله عنه .

**قلت :** ويحتمل أن يكون يحمل ما روى عن أبي ذر في هذا، ما روى أن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال ما يشبههم، وكانت السنون الجوائح حاجمة عليهم، فتهووا من إمسالك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز أخذها للذهب والفضة في مثل ذلك الوقت .



فما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أرواحه على الله عليه وسلم حتى نعيم ما دامه  
 ول حشرين ديناراً نصف دينار ، ولم يوجب لكل واحد منهم منة الشكر فكان ذلك  
 ما دام الله عليه وسلم . وقيل : أكثر ما لم تؤد الحقوق المطلوبة : كفت الأسم  
 وإطعام الجائع وغير ذلك . وقيل : أكثر لغة المجموع من التقدير ، وغير ما من المال يجوز  
 عليهما بالتقاس . وقيل : المجموع منهما ما لم يكن حلياً ، لأن الحلي ما ذون في اقتضاه ولا حق  
 فيه . والصحيح ما بدأنا به ذكره ، وأن ذلك كله يسمى كتاباً لغة وشراً . والله أعلم .

السادسة - واختلف العلماء في زكاة الخيل؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه . وهو قول للشافعي بالعراق؛ ووقف فيه بعد ذلك .  
 وهصر وقال : استخير الله فيه . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي وفي ذلك كله  
 الزكاة . لاحتج الأولون فقالوا : قصد التماء بوجبه الزكاة في العروض وهي ليست بعمل  
 لإيجاب الزكاة ، كذلك قطع التماء في الذهب والفضة بإتخاذهما حلياً للقيمة يسقط الزكاة .  
 احتج أبو حنيفة بصوم الأفاط في إيجاب الزكاة في التقدين ، ولم يفرق بين حلي وغيره . وقرئ  
 لأبيث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صنع حلياً لينزبه من الزكاة ، وأسقطها فيما كان منه يبيع  
 ونحوه . وفي المذهب في الخيل تفصيل ، يبيته في كتب الفروع .

السابعة - روى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : **وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ** قال : **كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ** فقال عمر : **لَنَا أُنُوجٌ عَنْكُمْ** ؛ فَاذْهَبُوا فَقَالَ : **يَا نَجِيَّ اللَّهِ** ؛ إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَهْلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ . فقال : **إِنِّي لَمْ يَفْرُسِ الزَّكَاةَ إِلَّا لِعُطِيبٍ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ - وَذَكَرَ كَلِمَةً - لَتَكُونَ لِي بِمَدَنِيٍّ** قال : فكبرهم . ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"إِلَّا أَخْبِرَكَ بِخَيْرٍ مَا يَكْتُمُ الْمَرْءُ الصَّالِحَةُ إِنَّا نَنْظُرُ إِلَيْهَا سِرَّهُ وَإِنَّمَا أَمْرُهَا أَطَاعَتُهُ وَإِنَّمَا غَضَبُهَا حِفْظُهَا"** . وروى

(۲) ما بين التبيين وجوب من خضع الامم • فهو يهودى منى • والى كنهى الامم •



الرجلة وعنه عن عمران أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد فزع الله سبحانه  
النخب والفضة فلو لمنا أين المال خير حتى نكسبه . فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، نسأله فقال : « لساننا ذكر وقلب شاكِر وزوجة تعين للمرء على دينه » .  
قال حديث حسن .

لثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونها ؛ فيه  
لأجوبة ستة : الأول - قال ابن الأثير : قصد الأظلم والأحم وهو الفضة ؛ ومثله  
قوله : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالْعِلَّةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ » رد الكناية إلى الصلاة لأنها أحم . ومثله  
« وَإِنَّا رَأَيْنَا إِتْرَارًا أَوْ لَمُورًا أَنْفَقُوا إِلَيْهَا » فأعاد الهماء إلى التجارة لأنها الأهم ، وترك اللهور ؛  
كثير من المفسرين . وأبى بعضهم وقال : لا يشبهها ؛ لأن دأبه قد فصلت التجارة من اللهور  
نَحْنُ عَرَدَ الضمير على أحدهما . الثاني - المكس ، وهو أن يكون « ينفقونها »  
للذهب والثاني مطوفا عليه . والذهب ثوبته الرب تقول : هي النخب الحمراء . وقد تذكر  
والثانيث أشهر . الثالث - أن يكون الضمير للكنوز . الرابع - للأموال المكتوزة .  
الخامس - لزيادة التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكتوزة . السادس - الاكتفاء  
بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى ، وهذا كثير في كلام العرب . أنشد سيويه ،  
نحن بما عندنا وأنت بما • هنالك راضٍ والرأي مختلف<sup>(١)</sup>  
ولم يقل راضون .

وقال آخر :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي • بِرِثَا وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ - رَمَانِي

ولم يقل برثين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

- (١) آية • سورة البقرة . (٢) آخر سورة البقرة . (٣) البيت لقبيس بن الحليم .  
(٤) هو ابن آخر ، واسمه عمرو . وصف في البيت وجلا كان به وجهه مشابة في بر - وهو الطوي -  
[ قد ذكرناه دماء بكره دوى أباه يمتلح على براسهما من أجل المشابة التي كانت بينهما . (من شرح الشواهد) .



إن شرخ الشباب والشعر الأسر • ود ما لم يُعاص كان جنواً

ولم يقل يعاصيا •

التاسعة — إن قيل : من لم يكثر ولم ينفق في سبيل الله وأتقى في المعاصي هل يكون حكمه في الوعيد حكماً من كثر ولم ينفق في سبيل الله • قيل له : إن ذلك أشد ؛ فإن من بذّر ماله في المعاصي عصي من جهتين : بالإتفاق والتناول ؛ كشراء الخمر وشربها • بل من جهات إذا كانت المعصية مما تمتدّى ؛ كمن أعان على ظلم مسلم من قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك • والكأز عصى من جهتين ، وهما منع الزكاة وحبس المال لا غير • وقد لا يراعى حبس المال ، والله أعلم •

العاشرة — قوله تعالى : ( فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) قد تقدّم معناه • وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : ” بَشِّرِ الْكَافِرِينَ بَكِّيَ في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبَكِّيَ من قبل أفقائهم يخرج من جباههم “ الحديث • أخرجه مسلم • رواه أبو ذر في رواية • ” بَشِّرِ الْكَافِرِينَ بِرَضْفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ في نار جهنم فيوضع على حَمَلَةٍ تَدْيِي أحدهم حتى يخرج من نُفُصِ كَتِفَيْهِ ويوضع على نُفُصِ كَتِفَيْهِ حتى يخرج من حَمَلَةٍ تَدْيِيهِ فيترزّل “ الحديث • قال علماءنا : ففروج الرضف من حَمَلَةٍ تَدْيِيهِ إلى نُفُصِ كَتِفَيْهِ لتعذيب قلبه وباطنه حين أمّنا بالفرج بالكثرة في المال والسرور في الدنيا ؛ فعوقب في الآخرة بالهم والعذاب •

الحادية عشرة — قال علماءنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كثر ولا ينفق في سبيل الله ، ويتعرض للواجب وغيره ؛ غير أن صفة الكثرة لا ينبغي أن تكون معتبرة ؛ فإن من لم يكثر ومنع الإنفاق في سبيل الله فلا بد وأن يكون كذلك ؛ إلا أن الذي يحضّر تحت الأرض هو الذي يُعْنَقُ إيقاقه في الواجبات عُرْفًا ، فلذلك خُصّ الوعيد به • والله أعلم •

(١) الرضف : الجارة المحمأة •

(٢) النفض (بالضم والفتح) : أعلى الكف ، وقيل : هو النظم الرقيق الذي على طرفة ١



قوله تعالى : يَوْمَ يُخَمِّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ  
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُتِبَ لَهُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَلَوْ قُوتُوا مَا كُنْتُمْ  
تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( يَوْمَ يُخَمِّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ) « يوم » ظرف ، والتقدير يذنبون  
يوم يُمَيَّ . ولا يصح أن يكون على تقدير : فيشرهم يوم يُمَيَّ عليها ؛ لأن البشارة لا تكون  
حينئذ . يقال : أحببت الحديد في النار ؛ أي أوقدت عليها . ويقال : أحيتة ؛ ولا يقال :  
أحيت عليه . وهاتان قولان عليها ؛ لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحياء ، ومعنى الإحياء  
الإيقاد . أي يوقد عليها فتكوى . الكي : إلصاق الحاز من الحديد والنار بالعضو حتى يحترق  
الجلد . والجباه جمع الجبهة ، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجبَّهت فلانا بكنا ؛  
أي استقبلته به وضربت جبهته . والجنوب جمع الجنب . والكي في الوجه أشهر وأشنع ،  
وفي الجنب والظهر ألم وأوجع ؛ فذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال علماء  
المعوية : لما طلبوا المال والجواهر من بين سائر الأعضاء . وقال علماء  
إنما جالسهم كُويت جنوبهم ، ولما استندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتادا عليها كُويت  
ظهورهم . وقال علماء الظاهر : إنما خص هذه الأعضاء لأن النبي - إذا رأى الفقير زوى  
ما بين عينيه وقبض وجهه . كما قال : (٢)

يزيد يَغْضُو الطرف عن كائنا • زوى بين عينيه على المحاجم

فلا ينسبط من بين عينيك ما انزوى • ولا تلقني إلا وأنفك راغم

وإذا ساله طوى كشمه ، وإذا زاده في السؤال واكثر عليه ولآه ظهره . فرتب الله المعوية  
على حال المعصية .

(١) طوى كشمه : إذا أغمضه . (٢) جمه وقبضه .

(٣) القائل هو الأعشى ؛ كما في اللسان .



الثانية - واختفت الآثار في كيفية الكي بذلك؛ ففى صحيح مسلم من حديث أبى ذر  
 ما ذكرنا من ذكر الرّضف . وفيه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 ”ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح  
 من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم  
 كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما  
 إلى النار“ . الحديث . وفى البيهقي : أنه يُثَلَّ له كتفه شجاعا أقرع . وقد تقدم في غير  
 الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤد زكاته طُوِّقه يوم القيامة  
 شجاعا أقرع ينقر رأسه

قلت : ولعل هذا يكون في مواطن : موطن يمثل المال فيه ثعبانا ، وموطن يكون  
 صفائح ، وموطن يكون رصفا . فتتغير الصفات والجسمية واحدة؛ فالشجاع جسم والمال  
 جسم . وهذا التمثيل حقيقة؛ بخلاف قوله : ”يؤتى بالموت كأنه كبش أملح“ فإن تلك طريقة  
 أخرى ، والله إن يفعل ما يشاء . وخُصَّ الشجاع بالذكر لأنه العدو الثاني للخلق . والشجاع  
 من الحيات هو الحية الذكر الذى يواثب الفارس والراجل ، ويقوم على ذنبه وربما بلغ الفارس ،  
 ويكون في الصحارى . وقبل : هو الثعبان . قال الثعلباني : يقال للحية شجاع ، وثلاثة أشجعة ،  
 ثم شجيمان . والأقرع من الحيات هو الذى تمتع رأسه وأبيض من السم . فى الموطأ ،  
 له زببتان ؛ أى نقطتان متفختان فى شذقيه كالترغوتين . ويكون ذلك فى شدى الإنسان  
 إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أم] غيلان بنت جرير : ربما أنشدت أبى حتى يترعب  
 شذقائى . ضرب مثلا للشجاع الذى أكثر منه فيمثل المسأل بهذا الحيوان فيلقى صاحبه غضبان .  
 وقال ابن جرير : نقطتان سوداوان فوق عينيه . ورواية : مثل له شجاع بنبه فيضطره  
 فيعطيه يده فيقصمها كما يقصم الفحل . وقال ابن مسعود : والله لا يصائب الله أحدا بكثر  
 فيمنس درهم درهم ولا دينار دينار ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على  
 حذقه . وهذا إنما يصح فى الكافر - كما ورد فى الحديث - لا فى المؤمن . والله أعلم



**الثالثة - أسد الطبري -** إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات رجل من أهل الصفة فوجد في بطنه دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْفَ " . ثم مات آخر فوجد له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْتَانِ " . وهذا إما لأنهما كانا بعيشان من الصدقة ومعهما الخير ، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام ، ثم قرر الشرع ضبط المال وأصله حقه . ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يُخرج كله ، وليس في الأمة من يترحم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر من أبي ذر فهو منذهب له ؛ رضي الله عنه . وقد روى موسى بن صبيدة عن عمران بن أبي أنس عن مالك بن أنس بن الحذثان عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من جمع ديناراً أو درهماً أو تمراً أو فضة ولا يُبذره لغيره ولا ينفقه في سبيل الله فهو أكثر يُكوى به يوم القيامة " .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه أن يقول به ، وأن ما فضل من الحاجة قليل بكثر إذا كان معداً لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلف يداً أو صُفراً كُوى بها مغفوراً له أو غير مغفور له ؛ إلا إن حلية السيف من ذلك . وروى توبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من رجل يموت وعنده أبيض أو أحمر إلا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوى بها من فرقه <sup>(١)</sup> إلى قدمه مغفوراً له بعد ذلك أو معدباً " .

قلت : وهذا محمول على ما لم تؤد زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هذا . فيكون التقدير : وعنده أبيض أو أبيض لم يؤد زكاته . وكذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه : من ترك عشرة آلاف جُمعت صفائح يعتب بها صاحبها يوم القيامة . أي لم يؤد زكاتها ، لئلا تنافض الأحاديث . والله أعلم .

**الرابعة -** قوله تعالى : ( هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْقَهُمْ ) أي يقال لهم هذا ما كنتم تحلف . ( فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ) أي عذاب ما كنتم تكفرون .



قوله تعالى : **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَلَبُّوا أَلْمُسْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** (٣٦)

قوله تعالى : ( **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ** ) فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ** ) جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلك الشهر؛ وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضي ذلك ثلاثة أشهر؛ لأنه أقل الجمع الذي يقتضيه صيغة مُعَوَّل في جمع فَعْل . ومعنى ( **عِنْدَ اللَّهِ** ) أى في حكم الله وفيما كتب في اللوح المحفوظ . ( **اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا** ) أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر » بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عشر » بجزم الشين . ( **فِي كِتَابِ اللَّهِ** ) يريد اللوح المحفوظ . وأعاد بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب في كتاب الله ؛ كقوله : « **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** » (١)

الثانية - قوله تعالى : ( **يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** ) إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك ، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها لما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه للترغيب . وهو معنى قوله تعالى : « **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا** » . وحكمها باق



على ما كانت عليه لم يزلوا عن تركها تمييزاً للمشركون لاستقامتها، وتقديم المفسم في الاسم منها .  
 والقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء  
 الشهور وتبديلها ، متعلقاً بالأحكام على الأسماء التي رتبها الله عليه ؛ ولذلك قال عليه السلام  
 في خطبته في حجة الوداع : « أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات  
 والأرض » على ما يأتي بيانه . وأن الذي فعل أهل الجاهلية من جعل الحزم صفرًا وصفر عزمًا  
 ليس يتغير به ما وصفه الله تعالى . والعامل في « يوم » المصدر الذي هو « في كتاب الله » .  
 وليس يعني به « واحد الكتب » لأن الأعيان لا تعمل في الظروف . والتقدير : فيما كتب الله  
 يوم خلق السموات والأرض . و « عند » متعلق بالمصدر الذي هو العينة ، وهو العامل فيه .  
 و « في » من قوله « في كتاب الله » متعلقة بمحذوف ، هو صفة لقوله « اثنا عشر » .  
 والتقدير : اثنا عشر شهرًا معدودة أو مكتوبة في كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بيته لما  
 فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بجزرات .

الثالثة - هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما  
 يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب ، دون الشهور التي تسميها العجم والروم والقيبط  
 وإن لم يزد على اثني عشر شهرًا ؛ لأنها خففة الأعداد ؛ منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص ،  
 وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص ، والذي ينقص ليس يتبين له  
 شهر ، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج .

الرابعة - قوله تعالى : ( مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ) الأشهر الحرم المذكورة في هذه الآية  
 هي القعدة وذو الحجة والحزم ورجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان ، وهو رجب مضر ، وقيل  
 له رجب مدبر لأن بيعة بن زرار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً . وكانت مضر  
 تحرم رجباً نفسه ؛ فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « للذي بين جمادى وشعبان »  
مدبر ما وقع له اسمه من الاختلال بالليل . وكانت العرب أيضاً تسميه تيسل الأينة .

(١) نحو القعدة ، حرمها جلالها . كما قالوا من رجب لها خمسة رجبين من رجبها .  
 قالوا له ، هذا الشهر حق عليه .



روى البخاري عن أبي رَجَاء العطاردي - واسمه عمران بن ملحان وقيل عمران بن تيم - قال : كما نريد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حصى من تراب ثم جئنا بالشاة فلبنا عليه ثم طُفنا به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا مُنْصَل الأُسنة ؛ فلم نَدْع رَحْمًا فيه حديدية ولا سهما فيه حديدية إلا نزعناها فألقيناه .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى الحساب الصحيح والعدل المستوفى . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « ذاك الدين » أى ذلك القضاء .  
مقابل : الحق . ابن عطية : والأصوب عندى أن يكون الدين هاهنا على أشهر وجوهه ، أى ذلك الشرع والطاعة . (القيّم) أى القائم المستقيم ، من قام يقوم . بمقتضى سيده ؛ من ساء يسود . أصله يقوم .

السادسة - قوله تعالى : ( فَلَا تَقْلُوبُوا فِينَ أَنْفُسِكُمْ ) على قول ابن عباس راجع إلى جميع المشهور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحرم خاصة ؛ لأنه إليها أقرب ولها منزلة في معظم الظلم ؛ لقوله تعالى : « فَلَا رَقَّتْ وَلَا فَسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ » . لأن الظلم في غيره هذه الأيام جائز على ما بينته . ثم قيل : في الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال ، ثم نسخ بإباحة القتال في جميع المشهور ؛ قاله قتادة وعطاء الخراساني والزهرى وسفيان الثوري . وقال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح أنه ما يحل للناس أن ينزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها ، وما نُسخت . والصحيح الأول ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بمحئين وتيقفا بالطائف ، وحاصرهم في شِوَال وبعض ذي القعدة . وقد قدم هذا المعنى في البقرة . الثاني - لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب ؛ لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة ، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمة متعددة ؛ فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . لا يخفى اطلاع الله في شهر الحرام في البلد الحرم ليس



توابعه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام . ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ بَآئِتِ مِنْكُمْ فَيَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

السابعة - وقد اختلف العلماء من هذا المعنى فيمن قتل في الشهر الحرام خطأ ، هل تنال عليه الدية أم لا ، فقال الأوزاعي : القتل في الشهر الحرام تنال فيه الدية فيما بلغنا وفي الحرم ، فتجعل دية وثلاث . ويزاد في شبه العمدة في أستان الإبل . قال الشافعي : تنال الدية في النفس وفي الجراح في الشهر الحرام وفي البلد الحرام وذوي الرحم . وروى عن القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن شهاب وأبان بن عثمان : من قتل في الشهر الحرام أو في الحرم زيد على دينه مثل ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبي ليلى : القتل في الحلال والحرم سواء ، وفي الشهر الحرام وغيره سواء ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سنّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتل خطأ في الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنة - خصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيها ففسرها لها ، وإن كان منبأ عنه في كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهل التأويل . أي لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : « فلا تظلموا فيمن أنفسكم » في الأضحية عشر . وروى قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال : فيمن كلهن . فإن قيل على القول الأول : لم قال فيمن ولم يقل فيها ؟ وذلك أن العرب يقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هن وهؤلاء ، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هي وهذه ، إرادة أن تصرف تسمية القليل من الكثير . وروى عن الكسائي أنه قال : إني لأستحب من فصل



العرب هذا . وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي : خلّون . وفيما فوقها خلّت . لا يقال : كيف جُصل بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أنه يفعل ما يشاء، ويخص بالفضيلة ما يشاء، ليس لعمله علة ولا عليه حرج، بل يفعل ما يريد. بحكمته، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : ( وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ) فيه مسألة واحدة ،

قوله تعالى : ( قَاتِلُوا ) أمر بالقتال . و ( كَافَّةً ) معناه جميعا، وهو مصدر في موضع الحال . أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عاقله الله عاقبة وطاقه عاقبة . ولا يثنى ولا يجمع . وكذا طاقه وخاصة . قال بعض العلماء : كان الفرض بهذه الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يعلم قط من شرع النبي صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا القتر، وإنما معنى هذه الآية الحضي على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة . ثم قيل ما بقوله : « كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » فيحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَرِينَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ( إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ) هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع فيما علمناه « إِنَّمَا النَّسِيءُ » بلا همز إلا وروى وحده . وهو مشتق من نساء ونساء إذا أخره ؛ حكى اللعين الكسائي . الجوهري : النسيء فيعمل بمعنى مفعول ؛ من فوك : ناسى الشيء فهو منسوء إذا أخره . ثم يحول منسوء إلى نسيء كما يحول مقتول إلى قتل . ورجل ناسى وقوم نساء ؛ مثل قاسق وضقة . قال الطبري : النسيء بالمعزة معناه الترياء ؛ يقال : نسا نسا إذا زاد . قال : ولا يكون ترك المعز إلا من النسيان ؛ كما قال تعالى :



«تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحٌ»، وردّ على نافع قراءته، واحتجّ بأن قال: إنه يتعدى بحرف الجر؛ يقال: نسأ الله في أهلك كما تقول زاد الله في أهلك؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من سرّه أن يسطر له في رزقه ويسأ له في أثره فليصل رحمه». قال الأزهري: أنسأت الشيء إنساه ونسيته؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقي. وكانوا يحزمون القتال في المحزم، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرموا صفراً بلله وقاتلوا في المحزم. وسبب ذلك أن العرب كانت أصحاب حروب وغارات، فكان يشقّ عليهم أن يمشوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها؛ وقالوا: لن نؤات ملياً ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً لنهلكن. فكانوا إذا صددوا عن مئى يقوم من بنى كائنه، ثم من بنى فقيم منهم رجل يقال له القامس؛ فيقول أنا الذى لا يردّ في قضاء. فيقولون: أنسنا شهراً، أى أحرمتنا حرمة المحزم واجملها في صفرة؛ فيحلّ لهم المحزم. فكانوا كذلك شهراً فشهرها حتى استندار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحزم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه. وهذا معنى قوله عليه السلام: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض». وقال مجاهد: كان المشركون يحجون في كل شهر عامين؛ فحجوا في ذى الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبى بكر التى حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة. ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة؛ فذلك قوله في خطبته: «إن الزمان قد استدار» الحديث. أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها، وماد الحج إلى ذى الحجة وبطل النسيء. وقول ثالث - قال إياس بن معاوية: كان المشركون يحسبون السنة اثني عشر شهراً ونحسة عشر يوماً؛ فكان الحج يكون في رمضان وفي ذى القعدة، وفي كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر زيادة الخمسة عشر يوماً. فحج أبو بكر سنة تسع في ذى القعدة بحكم الاستدارة، ولم يحج النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

(١) آية ٦٧ من سورة هود. (٢) الأثر الأول؛ وهو: لا يحج المسلم عامه من أرضه في الأرض، قال من مات لا تترك له حجة ولا يحج لأهله في الأرض أثر. (من فتح البطلان).



في العشر ، ووافق ذلك الأيلة . وهذا القول أشبه بقول النبي صلى الله عليه وسلم :  
 " إن الزمان قد استدار " . أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي فيه الله يوم خلق  
 السموات والأرض بأصل المشروعية التي سبق بها عمله ، وهذا يحكمه . ثم قال : السنة  
 اثنا عشر شهرا . يتنى بذلك الزيادة التي زادوها في السنة — وهي الخمسة عشر يوما —  
 يحكمهم ؛ فتمين الوقت الأصل وبطل التحكم الجولي . وحكي الإمام المازري من أنطوارزقي  
 أنه قال : أول ما خلق الله الشمس أجراها في برج الحمل ، وكان الزمان الذي أشار به النبي  
 صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف ؛ فإنه لا يتوصل  
 إليه إلا بالنقل عن الأنبياء ، ولا نقل صحيح عنهم بذلك ، ومن ادعاه فليسنده . ثم إن النقل  
 يجوز خلاف ما قال ، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج ، ويجوز أن يخلق ذلك كله دفعة  
 واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس في برج الحوت وقت قوله  
 عليه السلام : " إن الزمان قد استدار " بينها وبين الحمل عشرون درجة . ومنهم من قال  
 عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل في أول من نساء فقال ابن عباس وقادة  
 والضحاك : بنو مالك بن كنانة ، وكانوا ثلاثة . وروى جوير من الضحاك عن ابن عباس  
 إن أول من فعل ذلك عمرو بن لحي بن قنعة بن خنيفة . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك  
 رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له جندة بن حوف ، وهو  
 الذي أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمهرري : من بني كنانة ثم من بني قنينة  
 منهم رجل يقال له القنيس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية : مالك بن كنانة . وكان  
 الذي على النبي يظهر بالرياسة لترئيس العرب إياه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

• ومنا ناسي التبر القنيس •

وقال الكلبي :

لما ألتفت إلى سنة • فغير ليل لها حراما

(١) ولما ألتفت إليه • لم يجد



قوله تعالى : ( زِيَادَةُ الْكُفْرِ ) بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر؛ فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت : « وما الرحمن <sup>(١)</sup> » في أمح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ <sup>(٢)</sup> » . وأنكرت بعث الرسل فقالوا : « أَتَبْرَأُ مِنَّا وَوَحْدًا تَنْبِئُهُ <sup>(٣)</sup> » . وزعمت أن التحليل والتحریم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتضية لشبهاتها ؛ فأحلت ما حرم الله . ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ( يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ حَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ حَامًا لِيُؤْثِرُوا عَذَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَمْ سَوْهُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ) فيه ثلاث قراءات . فقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يُضِلُّ » وقرأ الكوفيون « يُضَلُّ » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجاء « يُضَلُّ » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدي عن معنى ؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقدير : ويضل به الذين كفروا من قبل منهم . و ( الَّذِينَ ) في محل رفع . ويموز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقدير : يضل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » ، وكقوله في آخر الآية : « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » . والقراءة الثانية « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » بمعنى المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد ؛ لقوله تعالى : « زَيْنَ لَمْ سَوْهُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به ، أي بالنسي ؛ لأنهم كانوا يحسبونه فيضلون به . والماء في « يحلونه » ترجع إلى النسي . وروى عن أبي رجاء « يُضَلُّ » بفتح الياء والضماد ، وهي لغة ؛ قال : ضَلَّتْ أَضَلُّ ، وضَلَّتْ أَضِلُّ . ( لِيُؤْثِرُوا ) نصب بلام كي ؛ أي لِيُؤْثِرُوا . تواطأ القوم على كذا أي اجتمعوا عليه ؛ أي لم يحلوا شهرا إلا حرموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح ، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم صدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم ، وقرنوه بالحرم في التحريم ؛ وقاله عنه قطرب والطبري . وعليه يكون النسي بمعنى الزيادة ، والله أعلم .



قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ  
فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : ( مَا لَكُمْ ) « ما » حرف استنهام معناه التقرير والتوبيخ ؟  
التقدير : أى شيء يمنعكم عن كذا ؟ كما قول : مالك من فلان مُعْرِضًا . ولا خلاف أن هذه  
الآية نزلت خطابا على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ،  
وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتى ذكرها في آخر السورة إن شاء الله ،  
والنفر : هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ، يقال في ابن آدم : نَفَرَ إِلَى  
الْأَمْرِ يَنْفِرُ نَفُورًا . وقوم نفور ، ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ أَعْلَىٰ آدَابِهِمْ نَفُورًا » . ويقال  
في الدابة : نَفَرَتْ تَنْفِرُ ( بضم الفاء وكسر ها ) نفارا ونفورا . يقال : في الدابة نِفَارٌ ، وهو اسم  
مثل الحِرَان . ونفر الحاج من مَنَى قَرَأَ .

الثانية - قوله تعالى : ( أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ) قال المفسرون : معناه أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى  
نَهِمِ الْأَرْضِ ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن  
المبادرة إلى الخروج . وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله تَنَاقَلْتُمْ ، أدغمت التاء في اللام  
لفرقها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالسكن ، ومثله « اذْكُرُوا »  
« وَآذَارْتُمْ » « وَوَأَطِيعُوا » « وَذُكِّرْتُمْ » . وأنشد الكسائي :

قُولِي الضَّجِيجُ إِنَّمَا مَا أَسْتَأْنِفُ خَيْرًا • عَنَبَ الْمَنَاقُ إِذَا مَا أَتَابِعَ الْقَبْلُ<sup>(٢)</sup>

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء

(٢) صاف التثنية بوجه وبهاك سوا وسامه واسمك ، كذا في . والتعريف : القار من كل شيء .



وقرا الشمس « ثاقم » على الأصل . حكاه المهدوي . وكانت نبوك - ودعا الناس إليها -  
في حرارة القيظ وطيب انشار وبرد الغلال - كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي -  
فاستولى على الناس الكسل ، فقاعدوا وثاقلوا ؛ فوبخهم الله بقوله هذا ، وطاب طيبهم الإيثار  
للدنيا على الآخرة . ومعنى ( أَرْضَيْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ) أى بدلا ، التقدير : أرضيتم  
بتعيم الدنيا بدلا من تعيم الآخرة . فـ « حِينَ » تتضمن معنى البدل ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ تَنَاءَ  
بَلَعْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » (١) أى بدلا منكم .

وقال الشاعر (٢)

فليت لنا من ماء زمزم شربة • مبردة بانث على طهيات

ويروى : من ماء حنّان (٣) . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبردة . والطحيان : هود  
ينصب في ناحية النار للهواء ، يعلق عليه المساء حتى يبرد . طابهم الله على إيثار الراحة في الدنيا  
على الراحة في الآخرة ؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم  
لعائنة وقد طافت رابكة : « أبرك على قدر نصيبك » . أخرجه البخاري .

قوله تعالى : إِنْ تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا  
خَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

فيه مسألة واحدة - وهو أن قوله تعالى : ( إِنْ تَنْفَرُوا ) شرط ؛ فلذلك حذف منه  
النون . والجواب « يُعَذِّبُكُمْ » ، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا خَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكّد  
في ترك التغير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده  
أكثر من اقتضاء الفعل . فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

(١) قوله : « ودعا الناس إليها » قال ابن الصلي : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما يخرج  
في غزوة الاكثي حنا ماجرأته يرفع الوجه القى يصد له ، الا ما كان من غزوة نبوك فانه يينا الناس ليد الشفة  
ومدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزمزم . (٣) هو بل بن مسلم بن نهم الشكري ؛  
كما في اللسان . ولعل أنه الأصول الكندي . (٤) حنّان ، مكة .



الاعتضاء، وإنما يكون المقاب بالخبر عنه، كقوله: إن لم تفعل كما مئنتك بكتنا، كما ورد في هذه الآية. فوجب بمتضاها النفي للجهاد والخروج إلى الكفار لقاتلتهم من أن تكون كلمة الله هي العليا. روى أبو داود عن ابن عباس قال: «إلا تتفروا يذبكم منابا إليها» و«ما كان لأهل المدينة» إلى قوله — يعملون — نسخنا الآية التي تليها: «وما كان المؤمنون ليتفروا كافة»، وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة. (يذبكم) قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم. قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أطم من أين قاله، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو والنار في الآخرة.

قلت: هو ابن عباس نرجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن أبي عمير قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية «إلا تتفروا يذبكم منابا إليها» قال: فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم. وذكره الإمام أبو محمد بن عطية صرغوا عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فعمدت، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به. و«ألم» بمعنى مؤلم، أي موجه. وقد تقدم. (وَيَسْتَبِذُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) (١٢) تَوَعَّدُ أَنْ يَسْبِطَ لِرَسُولِهِ قَوْمًا لَا يَعْمَدُونَ عند استنفره لإياهم. قيل: أبناء فارس. وقيل: أهل اليمن. (وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا) عطف. والماء قيل لله تعالى، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم. والتأقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عينة النبي صلى الله عليه وسلم حرم عليه التأقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية، ذكره القشيري. وقد قيل: إن المراد به هذه الآية وجوب النفي عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم. وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء، فعلى هذا لا يجزئ الحمل على وقت ظهور المشركين، فإن وجوب ذلك لا ينقص بالاستدعاء، لأنه متعين. وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستغاثة يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبيل، إلا أن الإنعام إذا عين قوما ونههم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتأقلوا عند التحسين، ويصير بتعيينه فرضا على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم.

(١) آية ١٢ و ١٣ من هذه السورة. (٢) راجع ج ١ ص ١٩٨ طبعه دار الفكر.



قوله تعالى : **إِلَّا تَتَصَرَّوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا  
فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ لَكُمُ الْآيَةَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : **(إِلَّا تَتَصَرَّوْهُ)** يقول : يُخَيِّنُوهُ بِالْقَرَمَةِ فِي غُرُورَةِ تَبُوكَ . عاتبهم الله  
بعد أنصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى :  
إِنْ تَرَكْتُمْ نَصْرَهُ فَاللهُ يَتَكَفَّلُ بِهِ ؛ إِذْ قَدْ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوَاطِنِ الْقِتَالَةِ وَأُظْهِرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ بِالْقُبَّةِ  
وَالْعَمْرَةِ . وقيل : قَدْ نَصَرَهُ اللهُ بِصَاحِبِهِ فِي الْغَارِ بِتَأْيِيسِهِ لَهُ وَخَمَلِهِ عَلَى عَقْدِهِ ، وَبِوَفَائِهِ وَوَقَايَتِهِ  
لَهُ بِنَفْسِهِ وَمَوَاسَاتِهِ لَهُ بِمَالِهِ . قال الليث بن سعد : صاحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر  
الصديق . وقال سفيان بن عيينة : نرج أبو بكر بهذه الآية من المعصية التي في قوله :  
**إِلَّا تَتَصَرَّوْهُ** .

الثانية - قوله تعالى : **(إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** وهو نخرج بنفسه غاراً ، لكن  
بالجأتهم إلى ذلك حتى فعله ، فلهذا الفعل إليهم ورتب الحكم فيه عليهم ؛ فلهمنا يقتل المكره  
على القتل ويضمن المال التلف بالإكراه ؛ لإجائته القاتل والتلف إلى القتل والإخلاف .

الثالثة - قوله تعالى : **(ثَانِي اثْنَيْنِ)** أي أحد اثنين . وهذا كثنائين وثلاثة واربعة .  
فلما اختلف اللفظ قلقت : رابع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمعنى صير الثلاثة أربعة بنفسه  
والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال ؛ أي أخرجوه منفرداً من جميع الناس إلا من  
أبي بكر . واليا مل فيها « نصره الله » أي نصره منفرداً ونصره أحد اثنين . وقال علي بن  
سليان : التفسير يخرج ثاني اثنين ؛ مثل « وَاللَّهُ أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَأًا » . وقروا جمهور الناس

(١) آية ١٧ سورة نوح .



« ثاني » حسب الآية . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وفراة فرقة « ثاني » يسكون إليه .  
قال ابن عتيق : حكاه أبو عمرو بن الصلاء ، ووجهه أنه سكن إليه كتبها لها بالإلف .  
قال ابن عطية : فهي كقراءة الحسن « تَأْتِي مِنَ الرَّأْيِ » وكقول جرير :  
هو الخليفة فَأَرْضَوْا مَا رَضِيَ لَكُمْ « ماضى العزيمية مَا فِي حُكْمِهِ جَنْفٌ »

الرابعة - قوله تعالى : ( إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ) النار : تعب في الجبل ، يعني فاروقه .  
ولما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة قالوا : هذا شر شاغل لا يطلق ،  
فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتيهوه ورسدوه على باب مثله طول  
ليتهم ليقتلوه إذا خرج ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ،  
ودعا الله أن يحمي عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع على  
رؤوسهم تراباً ونهض ، فلما أصبحوا خرج عليهم علي رضي الله عنه وأخبرهم أن ليس في الدار  
أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . وتواعد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم مع أبي بكر الصديق للهجرة ، فدعما راحتيهما إلى عبد الله بن أرقط . ويقال ابن  
أريقط ، وكان كافراً لكنهما وثقا به ، وكان دليلاً بالطرق فاستأجراه ليدل بهما إلى المدينة .  
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَوْصَةٍ في ظهر دار أبي بكر التي في بني جُمح ونهضا  
نحو الفار في جبل ثور ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاة  
عاصم بن فهيرة أن يرعى غنمه ويريحها<sup>(١)</sup> عليهما ليلاً فيأخذ منها حاجتهما . ثم نهضا فدخلوا النار .  
وكانت أسماء بنت أبي بكر الصديق تأتيهما بالطعام ويأتيهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار ،  
ثم يتلوها عاصم بن فهيرة بالغتم فيُحْيِي آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بغائف معروف  
بغفاء الأثر ، حتى وقف على النار فقال : هنا اقطع الأثر . فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج  
على فم النار من ساعته ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما رأوا نسج العنكبوت  
أيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا وجعلوا في النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن رذعه عليهم .

(١) داجع ج ٢ ص ٢٩٩ طبعه أ.د. أ. كاتبة .

(٢) يريحها ، يرقها ١٥ .



النجار مشهور، وقصة سراقته بن مالك بن جشم في ذلك مذكورة. وقد روى من حديث  
إبي الدرداء وتوبان: أن الله عز وجل أمر حمامة فباختت على تسج الصنكوت، وجعلت  
توقد على بيضها، فلما نظر الكفار إليها ردم ذلك من النار.

الخامسة - روى البخاري عن عائشة قالت: استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وأبو بكر رجلا من بني الدليل هاديا خريتا، وهو على دين كفار قريش، فدفعنا إليه راحلتيهما  
وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحتيهما صبيحة ثلاث، فارتجلا وارتحل معهما  
حامس بن ثهمرة والدليل الدليل، فأخذهم طريق الساحل.

قال المهلب: فيه من الفقه اثنتان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة  
كما اتفق النبي صلى الله عليه وسلم هذا المشرك على يمينه في الخروج من مكة وعلى النافقين.  
وقال ابن المنذر: فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق. وقال البخاري في ترجمته:  
(باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام). قال ابن بطال:  
إنما قال البخاري في ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النسوة  
صلى الله عليه وسلم إنما عامل أهل خير على العمل في أرضها إذ لم يوجد من المسلمين من  
يتوب نتائجهم في عمل الأرض، حتى قوى الإسلام وأسكنى منهم أجلاهم عمر. وعامة الفقهاء  
يميزون استئجارهم عند الضرورة وبغيرها. وفيه واستئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد  
لهما. وفيه دليل على جواز الفرار بالدين خوفا من العدو والاستيفاء في الفيران وغيرها،  
والأبني الإنسان بيده إلى العدو توكلًا على الله واستسلاما له. ولو شاء ربكم لعضمه مع كونه  
معهم، ولكنها سنة الله في الأنبياء وغيرهم، ولن تجد لسنة الله تبديلا. وهذا أدل دليل على  
فساد من منع ذلك وقال: من خاف مع الله سواء كان ذلك نقصا في توكله، ولم يؤمن بالقدر.  
وهذا كله في معنى الآية، وفيه الحمد والهداية.



السادسة - قوله تعالى : ( إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ) هذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضى الله عنه . روى أصح وأبهر من ابن القيم عن مالك .  
 • ثاني اثنين إذ هما في النار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . هو الصديق . لحق تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة في كتابه . قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع .  
 ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر .  
 لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ( إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ) أى بالنصر والراية والحفظ والكلمة . روى الترمذى والحاوارى بن أبى أسامة قالا : حدثنا عفان قال حدثنا حماد قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في النار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ؟ فقال : " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما " . قال المحاسبى : يعنى معهما بالنصر والدفاع ، لا على معنى ما تم به الخلاق . فقال : " ما يكون من تجوى تلاتة إلا هو رابعهم " . فمعناه العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعة - قال ابن العربي : قالت الإمامية قبحها الله : حزن أبى بكر في النار دليل على جهله ونقصه ، وضعف قلبه ونزوله . وأجاب علماؤنا عن ذلك بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص ، كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه : " نِكَرَّمُ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ " . ولم ينقص موسى قوله : " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى " . قلنا لا تخف . وفى لوط : " وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ " . فهؤلاء العظماء صلوات الله عليهم قد وجدت عندهم التيقن نصاً ، ولم يكن ذلك طعنا عليهم ووصفا لهم بالنقص ، وكذلك فى أبى بكر . ثم هى عند الصديق احتمال ، فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . جواب ثان - إن حزن الصديق إنما كان خوفاً على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر ،

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) انشق (بالهم) : الحق وضعف الراى .

(٣) آية ٧٠ سورة مود . (٤) آية ٦٤ سورة طه . (٥) آية ٦٥ سورة التكوير .



ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصوماً، وإنما نزل عليه « وَأَنَّهُ بِصَلَاتِكَ مِنَ النَّاسِ » .

الثامنة - قال ابن العربي : قال لنا أبو الفضائل العبد<sup>(١)</sup> قال لما جال الإسلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَّيْدِي<sup>(٢)</sup> » وقال في محمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » لا يجرى لما كان الله مع موسى وحده ارتد أصحابه بعده، فرجع من هند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال في محمد صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » بقى أبو بكر مهتدياً موثقاً عالمياً جازماً قائماً بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاسعة - خرج الترمذي من حديث ثيب بن شريط عن سالم بن عبيد - له صحبة - قال : أغشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضى الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثَانِي » آتين إذ هما في النار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا « من » هما ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهذا قال بعض العلماء : في قوله تعالى « ثَانِي آتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ » ما يدل على أن الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ؛ لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً . وسمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثاني اثنين لقيامه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبي صلى الله عليه وسلم به أولاً . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ارتدت العرب كلها ، ولم يبق الإسلام إلا بالمدينة ومكة وجوانا<sup>(٣)</sup> ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاثلهم على

(١) آية ٦٧ سورة المائدة . (٢) اضطربت نسخ الأصل في هذا الاسم . والذى في كتاب أحكام القرآن لابن العربي الطبري : « أبو القضاة بن العبد » وفي النسخة المطبوعة « أبو الفضائل العبد » . (٣) آية ٦٢ سورة الشعراء . (٤) موضع بالبحرين .



ال دخول في الدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحق من هذه الجهة أن يقال في حقه ثاني اثنين .

قلت - وقد جاء في السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد اتفق الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح في خلافته مقطوع بخطه وتضييقه . وهل يكفر أم لا ، يختلف فيه ، والأظهر تكفيره . وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في سورة الفتح « إن شاء الله » والذي يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأئمة فضل الصديق على جميع الصحابة . فلا مبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البدع ، فإنهم بين مكفر تضرب رقبته ، وبين مبتدع مفسق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ، ثم بعده عثمان . روى البخاري عن ابن عمر قال : كنا نختار بين الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف في عثمان وعلى ، فالجمهور منهم على تقديم عثمان . وروى عن مالك أنه توفيق في ذلك . وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

للمباشرة - قوله تعالى : ( فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ) فيه قولان : أحدهما - على النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني - على أبي بكر . ابن العربي : قال علماؤنا وهو الأقوى ، لأنه تخاف على النبي صلى الله عليه وسلم من القوم ، فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكن جاشه وذهب روعه وحصل الأمن ، وأثبت الله سبحانه ثمته ، وألم الوكر هناك حماة ، وأرسل المنكوبت فسجحت بيتا عليه . لما أضعف هذه الجنود في ظاهرها الحس وما أقواها في باطن المعنى ! ولهذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمري نحن نناصر مع الصديق : « هل أتم تاركوا لي صاحبي إن الناس كلهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صدقت » رواه أبو الدرداء .

(١) في المسألة الثلاثة من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه » كبر السورة .

(٢) التام : يتبع معروف في البداية

(٣) المسألة الخاصة . راجع للمثبت بطوله في صحيح البخاري في باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه .



الطائفة عشرة - قوله تعالى : ( وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ) أى من الملائكة . والكناية  
 فى قوله « وأيده » ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والضميران بخفان ، وهذا كثير  
 فى القرآن وفى كلام العرب . ( وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ) أى كلمة الشرك . ( وَكَلِمَةً  
 لِّلَّذِينَ آمَنُوا ) قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعد النصر . وقرا الأعمش ويعقوب  
 « وكلمة الله » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم للقراء  
 لأن قراءة النصب بعيدة ، قال : لأنك تقول أعطى فلان غلام أبيه ، ولا تقول غلام أبى فلان .  
 وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هى العليا . قال النحاس :  
 الذى ذكره الفراء لا يشبه الآية ، ولكن يشبهها ما أنشد سيويه :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ • نَقَصَ الْمَوْتُ ذَا النِّفَى وَالنَّفْسِيَا

فهذا حسن جيد لا إشكال فيه ، بل يقول النحويون الحناني : فى إعادة الذكر فى مثل هذا  
 قائمة ، وهى أن فيه معنى التعظيم ، قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا • وَاتَّخَرَتِ  
 الْأَرْضُ أَنْفَالًا • هَذَا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة تكلم . ونعم تقول : هى كلمة بكسر الكاف .  
 وحكى الفراء فيها ثلاث لغات : كلمة وكلمة وكلمة مثل كبد وكبد وكبد ، وورق وورق وورق .  
 والكلمة أيضا القصيدة بطولها ، قاله الجوهري .

قوله تعالى : أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾  
 فيه سبع مسائل :

الأولى - روى سفيان بن حسين بن عبد الرحمن عن أبى مالك الغفارى قال : أوله  
 ما نزل من سورة براءة « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الشما كذلك أيضا . قال :  
 ثم نزل أولها وآخرها .



الثالثة - وأختلف في هذه الآية؛ فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الضُّمَمَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى» . وقيل: النسخ لما قوله «فَلَوْلَا تَفَرُّينَ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ» . والصحيح أنها ليست منسوخة . وروى ابن عباس عن أبي طلحة في قوله تعالى: «وَأَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا» قال شيبان وكهولاً، مسمع الله عُذْرُ أَحَدٍ . فخرج إلى الشام فهاهنا سقى مات مرضى الله عنه . وروى حماد عن ثابت وروى عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة «براءة» فأنه على هذه الآية «وَأَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا» فقال: «أى بخي، جَهْزُونِي جَهْزُونِي» . فقال: «بشوة» . يرحل الله! قد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى (١) - كذا في جميع الأصول - ولا حظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء، وهي قوله تعالى: «وَأَنْفِرُوا ثِقَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جِبَا» آية ٧٨ من ثبات، جميع ثبة، وهي الجملة من الناس . (٢) آية ٧٩ من هذه السورة . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .



مات، ومع عمر حتى مات، فنعن قزوهك . قال : لا ، جهزوني . ففزا في البحر فمات  
 في البحر، فلم يجدوا له جزة يدفعونه فيها إلا بدسمة أيام فدفعوه فيها، ولم يتغير رضى الله عنه .  
 وأسد الطبري عن رأى المقصد بن الأسود يحص على تابوت صراف ، وقد نضل على  
 التابوت من يمينه وهو يتجهز للزور . فقيل له : لقد عذرك الله . فقال : أنت ملينا سورة  
 البعوث « اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى القزوق قد  
 ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك لليل . فقال : استغفر الله الخفيف والثقيل ، فإن  
 لم يمكني الحرب كثرت التواد وحفظت المناع . وروى أن بعض الناس رأى في غزوات  
 للشام رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر؛ فقال له : يا عم ، إن الله قد مذكرك .  
 فقال : يا بن أُمي ، قد أمرنا بالتفرخفا وتقالا . ولقد قال ابن أم مكتوم رضى الله عنه  
 - واسمه عمرو - يوم أحد : أنا رجل أعمى ، فسلموا لى اللواء؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء  
 لتهزم الجيش ، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللواء يومئذ مصعب بن عمير  
 على ما تقدم فى آل عمران « بيانه . فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين .  
 قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها تغير الكل ، وهى :

الرابعة - وذلك إذا تعين الجهاد بتلبية العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالمقر،  
 فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفاقا وثقالا، شبابا  
 وشيوخا، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد  
 يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر . فإن غنم أهل تلك البلدة عن القيام بدورهم كان على  
 من قادهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة؛ حتى يعلموا أن فيهم طاقة  
 على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن مدورهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه  
 خيائهم لزمه أيضا الخروج إليهم؛ فالسالمون كلهم يد على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع العدو  
 أهل الناحية التى نزل العدو عليها واحتل بها سقطت الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو



فلو الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله وتنتهي الحجة والحجة  
للقوة ويُتَزَى المدعو . ولا خلاف في هذا .

وقسم ثان من واجب الجهاد - فرض أيضا على الإمام إغراء طائفة إلى العدو كل  
سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يُخْرِج مَنْ يثق به ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم ،  
ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم ، حتى يدخلوا في الإسلام أو يُعْطُوا الجزية عن يده .  
ومن الجهاد أيضا ما هو نافله ، وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة ، وبث السرايا  
في أوقات الفزة وعند إمكان الفرصة ، والإرصاد لهم بالرباط في موضع الخوف ، وإظهار  
القوة . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قصر الجميع ، وهى : -

الخامسة - قيل له : يعيد إلى أمير واحد يقديه ، فإنه لا تكفى الواحد قد أدى  
في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة ، فإن الأغنياء لو أقسموا بالله الأسارى ما أدى كل  
واحد منهم إلا أقل من درهم . ويغزو بنفسه إن قدر والآخر غزيا . قال صلى الله عليه  
وسلم : " من جهز غزيا فقد غزا ومن خلفه في أهله يغير فقد غزا " أخرجه الصحيح .  
وفلك لأن مكانه لا يفتي وماله لا يكتفى .

السادسة - روى أن بعض الملوك ما هد كفارا على ألا يمحسوا أسيراهم فحصل رجل من  
المسلمين جهة بلادهم فز على بيت مغلق ، فنادته امرأة أنى أسيرة ، فأبلغ صاحبك خبري ،  
فلما اجتمع به واستطمعه عنده وتجاذا ذيل الحديث ، انتهى الخبر إلى هذه المظنة ، فلما أكل  
حديته حتى قام الأمير على قدميه وتخرج غازيا من نوره ، ومضى إلى التفر حتى أخرج الأسيرة  
واشولى على الموضع ، رضى الله عنه . ذكره ابن العربي وقال : " ولقد نزل بنا القدر  
- قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، بغاس ديارنا وأسر غيرتنا وتوسط بلادنا  
في عدد حال الناس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه . فقلت للوالى والمولى عليه  
هنا عدو الله قد حصل في الشرك والشبهة ، فكن عندكم بركة ، ولنظهر منكم إلى نصره الدين  
للتينة عليكم حركة ، فيخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيعاط



يه ، لانه هالك لا محالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي ،  
وصار كل أحد من الناس ممثلاً يأبى إلى يبابه وإن رأى المكيدة يحاره . فإنا لله وإنا إليه  
راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

السابعة - قوله تعالى : ( وَجَاهِدُوا ) أمر بالجهاد ، وهو مشتق من الجهد ( بِأَمْوَالِكُمْ  
وَأَنْفُسِكُمْ ) روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاهدوا المشركين  
بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " . وهذا وصف لأكل ما يكون من الجهاد وأفعه عند الله تعالى .  
مغض على كمال الأوصاف ، وقدم الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز . فرتب  
الأمر كما هو في نفسه .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ  
بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا نَخْرُجَنَّ مَعَكَ  
وَيَسْلُكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾

لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله تفاق قوم . والعرض :  
ما يمرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنمة قريبة . أخبر عنهم أنهم لو دُعُوا إلى غنمة  
لَاتَّبَعُوهُ . ( عَرَضًا ) خبر كان . ( قَرِيبًا ) فته . ( وَسَفَرًا قَاصِدًا ) عطف عليه . وحذف  
أسم كان لدلالة الكلام عليه . التقدير : لو كان المدعو إليه عَرَضًا قريباً وسفراً قاصداً  
— أى سهلاً معلوم الطريق — لَاتَّبَعُوكَ . وهذه الكناية للنافعين كما ذكرنا ، لأنهم داخلون  
في جملة من غوطلب بالغير . وهذا موجود في كلام العرب ، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإحصار  
تأنيداً على بعضها ، كما قيل في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القيامة . ثم قال  
جل وعز : « ثُمَّ يُنْجِي الَّذِينَ آمَنُوا وَتَدْرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً » يعنى جل وعز جهنم . ونظير  
هذه الآية من السنة في المعنى قوله عليه السلام : " لو يعلم أحدكم أنه يجد عظماً سمياً



أَوْ مَرَاتَيْنِ حَسْبَيْنِ لَتَهْدِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . يقول : لو علم أحدهم أنه يحمد شيئاً حاضراً لمسيباً يأخذه لآتى المسجد من أجله . ( وَلَكِنْ بَدَّلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ ) حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كله غزوة تبوك . وحكى الكسائي أنه يقال شقة وشقة . قال الجوهري : الشقة بالضم من النياب ، والشقة أيضاً السفر البعيد وربما قالوه بالكسر . والشقة شَقِيَّةٌ تُشْغِلُ من لوح أو خشبة . يقال للفضبان : احتد فطارت منه شقة ، بالكسر . ( وَسَيَجْعَلُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا ) أى لو كان لنا سعة في الظهر والمال . ( نَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ) نظيره « وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فمرها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « زَادُوا رَاحِلَةً » وقد تقدم . ( يَكُونُونَ أَنْفُسَهُمْ ) أى بالكذب والنفاق . ( وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) في الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لِمَنْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ مَكَالَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لِمَنْ ) قيل : هو انتصاح كلام ، كما قول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » ؛ حكاية مكِّي والمهدي والنحاس . وأخبره بالعفو قبل التنبئ لئلا يطير قلبه فرقا . وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم ، فلا يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير ، حكاية المهدي واختاره النحاس . ثم قيل : في الإذن قولان : الأول — « لِمَ أَذْنَتْ لِمَنْ » في الخروج معك ، وفي خروجهم بلا عذبة ونية صادقة فساد . الثاني — « لِمَ أَذْنَتْ لِمَنْ » في القعود لما اعتلوا بأعذار ، ذكرهما القرطبي . قال : وهذا عتاب تلطف ؛ إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليه السلام أذن من غير وحى نزل فيه . قال قتادة وعمر بن ميمون : ثنَّان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر

(١) مراتين (بكر الميم) وقد فتق . تنجية مرعاة ، وهي ظف الناة ، أو ما بين ظفها من المم .

(٢) رابع = ص ١٥٣ طبة أول أرتانية . (٣) هرق بالصر يك : انثوث بالجزع .



جاء : إذنه لطافة من المنافقين في الخلق عنه ولم يكن له أن يمضي شيطا إلا بوحى ، وأخذ  
من الأسارى القدية ، فأتته الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما جرد منه ترك الأولى ،  
فقدم الله له التفوق على الخطأ الذي هو في صورة العتاب .

قوله تعالى : ( حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْبَيْنَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ) أى ليتبين لك من صدق  
من نفاق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف  
المنافقين ، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستاذن  
في الجلوس ، فإن أئذ لنا جلسنا ، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية  
بقوله في سورة النور : « فَإِنَّا لَسَدُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنزَلْنَا لِيَنبَغَ مِنْهُمْ » . ذكره النحاس  
في حاشي القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن  
يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ  
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٍ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ  
يَتَرَدَّدُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ( لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ) أى في التردد ولا  
في الخروج ، بل إنما أمرت بشيء ابتدروه ، فكان الاستفذان في ذلك الوقت من علامات  
التناقض لغير محذور ، ولذلك قال : ( إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٍ  
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ يَتَرَدَّدُونَ ) . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . فسختها إلى في النور . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - - إلى قوله -  
فقدور ربيهم . ( أَن يَجَاهِدُوا ) في موضع نصب بإضمار في ، عن الزجاج . وقيل : للتدبر



كراهية أن يحامدوا ، كقوله : « بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا » . ( وَأَرَبَّتْ قُلُوبُهُمْ ) شَكَتْ  
 فِي الدِّينِ . ( فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَنْتَدُونَ ) أى في شكهم بلعبون ويرجون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ  
 أَنْبِيَائِهِمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ) أى لو أرادوا الجهاد لجاهدوا  
 أئمة السفر . فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . ( وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِيَائَهُمْ )  
 أى خروجهم معك . ( فَتَبَطَّهْمُ ) أى حبسهم عنك وخذلهم ؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا  
 في الخروج أسدنا وحرضنا على المؤمنين . ويدل على هذا أن بعده « لَوْ نَحْرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ  
 إِلَّا خَبَالًا » . ( وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ) قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل ،  
 هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون هذا هو الإذن الذى تقدم ذكره . قيل ،  
 قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبا ، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو  
 جارة من الخذلان ؛ أى أوقع الله في قلوبهم القعود . ومعنى ( مَعَ الْقَاعِدِينَ ) أى مع أولي  
 الضرر والعيان والزمنى والنسوان والصبيان ،

قوله تعالى : لَوْ نَحْرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُدْرِكُوا  
 خَطْلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ هَمٌّ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾  
 قوله تعالى : ( لَوْ نَحْرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ) هو تسلية للمؤمنين في تخلف  
 المنافقين عنهم . والخيال : الفساد والنيمة وإفحام الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء  
 مقطوع ، أى ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخيال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم فيما يتهددون  
 من الرأى إلا خبالا ؛ فلا يكون الاستثناء مقطوعا .



قوله تعالى : ( وَلَا تَضَعُوا حِلَالَكُمْ ) المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاح :  
صرعة السير . وقال الزاير <sup>(١)</sup> :

بالبقي لما جَدَّعَ . أَخْبَ فيها وَأَضَعَ

يقال : وَضَعَ البعيرُ إذا مَدَا ، بَضَعَ وضعا ووضوا إذا أسرع السير . وأوضعه حمله  
على العدو . وقيل : الإيضاح سير مثلُ الخَجَب . والخلل الفرجة بين الشيتين ، والجمع الخلال ،  
أى الفُرَج التى تكون بين الصفوف . أى لأوضعوها خلالكم بالنيمة وإفساد ذات البين .  
( يَتَوَكَّمُ الْفِتْنَةَ ) مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة ، أى الإفساد والتحريض . ويقال :  
أبغته كذا أحسه على طلبه ، وبغته كذا طلبته له . وقيل : الفتنة هنا الشرك . ( وَفِيكُمْ  
مِمَّا هُوَ لَكُمْ ) أى عيون لم يغفلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم  
ويطيعهم . الخامس : والقول الأول أولى ، لأنه الأغلب من معنيته أن معنى سماع بسمع  
الكلام . ومثله « سَمَاعُونَ لِلْكَذِيبِ » . والقول الثانى - لا يكاد يقال فيه إلا سماع ،  
مثل قائل .

قوله تعالى : لَقَدْ أَيْتَنُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى  
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ <sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ( لَقَدْ أَيْتَنُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ) أى لقد طلبوا الإفساد والنجبال من قبل  
أن يظهر أمرهم ، ويقل الوحي بما أسروه وبما سيفعلونه . وقال ابن جرير : أراد اخي مشر  
وجلا من المنافقين ، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .  
( وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ) أى صرعوها وأجالوا الراى فى إبطال ما جئت به . ( حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ  
وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ) أى حِينَ ( وَهُمْ كَارِهُونَ ) .

(١) حروقه بن العسة : كالى اللسان . (٢) اتى فى كتب الله أنه يقال : وضع البعير وضعا  
صعوضا . أما الزمخشري فهو من صادر قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوا وضعة (فتح الضاد وكسرها) إذا أذلا .  
(٣) كذا سورة المائدة . (٤) الفتنة : الطريقة فى إبطال كالتب ، مائل الطريق المائل . والوداع :  
صاحبه وكذا : صفة الوداع لحسرة له .



قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ آمَنَّا لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي آفَافَةٍ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمِيعَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ سَأَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَسْوُلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ آمَنَّا لِي ) من إني بالذن . وإذا أمرت زدت همزة مكسورة وبداها همزة هي فاء الفعل ، ولا يجمع هزتان ، فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إني . فإذا وصلت زالت العلة في الجمع بين هزتين ، ثم هزمت فقلت : « ومنهم من يقول آمئن لي » . وروى ورش عن ثعلب : « ومنهم من يقول أوذن لي » خفف الهمزة <sup>(١)</sup> . قال النحاس : يقال إني لفلان ثم إني له ، أي الأولى والثانية واحدا بالثاء وياه قبل الذال في الخط . فإن قلت : إني لفلان وأذن لغيره كان الثاني بضم ياء ، وكذا الفاء . والفرق بين ثم والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان . قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلد بن ربيعة بن أبي بن سامة لما أراد الخروج إلى تبوك : « يا جد ، هل لك في جلد بني الأصفر تفخذ منهم سراري ووصفاء » فقال الجدد : قد عرف قومي أني مفرم بالنساء ، وإنني أخشى أن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهم ، فلا تفتني وأذن لي في القعود وأعينك بما لي ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « قد أذنت لك » فزلت هذه الآية . أي لا تفتني بصباحة وجوههم ، ولم يكن به حلة إلا الاتفاق . قال المهدوي : والأصفر وجل من الحبشة ، كانت له بنات لم يكن في وقتهن أجل منه ، وكان ببلاد الروم . وقيل : ثمنا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، فكان صفرًا <sup>(٢)</sup> ألسا . قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق نور . وأسند الطبري أن رسول الله

(١) أي أبدلها وأراد لنفسه اللام قبلها ، فيعلق باللام كأنها مصلة بواو الجماعة . (٢) اللس : سواد

اللة والثفنة . وقيل : اللس واللسة : سواد يطرشفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد في حمرة .



صلى الله عليه وسلم قال : " افترسوا ثيابكم بالأسفر " فقال له الجسد : إني لنأ ولا فتناً بالنساء . وهذا مترع غير الأكل ، وهو أشبه بالثفاق والمحاق . ولما ترات قال النبي صلى الله عليه وسلم ليني سلمة - وكان الجسد بن قيس منهم : " من سيدكم يا بني سلمة ؟ " قالوا : جدد بن قيس ، غير أنه بخيل جبان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وائي داه أدوى " من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور . قال حسان بن ثابت الأنصاري فيه :

وسود بشر بن البراء لمجوده • وحق لبشر بن البراء أن يسودا

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله • وقال خذوه إني عائد غدا

( أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ) أى فى الإثم والمصيبة وقعوا . وهى الثفاق والتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم . ( وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ) أى مسيرهم إلى النار ، فهى مُحِيطٌ بهم .

قوله تعالى : ( إِنْ تَصَبَّقَ حَسَنَةً تَسْؤُمْ ) شرط ومجازاة ، وكذا ( وَإِنْ تَصَبَّقَ مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا ) عطف عليه . والحسنة : النعمة والظفر . والمصيبة الأنهرثم . ومعنى قولهم : « أخذنا أمرا من قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخسج إلى القتال . ( وَيَتَوَلَّوْا ) أى عن الإيمان . ( وَمَنْ فَرِحُونَ ) أى معجبون بذلك .

قوله تعالى : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ) قيل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أننا إن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما أن يقتل (١) أى أى عيب أتبعه . قال ابن الأثير : « والصواب أدأ بالهز ، وروضه أطلالاب ؛ ولكن فكما يمدى » إلا أن يمد من باب مدى يمدى مداه إذا ملك يرضى بطلن » .



فكون الشهادة أعظم حسنى لنا . والمعنى كل شئ بفضل وقدر . وقد قدم في الأعراف  
 إن العلم والقدر والكتاب سواء . ( هُوَ مَوْلَانَا ) أى ناصرنا . والتوكل تفويض الأمر إليهم  
 وقراءة الجمهور « يصيبتنا » نصب بن . وحكى أبو حيدة أن من العرب من يهزم بها . وقرا  
 طلحة بن مُصَرِّف « هل يصيبتنا » . وحكى عن أُعَيْن قاضي الرى أنه قرأ « قل لن يصيبتنا »  
 بنون مشددة . وهذا لحن ، لا يؤكده النون ما كان خيرا ، ولو كان هذا في قراءة طلحة  
 بلاز . قال الله تعالى : « هَلْ يُدْرِكُنَّ كَيْدَهُ مَا يَكْتُمُ <sup>(١)</sup> »

قوله تعالى : قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ  
 نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا  
 إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا ) والكوفيون يذهبون إلى أن « بِنَا » فاما لام  
 المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام ، كما قال جل وعز : « التائبون » لكثرة لام المعرفة في كلامهم .  
 ولا يجوز الإدغام في قوله : « قل تعالوا » لأن « قل » متصل ، فلم يجمعوا عليه ملتين .  
 والتربص الانتظار . يقال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الفناء . والحسن تأنيث  
 الأحسن . وواحد الحسين حسنى ، والجمع الحسن . ولا يجوز أن ينطق به إلا معزفا .  
 لا يقال : رايت امرأة حسنى . والمراد بالحُسَيْنِ النعمة والشهادة ، من ابن عباس  
 ومجاهد وغيرهما . واللفظ استفهام والمعنى توبخ . ( وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ  
 بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ) أى عقوبة تهلككم ، كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم . ( أَوْ بِأَيْدِينَا )  
 أى يؤذنا في قاتلكم . ( فَتَرَبَّصُوا ) تهديد ووعيد . أى انتظروا مواعد الشيطان إنا  
 منتظرون مواعد الله .



قوله تعالى : قُلْ لَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ  
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قال ابن عباس : نزلت في الجذ بن قيس إذ قال اتذن لي في القعود وهذا  
هال إيعيك به . ولفظ ( أنفقوا ) أمر ، ومعناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب  
في مثل هذا ، تأتي بأو ، كما قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

لمبني بنا أو أحسن لا ملومة • لبنينا ولا مقلية إن قلت

والعنى : إن أسأت أو أحسنت فتحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفتم طامعين  
أو مكرمين فإن يقبل منكم • ثم بين جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : وما متهم أن يقبل  
منهم فقامهم إلا أنهم كفروا بإله وبرسوله • فكان في هذا أدل دليل وهي : -

الثانية - على أن أعمال الكافر إذا كانت برا كصلة القرابة وجبر الكسب وإفاته  
لللهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها في الآخرة ، بيد أنه يُعظم بها في الدنيا . دليله ما رواه  
مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت : يا رسول الله ، ابن جُذعان كان في الجاهلية  
يصل الرحم ويعلم المسكين ، فهل ذلك نفعه ؟ قال : " لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب  
اغفر لي خطيئتي يوم الدين " . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويحزى بها في الآخرة وأما الكافر فيظلم  
حسنة ما عمل به بها في الدنيا حتى إذا أنضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يحزى بها " .  
وهذا نص . ثم قيل : هل يحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يعظم الكافر ويعطى بحسنة  
في الدنيا ، أو ذلك مقيد بمشيئة الله المذكورة في قوله : " عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ " وهذا  
هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسبه

(١) حوكتة مرة ، كافي كتاب الأمال لأبي عبد الله . (٢) آية هذه سورة الإسراء .



ظن الكافر، وإلا فلا يصح منه قرينة؛ لعدم شرطها المصحح لها وهو الإيمان . أو تمت  
 لصحة لأنها تشبه صورة حسنة للمؤمن ظاهراً . قولان أيضاً .

الثالثة - فإن قيل : فقد روى مسلم من حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله صلى  
 الله عليه وسلم : أي رسول الله ، أرايت أمورا كنت أتمت بها في الجاهلية من صدقة  
 أو عتاقة أو صلة ريم أيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسألت على  
 ما أسألت من خير " . قلنا قوله " أسألت على ما أسألت من خير " مخالف ظاهره للأصول ؛  
 لأن الكافر لا يصح منه التقرب لله تعالى فيكون مثاباً على طاعته ؛ لأن من شرط المتقرب  
 أن يكون مارقاً بالمتقرب إليه ، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى في الحديث :  
 إنك اكتسبت طيباً ما جميل في الجاهلية اكتسبت عادة جميلة في الإسلام . وذلك أن حكيماً  
 وصى الله عنه عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستين في الإسلام وستين في الجاهلية ، فأعق  
 في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بنير ؛ وكذلك فعل في الإسلام . وهذا واضح . وقد  
 قيل : لا يبعد في كرم الله أن يشبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه في حال  
 كفره من الآثام . وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافراً . وهذا ظاهر الحديث .  
 وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمان في عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم  
 أسلم ومات مسلماً بشرط عقل لا يقتل . والله أكرم من أن يضع عمله إذا حسن إسلامه .  
 وقد تأول الحربي الحديث على هذا المعنى قال : " أسألت على ما أسألت " ؛ أي ما تقدم لك  
 من خير عمله فذلك لك . كما تقول : أسألت على ألف درهم ، أي على أن أحرزها لنفسه .  
 والله أعلم .

الرابعة - فإن قيل : فقد روى مسلم عن العباس قال : قلت يا رسول الله [ إن ]  
 أبا طالب كان يحملك وينسرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم ، وجده في غمرات من  
 النار فأخرجته إلى محضاح " <sup>(١)</sup> . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل

(١) التحت : البعد .

(٢) الضحاح في الأسر ، مارق من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكمين . فاستأثره فأنقذه .



من الظلم ، فكان مع الضم شفاعته كاجله في أبي طالب . لما فيه بعد آخر القرطبي  
 هـ : ﴿ لَمْ تَقْتُلُوهُمْ نَفْسًا فَالْيَوْمَ لَكُمْ عُذْرٌ ﴾ . وقال ضياء من الكافرين : ﴿ لَمَّا لَمْ يَنْ شَائِعِينَ .  
 ولا حيدني سمح . . . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم ذكر عنده عنه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في صفحاح  
 من النار يبلغ كيبه يئلي منه دماغه » . من حديث العباس : « ولولا أنا لكان في الدرك  
 الأسفل من النار » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا  
 وَبِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ  
 إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾

فيهم ثلاث مسائل :

الأولى - : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ ﴾ « أن » الأولى في موضع  
 نصب ، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما منعه من أن يقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم .  
 وقرا الكوفيون « أن يقبل منهم » بإياء ، لأن النفقات والإففاق واحد .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ قال ابن عباس :  
 إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصل ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى  
 في تركها عقابا . فالفاق يورث الكسل في العبادة لا هالة . وقد هدم في « النساء » القول  
 في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء موعبا . والحمد لله .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾ لأنهم يشعرون فقرها  
 ومنعها متنا . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدم ،

(١) آية ٤٨ سورة المائدة . (٢) آية ١٠٠ سورة الشورى .

(٣) راجع ج ٢ ، صفحة ٤٤٤ طبعه أول مرة ثانية . (٤) لعل صويله : حديث الأعرابي .



قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَخْلِفُونَ بِأَلْفِهِ إِنْهُمْ لِمَنْكَرٍ وَمَا هُمْ مِنْكَرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ ﴿٥٧﴾

أى لا تسعس ما أعطيتهم ولا تمل إليه فانه استدراج . ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ) قال الحسن : المعنى باستدراج الزكاة والإفلاق في سبيل الله . وهذا اختيار الطبري . وقال ابن عباس وقادة : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالتعب في الجمع . وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيها ولا تأخير ؛ وهو حسن . وقيل : المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ مُتَاقِفُونَ ، فهم يتفقون كارهين فيعذبون بما يتفقون . ( وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) نص في أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضاء . ( وَيَخْلِفُونَ بِأَلْفِهِ إِنْهُمْ لِمَنْكَرٍ ) بين أن من أخلاق المنافقين الخلف بأنهم مؤمنون . نظيره : إِنَّا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ . والآية . والفرق الخوف ؛ أى يخافون أن يظهرها ما هم عليه فيقتلوا .

قوله تعالى : لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجًا ) كنا الوقف عليه . وفي الخط بآيتين : الأولى همزة ، والثانية عوض من التنوين ؛ وكذا [ رأيت ] جزاء . والملجأ الحصن ؛ من قادة وغيره . ابن عباس : الحرز ؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه بها ( بالتحريك ) وملجأ والتجأت إليه

( ١ ) أول سورة المنافقون . ( ٢ ) هذه عبارة الجوهري في صحاحه . والذى في اللسان والقاموس أنه يقال لجأ بها ، مثل منع منا . وعلى ما مثل خرج فرسا .



بمضى . والموضع أيضا لجأً وملجأ . والنليجة الإكراه . والجأته إلى الشيء اضطرته إليه .  
والجأته أمرى إلى الله أسندته . وعمر بن لُجْأ التميمي الشاعر؛ عن الجوهري . (أَوْ مَقَارَاتٍ)  
جمع مقارة؛ من غار يَغِير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من غَار يُغِيرُ كما قال الشاعر ؛  
الحمد لله مُسَانَا وَمُصَبَّحًا<sup>(١)</sup> .

قال ابن عباس : المقاراة الغيران والمراديب ، وهي المواضع التي يستتر فيها ؛ ومنه غار  
الماء وغارت العين . (أَوْ مُدْخَلًا) مقتبل من الدخول ؛ أي مسلكا نخفي بالدخول فيه ،  
وأماه لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصل فيه مدخّل ، قلبت التاء دالا ؛ لأن الدال  
مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُدْخَلٌ على مُتَعَلٍّ ، كما  
في قراءة أبيّ « أَوْ مُدْخَلًا » ومعناه دخول بعد دخول ، أي قوما يدخلون معهم . المهدوي :  
مُدْخَلًا من تدخل مثل تفعل إذا تكلف الدخول . وعن أبيّ أيضا مُسْدَخَلًا من اندخل ،  
وهو شاذ ؛ لأنّ ثلاثيه غير متعد عند سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وأبو إسحاق  
وابن محيصن « أَوْ مُدْخَلًا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : وبقرا « أَوْ مُدْخَلًا »  
بضم الميم وإسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثاني من أدخل يُدْخِل . كذا المصدر  
والمكان والزمان كما أسند سيبويه :

« مُقَارَ آيِنٍ هَامٍ عَلَى حَتَّى خُصْمَا » .

وروي عن قتادة وعيسى والأعمش « أَوْ مُدْخَلًا » بتشديد الدال وانخلاء . والجمهور  
يتشديد الدال وحدها ؛ أي مكانا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . (لَوْلَا إِلَهِه)

(١) - كذا في الصحاح جوهري « التيمى » . والصواب أنه « التيمى » . لأنه من تيم بن عبد مائة بن أذن بن طابحة .  
ومات عمر بن لُجْأ بالأهواز ، وكان يهاجى جريما . (عن الشعر والشعراء) . (٢) هذا صدر بيت لأمية بن

أبي الصلت . وعجزه :

« بِالْخَيْرِ صَبَّحْنَا وَبِالسَّامَا » .

(٣) هذا مجزئ لمجد بن ثور . ومصدره :

« وَمَا هِيَ إِلَّا فِي زَاوِيَةٍ » .

وصف امرأة كانت حنونة السن كانت تلبس اللقمة وهي من لباس الجوارى ، وهي توب قصير بلا كين تلبسه الصبية  
تخط فيه ، ويقال له اللب والبقيرة ، وكانت تلبسه وقت اغارة ابن همام على هذا الحى . وختم قيمة من ابن .  
(من شرح الشواهد) .



أَي لِرَجْعَا إِلَيْهِ . ( وَهُمْ يَجْحَدُونَ ) أَي يَسْرِعُونَ ، لَا يَرُدُّ وَجْهَهُمْ شَيْءٌ . مِنْ جَمْعِ الْفُرْسِ  
إِنَّا لَمْ يَرِدْهُ الْجَلَامُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

صُبُوحًا جُمُوعًا وَإِحْضَارَهَا • كَتَمْتَعَةَ السَّحَفِ الْمَوْقِدِ<sup>(١)</sup>

وَالْمَعْنَى : لَوْ وَجَدُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ لَوَلَّوْا إِلَيْهِمْ سَرْعِينَ هَرَبًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا  
وَإِنْ لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿١١﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ) أَي يَطْنُ طَيْكُ ؛ مِنْ قَسَادَةِ  
الْحَسَنِ : يَمِيكُ . وَقَالَ عَجَّادٌ : أَي يَرُوزُكَ وَيَسَالُكُ . التَّمَامُ : وَالْقَوْلُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ  
قَوْلُ قَسَادَةِ وَالْحَسَنِ . يَقَالُ : لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ إِذَا عَابَهُ . وَاتَّخَذَ فِي اللُّغَةِ الْعَيْبَ فِي السَّرِّ . قَالَ  
الْجَوْهَرِيُّ : اللَّزُّ الْعَيْبُ ، وَأَصْلُهُ الْإِشَارَةُ بِالْعَيْنِ وَنَحْوَهَا ، وَقَدْ لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ وَقُرِئَ بِهِمَا  
« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ » . وَرَجُلٌ لَمَزَ وَلَمَزَةً أَيْ حَيَابٌ . وَيَقَالُ أَيْضًا : لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ  
إِذَا دَفَعَهُ وَضَرَبَهُ . وَالْهَمْزُ مِثْلُ الْتَمَزَ . وَالْهَامِزُ وَالْهَازُ الْعِيَابُ ، وَالْهَمْزَةُ مِثْلُهُ . يَقَالُ : رَجُلٌ هَمْزَةٌ  
وَأَسْرَاءُ هَمْزَةٌ أَيْضًا . وَهَمْزَهُ أَيْ دَفَعَهُ وَضَرَبَهُ . ثُمَّ قِيلَ : اللَّزُّ فِي الْوَجْهِ ، وَالْهَمْزُ بَطْنُ الْغَيْبِ .  
وَصَفَّ اللَّهُ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَابُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَبْرِيقِ الصَّدَقَاتِ ،  
وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ فَقَرَاءَ لِعَطِيئِهِمْ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يُقَسِّمُ مَا لَا إِذْ جَاءَهُ حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ أَصْلُ الْخَوَارِجِ ، وَيُقَالُ لَهُ ذُو الْخَوْبِ بَصِيرَةُ التَّيْمِيِّ ؛ فَقَالَ :  
إَعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ : « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ » فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ  
أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ . وَعِنْدَهَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلْ  
هَذَا الْمُنَافِقَ . فَقَالَ : « مَا ذَا أَنْ يَحْتَدِّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي إِنْ هَذَا وَأَصْحَابُهُ يَقْرَمُونَ  
الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَتَابَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّبَةِ » .

(١) كَيْتَ لِأَمْرِئٍ يَمِيكُ . وَالْإِحْضَارُ : الْحَدُّ . (٢) الرُّوزُ : الْأَعْمَالُ وَالْحَسَنَاتُ .



قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ ) جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهم .

قوله تعالى : إِنَّمَا أَصْدَقَتْ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِمُ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾  
فيه ثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( إِنَّمَا أَصْدَقَتْ لِلْفُقَرَاءِ ) خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : « وَمَا مِنْ ذَابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا » .  
الثانية - قوله تعالى : ( لِلْفُقَرَاءِ ) تبين لمصارف الصدقات والمحل ؛ حتى لا يخرج عنهم . ثم الاختيار إلى من يقسم ؛ هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السرج للباب والباب للبار . وقال الشافعي : اللام لام التملك ؛ كقوله : المال لزيد وعمرو وبكر ، فلا بد من التسوية بين المذكورين . قال الشافعي وأصحابه : وهذا كما لو أوصى لأصناف معينين أو لقوم معينين . واحتجوا بلفظة « إِنَّمَا » وأنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف . وعصروا هذا بمحيط زياد بن الحارث الصدائي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومي جيشا فقلت : يا رسول الله ، أحسن جيشك فإنا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبته إلى قومي بجاه إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
(١) آية ٢ سورة محمد .



وسلم : " يا أبا صُداء المطاع في قومه " . قال : قلت بل من الله عليهم وهنالك ؛ قال : ثم جاءه  
وجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض  
في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى جزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء  
أعطيتك " رواه أبو داود والدارقطني . واللفظ للدارقطني . وحكى عن زين العابدين أنه  
قال : إنه تعالى علم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا  
بجميعهم ، فمن منهم ذلك فهو الظالم لم يرقهم . وتمسك علماءنا بقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا  
الصَّدَقَاتِ فَنَبَذْنَاهَا وَفُتِّرَتْهَا فَقَرَأَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ » . والصدقة متى أطلقت  
في القرآن فهي صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن آخذ الصدقة من  
أغنيائكم وأرذها على فقرائكم " . وهذا نص في ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنًا وسنة ؛ وهو  
قول عمر بن الخطاب وعلي بن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جاز  
أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أي صنف منها دفعت جاز . روى المنهال بن عمرو  
عن زريق بن حبيش عن حذيفة في قوله : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » قال ؛  
إنما ذكر الله هذه الصدقات لتعرف ، وإلى صنف منها أعطيت أجزأك . وروى سعيد  
ابن جبير عن ابن عباس « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » قال : في أيها وضعت أجزاء  
منك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال ليكن الطبري : حتى أدعى مالك الإجماع  
على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يعلم لم يخالف منهم على ما قال أبو عمر ، والله أعلم .  
آمين الربوبي : والذي جعلناه قبلاً بيننا وبينهم أن الأمة آخفت على أنه لو أعطى كل صنف  
حظه لم يجب تمجيده ، فكذلك نعم الأصناف مثله . والله أعلم .

**الطائفة ١** — واختلف علماء الثقة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمساكين على تسعة  
أقسام ، فلنحيط بطوبى بن الشكيب والقي وبن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من



المسكين . قالوا : الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه وبقية ، والمسكين الذي لا شيء له ؛ واحتجوا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته • وفق العيال فلم يُترك له سبيل<sup>(١)</sup>

وذهب الى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم أبو حنيفة والقاضي عبد الوهاب ، والوثن من الموافقة بين الشيئين كالالتحام ، يقال : حلوبته وفق عياله أى لما لب قدر كفايتهم لأفضل فيه ، عن الجوهري . وقال آخرون بالعكس ، فخلوا المسكين أحسن حالا من الفقير . واحتجوا بقوله تعالى : « أَمَا السَّيْفَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَمْشُونَ فِي الْبَحْرِ » . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال . وعصده بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يؤخذ من الفقر . وروى عنه أنه قال : « اللَّهُمَّ أَخِيْ مَسْكِيْنَا وَأَخِيْ مَسْكِيْنَا » . فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتأقضى الخبران ؛ إذ يستحيل أن يتعوز من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالا منه ، وقد استجاب الله دعاءه وقبضه وله مال مما آفاه الله عليه ، ولكن لم يكن معه تمام الكفاية ؛ ولذلك رهن درهمه . قالوا : وأما بيت الراعي فلا حجة فيه ؛ لأنه إنما ذكر أن الفقير كانت له حلوبة في حال . قالوا : والفقير معناه في كلام العرب المفقور الذي نُزعت فقره من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشد من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا فِي الْأَرْضِ » . واستشهدوا بقول الشاعر ،

لما رأى بُسْدَ النُّسُورِ طَلَّيْتُ • رَفَعَ الْقَوَائِمَ كَالْفَقِيرِ الْأَعْمَلِ<sup>(٢)</sup>

أى لم يطق الطيران فصار بمنزلة من أقطع عليه ولِصِقَ بالأرض . ذهب الى هذا الأعمشي وغيره ، وحكاه الطحاوي عن الكوفيين . وهو أحد قولَي الشافعي وأكثر أصحابه . والثاني

- (١) البسْد : الخراب . دليل الشعر . والعرب تقول : ما بسد ولا يبدى أى ما لا يورث ولا يورث عليه ؛ ويكنى بها من الإبل والنعم . (٢) آية ٧٩ سورة الكهف . (٣) الفقير (الكسر) والفقير والفقارة (فتحها) ؛ ما لا يخدم من نظام الصلب من دون الكمال الى السلب . (٤) آية ٥٧٥ سورة البقرة . (٥) حيث ليس عليه . اسم كثره فقارته بجمعه . طالعك لأخيه حتى لا يذهب ملازمته . طالعك وادج آخره حركات الى نظام ابتاح ؛ الواحد : لامة .



قول آخر : أن الفقير والمسكين سواء ، لا فرق بينهما في المعنى وإن اختلفا في الاسم ، وهو القول الثالث . وإلى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير ، وأنها صفتان ، إلا أن أحد الصنفين أشد حاجة من الآخر ، فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفًا واحدًا ، والله أعلم . ولا حاجة في قول من احتج بقوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ » . لأنه يحتمل تكون مستأجرة لهم ، كما يقال : هذه دار فلان إذا كان ما سكنها وإن كانت لغيره . وقد قال تعالى في وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَاسِعٌ مِنْ حَدِيدٍ » <sup>(١)</sup> فأضافها إليهم . وقال تعالى : « وَلَا تَزُولُ فِي السُّفَاهَةِ أُمُومُكُمْ » <sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم : « من باع عبدا وله مال » . وهو كثير جدا يضاف الشيء إليه وليس له . ومنه قولهم : باب الدار . وجعل الدابة ، وصرح القرم ، وشبهه . ويحوز أن يسموا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف ، كما يقال لمن أمتحن ينكبة أو دفع إلى بلية يسكين . وفي الحديث « مساكين أهل النار » وقال الشاعر .

مساكين أهل الحب حتى قبورهم • طيبا تراب التل بين القفار

وأما ما نأولوه من قوله عليه السلام : « اللهم أحيني مسكينا » الحديث . رواه أنس ، فليس كذلك ، وإنما المعنى ما هنا : التواضع لله الذي لا جبروت فيه ولا نخوة ، ولا كبر ولا بطر ، ولا تكبر ولا انحر . ولقد أحسن أبو المتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلهم • فأنظر إلى ملك في زى مسكين

فأك الذي عظم في الله رغبته • وذلك يصلح للدين والدارين

وليس بالسائل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كره السؤال ونهى عنه ، وقال في أمراء صوداء أبت أن تزول عن الطريق : « دَعُوها فَإِنَّهَا جِبَارَةٌ » <sup>(٣)</sup> . وأما قوله تعالى : « وَلِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمنع أن يكون لم يشيء والله أعلم . وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعي في أنهما صنفان مختلفان .

(١) آية سورة الحديد . (٢) آية سورة النور . (٣) آية سورة النور .



مالك في كتاب ابن مثنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمساكين السائل ؛ وروى عن ابن عباس وقالة الزهري ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسامة : الفقير الذي له المسكن والخادم الى من هو أسفل من ذلك . والمساكين الذي لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى اليها ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فانت من الأغنياء . قال : فإن لي خادما ؟ قال : فانت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين ، والمساكين من الأعراب الذين لم يجابروا ؛ وقالة الضمك . وقول سابع — وهو أن للمساكين الذي يخنس ويستكن وإن لم يسأل . والفقير الذي يتحمل ويقبل الشيء سرا ولا يخنس ؛ قاله حيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعكرمة والزهري — المساكين الطوائفون ، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقره أهل الكتاب . ويبقى .

الرابعة — وهي فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين ، هل هما صنف واحد أو أكثر ، تظهر ليعين أوصى بثلت ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثاني . ومن قال هما صنفان يضم الثلث بينهما أثلثا .

الخامسة — وقد اختلف العلماء في حد الفقر الذي يجوز منه الأخذ — بعد إجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لا يستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللعلي أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة مما يحتاج اليه منها جاز له الأخذ وإلا لم يكن ، ذكره ابن المنذر . ويقول مالك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال أبو حنيفة ، من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .



فأعتبر النصاب لقوله عليه السلام : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأرذلكم في فقرائكم ". وهذا واضح ، ورواه المفيز عن مالك . وقال الثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب ، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون فارما ، قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الثارقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما " . في إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ، قاله الثارقي رحمه الله . وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن علي وعبد الله قالا : لا تحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ؛ ذكره الثارقي . وقال الحسن البصري : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقدي عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الثارقي عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت للنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غني جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش " . فقيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهما " . وفي حديث مالك بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من سأل منك وله أوقية فقد سأل إلخافا والأوقية أربعون درهما " . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطى من الزكاة من له أربعون درهما ؟ قال نعم . قال أبو عمر : يحتل أن يكون الأول قويا على الاكتساب حسن التصرف . والثاني ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعي وأبو ثور . من كان قويا على الكسب والتحرف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يئنه ذلك من الناس فالصدقة عليه حرام . وأخرج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا تحل الصدقة لثني ولا لثي مائة مائة " رواه عبد الله بن عمر ،



وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبها الناس ؛ فقال : " إنها لا تصلح لثني ولا لمصحيح ولا لعاقل " أخرجه النسائي . وروى أبو داود عن عبيد الله بن مدي بن الخيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسالاهما ، فرفع فينا النظر ونفضه ، فرأنا جلدتين فقال : " إن شئكما أعطيتكما ولا حظ فيهما لثني ولا لثوب " مكتسب " . ولأنه قد صار غنياً بكسبه كفى غيره بما له فصار كل واحد منهما غنياً عن المسئلة . وقاله ابن خزيمة متذاداً وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يقول عليه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطبخها الفقراء ووقفها على الزمن باطل . قال أبو موسى الترمذي في جامعه : إذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فصدق عليه أجزاً عن التصديق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الشيخ الطبري : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه قصير مع قوته وصحة بذنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه وبقيته سنة فإنه يعطى الزكاة . ووجه ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر ما أفاء الله عليه قوت سنة ، ثم يعمل ما سوى ذلك في الكراع<sup>(١)</sup> والسلاح مع قوله تعالى : " وَوَجَدَكَ قَاتِلًا قَاتِيًا " . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بد له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غني ؛ وروى عن علي . واحسبوا بحديث علي من النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة من ظهر غنى استكثر بما من رخص جهنم " قالوا : يا رسول الله ، وما ظهر الغنى ؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه النسائي . وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحنفلية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يفيته فليمتا يستكثر من النار " . وقال الضعيف في موضع آخر " من جرح جهنم " . قالوا : يا رسول الله

(١) الكراع (الفرس) ، فم يجمع الخيل . وقاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .



وما ينبغي ؟ وقال الثعلبي في موضع آخر : وما النفي الذي لا تبغي معه المسئلة ؟ قال :  
 "قدر ما ينفيه ويشبهه" . وقال الثعلبي في موضع آخر : \* أن يكون له شبح يوم ويلة  
 أوليلة ويوم "

قلت : فهذا ما جاء في بيان الفقر الذي يحول معه الأخذ . ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضي  
 الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة ؛ ولكن تظاهرت الأخبار في أن الصدقات تؤخذ  
 من أغنياء المسلمين قرأة في قرااتهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء  
 أهل الكتاب . وقال أبو بكر العبيسي : رأى عمر بن الخطاب ذيقاً مكفوقاً مطروحاً على بابه  
 الملبية فقال له عمر : مالك ؟ قال : استكرت في هذه الجزية ، حتى إذا كُف بصري تركوني  
 وليس لي أحد يهود عليّ شيء . فقال عمر : ما أنصفت إننا ، فأمر له بقوة وما يصلحه .  
 ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية . وهم  
 ذنبي أهل الكتاب . ولما قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية ، وقابل  
 الجملة بالجملة وهي جملة الصدقة جملة للمصرف بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال لعلاء  
 حين أرسله إلى اليمن : « أخبرهم أن الله اقترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد  
 في قرااتهم » . فأخبرهم أهل كل بلد بركة بلده . وروى أبو داود أن زبانا أبو بعض الأسماء  
 بنت عمران بن حصين عن الصدقة ، فلما رجع قال لعمران : أين المال ؟ قال : والله  
 أرسلني ! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووطئناها  
 حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الثوري عن أبي بصير عن  
 حوثر بن أبي جحيفة [ عن أبيه ] قال : قدم علينا مصدق النبي صلى الله عليه وسلم لأخذ  
 الصدقة من أغنيائنا لجمعها في قراتنا فكانت فلاناً يقيمنا فأعطاني منها قلوماً . قال الثوري :  
 وفي الباب عن ابن عباس حيث كثر إلى جملة حديث حسن .



السادسة - وقد اختلف العلماء في قتل الزكاة عن موضعها على ثلاثة أقوال :  
 لاقتل ، قاله ثنّون وابن القاسم ، وهو الصحيح لما ذكرناه . قال ابن القاسم أيضا : وإن قُتل  
 بعضها لضرورة وأتت صوابا ، وروى عن ثنّون أنه قال : ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة  
 شديدة جازله قتل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ؛ فإن الحاجة إذا زلت وجب تخديمها على  
 من ليس يحتاج " والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يظلمه " <sup>(١)</sup> . والقول الثاني تنقل . وقاله مالك أيضا .  
 وحجة هذا القول ما روي أن معاذًا قال لأهل اليمن : إيتوني بجييس أو ليس أخذته منكم مكان القوة  
 والشعر في الصدقة فإنه أسير عليكم وأضع للهاجرين بالمدينة . أخرجه القارطبي وغيره .  
 والخميس لفظ مشترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : مئى بذلك لأن أول  
 من عليه الخمس ملك من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المحمل والجوهري أيضا . وفي هذا  
 الحديث دليلان : أحدهما - ما ذكرناه من قتل الزكاة من اليمن إلى المدينة ؛ فيتولى النبي  
 صلى الله عليه وسلم قسمتها ويضد هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » ولم فصل بين  
 فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثاني - أخذ القيمة في الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن  
 مالك في إخراج القيمة في الزكاة ؛ فأجاز ذلك مرة ومنع منه أخرى ، فوجد الجواز . وقال  
 أبو حنيفة بهذا الحديث . وثبت في صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه  
 وسلم " من بعت عنده [ من الإبل ] صدقة الجذعة وليست عنده [ جذعة ] وعنده حقة فإنه  
 يؤخذ منه وما أسبغرتا من شاتين أو عشرين درهما " . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم :  
 " أغنوم من سؤل هذا اليوم " يعني يوم الفطر . وإنما أراد أن يشترى بما يست حاجتهم ،  
 فأى شيء سأل حاجتهم جاز . وقد قال مالك : « حُذِرَ مِنْ أَنْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ » ولم يخص شيئا من  
 نوعه . ولا يفتح هذا أبى حنيفة سكتي دار بل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليه خمسة دراهم  
 فأسكن لها قديرا شيئا فإنه لا يجوز . قال : لأن السكتي ليس بمال .

(١) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يظلمه ولا يظلمه »

(٢) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يظلمه ولا يظلمه »

(٣) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يظلمه ولا يظلمه »

(٤) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يظلمه ولا يظلمه »



ووجه قوله « لا تجزى القيم » - وهو ظاهر المذهب - فلان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « في خمس من الإبل شاة وفي أربعين شاة » فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بماور به ، وإذا لم يأت بالماور به فالأمر باق عليه .

فقول الثالث - وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع ، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأول أصح . والله أعلم .

السابعة - وهل المتبرك مكان المال وقت تمام الحول فتزوق الصدقة فيه ، أو مكان المالك إذ هو المخاطب ؟ قولان . واختار الثاني أبو عبد الله محمد بن خُوَيْرِ مَنَاد في أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تباعا له ، فيجب أن يكون بالحكم فيه بحيث المخاطبة . كإن السيل فانه يكون غنيا في بلده فقيرا في بلد آخر ، فيكون الحكم له حيث هو .

مسئلة - واختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيرا مسلما فأنكشف في ثاقي حال أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنيا ، فقال مرة : تجزيه ومرة لا تجزيه . وجه الجواز - وهو الأصح - ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل لأصدقني الليلة بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تُصدقُ الليلة على زانية قال اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون تُصدقُ على غني قال اللهم لك الحمد على غني لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تُصدقُ على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق فأني فقيل له إنما صدقتك قد قبلت أما الزانية فلعلها كسفت بها عن زناها ولعل النبي يستبرئ فينق مما أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقة » . وروى أن رجلا أخرج زكاة ماله فأعطاهم أباه ، فلما أصبح علم بذلك ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « قد كُتِبَ لك أجر زكائك وأجر صلة الرحم فك أجزان » . ومن جهة أخرى أنه مرفوع له الاجتهاد في المعطى ، فإذا اجتهد وأعطى من بطنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .



وجه قوله « لا يَحْزَى » انه لم يضعها في مستحقها ، فاشبه العمد ، ولأن العمد والخطأ في ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أنظف على المساكين حتى يوصله إليهم .

الثامنة - فإن أخرج الزكاة عند محلها فهلكت من غير تضييع لم يضمن ؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجه بعد ذلك بئدة مهنتك ضَمِنَ ؛ لتأخيرها عن محلها فتعلقت بنتمه فذلك ضمن . والله أعلم

التاسعة - وإن كان الإمام يعدل في الأخذ والصرف لم يَسُحْ لآلِه أن يتولى الصرف بنفسه في النَّاسِ ولا في غيره . وقد قيل : إن زكاة النَّاسِ على أربابه . وقال ابن المَاجِشُون : ذلك إذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة ؛ فإن احتج إلى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفرق طعيم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة ، هذه أهمها .

للمعاصرة - قوله تعالى : ( وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ ) يعني السُّعَاءَ وَالْجَبَاءَ الذين يبيعهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكُّل على ذلك . وروى البخاري عن أبي حميد السَّاعِدِيِّ قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنس على صدقات بني سُلَيْم يُدْعَى ابْنُ اللَّثِيَّةِ ، فلما جاءه حاسبه . وأختلف العلماء في المقدار الذي يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافعي : هو الثَّمن . ابن جرير ومالك : يُعطون قدر عملهم من الأجرة ؛ وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطل نفسه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه في ما لهم ؛ كالمرأة لما سطت نفسها لحق الزوج كانت تغتفرها وفضة أرباعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تخسر بالثمن ، بل تعتبر الكفاية ثَمَنًا كان أو أكثر ؛ كرزق القاضي . ولا تعتبر كفاية الأعوان في زماننا لأنه إسراف محض . القول الثالث - يُعطون من بيت المال . قال ابن العربي : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) القاضي من المال ، هو المهرم والمهيرة ؛ وإنما يسمى قاضا إذا تحول قضا بعد أن كان قاضا .

(٢) اعطى في حقه ؛ قيل يتم الام وسكون القاء ، وسكن ضمها . وقيل يفتح اللام الشدة . والله أعلم .



أبي أويس وداود بن صيد بن زنبوعة، وهو ضعيف دليلاً، فإن الله سبحانه قد أخبر بهمهم فيها نصاً فكيف يظنون منه استقراء وسيراً . والصحيح الاجتهاد في قدر الأجرة ، لأن اليان في تمديد الأصناف إنما كان للعل لا للمحقق، عل ما تقدم .

وأختلفوا في العامل إذا كان هاشمياً؛ فتمه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحمل لأل عهد إنما هي أوساخ الناس " . وهذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فتلحق بالصدقة من كل وجه كرامة وتزيتها لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعي، ويعطى أبر عماله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بحث على بن أبي طالب مصدقاً، وبنته عاملاً إلى اليمن على الزكاة، وولّى جماعة من بني هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أقيم على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمي وفيه اعتباراً بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث علي ليس فيه أنه فرض له من الصدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى : ( وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ) على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعي والكتّاب والقسام والمشير وغيرهم فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ، فإن الصلاة وإن كانت متوجهة على جميع الخلق فإن تهتم بعضهم بم من فروض الكفاية ، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عامل فهو صدقة " قاله ابن العربي .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ( وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ) لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في الترتيل في غير قسم الصدقات؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بذبح سهم من الصدقة إليهم لضمهم إليهم . قال الزهري : المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً . وقال بعض المتأخرين : اختلف في صفتهم؛ قيل : هم صنف من الكفار



يعطون لثأفوا على الإسلام، وكانوا لا يسمون بالقهر والسيف، ولكن يسمون بالمعطاء والإحسان. وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تَسْتَفِن قلوبهم، فَيُعْطُونَ لِيَسْمَكُوا الإسلام في صدورهم. وقيل: هم قوم من عطاء المشركين لم أتباع يعطون لثأفوا اتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجمعها الإعطاء لمن لا يمتكّن إسلامه حقيقة إلا بالمعطاء؛ فكانه ضرب من الجهاد. والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان. وصنف بالقهر. وصنف بالإحسان. والإمام الناظر للسالمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سبيل لنجاته وتخليصه من الكفر. وفي صحيح مسلم من حديث أنس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - أَعْنَى لِأَنْصَارٍ - : "فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكَفَرٍ أَنَا لِقَهُمْ" الحديث - قال ابن إسحاق: أعطاهم بثأفهم ويتألف بهم قومهم. وكانوا أشرفاً؛ فأعطى إبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حُوَيْطِب بن عبد المزى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية. قال: فهؤلاء أصحاب الميثاق. وأعطى رجالاً من قريش دون المائة منهم غزوة بن نوفل الزهري، وعمر بن وهب الجُمَيْحِي، وهشام بن عمرو العامري. قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم. وأعطى سعيد بن ربُوعَ نَحْسِينِ بعيراً، وأعطى عباس بن مرداس السُّلَمِيَّ أبا عَمْرٍو قَلِيلَةً فَسَيَّطَلَهَا. فقال في ذلك:

كَانَتْ نِيَابًا تَلَفِيْثًا • بَجَرَى عَلَى الْمُهْرِ فِي الْأَجْرِ  
وَأَقَاظِي الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا • إِذَا هَجَّ النَّاسُ لَمْ أَهْجِ  
فَأَصْبَحَ نَهْيِي وَنَهْيُ الْعَيْدِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَالْأَقْرَعِ  
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تَدْرٍ • فَلَمْ أُعْطِ شَيْئًا وَلَمْ أُنْعَمِ

(١) الأجر: المكان الواسع الذي فيه حرمة وخشوة. (٢) العيد (مضمر): اسم فرس عباس ابن مرداس. (٣) ذو تدرا (بضم التاء): أي ذو جرم لا يتوق ولا يهاب؛ بقية قوة على دفع أعدائه.



إِلَّا الْاِسْلَامُ أُعْطِيَتْهَا • صَدِيقُ نَوَائِمِهِ الْأَرْبَعُ  
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَاسِبٌ • يَضُوقَانِ مِنْهَا فِي الْمَقْبَعِ  
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرَيْنِ مِنْهُمَا • وَمَنْ تَقِصَّ الْيَوْمَ لَا يُقْبَضْ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اذْهَبُوا فَأَقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ » • فَأَحْطَوْهُ حَتَّى رَضِيَ ، فَكَانَ ذَلِكَ قَطْعَ لِسَانِهِ • قَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمُ التَّضْيِيقُ بَيْنَ الْحَاوِثِ بَيْنَ مَقْعَةٍ أَيْنَ كَلْفَةٍ ، أَخُو النَّضْرِ بَيْنَ الْحَاوِثِ الْمَقْتُولِ بِسَدْرٍ صَبْرًا • وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَى الْطُّبَةِ ، فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِعَالٌ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضٍ مِلْحَةٍ فَهُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ رَحِمِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَقَاتِلَ دُونَهُ ، وَلَيْسَ عَيْنُ رِثْقٍ عَلَيْهِ • قَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَاسْتَمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالِكَ بْنَ عُوْفٍ بِنَ سَعْدِ النَّضْرِيِّ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قِبَائِلِ قَيْسَ ، وَأَمَرَهُ بِمُتَاوَرَةِ قَيْفٍ فَعَمِلَ وَضِيقٌ عَلَيْهِمْ ، وَحِصْنٌ لِإِسْلَامِهِ وَإِسْلَامِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، سَاحَا حَيْتُ بَنَ حِصْنٍ فَلَمْ يَزَلْ يَقْمُوزًا عَلَيْهِ • وَسَاحَا الْمُؤَلَّفَةُ مُتَفَاضِلُونَ ، مِنْهُمْ الْخَلِيدُ الْفَاضِلُ الْمُجْتَمِعُ عَلَى فَضْلِهِ ، كَالْحَارِثُ بْنُ حِشَامٍ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِرَامٍ ، وَعُكْرَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَسَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَمِنْهُمْ دُونَ هَؤُلَاءِ • وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَسَاحَا مِلْحَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ أَطْلَمُ بِهِمْ • قَالَ مَالِكٌ : بَلَنِي أَنْ حَكِيمُ بْنُ حِرَامٍ أُنْجِرَ مَا كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ فَتَصَدَّقَ بِهِ بِعَدِّ ذَلِكَ •

قُلْتُ : حَكِيمُ بْنُ حِرَامٍ وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الرَّزَّى طَاشَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً وَعَشْرِينَ سَنَةً ، سَتِينَ فِي الْإِسْلَامِ وَسَتِينَ فِي الْجَاهِلِيَةِ • وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْخَافِظَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَظِيمِ يَقُولُهُ : تَخَصُّصًا مِنَ الصَّحَابَةِ طَاشَا فِي الْجَاهِلِيَةِ سَتِينَ سَنَةً وَفِي الْإِسْلَامِ سَتِينَ سَنَةً ، وَمَلَأَا بِالْمَدِينَةِ سَنَةً أَوْجِعَ وَنَحْسِينَ ، أَحَدُهُمَا حَكِيمُ بْنُ حِرَامٍ ، وَكَانَ مَوْلَاهُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ قَبْلَ عَامِ الْفِيلِ ثَلَاثَ عَشْرَةِ سَنَةً • وَالثَّانِي حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بَنِ الْمُنْذَرِ بْنِ حِرَامِ الْأَنْصَارِيِّ • وَذَكَرَ هَذَا أَيْضًا أَبُو عَمْرٍو وَهَذَا الشُّهْرُزُّورِيُّ فِي كَلْبِ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ عِلْمِ الْحَدِيثِ لَهُ ، لَمْ يَذْكُرَا غَيْرَهُمَا • وَحُوَيْطِبُ ذَكَرَهُ



أمر الفرج الجرجاني في كتابه الوفا في شرف المصطفى . وذكره أبو عمر في كتابه المصنعة أنه  
لترك الإسلام بعد أربعين سنة ، ولعله وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حنن بن  
عوف أخو عبد الرحمن بن عوف أنه عاش في الإسلام سبعين سنة ، وفي الجماعة سبعين سنة ،  
وقد صدق المؤلفة قلوبهم معاوية وأبو لهب سفيان بن حرب . أما معاوية فبعد أن يكون منهم ،  
فكيف يكون منهم وقد اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم على وحي الله وقراءته وخطبه بنفسه .  
وأما حاله في أيام أبي بكر فاشهر من هذا وأظهر . وأما أبو لهب فلا كلام فيه أنه كان منسي .  
وفي متقدم اختلاف ، وفي الجملة فكلهم مؤمن ، ولم يكن فيهم كافر على ما تقدم ، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة - واختلف العلماء في بقائهم ، فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم بأن تقطع  
هذه المصنعة بجز الإسلام ، وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي . قال  
بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين - لعنهم الله -  
لجتمعت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط مهمهم .  
وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام .  
وأما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهري عنهم فقال :  
لا أعلم تساق في ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعل هذا الحكم فهم ثابت ، فإن كان أحد  
يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلتحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد دفع إليه .  
قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال  
ابن العربي : الذي عني أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا مهمهم كما كان  
وصول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم ؛ فإن في الصحيح : "بدأ الإسلام غربا وسعود كما بدأ" .

الرابعة عشرة - فإذا فرغنا على أنه لا يرد إليهم مهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراة  
الإمام . وقال الزهري : يُعطى نصف مهمهم لغار المساجد . وهذا مما يدل على أن الأصناف  
لثانية على لا مستحقون تسوية ؛ ولو كانوا مستحقين لسقط مهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى  
غيرهم ، كما رأيت في قوم معين فبأن أهدم لم يرجع نصيبه إلى من بقي منهم . والله أعلم



لخامسة عشرة - قوله تعالى : ( وَفِي الرِّقَابِ ) أى فى قَلْبِ الرِّقَابِ ؟ قاله ابن عباس وابن عمر؛ وهو مذهب مالك وقبره . فيجوز للإمام أن يشتري رقاباً من مال الصدقة يستفها من المسلمين؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جازته هذا تحصيل مذهب مالك، وروى عن ابن عباس والحسن، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد وقال أبو ثور : لا يتاع منها صاحب الزكاة نَسَمَةً يستفها بجزء ولاه . وهو قول الشافعي وأصحاب الزاى ورواية عن مالك . والصحيح الأول؛ لأن الله عز وجل قال : « وفي الرقاب » فإذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشتري رقبة فبعثها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشتري الفرس فيحمل عليه في سبيل الله . فإذا كان له أن يشتري فرساً بالكمال من الزكاة جاز أن يشتري رقبة بالكمال؛ لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ( وَفِي الرِّقَابِ ) الأصل فى الولاة ؛ قال مالك : هى الرقبة تعتق وولاؤها للمسلمين ، وكذلك إن أعطتها الإمام . وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم من بيع الولاة ومن هبته . وقال عليه السلام : « الولاة لِحُكْمَةِ النِّسْبِ لا يباع ولا يوهب » . وقال عليه السلام : « الولاة لمن أعتق » . ولا ترث النساء من الولاة شيئاً ؛ لقوله عليه السلام : « لا ترث النساء من الولاة شيئاً إلا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن » وقد وثق النبي صلى الله عليه وسلم أبنة حمزة من مولى لها النصف ولا يخه النصف . فإذا ترك المعتق أولاداً ذكوراً وإناثاً فالولاة للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاة إنما يورث بالتعصيب المحض ، والنساء لا تعصبن فبين فلم يرثن من الولاة شيئاً . فانهم نصب .

السابعة عشرة - وأختلف هل يُمان منها المكاتب ؛ فقبل لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لما ذكر الرقبة دل على أنه أراد العتق الكامل ، وأما المكاتب فإنما هو داخل فى كلمة التارمين بما عليه من دين الكتابة ، فلا يدخل فى الرقاب . والله أعلم . وقد روى عن مالك من رواية المدنيين وزيد عنه : أنه يُمان منها المكاتب فى آخر كتابه بما يقتضى .



وعن هذا جمهور العلماء في تأويل قول الله تعالى : « وفي الرقاب » . وبه قال ابن وهب  
والشافعي والليث والنخعي وغيرهم . وحكى علي بن موسى القمي الحنفى في أحكامه : أنهم  
اجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا في حق الرقاب ، قال اليكبا الطبرى : « وذكر وجهها<sup>(١)</sup>  
بينه في منع ذلك فقال : إن العتق إبطال ملك وليس بملك ، وما يدفع إلى المكاتب تمليك ،  
ومن حق الصدقة ألا تجزى إلا إذا جرى فيها التملك . وقوى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن  
الغارم في دينه بغير أمره لم يجزه من حيث لم يملك فلان لا يجزى ذلك في العتق أولى . وذكر  
أن في العتق بجزء الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل في دفعه للمكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا  
دفعه إلى العبد لم يملكه العبد ، وإن دفعه إلى سيده فقد ملكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء  
والعتق فهو قاض دينه ، وذلك لا يجزى في الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينص على معنى ما ذكرنا من جواز حق الرقبة وإعانة المكاتب  
مما ، أخرجه الثارططني عن البراء قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دثني  
على عمل يفرجني من الجنة ويصاعدني من النار . قال : «<sup>(٢)</sup> لن كنت أقصرت الخبطة لقد  
لمرضت المسألة<sup>(٣)</sup> أشتى النسمة وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أوليسا واحدا قال :  
« لا ، حتى النسمة أن تنفرد بتفتها وفك الرقبة أن تبين في ثمنها » وذكر الحديث .

الثامنة عشرة - واختلفوا في فك الأسارى منها ، فقال أصح : لا يجوز . وهو قول  
ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز ، لأنها رقبة ملكك بملك الرق فهو تخرج من رق إلى  
حتى ، وكان ذلك أحق وأولى من فكك الرقاب الذي بأيدينا ، لأنه إذا كان فك المسلم من  
رق المسلم عبادة وجازا من الصدقة ، فأخرى وأولى أن يكون ذلك في فك المسلم عن يده  
الكافر وفك .

القائمة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَالنَّارِينَ ﴾ هم الذين ركبهم الثمن ولا وفاء عنهم به ،  
ولا خلاف فيه . اللهم إلا من آذان في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

(١) أى القى . (٢) الذى فى أحكام القرآن فكاً : « وذكر وجهها حجة فى منع ذلك » ضاع  
(٣) أى بحت الخبطة نصية والمسألة راسمة كنية .



ويعطى منها من له مال وعليه دين يحيط به ما يقضى به دينه ، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وظالم فيعطى بالوصفين . وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار أبناها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تصدقوا عليه " . تصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرمانه : " خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك " .

الموقية بشرين - ويحوز التحمل في صلاح ويرآن يعطى من الصدقة ما يؤدي ما تحمل به . إذا وجب عليه وإن كان غنياً ، إذا كان ذلك يتخفف بما له كالفريم . وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وأجتنج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن عاريق قال : تحملت حمالة<sup>(١)</sup> فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : " أقم حتى تأتينا الصدقة فأنامرك بها " - ثم قال - بإقيصة<sup>(٢)</sup> إن المسألة لا تحمل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حمالة خلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمك ورجل أصابته جاعحة أجتاحت ماله خلت له المسألة حتى يصيب قواماً من ميسر - أو قال سيداناً من ميسر - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى النجاشة من قومه لقد أصابت فلانة فاقة خلت له المسألة حتى يصيب قواماً من ميسر - أو قال سيداناً من ميسر - فاسألوا من المسألة بإقيصة<sup>(٣)</sup> حتى يأكلها صاحبها<sup>(٤)</sup> . فقله : " ثم يمك " دليل على أنه غني ، لأن الفقير ليس عليه أن يمك . والله أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسألة لا تحمل إلا لأحد ثلاثة ذوى قهر مدقح أو لذى غرر مقطوع أو لذى دم موبح " . وروى عنه عليه السلام : " لا تحمل للصدقة لغنى إلا خمسة " الحديث . وسياتي .

(١) الحمالة (الفتاح) : ما يحميه الإنسان من غيره من دية أو ضماناً ، مثل أن تقع حرب بين فرقتين فتكفك فحمالة ، فدخل بينهم رجل يحمل ديات القتل ليصلح ذات الدين . والتحمل : أن يحملها عنهم من قسه . (من النهاية لابن الأثير) . (٢) أى حتى يقوموا على روس الأهداد فاقين ، إن قلنا أصابه فاقة الخ (٣) كذا رواية مسلم ، أى اضده سناً ، أو يؤكل سناً . وفى غير مسلم بالرفع . (٤) المنع : التندج به يضرب صاحبه إلى الضلال ، وهو القرباب - وقيل : هو سوء الحال الفقر . (٥) المنع : التندج به . (٦) هو أن يحمل دية نفسه فيها حتى يؤديها إلى أهله . القتل : وإن لم يؤديها قبل التحمل ، فموجب له .



الحادية والعشرون - واختلفوا، هل يُقضى منها دين الميت أم لا ، قال أبو حنيفة .  
 لا يؤدي من الصدقة دين ميت . وهو قول ابن المَوَازِ . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من  
 عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الغارم من عليه دين يُسجن فيه . وقاله  
 هلمناؤه وغيرهم : يقضى منها دين الميت لأنه من الصارمين ، قال صلى الله عليه وسلم :  
 " إنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلاحله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى " <sup>(١)</sup> .

الثانية والعشرون - قوله تعالى : ( وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ) هم الغزاة وموضع الرباط ، يُعطون  
 ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب  
 مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الجحاج والعمار . ويُؤثر عن أحد وإسحاق رحمهما الله أنهما  
 قالوا : سبيل الله الحج . وفي البخاري : ويذكر عن أبي لائس : حملنا النبي صلى الله عليه وسلم  
 على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعْتَقُ من [ زكاة ] ماله و يُعْطَى في الحج .  
 نخرج أبو محمد عبد الفتي الحافظ حدثنا محمد بن محمد الخياش حدثنا أبو غسان مالك بن يحيى  
 حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدي بن ميمون عن محمد بن أبي يعقوب عن عبد الرحمن  
 ابن أبي نهم ويكنى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأنته امرأة فقالت له :  
 يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجي أوصى بماله في سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال في سبيل  
 الله . فقلت : أما زيتها فيما سألت عنه إلا غمًّا . قال : فما تأمرني يا بن أبي نهم ، أمرها  
 أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيعتدون في الأرض ويقطعون السبيل ! قال :  
 قلت فما تأمرها ، قال : أمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك  
 وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ، ثلاثا يقولها .  
 قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان ؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فيتمنون  
 إليهم الحديث ، ويسعون في المسلمين بالكذب ، فيجازون الجواز ويطلبون عليه العطايا .

(١) الضياغ (بالفتح) : البغال وأصله مصدوخاع يضع ضياعا ، فسي البغال بالمصدمة كما قيل : من قامت

لهذه قفراء أي قفراءه . (٢) الزيادة عن صحيح البخاري .



وقال محمد بن عبد الحكم : ويصلى من الصدقة في الكراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكلب العدو من الخوذة ، لأنه كله من سبيل التزود ومغنته موقفه لمعطى النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة في ثلاثة سبل بن أبي حنيفة إطفاء لفتار .

قلت : وأخرج هذا الحديث أبو داود من بشير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حنيفة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وداه مائة من إبل الصدقة ، يعني دية الأنصارى الذى قُتل بغيره . وقال عيسى بن دينار : قيل الصدقة لغازي في سبيل الله ، قد احتاج في غزواته وظب عنه غناؤه ووفره . قال : ولا تحمل لمن كان معه ماله من الغزاة ، إنما تحمل لمن كان ماله فائضا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعى وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحبه : لا يُعطى الفارس إلا إذا كان فقيرا مقطوعا به . وهذه زيادة على النص ، والزيادة عنده على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك ممنوع هنا ، بل في صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لفتى إلا خمسة لغازي في سبيل الله أو لحامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فصنق على المسكين فأهدى المسكين للفتى " . رواه مالك مرسل عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا الحديث مفسرا لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسرا لقوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لفتى ولا لذي مرة سوى " . لأن قوله هذا يحمل ليس على عمومته بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لفتى أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه في سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يبقى به ماله ويؤدى منها دينه وهو عنها غنى . قال : وإذا احتاج الفارس في غزواته وهو غنى له مال غايه عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستقرض ، فإذا بلغ بلده أدى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم ، وزعم أنس بن تافع وغيره خالفوه في ذلك . هددوى أبو زيد وغيره



عن ابن عباس أنه قال : بطل من الزكاة القدرى وإن كان منه في غيره ما يكتبه من ماله وهو حق في يده . وهذا هو الصحيح ؛ فظاهر الحديث : « لا تحمل الصدقة ثنى إلا عمة » .  
وروى ابن وهب عن مالك أنه بطل منها الفزاة ومواضع الزباط ففردوا كانوا أو أغنياء .

الثالثة والمشرون - قوله تعالى : « وَأَبْنِ السَّبِيلَ » السبيل الطريق ؛ ونسب المسافر إليها ملازمته إياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن سألتني عن الموى فانا الموى • وأبن الموى وأخو الموى وأبوة  
والمراد الذى انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله ؛ فإنه يبطى منها وإن كان غنياً في بلده ، ولا يلزمه أن يشغل فتنه بالسف . وقال مالك في كتاب ابن محنون ،  
إننا وجد من يسلفه فلا يبطى . والأقول أصح ؛ فإنه لا يلزمه أن يدخل تحت مئة أحد وقد وجد مئة الله تعالى . فإن كان له ما يغيثه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل وروايتان ؛  
لشهور وأنه لا يبطى ؛ فإن أخذ فلا يلزمه رده إنا صار إلى بلده ولا إخراج .

الرابعة والمشرون - فإن جاء وأدعى وصفاً من الأوصاف ، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فاما الذين فلا بد أن يثبتوه ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويمكن به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [ عن أبيه ] قال : « كما عند النبي صلى الله عليه وسلم في صدر النهار قال : بغاء قوم حفاة عراة مجتأى الثمار أو العباة متقلدى السيوف ، طامتهم من مضر يمل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فامر بلالا ، فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم - الآية الى قوله - وقيامه والآية التى في الحشر » ولتنظر نفس ما قدمت لقدمه تصدق رجل من ديناره من درهم من ثوبه من صاع برة حتى قال - ولو بشق تمر » قال : بغاء رجل

(١) زيادة من صحيح مسلم . (٢) اجتاب التميمي ؛ فيه . والنادل (كسر النون) ؛ كل ثمة غلظة من لحم الأعراب ؛ كأنها أخذت من لونه لئلا ينفكها من السواد والياض . (٣) تمر ؛ ثمر .



من الأنصار بَصْرَةَ كادت كَفَّهُ تَمَيَّزَ عنها بل قد عجزت ، قال : ثم ستاج الناس حتى رأيت  
كُوثَيْنِ من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يَهْلِلُ كأنه مُبْهَجةٌ<sup>(١)</sup>  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : <sup>٢٠</sup> « من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من  
عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة كان عليه  
وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . فاكفى صلى الله  
عليه وسلم بظاهر حالم وحَثَّ على الصدقة ، ولم يطلب منهم يَتَنَّةً ، ولا استقصى هل عندهم  
مال أم لا . ومثله حديث أبرص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : من  
أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : <sup>٢١</sup> « إن في بني إسرائيل أبرص  
وأقرع وأعمى فأراد الله أن يطيهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال أي شيء أحب إليك  
فقال لَوْنٌ حَسَنٌ ويجلد حَسَنٌ ويذهب عني الذي قد قَذَرَنِي النَّاسُ قال فسمح فذهب عنه قذره  
وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأتى المسال أحب إليك قال الإبل — أو قال البقر ، شك  
إصحاق ، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال آخر البقر — قال فأعطى ناقة  
حُشْرَاء قال برك الله لك فيها قال فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك قال شَعْرٌ حَسَنٌ  
ويذهب عني هذا الذي قد قَذَرَنِي النَّاسُ قال فسمح فذهب عنه قال فأعطى شعرا حسنا قال  
فأتى المسال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا قال برك الله لك فيها قال فأتى الأعمى  
فقال أي شيء أحب إليك قال أن يرُدَّ الله إلي بصري فأبصره الناس قال فسمح فردَّ الله إليه  
بصره قال فأتى المسال أحب إليك قال النعم فأعطى شاة والدا فأنتج هذَانِ<sup>(٢٢)</sup> وولَدَ هذا قال  
فكان لهذا وإد من الإبل ولهذا وإد من البقر ولهذا وإد من النعم قال ثم إنه أتى الأبرص  
في صورته وهيئة فقال رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفرى فلا بلاغ لي اليوم إلا  
بأفه وبك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبتغ عليه في سفرى

(١) أي فضة مزمعة بذهب في إشرافه . (٢) كذا في الأصول وصحيح مسلم . ورواية البخاري ؛  
« شك إصحاق في ذلك أن الأبرص » بغير قفط « إلا » . (٣) أي صاحب الإبل والبقر .  
(د) الحبال : جمع حبل . والمراد الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق .



فقال له الملقوق كثيرة فقال له كافي أمرتك ألم تكن أبرصَ يَصدُّرك النَّاسُ فقيرا فأعطاك الله  
**فقال لها ورتت هذا المال كاذبا من كابر فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**  
**فقال وأنى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد على هذا فقال**  
**إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت قال وأنى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجل مسكين**  
**وابن سبيل انقطعت بي الجبال في سفرى فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى رد**  
**عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت**  
**ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله فقال أسألك مالك فأنما آتيتكم فقد رضى**  
**عنك ويخطط على صاحبيك .** وفي هذا أدل دليل على أن من ادعى زيادة على فقره من عيال  
 أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يكشف عنه إن قدر ؛ فإن في الحديث " فقال رجل  
 مسكين وابن سبيل أسألك شاة " ولم يكلفه إثبات السفر . فاما المكاتب فإنه يكلف إثبات  
 الكتابة لأن التزق هو الأصل حتى تثبت الحرية .

الخامسة والعشرون - ولا يجوز أن يعطى من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد  
 والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك  
 هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها ولد ابنه  
 ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتب ولا مذبّر ولا أم ولده ولا عبدا اعتق نصفه ؛ لأنه مأمور  
 بالإيتاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كفّ الفقير ، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين  
 هؤلاء ؛ ولهذا لا قبل شهادة بعضهم لبعض . قال : والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم وربما  
 يجزى فيصير الكسب له . وسمعت البعض عند أبي حنيفة بمثلة المكاتب . وعند صاحبيه أبي  
 يوسف ومحمد بمثلة حرّ عليه دين فيجوز أدائها إليه

السادسة والعشرون - فإن أعطاهما لمن لا تلزمه نفقته فقد اختلف فيه ؛ فمنهم من  
 جوزه ومنهم من كرهه . قال مالك : خوف المحمّدة . وحكى مطرّف أنه قال : رأيت  
 مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدي قال مالك : أفضل من رَضعت فيه زكاتك



قربائك الذين لا تقول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة " . واختلفوا في إعطاء المرأة زكاتها لزوجها ، فذكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز ، وخالفه أصحابه قائلين : يجوز . وهو الأصح لما ثبت أن زينب امرأة عبد الله أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أريد أن أتصدق على زوجي أيعزني ؟ فقال عليه السلام : " لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقة المطلقة هي الزكاة ، ولأنه لا نفقة للزوج عليها ، فكان بمنزلة الأجنبية . اعتل أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحديث محمول على التطوع . وذهب الشافعي وأبو ثور وأصحاب إلى إجازة ذلك ، إذا لم يصرفه إليها فيما يلزمه لها ، وإنما يصرف ما يأخذ منها في نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون - واختلفوا أيضا في قدر المصطفي ، فالنارم يعطى قدر دينه ، والفقير والمساكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما . وفي جواز إعطاء النصاب أو أقل منه خلاف يبنى على الخلاف المتقدم في حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ . وروى علي بن زياد وابن قانع : ليس في ذلك حد ، وإنما هو على اجتهاد الوالي . وقد تقلل المساكين وتكثر الصدقة فعطى الفقير قوت سنة . وروى المخيرة : يعطى دون النصاب ولا يئلفه . وقال بعض المتأخرين : إن كان في البلد زكاتان قد وحرث أخذ ما يئلفه إلى الأخرى . قال ابن العربي : الذي أراه أن يعطى نصابا ، وإن كان في البلد زكاتان أو أكثر ، فإن الغرض إعطاء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها فيه .

قلت : هذا مذهب أصحاب الرأي في إعطاء النصاب . وقد ذكره ذلك أبو حنيفة مع الجواز ، وإجازة أبو يوسف ، قال : لأن بعضه لحاجته مشغول الحال ، فكان القاضل من حاجته الحال دون المساكين ، وإذا أعطاه أكثر من مائتي درهم جملة كان القاضل من حاجته الحال قدر المساكين فلا يجوز . ومن متأخري الحنفية من قال : هذا إذا لم يكن له عيال



ولم يكن عليه دين، فإن كان عليه دين فلا بأس أن يعطيه ما في درهم أو أكثر، مقدار ما لو قضى به دينه يبقى له دون المائتين. وإن كان مُبِيلاً لا بأس أن يعطيه مقدار ما لو وزع على عياله أصاب كل واحد منهم دون المائتين؛ لأن التصديق عليه في المعنى تصديق عليه وعلى عياله. وهذا قول حسن.

الثامنة والمشرون - اعلم أن قوله تعالى : ( لِلْفُقَرَاء ) مطلق ليس فيه شرط وقيد بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط: منها ألا يكونوا من بني هاشم، وألا يكونوا ممن لا تلزم المتصدق نفقته. وهذا لا خلاف فيه. وشرط ثالث ألا يكون قوياً على الاكتساب؛ لأنه عليه السلام قال: " لا تحمل الصدقة لفتى ولا لذي مرة سيئ ". وقد تقدم القول فيه. ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحمل للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم. وقد روى عن أبي يوسف جواز صرف صدقة الهاشمي للهاشمي؛ حكاه الجا الطبري. وشذ بعض أهل العلم فقال: إن موالى بني هاشم لا يحرم عليهم شيء من الصدقات. وهذا خلاف الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبي رافع مولاة: " وإن مولى قوم منهم ".

الثامنة والمشرون - واختلفوا في جواز صدقة التطوع لبني هاشم؛ فالذي عليه جمهور أهل العلم - وهو الصحيح - أن صدقة التطوع لا بأس بها لبني هاشم ومواليهم؛ لأن علياً والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدقوا وأوقفوا أوقافاً على جماعة من بني هاشم، وصدقاتهم الموقوفة معروفة مشهورة. وقال ابن الساجشون ومطرف وأصمغ وابن حبيب: لا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ولا من التطوع. وقال ابن القاسم: يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع. قال ابن القاسم: والحديث الذي جاء: " لا تحمل الصدقة لأك عد " إنما ذلك في الزكاة لا في التطوع. وأختار هذا القول ابن خزيمة متناد، وبه قال أبو يوسف ومحمد. قال ابن القاسم: ويمسك موالاهم من الصدقين. وقال مالك في الواضحة: لا يعطى لأك عد من التطوع. قال ابن القاسم: - قيل له معنى مالكا - لمواليهم؟ قال: لا لأحد من الموالى.



فاحتججت عليه بقوله عليه السلام : " مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ " . فقال قد قال : " فمن أخت القوم منهم " . قال أصح : وذلك في البرِّ والحُرمة .

الموتية ثلاثين - قوله تعالى : ( فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ) بالنصب على المصدوحه مبيومه أى فرض الله الصدقات فريضة . ويموز الرفع على القطع في قول الكسائي ؛ أى من فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [ أنه ] قرئ به .

قلت : فربما إبراهيم بن أبي حنبله ، جعلها خبراً ، كما حملوه إنما زيد خارج

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

بين تعالى أن في المنافقين من كان يسطر لسانه بالوقية في أذية النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : إن مائتي حلفت له بأني ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أذنٌ سامعة . قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ؛ يستوى فيه الواحد والجمع . وروى عن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : هو أذن ، قال : مستمع وقابل . وهذه الآية نزلت في عتاب بن قشير ، قال : إنما عهد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث قاله ابن إسحاق . وكان نبتل رجلاً جسيماً ثائر شعر الرأس والحية ، آدم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلق ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلي نظر إلى نبتل بن الحارث " . السُّفْعَة ( بالضم ) : سواد مُشْرَب بجمرة . والرجل أسفع ؛ عند الجوهري . وقرئ : أذن ، بضم الهمزة وسكونها . ( قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ) أى هو أذن خير لا أذن شر ؛ أى يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ : قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بِالرَّفْعِ وَالتَّوْنِ ، الحسن وطعم في رواية أبي بكر . والبايون بالإضافة . وقرأ حجة وموحية . بالخفض . والبايون بالرفع حلف على . لذن ، والفتح . قل هو الله خير من رده



أَيُّهُ هُوَ مُسْتَمِعٌ خَيْرٌ لِمُسْتَمِعٍ شَرٍّ ، أَيْ هُوَ مُسْتَمِعٌ مَا يَجِبُ اسْتِمَاعُهُ ، وَهُوَ رَحْمَةٌ ، وَمِنْ خَفَضِ  
فِعْلِ الْعَطْفِ عَلَى « خَيْرٍ » . قَالَ النَّمَّاسُ ، وَهَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْغَرِيبَةِ بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَبَاهِدْ  
مَآئِينَ الْإِسْمِينَ ، وَهَذَا يَقْبَحُ فِي الْخَفُوضِ . الْمَهْدِيُّ : وَمِنْ جَرِ الرَّحْمَةِ فِعْلُ الْعَطْفِ عَلَى « خَيْرٍ »  
وَالْمَعْنَى يَسْتَمِعُ خَيْرٌ وَمُسْتَمِعٌ رَحْمَةٌ ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ الْخَيْرِ . وَلَا يَصِحُّ عَطْفُ الرَّحْمَةِ عَلَى  
لِلْأَوْتَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَصْدَقُ بِاللَّهِ وَيَصْدَقُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَالْإِلَامُ زَائِدَةٌ فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ . وَمِثْلُهُ  
« لِرَبِّهِمْ رَهْمُونَ » أَيْ يَرْهَوْنَ بِهِمْ . وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ : هُوَ كَقَوْلِهِ « رَدِفَ لَكُمْ » وَهِيَ عِنْدَ  
الْمُتَرَدِّدِ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَصْدَرٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْفِعْلُ ، التَّقْدِيرُ : إِيمَانُهُ لِلْأَوْتَيْنِ ؛ أَيْ تَصَدِّقُهُ لِلْأَوْتَيْنِ لِلْكَفَّارِ  
لَوْ يَكُونُ مَحْمُولًا عَلَى الْمَعْنَى ؛ فَإِنَّ مَعْنَى يُؤْمِنُ يَصْدَقُ ، فَتَدْنَى بِالْإِلَامِ كَمَا تَدْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :  
« مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ »

قَوْلُهُ تَعَالَى : يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ  
يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾  
فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْأَوَّلَى - وَرَوَى أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ اجْتَمَعُوا ، فِيمَا اجْتَلَسَ بَيْنَ سَوِيدٍ وَوَدِيعَةَ بْنِ  
ثَابِتٍ ، وَفِيهِمْ غُلَامٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُدْعَى عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ ، فَحَقَرُوهُ فَكَلَمُوا وَقَالُوا : إِنْ كَانَ  
مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَعْنِيَنَّ شَرًّا مِنَ الْخَيْرِ . فَغَضِبَ الْغُلَامُ وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّمَا يَقُولُ حَقًّا وَأَنْتُمْ شَرٌّ  
مِنَ الْخَيْرِ ؛ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِمْ ، فَحَقَرُوا أَنْ عَامِرًا كَانَتْ ، فَقَالَ عَامِرٌ : هُمُ  
الْكَاذِبَةُ ، وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ : أَتَقْسِمُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَنَا حَتَّى يَبَيِّنَ صِدْقُ الصَّادِقِ وَكُذُوبُ  
الْكَاذِبِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِيهَا « يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ » .

الثَّانِيَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ) ابْتِدَاءً وَخَبَرًا . وَمُطَابَقًا  
مَعَهُ أَنْ تَقْضَى : وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ ، فَمُحَلَّفٌ ؛ كَمَا قَالَ :

فَمِنْ بَيْنَا صَدَقَاتٍ بِمَا . حَقَّقَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ خَيْرٌ



وقال محمد بن يزيد : ليس في الكلام عذوف ، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله  
على التقديم والتأخير . وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله أحتاج كلام ، كما  
يقول : ما شاء الله وشئت . قال النحاس : قول سيويه أولاه ؛ لأنه قد صح عن النبي صلى  
الله عليه وسلم النبي عن أن يقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدر في شيء تقديم ولا تأخير ،  
ومعناه صحيح .

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاء ؛ ألا ترى أنه قال : « من طيع  
الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » . وكان الزبيح بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : « رَفَعَهُ  
وَأَيْمًا حَرَفَ ، فَوَضَعَهُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنَا إِلَّا بِخَيْرٍ » .

الثالثة — قال علماؤنا : تضمنت هذه الآية قبول بين الحالف وإن لم يلزم المخلوق  
له الرضا . والعين حق للدعي . وتضمنت أن يكون العيمين بالله عز وجل حَسْبُ . وقاله  
النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف فلحلف بالله أَوْ لَيْسْتُ مِنْ حُلْفٍ لَهُ فَلْيَصْنَعْ »  
وقد مضى القول في الإيمان والاستثناء فيها مستوفى في المسألة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ مُجَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُمْ أَنْ فَلَ  
جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ( أَلَمْ يَعْلَمُوا ) بنى الماتقين . وقرا ابن جرير والحسن « تعلموا » . بالناس  
على الخطاب . ( أَنَّهُ ) في موضع نصب بـ يعلموا ، والماء كناية عن الحديث . ( مِنْ مُجَادِدِ اللَّهِ )  
في موضع رفع بالابتداء . والمجادة : وقوع هذا في حَذِّ وَذَلِكَ في حَذِّهِ كالمشاقة . يقال : عَادَمُوا  
فلان فلانا أي صار في حَذِّ غير حَذِّهِ . ( فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ ) يقال : ما جسد القاد في الشرطة  
مبتداً ، فكان يجب أن يكون « فَإِنَّ » بكسر الميم . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فَإِنْ » بالنون  
جوزم . بالكسر . قال سيوريه : وهو جيد .



وعلني بأسلم المياء فلم تزل • فخلص تخدي في طريق طلائع  
 وأنى إذا ملت رصكاي متاخها • فأنى على خطي من الأمر جاع<sup>(١)</sup>  
 إلا أن قراءة العامة «فان» بفتح الهززة. فقال الخليل أيضا وسيويه : إن «أنت» الثانية مبدلة  
 من الأولى • وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجرجي، قال : إن  
 ثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام، ونظيره «وَمِمَّنْ فِي الْأَخْيَرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ»<sup>(٢)</sup> • وكنا  
 «فَكَانَ مَا قَبِهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا»<sup>(٣)</sup> • وقال الأخفش : المعنى فوجوب النار له  
 وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أنه «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضم  
 الخبر. وقال علي بن سليمان : المعنى فالواجب أنت له نار جهنم • فان الثانية خبر ابتداء  
 محذوف • وقيل : التقدير فله أن له نار جهنم • فان مرفوعة بالاستقراء على إضمار المجرور  
 بين الفاء وإن •

قوله تعالى : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ  
 بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَزِرُوا إِنَّا اللَّهُ نَخْرِجُ مَا يُخْفُونَ<sup>(٤)</sup>  
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) خبر وليس بأمر • ويدل على أنه خبر  
 أنت ما بعده «إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا يُخْفُونَ» لأنهم كفروا عتادا • وقال السدي : قال  
 بعض المنافقين والله وددت لو أني قتلت بفيليت مائة ولا يزل فينا شيء يفضحنا •  
 قرئت الآية • يحذر : أي يتحوز • وقال الزجاج : معناه ليحذر • فهو أمر • كما قال :  
 بفعل ذلك •

(١) البيان لا ين قيل - وفشاد فيها كسر «إن» ثانية - والأعدام : المياء المتيرة قلة البرارد، واحضما ستم •  
 وتخدي : قسح • والطلاع : المية لظول السفر - ومعنى «ملت رصكاي متاخها» : توال سفرها واقتناها  
 وأكادها • والجاع : المعنى على وجهه • أي لا يكرن طول السفر ولكن أمسى قلما لما أوجوه من الخطي (أمره)  
 (من شرح التواهد) • (٢) آية ٥ سورة النمل • (٣) آية ١٧ سورة الحشر •



الثانية - قوله تعالى : ( أَنْ تَرَلَّ عَلَيْهِمْ ) « أَنْ » في موضع نصب هـ أى من أن تَرَلَّ . ويجوز على قول سيويه أن تكون في موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون في موضع نصب مفعولة ليعذر؛ لأن سيويه أجاز : حذرت زيدا؛ وأند : حذر أمورا لا تفسر وأمن . ما ليس مُتَّجِبَهُ من الأفطار . ولم يُجْزَء المَبْدُء؛ لأن الحذر تىء في الهيئة . ومعنى ( عليهم ) أى على المؤمنين ( سورة ) في شأن المناقين تجبرهم بخازيم ومساوهم ومثالبهم ؛ ولهذا سُمِّيَت الفاحشة والمنيرة والمبغنة . كما تقدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الفارة لأنها محضرت ما في قلوب المناقين فأظهرته .

الثالثة - قوله تعالى : ( قُلْ أَصْبَرْتُمْ ) هذا أمرٌ وعيدٌ وتهديد . ( إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ) أى مظهر ( مَا تَحْذَرُونَ ) ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المناقين وكانوا سبعين رجلا ، ثم نسخ تلك الأسماء من القرآن رافةً منه ورحمةً ؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعبّر بعضهم بعضا . فعلى هذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : « إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيل : إخراج الله أنه صرف نية عليه السلام لحوالم وأسماءهم لا أنها نزلت في القرآن ، ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » وهو نوع إلهام . وكان من المناقين من يتردد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان فيهم من يعرف صدقه ويحاند .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبَائِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَحْذِرُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - هذه الآية نزلت في غزوة تبوك . قال الطبري وغيره من جماعة : بينا النبي

ﷺ عليه وسلم يسير في غزوة تبوك ودرك من المناقين يسبون بين يديه فقالوا :



انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ! فاطمه الله سبحانه على  
 في قلوبهم وما يجمعون به ، فقال : « احبسوا على الركب - ثم أتاها فقال - فتم كذا  
 وكذا » فلقوا : ما كذا إلا نخوض وتلعب ؛ يريدون كذا غير مجدين . وذكر الطبري عن  
 عبدالله بن عمر قال : رأيت قاتل هذه المقالة ودبعة بن ثابت متعلقا بحجاب ناقة رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم يمشيها والمجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض وتلعب . والتي صلى الله عليه  
 وسلم يقول « أَيْدِيهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » . وذكر النقاش أن هذا التعلق كان  
 عبد الله بن أبي بن سؤل . وكذا ذكر القشيري عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛  
 لأنه لم يشهد تبوك . قال القشيري : وقيل إنما قال عليه السلام هذا لودبعة بن ثابت وكان  
 من المنافقين وكان في غزوة تبوك . والنخوض : الدخول في الماء ، ثم استعمل في كل دخول  
 فيه طويث وأذعه .

الثانية - قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جثما  
 أو حزلا ، وهو كَيْفَا كَانَ كَفَرًا ؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة . فإن التحقيق  
 لخوا العلم والحق ، والهزل آخر الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله « أَتَحْتَدُّنَا هُزُورًا  
 قَالَ لَعَوْذُ اللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ » .

الثالثة - واختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على  
 ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقا . يلزم مطلقا . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم في النكاح والطلاق ؛  
 وهو قول الشافعي في الطلاق قولاً واحداً . ولا يلزم في البيع . قال مالك في كتاب محمد ،  
 يلزم نكاح المازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم في العتية : لا يلزم . وقال علي بن زياد ؛  
 يَحْسَبُ قَبْلَ وَبَعْدَ . والشافعي في بيع المازل قولان . وكذلك يخرج من قول علمائنا القولان .  
 وسكن ابن المنذر الإجماع في أن يحد الطلاق وهزله سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا ؛  
 إن اعتق على الهزل في النكاح والبيع لم يلزم ، وإن اعتق على الهزل في البيع لم يلزم . ودرو أبو داود  
 والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث يجمعن



يَعِدُّ وَهُمْ مَنْ يُدِ النَّكَاحَ وَالطَّلَاقَ وَالرَّجْعَةَ . قال الترمذي : حديث حسن غير مروي  
والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم

قلت : وكذا في الحديث " والرجعة " . وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن  
المسيب قال : ثلاث ليس فيهن ليب النكاح والطلاق والعتق ، وكذا روى عن علي بن أبي  
طالب وعبد الله بن مسعود وأبي الترداء ، كلهم قال : ثلاث لا ليب فيهن ولا لاي فيهن  
جأد النكاح والطلاق والعتق . وعن سعيد بن المسيب عن عمر قال : أربع جازات على  
كل أحد العتق والطلاق والنكاح . وعن الضحاك قال : ثلاث لا ليب فيهن النكاح  
والطلاق والتنوير .

قوله تعالى : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ  
مِنْكُمْ نَعْلِبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ( لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ) على جهة التوبيخ ، كأنه يقول :  
لا تفعلوا ما لا ينفع ، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الاعتذار من الذنوب . واعتذر بمعنى أعتذر  
أي صار ذا عذر . قال آيده  
• وَمَنْ يَكْ حَوْلًا كَامِلًا قَدْ اعْتَذَرَ •

والاعتذار : نحو أثار الموبة ، يقال : اعتذرت المنازل تدرست . والاعتذار الروع  
قال الشاعر ،

أَمْ كُنْتُ تَمَرِفَ آيَاتٍ قَدْ جَعَلَتْ • أَطْلَالَ لِقَائِكَ بِالْوَدَّاءِ تَحْسِينُ  
وقال ابن الأعرابي : أصله القطع . واعتذرت إليه قطعت ما في قلبه من الموبة . وحسن  
مؤنة التلام وهو ما يقطع منه عند الختان . وحسن مؤنة الجفرة لأنه يقطع عظم مؤنة .

(١) حاشية على الآية .

(٢) حاشية على الآية .



قوله تعالى : ( إِنَّ نَفْثَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ مُدْبِرٌ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ) قيل : كانوا ثلاثة نفر، هذين اثنين وضحك واحد؛ فالمدبر هو الذى ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة، ويقال الواحد على معنى قس طائفة . وقال ابن الأثير : يطلق لفظ الجمع على الواحد؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفاً، والماء للباينة . وأختلف في اسم هذا الرجل الذى عني على أقوال . قيل : عيسى بن حمير، قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن غنم . وقال خليفة ابن خياط في تاريخه : اسمه عياض بن حمير . وذكر ابن عبد البر عياض الحميري . وذكر بعضهم أنه استشهد بالجماعة، وكان تاب ومضى عبد الرحمن، فدعا الله أن يقتل شبيداً ولا يعلم بغيره . واختلف هل كان منافقاً أو مسلماً . قيل : كان منافقاً ثم تاب توبة نصوحاً . وقيل : كان مسلماً، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يذكر عليهم .

قوله تعالى : الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِأَمْرٍ وَإِلَهُكُمْ وَيَتَوَهَّنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ) ابتداء . ( بَعْضُهُمْ ) ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا، ويكون النسخ « من بعض » . ومعنى ( بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ) أى هم كالثنى الواحد في الخروج عن الدين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : « يحلقون بالله أنهم لكم وما هم منكم » أى ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض، أى متشابهون في الأمر بالنكر والتبني عن المعروف . وقبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد، ونها يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا، أى تركوا ما أمرهم الله به تركهم في الشك . وقيل : أنهم تركوا أمره حتى صار كالنسي نصيبهم بملة اللبس من توبه . وقال قتادة : « نسيتهم » أى من الغيرة، فأما من الشر فلم ينسهم . والنسي : الخروج عن الطاعة والدين . وقد تقدم .



قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ( وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ) يقال : وعد الله بالخبر وعداً . ووعد بالشر وعيدا . ( خَالِدِينَ ) نصب على الحال والعامل محذوف ؛ أى يصلونها خالدين . ( هِيَ حَسْبُهُمْ ) ابتداء وخبر ، أى هى كفاية ووفاء لحزاء أعمالهم . واللن : البعد ، أى من رحمة الله ؛ وقد تقدم . ( وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ) أى واصب دائم .

قوله تعالى : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ) قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى وعد الله الكفار نارا جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى الأمر بالترك والنهى عن المعروف ؛ فغضب المضاف . وقيل : أى أتم كالذين من قبلكم ؛ فالكاف فى محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . ولم ينصرف « أشد » لأنه أصل صفة . والأصل فيه أشد ، أى كانوا أشد منكم قوة فلم ينهيا لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل

الثانية - روى سعيد عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذروا ما بطروا وشربوا بياعا وباعوا حتى لو أن أحدا من أولئك دخل



بِجَهْرٍ ضَبٍّ لَدُنْهُمْ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَإِنْ شِئْتُمْ فَأَقْرَأُوا الْقُرْآنَ : « كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ » - قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَالْمَخْلَقُ الَّذِينَ - فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ « حَتَّى فَرِغَ مِنَ الْآيَةِ : قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَا صَنَعْتَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « وَمَا النَّاسُ إِلَّا هُمْ » . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتَتِمَّزَنَّ سَنَنْ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا بِجَهْرٍ ضَبٍّ لَدُنْهُمْ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « لَنْ » ؟ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا أَشَبَّ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِئَةِ ، هَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شَبَهْنَا بِهِمْ . وَنَحْوَهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

الثالثة - قوله تعالى : ( فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ ) أى انتفعوا بنصيبهم من الذين كما قل الذين من قبلهم . ( وَخُضَّتْ ) خروج من الغية إلى الخطأ . ( كَالَّذِي خَاضُوا ) أى لغرضهم . فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، أى وخضت خوضا كالذين خاضوا . و « الذى » اسم ناقص مثل من ، يترجمه من الواحد والجمع . وقد مضى في « البقرة » . ويقال : خُضَّتِ الْمَاءُ أَخْوَضَهُ خَوْضًا وَخِيَاضًا ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز الناس فيها مشاة ورُجَاتًا . وجمعها الخاض والخاض أيضا ، عن أبى زيد . وأخضت داجي في الماء . وأخاض القوم ، أى خاضت خيلهم . وخضت النمرات : اقتحمتهن . ويقال : خاضه بالسيف ، أى حرك سيفه في المضروب . وخَوْضٌ فِي نَجِيحِهِ شِدَّةٌ لِلْبَالِغَةِ . والمخوض للشراب كالنجدح للسبق ، يقال منه : خضت الشراب . وخاض القوم في الحديث ومخاضوا أى تفاوضوا فيه ، فالغنى : خضت في أسباب الدنيا بالهوى واللعب . وقيل : في أمر يجد بالتكذيب . ( أُولَئِكَ حَبِطَتْ ) بطلت . وقد تقدم . ( أَعْمَالُهُمْ ) حسناتهم . ( وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ) وقد تقدم أيضا .

(٢) النجى : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .

(١) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبة ثانية أرى ناله .

(٤) راجع ج ٢ ص ٤٦ طبة أمه أرى ناله .

(٢) المجدح : حشة في رأسها غصيان سرحان .

(٥) راجع ج ١ ص ٢٤٨ طبة ثانية أرى ناله .



قوله تعالى : **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** (٧٠)

قوله تعالى : **( أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ )** أى خبر **( الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ )** . واللائق لعنى التقرير والتحذير، أى ألم يسمعوا إطلا كما الكفار من قبل . **( قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ )** يدل من الذين . **( وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ )** أى عُرُود بن كنعان وقومه . **( وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ )** اسم للبلد الذى كان فيه شعيب ، أهلكوا عذاب يوم الظلة . **( وَالْمُؤْتَفِكَاتِ )** قيل : يراد به قوم لوط ؛ لأن أرضهم استفكت بهم ، أى انقلبت ؛ قاله قتادة . وقيل : المؤتفكات كل من أهلك ؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . **( أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ )** يعنى جميع الأنبياء . وقيل : أنت أصحاب المؤتفكات رسلهم ؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده ؛ ولكنه بعث فى كل قرية رسولا ؛ وكانت ثلاث قريات ، وقيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : **«وَالْمُؤْتَفِكَةُ»** على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسل الواحد ؛ كقوله **«يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ»** ولم يكن فى عصره غيره . قلت — وهذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : **«إِنَّ اللَّهَ خَاطَبُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِ بِهِ الْمُرْسَلِينَ»** الحديث . وقد تقدم فى «البقرة» . والمراد بجميع الرسل ، والله أعلم . **( فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ )** أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . **( وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )** ولكن ظالموا أنفسهم بعد قيام الحجّة عليهم .

قوله تعالى : **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٧١)



فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ) أى قلوبهم متحدة فى التوابع والتحاب والتعاطف . وقال فى المتأخرين « بعضهم من بعض » لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانية - قوله تعالى : ( **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** ) أى عبادة الله تعالى وتوحيده ، وكل ما أتبع ذلك . ( **وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ) عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبري عن أبى العالية أنه قال : كل ما ذكر فى القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى سورة المائدة وآل عمران<sup>(١)</sup> ، والحمد لله .

الثالثة - قوله تعالى : ( **وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** ) تخدم فى أول « البقرة » القول فيه<sup>(٢)</sup> . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس ، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة . ابن عطية : والمدح عندى بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرائض .

الرابعة - قوله تعالى : ( **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ** ) فى الفرائض<sup>(٣)</sup> ( **وَرَسُولَهُ** ) فيما سنّ لهم . والسين فى قوله « سيرهمهم الله » مَدْخَلَةٌ فى الوعد مهلة لتكون النفوس تنعم برباطه ، وفضله تعالى زعم الإنجاز .

قوله تعالى : **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٥٧﴾

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٢ وراجع ط .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧ طبة أمم أرقامه .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبة آفة أرقامه .



قوله تعالى : ( وَعد الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ) أى جنان ( تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ) من تحت أشجارها وغرورها الأنهار . وقد تسمى فى « البقرة » أنها تجري متضبطة بالقدرة فى غير أخدود . ( خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ) قصور من الزرجد والنز والباقيات يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام . ( فِي جَنَّاتٍ مَعْدِنٍ ) أى فى دار إقامة . يقال : معدن : بالمكان إذا أقام به ؛ ومنه المعدن . وقال عطاء الخرماساني : « جنان معدن » هى قسبة الجنة ، وسقفها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بطنان الجنة ؛ أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكمٌ معدلٌ ونحوه عن الضحاك . وقال مقاتل الكلبي : معدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسنيم والحنان حولها محفوفة بها ، وهى منفطة من يوم خلقها الله حتى يترسا الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ( وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ الْكَبِيرِ ) أى لا كبر من ذلك . ( ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) .

قوله تعالى : يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَرِئَاسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٦﴾  
فيه ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ( يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفار . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتفليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيديك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فأكفهم في وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان - واختاره قتادة - وكلاهما أكثر من يصيب الحدود . ابن العربي : « أما إقامة الحجج باللسان فكانت دأمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها »



وليس العاصي بمناق، إنما المناق بما يكون في قلبه من التناق كائناً، لا بما تنلس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدثين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا مناقين .

الثانية - قوله تعالى : ( وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ ) الغلظ : قبض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك في اللسان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِذَا زُتْ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيُجْلِحْهَا الْحَدَّ وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا» . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا فَلْيُظْ الْقَلْبُ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ » . ومنه قول النسوة لعمر : أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى الغلظ خشونة الجانب . فهي ضد قوله تعالى : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَيْتَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . « وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » . وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصالح والصفح .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَمَا يَقُولُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْلَبِهِمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٥٩﴾

(١) أي لا يبرئها ولا يفرجها بائني بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقع في عقوبتها بالقرب، بل يضربها الحد فان زل الأمان لم يكن عند العرب مكرها ولا منكرا، فأمرهم بعد الإباء كما أحرم بعد الخراش . (نهاية ابن الأثير) .  
(٢) آية ٥٩ سورة آل عمران . (٣) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في باب مناق مرادى الله عنه ، لا : «استأذن محمد بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قرش يكله ويستكثرنه حالة أمواتهن على موته» فلا استأذن عمر بن قن ياذن الجباب، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشك، فقال عمر : أحسن الله منك يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «عجت من حولا، الذي كن حتى فلما سمعت صوتك ابترن الجباب» فقال عمر : أنت أحسن أن يبر يا رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوات أقمن، أتجبن ولا تبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قلن : نعم ! أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إني لأبغض الخطاب ما قدى نفسي بعد ما قبلك الشيطان سالكا بيا لا يسلك بغيرك» . (٤) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (٥) آية ٢٤ سورة الاسراء .



فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَتَجَفَّوْنَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ روى أن هذه الآية نزلت في الجلاس ابن سويد بن الصامت ، ووديع بن ثابت ، وقتوا في النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحير . فقال له عامر ابن قيس : أجل ! والله إن محمدا لصادق مصدق ، وإنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم . وجاء الجلاس خلف بالله عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم إن عامرا نكذب . وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئا ، فزلت . وقيل : إن الذي سمعه عامر بن عدي . وقيل حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمر بن سعد ، فإذ قال ابن اسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فهم الجلاس بقتله لثلاثين بغير مجزئة ، فقيه نزل : « وَهُمْوَايَا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لما قال له صاحبه إني سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك هم بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال : ذلك هي الإشارة بقوله : « وَهُمْوَايَا لَمْ يَنَالُوا » . وقيل : إنها نزلت في عبد الله بن أبي ، رأى رجلا من غفار يتقاتل مع رجل من جُهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا المفايرى الحنهني . فقال ابن أبي : يا بني الأويس والخزرج ، انصروا أحاكم ! فوالله ما مثله ومثله محمد إلا كما قال القائل : « تَتَى كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ » ، ولئن رجعتا إلى المدينة ليُخرجن الأعرن منها الأذل . فخير النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، بخاء عبد الله بن أبي خلف أنه لم يقله ، قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ، قاله الحسن . ابن العري : وهو الصحيح ، لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبي .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشمر من الحير . وقول عبد الله بن أبي : لئن رجعتا إلى المدينة ليُخرجن الأعرن منها الأذل . قال الفشيري : كلمة الكفر سب النبي صلى الله عليه وسلم والظن في الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا ﴾



بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ) أى بعد الحكم بإسلامهم . فدلّ هذا على أن المنافقين كفار . وفي قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا : دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضا على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة ؛ وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعال إلا في الصلاة . قال إسحاق بن رَاهَوِيَه : ولقد أجمعوا في الصلاة على شيء لم يجمعوا عليه في سائر الشرائع ؛ لأنهم باجمعهم قالوا : من عُرف بالكفر ثم رآوه يصلي الصلاة في وقتها حتى صلى صلوات كثيرة ، ولم يعلموا منه إقرارا باللسان أنه يحكم له بالإيمان ، ولم يحكوا له في الصوم والزكاة بمثل ذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ( وَتَمَرُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ) يعنى المنافقين من قتل النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك ، وكانوا اثني عشر رجلا . قال حذيفة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدّهم كلّهم . فقلت : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : " أكره أن تقول العرب لما ظفّر بإصحابه أقبل يقتلهم بل يكفهم الله بالدّيلة " . قيل : يا رسول الله وما الدّيلة ؟ قال : " شهاب من جهنم يجعله على نياط فؤاد أحدهم حتى ترزق نفسه " . فكان كذلك . خرّجه مسلم معناه . وقيل قهرّوا بعقد الناج على رأس ابن أبي ليجمعوا عليه . وقد تقدّم قول مجاهد في هذا .

الرابعة - قوله تعالى : ( وَمَا قَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ) أى ليس ينقمون شيئا ؛ كما قال الناعة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم • بهنّ فلول من فراع الكتاب

ويقال نقم ينقم ، ونقم ينقم ، قال الشاعر :

ما قَمُوا من جى أمية إلا • أنهم يحملون إن عصبروا

وقال زهير :

يؤخر فيوضع في كلب يُدَثَّر • ليوم الحساب أو يُعَجَّل فيقيم



ينشد بكسر القاف وفتحها . قال الشعبي : كانوا يطلبون دية فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغفروا . ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً . ويقال : إن القتل كان مؤلّى الجلّاس . وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضحك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يجوزون الغنمة ، فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم استغفروا بالفتائم . وهذا المثل مشهور ( أتق شر من أحسنت إليه ) . قال القشيري أبو نصر : قيل للجبلي أتجد في كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه ؟ قال نعم ، « وما تقوا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » .

الخامسة - قوله تعالى : ( فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ ) روى أن الجلّاس قام حين نزلت الآية فاستغفروا . فدل هذا على توبة الكافر الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان ، وهو الذي يسميه الفقهاء الزنديق . وقد اختلف في ذلك العلماء ، فقال الشافعي : قيل توبته . وقال مالك : توبة الزنديق لا تعرف ، لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر ، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله . وكذلك يفعل الآن في كل حين ، يقول : أنا مؤمن وهو يضر خلاف ما يظهر ، فإذا عثر عليه وقال : تبت ، لم يتغير حاله عما كان عليه . فإذا جاءنا تاباً من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته ، وهو المراد بالآية . والله أعلم .

السادسة - قوله تعالى : ( وَإِنْ يَتُوبُوا ) أى يعرضوا عن الإيمان والتوبة ( يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ) في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار . ( وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ) أى مانع يمنعهم ( وَلَا نَصِيرٌ ) أى معين . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَاحًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾



### سبعة ثمان مسائل

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شيئا لأؤدين فيه حقّه ولأصدقنّ؛ فلما آتاه الله ذلك فصل ما نصّ عليكم ، فاحذروا الكذب فانه يؤدى الى الفجور . وروى علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى ( فسياء ) قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أدع الله أن يرزقني مالا . فقال عليه السلام : " وَيَحْتَكَ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تَوَدَّى شُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطْبِقُهُ " . ثم عاد ثانيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَجِيٍّ لِقَوْمٍ لَوْ شِئْتُ أَنْ تُسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَابًا لَسَارَتْ " . فقال : والذي بعثك بالحق لئن هومت الله فوزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتفت فمنا فمست كما تبنى الدود ، فضافت عليه المدينة فتحتى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ، وترك ما سواهما . ثم تمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تبقى حتى ترك الجمعة أيضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةُ " ثلاثا . ثم نزل « حَذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . فبعث صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : " مُرَّا بِثَعْلَبَةِ وَبِغُلَانٍ - رجل من بني سليم - نَحْذَا صِدْقَاتِهِمَا " . فأتيا ثعلبة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تمودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيل : سبب غناء ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه « ومنهم من عاهد الله الآية » إذ منع الزكاة ، فانه أعلم . وما جاء فيمن شاهد بدرا يعارضه قوله تعالى في الآية « فَأَعْقِبْنَهُمْ نِقَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ » الآية

قلت : وذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن حاطب بن أبي بلتعة أبطأ عنه ماله بالتمام ، فحلف في مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم فلك لأصدقن منه ولا يصار منه . فلما سلم تجمل بذلك فتركت .



قلت : وتعليه بتدري أنصارى ومن شهد الله له ورسوله بالإيمان حسب ما أتى بيانه  
في أول المتحة<sup>(١)</sup> ، لما روى عنه غير صحيح . قال أبو حمزة : ولعل قوله من قال في متحة الله  
مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية  
نزلت في رجل من المنافقين تبطل بن الحارث وجده بن قيس ومعتب بن قشير .

قلت : وهذا أشبه بقرول الآية فيهم ؛ إلا أن قوله « فاعقبهم نفاقا » يدل على أن الذى  
ماهد لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا تبثوا عليه إلى المبات ،  
وهو قوله : « إلى يوم يلقونه » على ما أتى .

الثانية — قال علماءنا : لما قال تعالى « ومنهم من عاهد الله » احتمل أن يكون  
عاهد الله بلسانه ولم يتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة ؛  
فإن الأعمال بخواتمها والأيام بعواقبها . و « من » رفع بالابتداء والخبر في المجرور . ولفظ  
اليمين ورد في الحديث وليس في ظاهر القرآن يمين إلا يجرد الارتباط والالتزام ، أما إنه  
في صيغة القسم في المعنى فإن اللام تدل عليه ، وقد أتى بلامين الأولى للقسم والثانية لامي  
الجواب ، وكلاهما للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر .  
واقفه أعلم .

الثالثة — العهد والطلاق وكل حكم يتفرده به المرأة ولا يفنقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه  
منه ما يلزمه بقصده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علماءنا . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزم  
أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لعلمائنا . ابن العربي : والدليل على صحة  
ما ذهبنا إليه ما رواه أنسب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ  
به بلسانه فقال : يلزمه ؛ كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه . قال ابن العربي : وهذا أصل  
بديع ، وتحريره أن يقال : عقد لا يفنقر فيه المرء إلى غيره في التزامه فانهقد عليه بنية . أصله  
الإيمان والكفر .

(١) ملاحظ أن الآية حذرة التوفيق في أول سورة التوبة إنما هو مخاطب بن أبي حمزة ، لا ثمانية بن عاصم .



قلت : وحجة القول الثاني ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو يتكلم به". ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شينا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيء . هذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ، كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسانه . والأوّل أجمع في النظر وطريق الاثر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تجاوز الله لأمتي عما وسوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو عمله يد" .

الرابعة - إن كان نذرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . وإن كانت يمينا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بيد أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة ، فسال الله مالا تلزمه فيه الزكاة ويؤدى ما تعين عليه من فرضه ، فلما آناه الله ما شاء من ذلك ترك ما التزم مما كان يلزمه في أصل الدين لو لم يلزمه ، لكن التعاطى يطلب المال لأداء الحقوق هو الذى أورطه إذ كان طلبه من الله تعالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "إذا تمنى أحدكم فليظفر ما يمنى فإنه لا يدري ما كتب له في غيب الله عز وجل من أمينته" . أى من عاقبتها ، فرب أمينة بفتن بها أو يظنى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمه عواقبها خطيرة غائتها . يأما تمنى أمور الدين والأخرى فتمنيتها محمود العاقبة محض عوض عليها مندوب إليها .

الخامسة - قوله تعالى : (لَئِنْ آتَيْنَاكَ مِنْ فَضْلٍ لَتَصَّدَّقَنَّ) دليل على أن من قال : إن ملكْتُ كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : لا يلزمه . والخلاف في الطلاق مثله ، وكذلك في العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك في العتق ولا يلزمه في الطلاق ؛ لأن العتق قرينة وهي تثبت في الذمة بالنذر ، بخلاف الطلاق فإنه



مصرف في عمل، وهو لا يثبت في القلعة . لمحتج الشافعي بما رواه أبو حمزة الثمالی عن عمرو بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يترك لأحد منكم ديناً ولا يملك ولا علق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك » لفظ الترمذي . وقال : وفي الباب عن عليٍّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديثٌ حديثٌ عبد الله بن عمرو حديثٌ حسن ، وهو أحسن شيء رُوي في هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم . ابن العربي : وسرد أصحاب الشافعي في هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصح منها شيء فلا يتوَلَّ عليها ، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادسة - قوله تعالى : ( فَلَمَّا آتَوْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ) أي أعطاهم . ( يَخْلُوا بِهِ ) أي بإعطاء الصدقة وإتفاق المال في الخير ، وبالإفاء بما خُيِنُوا والتمروا . وقد مضى البخل في « آل عمران » . ( وَتَوَلَّوْا ) أي عن طاعة الله . ( وَهُمْ مُعْرِضُونَ ) أي عن الإسلام ، أي مظهرون للإعراض عنه .

السابعة - قوله تعالى : ( فَأَعْقِبْتُمْ إِفْئَاقًا ) مفعولان ؛ أي أعقبهم الله تعالى تفافاً في قلوبهم . وقيل : أي أعقبهم البخل تفافاً ؛ ولما قال : « يَخْلُوا بِهِ » . ( إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ) في موضع خفض ؛ أي يلقون بخلهم ، أي جزاء بخلهم ؛ كما يقال : أنت تلقى فذا عملك . وقيل : « إلى يوم يلقونه » أي يلقون الله . وفي هذا دليل على أنه مات منافقاً . وهو يبعد أن يكون المنزل فيه تحلية أو حاطب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : « وما يدريك لعل الله أطلع كل أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . ونحلة وحاطب من حضر بدرًا مشهدًا . ( بِمَا اخْتَلَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَعْوَدُوا بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ) كذبهم نقضهم العهد وتركهم الإفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنة - قوله تعالى : ( نِفَاقًا ) النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر . فاما إذا كان في الأعمال فهو معصية . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً



ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من التفاق حتى يدّعيها : إذا آثمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدروا إذا خامم بلر . ترجمه البحار . وقد مضى في « البقرة » اشتقاق هذه الكلمة ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس في تأويل هذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لا يعتقد الوفاء به ، ويتنظر الأمانة لحياته فيها . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن علي بن أبي طالب رضى الله عنه لقي أبا بكر وعمر رضى الله عنهما خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقبان فقال علي : مالي أراكما ثقبين ؟ قالوا : حديثنا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين . إذا حدث كذب وإذا عاهد غدروا وإذا آثمن خان وإذا وعد أخلف . فقال علي : أفلا سألتهم ؟ فقالوا : هيتا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكني سأسأله ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقبان ، ثم ذكر ما قلناه ، فقال : « قد حدثتما ولم أضعه على الوضع الذي وضعا ولكن المنافق إذا حدث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف وإذا آثمن وهو يحدث نفسه أنه يخون » . أمّن العربي : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلقوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالوا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا آثمن خان ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث التفاق » فقلنا إن لم نسلم منهن أو من بعضهن ولم يسلم منهن كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « مآلکم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في آية أمأقولی إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل « إذا جاءك المنافقون » - الآية - أفأنتم



كذلك ؟ قلنا لا . قال : « لا عليكم أتم من ذلك براء وأما قول إنا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله على من رزقهم من عند الله لن آتانا من فضله » - الآية الثالثة - « فلفظتم كذلك ؟ » قلنا لا ، والله لو عاهدنا الله على شيء أوفينا به . قال : « لا عليكم أتم من ذلك براء وأما قولي وإذا أنحن فذلك فيما أنزل الله على » « إنا عرَضْنَا الأمانة على السموات والأرض والجبال » - الآية - « فكل إنسان مؤتمن على دينه فالمؤمن يقتل من الجناية في السر والعلانية [ والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية ] أفاتم كذلك ؟ » قلنا لا . قال : « لا عليكم أتم من ذلك براء » . وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلل الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربي : والذي عندي أنه لو غلبت عليه المعاصي ما كان بها كافرا ما لم تؤثر في الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخفوه ، وحدثوه فكذبوه ، وانتمهم على يوسف تخافوه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبي رباح : قد قُتل هذه الخلل إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . وروى البخاري عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان .

قوله تعالى : ( أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ) هذا توبيخ ، وإن كان مبالغة فإنه سبحانه عليم .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ  
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخِرَّ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾



قوله تعالى : ( الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ) هذا أيضا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يلْمِزون » عيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدق بنصف ماله ، وكان ماله ثمانية آلاف فتصدق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ، فأنزل الله : ( الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ) . وجاء رجل من الأنصار بنصف صبرة من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ، فأنزل الله عز وجل : ( وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ) . وخرج مسلم عن أبي مسعود قال : أيمرنا بالصدقة - قال : كما لحامل ، في رواية : فل ظهرنا - قال : فتصدق أبو عقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشئ أكثر منه فقال المنافقون : إن الله لنفى عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فزلت « الذين يلمزون المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحبحاب . والجهد : شئ قليل يمش به المقل . والجهد والجهد بمعنى واحد . وقد تقدم . و« يلْمِزون » عيبون . وقد تقدم . و« المطَّوعين » أصله المطَّوعين أدمجت التاء في الطاء ، وهم الذين يفعلون الشئ تبرعا من غير أن يجب عليهم . و« الذين » في موضع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و« فيسخرُون » عطف على « يلْمِزون » . ( سخر الله بينهم ) خبر الابتداء ، وهو دواء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أى سخر منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخرتهم . وقد تقدم في « البقرة » .

قوله تعالى : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

(١) الصبرة (القم) : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بضه فوق بيض . (٢) معناه : يحمل الخلق على ظهورها بالأجرة وتصدق من تلك الأجرة أو تصدق بها كلها . (٣) داجع به ٧٧ ص ٦٢ طبة أول مرة . (٤) داجع به ٣ ص ٢٩ طبة أول مرة .



قوله تعالى : ( اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ) يَأْتِي بَيَانُهُ هُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا تَغْلُظْ عَلَيْهِمْ **حَاتِّ الْإِنْبَاءِ** .

قوله تعالى : فَارْحَ الْمُظَلَّمُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ( فَارْحَ الْمُظَلَّمُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ) أى بقعودهم . فقد قعدوا ومقعداء ؛ أى جلسوا . وأقعدته غيره ؛ عن الجوهرى . والمخلف المتروك ؛ أى خلفهم الله وشبّطهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا تناقلهم عن الجهاد ؛ قولان . وكان هذا فى غزوة تبوك . ( خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ) مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا . والخلاف المخالفة . ومن قرأ « خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ » أراد الناصر عن الجهاد . ( وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ) أى قال بعضهم لبعض ذلك . ( قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ) أى قل لهم يا محمد نار جهنم . ( أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ) ابتداء وخبر . « حرا » نصب على اليان ؛ أى من ترك أمر الله تعرض لتلك النار .

قوله تعالى : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيه سائلان :

الأول - قوله تعالى : ( فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ) أمر ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أنت تكون اللام مكسورة غلظت الكسرة لثقلها . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » فى جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى الخير . انهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا . ( جَزَاءً ) مفعول من أجله ؛ أى لجزاء .



الثانية - من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفسه وفساد حاله في اعتقاده من فئة الخوف، وإن كان عبدا صليبا . قال صلى الله عليه وسلم : « والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ونلجتم إلى الصُّلَّاتِ تجارون إلى الله تعالى لو ددت أنى كنت شجرة تُعْضَدُ » ترجمه الترمذى . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه من قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول : الله أحسنك وأبكى . وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يئلب على صاحبه مذموم منهى عنه ، وهو من فعل السفهاء والبطالة . وفي الخبر : « أن كثرت تيمت القلب » . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فحمود ؛ قال عليه السلام : « أبكوا فإن لم تبكوا فبأكوا فإن فعل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع تسيل للدماء فتقرح العيون فلو أن سُنَّأُ أُهرِيت فيها لحرَّت » . ترجمه ابن المبارك من حديث أنس ، وابن ماجه أيضا .

قوله تعالى : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْنَاكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أى المنافقين . وإنما قال : « إلى طائفة » لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذرون ومن لا عذر له ، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ، كاللثة الذين خلّفوا . وسيأتي . ﴿ فَاسْتَعِذْنَاكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ أى عافهم بالا تصحبهم أبدا . وهو كما قال في سورة الفتح : « قُلْ لَنْ يُبْعِثَ » . و ﴿ الْخَالِفِينَ ﴾ جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصلوات : هى الطرق ، وهى جمع صعد . وصعد جمع صعد ؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كقطة ، وهى فناء باب الدار ومز الناس بين يديه . (٢) قال السجدي : ويرى من غير هذا الوجه أن إذا ذوقا لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَدُ . (٣) آية ١٥



« الخالفين » من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال ، فغلب المذكر . وقيل : المعنى فاقبلوا مع الفاسدين ؛ من قولهم فلان خالفه أصلي يته انما كان فاسدا فيهم ؛ من خلوهم مع الصائم . ومن قولك : خلف الدين ؛ أى فسد بطول المكث في السقاء ؛ فعل هذا يعنى فاقبلوا مع الفاسدين . وهذا يدل على أن استصحاب المخلف في الغزوات لا يجوز .

قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ  
وَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾  
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - روى أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سؤل وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه ، وأن الآية نزلت بعد ذلك . وروى عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تقدم ليصلى عليه جاءه جبريل فحبذ ثوبه وتلا عليه « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » الآية ؛ فأنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصل عليه . والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففى البخارى عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ذ ولا تُصَلِّ على أحدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا . ونحوه عن ابن عمر ؛ أخرجه مسلم . قال ابن عمر : لما توفى عبد الله بن أبي بن سؤل جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قبضه يكفن فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر وأخذ ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا خَيْرِي اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ ، « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ » قَالَ : إِنَّهُ



ما كان يصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى الله عز وجل فلا تصل على أحد منهم مات بعده ولا تتم على قبره ، ترك الصلاة عليهم . وقال بعض العلماء : إنما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بنية على الظاهر من لفظ إسلامه ، ثم لم يكن يفعل ذلك لما نهي عنه .

الثانية - إن قال قائل فكيف قال عمر : أتصل عليه وقد نهك الله أن تصل عليه ، ولم يكن تقدم نهي عن الصلاة عليهم . قيل له : يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ، وزكوة من قيل الإلهام والتثقت الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان القرآن يقرئ على مرأته ، كما قال : وافقت ربي في ثلاث . وجاء : في أربع . وقد تقدم في البقرة . فيكون هذا من ذلك . ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى : « استغفر لهم أولا » فتستغفر لهم الآية . لا أنه كان تقدم نهي على ما دل عليه حديث البخاري وسلم . والله أعلم . قلت : ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » لأنها نزلت بمكة . وبقي القول فيها .

الثالثة - قوله تعالى : ( استغفر لهم ) الآية . بين تعالى أنه وإن استغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاستغفار . قال القسيري : ولم ينه ما يروى أنه قال : « لا زبدة على السبعين » .

قلت : وهذا خلاف ما ثبت في حديث ابن عمر « وسأزيد على سبعين » وفي حديث ابن عباس « لو أعلم أني إن زدت على السبعين ينفر لهم زدت عليها » . قال : فوصل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه البخاري .

الرابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله : ( استغفر لهم ) هل هو لباس أو تخيير ؟ قالت طائفة : المقصود به لباس بدليل قوله تعالى : « تَنْتَفِعُونَ بِالَّذِي نَفَعْتُمْهُمْ » . وذكر السبعين وقافي جرى ، أو هو حللتهم في العبارة عن الكثرة والإحياء . فإذا قال قائلهم : لا إله



سبعين سنة صار عندهم بمثله قوله : لا أكله أبداً . ومثله في الإغية قوله تعالى : **وَفِي سَبِيلِهِ** **دَرَعًا مِّنَ سَبْعِينَ دَرْعًا** ، وقوله عليه السلام : **” من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً ”** . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وقتادة وعروة — إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر . ولهذا لما أراد أن يصلي على ابن أبيي قال عمر : لا تصل على عدو الله ، القاتل يوم كذا وكذا . فقال : **” إني خُيرت فاخترت ”** . قالوا : ثم نسخ هذا لما نزل **” سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ”** . ذلك بأنهم كفروا ، أي لا يغفر الله لهم بكفرهم .

الخامسة — قوله تعالى : **( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا )** الآية . وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب ، على ما يأتي بيانه . وهذا فهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدم على هذه الآية التي فهم منها التخيير بقوله : **” إِنَّمَا خَيْرٌ لِّيَ اللَّهُ ”** وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجو الإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفي هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربه في أن يأذن له فيه لأنه لم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للنافقين الذي خُير فيه فهو استغفار لساكني لا ينفع ، وغايته تطيب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له . والله أعلم .

السادسة — وأختلف في إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم قيصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قيصه يوم بدر . وذلك أن العباس لما أسر يوم بدر — على ما تقدم — وسأب ثوبه رآه النبي صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليه ، فطلب له فيصا فأوجد له قيص يقادره إلا قيص عبد الله ، فتقارهما في طول القامة ؛ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه في الدنيا ، حتى لا يلقاه في الآخرة وله عليه يد بكافته بها . وقيل : إنما أعطاه القميص إكراما لأخيه وإسعادا له في طلبته وتطيبا لقلبه . والأول أصح ؛ نرجعه البخاري عن جابر



فإن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي بن خلف عليه ، فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه ، فذلك نزاع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن قميصي لا يبنى عنه من الله شيئاً وإني لأرجو أن يسلم بفعل هذا ألف رجل من قومي » . كذا في بعض الروايات « من قومي » يريد من متافقي العرب . والصحيح أنه قال : « رجال من قومي » . ووقع في معاري ابن إسحاق وفي بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السابعة - لما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال العلماء :

هذا نص في الامتناع من الصلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه على المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . ويكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ »<sup>(١)</sup> يعني الكفار ، فدل على أن غير الكفار يرونهم والمؤمنون ؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهي الأحاديث الواردة في الباب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه » قال : فقمنا فصفا صفيين ؛ يعني النجاشي . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، فخرج بهم إلى المصل وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنازة المسلمين ، من أهل الكفار كانوا أو صالحين ؛ ورائه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً . والحمد لله . وافق العلماء على ذلك إلا في الشهيد كما تقدم ، وإلا في أهل البدع والبناء .



الثامنة - وباجهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثاً فراداً واحدة . وقالت طائفة : يكبر تحسباً ، وروى عن ابن مسعود وزياد بن أرقم : وعن علي : ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمهول عليه أربع . روى الدارقطني عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبرت عليه أربعاً وقالوا هذه صلتكم يا بني آدم " .

التاسعة - ولا قراءة في هذه الصلاة في المشهور من مذهب مالك ، وكذلك أبو حنيفة والثوري ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صليتم على الميت فخلصوا له الدعاء " رواه أبو داود من حديث أبي هريرة . وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومحمد بن مسلمة وأشباه من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " حملوا على عمومها . وبما خذره البخاري عن ابن عباس وصلى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : تعلموا أنها سنة . وخزج النسائي من حديث أبي أمامة قال : السنة في الصلاة على الجنائز أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافة ، ثم يكبر ثلاثاً ، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد بن نصر المروزي عن أبي أمامة أيضاً قال : السنة في الصلاة على الجنائز أن تكبر ، ثم تقرأ بأم القرآن ، ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص الدعاء لليت . ولا يقرأ إلا في التكبيرة الأولى ثم يسلم . قال شيخنا أبو العباس : وهذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والعمل على حديث أبي أمامة أولى ؛ إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام : " لا صلاة " وبين إخلاص الدعاء لليت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العاشرة - وصية الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجينة المرأة ؛ لما رواه أبو داود عن أنس وصلى على جنازة فقال له العلاء بن زياد : يا أبا حمزة ، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل على الجنائز كصلاتك ، يكبر أربعاً ويقوم عند رأس الرجل وعجينة المرأة ؟ قال محمد بن جرير : حدثنا محمد بن جثنب قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على أمي فمكبت مائة مرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صل على الصلاة عليها وسطها .



الحادية عشرة - قوله تعالى : ( وَلَا تَهْمَلْ قَبْرَهُ ) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالثبوت، هل ما بيناه ( في التذكرة ) والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

كرره تأكيداً . وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْلَزْنَا أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

استعذب المؤمنون إلى الإجابة وتعلل المنافقون . فالأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان وللناقدين بأبنداء الإيمان . و ( أَنْ ) في موضع نصب ، أى بأن آمنوا . و ( الطُّول ) الفنى ، وقد تقدم . وخصصهم بالذكر لأن من لا طول له لا يحتاج إلى إندف لأنه معذور . ( وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ) أى العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنْ أَرْسَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ( رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ) الخوالم : جمع خالفة ، أى مع النساء والصبيان وأصحاب الأضراس من الرجال . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف أيضاً إذا كان غير نجيب ، على ما تقدم . يقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :



وأصله من خَلَفَ اللَّبَنُ يَخْلُفُ إِذَا حَضَّ مِنْ طَوْلِ مَكْتِهِ . وَخَلَفَ فَمُ الصَّامُ إِذَا تَغَيَّرَ لِحْدُهُ وَمِنْهُ فَلَانُ خَلَفَ سَوَاءً ؛ إِلَّا أَنْ فَوَاعِلَ جَمْعُ فَاعِلَةٍ . وَلَا يَجْعُ « فاعل » صِفَةٌ عَلَى فَوَاعِلَ إِلَّا فِي الشَّعْرِ ؛ إِلَّا فِي حَرَفَيْنِ ، وَهِيَ فَارِسٌ وَهَالِكٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمَجَاهِدِينَ : ( وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ) قِيلَ : النَّسَاءُ الْحَسَنَاتُ ؛ عَنْ الْحَسَنِ . دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ » . وَيُقَالُ : هِيَ خَيْرَةُ النَّسَاءِ . وَالْأَصْلُ خَيْرَةٌ تَخْفَفُ ؛ مِثْلُ هَيْبَةٍ وَهَيْبَةٍ . وَقِيلَ جَمْعُ خَيْرٍ . فَالْمَعْنَى لَهُمْ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْفَلَاحِ . وَالْجَنَاحَاتُ : الْبَسَاتِينُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا . قَوْلُهُ تَعَالَى : وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ

كَذَّبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٥﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ) قَرَأَ الْأَعْرَابُ وَالضَّحَّاكُ « الْمُعَذِّرُونَ » مُخَفَّفًا . وَرَوَاهَا أَبُو كَرِيبٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ ، وَرَوَاهَا أَصْحَابُ الْقُرْآنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ » مُخَفَّفَةً ، مِنْ أَعَذَرَ . وَيَقُولُ : وَاقِعٌ لِمَكْنَا أَنْزَلَ . قَالَ النَّعَّاسُ : إِلَّا أَنْ مَدَارَهَا عَلَى الْكَتْفِ ، وَهِيَ مِنْ أَعَذَرَ وَمِنْهُ قَدْ أَعْتَقَ مِنْ أَنْذَرَ ؛ أَيْ قَدْ بَلَغَ فِي الْعَذْرِ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَأَنْذَرَكَ . وَأَمَّا « الْمُعَذِّرُونَ » بِالتَّشْدِيدِ فَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَكُونُ الْحَقُّ ؛ فَهُوَ فِي الْمَعْنَى الْمُعْتَذِرُ ، لِأَنَّهُ لَهُ عَذْرَاءُ . فَيَكُونُ « الْمُعَذِّرُونَ » عَلَى هَذِهِ أَصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ ، وَلَكِنْ التَّاءُ قَلْبٌ ذَالًا فَادْغَمَتْ فِيهَا وَجَعَلَتْ حَرَكَتَهَا عَلَى الْعَيْنِ ؛ كَمَا قُرِئَ « يَخْضَمُونَ » بِفَتْحِ الْخَاءِ . وَيُحْمِزُ « الْمُعَذِّرُونَ » بِكسرِ الْعَيْنِ لِاجْتِنَاعِ السَّاكِنَيْنِ . وَيُحْمِزُ ضَمًّا اتِّبَاعًا لِلْيَمِّ . ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَالنَّعَّاسُ . إِلَّا أَنَّ النَّعَّاسَ حَكَاهُ عَنِ الْأَخْفَشِ وَالْقُرَاءِ وَأَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ . وَيُحْمِزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ الْمُعْتَذِرُونَ ، ثُمَّ ادْغَمَتْ التَّاءُ فِي الذَّالِ ؛ وَيَكُونُونَ الَّذِينَ لَهُمْ عَذْرَاءُ . قَالَ لَيْدٌ ،

إِلَى الْحَمُولِ ثُمَّ كَسَمَ الْغَلَامَ مَلِكًا . وَمِنْ بَيْتِكَ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ أَعْتَدُو

(١) آية ٩٥ - سورة التوبة (٢) طبع ١٤١٥ هـ (٣) آية ٩٦ - سورة التوبة (٤) طبع ١٤١٥ هـ



والقول الآخر أن المعتذر قد يكون غير محق، وهو الذي يعتذر ولا عذر له. قال الجوهري: فهو المعتذر على جهة المُفْعَل، لأنه المُتَرَض والمَقْصَر يعتذر بغير عذر. قال غيره: يقال عذّر فلان في أمر كذا تعذّرا، أي قَصَر ولم يبلغ فيه. والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب. قال الجوهري: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعتذرين. كأن الأمر عنده أن المعتذر بالتشديد هو المظهر للعذر، اعتلالا من غير حقيقة له في العذر. النحاس: قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الإدغام فيقع اللبس. ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤدّن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا. قال النحاس: وأصل المعذرة والأعذار والتعذير من شيء واحد وهو عما يصعب ويتعذر. وقول العرب: مَنْ عَذِرِي من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحق أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به، [فَنَ عَذِرْنِي] إن عاقبته. فعل قراءة التخفيف قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: يا رسول الله، فوغرنا معك أغارت أصراب طي على حلائلنا وأولادنا ومواسينا، فعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى قراءة التشديد في القول الثاني، هم قوم من غفار اعتذروا فلم يعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم، لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقصد قوم بغير عذر أظهره قوله: يراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والمراد بكذبهم قولهم: إنا مؤمنون. و﴿لِيُؤَدِّنَ﴾ نصب بلام كي.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَبْتُمْ نَفِيسُ مِنَ الدِّمْعِ حَرْنًا أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٥٨﴾



## فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ) الآية - أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء ، سقط عنه ، فإزالة إلى بدل هو فعل ، وإزالة إلى بدل هو عزم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ، ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وقوله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتهم سيرا ولا أنقمتهم من نفقة ولا قطعتم من وإد إلا وهم معكم فيه » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : « حبسهم المنذر » . فبينت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعنورين ، وهم قوم عرفهم هنرهم كأرباب الزمانة والمهرم والمعنى والمرج ، وأقوام لم يجدوا ما يتفقون ، فقل : ليس على هؤلاء حرج . ( إِذَا تَصَحَّحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ) إذا صرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعداء ، وما صبرت القلوب ، فخرج ابن أم مكتوم إلى أحد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير ، بغاه رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها ، فامسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فامسكه بصلبده وقرأ « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » . هذه عزائم القوم . والحق يقول : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » وهو في الأول - « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمرو بن الجحوم من ثقباء الأنصار أعرج وهو في أول الجيش . قال له الرسول عليه السلام : « إن الله قد عذرك » فقال : والله لأحفرن<sup>(١)</sup> برجتي هذه في الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدم في هذه السورة من ذكرهم رضي الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي<sup>(٢)</sup> بين الرجلين حتى يقام في الصف .

(١) كرمودة القبرة - (٢) لك ١١ سورة القدر - (٣) لك ١٢ سورة آل عمران -

(٤) قاله سفر الطريق الذي أنزلنا به من قبله - (٥) أي بيني وبينها صفحا طيبا من صفحه وقاله



الثانية - قوله تعالى : ( إِذَا تَصَبَّحُوا ) النصيح إخلاص العمل من النفس . ومنه التوبة النصوح . قال تَقَطُّوْهُ : نصح الشيء إذا خَلَص . ونصح له القول أى أخلصه له . وفى صحيح مسلم عن تميم الدارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعاتمتهم " . قال العلماء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوحدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتربيته عن التفاهة ، والرغبة فى محابه والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، والقيام طاعته فى أمره ونهيه ، وتوالاته من الولاء ومعاداة من عاداه ، وتوقيفه ، ومحبة آل بيته ، وتبليغهم وتبليغ سنته ، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم . وكذا النصيح لكاتب الله : قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتبليغهم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجمعهم وإرادة الخير لكافتهم . وفى الحديث الصحيح " مثل المؤمنين تراءى فى نواصيهم وراحهمس وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

الثالثة - قوله تعالى : ( مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ) " من سبيل " فى موضع رفع اسم " ما " أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن . ولهذا قال علماؤنا الذى يقتض من فاعل يده فيغضى ذلك فى السراية إلى إتلاف نفسه ، لأنه لا دية له ؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : تتركه الذية . وكذلك إذا صال نخل على رجل قتله فى نفسه عن نفسه فلا ضمان عليه ؛ وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : تتركه لماله القيمة . قال ابن العربي : وكذلك القول فى مسائل النصيحة كلها .



الرابعة - قوله تعالى : ( وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ) رَوَى أَنَّ الْآيَةَ  
 نَزَلَتْ فِي عِرْيَاضَ بْنِ سَارِيَةَ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي طَائِفِ بْنِ عَمْرٍو . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقَرَّنَ .  
 - وَعَلَى هَذَا جَهْدُ الْمَفْسَرِينَ - وَكَانُوا سَبْعَةَ إِخْوَةٍ ، كُلُّهُمْ مَحْبُو النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ ، وَلَيْسَ فِي الصَّحَابَةِ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ فَيُرْمَى ، وَهُمْ التَّيَّانُ وَمُعْقِلٌ وَعَقِيلٌ وَسُوَيْدٌ وَسَنَانُ  
 وَسَالِحٌ لَمْ يُسَمَّ . بَنُو مُقَرَّنَ الْمُرْتَبِئُونَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ هَاجَرُوا وَمَحَبُّوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 فَلَمْ يَشَارِكْهُمْ - فَيَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبُرُوجَانَةِ - فِي هَذِهِ الْمَكْرَمَةِ خَيْرُهُمْ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُمْ  
 شَهِدُوا الْخَنْدَقَ كُلَّهُمْ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ مِنْ بَطْنِ شَقٍّ ، وَهُمْ الْبَكَايُونَ أَنَا رَسُولُ  
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ لِيَحْمِلَهُمْ ، فَلَمْ يَجِدْ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا وَأَعَيْنَهُمْ تَقْبِضُ  
 مَنْ التَّمْعَ حَرَّتَا أَلَا يَحْمِلُوا مَا يَنْقُدُونَ ، فَسَمُّوا الْبَكَايِينَ . وَهُمْ سَالِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَمْرٍو بْنِ  
 نُفُوفٍ وَطَلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ أَخُو بَنِي حَارِثَةَ . وَأَبُو لَيْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ مِنْ بَنِي مَازِنَ بْنِ النَّجَارَةِ  
 وَعَمْرٍو بْنِ الْحُجَّامِ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ . وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُثَنَّلِ الْمَزَنِيُّ ، وَقِيلَ : بَلَى هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو  
 الْمَزَنِيُّ ، وَهَرَمِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَخُو بَنِي وَاقِفٍ ، وَعِرْيَاضُ بْنُ سَارِيَةَ الْفَزَارِيُّ ، هَكَذَا سَمَّاهُمْ  
 أَبُو عَمْرٍو فِي كِتَابِ النَّدْوَةِ . وَفِيهِمْ اخْتِلَافٌ . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : مَعْقِلٌ بْنُ يَسَّارٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ خُفَّاءَ .  
 وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ ، وَسَالِمُ بْنُ عَمْرِو ، وَطَلْبَةُ بْنُ قَتْمَةَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْقِلٍ وَآخَرُهُ  
 قَالُوا : يَا أَيُّهَا اللَّهُ ، قَدْ تَدَبَّقْنَا الْخُرُوجَ مَعَكَ ، فَاحْلُنَا عَلَى الْخِلَافِ الْمَرْفُوعَةِ وَالْعَمَالِ الْمُخْصُوفَةِ  
 فَخْرُ مَعَكَ . قَالَ : « لَا أَجِدُ مَا أَحْلِمُكُمْ عَلَيْهِ » فَقَالُوا وَهُمْ يَكُونُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سَأَلُوهُ  
 أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى الدُّوَابِّ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَحْتَاجُ إِلَى بَصِيرَيْنِ ، بَصِيرَ يَرْكَبُهُ وَبَصِيرَ يَحْمِلُ مَاهُ وَزَادَهُ  
 لِيَعْدَ الطَّرِيقَ . وَقَالَ الْحَسَنُ : نَزَلَتْ فِي أَبِي مُوسَى وَصَحَابِهِ أَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 لِيَحْتَمِلُوهُ ، وَوَأَقْبَقَ ذَلِكَ مِنْهُ غَضَبًا فَقَالَ : « وَاللَّهِ لَا أَحْلِمُكُمْ وَلَا أَجِدُ مَا أَحْلِمُكُمْ عَلَيْهِ »  
 فَقَالُوا يَكُونُ ؟ فَلَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْطَاهُمْ قُدْرًا . فَقَالَ أَبُو مُوسَى ،

(١) لم يذكر المؤلف غير هذه . والذي في القاموس ( مادة قرن ) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيل وسليمان  
 وهشام وسورة وسنان ، أولاد قرن كسبث صحابون » .

(٢) الله من الآل ، ما بين ثلاث إلى عشرة وهي مائة لا واحد لها من فضاء الكثير ألقاه .



السَّبَّ حَلَقَتْ يَارْحُولُ الله ؟ فقال : " إني إن شاء الله لا أحلف على يمين قارى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يميني " .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم بلفظه ومعناه . وفى مسلم : فدا بنا فمسر لنا بنحس ذود غر الدرى ... الحديث . وفى آخره : " فانطلقوا فإنما حكمكم الله " . وقال لأحسن أيضا وبكر بن عبد الله : نزلت فى عبد الله بن مفضل المزنى ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجرجاني : التقدير أى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقت لا أجد . فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بنسب واو ، والجواب « تولوا » . ( وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ) الجملة فى موضع نصب على الحال . ( حَزَنًا ) مصدر . ( الْأَ يَجِدُوا ) نصب بان . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يعمل لا يمتنى ليس . وهو عند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامسة - والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه فى غزوه أنه لا يجب عليه . وقال صلواتنا : إذا كانت عادته المسألة لزمه كالخروج على العادة لأن حاله إذا لم يتغير يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواحد . والله أعلم .

السادسة - فى قوله تعالى : ( وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ) ما يستدل به على قرآن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضرورى ، ومنها ما يحتمل التردد . فالأول كمن يمر على دار قد ملا فيها التلى وتشتت الحدود وحلقت الشعور وسُلبت الأصوات ونزعت الجيوب وتنادوا على صاحب الدار بالتيور ؛ فيعلم أنه قد مات . وأما الثانى فكدموع الأيتام على أبواب الحكام ، قال الله تعالى نغبرا عن إخوة يوسف طهيم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاهُ يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعالى نغبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » .

(١) أى يجرى الدموع ، وهو الذى يجر الدموع الجارية . والله أعلم .  
(٢) لعل ، فدية الموت .



ومع هذا فإنها قرأتان يستدل بها في الغالب فتبقى عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال  
وغالبا . وقال الشاعر :

إذا أشبكت دموع في خدود • تبين من بكي من تباكي  
وسألي هذا المعنى في « يوسف » مستوفى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾  
قوله تعالى : ( إِنَّمَا السَّبِيلُ ) أى العقوبة والمأثم . ( عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ) والمراد المنافقون . كره ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعالى : يَعْزِزُونَ الْبَيْكِرَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَزِّدُوا لَنْ تُوْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾  
قوله تعالى : ( يَعْزِزُونَ الْبَيْكِرَ ) يعنى المنافقين . ( لَنْ تُوْمِنَ لَكُمْ ) أى لن نصدقكم  
( قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ) أى أخبرنا بسرائركم . ( وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ) فيما تستأفون  
( ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى يجازيكم بعملكم . وقد  
مضى هذا كله مستوفى .

قوله تعالى : سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَاَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ( سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ) أى من تبتك . والجلول عليه  
هذول ، أى يجلفون أنهم ما قدروا على الخروج . ( لِيُعْرَضُوا عَنْهُمْ ) أى تصفحوا من



لومهم . وقال ابن عباس : أى لا تكلمهم . وفى الخبر أنه قال عليه السلام لما قِيم من  
تَبُوك : « ولا تَجَالِسُوهم ولا تَكَلُمُوهم » . ( اَنْتُمْ رَجَسٌ ) أى عملهم وجس ؛ والتقدير ؛  
انهم ذوو رجس ؛ أى عملهم قبيح . ( وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ ) أى متلهم ومكانهم . قال الجوهري :  
الماوى كل مكان يأوى إليه شئ ، لئلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أربابا ، على  
فعل ، وإواء . ومنه قوله تعالى : « سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَخَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » . وأويته أنا  
إبواء . وأويته إذا أنزلته بك ، فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبي زيد . وماوى الإبل ( بكسر  
الواو ) لئلا فى مأوى الإبل خاصة ، وهو شاذ .

قوله تعالى : يَخَافُونَ لَكُرًّا لِّتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ رَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ  
لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾

حلف عبد الله بن أبي الأيخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وطلب  
أن يرضى عنه .

قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ  
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ) فيه مسائلان :

الأولى - لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائبا  
عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل ،  
لأنهم أفسى قلبا وأجنى قولا وأغلظ طبعيا وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى  
في حقهم : ( وَأَجْدَرُ ) أى أخلق . ( أَلَّا يَعْلَمُوا ) « أن » فى موضع نصب بخذف الباء ؛  
تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذف الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن  
أتيت بـ « أن » بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيام .



ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن لنا يدل على الاستقبال فكانها عوض من المحذوف . ( حُدُودَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ) أى فرائض الشرع . وقيل : صحيح الله فى الروبوية وبينة الرسل لقلة نظريهم .

الثانية — ولما كان ذلك ودل على قصصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن مواهم توثيت على ذلك أحكام ثلاثة :

أولها — لاحق لهم فى النبىء والنعمة ؛ كما قال النبىء صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم من حديث بُريدة ، فيه : ” ثم أَدْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْهَا فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِى يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي النِّعْمَةِ وَالنِّعْمَةِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَاجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ “ .

وثانيها — إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لما فى ذلك من تحقق التهمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعى كل تهمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعى إذا كان عدلا مرضيا ؛ وهو الصحيح لما بيناه فى « البقرة » . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها — بالكفر والتفاسق . والثانى — بأنه يتخذ ما ينفع مفرماً ويترصد بكم الدوائر . والثالث — بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما ينفع قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وصلوات الرسول ؛ فمن كانت هذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء » .

وثالثها — أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة لجهلهم بالسنة وتركهم الجماعة . وكره أبو عيسى إمامة الأعرابي . وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقراهم . وقال مسفيان الثوري والشافعى وإسحاق وأصحاب الرأى : الصلاة خلف الأعرابي جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة



قوله تعالى: **(أُنْثَى)** أمهه **(أُنْثَى)** وقد تقدم. **(كَفَرًا)** نصب على اليان. **(وَيَفَاقًا)** صطف عليه. **(وَأَجْدَرُ)** صطف على أنثى، ومعناه أخلق؛ يقال: فلان جدير بكنا أى خليق به، وانت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجدريون. وأصله من جذر الحائط وهو رصفه بالبناء. وقوله: هو أجدر بكنا أى أقرب إليه وأحق به. **(الْأَيُّمُلُوا)** أى بالأيام. والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عربى بين المروية، وهم أهل الأنصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصحى أعراب. والنسبة إلى الأعراب أعرابى لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً لنبط، وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخلفاء منهم، وأخذ من لفظه واكذبته كقولك: ليل لائل. وربما قالوا: العرب العرباء. وتوزب نسبة بالعرب. وتوزب بعد هجرته أى صار أعرابياً. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلفاء، وكذلك المتعربة، والعربية هى هذه اللغة. ويعرب بن خَطَّان أؤل من تكلم بالعربية، وهو أبو أيمن مكهم. والعرب والعرب واحد؛ مثل العجم والعجم. والعربى تصغير العرب؛ قال الشاعر: ومكن الضباب طعام العربى. ولا تشبيهه نفوس التجم<sup>(١)</sup>.  
**(أنا صفرهم تعظيماً)** كما قال: أنا جديلاً المحكك، وعذيقها المربج<sup>(٢)</sup> كله عن الجوهرى. وحكى الفسرى: وجمع العربى العرب، وجمع الأعرابى أعراب وأعرابى. والأعرابى إذا قيل له يا عربى فوج، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسُميت العرب عرباً لأن ولد إسماعيل نشأ من عربية وهى من تهامة فنسبوا إليها. وأقامت قريش بعربة وهى مكة، وانتشر سائر العرب فى جزيرتها.

(١) البيت لبيد المزدحم بن عبد القدوس. والمكن: جنس الضبة والجرادة والمحوط. (٢) الجذيل تصغير الحنظل، وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذى تمكك به إزبل الجربى، وهو عود ينصب فى مباركة الإبل لتلك. والذيق: تصغير الذوق، وهو النخلة. والمربج: الذى جعل له رجة، وهى دعامة بين حيطان المارة. وهو من قول الجاهل بن المنذر المرح الأصبغ يوم الحيلة مع عمة أبي بكر رضى الله عنه. **وهذه الأعراب**، وهى رأى معلم ينظر بها كتنفى الإبل الجربى أحسكها بالطلال.



قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَخُذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكَ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ( **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَخُذُ** ) «من» في موضع رفع بالابتداء . ( **مَا يَنْفِقُ** مَغْرَمًا ) مفعولان ؛ والتقدير ينفقه ، فحذفت الهاء لطول الاسم . ( **مَغْرَمًا** ) معناه غرماً وخسراناً ؛ وأصله لزوم الشيء ؛ ومنه : « **إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** » أى لازماً ، أى يرون ما ينفقونه في جهاد وصدقة غرماً ولا يرجون عليه ثواباً . ( **وَيَتَرَبَّصُّ بِكَ الدَّوَائِرَ** ) التربص الانتظار ؛ وقد تقدّم . والدوائر جمع دائرة ، وهى الحالة المتقلبة عن النعمة الى البلية ، أى يعمدون الى الجهل بالاتفاق سوء الدخلة وخبث القلب . ( **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** ) قراه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح ، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السين في قوله : « **مَا كَانَتْ أَبْرُكَ أَمْرًا سَوًّا** » . والفرق بينهما أن السوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفراء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالوا : ولا يجوز أمرأ سوء بالضم ؛ كما لا يقال : هو أمرؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد ابن يزيد قال : **السَّوْءُ** بالفتح الرداءة . قال سيبويه : مررت برجل صديق ، ومعناه برجل صلاح . وليس من صديق اللسان ، ولو كان من صديق اللسان لما قلت : مررت بشوب صديق . ومررت برجل سوء ليس هو من سوءته ، وإنما معناه مررت برجل فساد . وقال الفراء : **السَّوْءُ** بالفتح مصدر سوءته وسوءاً وسوائية . قال غيره : والفعل منه ساء يسوء . **والسَّوْءُ** بالضم اسم لا مصدر ؛ وهو كفولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَخُذُ مَا يَنْفِقُ قَرِيبَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنْهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٣٩﴾



قوله تعالى : (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) أى صدق . والمراد بنو مُقرن من  
 مَزِينَة ؛ ذكره المهدوي . (قُرْبَاتٍ) جمع قُرْبَة ، وهى ما يتقرب به الى الله تعالى ، والجمع  
 قُرَب وقُرَبات وقُرَبات وقُرَمَات ؛ حكاه الصحاح . والقربات (بالضم) ما تُقَرَّب به الى  
 الله تعالى ؛ تقول منه : قَرَبْتَهُ قُرْبَانًا . والقُرْبَة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ؛ والجمع  
 فى أدنى العدد قُرَبَات وقُرَبات وقِرَبَات ، والكثير قَرَب . وكذلك جمع كل ما كان على فَعْلَة ؛  
 مثلُ بَسْطَرَة وبَفَرَة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكن ؛ حكاهها الجوهري . وقرا نافع  
 فى رواية ورش « قُرْبَة » بضم الزاء وهى الأصل . والباقون يسكنونها تخفيفا ؛ مثل كُتِبَ  
 ورُسِّل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ابن سعد أن يزيد بن القعقاع قرأ : (أَلَا إِنَّهَا  
 قُرْبَة لِّهِمْ) . ومعنى (وَصَلَّوَاتِ الرُّسُولِ) استغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضروب ؛  
 فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ  
 وَمَلَائِكَتُهُ » . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما  
 قال : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى دعاؤك تنبت لهم وطمانينة . (أَلَا إِنَّهَا قُرْبَة  
 لَهُمْ) أى تقربهم من رحمة الله ، يعنى نفقاتهم .

قوله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ  
 اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٥﴾)

فيه سبع مسائل :

الأولى - لما ذكر اصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم  
 السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم . وقد اختلف فى عدد طبقاتهم واصنافهم .  
 ونحن نذكر من ذلك طرفا نبين الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب  
 أنه قرأ « والأنصار » رفعاً مطلقاً عن السابقين . قال الأخفش : الخلف فى الأنصار



الوجه؛ لأن السابقين منها . والأصهار اسم إسلامي . قيل لآس بن مالك : أرايت قول الناس لكم : الأصهار، اسم سماكم الله به أم كنتم تسمون به في الجاهلية ؟ قال : بل اسم سمنا الله به في القرآن، ذكره أبو عمر في الاستذكار .

الثانية - نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين؛ في قول سعيد بن المسيب وطائفة . وفي قول أصحاب الشافعي هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحُدَيْبِيَّة؛ وقاله الشعبي . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهي :

الثالثة - قال أبو منصور البخاري رحمه الله : أصحابنا يجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقيون إلى تمام العشرة، ثم البديون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَّة .

الرابعة - وأما أولهم إسلاماً فروى مجاهد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاماً ؟ قال أبو بكر، أو ما سمعت قول حسان :

إِنَّا نَذْكُرُتَ نَحْمِيَّوًا مِنْ أَمَى نَمَةٍ • فَأَذْكَرَ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَضَّلَا  
خَيْرَ الْجَبْرِيةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا • بِسَدِّ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا  
النَّبِيُّ النَّبِيَّ الْمُحَمَّدُ مَشْهُدُهُ • وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرَّسُلَا

وذكر أبو الفرج الجوزي عن يوسف بن يعقوب بن الماسحون قال : أدركت أبي وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وصالح بن كيسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأخنسي وهم لا يشكون أن أول القوم إسلاماً أبو بكر، وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبي بكر، وبه قال إبراهيم النخعي . وقيل : أول من أسلم علي؛ روى ذلك عن زيد ابن أرقم وأبي ذر والمقداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أن علياً أولهم إسلاماً . وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر بن



فك عن الزهري . وهو قول سليمان بن يسار ومروة بن الزبير وعمران بن أبي انس .  
 وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهري ، وهو قول  
 قتادة ومحمد بن إسحاق بن يسار وجماعة ، وروى أيضا عن ابن عباس . وأدعى التلميذ المفسر  
 اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيما أسلم بعدها .  
 وكان إسحاق بن إبراهيم بن رَاهَوِيَةَ الحنظلي يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم  
 من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن  
 العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال حدثني  
 أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعا  
 أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين .  
 وروى أن طيا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامسة - والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخاري في صحيحه : من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه  
 من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد الصحابي إلا من  
 أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا  
 القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جرير بن عبيد الله البجلي  
 أو من شاركه في فقد ظاهر ما اشترطه فهم مما لا تعرف خلافا في مذهبه من الصحابة .

السادسة - لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق . قال  
 ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل  
 هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : ” نحن الآخرون  
 الأولون بيدهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم فهذا الذي اختلفوا فيه فهذا  
 الله له فاليهود غفرا والنصارى بعد غد “ . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم  
 بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتنال لأمر الله تعالى والافتقاد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا



بتكليفه والاحتمال لو طائفه ، لا تفرض عليه ولا تختار منه ، ولا لبلل بالراى شريسته كما فعل أهل  
الكلب ، وذلك بتوفيق الله لما قضاه ، وبغيره لما مضاهوه كما انتهى لولا أن حلف الله .  
السابعة - قال ابن خزيمة متداد : تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل  
منفعة من مناقب الشريعة ، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك ، في العطاء في المال والرتبة  
في الإكرام . وفي هذه المسألة خلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . واختلف العلماء  
في تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم ، فروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان  
لا يفضل بين الناس في العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له :  
أجعل ذا السابقة كن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر  
يفضل في خلافه ، ثم قال عند وفاته : لن عشت إلى غد لألحق أسفل الناس بأعلام ،  
فأت من ليته . والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ) فيه مسألتان :

الأولى - قرأ عمر « والإنصار » رقا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار ، فراجعه  
زيد بن ثابت ، فقال عمر أبي بن كعب فصلى زيدا ، فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا  
ورقا رقة لا ينالها مع أحد . فقال أبي : مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة :  
« وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ »<sup>(١)</sup> وفي سورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ  
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »<sup>(٢)</sup> . وفي سورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ  
آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ »<sup>(٣)</sup> . فثبت القراءة بالواو . وبين تعالى  
بقوله : ( بِإِحْسَانٍ ) ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من المفوات  
والزلات ، إذ لم يكونوا معصومين رضي الله عنهم .

الثانية - واختلف العلماء في التابعين ومراتبهم ، فقال الخطيب الحافظ : التابعي  
من صحب الصحابي ؛ ويقال الواحد منهم : تابع وتابى . وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره

(١) آية ٢ (٢) آية ١٠ (٣) آية ٢٠



مُتَّعَ بِهِ يَكْفِي فِيهِ أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الصَّاحِبِ أَوْ يَلْقَاهُ وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ الصَّحَابَةَ الْغَرِيْبَةَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ آمَنَ التَّابِعِينَ يَطْلُقُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْحَدِيثِ ، نَكَالَهُ بَنُ الْوَلِيدِ وَصَوْرُو بْنُ الْعَاصِ وَمَنْ دَاوَاهُمْ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ ؛ لِمَا ثَبَتَ أَنَّ عِدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدُ : " دَعُوا إِلَى أَصْحَابِي فَوَالَّذِي قَسَى بِيْسِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدُّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصَفَهُ " . وَمِنْ الْعَجَبِ عَدَ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمَانَ وَسُوَيْدَا ابْنَيْ مُقَرَّنَ الزُّبَيْرِ فِي التَّابِعِينَ عِنْدَ مَا ذَكَرَ الْإِخْوَةَ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَهِيَ صَحَابِيَّانِ مَعْرُوفَانِ مَذْكُورَانِ فِي الصَّحَابَةِ ، وَقَدْ شَهِدَا الْخَنْدَقَ كَمَا تَقْدُمُ . وَآلَهُ أَعْلَمُ . وَأكْبَرُ التَّابِعِينَ الْفَقَهَاءُ السَّبْعَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الزَّيْرِ ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَسَلْيَانُ بْنُ يَسَارٍ . وَقَدْ نَظَّمَهُمْ بَعْضُ الْأَجَلَةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَقَالَ :

نَظَّمَهُمْ عِيْدُ اللَّهِ عَمْرُوٌ قَاسِمٌ • سَعِيْدُ أَبُو بَكْرٍ سَلْيَانُ خَارِجَةُ

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَعَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . وَعَنهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ قَيْسُ وَأَبُو عَثَانَ وَعَلَقْمَةُ وَمَسْرُوقٌ ، هَؤُلَاءِ كَانُوا قَاضِيَيْنِ وَمِنْ عَلَيْهِ التَّابِعِينَ . وَقَالَ أَيْضًا : كَانَ عَطَاءُ مَقِيٍّ مَكَّةَ وَالْحَسَنُ مَقِيٍّ الْبَصْرَةَ ، فَهَٰذَا أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُمْ ؛ وَأَبُوهُمَا . وَرَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ : سَيِّدَتَا التَّابِعِينَ مِنَ النِّسَاءِ حَفْصَةُ بِنْتُ مِيرِينَ وَعَمْرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَثَانَتُهُمَا - وَلَيْسَتْ كَهُمَا - أُمُّ الدَّرْدَاءِ . وَرَوَى عَنْ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : طَبَقَةُ تَعَدُّ فِي التَّابِعِينَ وَلَمْ يَصْحَ سَمَاعُ أَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُوَيْدٍ النَّخَعِيُّ - وَلَيْسَ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ زَيْدٍ النَّخَعِيِّ - الْفَقِيهَ ، وَبَكِيرُ بْنُ أَبِي السَّمِيطِ ، وَبَكِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْجَعِ . وَذَكَرَ غَيْرُهُمْ قَالَ : وَطَبَقَةُ عِدَادِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ فِي أَتْيَاعِ التَّابِعِينَ ، وَقَدْ لَقُوا الصَّحَابَةَ مِنْهُمْ أَبُو الزَّيَادِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذَكْوَانَ ، أَيْمَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أُنْسًا . وَهَشَامُ بْنُ عَمْرٍو ، وَقَدْ أَدْخَلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

(١) مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ . (٢) هُوَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

(٣) فِي التَّفْرِيبِ : « السَّمِيطُ يَفْتَحُ الْمَهْمَلَةَ » وَيُقَالُ بِالضَّمِّ « .



وجابر بن عبد الله وموسى بن عتبة، وقد أدرك أنس بن مالك . وأم خالد بنت خالد بن سعيد .  
 وفي التابعين طبقة تسمى بالمتحضرين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا محبة لهم . واحدم غنضم ( بفتح الراء ) كأنه خضم ، أى قطع عن  
 نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفساً، منهم أبو عمرو  
 الشيباني ، وسويد بن غفلة الكندي ، وعمرو بن ميمون الأودي ، وأبو عثمان التدي ،  
 وعبد خير بن يزيد النخعي ( بفتح الخاء ) ، بطن من همدان ، وعبد الرحمن بن مل . وأبو الحلال  
 العتكي ربيعة بن زدارة . ومن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب ،  
 والأحنف بن قيس . فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن  
 الكريم ، وضوان الله عليهم أجمعين . وكفانا نحن قوله جل وعز : « كُتِبَ خِرَافَةٌ نُفِثَ لِلنَّاسِ »  
 حل ما تقدم . وقوله عز وجل : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » الآية . وقال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم : « وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا ... » الحديث . بلغنا إخوانه ، إن أهنا الله  
 واقضينا آثاره حشرنا الله في زمرة ولا حاد بنا عن طريقته وملتة بحق مجد وآله .

قوله تعالى : **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَهُمْ نَحْنُ نَعْلَهُمْ سَنَّاهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** (١٠١)

قوله تعالى : ( **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ** ) ابتداء وخبر . أى قوم منافقون ؛  
 معنى مَرَدُّو عَلَى النِّفَاقِ وَجُوبَةُ وَأَسْلَمُ وَغَفَارُ وَأُتْقِعُ . ( **وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو عَلَى النِّفَاقِ** ) أى قوم  
 مردوا على النفاق . وقيل : « مردوا » من نعت المنافقين ؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ،  
 المعنى . ومن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ، ومن أهل المدينة مثل ذلك .  
 ومعنى : « مردوا » أقاموا ولم يتوبوا ؛ عن ابن زيد . وقال غيره : بلجؤا فيه وأبوا غيره .

(١) راجع ج ٤ ص ١٧٠ طبة أمد اذ تامة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٢ طبة ثانية .



واللهي متقارب - وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجود؛ فكأنهم تجردوا للتفان . ومنه  
وملة مرداء لا تثحبها - وعُصْنُ أَمْرَدٌ لا يروق عليه . وفرس أَمْرَدٌ لا شعر على فُتْه<sup>(١)</sup> .  
وغلام أَمْرَدٌ بين المَرْدَ ؛ ولا يقال جارية مرداء . وتجريد البناء تليسه؛ ومنه قوله : « مَرَحٌ<sup>(٢)</sup>  
يَمْرُدُ » . وتجريد الفصن تجريده من الورق ؛ يقال مرد يرد مردوا ومرادة .

قوله تعالى : ( لَا تَتْلُوهُمْ نَحْنُ تَتْلُوهُمْ ) هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ »<sup>(٣)</sup> .  
ما قدم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع  
أن يحكم على أحد بمحنة أو نار .

قوله تعالى : ( سَتُعَذِّبُهُمْ مُّزَيِّنٌ ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ) قال ابن عباس :  
بالأمر لمرض في الدنيا وعذاب الآخرة . فَرَضَ الْمُؤْمِنُ كِفَارَةً ، ومرض الكافر عقوبة .  
وقيل : العذاب الأول الفضيحة بإطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتي بيانه  
في المناققين . والعذاب الثاني عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر .  
ابن زيد : الأول بالمصائب في أموالهم وأولادهم ، والثاني عذاب القبر . مجاهد : الجوع  
والقتل . العراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السبأ والقتل . وقيل : الأول أخذ الزكاة .  
من أموالهم وإحراء الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر . وقيل : أحد العنايين ما قاله  
تعالى : « فَلَا تُجْزِكُ أَمْوَالُهُمْ » - إلى قوله - إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(٤)</sup> .  
والفرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ  
مَسِيئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ<sup>(٥)</sup> إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أي ومن أهل المدينة ومن حولكم قوم أقرؤا بذنوبهم ، وآخرون مَرَجُونَ لأمر الله يحكم  
فيهم بما يريد . فالصنف الأول يحتمل أنهم كانوا مناققين وما مَرَدُّوا على التفان ، ويحتمل

(١) التنة : مؤنر الرسخ ، وهي شعرات حلاوة مشرفات من خلفه  
(٢) من باب نصر وكسر . (٣) آية ٢٤ سورة النمل .  
(٤) آية ١٠ سورة الأحقاف . (٥) آية ٥٤ من هذه السورة .



أنهم كانوا مؤمنين . وقال ابن عباس : نزلت في حشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فأوى سبعة منهم أنفسهم في سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ؛ ذكره المهدوي . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية . وقيل كانوا ستة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة ؛ وذلك أنهم كذبوا في الترويل على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلقه . يريد أن النبي صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ؛ فكثرت كذلك حتى عفا الله عنه ، ونزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه ؛ ذكره الطبري عن مجاهد ، وذكره ابن إسحاق في السيرة أَوْعَبَ من هذا . وقال أنسب عن مالك : نزلت « وآخرون » في شان أبي لبابة وأصحابه ، وقال حين أصاب الذنوب : يا رسول الله ، أجاورك وأنزع من مالي ؟ فقال : « يميزك من ذلك الثلث وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » » ورواه ابن القاسم وآبن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت في شان المتخلفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم رَغَوُا حَتَّى وَتَخْلُقُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ » فانزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل اليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خافنا عنك ، فصَدَّقْ بِهَا عَنَا وَطَهِّرْنَا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا . فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فانزل الله تعالى « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . قال ابن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبو لبابة ؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التي أصابوها . فكان عملهم السيئ التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا في الصلاح ؛ فقال الطبري وغيره : الاعتراف والتوبة والندم . وقيل : عملهم الصالح الذي عملوه أنهم لحقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربطوا



انقسم بسورى المسجد وقالوا : لا تعرب املا ولا ولما حتى يزل الله عننا . وقالت فرقة :  
 بل القبل الصالح غزوهم فياسق من غزو النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية وإن كانت  
 تركت في أصراب فهي مائة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيرة ؛ فهي ترجى .  
 ذكر الطبري عن حجاج بن أبي زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما في القرآن آية أرى  
 عندي لهذه الأمة من قوله تعالى « وَأَخْرُجُوا كَافِرُونَ يُدْنُوهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ سَيِّئًا » .  
 وفي البخاري عن سُمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : « أنا في الليلة  
 آتيا فابتمشانى فاتمينا إلى مدينة مبنية بلين ذهب ولين فضة فلقا رجال شطرنج من خلقهم  
 كأحسن ما أنت راء وشطرنج كاقبح ما أنت راء قال لم أذهبوا فقموا في ذلك النهر فوقعوا  
 فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة قال لا في هذه جنة عدن  
 وهذا مترك قال أما القوم الذي كانوا شطرنج منهم حسن وشطرنج منهم قبيح فإنهم خلطوا  
 عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » . وذكر البيهقي من حديث الزبير بن أنس عن أبي هريرة  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : « ثم صعد بي إلى السماء ... » ثم ذكر  
 الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : « حياه الله من أخ وخليفة ، فتم الأخ  
 وتم الخليفة وتم المحيى جاء فإذا برجل أشمط جالس على كرسي عند باب الجنة وعنده قوم  
 بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفي ألوانهم شيء فأتوا نهرًا فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد  
 خلص من ألوانهم شيء ثم إنهم أتوا نهرًا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم  
 شيء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقد خلصت ألوانهم مثل ألوان أصحابهم فجلسوا إلى  
 أصحابهم فقال يا جبريل من هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا النهر  
 وقد خلصت ألوانهم فقال هذا أبوك إبراهيم هو أول رجل تسمط على الأرض وهؤلاء بيض  
 الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء خلطوا عملا  
 صالحا وآخر سيئا فأتوا كتاب الله عليهم . فاما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثاني فنعمة الله .



وأما النهر الثالث فسقام ربه شرباً طهوراً وذكر الحشبة . والواو في « وآخر مية » قيل  
هي بمعنى الباء ، وقيل بمعنى مع ؛ كقولك استوى الماء والحشبة . وانكر ذلك الكوفيون وقالوا ؛  
لأن الحشبة لا يجوز تقديمها على الماء ، و « آخر » في الآية يجوز صدقه على الأول ؛ فهو  
بمثلة خلط الماء بالبن .

قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ  
عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾  
فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ) اختلف في هذه الصدقة المأمور بها ؛  
ف قيل : هي صدقة الفرض ، قاله جوير عن ابن عباس ، وهو قول عكرمة فيما ذكره القشيري .  
وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم ؛  
وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء ؛ ولهذا قال مالك : إذا تصدق الرجل بجميع ماله أجزأه  
إخراج الثلث ؛ متمسكاً بحديث أبي ثبابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبي صلى الله عليه  
وسلم يقتضى بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواء ؛ ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه  
وزوالها بموته . وبهذا تعلق مانس الزكاة على أبي بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضاً  
منها التطهير والتزكية والصلاة علينا وقد عدناها من غيره . ونظم في ذلك شاعرهم فقال : -

أطعنا رسول الله ما كان بيننا • فإعجاباً ما بال ملك أبي بكر  
وان الذي سالوكم فتمسّم • لكأتمر أو أحلّ لديهم من النعم  
سمنهم ما دام فينا قبضة • كراماً على الضراء في السر واليسر

وعذا صف من الثمانين على أبي بكر أمثلهم طريقة ، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأقاتلن  
من تفرق بين الصلاة والزكاة . ابن العربي : أما قولهم إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم  
لا يلحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن ما أخذ الشريعة متلاعب بالدين ؛ فإن  
المخاطب في القرآن لم يرد باباً واحداً ولكن اختلفت موارده على وجوه ؛ فمنها خطاب توجه إلى



جميع الأمة كقوله : « يا أيها الذين آمنوا إنما قم إلى الصلاة » وقوله « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » ونحوه . ومنها خطاب خاص به ولم يشركه فيه غيره لفظا ولا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِهِ تَائِفَةً لَّكَ » وقوله : « خَالِصَةً لَّكَ » . ومنها خطاب خاص به لفظا وشركه جميع الأمة معنى وفعلًا كقوله : « أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية . وقوله : « فَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » وقوله : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ » . فكل من دلَّكَت عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة . وكذلك من خاف بقم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القبيل قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : « يا أيها النبي - آتِ اللَّهَ » و « يا أيها النبي - إذا طَلَقْتَ النِّسَاءَ » .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهو رؤوس : إلى أن المال الثابت والمتاع والعروض . ولا تسمى العين مالا . وقد جاء هذا المعنى في السنة الثانية من رواية مالك عن ثور بن زيد الدبلي عن أبي الغيث سالم مولى ابن مضيع عن أبي هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا ورقًا إلا الأموال الثابت والمتاع . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المال الصامت من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصة ومنه قولهم : المال الإبل . وقيل جميع الماشية . وذكر ابن الأثير عن أحد بن يحيى الجعفي قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والورق فليس بمال ؛ وأنشد :

واقفه ما بلغت لي قط ماشية . حد الزكاة ولا إبل ولا مال

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما يُمَوَّلُ ويُمَلَّك هو مال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « يقول ابن آدم مالي ومالي وإنما له من ماله ما أكل فأفني أو لبس فأبلى أو تصدق »

- |                          |                           |                           |
|--------------------------|---------------------------|---------------------------|
| (١) آية ٦ سورة المائدة . | (٢) آية ١٨٣ سورة البقرة . | (٣) آية ٧٨ سورة الاسراء . |
| (٤) آية ٩٨ سورة النحل .  | (٥) آية ١٠٢ سورة النساء . | (٦) أول سورة الأحزاب .    |
| (٧) أول سورة الطلاق .    |                           |                           |



فأعطى الدرع فأنبت به مخزقا في بطن سليمة؛ فإنه لأقل مال تأتته في الإسلام. فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن؛ إلا أن ينوي شيئا بعينه فيكون على ما نواه. وقد قيل: إن ذلك على أموال الزكاة. والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملك يسمى مالا. والله أعلم.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه؛ وإنما بيان ذلك في السنة والإجماع، حسب ما نذكره. فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال. وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة في المواشي والحبوب والتمين، وهذا مالا خلاف فيه. واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر المروض. وسياق ذكر الخيل والعسل في «التحل» إن شاء الله. روى الأئمة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وإيس فيما دون خمس أواق من الوريق صدقة وإيس فيما دون خمس دود من الإبل صدقة». وقد مضى الكلام في «الأنعام» في زكاة الحبوب وما تنبت الأرض مستوفى. وفي المعادن في «البقرة» وفي الحل في هذه السورة. وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهما؛ فإذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من فضة مضروبة — وهي الخمس أواق المنصوصة في الحديث — حولا كاملا فقد وجبت عليه صدقتها؛ وذلك ربع عشرها خمسة دراهم. وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام: «إيس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول». أخرجه الترمذي. وما زاد على المائتي درهم من الوريق فبحساب ذلك في كل شيء منه ربع عشره قل أو أكثر؛ هذا قول مالك والليث والشافعي وأكثر أصحاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى. والتوروي والأوزاعي وأحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق وأبي عبيد. وروى ذلك عن علي وابن عمر. وقالت طائفة: لا شيء؛ فيما زاد على المائتي درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهما؛ فإذا بلغت

(١) الخرف (بالفتح): القطعة الصغيرة من النخل، ست أوسع يشترها الرجل حمرة (الحنى). - وقيل: هي

حامة النخل ما يفتح. (٢) تأكل مالا: اكتسب واتخذ وعمره. (٣) رابع: ٧ ص ٩٨

وما يهدا طيبة أول أو ثانية. (٤) رابع: ٣ ص ٢٢١ وما بعدها.



كان فيها درهم وذلك ربع عشرها . هذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطلوس  
والشامي والزمري ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعة - وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلماء على أن الذهب إذا كان عشرين  
دينارا قيمتها مائة درهم لما زاد أن الزكاة فيها واجبة ؛ على حديث عليّ ، أخرجه الترمذي عن  
سقمة والحارث عن عليّ . قال الترمذي : سألت محمد بن اسماعيل عن هذا الحديث فقال  
كلهما مندي صحيح عن أبي اسحاق ، يحمل أن يكون منهما جميعا . وقال الباقى فى المتن :  
وهذا الحديث ليس إسناده هناك ، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه ،  
وأما أعلم ، وروى عن الحسن والثوري ، وإليه مال بعض أصحاب داود بن عليّ ، من أن الذهب  
لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا . وهذا يردّه حديث عليّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبي  
صلّى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين دينارا نصف دينار ، ومن الأربعين دينارا  
دينارا ، على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذكر .

الخامسة - اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس دنانير من الإبل فلا زكاة فيه .  
فلما بلغت خمسا نفيا شاة . والشاة تقع على واحدة من الغنم ، والغنم الضأن والمز جميعا . وهذا  
أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس في خمس إلا شاة واحدة ؛ وهي فريضة . وصدقة المواشى  
سبعة في الكتاب الذى كتبه الصديق لأنس لما وجهه إلى البحرين ، أخرجه البخارى  
وأبو داود والدارقطنى والنسائى وابن ماجه وغيرهم ، وكه متفق عليه . واختلف فيه في موضعين ؛  
الأول في زكاة الإبل ، وهى إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدق بالخيار  
إن شاء أخذ ثلاث بنات لبون ، وإن شاء أخذ حقتين . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب  
فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حقة وأبنا لبون . قال ابن القاسم :  
ورأى على قول ابن شهاب . وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبى سلمة وعبد العزيز بن أبى

(١) ابن لؤمى . وقد لاقاة إذا استكمل السنة الثانية ، ودخل في الثالثة . والمثل (الكسر) : الله استكمل

ثلاث سنين ودخل في الرابعة .



حازم وابن دينار يقولون بقول مالك . وأما الموصع الثاني فهو صدقة الغنم ، وهي إذا زادت على ثمانمائة شاة وشاة ، فإن الحسن بن صالح بن حمزة قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربع مائة شاة وشاة ففيها خمس شياه ، وهكذا كلما زادت ، في كل مائة شاة . وروى عن إبراهيم النخعي مثله . وقال الجمهور : في مائتي شاة وشاة ثلاث شياه ، ثم لا شيء فيها إلى أربع مائة فيكون فيها أربع شياه ، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعا وانحافا . قال ابن عبد البر : وهذه مسألة وهم فيها ابن المنذر ، وحكى فيها عن العلماء الخطأ ، وغلط وأكثر الغلط .

السادسة - لم يذكر البخاري ولا مسلم في صحيحهما تفصيل زكاة البقر . ونزجه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني ومالك في موطئه وهي مرسلة ومقطوعة وموقوفة . قال ابن عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . ومن أسنده بقبية عن المسعودي عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما يغرد به بقبية عن الثقات . ورواه الحسن بن محمارة عن الحكم كما رواه بقبية عن المسعودي عن الحكم ، والحسن مجتمع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس ، ذكره عبد الزاق قال : أخبرنا معمر والثوري عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعا أو تبععة ، ومن أربعين مئنة<sup>(١)</sup> ، ومن كل حالم ديناراً<sup>(٢)</sup> أو عذله متاعاً<sup>(٣)</sup> ، ذكره الدارقطني وأبو عيسى الترمذي وصححه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة في زكاة البقر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : في ثلاثين بقرة تبععة ، وفي أربعين مئنة<sup>(١)</sup> ، إلا شيء روى عن سعيد بن المسيب وأبي قلابة والزهرري وقادة ، فأنهم يوجبون في كل خمس من البقر شاة إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وفروعها في كتب الفقه . ويأتي ذكر الخلطة في سورة « ص » إن شاء الله تعالى .

(١) التبع : ولد البقرة في أول سنة . والمسن : ما أدى سنتين ودخل في الثالثة . (٢) زيادة من

صحيح الدارقطني والترمذي . (٣) المافر : يراد باليمن منسوبة إلى مافر ، وهي قبيلة باليمن .

(٤) في قوله تعالى : « وإن كثيرا من الظلماء ليبنى بهم على بعض آية » ٢٤ .



السابعة - قوله تعالى : ( صَدَقَ ) مأخوذ من الصدق؛ إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ . ( تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) حالين للمخاطب؛ التقدير : خذها مطهرة لهم ومزكياً لهم بها . ويجوز أن يجعلها صفتين للصدقة؛ أي صدقة مطهرة لهم مُزَكِّية، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب، ويعود الضمير الذي في « بها » على الموصوف المنكر . وحكى النحاس ومكي أن « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيهم بها » حال من الضمير في « خُذ » وهو النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أي فإنك تطهرهم وتزكيهم بها، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم؛ ومنه قول امرئ القيس :

• قفا نيك من ذكرى حبيب ومترى •

وقرأ الحسن تطهرهم ( يسكون الطاء ) وهو منقول بالهمزة من طهر وأطهرته، مثل ظهر وأظهرته .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَصَلَّ عَلَيْهِمْ ) أصل في فعل كل إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للتصدق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » فأتاه ابن أبي أوفى بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » . ذهب قوم إلى هذا، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصلى على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده خاصة؛ لأنه خص بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . وبأن عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلى على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم . والأول أصح؛ فإن الخطاب ليس مقصوراً عليه كما قدم؛ ويأتي في الآية بعد هذا . فيجب الإقبلاء برسول الله صلى الله



عليه وسلم، والثاني به؛ لأنه كان يتنزل قوله : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » أي إذا صليت لهم حين يأتون بصلاتهم سكن ذلك قلوبهم وفرحوا به . وقد روى جابر بن عبد الله قال : أتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لامرأتي : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ؛ فقالت : يا رسول الله، صل على زوجي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلى الله عليك وعلى زوجك » . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا قبا عائنا أن الصلاة في كلام العرب الدعاء ؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحمرزة والكسائي « إن صلاتك » بالتحديد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف في « أصلاتك تأمرُك » وقرئ « سكن » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وفار لهم . والسكن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٠﴾  
فيه مسألتان :

الأولى - قيل : قال الذين لم يتوبوا من المخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يحالسون ، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصة التي خصوا بها دوننا ؛ فترتل : « ألم يعلموا » ؛ فالضمير في « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المخلفين . قال معناه ابن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى « هو » تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لأحتمل أن يكون قبولُ رسوله قبولاً منه ؛ فثبت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك .



الثانية - قوله تعالى : ( وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ) هذا نص صريح في أن الله تعالى هو  
 الآخذ لها والميتب عليها وأن الحق له جل وعزه ، والتي صلى الله عليه وسلم واسطة ، فان يؤتى  
 قضاؤه هو الواسطة بعده ، والله عز وجل حي لا يموت . وهذا بين أن قوله سبحانه وتعالى  
 « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ليس مقصودا على النبي صلى الله عليه وسلم . روى الترمذي عن  
 أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه  
 فيرجيها لأحدكم كما يري أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتابه  
 الله وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويحق الله الربا ويربي الصدقات " .  
 قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم : " لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب  
 إلا أخذها الله يمينه - في رواية - قرَّبُ في سكف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " .  
 الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل فيرجيها كما  
 يري أحدكم قلوه أو فيصليه والله يضاعف لمن يشاء " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم  
 في تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها ، كما كنى بقفه للكرامة  
 المقدسة من المريض تعظفا عليه بقوله : " يأن آدم مَرَضَتْ فلم تعْذِنِي " الحديث . وقد  
 تقدم هذا المعنى في « البقرة » . وخص اليمين والكف إذ كل قابل لشيء إنما يأخذه بكفه  
 ويمينه أو يوضع له فيه ، فخرج على ما يعرفونه ، والله جل وعزه مَرَّه عن الجارحة . وقد  
 جاءت إيمين في كلام العرب بنير معنى الجارحة ، كما قال الشاعر :

إِذَا مَا رَأَيْتُ رَفِيتُ لِحَيْدٍ • تَلَقَّاهَا حَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

أي هو مؤهل للجد والشرف ، ولم يرد بها يمين الجارحة ، لأن المجد معنى فاليمين التي تتلقاها  
 إيمانية معنى . وكذلك اليمين في حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى " ترو في كف الرحمن " .  
 عبارة عن كرامة الميزان التي توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف ، كأنه قال :  
 تهبو في كرامة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثوري وابن المبارك أنهم قالوا في تأويل هذه



الآحاديت وما شابهها : أَمْرُهَا بِالتَّكْيُفِ ، قَالَه التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ . وَهَكَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .

قوله تعالى : وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾  
قوله تعالى : ( وَقُلْ أَعْمَلُوا ) خطاب للجمع . ( فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ )  
أى بإطلاعه إياهم على أعمالكم . وفي الخبر : « لو أن رجلاً عمل في حجرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كأننا ما كان »

قوله تعالى : وَءَاخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ إِذَا يَعْدِبْهُمْ وَإِنَّا بِتُوبِهِمْ عَلِيمُونَ ﴿١٠٦﴾

نزلت في الثلاثة الذين توب عليهم : كعب بن مالك وعتاب بن أبي وقاص ومرة ابن الربيع ، وقيل ابن ربيعة العمرى ، ذكره المهدوي . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا يأسروا ، على ما يأتي من ذكرهم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجُونَ ، من أرجأه أى أخرجه . ومنه قيل : مُرْجئة ، لأنهم أخرجوا للعمل . وقرا حمزة والكسائي « مُرْجُونَ » بغير همزة فقبل : هو من أرجأه أى أخرجه . وقال المبرد : لا يقال أرجأته بمعنى أخرجه ، ولكن يكون من الرجاء . ( إِنَّا يَعْدِبْهُمْ وَإِنَّا بِتُوبِهِمْ عَلِيمُونَ ) « إِنَّا » في العربية لأحد أمرين والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ، أى ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَوَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾



فيه عشر مسائل

**الأول - قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا مَطْرُوفًا لِي وَتُحْمَ لِي وَتُحْمَ لِي وَتُحْمَ لِي)**  
 مسجداً، عطف جملة على جملة. ويجوز أن يكون وفقاً بالابتداء والخبر عنوف كأنه  
 « يعذبون » أو نحوه. ومن قرأ « الذين » بغير واو وهي قراءة المدنيين فهو عنده رفع  
 بالابتداء والخبر لا تهم « التقدير: الذين اتخذوا مسجداً لا تهم فيه أبداً؛ أي لا تهم  
 في مسجدهم؛ قاله الكسائي. وقال النحاس: يكون خبر الابتداء لا يزال بنيانهم الذي بنوا  
 ريبة في قلوبهم ». وقيل: الخبر « يعذبون » كما تقدم. ونزلت الآية فيما روى في أبي عامر  
 الراهب؛ لأنه كان نرجح إلى قبصر وتشر وودهم فيصر أنه سبائهم، فبنوا مسجد الضرار  
 يرصدون مجيئه فيه؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، وقد تقدمت قصته في الأعراف.  
 وقال أهل التفسير: إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وسماها النبي صلى الله عليه وسلم  
 أن يأتهم فأنهم فصل فيهم، فخدمهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا: بنى مسجداً ونصب  
 إلى النبي صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصلي لنا كما صلى في مسجد إخواننا، ويصلي فيه أبو عامر  
 إذا قدم من الشام؛ فأثوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجيئهم إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله  
 قد بنينا مسجداً لذي الحاجة؛ والعلّة والاليلة المطيرة، ونحب أن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة  
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني على سفر وحلي شغل فلو قعدنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه»  
 فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت  
 والأحد، فلما بقيه ليلته ويأتهم فقل عليه القرآن بنجر مسجد الضرار؛ فدعا النبي  
 صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومن بن عدي وعامر بن السكن ووخشيأ قاتل حمزة  
 فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلها فاهدموه وأحرقوه» فخرجوا مسرعين  
 وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شملة نار، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه، وكان  
 الذين بنوه آخى عشر رجلاً: خذام بن خالد من بني حبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف



ومن داره أخرج مسجد الصرار، وميتب بن قنير، وأبو حية بن الأزهر، وعبد ابن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف . وجارية بن عامر، وابناء تجمع وزيد بن جارية، وتبث بن الحارث، وتجرج، وتجاد بن حنان، ووديعه بن ثابت، وتعلبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر ؛ لأنه شهد بدرًا . وقال هكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلًا منهم بماذا أعنت في هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشريها ! سارية في عتقك من نار جهنم .

الثانية - قوله تعالى : ( ضَرَّارًا ) مصدر مفعول من أحله . ( وَكَفَرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْوَثَّاقِينَ ) عطف كله . وقال أهل التأويل : ضرارًا بالمسجد، وليس للمسجد ضرار، إنما هو لأهله . وروى الذارقطني عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ضَرَّ ولا ضِرَارَ مَنْ ضَارَّ ضَرَّ الله به ومن شَأْنُ شَأْنِ الله عليه " . قال بعض العلماء : الضرر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضَّرَّار : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنى واحد، تكلم بهما جميعًا على جهة التأكيد .

الثالثة - قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا يبنى أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثاني ؛ ومن صلى فيه الجمعة لم يُجزه . وقد أحرق النبي صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وهدمه . وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني ظفيرة فوجد الصلاة قد فاتته ؛ فقيل له : إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد ؛ فقال : لا أحب أن أصلي فيه ؛ لأنه بُني على ضرار . قال علماؤنا : وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسُئمة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألا يصلي في كنيسة ونحوها ؛ لأنها بنيت على شر .

(١) كذا في بعض الأصول، وفي البعض الآخر : « بني طامة » . وادعى في الطبري : « بني طامر » .



قلت : وهذا لا يلزم ؛ لأن الكنيسة لم يفصد بيتها الضرر بالخير ، وإن كان أصل بيتها على شره ، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهود البيعة موضعاً يتبعون فيه بزعمهم كالسجد لكافراً . وقد أجمع العلماء على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة . وذكر البخاري أن ابن عباس كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

الرابعة - قال العلماء : إن من كان إماماً لظالم لا يصلي وراءه ، إلا أن يظهر عنده أو يتوب ؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب في خلافته بإذن لمجمع بن جارية أن يصلي بهم في مسجدهم ؛ فقال : لا ولا نعمة عين ! ليس بإمام مسجد الضرار ! فقال له مجمّع : يا أمير المؤمنين ، لا تصل على ، فو الله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارداً للقرآن ؛ وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئاً ، فصليت ولا أحيب ما صنعتُ إنما ، ولا أعلم بما في أنفسهم ؛ فعذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الخامسة - قال علماء راحة الله عليهم : وإذا كانت المسجد الذي يتخذ للعبادة وحض الشريعة على بناءه فقال : " من بنى فيه مسجداً ولو كتم حص قطة بنى الله له بيتاً في الجنة " يهدم ويترج إذا كان فيه ضرر بغيره ، فما ظنك بسواه ! بل هو آخرى (إن يزال ويهدم حتى لا يدخل صرر على الأقدم . وذلك كن بنى قرناً أو رسي أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يدخل به الضرر على الغير . وضابط هذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضرراً منع . فإن أدخل على أخيه ضرراً فعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك مجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركه أكبر ضرراً من الضرر الداخل على الفاعل قطع أكبر

(١) الموضع الذي يتخذ فيه دجيس :



الضررين وأعظمهما حرمة في الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كوة في منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل ، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهن ، ومعلوم أن الإطلاع على المورات محرم وقد ورد النهي فيه ؛ فحرمة الإطلاع على المورات رأى العلماء أن يلقوا على قناع الباب والكوة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي فلقه عليه ضرر ؛ لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين ، إذ لم يكن بد من قطع أحدهما وهكذا الحكم في هذا الباب ، خلافاً للشافعي ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعي : لو حفر رجل في ملكه بئراً وحفر آخر في ملكه بئراً يسرق منها ماء البئر الأولى جاز ؛ لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كيفية يفسده عليه لم يكن له منه ؛ لأنه تصرف في ملكه . والقرآن والسنة يردان هذا القول . والله التوفيق

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه ، كدخان الفرن والحمام وغبار الأند<sup>(١)</sup> والدود المتولد من الزبل المبسوط في الزحاب ، وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تماديده . وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نقض الثياب والحصر عند الأبواب ؛ فإن هذا مما لا غنى بالناس عنه ، وليس مما يستحق به شيء ؛ فنفي الضرر في منع مثل هذا أعظم وأكبر من الصبر على ذلك ساعة خفيفة . ولجار على جاره في أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر ، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة — ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عرض لها ، يعني ساء من الجن ، فكانت إذا أصابها زوجها وأجنبته أو دنا منها يشتد ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يهربها ، وأرى للسلطان إن يحول بينه وبينها .

(١) الأند : اليد ، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام .



السابعة - قوله تعالى : ( وَكُفِّرُوا ) لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قبله ولا لحجبه النبي صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ابن العربي. وقيل : « وكفروا » أي بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ؛ قاله الفسيري وغيره .

الثامنة - قوله تعالى : ( وَتَفَرِّقَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ) أي يفترقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أن المقصد الأكبر والغرض الإظهار من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد اللّام والحرمة بفعل الديانة حتى يقع الأثر بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

التاسعة - تفتن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصلّي جماعتان في مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد روى عن الشافعي المنع؛ حيث كان تشيئا للكلمة وإطلاا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن يقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال ابن العربي : وهذا كان شائعا معهم، وهو أثبت قدما منهم في الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العاشرة - قوله تعالى : ( وَأَرْصَادًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ )<sup>(١)</sup> يعني أبا عامر الزاهب؛ وسمى بذلك لأنه كان يتعبد ويحتمس العلم فأتى كافرا بفسيرين بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فانه كان قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لا أبجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يرز قاتله إلى يوم حنين. فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال: استمعوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وأبنوا مسجدا فاني ذاهب إلى قيصر فأتى يجند من الروم لأتخرج محمدا من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هذا هو والد حنظلة خليل الملائكة . والإرصاد : الانتظار؛ تقول : أرصدت كذا إذا أمددته مرقة به . قال أبو زيد : يقال رصده وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر . وقال ابن الأعرابي :

(١) تفسير (بكسر الهمزة) وضع قايه وتشديده ويكسر) : كورة بالشام . (٢) سمى خليل الملائكة لأنه اشتبه بهما أحد وضئ الملائكة ؛ وذلك أنه كان قد ألم بأهله في حين خروجه إلى أحد، ثم جهم عليه من الخروج في الخير ما آتاهم من أجل ما بعده ؛ فأتى كل شيئا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة ضلوك . (من الاستنباط) .



لا يقال إلا أصدت، ومعناه أرقبت . وقوله تعالى : ( مِنْ قَبْلِ ) أى من قبل بناء مسجد الضرار . ( وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ) أى ما أردنا بنائه إلا الصلة الحسنى، وهى الرقى بالمسلمين كما ذكروا لدى الصلة والحاجة . وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات ؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . ( وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ ) أى يعلم خبث ضمائرهم وكبيهم فيما يحفون عليه .

قوله تعالى : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى الْتَقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٢٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ( لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ) يعنى سجد الضرار؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد عبر عن الصلاة بالقيام؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصل؛ ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيماناً وأحساناً غفر له ما تقدم من ذنبه " . أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ...؛ فذكره . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يتخذ مكانة على فيها الجيف والأقذار والقمامات .

الثانية - قوله تعالى : ( أَبَدًا ) ه أبداً ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدر كالיום، وظرف مبهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر . وتشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن ه أبداً وإن كانت ظرفاً مبهما لا محوم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال : لا تقم، لكفى فى الإنكفاف المطلق. فإذا قال : ه أبداً فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فاما التكررة فى الإنبات فإن كانت خبراً عن واقع لم تتم، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لاصراكه أنت طالق أبداً طلقت طلقة واحدة .



الثالثة - قوله تعالى : ( لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ) أى بُنِيَ جُذْرُهُ وَرُفِعَتْ قواعده . والأُسُّ أصل البناء ؛ وكذلك الأساس . والأُسُّ مقصور منه . وجمع الأُسِّ أساس ؛ مثلُ عُسٍّ وَعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثل قَذالٍ وَقُدُل . وجمع الأُسِّ أساس ؛ مثل سببٍ وأسباب . وقد أُسِّتَ البناءُ تَأْسِيساً . وقولهم : كان ذلك على أُسِّ الدهر ، وأُسِّ الدهر ، وإِسِّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِدم الدهر ووجوه الدهر . واللام في قوله « لمسجد » لام قَسَم . وقيل لام الابتداء ؛ كما قول : لزيد أحسن الناس فعلاً ؛ وهى مقتضية تأكيداً . ( أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ) نعت لمسجد . ( أَحَقُّ ) خبر الابتداء الذى هو « لمسجد » . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتَّقَى بها العقوبة ، وهى قتل من وقيت ؛ وقد تقدّم .

الرابعة - واختلف العلماء في المسجد الذى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : « من أول يوم » ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم ؛ فإنه بُنى قبل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عمر وابن المسيب ، وما لك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذى عن أبي سعيد الخدري : قال تَمَارَى رجلان في المسجد الذى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى من أول يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُباة ، وقال آخر هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو مسجدى هذا » . حديث صحيح . والقول الأول أَلْبَقُّ بالقصة ؛ لقوله « فيه » ضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين ؛ فهو مسجد قُباة . والدليل على ذلك حديث أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهَّرين » قال : كانوا يستنجون بالماء فتزلت فيهم هذه الآية . قال الشعبي : هم أهل مسجد قُباة ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : « إن الله سبحانه قد أحسن عليكم التناء في التطهر



فما تصنعون؟ قالوا : إنا نقتل أثر الفاطم والبول بالماء؛ رواه أبو داود . وروى الثَّوْرِيُّ عَنْ  
عَنْ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّونَ  
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : فِيهِ رَجُلٌ يَجْهَدُ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بِاللَّهِ يَجِبُ  
الْمُطَهَّرِينَ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنْ اللَّهُ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ خَيْرًا فِي الطُّهُورِ فَاكْهَرُوا هَذَا » ؟  
قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ وَتَقْتُلُ مِنَ الْخَنَابَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
« فَهَلْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ » ؟ فَقَالُوا : لَا غَيْرَ ، إِنْ أَحَدًا إِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ  
أَحَبَّ أَنْ يَسْتَجِبِيَ بِالْمَاءِ . قَالَ : « هُوَ ذَلِكَ فَطَلِّكُوهُ » . وَهَذَا الْحَدِيثُ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَسْجِدَ  
الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ هُوَ مَسْجِدُ قِبَاءَ ، إِلَّا أَنَّ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ نَصَّ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنَّهُ مَسْجِدُهُ فَلَا نَظَرَ مَعَهُ . وَقَدْ رَوَى أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو اسْمَاعِيلَ قَالَ  
حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ حَيَّانٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَرْدَةَ فِي قَوْلِهِ عَنْ وَجِلٍ « فِي بَيْتٍ أُذِنَ لِلَّهِ  
أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ » قَالَ : إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ مَسَاجِدَ لَمْ يَنْهَنْ إِلَّا نَبِيَّ : الْكَعْبَةَ بِنَاهَا  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَبَيْتَ أُرَيْحَا بَيْتُ الْمُقَدَّسِ بِنَاهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا  
السَّلَامُ ، وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ وَمَسْجِدَ قِبَاءَ اللَّذَيْنِ أُسِّسَا عَلَى التَّقْوَى ، بِنَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الخامسة - ( مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ) « مِنْ » عِنْدَ الصَّوْبِ مَقَابِلَةً مِنْذُ ؛ لَمَنْذُ فِي الزَّمَانِ  
بِمُتَرَلَةً مِنْ فِي الْمَكَانِ . قِيلَ : إِنْ مَعْنَاهَا هُنَا مَعْنَى مِنْذُ ؛ وَالتَّقْدِيرُ : مِنْذُ أَوَّلِ يَوْمِ أُبْتَدِيَ  
بِنِبَاتِهِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى مِنْ تَأْسِيسِ أَوَّلِ الْأَيَّامِ ، فَدَخَلَتْ عَلَى مَصْدَرِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ أَسَّسَ ؛  
كَذَا قَالَ :

لَمَنْ الدِّيارُ بَعْنَةُ الْخَيْمِ • أَقْوَيْنَ مِنْ تَجَمُّعٍ وَمِنْ تَقَرُّبٍ

(١) هَذَا لَيْتَ طَلَعَ نَصِيدُهُ وَصِرَ بَيْنَ أَبِي سُلَيْمٍ مَدَحَ بِهَا حَرَمُ بْنُ سَنَادٍ وَالْقَفَّةُ (بِالضَّمِّ) : أَمْلُ الْجِلْدِ ؛ وَأَرَادَ  
بِهَا هُنَا أَشْرَفَ مِنَ الْأَرْضِ . وَالْخَيْمُ (بِكَسْرِ الْحَاءِ) : مَنَازِلُ تَمُودَ بِتَاجَةِ الشَّامِ حَتَّى وَادِي الْقَرْيِ . وَاقْوَيْنَ .  
هَذَا بِمَقَرَّةٍ . وَالتَّجَمُّعُ : التَّجَمُّعُ . وَالتَّقَرُّبُ : التَّقَرُّبُ . وَالتَّقَرُّبُ : التَّقَرُّبُ . وَالتَّقَرُّبُ : التَّقَرُّبُ .  
الْقَفَّةُ (بِالضَّمِّ) .



أى من مَرَّحِج ومن مَرَّ دهر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « من » لا يُحَرِّفها الأزمان ، وإنما تُحَرِّف الأزمان بمنزلة قول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت في الكلام وهى يلها زمن فيقدر مضمر يليق أن يُحَرِّف من ، كما ذكرنا في تقدير البيت . ابن عطية . ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأن تكون « من » تجر لفظة « أول » لأنها بمعنى البداية ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادسة - قوله تعالى : ( أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ) أى بأن تقوم ، فهو في موضع نصب . « وأحق » هو أفضل من الحق ، وأفضل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين ، لأحدهما في المعنى الذى اشتركا فيه مَرَّةً على الآخر ؛ فسجد الضرار وإن كان باطلا لا حق فيه ، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للسجدة ؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله ، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثل هذا قوله تعالى : « أَتَحَابُّ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيرية من النار مبسوطة ، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل ؛ فإن العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملائم فهو حلوا ؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مغرلا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعة - قوله تعالى : ( فِيهِ ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فإلهاء في « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » عائد إليه ، و « فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير في « فيه » عائد إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنة - أتى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة ؛ وهى مروة أدبية ووظيفة شرعية ، وفي الترمذى من طائفة أنها قالت : مُرَدَّنْ أَرْوَاكِجَكُنْ أَنْ يَسْتَبِيلُوا بِالْمَاءِ فَإِنِ اسْتَحْيَمَ . قال : حليت صحيح . وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم



كان يحمل الماء معه في الاستنماء؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً. **آبْنُ العَرَبِيِّ** :  
وقد كان علماء القيروان يتخذون في متوضّاتهم أحجاراً في تراب يتقون بها ثم يستنجون بالماء.  
التاسعة - اللّازم من نجاسة المخرج التخفيف ؛ وفي نجاسة متأثر البدن والثوب  
التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده في حالتي وجود الماء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء .  
وشذّ **أَبْنُ حَبِيبٍ** فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء . والأخبار الناجية  
في الاستنجار بالأحجار مع وجود الماء تردّه .

العاشر - واختلف العلماء من هذا الباب في إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ؛  
بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث ما لم يتفاحش على ثلاثة أقوال ؛ الأول -  
أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلى بثوب نجس ما لم يكن بذلك أو ساعياً ؛ روى  
عن **أَبْنِ عَبَّاسٍ** والحسن و**أَبْنِ سِيرِينَ** ، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور ، ورواه **أَبْنُ وَهْبٍ**  
عن مالك ، وهو قول أبي الفرج المالكي والطبري ؛ إلا أن الطبري قال : إن كانت النجاسة  
قدر الدرهم أعاد الصلاة . وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف في مراعاة قدر الدرهم قياساً على  
حلقة الذر . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان ، وجوب سنة  
وليس بفرض . قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة في الوقت فإن خرج الوقت فلا  
شئ عليه ؛ هذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية **أَبْنِ وَهْبٍ** عنه . وقال مالك  
في يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة في وقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو  
هذا كله من مذهب مالك قول الأئمة . وقال **أَبْنُ القَاسِمِ** عنه : تجب إزالتها في حالة الذكر  
دون النسيان ؛ وهي من مفرداته . والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأن النبي صلى الله عليه  
وسلم مرّ على قبرين فقال : «**إِنَّمَا لِعَذَابَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَنَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالْغَيْفَةِ**  
**وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَرُ مِنْ بَوْلِهِ**» . الحديث ، خرّجه البخاري ومسلم ، وحسبك . وسنأتي  
في سورة **حَسْبَانِ** . قالوا : ولا يسئّب الإنسان إلا على ترك واجب ؛ وهذا ظاهر .



روى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أكثر عذاب القبر في البول » . احتج الآخرون بخلق النبي صلى الله عليه وسلم عليه في الصلاة لما أحله جبريل عليه السلام أن فيهما قدرا وأدى ... الحديث . خرجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخدري ، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى . قالوا : ولما لم يمد ما صل دل على أن إزالتها وصلاحة صحيحة ، ويعد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة - قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير فقدر الدرهم البغلي ؛ [ يعني كجار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار ] قياسا على المسربة فقامت من وجهين ؛ أحدهما - أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني - أن هذا الذي خُف عن المسربة رخصة للضرورة ، والحاجة والرخس لا يقام عليها ؛ لأنها خارجة عن القياس فلا ترد إليه .

قوله تعالى : ﴿ اٰمَنَ اَسْمٰسُ بَنِيئَهُ عَلٰى تَقْوٰى مِنْ اَللّٰهِ وَرِضْوٰنٍ خَيْرٌ لِّمَنْ اَسْمٰسُ بَنِيئَهُ عَلٰى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَاَنْهَارٌ يَّهٖ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ اٰمَنَ اَسْمٰسُ ﴾ أى اصله ، وهو استقامته معناه التسوية . ومعنى الذى ، وهى فى موضع رفع بالابتداء ، وخبره « خير » . وقرا نافع وابن عامر وجماعة « اُسَّسَ بِنْيَانُهُ » على بناء أسس للفعول ورفع ببيان فيها . وقرا ابن كثير وأبو عمرو فاحسوز والكسائي « اُسَّسَ بِنْيَانُهُ » على بناء الفعل للفاعل ونصب بانيه فيها ، وهى اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به ، وأن الفاعل سمي فيه . وقرا نصر بن عاصم وأبو علي « افرز

(١) فى الصلاة الثانية من قوله تعالى « فاطلع عليك انك بالراى القدوس طوى » آية ١٢

(٢) دراهم ضربها داس الفيل لسيده جبريل انطاب رضى الله عنه . (٣) قراءة من ابن عمر

(٤) المسربة (رفع الارضيات) ، بمعنى للحدث من الله ، يريد اهل الحقة



أَسَسُ» بالرفع «بِنَايَه» بالخفض . وعنه أيضا «أساس بنيانه» وعنه أيضا «أَس بنيانه»  
بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهي «أفن أساس  
بنيانه» . قال النحاس : وهذا جمع أَس ؛ كما يقال : خف وأخفاف ، والكثير «إساس»  
مثل يخفاف . قال الشاعر ،

أصبح الملك ثابت الأساس • في البهاليل من بني العباس<sup>(١)</sup>

الثانية — قوله تعالى : ( عَلَى تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ ) قراءة عيسى بن عمر — فيما حكى  
سيويه — بالتونين ، والألف ألف الحلق كَأَلَف تَتَرَىٰ فَمَا تَوْنُ ، وقال الشاعر<sup>(٢)</sup>  
يَسْتَنُّ فِي طَلْقٍ وَفِي مَكُورٍ<sup>(٣)</sup> .

وأنكر سيويه التونين ، وقال : لا أدري ما وجهه . ( عَلَى شَفَا ) الشفا : الحرف والحذفة  
وقد مضى في «آل عمران» مستوفى . و ( جُرْف ) قرئ برفع الراء ، وأبو بكر وحزة بإسكانها ،  
مثل الشُّل والشُّل والشُّل ، والرُّسْل والرُّسْل ، يعني جُرْفًا ليس له أصل ، والجُرْف : ما يُجْرَف بالبول  
من الأودية ، وهو جوانبه التي تحفر بالماء ، وأصله من الجُرْف والاعتراف ، وهو اقتلاع  
الشيء من أصله . ( هَارٍ ) ساقط ، يقال : تهوّر البناء إذا سقط ، وأصله هائر ، فهو من المقلوب  
يقلب وتؤخرها ، فيقال : هارٍ وهائر ، قاله الزجاج . ومثله لَآث الشيء به إذا دار ، فهو لَآثٍ  
أى لَآث . وكما قالوا : شاكى السلاح وشانك . قال المبرج :  
لَآث به الأشاء والمُبرجى •

الأشياء النخل ، والمُبرجى السَّدر الذي حل شاطئ الأنهار . ومعنى لَآث به مُطِيف به .  
وزعم أبو حاتم أن الأصل فيه هاوٍ ، ثم يقال هائر مثل صائم ، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم  
الكسائي أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء ، وأنه يقال : تهود وتهير •  
قلت : ولهذا يمال ويضتح •

(١) راجع هذا البيت وشرح في الألفية ج ٤ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو المبرج  
ومعنى تروا يرمى في ضرب من الشجر والطن والمكورة ضربان من الشجر . ومعنى يستن : يمشي ، ومنه المبرج  
(٣) (من شرح التمهيد) • (٤) راجع ج ٤ ص ٦٤٤ طبع دار الكتب المصرية •



الثالثة - قوله تعالى : ( فَأَنهَارُهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ) فاعل أنهار الجحيم ؛ كأنه قال : فأنهار الجحيم بالبيان في النار ؛ لأن الجحيم مذكور . ويجوز أن يكون الضمير في به يعود على مَنْ وهو الباني ؛ والتقدير : فأنهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهذه الآية ضربٌ مثيلٌ لهم ، أى من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والتفاق . وبين أن بناء الكافر كبناء على جحيم جهنم يتهوّر بأهله فيها . والشفا : الشفير . وأشقى على كذا أى دنا منه .

الرابعة - في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنبأ تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويتسمد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه ، ويخبر عنه بقوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » على أحد الوجهين . ويخبر عنه أيضا بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة - واختلف العلماء في قوله تعالى : ( فَأَنهَارُهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ) هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول - أن ذلك حقيقة وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل إليه فهدم رؤى الدخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جبير . وقال بعضهم : كان الرجل يدخل فيه سعة من صف النخل فيخرجها سوداء عترة . وذكر أهل التفسير أنه كان يُخْفَرُ ذلك الموضع الذى انهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبى الجؤد عن يزيد بن حبيش عن ابن مسعود أنه قال : جهنم في الأرض ، ثم تلا « فَأَنهَارُهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ » . وقال جابر ابن عبد الله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني - أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء في نار جهنم ، فكأنه انهار إليه وهوى فيه ؛ وهذا كقوله تعالى : « قَامَهُ هَاطِيَةٌ » . والظاهر الأول ، إذ لا إحالة في ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾



قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بَيِّنَاتٌ لِّذِي بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى مسجد الضرار . ( ريبة ) أى شكا  
فى قلوبهم وعاقاب؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك . وقال التابغة :  
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة \* وليس وراء الله لآله مذهب

وقال الكلبي : حسرة وندامة ؛ لأنهم ندموا على بَيِّنَاتِهِ . وقال السدي وحبيب والمبرد  
« ريبة » أى حزازة وغيظا . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى تنصدع  
قلوبهم فيموتوا؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين؛ وقاله  
قتادة والضحاك ومجاهد . وقال سميان : إلا أن يتوبوا . عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم  
فى قبورهم ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة فى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم .  
وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون فى شك منه  
إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا . واختلف القراء فى قوله « تَقَطَّعَ » فالجمهور « تَقَطَّعَ » بضم  
التاء وفتح القاف وشد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص ويعقوب  
كذلك إلا أنهم فتحوا التاء . وروى عن يعقوب وأبى عبد الرحمن « تَقَطَّعَ » على الفعل  
المجهول مخفف القاف . وروى عن شبل وابن كثير « تَقَطَّعَ » خفيفة القاف « قلوبهم »  
نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله . ( وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )  
تسليم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ  
لَّهُمْ أَجَلٌ يُقَدَّرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا  
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا  
بِعِصْرِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾



فيه مائة مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ) قيل : هذا تمثيل ؛ مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى » . ونزلت الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سِناً عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : « اشترطُ لربِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاشْتَرَطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ » . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » قالوا : وَبِخِ الْبَيْعِ ، لَا تُقِيلُ وَلَا تُثْقِلُ ؛ فَنَزَلَتْ : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوهُ » الآية . ثم هي بسبب ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة عهد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانية - هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ، وإن كان لكل السيد لكن إذا ملكه كامله فيها جعل إليه . وجاز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه وبين غيره ؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثة - أصل الشراء بين الخلق أن يتوخوا مما خرج من أيديهم ما كانت أفع لم أو مثل ما خرج عنهم في النفع ؛ فأشترى الله سبحانه من العباد إلتاف أنفسهم وأموالهم في طاعته ، وإعلاكمها في مرضاته ، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظيم لا يثنائه المعوض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال ؛ فسمى هذا شراء . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فوق كل برٍّ حتى يبذل العبد نفسه فإذا فعل ذلك فلا برٍّ فوق ذلك » . وقال الشاعر :

البرود بالمال حرة فيه حكرة • والبرود بالنفس أنسى غاية البرود



وَأَنفِدِ الْأَصْحَىٰ لِجُفَرِ الْمَادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَتَأْتِيَنَّ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رِبَّهَا • وَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهَا مِنْ  
بِهَا شَتْرَى الْجَنَاحُ ، إِنْ أَنَابَتْهَا • بِشَيْءٍ سِوَاهَا إِنْ ذَلِكُمْ قَبِيتُ  
لَنْ ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أُصِيبَتْهَا • لَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الْخَمْرُ

قال الحسن : ومضى أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : « إِنْ اللَّهُ  
أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » فقال : كلام من هذا ؟ قال : « كلام الله » قال : بئس والله  
مُرْج لا يُقِيلُهُ وَلَا نَسْتَقِيلُهُ . فخرج إلى القزو واستشهد .

الرابعة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين الباقين المكلفين كذلك اشترى من  
الأطفال قائلهم وأسقمهم ؛ لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للباقيين ، فإنهم  
لا يكونون عند شيء أكثر صلاحاً وأقل فساداً منهم عند ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين  
الكافلين من الثواب فيما يتألم من ألمهم ويتعلق بهم من التربية والكفالة • ثم هو عز وجل  
يؤوض هؤلاء الأطفال عوضاً إذا صاروا إليه ، ونظير هذا في الشاهد أنك تكتري الأجير ليبنى  
وينقل التراب وفي كل ذلك له ألم وأذى ، ولكن ذلك جائز لما في عمله من المصلحة  
ولما يصل إليه من الأجر •

الخامسة — قوله تعالى : ( يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) بيان لما يقاتل له وعليه ؛ وقد  
تقدم . ( يَقَاتِلُونَ وَيُقَاتِلُونَ ) قرأ النخعي والأعمش وحزمة والكساى وخلف بتقديم المفعول  
على الفاعل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• فَإِنْ تَقَاتَلْنَا تَقَاتَلْكُمْ ... •

أى إن تقاتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول •

السادسة — قوله تعالى : ( وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ) إخبار من  
الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى  
عليه السلام • و « وَعَدَا » و « حَقًّا » مصدران مؤنَّدان •



السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أوفى بعهد من الله . وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد ، ولا يتضمن وفاء البارئ بالكل ، فاما وعده فالجميع ، وأما وعيده فخصوص ببعض المذنبين وبعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدم هذا المعنى مستوفى .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أى أظهروا السرور بذلك . وإشارة لإظهار السرور فى البشارة . وقد تقدم . وقال الحسن : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعالى : **الْمُتَّقِينَ الْعَالِينَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ  
الَّاسْجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ  
لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَتِىرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿١١٦﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الْمُتَّقِينَ الْعَالِينَ ﴾ المتقون هم الراجعون عن الحالة المنمومة فى مصبة الله إلى الحالة المصودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع . والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المصبة لجمعه بين الأمرين . ﴿ الْعَالِينَ ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أى الزاؤون بقضائه المصروفون نعمته فى طاعته ، الذين يمجّدون لله على كل حال . ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ الصائمون ؛ عن ابن مسعود وأبن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَائِمَاتٍ ذَاتُ عِلَالٍ ﴾ . وقال صفيان بن عيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها من الطعام والمشرب والنكاح . وقال أبو طالب :

**والصائم لا يلهو عن قطرة .** لَحْمٍ وَنَاقَاتٍ السَّوَابِلِ



وقال آخر :

**بِرَأْيِهِ صَلَّى إِلَيْهِ وَنَهَاهُ . يَظَلُّ كَتَمَهُ لِلذِّكْرِ هَذَا**

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، أسنده الطبري . ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتي الصيام " . قال الزجاج ، ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يدومون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أمامة أن رجلا أسأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : السائحون المهاجرون ، قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم ، قاله عكرمة . وقيل : هم الجاهلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيدهم وتعظيمه ، حكاية النقاش . وحكى أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه في أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر ، فقيل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : « إِذِ الْغُلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّالِيلُ<sup>(١)</sup> » وذكرت كيف أطلق النمل وفيت ليل في ذلك أجمع .

قلت : لفظ « سائح » يدل على صحة هذه الأقوال ، فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء ، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره ، فهو بمثابة السائح . والمتفكرون يحول قلوبهم فيما ذكر . وفي الحديث : " إن لله ملائكة سياحين " . مشايخ في الآفاق يبلغونني صلاة أمتي " وروى " صياحين " بالصاد ، من الصياح . ( الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ) يعني في الصلاة المكتوبة وغيرها . ( الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ) أي بالسنة . وقيل بالإيمان . ( وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) قيل عن البدعة . وقيل عن الكفر . وقيل : هو عموم في كل معروف ومنكر . ( وَالْحَافِظُونَ لِحُكْمِ اللَّهِ ) أي القائمون لما أمر به والمنتهون عما نهى عنه .



الثانية - واختلف أهل التأويل في هذه الآية، هل هي متصلة بما قبل أو منفصلة؛ فقال جماعة: الآية الأولى مستقلة بنفسها؛ يقع تحت تلك المباشرة كل يوحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات في هذه الآية الثانية أرباباً أكثرها. وقالت فرقة: هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيات مرتبطتان؛ فلا يدخل تحت المباشرة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبدلون أنفسهم في سبيل الله؛ قاله الضحاك. قال ابن عطية: وهذا القول تخرج وتضييق، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكثرة من المؤمنين، ذكرها الله ليستيق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى مرتبة. وقال الزجاج: الذي عندي أن قوله «التائبون العابدون» رفع بالابتداء وخبره مضمرة؛ أي التائبون العابدون - إلى آخر الآية - لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا، إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد؛ لأن بعض المسلمين يجزى من بعض في الجهاد. واختار هذا القول القشيري وقال: وهذا حسن؛ إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين في قوله: «اشترى من المؤمنين» لكان الوعد خاصاً للجاهدين. وفي مصحف عبد الله «التائبين العابدون» إلى آخرها؛ ولذلك وجهان: أحدهما الصفة للمؤمنين على الإتيان. والثاني النصب على المدح.

الثالثة - واختلف العلماء في الواو في قوله: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فقيل: دخلت في صفة الناهين كما دخلت في قوله تعالى: «حَسَبَ قَزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها. وهذا سائغ متباد في الكلام ولا يطلب لملته حكمة ولا علة. وقيل: دخلت لمصاحبة الناهي عن المنكر الأمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفرداً. وكذلك «تَيَّابَاتٌ وَأَبْكَارٌ»<sup>(١)</sup>. ودخلت في «وَالْحَافِظُونَ» لقربه من المظوف. وقد قيل: إنها زائدة، وهذا ضعيف لا معنى له. وقيل: هي وام الثمانية، لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح. وكذلك قالوا في قوله: «تَيَّابَاتٌ وَأَبْكَارٌ».



وقوله في أبواب الجنة : « وَنُفِثَتْ أَبْوَابُهَا » وقوله : « وَدُفِعُوا فِيهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ صَالِحٍ » وقوله : « وَنُفِثَتْ أَبْوَابُهَا » وأنكرها أبو علي . قال ابن عطية : وحدثنى أبي رضى الله عنه عن الأستاذ النحوى أبي عبد الله الكفيع المالكى ، وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن حيوس أنه قال : هي لغة فصيلة لبعض العرب ؛ من شأنهم أن يقولوا إنا عدواً واحداً اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثماني تسعة عشرة ؛ وهكذا هي لغتهم . ومضى جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الدلو . قلت : هي لغة قريش . وسيأتى بيانه وقضه في سورة « الكهف » إن شله الله تعالى وفي الزمر .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُخِيبُوا **الْحَجِيمُ** **٣١** فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أعمى ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كنهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ » فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُخِيبُوا **الْحَجِيمُ** » . وأنزل الله في أبي طالب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) في قوله تعالى : « وَدُفِعُوا فِيهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ صَالِحٍ » (٤) في قوله تعالى : « وَدُفِعُوا فِيهَا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ صَالِحٍ » آية ٢٢



لَا تَحْدَى مَنْ أَحْبَبَتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ<sup>١</sup> . فالآية على هذا فاسحة لاستغفار النبي صلى الله عليه وسلم لعمه ؛ فإنه استغفر له بعد موته على ما روى في غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات فيه طالب في عفوان الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانية - هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حبيهم وميتهم ؛ فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ؛ فطلبُ الغفران للمشرك مما لا يجوز . فان قيل : فقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحد حين كسروا رِجْلَيْهِ وَتَجَوَّجُوا وَجْهَهُ : ” اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” فكيف يجتمع هذا مع منع الله تعالى وسوله والمؤمنين من طلب المغفرة للمشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على سبيل الحكاية فمن تقدمه من الأنبياء ؛ والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْحُو بِمِخْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرْبَهُ قَوْمَهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَّ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : ” رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” . وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نبياً قبله نتججه قومه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال : ” اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” .

قلت : وهذا صريح في الحكاية عن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبي الذي حكاه هو نوح عليه السلام ؛ على ما يأتي بيانه في سورة « هود » إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار في الآية الصلاة . قال بعضهم : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حُبْلَى من الزنى ؛ لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » الآية . قال هطاء بن أبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار هنا يراد به الصلاة . جواب ثالث - وهو أن الاستغفار للأحياء جائز ؛ لأنه مرجو إيمانهم ، ويمكن



تألفهم بالقول الجليل وترغيبهم في الدين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعو الرجل لأبيه الكافرين ويستغفر لها مادام حينه . فاما من مات فقد لقطع عنه الرجاء فلا يدعى له .  
نقل ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فقلت ، فأسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثة - قال أهل المعاني : « ما كان » في القرآن يأتي على وجهين : على النفي نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا » ، و « مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ مَيِّتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » ، والآخرة بمعنى النهي كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٦﴾  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى النسائي عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبيه وهو مشركان ، فقلت : أنتستغفر لها وهما مشركان ؟ فقال : أولم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه . فأنيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فقلت : ( وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ) . والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ، فان ذلك لم يكن إلا عن عِدَةٍ . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له ، فالكفاية في قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم ، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ، أى وعد إبراهيم إياه أن يستغفر له ، فلما مات مشركاً تبرأ منه . ودل على هذا الوعد قوله : « مَا اسْتَغْفِرُكَ رَبِّ » . قال القاضي أبو بكر بن العربي : تعالى النبي صلى الله عليه

(١) آية ٦٠ سورة النحل .

(٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران .

(٣) آية ٢٤ سورة الأناب .

(٤) آية ٤٧ سورة مريم .



وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى : « سأسْتَغْفِرُكَ رَبِّي » فآخيه الله تعالى أن  
استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر به، فلما تبين له الكفر به نجا به  
فكيف تستغفر أنت لعلمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانية - ظاهر حالة المراء عند الموت يُحك عليه بها، فإن مات على الإيمان حكم له  
به، وإن مات على الكفر حكم له به؛ وربك أعلم بباطن حاله؛ بيد أن النبي صلى الله عليه  
وسلم قال له العباس : يا رسول الله، هل نفعت عمك بشئ؟ قال : « نعم ». وهذه شفاعة  
في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار؛ على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .

الثالثة - قوله تعالى : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ) اختلف العلماء في الأواء على خمسة  
عشر قولاً : الأول - أنه الدعاء الذي يكثر الدعاء؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير .  
الثاني - أنه الرحيم بعباد الله؛ قاله الحسن وقتادة، وروى عن ابن مسعود . والأول أصح  
إسنادا من ابن مسعود؛ قاله النحاس . الثالث - أنه الموقن؛ قاله عطاء وعكرمة، ورواه  
أبو خنيدان عن ابن عباس . الرابع - أنه المؤمن بصفة الحبشة؛ قاله ابن عباس أيضا .  
الخامس - أنه المسيح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة؛ قاله الكلبي ومسيب  
ابن المسيب . السادس - أنه الكثير الذكر لله تعالى؛ قاله عتبة بن عامر، وذكر عند النبي صلى  
الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : « إنه لأَوَّاه » . السابع - أنه الذي يكثر  
تلاوة القرآن . وهذا مروى عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن - أنه المناوئ؛ قاله أبو ثور  
وكان إبراهيم عليه السلام يقول : « آه من النار قبل ألا تنفع آه » . وقال أبو ثور : كان  
يصل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه : أَوَّاهُ آه ؛ فشكاه أبو ثور إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فقال : « دعه فإنه أَوَّاه » فخرجت ذات ليلة فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يفتن  
لذلك الرجل ليلا ويصيح الصباح . التاسع - أنه الفقيه؛ قاله مجاهد والنعني . العاشر - أنه  
للتضرع الخاضع؛ رواه عبد الله بن شداد بن الحاد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أحمد  
لكنك امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم بنى كرمه فيها عمر فقال النبي صلى الله عليه



وسلم : « دَعَوْهَا فَإِنَّمَا أَتَاهَا » قيل : يا رسول الله ، وما الأتاهة ؟ قال : « الخاشعة » .  
 الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياہ استغفر منها ؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر —  
 أنه الكثير التآؤء من الذنوب ؛ قاله الفراء . الثالث عشر — أنه الملم بحير ؛ قاله سعيد  
 ابن جبیر . الرابع عشر — أنه الشفيق ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق  
 رضى الله عنه يُسَمَّى الأتاه لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجح عن كل ما يكره الله  
 تعالى ؛ قاله عطاه . وأصله من التآؤء ، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء .  
 قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تآؤء . قال الجوهري : قولهم عند الشكاية  
 آؤء من كذا ( ساكنة الواو ) إنما هو توجع . قال الشاعر :

فآؤء لذكرها إذا ما ذكرتها • ومن بُدِ أرض بيننا وسما

وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : آء من كذا . وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء  
 فقالوا : آؤء من كذا . وربما حذفوا مع التشديد الهاء فقالوا : آؤء من كذا ؛ بلا مد .  
 وبعضهم يقول : آؤء ، بالمد والتشديد وتفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية .  
 وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أتواه ؛ يمد ولا يمد . وقد آؤء الرجل تأؤءيا وتآؤء تآؤءا إذا  
 قال آؤء . والاسم منه الآهة بالمد . قال المتقرب البيهقي :

إذا ما قُتُّ أرَحَلَهَا بِلِيل • تآؤء آهة الرجل الحزين

والحليم : الكثير الحلم ، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم  
 يجاقب أحدا قط إلا فى الله ولم يتصر لأحد إلا لله . وكانت إبراهيم عليه السلام كذلكه  
 وكان إذا قام يصلُّ سَمِعَ وَجِيبَ قلبه على مليون .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسِيرَ  
 بِهِمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَكُرْمَلِكُ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

(١) سلم كل شئ . (٢) وجيب القلب : خفائه واضطرابه .



قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ) أى ما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يتقوه ، فبعد ذلك يستحقون الإضلال .  
قلت : قى هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت واهتك حجابها كانت سببا إلى الضلالة والردى ، وسببا إلى ترك الرشاد والهدى . فسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنه .  
وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله في قوله « حتى يبين لهم » : أى حتى يجمع عليهم بأمره ؛ كما قال : « وإنا أردنا أن نريك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها » وقال مجاهد : « حتى يبين لهم » أى أمر إبراهيم ؛ أى لا يستغفروا للشركين خاصة وبين لهم الطاعة والمعصية عامة .  
وروى أنه لما نزل تحريم الخمر وشئد فيها سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن مات وهو يشربها ، فأثر الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هدام وإيمانهم ؛ كما تقدم .

قوله تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ إِلَهٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَلَا تَصِيرُ ) تقدم معناه غير مرة .

قوله تعالى : لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَرْؤُفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

روى الترمذي حدثنا عبد بن حديد حدثنا عبد الزق أن أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهما حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ، ولم يتاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف من بدرا ، إنما خرج يريد البير فخرجت قريش مؤمنين ليعيرهم ، فالتقوا عن غير موعد .

(١) آية ١٦ سورة الاسراء ٢٠ (٢) راجع ١٠ ص ٤٤٩ ٤٨٦ طبع ثانية أمانة .

(٣) راجع ١٠ ص ٤٤٩ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ طبع ثانية أمانة .



كما قال الله تعالى ، ولعمري إن أشرف مشاهيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ليفرء  
وما أحب أنى كنت شهدتها مكان يمتلي ليلة القعدة حين توافقه على الإسلام ، ثم لم أتخلف  
بعد عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها ، وأذن  
النبي صلى الله عليه وسلم بالرحيل ، فذكر الحديث بطوله قال : فأطلقت إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله الميامون ، وهو يستبرأ كاستشارة القمر ، وكان  
إذا سُرَّ بالأمر استأثر ، فجئت بغلست بين يديه فقال : ” أبشر يا كعب بن مالك بخير عزم  
أتى عليك منذ ولدتك أمك “ قلت : يا نبي الله ، أمن عند الله أم من عندك ؟ قال : ” بل من  
عند الله — ثم تلا هذه الآية — ” لنذتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه  
في ساعة العسرة — حتى يبلغ — إن الله هو التواب الرحيم “ قال : وفيها أنزلت أيضا « اتقوا  
الله وكونوا مع الصادقين » وذكر الحديث . وسأني مكثا في صحيح مسلم في قصة الثلاثة  
إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛  
فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود ؛ دليله قوله : « عفا  
الله عنك لم أذنّت لهم » وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل :  
توبة الله عليهم استغفارهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدو ، وعبر  
عن ذلك بالنسبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة  
الأولى . وقال أهل المعاني : إنما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التوبة لأنه لما كان  
سبب توبتهم ذكر معهم ؛ كقوله « فإن الله يُحسبه وللرسول » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى في وقت العسرة ، والمراد جميع  
أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشد الساعات التي مرت بهم  
في تلك الغزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظّهر وعسرة الزاد



وصرة لله . قال الحسن : كانت المسرة من المسلمين يخرجون على وجه مستعبد ، وكان زاعم القوم للتسوس والشعير المتغير والإحالة للثبته ، وكان القوم يخرجون ما معهم إلا القترات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ القرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرمة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم ، فلا يبقى على القرة إلا النواة ، ففَضُوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سئل عن ساعة المسرة : نرجنا في قيط شديد فترلنا فترلنا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا مستقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بخره فيعصر فرقه فيشربه ويعمل ما يتي على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عزذك في الدعاء خيرا فادع لنا . قال : " أحب ذلك " ؟ قال نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكت فلوأ ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جازت المسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصاب الناس جماعة وقالوا : يا رسول الله ، لو أدت لنا فنحنرا نواصحننا فاكلنا وأدعنا . [ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " اتصلوا " ] فبأن عمر وقال : يا رسول الله إن فعلوا قل الظهور ، ولكن أدعهم بفضل أزوادهم فأدع الله عليها بالبركة لعل الله أن يعمل في ذلك ، قال " نعم " ثم دعا بطلع فبسط ، ثم دعا بفضل الأزواد ؛ فبفضل الرجل يحيى بكف ذرة ، ويحيى الآخر بكف تمر ، ويحيى الآخر بكرة حتى اجتمع على التطلع من ذلك شيء يسير . قال أبو هريرة : فخرته فإذا هو قدس ويضة العتر ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة : ثم قال : " خذوا في أوعيتكم " فآخذوا في أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقي في العسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ، وفضلت فضلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيُحبب عن الحنة " . نزهة مسلم في صحبه

(١) الإحالة : الشتم . (٢) القوت : الرزق (الزبل) ما دام في الكثر

(٣) الفاض : البير ينقى طيه ثم استعمل في كل بئر وإن لم يعمل الماء . (٤) زيادة من صحيح مسع

(٥) التطلع : بباطن من الأدب . (٦) روضة البز (بضم الباء وكسر) : وجنبا لها بكس



بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ابن عرفة : «مَنْ جَيْشُ تَبُوكَ جَيْشُ الْعُسْرَةِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَدَّبَ النَّاسَ إِلَى الْغَزْوِ فِي تَحْمَاةِ الْقَيْظِ، فَفُظَّ عَلَيْهِمْ وَعَسُرَ، وَكَانَ إِبْنُ ابْتِاعِ الثَّوْرَةِ . قَالَ : وَإِنَّمَا ضُرِبَ الْمَثَلُ بِجَيْشِ الْعُسْرَةِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَغْزِ قَبْلَهُ فِي عِدَدٍ مِثْلِهِ ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرَ كَانُوا ثَلَاثِينَ وَبَضْعَةَ عَشَرَ، وَيَوْمَ أُحُدٍ سَبْعِينَ، وَيَوْمَ خَيْبَرَ أَلْفًا وَخَمْسِينَ، وَيَوْمَ الْفَتْحِ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا؛ وَكَانَتْ جَيْتُهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَزِيَادَةً، وَهِيَ آخِرُ مَغَازِيهِ . وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَجَبٍ وَأَقَامَ بِتَبُوكَ سَبْعِينَ أَيَّامًا مِنْ رَمَضَانَ، وَبَتَّ سَرَايَاهُ وَصَالَحَ أَقْوَامًا عَلَى الْجَزْيَةِ . وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ خَلَّفَ طَائِفًا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : خَلَفَهُ بَعْضًا لَهُ ؛ فَخَرَجَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّ بَمَثَلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؟ ” وَبَيَّنَّ أَنْ قَعُودَهُ بِأَمْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوَازِي فِي الْأَجْرِ خُرُوجَهُ مَعَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَدَارَ عَلَى أَمْرِ الشَّارِعِ . وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَوَكَّنُونَ حَتَّى تَبُوكَ، أَيْ يَدْخُلُونَ فِيهِ الْقُدْحَ وَيَحْكُونَهُ لِيُخْرِجَ الْمَاءَ، فَقَالَ : ” مَا زِلْتُمْ تَتَوَكَّنُونَهَا بَوَكًّا “ فَسَمِعَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةَ غَزْوَةُ تَبُوكَ . الْحَسْبُ ( بِالْكَسْرِ ) مَا تَنْشَفُهُ الْأَرْضُ مِنَ الرَّمْلِ ، فَإِذَا صَارَ إِلَى صَلَابَةِ أَمْسَكْتُهُ، فَتَحْفَرُ عَنْهُ الرَّمْلُ فَتَسْخَرُجُهُ، وَهُوَ الْإِحْتِسَاءُ ؛ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ .

قوله تعالى : ( مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ) « قلوب » رفع يزيغ، عند سيبويه . ويضمرفي « كاد » الحديث تشبيها بكان؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان . وإن شئت رفعها بكاد، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمة وحفص « يزيغ » بالياء، وزعم أبو حاتم أن من قرأ « يزيغ » بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذي لم يميزه جائز عند غيره على تذكير الجمع . حكى الفراء : رَحِبَ البلاد وأرحبت، ورَحِبْتُ لغة أهل الحجاز . واختلف في معنى تزيغ، فقيل : نثلف بالجهل والمنشقة والشدة . وقال ابن عباس : تعدل — أى تميل — عن الحق في المسامحة والنصرة .



وقيل : من بعد ما هم فارق منهم بالتلف والمصاي ثم لحقوا به . وقيل : هو بالفول  
تاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعالى : ( ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ) قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم ترغ ،  
وذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أخطر عليهم  
صائب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منك أرجو ولست أعرف رباً • يُبَيِّحُ مِنْهُ بَعْضُ مَا مِنْكَ أَرْجُو  
وإذا اشتدت الشدائد في الأر • ض على الخلق فاستغاثوا وعُجُوا  
وابتليت العباد بالخوف والحبو • ع وصروا على الذنوب وبلَّحُوا  
لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ • فَنَقِطُ أَنْفِي بِكَ أَتَجُو

وقال في حق الثلاثة : ثم تاب عليهم ليتوبوا • فقيل : معنى « ثم تاب عليهم » أي وفقهم  
للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم ؛ أي فسخ لهم ولم يجعل عقابهم ليتوبوا . وقيل :  
تاب عليهم ليتوبوا على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة  
فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ؛ دليله قوله عليه السلام : " اعملوا  
فكل ميسر لما خلق له " .

قوله تعالى : وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ  
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ  
إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ( وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا ) قيل : عن التوبة ؛ عن مجاهد وأبي مالك .  
وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحكى عن محمد بن زيد معنى « خُلِفُوا » تركوا ؛ لأن معنى خلفت  
فلانا تركته وفارقتنا فاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفُوا » أي أقاموا بحسب



رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى عن جعفر بن محمد أنه قرأ «خالفوا» . وقيل . «خلفوا»  
 أى أخرجوا وأخرجوا عن المنافقين فلم يُقبض فيهم بشئ . . وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم ،  
 واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأُخر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن ،  
 وهذا هو الصحيح لما رواه سلم والبخاري وغيرهما . واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفا  
 أبا الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا له  
 فبايعهم وأستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ؛ فبذلك  
 قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلفنا تخلفنا  
 عن الغزو ، وإنما هو تخلفه إيانا وإرجأه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .  
 وهذا الحديث فيه طول ، هذا آخره <sup>(١)</sup>

والثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، ومرة بن ربيعة العامري ، وهلال  
 ابن أمية الواقفي ، وكلهم من الأنصار . وقد خرج البخاري ومسلم حديثهم ، فقال مسلم  
 عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فزأها قط  
 إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدنا تخلف عنه ، إنما خرج  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون غير قريش ؛ حتى جمع الله بينهم وبين عقوقهم  
 على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا  
 على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكركم في الناس منها ، وكان  
 من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : أني لم أكن  
 قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها ولا حين  
 قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ؛ فزأها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حشد ، واستقبل  
 صفرا بيذا ومغازا ، واستقبل عدوا كثيرا ؛ بخلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم  
 بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، ولا يحجمهم كتاب حافظ



- يريد بذلك الديوان - قال كعب : قتل رجل يريد أن يتغيب ، يظن أن ذلك سيخفى له ما لم يزل فيه وحى من الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الفتوة حين طابت التمار والغلال ، فانا إليها أصغر ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أعبدوا لى اتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا ، وأقول فى قضى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتحدى بى حتى استمر بالناس إلحدا ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل كذلك يتحدى بى حتى أسرعوا وتفاطروا الفتوة ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت ! ثم لم يقدر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزيتنى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مقموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا من قتر الله من الضمحاء ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفه . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فمكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضاً يزول به السراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كن أبا خيثمة " ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى ، وهو الذى تصدق بصاع التمر حتى لمزه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بنى ، فطفقت أذكر الكذب وأقول : هم أخرج من تحت غدا ، وأستعين على ذلك كل دى رأى من أهل ؛ فلما قيل لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظنل قادمًا زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أتجو منه بشئ أبدا ، فاجعت صدقه ، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا ، وكان إذا قديم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه

(١) أى أميل . (٢) أى طعنا عليه فى دينه ، شبا بالنفاق . (٣) هذا كلامه من كونه صعبا بنفسه ، فزاهر وتكبر . (٤) الميض (كسر اليا) : لابس الياض . والسراب : ما يظهر من الهواجر فى البرارى كأنه الماء . ويؤكد أى يفزك . -



وكتبتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يستنذرون إليه ويخطفون له به  
وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقيل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ملائمتهم وبأسهم  
واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المنقب ، ثم قال :  
"عالم" بجئت أمسى حتى جلست بين يديه ، فقال لي : "ما خلقتك ألم تكن قد أبيت  
ظهيرك ؟" قال : قلت يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند فيرك من أهل الدنيا لأب  
أني سأخرج من تحتك بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت أن حديثك  
البرم حديث كذب رضى به عنى ليوشكن الله أن يستخلك على ، ولئن حدثتك حديث صديق  
يخدع على فيه إني لأرجو فيه عقي الله ، والله ما كنت لي صذر ، والله ما كنت قط أقوى  
ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا هذا قلته  
صدق فقم حتى يفضي الله فيك" . فقمتم وثار رجال من بني سلمة فابعدوني فقالوا في  
والله ما علمناك أذنت ذنبا قبل هذا ! لقد عجزت في ألا تكون احذرت إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافك ذنبك استغفروا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فأكذب قسى . قال : ثم قلت لهم هل لقي هذا مبي من أحد ؟ قالوا :  
نعم ! لقيه معك رجلان فالأما مثل ما قلت ، فقيل لما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟  
قالوا : امرأة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي . قال : فذكروا لي وجليين صالحين  
قد شهدا بدرا فهما أسوء ؟ قال : فضيت حين ذكروهما لي . قال : ونهى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه . قال فاجتنبنا الناس  
وقال : تغيروا لنا ، حتى شكرت لي في نفس الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبنا على  
ذلك نحسين ليلة فأتنا صاحبنا فاستكانا وقعدنا في بيوتنا يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبه  
القوم وأجلدهم ، نكتت أخرج فاشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وأتى

(١) أي ضاع مرة كلامي لم يسمع مني أحد ولا يذكرونني . (٢) أي فاضح

(٣) أي ضاع ط



رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسامحين مشيت حتى تسورت حدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عتي وأحب الناس إلى فسلمت عليه ، فوالله ما ردة على السلام، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله ! هل تعلمن أن أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام من قديم الطعام يبعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفيق الناس يسبرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى آبا من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد لفتنا أن صاحبك قد جمالك ، ولم يعملك الله بدار هوان ولا مضبعة فالحق بنا نؤاسك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من اللاء ! فبأيمت بها التور فحجرت بها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين وأستلبت الوحى إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل أمرائك . قال فقلت : أطلقها أم ماذا أضل ؟ قال : لا ، بل اعترها فلا تقرتها . قال : فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . قال فقلت لامرأتى : ألحقى بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر . قال : بلغات امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضالع ليس له خادم ، فهل نكره أن أخذته ؟ قال : " لا ولكن لا بقربتك " فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ! ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهل لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرائك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تحمته . قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدري ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا



استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : قُيِّمْتَ بِذَلِكَ عشرَ ليالٍ ، فكلُّ لنا خمسون ليلة من حين  
يُجَيِّى عن كلامنا . قال : ثم صليت صلاة الفجر صباحَ نحسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ،  
فبينما أنا جالس على الحال التي ذكرها الله لنا قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بما  
رَجُبْتُ سمعت صوت صارخ أوقى على سَلْعٍ <sup>(١)</sup> يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أَيْشِرُ .  
قال : تَحَرَّرتُ ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
الناس بنبوة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يشروننا ، فذهب قبل صاحبي  
مُشَرِّون ، وركض رجل إلى فرسا ، وسعى ساج من أسلم قَبْلِي وأوقى الجبل ، فكان الصوت  
أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يَشْرِنِي زمت له توبتي فكسوته لإماما  
بشارته ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستمرت ثوبين فلبستهما ، فأطلقت أمانهم رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا ، يستنقون بالتوبة ويقولون : تَبَيَّنَكَ ثوبُهُ  
الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله  
الناس ، فقام طلعة بن عبيد الله يهرول حتى صالطني وهماقي ، والله ما قام رجل من المهاجرين  
غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلعة . قال كعب : فلما سألت على رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول : " أَيْشِرُ بغير يوم مرَّ عليك منذ ولدك  
أمك " . قال : فقلت أَمِنْ عند الله يا رسول الله أَمِنْ من عندك ؟ قال : " لا بل من عند الله " .  
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استأذَن وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر . قال :  
وكما تعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله من  
أن أخرج من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمْسِكْ  
عليك بعض مالك فهو خير لك " . قال قلت : فإني أملك سبعين ألفي دينار . قال  
قلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أيجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحتل إلا صدقة  
ما بقيت . قال : فوالله ما جعلت أحدا من المسلمين أبلاء الله في صدقي الحليث منذ ذكرت



ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ما تعدت  
كذبة منذ قلت ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم هذا ، وإنى لأرجو أنه أن يحفظني  
ليما بقي ، فأقول الله عز وجل : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه  
في ساعة الفسرة - حتى بلغ - إنه يوم عوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا  
ضافت عليهم الأرض بما رحبت وضافت عليهم أنفسهم - حتى بلغ - اتقوا الله وكونوا  
مع الصادقين » . قال كعب : والله ما أنتم الله على من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام  
أعظم في نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبت فأمك كما هلك الذين  
كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، وقال الله تعالى :  
« سَيُخَلِّفُونَ إِيَّاهُ لَكُمْ إِذَا أَتَقَلَّبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ  
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكِيدُونَ - يخلفون لكم ليعرضوا عنهم فإن تعرضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن  
الفسوق الفاسقين » . قال كعب : كما خلقنا أيسا الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة » ، وليس  
الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن النزول ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجأه أمرنا عن حلف  
له وأحذر إليه فقبل منه .

قوله تعالى : ( وَضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ) أي بما اتسعت ، قال : مزل  
وتحب ويرحب ورحاب . و « ما » مصدرية ، أي ضافت عليهم الأرض برحبها ، لأنهم  
كانوا مهجورين لا ياملون ولا يكلون . وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا .

قوله تعالى : ( وَضَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ ) أي ضافت صدورهم بالهم والوحشة ، وبما  
لقد من الصحابة من الجفوة . ( وَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ) أي تيقنوا أن لا ملجأ  
يخلصون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الوائلي : التوبة النصوح  
لأن تضيق على الثائب الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبه .



قوله تعالى : ( ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ) فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : فطُفِت في أربعة أشياء : في الابتداء مع الله تعالى ، وظننت أني أحبه فإذا هو أحنّني ؛ قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضى عني ؛ قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أني أتوب فإذا هو يذكرني ؛ قال الله تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب علي ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليتوبوا على التوبة ؛ كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا » . وقيل : أي فسخ لهم ولم يجعل عقابهم كما فعل بغيرهم ؛ قال جل وعز : « قُضِيَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَزْمًا لِمِمْ طَيْمٍ طَيَّاتٍ أُحْطَ لَهُمْ »<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ) هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين قمعهم الصدق ونهب بهم من منازل المنافقين . قال مطرف : سمعت مالك بن أنس يقول : فلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الحرم والحرف .

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ قيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله . ( وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ) أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين . أي كونوا على مذهب الصادقين وسبلهم . وقيل : هم الأنبياء ؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة . وقيل : هم المراد بقوله : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ »<sup>(٢)</sup> — الآية إلى قوله — أولئك الذين صدقوا . وقيل : هم المؤمنون بما عاهدوا ؛ وذلك لقوله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

(١) آية ١٢٦ سورة التوبة . (٢) آية ١٦٠ سورة التوبة . (٣) راجع ٤٠ ص ٣٣٧ طبع ١٣٧٥ هـ



الله عليه . وقيل : هم المهاجرون ؛ لقول أبي بكر يوم السقيفة : إن الله سمّاها الصادقين فقال :  
 « لِفَقَرِهِ الْمَاهِجِينَ » الآية ، ثم سماكم بالمُفْلِسِينَ فقال : « وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ »  
 الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو  
 الحقيقة والناية التي إليها المنتهى ؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والنزاهة في الفعل ،  
 وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من  
 قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير  
 أبي بكر الصديق فهو الذي يتم الأقوال كلها ؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانية - حتى من فهم من الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال ، والإخلاص  
 في الأعمال ، والصفات في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الفخار ؛ قال  
 صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ  
 الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَّقَى الصِّدْقَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا » . والكذب على الضد من ذلك ؛  
 قال صلى الله عليه وسلم : « يَا كُفَّيْهِ الْكَذِبِ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى  
 النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَّقَى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » . خرجه مسلم . فالكذب  
 طار وأهله مبلوون الشهادة ، وقد رث رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبة كذبها .  
 قال معمر : لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل  
 ثريك بن عبد الله قيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمداً أو صلي خلفه ؟ قال لا .  
 وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحداً شيئاً  
 ثم لا يجزه ، اقرءوا إن شئتم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » هل ترون  
 في الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق  
 في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : يقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب  
 لا يقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه ؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن  
 كُتِبَتْ خُصَالُهُ وَلَا خُصْلَةٌ مِنْهُ أَسْرَتْ مِنَ الْكَذِبِ لَهِيَ تَزُولُ الْوَلَايَاتُ وَتَبْطُلُ الشَّهَادَاتُ .



قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ) ظاهره خبر ومعناه أمر ، كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » وقد تقدم . ( أَنْ يَتَخَلَّفُوا ) في موضع رفع اسم كان . وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها ؛ كزينة وجهينة وأُتَيْحَجَ وَغِفَارَ وَأَسْلَمَ على التخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . والمعنى : ما كان هؤلاء المذكورين أن يتخلّفوا ؛ فإن التغير كان فيهم ، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُسْتَفَرَّوا ؛ في قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستغفار في كل مسلم ، وخس هؤلاء بالتأب لقرّبهم وجوارهم ، وأنهم أحقّ بذلك من غيرهم .

الثانية - قوله تعالى : ( وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ) أي لا يرضوا لأنفسهم بالخلف والذمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المشقة . يقال رغبيت عن كذا أي تركت عنه .

الثالثة - قوله تعالى : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ) أي عطش . وقيل ميهة ابن حمير . ظمأه بالمد . وهما لفتان مثل خطأ وخطاء . ( وَلَا نَصَبٌ ) سلكه إلى مسبه ولا زائكة للتوكيد . وكذا ( وَلَا مَخْمَصَةٌ ) أي جماعه . وأصله ضمور البطن ، وهو يزيل عيسى



وأمرأة تُحصانة . وقد تقدم . ( في سبيل الله ) أى في طاعته . ( وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا )  
 أى أرضاً . ( يَبْغِظُ الْكُفَّارَ ) أى يوطئهم إياها ، وهو في موضع نصب لأنه نعت للوطئ ،  
 أى غاظها . ( وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ) أى قتلا وهزيمة . وأصله من نَيْت الشيء أنال  
 أى أصبت . قال الكسائي : هو من قولهم أمرٌ نَيْلٌ منه ؛ وليس هو من التأول ، إنما  
 التأول من نَيْت العطية . قال غيره : نَيْت أنول من العطية ، من الواو والنيل من الباء ، تقول :  
 نَيْتُه فانا نائل ، أدركته . ( وَلَا يَقْطَعُونَ وَاْدِيًا ) العرب تقول : وادٍ وأودية ، على غير قياس .  
 قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعلة سواء ، والقياس أن يجمع وادياً ، فاستقلوا  
 الجمع بين واوين وهم يستقلون واحدة ، حتى قالوا : أَقْتَتِ في وَقَّتْ . وحكى الخليل وسيويه  
 في تفسيره أصل اسم رجل أو يصل فلا يقولون غيره . وحكى الفراء في جمع وادٍ أوداه .

قلت : وقد جمع أوداه ، قال جرير :

عرفت بركة الأوداه ونعيم • يحل طال عهدك من رسوم<sup>(١٧)</sup>

( إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ) قال ابن عباس : بكل روعة تألم في سبيل الله سبعون ألف حسنة .  
 وفي الصحيح : <sup>(١٨)</sup> الخيل ثلاثة ... - وفيه - وأما التي هي له أجر فرجل رطها في سبيل الله  
 لأهل الإسلام في مَرَجٍ أو روضة لها أكلت من ذلك المَرَجِ أو الروضة إلا كُتِبَ له عدد  
 ما أكلت حسنة وكتب له عدد أرواتها وأجوالها حسنة . الحليث . هذا وهي  
 في مواضعها فكيف إذا أدرب بها .

الرابعة - استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تُستحق بالإدواب والكون  
 في بلاد العدو ، فإن مات بعد ذلك فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قولي  
 الشافعي . وقال مالك وأبو القاسم : لا شيء له ؛ لأن الله عز وجل إنما ذكر في هذه الآية  
 الأجر ولم يذكر السهم .

(١٧) راجع ج ٢ ص ٦٤ طبعه المند آر ١٩٤٥ (٢) في رواه رسم الهذلي للموت - ديرة الرواة -  
 وفرداه - زاد أحده في المدة وجمع - وأسنه في كتاب رسمه (٣) المَرَج : مرمى العرب .  
 (٤) كُتِبَ لَهُمْ : حُصِّلَ لَهُمْ .



قلت - الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمناسبة النيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي يفيظهم ويدخل النذل عليهم ، فهو بمنزلة نيسل الغنيمة والقتل والأسر ، وإذا كان كذلك فالغنيمة تستحق بالإدراج لا بالحيازة ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : ما وطئ قوم في عقر دارهم إلا دلّوا . والله أعلم

الخامسة - هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً » وإن حكمها كان حين كان المسلمون في قلة ، فلما كثروا سُخِّت وأباح الله التخلف لمن شاء ، قاله ابن زيد . وقال مجاهد : بعث النبي صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادي ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا ، فأنزل الله « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » . وقال قتادة : كان هذا خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ، فاما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث - أنها محكمة ، قال الوليد بن مسلم : سمعت الازواج وأبن المبارك والقراري والسيبي وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية إنها لأقول هذه الأمة وأحرها

قلت - قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك ، والله أعلم .

السادسة - روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا من وادي إلا وهم معكم فيه" قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة . ؟ قال : " حبسهم العذر " . أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : " إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض " . فأعطى صلى الله عليه وسلم للمذور من الأجر مثل ما أعطى للفقوى العامل . وقد قال بعض الناس : إنما يكون الأجر للمذور غير مضاعف ، ويضاعف للعامل المباشر . قال ابن العربي : وهذا تحكّم على الله تعالى وتضييق لسمّة رحمته ، وقد عاب بعض الناس فقال :



لَهُمْ يَسْطُونَ الثَّرَابَ مضاعفا قطعاً، ونحن لا نقطع بالتضعيف في موضع فإنه مبنى على مقدار  
 النيات، وهذا أمر مغيّب، والذي يُقطع به أن هناك تضييفاً وربك أعلم بمن يستحقه  
 قلت : الظاهر من الأحاديث والآي المساواة في الأجر، منها قوله عليه السلام : " من  
 جدّ على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : " من توجّهوا إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوا  
 لِعطاء الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ  
 مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » . وبديل أن النية الصادقة  
 هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بُدَّ  
 في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه ؛ لقوله عليه السلام : " نية  
 المؤمن خير من عمله " . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ  
 مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ  
 لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٣٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ) وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه  
 قرض كفاية كما تقدم؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم  
 للجهاد وليقيم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون  
 ما تعلموه من أحكام الشرع، وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة  
 لقوله تعالى « إِنْ تَنَفَرُوا » وللاية التي قبلها؛ على قول مجاهد وآبن زيد .

الثانية - هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون  
 لينفروا كافةً والله صلى الله عليه وسلم مقيم لا يتغير فيتركوه وحده . ( فَلَوْلَا تَفَرَّ ) بد ما علموا  
 أن التغير لا يسع جميعهم . ( مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ) وتبقى بقيتها مع النبي صلى الله عليه



وسلم ليحملوا عنه الدين ويتفقوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه؛  
وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان. ويدل عليه أيضاً  
قوله تعالى: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup>. فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب  
والسنة

الثالثة - قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ قال الأخفش: أى فهلا نفر. ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ  
مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الطائفة في اللغة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين  
والواحد على معنى نفس طائفة. وقد تقدم أن المراد بقوله تعالى: «إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ  
مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ»<sup>(٢)</sup> رجل واحد. ولا شك أن المراد هنا جماعة لوجهين؛ أحدهما عقلاً،  
والآخر لغة. أما العقل فلأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب، وأما اللغة فقوله «ليتفقوا»  
في الدين وليُنذروا قومهم» بقاء ضمير الجماعة. قال ابن العربي: والقاضي أبو بكر والشيخ  
أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة هنا واحد، ويتصدون فيه بالدليل على وجوب العمل  
بجبر الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر  
الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا يختص.

قلت: أنص ما يُستدل به على أن الواحد يقال له طائفة قوله تعالى: «وإن طائفتان  
من المؤمنين أقتلتا»<sup>(٣)</sup> يعنى قُتِلتا. دليله قوله تعالى: «فأصلحوا بين أخويكم» بقاء بلفظ  
التثنية، والضمير في «أقتلتا» وإن كان ضمير جماعة فأقل الجماعة اثنتان في أحد القولين  
للمعناه.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ الضمير في «ليتفقوا، وليُنذروا» للقيمين  
مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة ومجاهد. وقال الحسن: هما للفرقة النافرة؛ واختاره  
الطبري. ومعنى ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدين﴾ أى يتبحروا ويتقنوا بما يريهم الله من الظهور على

(١) آية ٤٣ سورة النحل. (٢) آية ٦٦ من هذه السورة. (٣) في الاصول: «ويقتضون به

على وجوب العمل» الخ. والضمير في آية ٦٦ للمؤمنين. (٤) آية ٩ سورة الحجرات.



المشركين ونصرة الدين . ( وَيُثْبِتُوا قَوْمَهُمْ ) من الكفار . ( إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ) من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نيته والمؤمنين ، وأنهم لا يَدَانِ<sup>(١)</sup> لهم يقاتلم وقتال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيقتل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقادة آيين ، أى لتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الثغور في السرايا . وهذا يقتضى الحث على طلب العلم والتدب إليه دون الوجوب والإلزام ؛ إذ ليس ذلك في قوة الكلام ، وإنما لزم طلب العلم بأدته ؛ قاله أبو بكر بن العربي .  
الخامسة - طلب العلم ينقسم قسمين : فرض على الأعيان ؛ كالصلاة والزكاة والصيام .

قلت - وفي هذا المعنى جاء الحديث المروى - " إن طلب العلم فريضة " . روى عبد القدوس بن حبيب أبو سعيد الوحاظي عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النخعي قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرض على الكفاية ؛ كتحصين الحصون وإقامة الحدود والفصل بين الخصوص ونحوه ؛ إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع الناس فنضيع أحوالهم وأحوال سواهم وتنقص وتبطل ما يشبههم ؛ فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين ، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده وقسمه بينهم من رحمته وحكمته بساقي قدرته وكأنته .

السادسة - طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل ؛ روى الترمذي من حديث أبي الذرّاء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ

(١) يقال : مال يفلان يدان ، أى طاعة . (٢) في الأصول : « كتحصيل المخرق » .



(٧) راجع: ص ١٠٠ : طبعه اول اوراقه .



قلت : وهذا قول عبد الرزاق في تأويله الآية، إنهم أصحاب الحديث؛ ذكره الثعلبي . سمعت شيخنا الاستاذ المقرئ النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بأبن أبي حجة رحمه الله يقول في تأويل قوله عليه السلام : " لا يزال أهل القرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " : إنهم العلماء؛ قال : وذلك أن القرب لفظ مشترك يطلق على الذلّو الكبيرة وعلى مغرب الشمس، ويطلق على قبضة من الدمع . فعنى " لا يزال أهل القرب " أى لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

قلت : وهذا التأويل يتصّده قوله عليه السلام في صحيح مسلم : " من يرِد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصاة من المسلمين يقاثلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة " . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعالى : يَتَّبِعَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾

فيه سائئة واحدة - وهو أنه سبحانه عرفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين؛ فهي من التدرج الذي كان قبل الإسلام . وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » . وقد روى عن ابن عمر أن المراد بذلك الذئلم . ورؤى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الذئلم والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى .



قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية ، واختار ابن العربي أن يبدأ بالروم قبل الدليم ، على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه . أحدها - أنهم أهل كتاب ، فالجحة عليهم أكثر وأكد .  
الثاني - أنهم إلينا أقرب ، أعنى أهل المدينة . الثالث - أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستغناها عنهم أوجب . والله أعلم .

( وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ) أى شدة وقوة وحجة . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غِلْظَةً » بفتح الغين وإسكان اللام . قال الفراء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر النين ، ولغة بني تميم « غِلْظَةً » بضم النين

قوله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٣﴾

« ما » صلة ، والمراد المنافقون . ( أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ) قد تقدم القول في زيادة الإيمان وقصائده في سورة « آل عمران » . وقد تقدم معنى السورة في مقدمة الكتاب ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز <sup>(١)</sup> « إن للإيمان سننا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أعش فما بيننا لكم ، وإن أمت فما أنا على صحتكم بحرص . ذكره البخارى . وقال ابن المبارك : لم أجد بدءاً من أن أقول بزيادة الإيمان ، وإلا رددت القرآن .

قوله تعالى : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٤﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طعة أول أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٦٥ طعة ثانية أو ثالثة .

(٣) الهى في البخارى : « وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ... الخ » فراجع في كتاب الإيمان .



قوله تعالى : ( وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ) أى شك وريب وفاق . وقد تقدم .  
( فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ) أى شكًا إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم . وقال مقاتل :  
إنما إلى إثمهم ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ( أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ  
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ )

قوله تعالى : ( أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ) فراءة العامة بإلواء ،  
خبراً عن المنافقين . وقرأ حمزة ويعقوب بالياء خبراً عنهم وخطاباً للؤمنين . وقرأ الأعمش  
« أو لم يروا » . وقرأ طلحة بن مصرف « أو لا ترى » وهى قراءة ابن مسعود ، خطاباً للرسول  
صلى الله عليه وسلم . ( يُفْتَنُونَ ) قال الطبري : يختبرون . قال مجاهد : بالفتح والشدّة .  
وقال عطية : بالأمراض والأوجاع ؛ وهى روايت الموت . وقال قتادة والحسن وعاصم :  
بالتزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر ( ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ )  
لذلك ( وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ) .

قوله تعالى : ( وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ  
يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ )

قوله تعالى : ( وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ) « ما » صلة ، والمراد المناقون ؛  
أى إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآنًا أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم  
إلى بعض نظر الترقب على جهة التفرير ؛ يقول : هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فيغله إلى  
مجدد ؛ وذلك جهل منهم بنبوته ، وأن الله يطمعه على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن « نَظَرَ »  
فى هذه الآية بمعنى أنباء . وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : « نظر » فى هذه الآية موضع قال .  
قوله تعالى : ( ثُمَّ انْصَرَفُوا ) أى أنصرفوا عن طريق الاهتداء . وذلك أنهم حينما بين  
لهم كشف أسرارهم والإعلام بغيئات أمورهم بقعهم لا خالة تعجب وتوقف ونظر . فلو



اُتَدَبُوا لَكَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مَظِنَّةً لِّإِيْمَانِهِمْ؛ فَهُمْ إِذْ يَصْمُمُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَيَرْتَبُونَ فِيهِ كَانَهُمْ  
انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مَظِنَّةَ النظر الصحيح والاعتداء، ولم يسمعوا قراءة النبي  
صل الله عليه وسلم سَمَاعٍ من يتدبره وينظر في آياته؛ «إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ  
الَّذِينَ لَا يَمْلُقُونَ» . «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ) دعاء عليهم؛ أى قولوا لهم هنا . ويجوز  
أن يكون خبراً عن صرفها عن الخير مجازاةً على فعلهم . وهى كلمة يدعى بها ؛ كقوله :  
« قَاتِلْهُمْ اللَّهُ » . والباء فى قوله : « بِأَنَّهُمْ » صلة لـ « صرف » .

الثانية - قال ابن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصلاة؛ لأن قوما انصرفوا  
فصرف الله قلوبهم؛ ولكن قولوا قضيا الصلاة؛ أسنده الطبرى عنه . قال ابن العربى :  
وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة؛  
فإن قوما قبل فيهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى  
الواعظ حدثنا أبو الفضل الجوهري سَمَاعاً منه يقول : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا  
رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال فى قوم ذمهم : « ثم انصرفوا  
صرف الله قلوبهم » ولكن قولوا : اقبلوا رحمكم الله ؛ فإن الله تعالى قال فى قوم مدحهم :  
« فَأَقْبَلُوا بِرِضْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلِ لِمِ يَحْسِبُهُمْ سَوْءٌ » .

الثالثة - أخبر الله سبحانه تعالى فى هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالها  
ومقلبها؛ رداً على القدرة فى اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم يحكمهم؛ ينصرفون  
بمشيقتهم ويحكمون بإرادتهم واختيارهم؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أنسب : ما أبين هذا فى الرَّدِّ  
على القدرة «لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» . وقوله عز وجل  
لنوح : «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» فهذا لا يكون أبداً ولا يرجع ولا يزول .

(١) ارتبك فى الأمر إذا وقع به وشك ولم يتلهم . (٢) آية ٢٢ - سورة الأحقاف

(٣) آية ٢٤ سورة محمد . (٤) آية ١٧٤ سورة آل عمران (٥) آية ٢٦ سورة مود .



قوله تعالى : لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ  
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾

هاتان الآيتان في قول أبي أقرب القرآن بالسما عهدا . وفي قول سعيد بن جبير : آخر  
ما نزل من القرآن « وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » على ما تقدم . فيحتمل أن يكون قول  
أبي أقرب القرآن بالسما عهدا بعد قوله : « وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » . والله أعلم .  
والخطاب للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ؛ إذ جاء  
بلسانهم وبما يفهمونه ، وشرَّفوا به غابر الأيام . وقال الزجاج : هي مخاطبة لجميع العالم ؛  
والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من  
العرب إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه قال : يا معشر العرب ، لقد جاءكم رسول ،  
من بني إسماعيل . والقول الثاني أؤكد للجهة ؛ أي هو بشر مثلكم لفهموا عنه وتأنخوا به .

قوله تعالى : ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من ضمير  
العرب وخالصها . وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : « إِنْ اللَّهَ اصْطَفَى كِتَابَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قَرِيبًا مِنْ كِتَابَةِ وَاصْطَفَى  
مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« إِنِّي مِنْ نِكَاحٍ وَلَسْتُ مِنْ سَفَاحٍ » . معناه أن فيه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام  
لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيه زنى . وقرأ عبد الله بن قسيط المكي من  
« أَنفُسِكُمْ » بفتح الفاء من النفاة ؛ ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضى  
الله عنها ؛ أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من فوائت : شئ ، فليس إذا كان مرعوبًا  
فيه . وقيل : من أنفسكم ؛ أي أكثركم طاعة .



قوله تعالى : ( **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ) أى **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مُشَقَّتُكُمْ** . **وَاللَّهُ** : المشقة ؛ من قوم : **أَتَمَّتْ** عُنُوتٌ إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأنبارى : أصل التمت التشديد ؛ فإذا قالت العرب : فلان **تَبَعْتَنِي** فلانا و**بَعِثَهُ** فرادهم **بَشَدَّ** عليه و**بَزَزَهُ** بما يصعب عليه أداؤه . وقد تقدم فى « البقرة » . « وما » فى « عَنِتُّمْ » مصدرية ، وهى ابتداء و « **عَزِيزٌ** » خبر مقدم . ويجوز أن يكون « ما عَنِتُّمْ » فعلا **بَزَزَ** ، و « **عَزِيزٌ** » صفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** » وكذا « **رِعُوفٌ رَحِيمٌ** » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ **عَزِيزًا** عليه ما عَنِتُّمْ **حَرِيصًا** رِعُوفًا رَحِيمًا ، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس ، وأحسن ما قيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدي قال حدثنا عبد الله بن محمد الخزاز قال سمعت عمرو بن حلٍ يقول : سمعت عبد الله بن داود الخزاز يقول فى قوله عز وجل « **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** » قال : أن تدخلوا النار ، « **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : **حَرِيصٌ** عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشيء : الشُّحُّ عليه أن يضيع ويتلف . ( **وَالْمُؤْمِنِينَ رِعُوفٌ رَّحِيمٌ** ) (١) الرعوف : المبالغ فى الرأفة والشفقة . وقد تقدم فى « البقرة » معنى « **رِعُوفٌ رَحِيمٌ** » مستوفى . وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء أسمين من أسمائه إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : « **وَالْمُؤْمِنِينَ رِعُوفٌ رَحِيمٌ** » وقال : « **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرِعُوفٌ رَّحِيمٌ** » . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزير حريص بالمؤمنين رِعُوفٌ رَحِيمٌ ، عزير عليه ما عَنِتُّمْ لا يهتمة إلا شأنكم ، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عَنِتُّمْ ما أقمت على سُنَّتِهِ ؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة . قوله تعالى : ( **فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ** ) أى إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التى من الله عليهم بها فقل حَسْبِيَ اللَّهُ ؛ أى كافى الله تعالى . ( **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ) أى اعتمدت ، وإليه فوّضت جميع أمورى . ( **وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ) خصَّ العرش

(١) راجع ٣-٦ طبة أول أو ثانية . (٢) راجع ٢-٨ ١٥٨ طبة ثانية ، و ١ ص ١-٢ طبة ثانية أو ثالثة . (٣) آية ١٤٣ سورة البقرة .



لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض « العظيم » نعتا للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب ، رُويت عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن محيَّص . وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أمله صادقا كان بها أو كاذبا . وفي نوادر الأصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهنَّ مكافئاً مجزئاً خمساً للدنيا وخمساً للآخرة حسبي الله لديني حسبي الله لدنياي حسبي الله لما أمني حسبي الله لمن بنى علي حسبي الله لمن حسدني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المسألة في القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أُنِيب " . وحكى النقاش عن أبي بن كعب قال : أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ؛ وقد بيناه . وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه الآية ؛ ذكره الماوردي . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه ؛ على ما ذكرناه في البقرة ، وهو أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد ؛ لأن السورة مدنية ، والله أعلم . وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان ؛ بغناه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بيعة ، كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأثبتهما . قال عسائونا : الرجل هو خزيمه بن ثابت ، وإنما أثبتهما عمر رضي الله عنه بشهادته وحده إتيام الدليل على صحتهما في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهي قربة تنفي عن طلب شاهد آخر ، بخلاف آية الأحراب « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسامعها إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى في مقدمة الكتاب . والحمد لله .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونس عليه السلام مكية في قول الحسن وعكرمة ومطاء وجابر . وقال ابن عباس :  
إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ <sup>(١)</sup> إِلَى آخِرِينَ . وقال مقاتل : إلا آيتين  
وهي قوله : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ <sup>(٢)</sup> نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ . وقال الكلبي : مكية إلا قوله :  
« وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ <sup>(٣)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ » نزلت بالمدينة في اليهود . وقالت فرقة : نزل  
من أولها نحو من أربعين آية بمكة وبأقربها بالمدينة .

قوله تعالى : **الَّتِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ①

قوله تعالى : (الْ) قال النحاس : قرئ على أبي جعفر أحمد بن شعيب بن مولى بن  
الحسين بن حريث قال : أخبرنا علي بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدثه عن  
ابن عباس : الر ، وح ، ونون [ حروف ] الرحمن مفزعة ، فحدثت به الأعمش فقال : عندك  
أشياء هذا ولا تجربني به . وعن ابن عباس أيضا قال : معنى « الر » أنا الله أرى . قاله  
النحاس : ورأيت أبا بصير يميل إلى هذا القول ؛ لأن سيويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :  
بالخير خيرات وإن شراً فآه . ولا أريد الشر <sup>(٤)</sup> إلا أن تأ

وقال الحسن وعكرمة : « الر » قَسَمَ . وقال سعيد عن قتادة : « الر » اسم السورة ؛ قال :  
وكذلك كل هاء في القرآن . وقال مجاهد : هي فوائح السور . وقال محمد بن يزيد : هي تنبيه ،  
وكذا حروف التهجي . وقرئ « الر » من غير إمالة . وقرئ بالإمالة للثلاث تشبه ما ولا من  
الحروف .

(٢) آية ٤٠

(٣) كذا في نسخ الأصل . بتفسير ابن عطية .

(١) آية ٩٤

(٤) أجزيك بالخير خيرات وإن كان منك شر كان مني مثله ، ولا أريد الشر إلا أن تشاء . (عن شرح الشواهد)



قوله تعالى : ( تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ) ابتداء وخبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنث . وقيل : « تلك » بمعنى هذه؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خبلى منه وتلك ركابى • هن صُفْرُ أولادها كالزبيب

أى هذه خبلى . والمراد القرآن وهو أولى بالصواب ؛ لأنه لم يمر للكتب المتقدمة ذكر ، ولأن « الحكيم » من نعم القرآن . دليله قوله تعالى : « الر كتاب أحكمت آياته » وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة « البقرة » . والحكيم : المُحَكَّم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ؛ قاله أبو عبيدة وضعه . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم ؛ أى أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق ؛ فيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ » . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان وعلمائى ذى القربى ، وحكم فيه بالتهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه ؛ فهو فعل بمعنى المفعول ؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحَكَّم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف ؛ فيل بمعنى مفعّل ، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغريبة تاتى الملوك حكيمة • قد قلتها ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَاَنَ لِلنَّاسِ بَحْبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾

(٢) راجع - ١٥٧ ص وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة .

(١) أول سورة هود .

(٢) آية ٢١٣ سورة البقرة .



قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ . و « عجبا » خبر كان ، واسمها ﴿ أَنَّ أَوْحَيْنَا ﴾ وهو في موضع رفع ، أى كان إيمائنا عجبا للناس . وفي قراءة عبد الله «عجب» على أنه اسم كان . والخبر «أَنْ أَوْحَيْنَا» . ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ قرئ «رَجُل» بـاسكان الجسيم . وسبب النزول فيما روى عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بُعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من رسله إلا يتيم أبى طالب ؛ فترلت : « أَكَانَ لِلنَّاسِ » يعنى أهل مكة «عجبا» . وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع نصب بإسقاط الخافض ؛ أى بان أُنذر الناس ؛ وكذا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ . وقد تقدم معنى التذارة والبشارة وغير ذلك من الفاظ الآية . واختلف في معنى « قَدَمَ صِدْقٍ » فقال ابن عباس : قدم صدق منزل صدق ؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » . وعنه أيضا : أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صدق » سبق السعادة في الذكر الأول ؛ وقاله مجاهد . الإجماع : درجة عالية . قال ذو الرمة :

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يَنْصُكِرُ النَّاسُ أَنَهَا • مع الحساب العالى طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ

قناة : سلف صدق . الربيع : ثواب صدق . عطاء : مقام صدق . يَمَسُّ : إيمان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صَالِحٌ قَتَمُوهُ . الماوردي : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء . وقال الحسن وقناة أيضا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيع مطاع يتقتمهم ؛ كما قال : «أَنَا قَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»<sup>(١)</sup> . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : «هِيَ شَفَاعَتِي تَوَسَّلُونَ بِي إِلَى رَبِّكُمْ» . وقال الترمذي الحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم في النبي صلى الله عليه وسلم . وقال

(١) راجع ج ١ ص ١٨٤ وح ٢٣٨ طبة ثابته أو ثابته . (٢) آية ٨٠ سورة الإسراء .

(٤) أى متقدمكم إليه .

(٣) في ديوانه وتفسير الطبري «الهادي» .



عبد العزيز بن يحيى : « قَدَمَ صَدَقَ » قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ سَنُعَذِّبُهُمْ » وقال مقاتل : أَعْمَالًا قَسَمُوهَا؛ واختاره الطبري . قال الواح :

صَلَّ لَدَى الْعَرْشِ وَأَتَمَّ قَدَمًا . تَجَبَّكَ يَوْمَ الْبِشَارِ وَالزَّلْزَلِ

وفيل : هو تقديم الله هذه الأمة في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة . كما قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلاق » . وحقيقته أنه كناية عن السبق في العمل الصالح ؛ فكُنِيَ عنه بالقدم كما يَكْنَى عن الإنعام باليد وعن الثناء باللسان . وأشد حسان : لنا التَّقدم العِليا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا \* لأَوْلَسَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة ، والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من حير أو شر فهو عند العرب قَدَمٌ ؛ يقال : لفلان قَدَمٌ في الإسلام ، وله عندى قَدَمٌ صَدِيقٌ وقدم شر وقدم خير . وهو مؤثت وقد يذكر ؛ يقال أَقَدَمَ حَسَنٌ وقدم صالحة . وقال ابن الأعرابي : القدم التَّقدم في الشرف ؛ قال العجاج .

زَلَّ بَنُو الْعَوَامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ \* وَتَرَكَوْا الْمُلْكَ لِلْمَلِكِ ذِي قَدَمٍ

وفي الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لى خمسة أسماء . أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحى الله بى الكفر وأنا الحاشى الذى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وأنا العاقب » يريد آخر الأنبياء ؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

قوله تعالى : ( قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) قرأ ابن محيىن وأبن كثير والكوفيون عاصم وحمة والكسائي وحلف والأعمش « لساير » نعتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ الباقر « لسحر » نعتا للقرآن . وقد تقدم معنى السحر في « البقرة » .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٤٠ سورة الأحزاب . (٣) راجع ج ٢ ص ٤٢ طبع ثمانية .



قوله تعالى : ( **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ) تقدم في الأعراف . ( **يُذَكِّرُ الْأَمْرَ** ) قال مجاهد : يفضيه ويقدره وحده . ابن عباس : لا يشركه في تدبير خلقه أحد . وقيل : يبعث بالأمر . وقيل : يزل به . وقيل : يأمر به ويمضيه ؛ والمعنى متقارب . فغيريل للوحى ، وميكائيل للقطر ، وإسرافيل للصّور ، وعزرائيل للقبض . وحقيقته تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها ، واشتقاقه من الدبر . والأمر اسم لجنس الأمور . ( **مَا مِنْ شَيْعٍ** ) في موضع رفع ، والمعنى ما شفع ( **إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** ) وقد تقدم في « البقرة » معنى الشفاعة . فلا يشفع أحد نبي ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبده من دون الله : « **هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** » (١) فاعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعالى : ( **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** ) أى ذلكم الذى فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . ( **فَاعْبُدُوهُ** ) أى وحدوه وأخلصوا له العبادة . ( **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ) أى بخلوقاته فتستدلوا بها عليه .

قوله تعالى : ( **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُ أَنْتُمْ** ) ثم يعيدهم ليَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢)

قوله تعالى : ( **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** ) رفع بالابتداء . ( **جَمِيعًا** ) نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . ( **وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا** ) مصدران ، أى وعد الله ذلك وعدا وحقيقته « **حقا** » صدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبى عتبة « **وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ** » على الاستثناء .

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ طبة أول أرتانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٧٣ طبة أول أرتانية .

(٣) آية ١٨ من هذه السورة .



قوله تعالى : ( إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ) أى من التراب . ( ثُمَّ يُعِيدُهُ ) إليه . مجاهد : ينشئه ثم يميتة ثم يحييه البعث ؛ أو ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد ابن القمقاع « أنه يبدأ الخلق » تكون « أن » فى موضع نصب ؛ أى وعدمك أنه يبدأ الخلق . ويموز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ؛ كما يقال : لَيْكَ أَنْ الْحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ لَكَ ؛ والكسر أجود . وأجاز الفراء أن تكون « أن » فى موضع رفع فتكون أسما . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداءه الخلق .

قوله تعالى : ( لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ) أى بالعدل . ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ) أى ماء حار قد انتهى حره ، والحميمه مثله . يقال : حَمَمْتُ الْمَاءَ أَحْمَهُ فهو حميم ، أى محوم ؛ فحبل بمعنى مفعول . وكلُّ مُسَخَّنٍ عند العرب فهو حميم . ( وَمَذَابٌ أَلِيمٌ ) أى موجه ، يخلص وجهه إلى قلوبهم . ( وَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ) أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم ؛ فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ) مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤت لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء . ( وَالْقَمَرَ نُورًا ) عطف ، أى منيرا ، أوذا نور . فالضياء ما بهى الأشياء ، والنور ما يبين ويفضى ؛ لأنه من النار من أصل واحد . والضياء جمع ضوء ؛ كالسبايط والحباض جمع سوط وحوض . وقرأ قبيل عن ابن كثير « ضياء » بهمز الباء ولا وجه له ؛ لأن ياء كانت واوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوى : ومن قرأ ضياء بالهمز فهو مقلوب ، قدمت



الهمزة التي بعد الالف فصارت قبل الالف فصلها ضائبا، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد  
الف زائدا . وكذلك إن قدرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها  
لأنها قلبت همزة ليرضا فوزنه فلاح مقلوب من فعال . ويقال : إن الشمس والقمر تضى .  
وجوهما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعالى : ( وَقَدَرَهُ مَنَازِلٌ ) أى ذا منازل ، أو قدر له منازل . ثم قيل : المعنى  
وقدرهما ، فوحد إيجازا واختصارا ، كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَخْفَضُوا أَلْيَاسَهُمْ » .  
وكما قال :

هَمِنْ بَمَا حَسَدًا وَأَنْتَ بَمَا . ههناك واضح والرأى مختلف

وقيل : إن الإخفاء عن القمر وحده ، إذ به تحصى الشهور التي عليها العمل في المعاملات  
وتحويها ، كما تقدم في « البقرة » . وفي سورة يس : ( وَالْقَمَرَ قَدَرًا مَنَازِلٌ ) أى على عدد  
الشهر ، وهو عمانية وعشرون مثلا . ويومان للتقضان والمحاق ، وهناك بآى بيانه .

قوله تعالى : ( لَتَعْلَمُنَّوْا مَدَدَ السَّيْنِ وَالْحَسَابِ ) قال ابن عباس : لو جعل شمسين  
فهما بالنهار ونحسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل ، لم يعلم عدد السنين وحساب الشهور .  
وواحد « السنين » سنة ، ومن العرب من يقول : سنوت في الجمع . ومنهم من يقول :  
سنهات . والتصغير سنيّة وسنينة .

قوله تعالى : ( مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ) أى ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك  
إلا الحكمة والصواب ، وإظهارا لصنفته وحكمته ، ودلالة على قدرته وعلمه ، ولتجزى كل  
قس بما كسبت ، فهذا هو الحق .

قوله تعالى : ( يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) تفصيل الآيات تبيينها ليستدل بها على  
قدرته تعالى ، لا اختصاص الليل بظلامه والنهار بضياءه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب ؛

(١) آخر سورة الحج . (٢) واجع ج ٢ ص ٣١١ وما بعدها طيبة ناية . (٣) آية ٢٩

(٤) الحاق لينة ، آخر الخبر اظن الحلال فيه .



فيكون هنا لم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب  
 « بفصل » بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ  
 إِلَّا بِالْحَقِّ » وبسده « وما خلق الله في السموات والأرض » فيكون متبعا له . وقرا  
 ابن السميع « تَفْصِلُ » بهم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، و « الآيات » رفعا .  
 الباقون « فحصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ  
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿١١﴾

تقدم في « البقرة » وضرها معناه ، والحمد لله . وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة  
 سألوا آية فودعهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ؛ قاله ابن عباس . ( لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) أى  
 الشرك ؛ فاما من أشرك ولم يستدل فليست الآية له آية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابَتِنَا غَافِلُونَ** ﴿١٢﴾ **أُولَئِكَ مَاؤُهُم  
 النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا** ) « يرجون » يخافون ، ومنه قول الشاعر :  
 إذا لسعته النحل لم يرج لسعها . وخالفها في بيت نوب عواسل<sup>(١)</sup>

وقيل يرجون يطمعون ، ومنه قول الآخر :

أرجو بنو مروان سمى وطاعنى \* وقسوى تميم والقلاة وراثى

(١) واجب ج ٢ ص ١٩١ حصة ثانية . (٢) البيت لأبي ذؤيب . وقوله : « وخالفها » بالحاء المعجمة :  
 جاء الى علها وهي غائبة ترمى . ويرى « وخالفها » بالهمزة ، أى لازمها . والنوب : النحل : لأنها ترمى ثم تنوب  
 الى موضعها . ويرى : « عوامل » بدل « عواسل » يعنى التى تعمل الليل والنهار . ( عن شرح ديوان أبي ذؤيب ) .



فأرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، أى لا يخافون عقاباً ولا يرجون توباً. وجعل لقاء العذاب والتواب لقاء لله نفخياً لها. وقيل: يجرى اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية؛ أى لا يطمعون فى رؤيتنا. وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع التجدد كقوله تعالى: «مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا»<sup>(١)</sup>. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى. قوله تعالى: «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها. «وَأَطَاعُوايَهَا» أى فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل أطمان طامن طمأنينة، فقدمت ميمه وزيدت نون والف وصل؛ ذكره الفَرَزَوْنِي. «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا» أى عن أدلتنا «غَافِلُونَ» لا يفتكرون ولا يفكرون. «أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ» أى متوالم ومقامهم. «النَّارِ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ»<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا. «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» أى يزيدهم هداية؛ كقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى»<sup>(٣)</sup>. وقيل: «يهديهم ربهم بإيمانهم» إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار. وقال أبو رَوَاق: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال عطية: «يهديهم» يشيهم ويخرجهم. وقال مجاهد: «يهديهم» بالنور على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نوراً يشون به. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوى هذا أنه قال: «يَتَلَقَّى الْمُؤْمِنُ عَمَلُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَيُؤَنِّسُهُ وَيَهْدِيهِ وَيَتَلَقَّى الْكَافِرُ عَمَلُهُ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ فَيُوحِشُهُ وَيُضِلُّهُ». هذا معنى الحديث. وقال ابن جرير: يجعل عملهم هادياً لهم. الحسن: «يهديهم» يرحمهم.

قوله تعالى: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» قيل: فى الكلام واو محذوفة، أى وتجرى من تحتهم، أى من تحت إسمائهم. وقيل: من تحت أيسرهم؛ وهذا أحسن فى التزهة والفرجة.



قوله تعالى : دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَجِّنَهُمْ فِيهَا سَلَامًا وَاجْرُ  
دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ) دعواهم : دعاؤهم ؛ والدعوى مصدر  
دعا يدعو ، كالشكوى مصدر شكى يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم .  
وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد . وقيل :  
تدأؤهم الحمد لياؤهم بما شاءوا ثم سبحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التثنية ؛ قال الله تعالى :  
« وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ » أى ما تمتنون . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَنَجِّنَهُمْ فِيهَا سَلَامًا ) أى نحية الله لهم أو نحية الملك أو نحية بعضهم  
لجميع : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى النحية مستوفى . والحمد لله .

قوله تعالى : ( وَاجْرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) فيه أربع مسائل :

الأولى - قيل : إن أهل الجنة إذا مرت بهم الطير وأشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فبأنهم  
الملك بما اشتبهوا ؛ فإذا أكلوا حمدوا الله ؛ فسؤالهم بلفظ التسبيح وانتم بلفظ الحمد . ولم يحك  
أبو عبيد إلا تخفيف « أن » ورفع ما بعدها ؛ قال : وإنما زاهم اختاروا هذا وفرقوا بينها  
وبين قوله عز وجل « أن لعنة الله » و « أن غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال :  
الحمد لله . قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن « أن » هذه مخففة من التثنية ،  
والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : ويجوز « أن الحمد لله » يعملها خفيفة عملها ثقلية ؛  
والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى بردة قرأ « وآثر دعواهم أن  
الحمد لله رب العالمين » .

قلت : وهى قراءة ابن محيصن ، حكاهما التزوي لأنهما يحكى عنه .



الثانية - التسبيح والحمد والتهلل قد يُسمى دعاء؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: " لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم " . قال الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب . وقال ابن عيينة وقد سئل عن هذا فقال : أما علمت أن الله تعالى يقول " إذا شغل عبدي ثناؤه عن مستحق أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " . والذي يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناءً عليه ما رواه النسائي عن سعد ابن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين نانه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له " .

الثالثة - من السنة لمن بدأ بالأكل أن يسمي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداءً بأهل الجنة ؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " .

الرابعة - يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ؛ وحسن أن يقرأ آخر الصفات فانها جمعت تزيده الباري تعالى عما نسب إليه ، والتسليم على المرسلين ، وانتم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِأَخْيَرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

(١) هو قوله تعالى : « سبحانك ربُّ العزة عما يصفون وسلا على المرسلين والحمد لله رب العالمين »



قوله تعالى : ( وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ )  
فيه ثلاث مسائل :

الاولى - قوله تعالى : ( وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ) قيل : معناه ولو عجّل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خافوا في الدنيا خلقا ضعيفا ، وليس هم كذا يوم القيامة ؛ لأنهم يوم القيامة يخفون للبقاء . وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ؛ وهو معنى «لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ» . وقيل : إنه خاص بالكافر ، أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجّل له خير الدنيا من المال والولد لمعجل له قضاء أجله ليعجل عذاب الآخرة ؛ قاله ابن اسحاق . مقال : هو قول النضر بن الحارث : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ أَمْنِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجْرًا مِنَ السَّمَاءِ ؛ فَلَوْ عَجَلَ لَمْ يَهْزَأْ لِمَكْرُوكِنَا . وقال مجاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غَضِبَ : اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ ، اللَّهُمَّ لَا تَبَارِكْ لَهُ فِيهِ وَأَلْمَنَهُ ، أو نحو هذا ؛ فلواستجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ . فالآية نزلت ذائمة لخُلُقٍ ذميمة هو في بعض الناس يدعو في الخير فيريدون تسجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الشر ؛ فلوعجل لهم لمهلكوا

الثانية - وأختلف في إجابة هذا الدعاء ؛ فرؤى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنْ مَاتَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ أَلَا يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ حَبِيبٍ عَلَى حَبِيبِهِ " . وقال شهر بن حوشب : قرأت في بعض الكتب أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِللَّائِكَةِ الْمُؤَكَّاتِ بِالْعَبِيدِ : لَا تَكْتُبُوا عَلَى عَبْدِي فِي حَالِ سَجَرِهِ شَيْئًا ؛ لَطْفًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ؛ واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخر الكتاب ، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بَطْنِ بُوَاظٍ . وهو يطلب الْحَيْدَى بْنَ عَمْرِو بْنِ الْحُنَيْنِ

(١) بوأظ (بضم الراء) : جبل من جبال جهة بتاحية رضوى (جبل بالمدينة عند ينبع) ، غزاه النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من الهجرة يريد قريشا



وَكَانَ النَّاسُ يَتَّبِعُهُ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسَّتَةِ وَالسَّبْعَةِ ، فَدَارَتْ عَقِبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاسِخٍ لَهُ فَأَنَاحَهُ فَرَكَبَ ، ثُمَّ بَعَثَهُ فَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّلَدَّنِ ؟ فَقَالَ لَهُ : شَأْنُكَ لَكَ اللَّهُ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ هَذَا الْأَعْرُ بِعِيرِهِ ؟ “ قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ” أَنْزِلْ عَنْهُ فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلُوكٍ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تَوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عِطَاءُ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ “

في غير مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلحقه رجل ناقته فقال : ” أين الذي لمن ناقته ؟ “ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله ؟ فقال : ” أنهرها عنك فقد أُجِبت فيها “ . ذكره الحلي في منهاج الدين . « شأ » يروى بالسين والشين ، وهو زجر للبعير بمعنى سر .  
الثالثة - قوله تعالى : ( وَلَوْ يُسْجَلُ اللَّهُ ) قال العلماء : التجليل من الله ، والاستعجال من العبد . وقال أبو علي : هما من الله ، وفي الكلام حذف ، أى ولو يسجل الله للناس الشر تعجلاً مثل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجلاً وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه ، هذا مذهب الخليل وسيبويه . وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء : كما تقول ضربت زيداً ضربك ، أى كضربك . وقرأ ابن عامر « لَقَضَى إِلَيْهِمْ أِحْلَهُمْ » . وهى قراءة حسنة ؛ لأنه متصل بقوله « وَلَوْ يُسْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ » .

قوله تعالى : ( فَتَنْتَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ) أى لا يسجل لهم الشر فربما يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . ( فِي طُفْيَاتِهِمْ يَسْمُونُ ) أى يتحيرون . والطفيان : الملق والارتفاع ؛ وقد تقدم في « البقرة » . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية أهل مكة ، وإنها نزلت حين قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ، على ما تقدم والله أعلم .

(١) أى يتابعونه فى الركوب واحد بعد واحد . والمعنى : التوبة . (٢) تَدَنُّ : تَلَا وَتَوَقَّفَ وَلَمْ يَبْتَثْ .

(٣) راجع ١ ص ٢٠٩ طبع ثانية لمراتلة . (٤) ٧ ص ٣٩٨ طبع لأول مرة ثانية .



قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِجْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِجْنِهِ) قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر . قيل : هو أبو حذيفة بن اليمانية المشرك ، تصبیه البأساء والشدة والجهد . (دَعَا لِحِجْنِهِ) أى ملّ جنبه مضطجعا . (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وإنما أراد جميع حالاته ، لأن الإنسان لا يعدو لأحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالضطجع لأنه بالضرر أشدّ في غالب الأحوال ، فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشدّ ، ثم القاعد ثم القائم . (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ) أى استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي ، فالآية تمّ الكافر وغيره . (كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا) قال الأخفش : هى « كأن » التثنية خففت ، والمعنى كأنه ، وأنشد :

وَيَ كَأَن مِّن يَكُنْ لَهُ تَسْبُّ يُحِبُّ • سَبَّهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَشْ عَيْشَ ضَرِّهِ

(كَذَلِكَ زُيِّنَ) أى كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء (زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ) أى للشركين أعمالمهم من الكفر والمعاصي . وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) يعنى الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكتهم (لَمَّا ظَلَمُوا) أى كفروا وأشركوا . (وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)

(لَمَّا) البيت زيد بن عمرو بن قحيل ، فراجع فى حواشى الأدب فى الناهل الثامن والسبعين بعد الأرمائة .



أى بالمعجزات الواضحات والبراهين التبرات . ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى أهلكاهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون . يخوف كفاز مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكديسهم بها صلى الله عليه وسلم ، ولكن نعماهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلاهم من يؤمن . وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائنين بخلق الهدى والإيمان . وقيل : معنى « وما كانوا ليؤمنوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ، ويدل على هذا أنه قال : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ مفعولان . والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدم آخر « الأنعام » أى جعلناكم سكانا في الأرض ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد القرون المهلكة . ﴿ لِنَنْظُرَ ﴾ نصب بلام كى ، وقد تقدم بظاؤه وأمثاله ؛ أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غيباً . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسل ؛ أى لينظر رسلنا وأوليأؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله تعملون ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله سأل : وَإِذَا سَأَلَ عَنْهُمْ ءَايَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَرُّءٌ مِنْهُمْ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾



فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِم آيَاتِنَا ) « نزل » نقرأ ، و « ينات » نصب على الحال ؛ أى واصحات لا لبس فيها ولا إشكال . ( قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ) يعنى لا يتخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشركى أهل مكة . ( أَنْتَ يُقْرَأُ بِغَيْرِ هَذَا أَوْ بَلُّهُ ) والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه ؛ وفى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها - أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيدها والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا ؛ قاله ابن جرير الطبرى .

الثانى - سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألفتهم وتسفيه أحلامهم ؛ قاله

ابن عباس .

الثالث - أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ؛ قاله الزجاج .

الثانية - قوله تعالى : ( قُلْ مَا يَكُونُ لِي ) أى قل يا محمد ما كان لى ( أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ تِلْكَ نَفْسِي ) ومن عندى ، كما ليس لى أن ألقاه بالرد والتكذيب . ( إِنْ أُتِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ ) أى لا أتبع إلا ما أنزل الله عليكم من وعد ووعيد ، وتحريم وتحليل ، وأمر ونهى . وقد يستدل بهذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة ؛ لأنه تعالى قال : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ تِلْكَ نَفْسِي » وهذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثل القرآن نظا ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قادرا على ذلك ، ولم يسأله تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان حيا لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى : ( إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ) أى إن خالفت فى تبديله وتغييره أو فى ترك العمل به ( مَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) يعنى يوم القيامة .



قوله تعالى : **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ۚ**  
**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝**

قوله تعالى : **( قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ )** أى لو شاء الله ما أرسلتكم إليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ، يقال : **دَرَيْتُ الشَّيْءَ** وأدراى الله به ، ودريته ودريت به . وفى البراية معنى الخلل ، ومنه دريت الرجل أى خلت ، ولهذا لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضاً عدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير « ولأدراك به » بضم ألف بين اللام والمهمزة ، والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتله عليكم ، فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراكم به » بتحويل الياء ألفاً ، على لغة بنى عقيل ، قال الشاعر :

لمبرك ما أخشى التصحلك ما بئى • على الأرض قبيى يسوق الأبعرا

وقال آخر .

ألا أدنت أهل الإمامة طيى • بحرب كذاصات الأغمر المشهر

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعى يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراكم به » إلا اللط . قال النحاس : معنى قول أبي عبيد « لا وجه » إن شاء الله على اللط ، لأنه يقال : دريت أى علمت ، وأدريت غيرى ، ويقال : درأت أى دفعت ، فبقي اللط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب « ولا أدريتكم به » فأبدل من ألياء ألفاً على لغة بنى الحارث بن كعب ، يدلون من الياء ألفاً إذا انفتح ما قبلها ، مثل « إن هذان لساحران » . قال المهدوى : ومن قرأ « أدراكم » فوجهه أن أصل المهمزة ياء ، فاصله « أدريتكم » فقلت الياء ألفاً وإن كانت ساكنة ، كما قال : يابس فى ييس وطايى فى طيى ، ثم قلت الألف



همزة على لغة من قال في العالم العالم وفي الخاتم . قال النحاس : وهذا غلط، والرواية عن الحسن « ولا أدراكم » بالهمزة، وأبو حاتم وغيره تكلم أنه غير همز، ويجوز أن يكون من درات أى دفست؛ أى ولا أمرتكم أن تدفعوا فتكروا الكفر بالقرآن :

قوله تعالى : ( قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ) ظرف، أى مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة . ( مِنْ قَبْلِهِ ) أى من قبل القرآن، تعرفوني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئكم بالمعجزات . ( أَفَلَا تَتَّقُونَ ) أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِلي . وقيل : معنى « لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا » أى لبثت فيكم مدة شبابي لم أعص الله، أتريدون مني الآن وقد لبثت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأغير ما يتره عليّ . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة، وأقام ستين يرى رؤيا الأنبياء، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة

قوله تعالى : قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجحد؛ أى لا أحد أظلم من افترى على الله الكذب، وبذل كلامه وأضاف شيئاً إليه مما لم يتره . وكذلك لا أحد أظلم منكم إذا أنكرتم القرآن وأفترتم على الله الكذب، وقلم ليس هذا كلامه . وهذا مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : المُفْتَرَى المشرِك، والمكذَّب بالآيات أهل الكلاب . ( إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ) .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُخْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾



قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَدُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأصنام .  
 ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وهذه غاية الجهالة منهم ؛ حيث ينظرون الشفاعة  
 في المسأل من لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال . وقيل : « شفعاؤنا » أى تسفع لنا عند  
 الله في إصلاح معاشنا في الدنيا . ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾  
 قراءة العامة « تنبئون » بالتشديد . وقرأ أبو السَّيَّال المَدَوِيُّ « أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ » مخففا ، من أنبا  
 ينبئ . وقراءة العامة من نبأ ينبئ تبتة ؛ وهما بمعنى واحد ، جمعها قوله تعالى : « من أُنْبَأَكَ  
 هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَالَمِ الْخَبِيرُ »<sup>(١)</sup> أى أخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بغير إذنه ، والله  
 لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض ؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه . نظيره  
 قوله : « أَمْ تَنْتَهُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ »<sup>(٢)</sup> ثم زه نفسه وقدمها عن الشرك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ  
 وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يعبدون  
 ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز « ويقولون هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » فيكذبون ؛ وهل ينبا لكم  
 أن تنهوه بما لا يعلم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ! . وقرأ حمزة والكسائي « تشركون »  
 بالتاء ، وهو اختيار أبي عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ  
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقدم في « البقرة »<sup>(٣)</sup> معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك .  
 وقيل : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلَفوا عند البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ  
 لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر ؛ أى لولا ما سبق في حكمة أنه لا يقضى  
 بينهم فيما اختلفوا فيه بالتواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم في الدنيا ، فأدخل المؤمنين  
 الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيمهم فجعل

(١) آية ٣ سورة النحل . (٢) آية ٢٢ سورة الرعد . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٠ طبعة أملاو ثانية



موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو رزق : « لَقُضِيَ بينهم » لأقام عليهم الساعة . وقيل :  
لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب  
في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هذا التأخير لَقُضِيَ بينهم بتزول العذاب أو بإقامة الساعة .  
والآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عن كفره . وقيل : الكلمة السابقة  
أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل ؛ كما قال : « وما كَا مُعْذِرِينَ حَتَّى نَبْعَثَ  
رُسُلًا » وقيل : الكلمة قوله : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » ولولا ذلك لما أُنْزِلَ العصاة إلى  
التوبة . وقرأ عيسى « لَقُضِيَ » بالفتح .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا  
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

يريد أهل مكة ؛ أى هلا أنزل عليه آية ، أى معجزة غير هذه المعجزة ، فيجعل لنا الجبال  
ذهبا ويكون له بيت من زُخْرَفٍ ، ويحيى لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا  
موسى . ( قُلْ إِنَّمَا الْقَيْبُ لِلَّهِ ) أى قل يا محمد إن نزول الآية غيب . ( فَانْتَظِرُوا ) أى  
ترصبوا . ( إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ) لتزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق  
على المبطل .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ  
إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ  
مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

يريد كفار مكة . ( رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ ) قيل : رخاء بعد شدة ، وخصب بعد  
جَنَب . ( إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ) أى استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقنا » : « إذا  
لهم » على قول التحليل وسيبويه . ( قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ ) ابتداء وحبر . ( مَكْرًا ) على البيان ، أى



أجل عقوبة كل جزاء مكرم، أى أن ما يأتيهم من العذاب أسرع في إهلاكهم مما أتوه من المكرو. (إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) بنى بالرسول الحفظه . وقراءة العامة « يَمْكُرُونَ » بالناء خطابا . وقرأ يعقوب في رواية رؤيس وأبو عمرو في رواية هارون العتيكى « يَمْكُرُونَ » بالياء ، لقوله : « إذا لم يكر في آياتنا » قيل : قال أبو سفيان لحطنا بدعائك فإن سقينا صدقناك؛ فسقوا بآستفائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا، فهذا مكروهم .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُخِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُخِيتْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا أُنْجِيتُهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَنَاءَهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) أى يحللكم في البر على الدواب وفي البحر على الفلك . وقال الكلبي : يحفظكم في السير . والآية تتضمن تعديد النعم فيها على الحال بسبيله من ركوب الناس الدواب والبحر . وقد مضى الكلام في ركوب البحر في « البقرة » . و(يُسِيرُكُمْ) قراءة العامة . ابن عامر « ينشركم » بالنون والشين ، أى ينشركم ويفزقكم . والفلك يقع على الواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث ، وقد تقدم القول فيه . وقوله (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) خروج من الخطاب إلى النية ، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال التائبة :

يادار مية بالقياء فالسند . أفوت وطال عليها سالف الأمد



قال ابن الأثير : وجازى الله أن يرجع من خطاب النية إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « سَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَّابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » فابدل الكاف من الماء .

قوله تعالى : ﴿ يَرْيَحُ طَبِيبَةً وَقَرَحُوا بِهَا ﴾ تقدم الكلام فيها في البقرة . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير في « جاءت » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة ؛ يقال : عصفت الريح وأعصفت ، فهي عاصف ومُعَصِف ومُعَصِفَة أى شديدة ، قال الشاعر :  
حتى إذا أعصفت ريح مَرْعِزَة \* فيها قطار ورعد صوته زجل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهى القاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء . ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع في بلية : قد أحيط به ، كأن البلاء قد أحاط به ، وأصل هذا أن المدؤ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفى هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد ، وأن المضطر يحاج دعاؤه وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتى بيانه في « النحل » ان شاء الله تعالى .<sup>(٢١)</sup>  
وقال بعض المفسرين . إنهم قالوا في دعائهم أهيا شراها ؛ أى يا حى يا قيوم ؛ وهى لغة المعجم .

مسألة — هذه الآية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنة حديث أبى هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ... الحديث . وحديث أنس في قصة أم حرام يدل على جواز ركوبه في الفزوة ، وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » مستوفى<sup>(٢٢)</sup> والحمد لله . وقد تقدم في آخر « الأعراف » حكم راكب البحر في حال ارتجاعه وغليانه ، هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمل هناك .<sup>(٢٣)</sup>

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٧ طبة ثانية . (٣) في قوله تعالى :

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ... آية ٦٢ (٤) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طبة ثانية . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٤١ طبة أول اراتانية .



قوله تعالى : ( لَيْسَ أَتَمِّتَنَا مِنْ هَذِهِ ) أى من هذه الشدائد والأحوال . وقال الكلبي :  
من هذه الرياح . ( لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ) أى من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص .  
( فَلَمَّا أَتَجَّاهُمْ ) أى خلَّصهم وأقذهم . ( إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ) أى يعملون  
في الأرض بالفساد وبالمعاصي . والبنى : الفساد والشرك ؛ من بَغَى الجرح إذا قُصد ؛ وأصله الطلب ،  
أى يطلبون الاستعلاء بالفساد . ( وَبِغَيْرِ الْحَقِّ ) أى بالكذب ؛ ومنه بَغَتْ المرأة طلبت غير زوجها .  
قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ) أى وباله عائد عليكم ؛ وتم الكلام ،  
ثم ابتدأ فقال : ( مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له . قال  
النحاس : « بَغَيْكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « على أنفسكم » مفعول  
معنى فصل البغى . ويجوز أن يكون خبره « على أنفسكم » وتضمر مبتداً ، أى ذلك متاع  
الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ وبين المعنيين فرق لطيف ، إذا رفعت متاعاً على أنه خبر  
« بغيكم » فالعنى إنما بَغَى بعضكم على بعض ؛ مثل « فسلِّموا على أنفسكم » وكذا « لقد جاءكم  
رسول من أنفسكم » . وإذا كان الخبر « على أنفسكم » فالعنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل  
« وإن أسأتم فلها » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البنى متاع الحياة الدنيا ،  
أى عقوبته تجبل لصاحبه في الدنيا ؛ كما يقال : البنى مضرعة . وقراً ابن أبى أصحاق « متاع »  
بالنصب على أنه مصدره ؛ أى يمتعون متاع الحياة الدنيا . أو يترع الخافض ، أى لمتاع . أو مصدر  
بمعنى المفعول على الحال ، أى متمعين . أو هو نصب على الظرف ، أى في متاع الحياة الدنيا .  
ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل في البغى . و « على أنفسكم » مفعول ذلك المعنى .  
قوله تعالى : ( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَزَلَّتهُ مِنَ السَّمَاءِ  
فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَغْثَتِ  
الْأَرْضُ زُرْعَهَا وَازْدَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَاسِئٌ  
لَيْسَ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ  
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ )



قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتبيل، أى صفة الحياة الدنيا فى فاتها وزوالها وقلة خطرهما والملاذ بها كماء، أى مثل ماء، فالكاف فى موضع رفع، وسيأتى لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف»<sup>(١)</sup> إن شاء الله تعالى. ﴿ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ نعت لماء. «فَأَخْتَلَطَ» روى عن نافع أنه وقف على «فَأَخْتَلَطَ» أى فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتداء «به نبات الأرض» أى بالماء نبات الأرض، فأنجرت الواو من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على «فَأَخْتَلَطَ» مرفوع باختلط؛ أى اختلط النبات بالمطر، أى شرب منه فتندى وحسن وأخضر. والاختلاط تداخل الشيء بمضيه فى بعض.

قوله تعالى: ﴿ يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلا والتبن والشعير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب زخرف. ﴿ وَأَزْيَنْتَ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تربنت أدغمت التاء فى الزاى وجى، بالفتح الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبى ابن كعب «وتربنت» على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وَأَزْيَنْتَ» أى أنت بالزينة عليها، أى النلة والزروع؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعله لقال وَأَزَانَتْ. وقال عوف ابن أبى جميلة الأعرجى: قرأ أشياخنا «وَأَزْيَنْتَ» وزنه اسواقت. وفى رواية المقدسى «وَأَزَايَنْتَ» والأصل فيه تزييَنْتَ، وزنه تقاعست ثم أدغم. وقرأ الشعبي وقادة «وَأَزْيَنْتَ» مثل أفعلت. وقرأ أبو عثمان النهدي «وَأَزْيَنْتَ» مثل أفعلت، وعنه أيضا «وَأَزَايَنْتَ» مثل افعلت، وروى عنه «أَزَايَنْتَ» بالهمزة؛ ثلاث قراءات.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أى إيقن. ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والمعنى النبات إذ كان مفهومها وهو منها. وقيل: رذ



إلى اللغة، وقيل إلى الزينة . ( أَمَّا أَمْرُنَا ) أى عذابنا، أو أمرنا بهلاكها . ( لَيْلًا أَوْ نَهَارًا )  
 ظرفان . ( بِحَمَلَتَاهَا حَصِيدًا ) مفعولان، أى محصودة مقطوعة لاشئ فيها . وقال « حصيدا »  
 ولم يؤت لأنه فصيل بمعنى مفعول . قال أبو عبيد : الحصيد المستأصل . ( كَأَن لَّمْ تَنَنَّ  
 بِالْأُنْثَى ) أى لم تكن عامرة ؛ من غنى إذا أقام فيه وعمره . والمغانى فى اللغة : المنازل  
 التى يعمرها الناس . وقال قتادة : كأن لم تنعم . قال لبيد :

وَعَنَيْتُ سَبْتًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ \* لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ الْجَوْجُ خُلُودٌ<sup>(١)</sup>

وقراءة العامة « تنن » بالناء لتأنيث الأرض . وقرأ قتادة « ينن » بالياء ، يذهب به الى  
 الزخرف ؛ معنى فكما يهلك هذا الزرع هكذا كلك الدنيا . ( نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ) أى نبينها .  
 ( لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) فى آيات الله .

قوله تعالى : **وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى**

**صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ( **وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ** ) لما ذكر وصف هذه الدار وهى دار  
 الدنيا وصف الآخرة فقال : ان الله لا يدعوكم الى جمع الدنيا بل يدعوكم الى الطاعة لتصيروا  
 الى دار السلام، أى الى الجنة . قال قتادة والحسن : السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت  
 الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات . ومن أسمائه سبحانه السلام . وقد بينا،  
 فى ( الكتاب الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى ) . ويأتى فى سورة « الحشر »<sup>(٢)</sup> إن شاء الله .  
 وقيل : المعنى والله يدعو الى دار السلامة . والسلام والسلامة بمعنى كالرضاع والرضاعة ؛  
 قاله الزجاج . قال الشاعر :

نُحْيِي بِالسَّلَامَةِ . أَمْ بِكَيْرٍ \* وهل لك بعد قومك من سلام

(١) البيت : البرقة من الدهر . وداحس : الخم القرس .

(٢) قوله تعالى : « هو الله الذى



وقيل : أراد الله يدعو إلى دار النجاة ؛ لأن أهلها يتألمون من الله النجاة والسلام ، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة ، وهو تحميمهم ؛ كما قال : « وَيَحْتَمِّمُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ، فإن أجبت من دنياك دخلتها ، وإن أجبت من قبرك منعتها . وقال ابن عباس : الجنان سبع ؛ دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعم .

قوله تعالى : ( وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) عم بالدعوة إظهارا لجنه ، وخص بالمهداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى " . وقيل الإسلام ؛ رواه التوأس بن سميان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجل فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له أسمع سمعت أذنك وأعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ففهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها — ثم تلاي رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو إلى دار السلام » . وهذه الآية بينة الحجية والرد على القدرية ؛ لأنهم قالوا : هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فردوا على الله نصوص القرآن .



قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ) روى من حديث أنس قال : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ، قال : « للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم » . وهو قول أبى بكر الصديق وعلى ابن أبى طالب فى رواية ، وحذيفة وعُباد بن الصامت وكعب بن عُجرة وأبى موسى وصُيب وابن عباس فى رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ؛ وهو الصحيح فى الباب . وروى مسلم فى صحيحه عن صُيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم نبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر الى ربهم عز وجل — وفى رواية ثم تلا — للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . وخرجه النسائى أيضا عن صُيب قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم موعدا عند الله يريد أن يُعزَّزْكُمْ قالوا ألم يبيض الله وجوهنا ويثقل موازيننا ويُجْرِنَا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه قائلين ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا آثر لأعينهم » . وخرجه ابن المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا ، وقد كتبه فى كتاب التذكرة ، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب ، والحمد لله . وخرج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا حلى بن حمير حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزياتين فى كتاب الله ، فى قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « النظر إلى وجه الرحمن » . وعن قوله « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » قال :



«عشرون ألفاً». وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك؛ روى عن ابن عباس . وروى عن علي رضي الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى بحسنة مثل حسنة ، والزيادة مفقودة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاه الله في الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ؛ قال الله تعالى : «وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة» . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتطعمهم من كل الفواكه التي لم يروها ، وتقول : يا أهل الجنة ، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرهم إياه . وقيل : الزيادة انه ما يمتز عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمثل أحدهم سبعون ألف ملك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأوا مثل تلك الهدايا قط ؛ فسبحان من لا تنتهى مقدراته . وقيل : «أحسنوا» أى معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إذن الله تعالى فيها وقوله .

قوله تعالى : «وَلَا يَرْهَقُ» قيل : معناه يلحق ؛ ومنه قيل : غلام مرأق إذا لحق بالرجال . وقيل يملو . وقيل يشقى ؛ والمعنى متقارب . «قَتَرٌ» غبار . «وَلَا ذِلَّةٌ» أى مذلة ؛ كما يلحق أهل النار ؛ أى لا يلحقهم غبار فى محشرهم إلى الله ولا تنشاهم ذلة . وأنشد أبو عبيدة للفرزدق :

مُسْجُجٌ برداء الملك يتبعه • مَوْجٌ ترى فوقه الريات والقَتَرَا

وقرأ الحسن «قَتَرٌ» بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرَة والقَتَرَة بمعنى واحد ؛ قاله النحاس . وواحد القَتَر قَتَرَة ؛ ومنه قوله : «تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ» أى تملؤها غبرة . وقيل : قَتَرٌ كَابَةٌ وكسوف . أبهر عباس : القتر سواد الوجوه . ابن بحر : دخان البار ؛ ومنه قَتَارُ القَتَر . وقال ابن أبي ليلى : هو بعد نظره إلى ربه عز وجل .



قلت : هذا فيه نظر ، فإن الله عز وجل يقول : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّبُونَ . — إِلَىٰ قَوْلِهِ — لَا يُخْزِنُهُمُ الْعَرْشُ الْأَكْبَرُ » وقال في غير آية : « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا » . وهذا عام فلا يتغير بفضل الله في موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن ، ولا يعلوه شيء من دخان جهنم ولا غيره ؛ « وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضُوا وَجُوهَهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيُرْهِقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِدٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٧)

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى عملوا المعاصي . وقيل الشرك . ( جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا ) جزاء مرفوع بالابتداء ، وخبره يمثّلها . قال ابن كثير : الباء زائدة ؛ والمعنى جزاء سيئة مثلاً . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كأن يمثّلها ؛ كقولك : إنما أنا بك ، أى إنما أنا كائن بك . ويموز أن تتعلق بجزاء ، التقدير : جزاء سيئة يمثّلها كأن ؛ لحذف خبر المبتدأ . ويموز أن يكون « جزاء » مرفوعاً على تقدير فلهم جزاء سيئة ؛ فيكون مثل قوله « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر » أى فليهد عدة ، وشبهه ؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف ، كأنه قال لم جزاء سيئة ثابت بمثّلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلاً لذنوبهم ، أى هم غير مظلومين ، وفعل الرب غير مغل بعله . ( وَرَهَقَهُمْ ذِلَّةٌ ) أى بشاهم هوان وخزى . ( مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ) أى من عذاب الله . ( مِنْ عَاصِدٍ ) أى مانع يمنهم منه . ( كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ) أى ألبست .



( وَجُوهَهُمْ قَطَآءٌ ) جمع قطعة، وعلى هذا يكون « مطلباً » حال من الليل؛ أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته . وقرا الكسائي وآبن كثير « قطعا » بإسكان الطاء؛ « حـ » عظيماً » على هذا نعت، ويجوز أن يكون حالا من الليل . والقطع اسم ما قطع فسقط . وقال آبن السكيت : القطع طائفة من الليل؛ وسيأتى في « هود » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقَلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ لِإِنَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾  
قوله تعالى : ( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ) أى نجمعهم، والحشر الجمع . ( جَمِيعاً ) حال . ( ثُمَّ نَقُولُ ) لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ) أى اتخذوا مع الله شريكا . ( مَكَانَكُمْ ) أى الزموا وأنجزوا مكانكم، ويقولوا مواضعكم . ( أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ) وهذا وعيد . ( فَرِيقَلْنَا بَيْنَهُمْ ) أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا؛ يقال : زيلته فتريل، أى فرقته ففرق، وهو فلت ؛ لأنك تقول في مصدره تريل، ولو كان قُيعِلْت لقلت زَيْلَةً . والمزايلة المفارقة؛ يقال : زايله الله مزايلة وزَيْالاً إذا فارقه . والترايل التباين . قال القراء : وقرأ بعضهم « فزايلا بينهم » ؛ يقال : لا أزايلا فلاناً، أى لا أفارقه؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أخاطله . ( وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ) عنى بالشركاء الملائكة . وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام؛ فيقطعها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاوره . وذلك أنهم ادعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التى عبدوها أنهم أمرهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نعمر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حُلَّ الشركاء على الشياطين فالمنى أنهم يقولون ذلك دهشاً، أو يقولون كذبا واحتيالا لتخلص، وقد يعمرى مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعالى : فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً يَدْنُنَا وَيُنْكِرُ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكَ  
لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾



قوله تعالى : ( فَكُنْ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ) «شهِيداً» مفعول، أى كفى الله شهيداً، أو تميز، أى اكتب به شهيداً بيننا وبينك إن كنا أمرناكم بهذا أو رضىناه منكم . ( إِن كُنَّا )  
أى ما كنا ( عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ) إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نقل؛ لأننا كنا جامداً  
لأرواحنا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُوْا كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ  
مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( هُنَالِكَ ) فى موضع نصب على الظرف . ( تَبْلُوْا ) أى فى ذلك الوقت ،  
«تبلو» أى تذوق، وقال الكلبي : تعلم، مجاهد : تختبر . ( كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ) أى جزاء  
ما عملت وقدمت . وقيل : تسلم، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها .  
وقرأ حمزة والكسائي « تئلو » أى قرأ كل نفس كتابها الذى كُتِبَ عليها . وقيل « تئلو »  
تبيع، أى تبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا؛ قاله السدي . ومنه قول الشاعر ،  
إِنَّ الْمَرْبِ يَتَّبِعُ الْمَرْبِيَا • كَمَا رَأَيْتُ الذِّبْيَ يَتَّبِعُ الذَّبِيَا

قوله تعالى : ( وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ) بالخفض على البدل أو الصفة . ويجوز  
نصب الحق من ثلاث جهات؛ يكون التقدير : وردوا حقاً، ثم جىء بالأنف واللام . ويجوز  
أن يكون التقدير : مولاكم حقاً لا ما يبدلون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحاً، أى  
أخى الحق . ويجوز أن يرفع « الحق »، ويكون المعنى مولاكم الحق — على الابتداء والخبر،  
والقطع بما قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه  
كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه؛ أى كل عدل وحق فى قلبه . وقال ابن عباس :  
« مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » أى الذى يمازىهم بالحق . ( وَضَلَّ عَنْهُمْ ) أى بطل . ( مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ )  
« يفترون » فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر، أى افتراؤهم . فإن قيل كيف قال : وردوا  
إلى الله مولاكم الحق وقد أخبر بأن الكافرين لا مولى لهم . قيل : ليس بمولاكم فى النصرة  
والمعونة، وهو مولى لهم فى الرزق وإندار النعم .



قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين وتقرير الحجّة عليهم، فمن أعترف منهم فاجحة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فيقتدر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لها من خالق، ولا يتخارى في هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . ( مِنَ السَّمَاءِ ) أى بالمطر . ( وَالْأَرْضِ ) بالنبات . ( أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ) أى من جعلهما وحققهما لكم . ( وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ) أى النبات من الأرض، والإنسان من النطفة، والسبلة من الحبة، والطير من البيضة، والمؤمن من الكافر . ( وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ) أى يقدره ويقضيه . ( فَيَقُولُونَ اللَّهُ ) لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله، أو فيقولون هو الله إن فكروا وأصفوا فقل لم يا محمد ( أَفَلَا تَتَّقُونَ ) أى أفلا تتأفون عقابه ويقمته في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ( فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ) فيه ثمان مسائل : الأولى : قوله تعالى : ( فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ) أى هذا الذى يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق، لا ما أشركتم به . ( فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ ) « ذا » صلة، أى ما بعد عبادة الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المنتقمين : ظاهر هذه الآية يدل على أن ما بعد الله هو الضلال، لأن أولها « فذلکم الله ربکم الحق » وآخرها « فماذا بعد الحق إلا الضلال » فهذا في الإيمان والكفر، ليس في الأعمال . وقال بعضهم : أن الكفر تنطية الحق، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى، فالحرمان ضلال والمباح هدى، فإن الله



هو المسيح والمعزم. والصحيح الأول؛ لأن قبل « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ثم قال « فذلِكُمُ الله ربُّكم الحق » أى هذا الذى رزقكم، وهذا كله فعله هو. (وَبِكُمْ الْحَقُّ) أى الذى تحق له الألوهية ويستوجب العبادة؛ وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق.

الثانية - قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل مترلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرهما، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنما هو فى تعديد وجود ذات كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها : « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »، وقوله عليه السلام : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ». والكلام فى الفروع إنما هو فى أحكام طارئة على وجود ذات مقررة لا يختلف فيها وإنما يختلف فى الأحكام المتعلقة بها.

الثالثة - ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد » الحديث . وفيه « أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبون حق ومحمد حق » الحديث . فقول « أنت الحق » أى الواجب الوجود ؛ وأصله من حق الشيء أى ثبت ووجب. وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويموز عليه لحاق عدم، ووجوده من موجد لا من نفسه . وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة ليد :

• أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ •

وإليه الإشارة بقوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

الرابعة - مقابلة الحق بالضلal عرف لنة وشرعا، كما فى هذه الآية . وكذلك أيضا مقابلة الحق بالباطل عرف لنة وشرعا ؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ



مَا يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ » . والضلal حقيقة الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سبته . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد ؛ يقال : ضل عن الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه . وخص في الشرع بالعبرة عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بدمه جهل أو شك ، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » أى غافلاً ، في أحد التأويلات ، يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتُمْ تَدْرُونَ مَا الْكَلْبُ وَلَا الْإِيمَانُ »<sup>(١)</sup> .

الخامسة - روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك في قوله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » قال : اللب بالشطرنج والترّد من الضلال . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ؛ فقال مالك : ما يجعني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل - معنى مالكا - عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشيء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبئ لذي العقل أن تنهاه الحمية والشيب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبا .

السادسة - اختلف العلماء في جواز اللعب بالشطرنج وضمه إذا لم يكن على وجه التبار ؛ فتصنيف مذهب مالك وجهه الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يطع عليه ولا يعلم به أنه معفو عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تخلف به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته وردت شهادته . وأما الشافعي فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادة اللاعب بالترّد والشطرنج ، إذا

(١) آية ١٢٢ سورة الحج . (٢) آية ٢٠ سورة شورى . (٣) تخلف في الشراب : انهك فيه ولازمه لا دنهارا .



كان عدلا في جميع أصحابه، ولم يظهر منه سوء ولا ريبة ولا كبيرة إلا أن يلعب به قمارا، فان لعب بها قمارا وكان بذلك معروفا سقطت عدائته وسقته نفسه لأكله المال بالباطل . وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والترد والأربعة عشر وكلّ اللهو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم . قال ابن العربي : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف الترد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال الفريضة . والترد قمار خَرَد لا يعلم ما يخرج له فيه كالأقسام بالأزلام .

السابعة - قال علماؤنا : الترد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل ، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه مُدَدَى يلبانه . والترد هو الذي يعرف بالطبل ويعرف بالكباب ويعرف في الجاهلية أيضا بالأرز<sup>(١)</sup> ويعرف أيضا بالتدشير . وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالتدشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه " . قال علماؤنا : ومعنى هذا أي هو كمن غمس يده في لحم الخنزير يبيته لأن يأكله ، وهذا الفعل في الخنزير حرام لا يجوز ؛ بينه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالترد فقد عصي الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبي موسى الأشعري وهو حديث صحيح ، وهو يحزم اللعب بالترد جملة واحدة ، وكذلك الشطرنج ، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال ، وأخبر أن فاعل ذلك عاص لله ورسوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالترد المنهي عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لما روى من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمار . وحلّ ذلك على العموم قمارا وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحليّ في كتاب مناهج الدين : ومما جاء في الشطرنج حديث يروى فيه كما يروى في الترد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالشطرنج فقد عصي الله ورسوله " . وعن علي رضي الله عنه أنه مرّ على مجالس من يخيم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : " أما والله لغير هذا خلقتم ! أما والله لولا أن تكون منّة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضي الله عنه أنه مرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أتت لها عاكفون ؛ لأنّ يمسّ أحدكم

(١) اضطربت الأصول في كتابة هذه الأسماء ؛ ولم نته إلى وجه الصواب فيها .



جرا حتى يطفأ خير من أن يحسب . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هي شر من القرد .  
وقال أبو موسى الأشعري : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج  
فقال : دعونا من هذه الجبوسية . وفي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وأن  
من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكباب مقتة الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج  
ينظر إليهم تحيت عنه حسنه كلها وصار بمن مقتة الله » . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم  
اللعب بها بلا قمار ، والله أعلم . وقد ذكرنا في « المسألة » بيان تحريمها وأنها كالخمر في التحريم  
لاقترانها به ، والله أعلم . قال ابن العربي في نفسه : وقد جوزوه الشافعي ، وأنهى حال بعضهم  
إلى أن يقول : هو مندوب إليه ، حتى اتخذه في المدرسة ، فإذا أعيى الطالب من القراءة لعب  
به في المسجد . وأستندوا إلى قوم من الصنابة والتابعين أنهم لعبوا بها ، وما كان ذلك قط !  
وثالثه ما سنها يدتي . ويقولون إنها تشبه الذهن ، والبيان يكذبهم ، ما تجر فيها قط رجل  
له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل طهارة يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة : إنها  
تعم الحرب . فقال له الطرطوشي : بل تفسد تدبير الحرب ، لأن الحرب المقصود منها الملك  
واغتياؤه ، وفي الشطرنج تقول : شاه إياك : الملك تحه عن طريق ، فاستضحك الحاضرين .  
وثارة تشد فيها مالك وحرماها وقال فيها : « فإذا بهد الحق إلا الضلال » . وثارة استهان  
بالقليل منها والأهون ، والقول الأول أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى عن عمر  
ابن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقل له : إن امرأة  
كان لها ابن وكان مليكا فأصيب في حرب دون أصحابه ، فقالت : كيف يكون هذا أرونيته  
حيانا ، فعلم لها الشطرنج ، فلما رآته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضي الله عنه  
فقال : لا بأس بما كان من آلة الحرب ، فقل له : هذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس  
بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال هذا لأنه شبه عليه أن اللعب  
بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب ، فلما قيل له ذلك ولم يحط به عليه قال :



لا بأس بما كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظن أن ذلك ليس ينتهي به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المستند لم يبلغهم. قال الحليسي : وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجة فيه على الكافة .

الثامنة - ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مَرَّ بعلمان يلعبون بالكُعبة، وهي حفر فيها حصي يلعبون بها، قال فسأها ابن عمر ونهاهم عنها . وذكر الهروي في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس : في كل شيء قمار حتى في لعب الصبيان بالكُعبة ؛ قال ابن الأعرابي : هو أن يأخذ الصبي خرقة فينقرها كأنها كرة، ثم يتفاصرون بها . وكج إذا لعب بالكُعبة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت .

قوله تعالى : كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي حكمه وقضائه وعلمه السابق . ﴿ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا . ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون . وفي هذا أقوى دليل على القدرية . وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها « كذلك حَقَّتْ كلمات ربك » وفي سورة طافر بالجيم في الثلاثة . الباقيون بالإنفراد . و « أن » في موضع نصب ؛ أي بانهم أو لأنهم . قال الزجاج : ويموز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات . قال الفراء : ييموز « إنهم » بالكسر على الاستثنا .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٧﴾



قوله تعالى : ( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ) أى الهنكم ومعبوداتكم . ( مَنْ يَشَاءُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ )  
أى قل لهم يا بعد ذلك على جهة التوبيخ والتفريع ، فإن أجابوك وإلا فـ ( قُلْ اللَّهُ يَشَاءُ الْخَلْقَ  
ثُمَّ يُعِيدُهُ ) وليس غيره يفعل ذلك . ( فَأَيُّ تَوَفَّكُونَ ) أى فكيف تتقلبون وتصرفون عن  
الحق إلى الباطل .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ  
يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ  
يُهْدَى قَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى : ( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ) يقال : هداه الطريق وإلى  
الطريق بمعنى واحد ، وقد تقدم . أى هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ، فإذا  
قالوا لا ولا بد منه قل لهم ( اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ) ثم قل لهم موثقا ومقروا ( أَفَنْ يَهْدِيَ ) أى  
يرشد ( إِلَى الْحَقِّ ) وهو الله سبحانه وتعالى . ( أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى )  
يريد الأصنام التى لا تهدي أحدا ، ولا تمشي إلا أن تمحى ، ولا تنقل عن مكانها إلا أن  
تنقل . قال الشاعر :  
للفقى عقل يعيش به • حيث تهدي ساقه قدسه

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا .

وفى « يَهْدَى » قراءات ست :

الأولى — قرأ أهل المدينة إلا ورثا « يَهْدَى » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ؛  
بجمعوا فى قراءتهم بين ما كتبت كما فعلوا فى قوله « لَا تَعْدُوا » وفى قوله « يَحْصِمُونَ » . قال  
التماس : والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن  
وام مثل هذا أن يحرك حركة خفية إلى الكسر ، وسيبويه يسمي هذا اختلاس الحركة .

(١) رابع به ١ ص ١٦٠ طبع ثانية أربعة . (٢) حروطة ، كافى السان .

(٣) رابع به ٦ ص ٤ طبع أول مرة ثانية .



الثانية - قرأ أبو عمرو وقالون في رواية بين الفتح والإسكان، على مذهبه في الاختلاف والاختلاس .

الثالثة - قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مجيص « يَهْدَى » بفتح الياء والماء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة يَدَنَ في العربية، والأصل فيها يَهْدَى أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها على المَاء .

الرابعة - قرأ حفص وسقوب والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا المَاء، قالوا : لأن الجزم إذا أَضْطَرَّ إلى حركة حُرِّك إلى الكسر . قال أبو حاتم : هي لغة سُفْلَى مضر .

الخامسة - قرأ أبو بكر عن عامر « يَهْدَى » بكسر الياء والماء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم في البقرة في « يَخْطَفُ »<sup>(١)</sup> . وقيل : هي لغة من قرأ « نَسْتَمِين »<sup>(٢)</sup> و « لَنْ تَمْسَا النَّارَ » ونحوه . وسيبويه لا يميز « يَهْدَى » ويميز « يَهْدَى » و « يَهْدَى » و « يَهْدَى » قال : لأن الكسرة في الياء تثقل .

السادسة - قرأ حزة والكسائي وخلف ويعقوب بن وثاب والأعمش « يَهْدَى » بفتح الياء وإسكان المَاء وتخفيف الدال ؛ من هَدَى يَهْدَى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان في العربية وإن كانت بعيدة، واحد الوجهين أن الكسائي والقراء قالوا : « يَهْدَى » بمعنى يَهْدَى . قال أبو العباس : لا يعرف هذا، ولكن التقدير أن لا يَهْدَى غيره، ثم الكلام، ثم قال : « إلا أن يَهْدَى » استأنف من الأول، أي لكنه يحتاج أن يَهْدَى ؛ فهو استثناء منقطع، كما تحول : فلان لا يُسْمِعُ غيره إلا أن يُسْمِعَ، أي لكنه يحتاج أن يُسْمِعَ . وقال أبو إسحاق : « فإلهم » كلام تام، والمعنى : فأى شيء لكم في عبادة الأوثان . ثم قيل لهم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي لأنفسكم وتقصون هذا الباطل الصراح، تصيدون آلهة لا تقى عن أنفسها شيئاً إلا أن يفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتكون عبادته ؛ فوضع « كيف » نصب بدخلكون .

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبة ثانية أو الثالثة . (٢) راجع ج ١ ص ١٤٦ طبة ثانية أو الثالثة .



قوله تعالى : وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ) يريد الرؤساء منهم ؛ أى ما يتبعون إلا حسناً وتخريصاً فى أنها آلهة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم . وأما أتباعهم فيبتغونهم تقليداً . ( إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ) أى من عذاب الله ؛ فالحق هو الله . وقيل « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفى هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن فى العقائد . ( إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) من الكفر والتكذيب ، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ) « أَنْ » مع « يفترى » مصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء ؛ كما تقول : فلان يجب أن يركب ، أى يجب الركوب ؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : المعنى وما يبنى لهذا القرآن أن يفترى ؛ كقوله « وَمَا كَانَ لِيَنَّ أَنْ يَبْلُغَ » « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وقيل : « أَنْ » بمعنى اللام ، تهديره : وما كان هذا القرآن ليفتري . وقيل : لا ، أى لا يفتري . وقيل : المعنى ما كان يتبأ لأحد أن يأتى بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم يفسبه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . ( وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ) قال الكسائى والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديق ؛ ويموز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . ( الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ) أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشرت به بقاء



مصنفا لها في تلك البشارة، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : للمنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سموا منه القرآن . «وتفصيل» بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق . والتفصيل : التبيين، أى يبين ما في كتب الله المتقدمة . والكتاب أسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بين في القرآن من الأحكام . ( لَا رَيْبَ فِيهِ ) الهاء عائدة للقرآن، أى لا شك فيه أى في نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ( أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ ) أم هاهنا في موضع الف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هى أم المقطعة التى تقدر بمعنى بل والمعزة ؛ كقوله تعالى : « ألم تنزل الكتاب لارىب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه » أى بل يقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو، مجازة : ويقولون افتراه . وقيل : الميم صلة ، والتقدير : يقولون افتراه ، أى اختلاق محمد القرآن من قبل نفسه ، فهو استفهام معناه التفرج . ( قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ) ومعنى الكلام الاحتجاج ، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ؛ لأنه مصدق الذى بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتكلم بعد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن أتوا بسورة مثله إن كان مفترا . وقد مضى القول في إعجاز القرآن ، وأنه معجز في مقدمة الكتاب ، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَيْهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾



قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ ﴾ أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهذا يدل على أنه يجب أن ينظر في التأويل .  
وقوله : ﴿ وَلَكِنْ يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم .  
أو كذبوا بما فى القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا فى الكتاب؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد فى القرآن ( من جهل شيئا حاده ) قال نعم ، فى موضعين : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ » وقوله « وَإِذْ لَمْ يَبْدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِنَّكَ قَدِيمٌ <sup>(١)</sup> » . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية، أى كنا كانت سبيلهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى أخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ؕ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه ؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من أهل السعادة . و « مَنْ » رفع بالابتداء والخبر فى المجزور . وكذا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمنى ومنهم من يصّر على كفره حتى يموت ؛ كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام فى جميع الكفار ؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير فى « به » يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فاعلم الله سبحانه أنه إنما أنذر العقوبة لأن منهم من سيؤين . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من يصّر على كفره ؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِئَةٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٤١﴾



قوله تعالى : ( وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ ) رفع بالابتداء، والمعنى : لى ثواب عملى فى التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ( وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ) أى جزاؤه من الشرك . ( أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ) مثله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنوب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف ؛ فى قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ) يريد بطواهرهم ، وقلوبهم لا تبنى شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن ؛ ولهذا قال : ( أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ) أى لا تُسمع ؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفي ، وجعلهم كالصم لعمى قلوبهم والطبع عليها ، أى لا تقدر على هداية من أحسنه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ) ؛ أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهذا وما كان مثله يرد على القدرية قولهم ؛ كما تقدم فى غير موضع . وقال : « يستمعون » على معنى « من » و « ينظر » على اللفظ والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما لا تقدر أن تسمع من سلب السمع ولا تقدر أن تخلق لاعمى بصرا يهتدى به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : ( يَنْظُرُ إِلَيْكَ ) أى يديم النظر إليك ؛ كما قال : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ »<sup>(١)</sup>

فيل : إنها نزلت فى المستهزئين ، والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾



لما ذكر أهل الشفاء ذكر أنه لا يظلمهم، وإن تغدير الشفاء عليهم وسلبه سمع القلب  
وبصره ليس ظلاماً منه؛ لأنه تصرف في ملكه بما شاء، وهو في جميع أفعاله عادل. ( وَلَكِنْ  
النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ) بالكفر والمعصية وبخالفه أمر خالفهم . وقرا حمزة والكسائي  
« وَلَكِنْ » مخففاً « الناس » رفعا . قال النحاس : زعم جماعة من التحويين منهم القراء  
أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو أثرت التشديد، وإذا حذفوا الواو أثرت التخفيف،  
واحتل في ذلك فقال: لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت بل تخففوها ليكون ما بعدها كما بعد بل،  
وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشددوها ونصبوا بها، لأنها « إن » زيدت عليها لام وكاف  
وصيرت حرفاً واحداً، وأنشد :

• ولكنني من حبيبا لعميد •

بغاه باللام لأنها « إن » •

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ  
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا ) بمعنى كأنهم تخففت، أي كأنهم لم يلبسوا  
في قيورهم . ( إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ) أي قدر ساعة؛ يعني أنهم استقصروا طول مقامهم  
في القبور ل هول ما يرون من البعث ؛ دليله قوله : « لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » . وقيل :  
لأنما قصرت مدة لبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم في القبر . ابن عباس :  
وأما أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة . ( يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) في موضع نصب على الحال  
من المهاء والميم في « يحشروهم » . ويحوز أن يكون مقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون . قال  
اللكمي : يعرف بعضهم بعضا كمرقتهم في الدنيا إذا خرجوا من قيورهم ؛ وهذا التعارف تمارف  
توبيخ واقضاح ؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغرقتني وحملتني على الكفر ؛ وليس



تعارف شفقة ورأفة وعطف . ثم تقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة كما قال :  
 « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ <sup>(١)</sup> حِمِيًّا » . وقيل : يبقى تعارف التوبيخ ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى  
 إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ - إلى قوله - وَجِئْنَا بِالْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » <sup>(٢)</sup> ، وقوله :  
 « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتُ أَخْبَثًا <sup>(٣)</sup> » الآية ، وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا <sup>(٤)</sup> » الآية .  
 فاما قوله « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيًّا » وقوله « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ <sup>(٥)</sup> » فعناه  
 لا يسأله سؤال رحمة وشفقة ، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى « يتعارفون »  
 يتسألون ، أى يتساءلون كم لبستم ؟ كما قال « وَأَقْبِلَ بِمَعْشَرَ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » وهذا حسن .  
 وقال الضحّاك : ذلك تعارفٌ تعاطف المؤمنين ؛ والكافرون لا تعاطف عليهم ، كما قال  
 « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » . والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ ) أى بالعرض على الله . ثم قيل :  
 يجوز أن يكون هذا إخباراً من الله عز وجل بعد أن دلّ على البعث والنشور ، أى خسروا  
 ثواب الجنة . وقيل خسرُوا في حال لقاء الله ؛ لأن الخسران إنما هو في تلك الحالة التى  
 لا يربى فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم ،  
 يقولون هذا . ( وَمَا كَانُوا مُهْتَبِينَ ) يريد في علم الله .

قوله تعالى : ( وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَلِئَلَّا  
 مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ <sup>(١)</sup> )

قوله تعالى : ( وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ ) شرط . ( بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ ) أى من إظهار دينك  
 في حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذى وعدهم قتل من قُتل وأُسر من أُسر يبدّر .  
 ( أَوْ نَتُوفِينَكَ ) عطف على « ترينك » أى أو نتوفيك قبل ذلك . ( فَلِئَلَّا مَرَجِعُهُمْ ) جواب

(١) آية ١ سورة المارج . (٢) آية ٣١ وما بعدها سورة سبأ . (٣) آية ٢٨ سورة الأعراف .

(٤) آية ٦٧ سورة الأعراف . (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون . (٦) آية ٢٧ سورة الصافات .



« إنا » . والمقصود إن لم تنقم منهم حاجلا استقمنا منهم أجلا . ( ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ ) أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد ( عَلَى مَا يَقُولُونَ ) من عاربك وتكذيبك . ولو قيل : « ثم الله شهيد » بمعنى هناك ، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ) يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ، مثل « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » . وقال ابن عباس : شكر الكفار غدا بحجى الرسل إليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلغتكم الرسالة ؛ حينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » . ويحوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون في الدنيا حتى يرسل إليهم ؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذِّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » . والقسط : العدل . ( وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) أى لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى بعدنا محمد . وقيل : هو عام في كل أمة كذبت رسولاً

قوله تعالى : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَفِخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾



قوله تعالى : ( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ) لما استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعاً أى ليس ذلك لى ولا لغيرى .  
 ( إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا .  
 ( لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ) أى هلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . ( إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ )  
 أى وقت انقضاء أجلهم . ( فَلَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ) أى لا يمكنهم أن يستأخروا  
 ساعة باقين فى الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا مَّاذَا  
 يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا ) ظرفان ، وهو جواب لقولهم :  
 « متى هذا الوعد » وتفسيره لآرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى أن أتاكم العذاب فافعلكم  
 فيه ، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ . ( مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ) استفهام معناه التهوريل  
 والتعظيم ؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمراً يستوخم عاقبته : ماذا  
 تنجى على نفسك ! والضمير فى « منه » قيل يعود على العذاب ، وقيل يعود على الله سبحانه  
 وتعالى . قال النقاس : إن جعلت الماء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا »  
 تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و « ذا » بمعنى الذى ، وهو خبر  
 « ما » والعائد محذوف . والتقدير الآخر أن يكون « ماذا » اسماً واحداً فى موضع رفع بالابتداء ،  
 والخبر فى الجملة ؛ قاله الزجاج . وإن جعلت الماء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت  
 « ما » ، و « ذا » شيئاً واحداً ، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل » ؛ والمعنى : أى شئ  
 يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعالى : أَتُمُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَآلَقْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ  
 تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٦﴾



قوله تعالى : ( أَنتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ ) في الكلام حذف ، والتقدير : أنا متون أن يغزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : الآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استنزه بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : إن « ثم » ها هنا بمعنى « ثم » فتح التاء ، فتكون ظرفا ، والمعنى أمناك ؛ وهو مذهب الطبري ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الآن » قيل : أصله فعل مبنى مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للمهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حد الزمانين . ( وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ ) أى بالعذاب ( تَسْتَمِيلُونَ ) .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى تقول لهم خزنة جهنم . ( ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ) أى الذى لا ينقطع . ( هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ) أى جزاء كفركم

قوله تعالى : وَيَسْتَنْبِغُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ( وَيَسْتَنْبِغُونَكَ ) أى يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ( أَحَقُّ ) ابتداء . ( هُوَ ) مذكور الخبر ، وهذا قول سيدييه . ويجوز أن يكون « هو » مبندا ، و « أَحَقُّ » خبره . ( قُلْ إِي ) « إى » كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ( وَرَبِّي ) قسم . ( إِنَّهُ لَحَقُّ ) جوابه ، أى كائن لا شك فيه . ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أى قاتنين عن عقابه ومجازاته .



قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ  
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ) أى اشركت وكفرت ( مَا فِي الْأَرْضِ )  
أى ملكا ( لَافْتَدَتْ بِهِ ) أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبل منها ؛ كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَن يَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِنْهُ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْدَى بِهِ » . وقد تقدم .

قوله تعالى : ( وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ ) أى أخفوها ؛ يعنى رؤسهم ، أى أخفوا ندامتهم عن  
اتباعهم . ( لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ) وهذا قبل الإحراق بالنار ، فاذا وقفوا في النار ألتهم النار  
عن التصح ؛ بدليل قولهم « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » . فبين أنهم لا يكتفون ما بهم .  
وقيل : « أَسْرُوا » أظفروا ؛ الكلمة من الأضداد ؛ ويدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلدة  
وتعذيب . وقيل : يوجدوا ألم الحسرة في قلوبهم ؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كثير :

فأسرت الندامة يوم نادى \* برز جمال غاضرة المنادى

وذكر المبرد فيه وجها ثالثا - أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم ، وهى تكسير الجبهة ، واحدها  
مِرَار . والندامة : الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء ، وأصلها الزوم ؛ ومنه النديم لأنه يلزم  
المجالس . وفلان نادم سادم . والسدم اللهب بالنسي . ونديم وتندم بالنسي ، أى اهتم به . قال  
الجوهري : السدم ( بالتحريك ) الندم والحزن ؛ وقد سدم بالكسر أى اهتم وحزن . ورجل  
نادم سادم ، وندمان سدمان ؛ وقيل هو إتباع . وماله هم ولا سدم إلا ذلك . وقيل : الندم  
مقلوب الدم ، والندم الزوم ؛ ومنه فلان مدمن الخمر . والندم : ما اجتمع في الدار وتلبد  
من الأبوال والأبصار ؛ سمي به للزومه . والندمة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دمن . وقد  
دمنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دمنت على فلان أى ضمنت . ( وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ )  
أى بين الرؤساء والسفل بالعدل ( وهم لا يظلمون )



قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّا نَعِدُهُ لَكُمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٥٥﴾

« أَلَا » كلمة تنبيه للسامع تراد في أول الكلام ؛ أي انتبهوا لما أقول لكم ؛ إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : **هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ** ﴿٥٦﴾

بين المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : **يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ يعني قريشا . ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ ﴾ أي وعظ . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ، فيه مواعظ وحكم . ﴿ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أي ورشدا لمن أتبعه . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة . ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصهم لأنهم المتفعلون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والمطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الممام • وليت الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى : **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتي • بذلك • للواحد والاثني والجمع . وروى عن النبي صل



الله عليه وسلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالثاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القعقاع ويقسب  
 وغيرهما ؛ وفى الحديث « تأخذوا مصافكم » . والفرج لغة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد  
 ذم الفرج فى مواضع ؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » وقوله : « إِنَّهُ لَفَرِحَ  
 فَخُورٌ » ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرج لم يكن ذما ؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ »  
 وهاتنا قال تبارك وتعالى : « فبذلك فليفرحوا » أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ؛ فقيد . قال  
 هارون : وفى حرف أُبَيٍّ « فبذلك فافرحوا » . قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام  
 ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهى حرف ؛ إلا أنهم يحدفون من الأمر للخطاب استغناء  
 ب مخاطبته ، وربما جاءوا به على الأصل ؛ منه « فبذلك فلفرحوا » . ( هو خير مما يجمعون )  
 يعنى فى الدنيا . وقراءة العامة بالياء فى الفعلين ؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ « فليفرحوا » بالياء  
 « يجمعون » بالثاء ؛ خطابا للكافرين . وروى عن الحسن أنه قرأ بالثاء فى الأول ، و « يجمعون »  
 بالياء على العكس . وروى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من هدا الله  
 للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقرين عبده إلى يوم يلقاه — ثم تلا —  
 « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِيفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ  
 حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا )

فيه مسائل ثلث :

الأولى — قوله تعالى : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ ) يخاطب كفار مكة . ( مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ  
 رِزْقٍ ) « ما » فى موضع نصب بأرأيتهم . وقال الزجاج : فى موضع نصب بانزل . ( وَأَنْزَلَ )  
 بمعنى خلق ؛ كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أَنْهَابًا أَنْجَاءً لَكُمْ » . « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ  
 (١) آية ٧٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠ سورة هود . (٣) آية ١٧٠ سورة آل عمران .  
 (٤) آية ٦ سورة الزمر .



يَأْتِي شَدِيدٌ ۝ . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإتزال ؛ لأن الذي في الأرض من الرزق إنما هو بما يتزل من السماء من المطر . ﴿ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ قال مجاهد : هو ما حكوا به من تحريم البعيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا » . ﴿ قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أى في التحليل والتحريم . ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ ۝ أَمْ ۝ ﴾ بمعنى بل . ﴿ تَقْتَرُونَ ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانية - استدلل بهذه الآية من نفي القياس ، وهذا بعيد ؛ فإن القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عند وجود دلالة نصها الله تعالى على الحكم ، فإن خالف في كون القياس دليلًا لله تعالى فهو خروج عن هذا الفرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعالى : وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ « يوم » منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحو ما ظنك زيداً والمعنى : يحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى في التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهم في حرم آمن . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى الكفار . ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه ولا في تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَسْأَلُونَ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٢٥ طبة المد اوقانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٤٩ طبة المد اوقانية .



قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » لمجد ؛ أى لست في شأن ، يعنى من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك . والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شئتُ شأنه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والرجاج : الهاء في « منه » تعود على الشأن ، أى تحدث شأنا فيتل من أجله القرآن فيعلم كيف حكاه ، أو يترل فيه قرآن فيتل . وقال الطبري : « منه » أى من كتاب الله تعالى . ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أعاد تفعيها ؛ كقوله : « إِنِّي أَنَا اللَّهُ » . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون في شأن » خطاب له والمراد هو وأمه ؛ وقد يخاطب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ مُهْرَدًا ﴾ أى نعلبه ؛ ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ <sup>(١)</sup> » . ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان في الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الرازي :

فَاتَّضَنَ بِسَدِّ كُظُومِهِمْ بِيْزَةً • مِنْ ذِي الْأَبَاطِحِ إِذْ رَعَيْنَ حَقِيْلًا

ابن عباس : « تُفِيضُونَ فِيهِ » تفضلونه . الأخفش : تُتَكَمَّلُونَ . ابن زيد : تخوضون . ابن كيسان : تنثرون القول . وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن؛ المعنى : إذ تسيعون في القرآن الكذب . ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب . وقال أبو ذؤؤق : يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب . وقرأ الكسائي « يعزب » بكسر الزاى حيث وقع ؛ وضم الباقون ، وهما لمتان فصيحتان ؛ نحو يعرش ويعرش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ؛ أى وزن ذرة ، أى نيلة حمراء صغيرة ، وقد تقدم في « النساء » . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ عطف على لفظ مثقال ، وإن شئت على ذرة . وقرأ يعقوب وحسنة برفع الراء فيهما عطفًا على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : ويموز الرفع على الابتداء ، وخبره ﴿ إِلَّا



فِي كِتَابِ مَبِينٍ ) بَعْنَى الْوَحْىِ الْمَحْفُوظِ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ . قَالَ الْجُرْجَانِيُّ : « إِلَّا » بِمَعْنَى  
وَالنَّسَقِ ، أَيْ وَهُوَ فِي كِتَابِ مَبِينٍ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ .  
إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » أَيْ وَمَنْ ظَلَمَ . وَقَوْلُهُ : « لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ »  
أَيْ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ؛ ذ « إِلَّا » بِمَعْنَى وَابْنِ النَّسَقِ ، وَاضْمَرُّهُ بَعْدَهُ ، كَقَوْلِهِ : « وَقُولُوا  
حِطَّةٌ » أَيْ هِيَ حِطَّةٌ . وَقَوْلُهُ : « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً » أَيْ هُمْ ثَلَاثَةٌ . وَنَظِيرُ مَا عَنِ فِيهِ :  
« وَمَا تَقْطُطُ مِنْ وَرْدَةٍ إِلَّا يَلْمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ » وَهُوَ فِي كِتَابِ مَبِينٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »  
قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أَيْ فِي الْآخِرَةِ . ( وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ )  
لَفَقْدِ الدُّنْيَا . وَقِيلَ : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أَيْ مَنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَوَلَّى  
حَفَظَهُ وَحِجَابُطَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ فَلَا يَخَافُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَحْزَنُ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنَّ الَّذِينَ  
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عِنْدَ - أَيْ عَنِ جَهَنَّمَ - مُبْعَدُونَ - أَيْ قَوْلُهُ - لَا يَحْزَنُونَ الْفَرْعُ  
الْأَكْبَرُ » . وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ : مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟  
فَقَالَ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِرُؤْيَاهُمْ » . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ تَقِيطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ  
وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى » . قِيلَ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، خَبَرْنَا مِنْ هُمْ وَمَا أَعْمَالُهُمْ  
فَعَلَّمْنَا نَحْبِسُهُمْ . قَالَ : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَ بِهَا  
فَوَاقِهِمْ إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ وَلِهَيْسَهُمْ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ  
إِذَا حَزَنَ النَّاسُ - ثُمَّ قَرَأَ - أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وَقَالَ

(١) آيَةُ ١٠٠ سُورَةِ التَّلْهِ - (٢) آيَةُ ١٥٠ سُورَةِ الْبَقَرَةِ - (٣) آيَةُ ٥٨ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٤) آيَةُ ١٧١ سُورَةِ الْفَتَةِ - (٥) آيَةُ ٥٩ سُورَةِ الْأَنْعَامِ - (٦) آيَةُ ١٠١ وَرَأَيْتُهَا



على بن ابي طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صغر الوجوه من السهر، عُمَشَ العيون من العبر، نُحَصَّ البطون من الجوع، يُنَسَّ الشفاء من الدوى<sup>(١)</sup> . وقيل : « لا خوف عليهم » في ذريتهم، لأن الله يتولاهم . ( وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ) على دنياهم لتعويض الله إياهم في أولاهم وأحرامه لأنه وليهم ومولاهم

قوله تعالى : الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى ؛ فيكون « الذين » في موضع نصب على البدل من اسم « إنا » وهو « أولياء » . وإن شئت على أعمى . وقيل : هو ابتداء ، وغيره « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ؛ فيكون مقطوعا مما قبله . أى يتقون الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ( لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) عن أبي التردت قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : « ما سألنى أحد عنها غيرك منذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة براها المسلم أو ترى له » نخرجه الترمذى فى جامعه . وقال الزهرى وعطاء وقتادة ، هى البشارة التى تبشر بها الملائكة المؤمن فى الدنيا عند الموت . وعن محمد بن كعب القرظى<sup>(٢)</sup> قال : إذا استفتت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال ه « السلام عليك ولى الله الله يقرئك السلام » . ثم نزع بهذه الآية « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » ذكره ابن المبارك . وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو من قبل أن يموت . وقال الحسن : هى ما يشهرهم الله تعالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه ؛ لقوله ه « يُشْرِهِم رَبُّهُمْ »

(١) ذى السود والفل يذوى ذياً وذرياً ، كلاماً ذبل ، هو ذار ؛ وهو الأصبهري ما ز بشره الترتيب . ويضعه

(٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستفتح الياء فى قراره ؛ وأرادوا النفس بالروح . ( ابن الأثير ) .

(٣) آية ٣٤ سورة النحل .



برحمة منه ورضوان<sup>(١١)</sup>»، وقوله: «وإبشروا بالجنة التي كنتم توعدون<sup>(١٢)</sup>» ولهذا قال: «لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» أي لا خلف لمواعيده، وذلك لأن مواعيده بكلماته. (وفي الآخرة) قيل: بالجنة إذا خرجوا من قبورهم. وقيل: إذا خرجت الروح بُشِّرَتْ برضوان الله. وذكر أبو إسحاق العنبي: سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزي يقول: رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكبا رِدْفًا عليه طيلسان وعمامة، فسألت عليه وقلت له: أهلاً بك، إنا لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك؛ فقال: ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك، قال الله تعالى: «لَمْ يَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ» الثناء الحسن، وأشار بيده. (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) أي لا خلف لوعده. وقيل: لا تبديل لأخباره، أي لا ينسخها بشيء، ولا تكون إلا كما قال: (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أي ما يصير إليه أوليائه فهو الفوز العظيم.

قوله تعالى: وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ أَعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ) تم الكلام، أي لا يحزنك اقترائهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال: (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك. (جَمِيعًا) نصب على الحال، ولا يعارض هذا قوله: «وَقِهِ الْعِزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» فإن كل عزة بالله فهي كلها لله؛ قال الله سبحانه: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ» (هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السميع لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

(١١) آية ٢٩ سورة الفرقان. (١٢) آية ٢٥ سورة البقرة. (١٣) آية ٢٠ سورة فصلت.

(١٤) هذه الآية إلى الجوزي (بكتفي) هذه في بيان. (١٥) آية ٨ سورة المائدة.

(١٦) آية ٢٥ سورة المائدة.



قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ**  
**الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ**  
**إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾**

قوله تعالى : ( **أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** ) أى يحكم فيهم بما يريد ،  
 ويضلل فيهم ما يشاء ، سبحانه ! .

قوله تعالى : ( **وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ** ) « ما » للنفي ،  
 أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل : « ما » استفهام ،  
 أى أى شئ يتبع الذين يدعون من دونه الله شركاء تقيحا لفعالهم ، ثم أجاب فقال :  
 ( **إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ) أى يُحِدسون ويكذبون ، وقد تقدم <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ**  
**مُبِينٌ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْمَعُونَ ﴿٦٧﴾**

قوله تعالى : ( **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ) بين أن الواجب عبادة من يقدر  
 على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شئ . ( **لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ) أى مع أزواجكم  
 وأولادكم ليزول التعب والكلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعالى : ( **وَالنَّهَارُ مُبِينٌ** ) أى مضيا لتهدوا به في حوائجكم . والمبصر : الذى  
 يبصر ، والنهار يُبهر فيه . وقال : « مُبِينٌ » تجوزا وتوسعا على عادة العرب في قولهم « ليل  
 قاتم ، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد أُنيتنا يا أمَّ غيلان في السرى • ونمت وما ليل الميطى بنائم

وقال قُطْرُب : يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا ضياء وبصر .



قوله تعالى : ( إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ) أى علامات ودلالات . ( لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ )  
أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى  
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ) يعنى الكفار . وقد تقدم . ( سُبْحَانَهُ ) تزه نفسه  
عن الصلابة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . ( هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )  
ثم أخبر ببناء المطلق ، وأن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وعسدا ؛ « إِنْ كُلُّ  
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » . ( إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا )  
أى ما عندكم من حجة بهذا . ( أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) من إنبات الولد له ، والولد  
يقتضى المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يحايس شيئا ولا يشابه شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾  
مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا  
يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ ) أى يختلقون . ( عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ )  
أى لا يفوزون ولا يأمنون ؛ وتم الكلام . ( مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ) أى ذلك متاع ، أو هو متاع  
فى الدنيا ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : لهم متاع فى الدنيا . قال أبو اسحاق : ويموز  
النصب فى غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا . ( ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ) أى رجوعهم . ( ثُمَّ  
نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ) أى الغليظ ( بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ) أى بكفرهم .



قوله تعالى : وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ  
كَبْرًا عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَقَلَىٰ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا  
أَمْرًا وَشُرَكَاءُ كُفْرًا ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ  
وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) أمره عليه السلام أن يذكرهم أفاصيل المتقدمين ،  
ويخبرهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « اتل » لأنه أمر ؛ أي اقرأ عليهم  
خبر نوح . (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) « إذ » في موضع نصب . (يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبْرًا عَلَيْكُمْ) أي  
عظم وتغل عليكم . (مَقَامِي) المقام (يفتح الميم) : الموضع الذي يقوم فيه . والمقام (بالضم)  
الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت ؛ أي إن طال عليكم لُبِّي فيكم ، (وَتَذَكَّرِي) أي إياكم ،  
وتخويفي لكم (يَا آيَاتِ اللَّهِ) وعزمت على قتل وطردى (فَقَلَىٰ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ) أي اعتمدت .  
وهذا هو جواب الشرط ، ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله في كل حال ، ولكن بين أنه  
متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أي إن لم تنصروني فإني  
أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ مَنْ يَنْصُرُنِي .

قوله تعالى : (فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) قراءة العامة « فأجمعوا » بقطع الألف  
« شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجحدري « فأجمعوا » بوصل الألف وفتح الميم ، من  
جمع يجمع . « شركاءكم » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وبعبوب « فأجمعوا » بقطع  
الألف « شركاءكم » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشيء إذا عزم عليه . وقال  
الفراء : أجمع الشيء أعده . وقال المؤرج : أجمعت الأمر أنصح من أجمعت عليه .  
وانشد :

بأبى شعري والمني لا تنفع • هل أقْدُونُ يوما وأمرى يُجْعُ



قال النحاس : وفي نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائي والفراء : هو بمعنى وأدعوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى ؛ كما قال :

يألت زوجك في الوعى • متقلداً سيقاً ورثما

والرح لا يُنتلذ ، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم ؛ كما يقال : اتى الماء والخشبة . والقراءة الثانية من الجمع ، اعتباراً بقوله تعالى : « <sup>١١</sup>جمع كيدهم ثم أتى » . قال أبو معاذ : ويجوز أن يكون معنى جمع وأجمع بمعنى واحد ، « وشركاءكم » على هذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فأجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم ، وإن شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يحيز قام زيد وعمرا . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع في أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يرق المصاحف واو في قوله « وشركاءكم » ، وأيضاً فإن شركاءهم الأصنام ، والأصنام لا تصنع شيئاً ولا فعل لها حتى تُجمع . قال المهدوي : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أى وشركاءكم ليجمعوا أمرهم ، ونسب ذلك إلى الشركاء وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعالى : ( ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ) اسم يكن وخبرها . وغمّة وغم سواء ، ومعناه الغنطية ؛ من قومهم : غمّ الحلال إذا استترى أى يكن أمركم ظاهراً متكشفاً تتكفون فيه مما شتم ؛ لا كن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى على بغمّة • نهارى ولاليل على بمرمّد



الزجاج : غُثْمَةٌ دَاغَمٌ ، وَالنَّمْعُ وَالنُّعْمَةُ كَالْكُرْبِ وَالْكُرْبَةُ . وَقِيلَ . إِنَّ النَّمْعَةَ ضَيْقُ الْأَمْرِ الَّذِي يُوْجِبُ الْغَمَّ فَلَا يَتَيْنِ صَاحِبَهُ لِأَمْرِهِ مُصْدِرًا لِيَنْفَرَجَ عَنْهُ مَا يُنْفَعُ . وَفِي الصَّحَاحِ : وَالنَّمْعَةُ الْكُرْبَةُ . قَالَ الْمَجَاجِ :

لَوْ شَهِدَتِ النَّاسُ إِذْ تُكْوَى <sup>(١)</sup> . بِنَمْعَةٍ لَوْ لَمْ تُخْرَجْ غَمًّا  
يُقَالُ : أَمْرٌ غُثْمَةٌ ، أَيْ مُهِمٌّ مُلْتَبِسٌ ، قَالَ تَعَالَى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » . قَالَ  
أَبُو عُبَيْدَةَ : مَجَازُهَا ظُلُمَةٌ وَضَيْقٌ . وَالنَّمْعَةُ أَيْضًا : قَعْرُ النَّحْيِ وَغَيْرِهِ . قَالَ غَيْرُهُ : وَأَصْلُ هَذَا  
كُلُّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْغَمَامَةِ .

قوله تعالى : ( ثُمَّ أَفْضُوا إِلَىٰ وَلَا تُنْظَرُونَ ) أَلْفٌ « أَفْضُوا » أَلْفٌ وَصَلٌ ، مِنْ قَضَى  
بِقَضَى . قَالَ الْأَخْفَشُ وَالْكَسَائِيُّ : هُوَ مِثْلُ « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ » أَيْ أَهْنَيْنَاهُ إِلَيْهِ  
وَابْتَلَيْنَاهُ إِيَّاهُ . وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « ثُمَّ أَفْضُوا إِلَى وَلَا تُنْظَرُونَ » قَالَ : أَفْضُوا إِلَى  
وَلَا تُؤْخَرُونَ . قَالَ النَّعَّاسُ : هَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ فِي اللَّفْظِ ، وَمِنْهُ : قَضَى الْمَيْتَ أَيْ مَضَى .  
وَأَعْلَمُهُمْ بِهَذَا أَنَّهُمْ لَا يَصْلُونَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ النِّيَّاتِ . وَحِكْيُ الْقِرَاءَةِ عَنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ  
« ثُمَّ أَفْضُوا إِلَى » بِالْفَاءِ وَقَطْعِ الْأَلْفِ ، أَيْ تَوَجَّهُوا ، يُقَالُ : أَفْضْتُ الْخِلَافَةَ إِلَى فُلَانٍ ،  
وَأَفْضَى إِلَى الْوَجْعِ . وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ يَنْصُرُ اللَّهَ  
وَإِتْقَانًا ، وَمَنْ كَيْدُهُمْ غَيْرُ خَائِفٍ ، عَلِمَا مِنْهُمُ بِأَنَّهُمْ وَأَهْلُهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ . وَتَعَزُّيٌّ لِنَبِيِّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُوَّةٌ لِقَلْبِهِ .

قوله تعالى : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى  
اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

(١) تَعَلَّمُوا : غَطُّوا بِالْغَمِّ (٢) النَّسِي (بِالْكَسْرِ) : زَقَّ لَسَنًا . (٣) آيَةُ ٦٦ سورة الحجرات



قوله تعالى : ( فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْآتُكُم مِّنْ آجِرٍ ) أى فإن أمرضتم عما جئكم به فليس ذلك لائق سالتكم أجرا فيقبل عليكم مكاتفى . ( إِنْ آجِرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ) فى تبليغ رسالته . ( وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) أى الموحدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو ابن عاصم وحفص بن غياث « آجِرِى » حيث وقع ، وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمِن مَّعْرُوفٍ إِلَى الْفُتُوحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ( فَكَذَّبُوهُ ) بنى نوحا . ( فَجَعَلْنَاهُ وَمِن مَّعْرُوفٍ ) أى من المؤمنين . ( فِي الْفُتُوحِ ) أى السفينة ، وساقى ذكرها . ( وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً ) أى سكان الأرض وخلفاء ابن غريق . ( فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ) بنى آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِآيَاتِنَا فَكَانُوا يُكْفَرُونَ وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ) أى من بعد نوح . ( رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ ) كهده وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . ( بِآيَاتِنَا ) أى بالمعجزات . ( فَكَانُوا يُكْفَرُونَ وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ) التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بما كذبوا به من قبل » أى من قبل يوم النور ، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بآياتهم ، مثل « أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . ( كَذَلِكَ نَطِيعُ ) أى نختم . ( عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ ) أى الجالوزين الحسد فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يرد على القدرة قولهم كأنهم .



قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
يَعَايَنَتْنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم) أى من بعد الرسل والأنبياء . (مُوسَىٰ وَهَارُونَ .  
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) أى أشرف قومه . (يَعَايَنَتْنَا) يريد الآيات التسع ، وقد تقدم ذكرها .  
(فَاسْتَكْبَرُوا) أى عن الحق . (وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) أى مشركين .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ  
مِّمِّينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ  
السَّاحِرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا) يريد فرعون وقومه . (قَالُوا إِنَّ هَذَا  
لِسِحْرٌ مِّمِّينَ) حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ  
هَذَا) قيل : فى الكلام حذف ، المعنى : أتقولون للحق هذا سحر . فـ«أتقولون» إنكار وقولهم  
محذوف أى هذا سحر ، ثم استأنف إنكاراً آخر من قبله فقال أسحر هذا ! . لحذف قولهم الأذل  
اكتفاءً بالثانى من قولهم ، منكراً على فرعون وملائته . وقال الأخفش : هو من قولهم ، ودخلت  
الألف حكاية لقولهم ، لأنهم قالوا أسحر هذا . فقيل لهم : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر  
هذا ، وروى عن الحسن . (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ  
لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾



قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ أَيْ تَصْرُقَنَا وَتُلْوِنَا ، بِقَالَ : لفته بلفته لفتنا إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

لَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى رَأَيْتُنِي • وَجِئْتُ مِنَ الْإِسْنَاءِ لَيْتًا وَأَخَذُنَا

ومن هذا ألفت إنما هو عدل عن الجهة التي بين يديه . ( عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَانَا ) يريد من عبادة الأصنام . ( وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ ) أى العظمة والملك والسلطان . ( فِي الْأَرْضِ ) يريد أرض مصر . ويقال للذك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا . ( وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ) وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » بآباء لأنه تابى غير حقيق وقد فصل بينهما . وحكى سيدييه : حضر القاضي اليوم أمرانان .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنَبِّئُنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائي وابن تآب والأعشى « سحر » . وقد تقدم في الأعراف القول فيها .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من جبالكم وعصبتكم . وقد تقدم في الأعراف القول في هذا مستوى .

قوله تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ إِنَّ اللَّهَ سَبِّطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

(١) البيت لقصة الفتنى . والإصنا . الميل . واليت (الكسر) . صفة المتى . والأندع : مرق في صفة البنى ما

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية .



قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا فَلَمَّ السَّحَرُ ﴾ تكون « ما » في موضع رفع بالابتداء ، والخبر « جثم به » والتقدير : أى شئ جثم به ، على التوبيخ والتصغير لما جاؤا به من السحر . وقراءة أبي عمرو « آلسحر » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : السحر جثم به . ولا تكون « ما » على قراءة من استفهم بمعنى الذى ، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقر « السحر » على الخبر ، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جثم به سحر » . وقراءة أبي « ما أتيتهم به سحر » ؟ فـ « ما » بمعنى الذى ، و « جثم به » الصلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والنحر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جمعتها بمعنى الذى نصبا لأن الصلة لا تعمل فى الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجثم ، وتكون ما للشرط ، وجثم فى موضع جزم بما والفاء محذوفة ؟ التقدير : فإن الله سيظهره . ويجوز أن ينصب السحر على المصدر ، أى ما جثم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين ، فلا يحتاج على هذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا الفصول النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازة لا يميزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر ، كما قال :

• من يفعل الحسنات الله يشكرها •

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز أبتة . وسمعت على بن سليمان يقول : حدثني محمد ابن يزيد قال حدثني المازني قال سمعت الأصمعي يقول : غير النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية • من يفعل الخير فالرحمن يشكره •

وسمعت على بن سليمان يقول : حذف الفاء فى المجازة جائز . قال : والدليل على ذلك « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » . « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » قراءتان مشهورتان معروفتان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يعنى السحر . قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية « ما جثم به السحر إن الله سيظهره إن الله لا يصلح عمل المفسدين » لم يضره كيد ساحر . ولا يكتب على مسحور إلا دفع أفعته النحر .



قوله تعالى : وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾  
 قوله تعالى : ( وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ ) أى بينه ويوضحه . ( بِكَلِمَاتِهِ ) أى بكلامه وحججه  
 وبراهينه . وقيل : ببدائته بالنصر . ( وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ) من آل فرعون .

قوله تعالى : فَأَمَّا لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ  
 مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ  
 لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ( فَأَمَّا لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ ) الماء غائدة على موسى . قال مجاهد :  
 أى لم يؤمن منهم أحده ، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى إسرائيل ، لطول  
 الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء فأمنوا ، وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقاب الإنسان ،  
 وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ،  
 وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا  
 ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ، منهم مؤمن  
 آل فرعون وخازن فرعون وأمراؤه وماشطة أبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوام أبائهم  
 من القبط ، وأمهايتهم من بنى إسرائيل فسموا ذرية كما يسمى أولاد الفرس الذين توالدوا  
 باليمن وبلاد العرب الأبناء ، لأن أمهايتهم من غير جنس آمايتهم ، قاله الفراء . وعلم هذا فالكفاية  
 فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ( عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ) لأنه كان مسلطا عليهم عاتيا . ( وَمَلَئِهِمْ )  
 ولم يقل وملئه ، وعنه ستة أجوبة : أحدها - أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل  
 الجميع . الثانى - أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره ، فقاد الضمير عليه وعليهم ، وهذا  
 أحد قولى الفراء . الثالث - أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل عمود . الرابع - أن يكون  
 التقدير : على خوف من آل فرعون ، فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،



وهو القول الثاني للقاء . وهذا الجواب على منذهب سيويه والتحليل خطأ ، لا يجوز عندهما قامت هند ، وأنت تريد غلامها . الحساس - منذهب الأخفش . سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملا الذرية ؛ وهو اختيار الطبري . السادس - أن يكون الضمير يعود على قومه . قال الحساس ؛ وهذا الجواب كأنه الجفها . ( أَنَّ يَفْتَنَهُمْ ) وحده « يفتنهم » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالمقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « خَوْفٌ » . ولم يصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . ( وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ ) أى عات متكبّر . ( وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ) أى المجاوزين الحدّ الكفر ؛ لأنه كان عبدا فادّعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومَ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٦٦﴾ فَقَالُوا عَلَىٰ آلِهَةٍ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومَ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ ) أى صدقتم . ( بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ) أى اعتمادوا . ( إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ) كرر الشرط تأكيدا ، وبين أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . ( فَقَالُوا عَلَىٰ آلِهَةٍ تَوَكَّلْنَا ) أى أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وأتينا إلى أمره . ( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أى لا تنصرم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أولا تمنحنا بأن تعذبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلط عليهم ؛ فيقتلوا . وقال أبو جعفر وأبو الضحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فزدادوا طغيانا .

قوله تعالى : وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ) أى خلصنا ( مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ) أى من فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .



قوله تعالى : **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّنْ يَمْصُرُ بَيْوتًا  
وَأَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : **( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّنْ يَمْصُرُ بَيْوتًا )** فيه خمس مسائل :  
الأولى - قوله تعالى : **( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا )** أى اتخذنا ، **( لِقَوْمِكَ )** لِقَوْمِكَ  
يَمْصُرُ بَيْوتًا ) يقال : بَوَّأت زيدا مكانا ، وبَوَّأت لزيد مكانا . والمبوء المتول الملزوم ، ومنه  
بَوَّأه الله مثلا ، أى أزمه إياه وأسكنه ، ومنه الحديث : **« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »** قال الرازي :

نحن بنو عدنان ليس شك \* تبوأ المجد بنا والملك

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ، في قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى  
مصر ، ومصر ما بين البحر إلى أسوان ، والإسكندرية من أرض مصر :

الثانية - قوله تعالى : **( وَأَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً )** قال أكثر المفسرين : كان  
بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكانهم وكانت ظاهرة ، فلما أرسل موسى أمر فرعون  
بمساجد بني إسرائيل تغزبت كلها ومنعوا من الصلاة ، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن  
اتخذوا وتغيروا لبني إسرائيل بيوتا بمصر ، أى مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة . هذا قول  
ابراهيم وآبن زيد والزيبي وأبي مالك وابن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن  
جبير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا . والقول الأول أصح ، أى اجعلوا مساجدكم  
إلى القبلة ، قيل : بيت المقدس ، وهى قبلة اليهود إلى اليوم ، قاله ابن بحر . وقيل الكعبة .  
عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ، وهذا يدل على أن القبلة  
في الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وسر العورة  
واستقبال القبلة ، فإن ذلك ألغى في التكليف وأوفر للمباداة . وقيل : المراد صلوا في بيوتكم سرا  
لأنهم ، وذلك حين أخافهم فرعون فأمرهم بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت ، والإقبال







لا ينبغي أن يخرجوا إليه . واجبة لسالك ومن قال بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " أخرجه البخاري . احتج المخالف بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاها في الجماعة في المسجد ، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فليكم بالصلاة في بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاما متفرقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارى واحد فاستقر الأمر على ذلك وثبت سنة .

الرابعة - وإذا تزلنا على أنه كان أبيح لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدل به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذي يبيح له ذلك المرض الخابس ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يرضه ، وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ) قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أى بشر بنى إسرائيل بأن الله سيظهرهم على ملوكهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قوله تعالى : ( وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ ) « آتيت » أى أعطيت . ( زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى مال الدنيا ، وكان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزرجد والزمرد والياقوت .



قوله تعالى : ( رَبَّنَا يُضِلُّوْا عَنْ سَبِيْلِكَ ) اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها . وهو قول الخليل وسيبويه — أنها لام العاقبة والصيرورة ؛ وفي الخبر " إن لله تعالى ملكا ينادى كل يوم لندوا لآلوت وابنوا للغراب " . أى لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا . وقيل : هى لام كى ، أى أعطيتهم لكى يضلوا ويضطروا ويتكبروا . وقيل : هى لام أبل ، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال عز وجل : « يبين الله لكم أن تضلوا » . والمعنى : لئلا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف « لا » إلا مع أن ؛ فزعم صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل « أن تضلوا » . وقيل : اللام للدعاء ، أى أبتلهم بالضلال عن سبيلك ؛ لأن بعده « أطمس على أموالهم وأشدد » . وقيل : الفعل معنى المصدر أى أضلهم ؛ كقوله عز وجل « ليعرضوا عنهم » . قرأ الكوفيون « يُضِلُّوْا » بضم الباء من الإضلال ، وفتحها الباقون .

قوله تعالى : ( رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ) أى عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم . قال الزجاج : طَمَسَ الشيء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة مقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزرورهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا ترى ؛ يقال : مین مطموسة ، وطمس الموضع إذا عفا ودرس . وقال ابن زيد : صارت دنائيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لم حجارة . محمد بن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وأنها حجارة . وقال السدي : وكانت إحدى الآيات التسع « وأشدد على قلوبهم » . قال ابن عباس : أى امنعهم الإيمان . وقيل : قَسَّهَا وأطبع عليها حتى لا تشرح للإيمان ؛ والمعنى



واحد . ( فَلَا يُؤْمِنُوا ) قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى اتيتهم التهم ليضلوا ولا يؤمنوا ؛ قاله الزجاج والمبرد . وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شئ . وقوله « ربنا اطمس ، واشدد » كلام معترض . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم عندهم ، أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينسبط من بين عينك ما أتروى • ولا تلقى إلا وأفك راغم

أى لا أنسبط . ومن قال « ليضلوا » دعاء — أى ابتلهم بالضلal — قال : عطف عليه « فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر ؛ أى واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا . وهذا قول الأخفش والفراء أيضا ، وأنشد الفراء :

ياناق سبرى عتقا فسيحا • إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب . ( حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) قال ابن عباس : هو الفرق . وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان فومهم ؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلاهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » <sup>(١)</sup> وعند ذلك قال : « رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » <sup>(٢)</sup> . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ( قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ) قال أبو العالية : دعا موسى وإسماعيل هارون ؛ وقد آمن على الدعاء داعيا . التامين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فنقول آمين دعاء ، أى رب



استجب لى . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال اهل المعاني : ربما خاطبت للعرب  
الواحد بخطاب الاثنين ، قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تسجلنا • برزغ اصوله فأجتر شيئا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وإن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت على بن سليمان  
يقول : الدليل على أن الدعاء لها قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرأ على  
والسلبى « دعوانك » بالجمع . وقرأ ابن السميع « أجبت دعوتكما » خبرا عن الله تعالى ، ونصب  
دعوة بعده . وتقدم القول في « آمين » في آخر الفاتحة مستوفى . وهو مما خص به نبينا محمد  
صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أعطى أتتى ثلاثا لم تُعط أحدًا قبلهم السلام وهى تحية أهل  
الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون » ذكره الترمذى الحكيم في نوادر  
الأصول . وقد تقدم في الفاتحة .<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ( فَاسْتَجِبْ ) قال الفراء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والنيات عليه  
من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان ، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن على وابن جرير :  
مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استجب » أى على  
الدعاء ، والاستقامة في الدعاء ترك الاستجبال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستجبال  
من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بقرضا الحسن لجميع ما يبدو  
من الغيب . ( وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَتْلُمُونَ ) بتشديد النون في موضع جزم على التنبه ،  
والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الاثنين . وقرأ  
أبن ذكوان بتخفيف النون على النفى . وقيل : هو حال من استقيا ، أى استقيا غير متبعين ،  
والمتنى : لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعدى .



قوله تعالى : وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ  
بَغْيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي  
ءَمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ( وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ) تقدم القول فيه في « البقرة » في قوله  
« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » . وقرا الحسن « وجوزنا » وما لفتان . ( فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ )  
يقال : تبع وأتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه وأدركه . وأتبع ( بالتشديد ) إذا سار خلفه . وقال  
الأصمعي : أتبعه ( بقطع الألف ) إذا لحقه وأدركه ، وأتبعه ( بوصل الألف ) إذا أتبع أثره ،  
أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرا قتادة « فأتبعهم » بوصل الألف . وقيل :  
« أتبعه » ( بوصل الألف ) في الأمر اقتدى به . وأتبعه ( بقطع الألف ) خيرا أو شرا ؛ هذا قول  
أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا ،  
وتبعه فرعون مضيحا في التي ألف وستمائة ألف . وقد تقدم . ( بَغْيًا ) نصب على الحال .  
( وَعَدُوا ) معطوف عليه ؛ أي في حال بغْيٍ واعتداء وظلم ؛ يقال : عدوا وعدوا ؛ مثل غزا بغزو  
غزوا . وقرا الحسن « وعدوا » بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثل علا يعلو علوا . وقال  
المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوا » في الفعل ؛ فهما نصب على  
المفعول له . ( حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ) أي ناله ووصله . ( قَالَ ءَمَنْتُ ) أي صدقت . ( أَنَّهُ )  
أي بأنه . ( لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ ) فلما حذف الحافض تعدى الفعل فنصب .  
وقرى بالكسر ؛ أي صرت مؤمنا ثم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت  
فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وحده  
الخطأ فلا تقبل ، حسب ما تقدم في « النساء » بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبعة أولى أو ثانية .



البحر وكان على حصان آدم ولم يكن في خيل فرعون فرس أشي ؛ فلقا جبريل على فرس ويدق  
 - أي شهي<sup>(١)</sup> - في صورة هامان وقال له : تقدم ، ثم خاض البحر فتيهما حصان فرعون ،  
 وميكائيل يسوقهم لا يسند منهم أحد ، فلما صار آخرهم في البحر وهم أولم أن يخرج أنطبق  
 عليهم البحر ، وألجم فرعون الفرق فقال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ؛ فدمس جبريل  
 في فمه حال البحر . وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما  
 أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو  
 رأيته وأنا أخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة " . قال أبو عيسى ،  
 هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه ؛ قاله أهل اللغة . وعن  
 ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر : " أن جبريل جعل يده في فرعون  
 الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه " . قال : هذا حديث حسن  
 غريب صحيح . وقال عون بن عبد الله : بلغني أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما ولد  
 إبليس أبص إلى من فرعون ، فإنه لما أدركه الفرق قال « آمنت » الآية ، فخشيت أن يقبها  
 فيرحم ، فأخذت تربة أوطينة فخشوتها في فيه . وقيل : إنما فعل هذا به عقوبة له على عظيم  
 ما كان يأتي . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيل مصر عن الجفري في زمانه ، فقالت له  
 القبط : إن كنت ربنا فأجر لنا الماء ؛ فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على  
 درجاتهم وقفز حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى ومجد وتضرع لله تعالى  
 فأجرى الله له الماء ، فأناه جبريل وهو وحده في هيئة مُسْتَقْتِ وقال : ما يقول الأمير  
 في رجل له عبد قد نسا في نعمته لاستدله فيه ، فكفر بعمه وبمجد حقه وأدعى السيادة بدونه ؛  
 فكتب فرعون : يقول أبو العباس الوليد بن مصعب بن الربان جزاءه أن ينفق في البحر ؛  
 فأخذه جبريل ومرا فلما أدركه الفرق ناوله جبريل عليه السلام خطه . وقد مضى هذا  
 في « البقرة » عن عبد الله بن عمرو بن الماص وابن عباس مسندا ؛ وكان هذا في يوم عاشوراء  
 على ما تقدم بيانه في « البقرة » أيضا فلا معنى للإعادة .

(١) أي شهي الفحل .



قوله تعالى : (وَأَمَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى من المؤمنين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) ١١

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل ، صلوات الله عليهم ، أو غيرهما من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة ، ونظيره « إِنَّا نَطْمِئُّكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيقى كلام القلب .

قوله تعالى : (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ

كثيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ) ١٢

قوله تعالى : (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ) أى نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فالتفت الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهده . قال أوس بن حجر يصف مطرا :  
فَرَأَى بِقُوَّتِهِ كَيْفَ تَجْسُوتُهُ • وَالْمُسْتَكِينُ كَيْفَ يَمُوتُهُ ١٣

وقرأ البيهقي وابن السميع « نُنَجِّيكَ » بالخاء من التنجية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريح : فرى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيرا أحر كأنه تور ، وحكى علقمة عن عبدة الله أنه قرأ « بنداك » من النداء . قال أبو بكر الأنباري : وليس بخالف لهجاء مصحفنا ، إذ سيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من نداءك فى ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى هجاء بدتك وندائك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه طائفة المسلمين ؛ والقراءة سئة يأخذها آخر عن أول ، وفى معناها نقص عن  
(١) القوة والعادة : الساحة وما حول الدار والحلة ؛ وجمعها غدا . والقرواح : الأرض المأوى للنفس .



تأويل قسراءتا، إذ ليس فيها للدرع ذكر، الذي ثابعت الآثار بأن بني إسرائيل اختلفوا في غرق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يرهم إياه غريقاً فألقوه على نجوة من الأرض ببسده هو درعه التي يلهمها في الحروب. قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: وكانت درعه من لؤلؤ منظوم. وقيل من الذهب وكان يعرف بها. وقيل من حديد؛ قاله أبو حنيفة. والبدن الدرع القصيرة. وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وبيضاء كاللّهي مؤؤونة • لها قوتس فوق جيب البدن<sup>(١)</sup>

وأنشد أيضاً عمرو بن نعد يكره:

ومضى نساؤهم بكل مفاضة • جدّلاء سبغة وبالابدان<sup>(٢)</sup>

وقال كعب بن مالك:

تري الأبدان فيها مسفات • على الأبطال واللبّ الحصينا

أراد بالأبدان الدروع، واللب الدروع الثمانية، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جنس الواحد يلية. قال عمرو بن كلثوم:

طينا البيض واللبّ الجماني • وأسباف يقمن ويختيننا

وفيل: «بيدك» يحسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد. قال الأخفش: وأما قول من قال بدرعك فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم لما ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقاً أبززه لهم فأروا جسداً لا روح فيه، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم! يا موسى هذا فرعون وقد غرق؛ فخرج للشك من قلوبهم وأبتلع البحر فرعون كما كان. فعلى هذا «تليك بيدك» احتمال معنيين: أحدهما - تليك على نجوة من الأرض. والثاني - نظهر جسدك الذي لا روح فيه. والقراءة الشاذة «بندائك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة؛ لأن التنداء يفسر تفسيران؛ أحدهما - تليك بصياحك كلمة التوبة، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

(١) البيضاء: الدرع والهي (بالفتح والكسر): التدر وكل موضع يجتمع فيه الماء. والمؤؤونة: الدرع القصيرة. والقوتس: أعلى بيضة في الحديد. (٢) المفاضة (بضم أله): الدرع الواسعة. والجدلاء: الدرع المحكة المسج -



وقت قبولها «أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسمين» على موضع  
وتبع . والآخرة - فالיום تميزك عن غامض البحر بندا لك لما قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت  
تحيته بالبدن معاقبة من رب العالمين له على ما قرط من كفره الذي منه نداؤه الذي أقرى  
فيه وبهت ، وأدعى القدرة والأمر الذي يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قال  
أبو بكر الأنباري : فقراءتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتريد عليها .

قوله تعالى : ( لَيْكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ) أى لىنى اسرائيل ولن يبق من قوم فرعون  
من لم يدركه الفرق ولم يثبه اليه هذا الخبر . ( وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ )  
أى معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها . وقضى « لمن خَلَقك » ( بفتح اللام ) ؛ أى لمن  
بقى بعدك يخلقك فى أرضك . وقرأ على بن أبى طالب « لمن خَلَقك » بالفاء ؛ أى تكون  
آية على خلقك .

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ  
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءًا صَدَقَ ) أى منزل صدق محمود بخسار ،  
مبنى مصر . وقيل الأردن وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . ( وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ  
الطَّيِّبَاتِ ) أى من الثمار وضيها . وقال ابن عباس : معنى قُرَيْظَةَ والنَّضِيرَ وأهل عصر النبي  
صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل ؛ فانهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ويتظفرون  
نحروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : ( فَمَا اخْتَلَفُوا ) أى فى أمر محمد صلى الله عليه  
وسلم . ( حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ) أى القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم ؛ لأنهم  
كانوا يعلمونه قبل نحروجه ؛ قاله ابن جرير الطبرى . ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ) أى يحكم بينهم  
وفصل . ( يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) فى الدنيا ، فيشيب الطائع ويقاقب العاصي .



قوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُ مِّنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ فَكُفُّوا عَنْهُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكن غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد سمعت الإمامين تعليلاً والمبرد يقولان : معنى « فإن كنت فى شك » أى قل يا محمد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . ( فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَاقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ) أى يا عابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فأسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سلام وأمثاله ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرءون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يسألوا من يقرءون بأنهم أعلم منهم ؛ هل يبعث الله رسولاً من بعد موسى . وقال القتيبي : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك ضيق الصدر ؛ أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك فيجربوك صبراً لا تيأس من قبلك على أذى قوتهم وكيف عاقبة أمرهم . والشك فى اللغة أصله الضيق ؛ يقال : شك التوب أى ضمه بخلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السفرة تمد ملائقتها حتى تنقبض ؛ فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تنهيه ؛ والدليل عليه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : « والله لا



أشك - ثم استأنف الكلام فقال - لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المهترئين  
أى الشاكين المرتابين . ( وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ )  
والخطاب في هاتين الآيتين للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ) ﴿١٦٦﴾  
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ) تقدم القول فيه في هذه  
السورة . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضب الله وسخطه بمصيبتهم لا يؤمنون . ( وَلَوْ جَاءَتْهُمْ  
كُلُّ آيَةٍ ) أنت « كلا » على المعنى ؛ أى ولو جاءتهم الآيات ( حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) فينتد  
يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ  
يُؤْسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : ( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ) قال الأخفش والكسائي : أى فهلا .  
وفي مصحف أبى وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض ، أو الدلالة على  
منع أمر لوجود غيره . ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو  
بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية  
إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه فى ( باب ما لا يكون  
إلا منصوباً ) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ،  
أى لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفاء . ويجوز « إلا قوم يونس »



بالرفع ، ومن أحسن ما قبل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال : يكون المعنى غير قوم يونس ، فلما جاء بالأمر بالاسم الذي بعدها بإعراب غير ؛ كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقة أخوه • تعمّر أهلك إلا القردة والناس

وروى في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا يبنون من أرض المتوصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك مأم عليه فأبوا ، فقبل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فبئس من إيمانهم ؛ فقبل له : أخبرهم أن العذاب مصحبهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فأرهبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن أرحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك ؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وتزفوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم في تلك الحالة . وقال ابن مسعود : وكان الرجل يأتي البحر قد وضع عليه أساس بيانه فيقتله فيرده ؛ والعذاب منهم فيأروى عن ابن عباس على ثلثي ميل . وروى على ميل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيتهم العذاب كما ينشئ للثوب القبر ، فلما سحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن ييب عليهم بعدمعانة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم للعذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا حين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاناة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويتضح هذا قوله عليه السلام : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ " . والفرغ الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ؛ وأما قبل ذلك فلا والله أعلم . وقد روى معي ما قتناه عن ابن مسعود ، وإن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة



أيام تخرج منهم فأصبحوا فلم يجدوه فابروا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدل على قوتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسأقي مستندا مينا في سورة « الصافات » إن شاء الله تعالى . ويكون معنى ( كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ) أى العذاب الذى وصلهم به يونس أنه يقتل بهم ، لأنهم رأوه عيانا ولا غمايلة ؛ وعلى هذا الإشكال لا تمارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل ينوى في سابق العلم من السعداء . وروى عن على رضى الله عنه أنه قال : إن الخنزير لا يرد القدره وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : « إِنْ قَوْمٌ لَمْ يَأْمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء . قوله تعالى : ( وَنَتْنَاهُمْ إِلَى جَيْنٍ ) قيل إلى أجلمهم ؛ قاله السدى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو النار ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا  
أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ) أى لا اضطرم إليه . «كُلَّهُمْ» تأكيد لمن . «جميعا» عند ميبويه نصب على الحال . وقال الاخفش : جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيد ؛ كقوله : «لَا تَتَّخِذُوا الْهَيْنَ أَتْنِينَ» .

قوله تعالى : ( أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم جريضا على إيمان جميع الناس ؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له الشقاوة في الذكر الأول . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ؛ وهو من ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ  
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٤﴾



قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) « ما » هي ؛ أى ما ينبغي أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته . ( وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ) وقرا الحسن وأبو بكر والمفضل « ويجعل » بالنون على التعميم . والرَّجْسُ : العذاب ؛ بضم الراء وكسرهما لفنان . ( عَلَى الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ ) أمر الله عز وجل ونبيه .

قوله تعالى : قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ( قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع مستوفى . ( وَمَا تُغْنِي ) « ما » هي ؛ أى ولن تغني . وقيل استفهامية ؛ التقدير أى شئ تغني . ( الْآيَاتُ ) أى الدلالات . ( وَالنُّذُرُ ) أى الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ( عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) أى عن سبق له في علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاتَنْظَرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ( فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ) الأيام هنا بمعنى الوقائع ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله في قوم نوح وهاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والتعم أياما ؛ كقوله تعالى : « وَذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ » . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . ( فَاتَنْظَرُوا ) أى تربعسوا ؛ وهذا تهديد ووعيد . ( إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ) أى المتربسين لموعده ربى .



قوله تعالى : ثُمَّ نَبِّئِ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ نَبِّئِ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ) أى من سلتنا إذا أنزلنا بقوم مذابا أخرجا من بينهم الرسل والمؤمنين ، و « ثُمَّ » معناه ثم اعلما أنا ننبئ رسلا . ( كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ) أى واجبا علينا ؛ لأنه أخبر ولا خلف فى خبره . وقرأ يعقوب « ثُمَّ نَبِّئِ » غفقا . وقرأ الكسائى وحفص ويعقوب « نَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ » غفقا ؛ وشدد الباقون ؛ وهما لغتان فصيحتان : أنبئ يُنبئُ إنباءً ، وتنبئ يُنبئُ تنبئة بمعنى واحد .

قوله تعالى : قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ( قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ ) يريد كفار مكة . ( إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ) أى فى ريب من دين الإسلام الذى أَدْعُوكم إليه . ( فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) من الأوثان التى لا تعقل . ( وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم ) أى يمتكم ويقبض أرواحكم . ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) أى المصدقين بآيات ربه .

قوله تعالى : وَأَنْتَ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ( وَأَنْتَ أَقِمْ وَجْهَكَ ) « أَنْ » عطف على « أَنْ أَكُونَ » أى قيل لى كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : عملك ، وقيل هملك ؛ أى استقم بإقبالك على ما



أمرت به من الدين . ( حَقِيقًا ) أى قويمًا به مائلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

حَدَّثَ اللَّهُ حِينَ هَدَىٰ قُرَادَىٰ . من الإِشْرَاقِ لِلدِّينِ الْخَفِيفِ

وقد مضى في « الأنعام » اشتقاقه والحمد لله . ( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) أى وقيل لى لا تشرك؛ والخطاب له والمراد غيره؛ وكذلك قوله : ( وَلَا تَدْعُ ) أى لا تعبد . ( مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ) إن عبده ( وَلَا يَضُرُّكَ ) إن عصيته ( فَإِنْ قُلْتَ ) أى عبدت غير الله ( فَأَنْتَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ) أى الواضحين العبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ( وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ) أى يصيبك به ( فَلَا كَاشِفَ ) أى لا دافع ( لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ) أى يصيبك بخير ونعمة ( فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ ) أى بكل ما أراد من الخير والشر ( مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ ) لذنوب عباده وخطاياهم ( الرَّحِيمُ ) بأوليائه في الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى ( قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ) أى القرآن . وقيل الرسول صلى الله عليه وسلم . ( مَنْ رَجَعَ فَمَنِ اهْتَدَى ) أى صدق محمد أو آمن بما جاء به ( فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ )



أى خلاص نفسه (وَمَنْ ضَلَّ) أى ترك الرسول والقرآن وآتبع الأصنام والأوثان (فَأَنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) أى وبال ذلك على نفسه (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أى بحفيظ أعمالكم إنما أنا رسول . قال ابن عباس : فسرها آية السيف .

قوله تعالى : وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : (وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ) قيل : نسخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما نزلت جمع النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : "إنكم ستجدون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض" . وعن أنس بمثل ذلك ، ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب • أمير المؤمنين شأنا كلامي

بأننا صابرون ومنظرون • إلى يوم الثغابين والخصام

(حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ) ابتداء وحبر ؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس ، والحمد لله وحده

(١) أى يستأثر عليكم فيصل حركه وصيه مره . (٢) انت و سلام بعض على التبع والمسن .



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد النابختي في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَقْرَبُوا سُورَةَ هُودٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شَبَّتَ ! قال : « شَيْئَتْنِي هُودٌ وَالْوَاهِقَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَمَعَ يَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد رُوي شيء من هذا مرسلًا . وأخرجه الترمذي المحكم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » : حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحق عن أبي جُبَيْفَةَ قَالَ : قالوا يا رسول الله نراك قد شَبَّتَ ! قال : « شَيْئَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » . قال أبو عبد الله : فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفرع يُذهل النفس فينشف رطوبة الجسد ، ونجت كل شعرة متنج ، ومنه يبرق ، فإذا نشف الفرع رطوبته يست المنابع فيبس الشعر فأبيض ، كما ترى الزرع الأخضر يسقائه ، فإذا ذهب سقائه يبس فأبيض ؛ وإنما يبس شعر الشيخ لنهاب رطوبته ويُس جلد ، فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأحوال ما جاء به انقلب من الله ، فتذبل ، وينشف ماها ذلك الوعيد والمول الذي جاء به ؛ فله شيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَحْمِلُ الْوَلَدَانِ شَيْبًا » فأنما شاوا من الفرع . وأما سورة هود : فأنما فيها ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فاعل اليقين إذا تلوها تراه على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلزماتوا من الفرع لحق لهم ، ولعكن الله تبارك وتعالى اسمه يُلطف بهم في تلك الأيام حتى يقرموا كلامه . وأما آخراتها لما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كورت »



وه القارعة » ، قنّى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه فتنهّل منه النفوس ، وتُسبب منه الرعوس . وقد قيل إنّ الذي شُيِّب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة « هود » قوله : « فَأَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتُ » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : « يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء » . قال علمائنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة ؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصريف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هودُ بالتونين على أنه اسم للسورة ؛ وكذا إن سمي امرأة يزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خَفَ فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هودُ وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَتَبْنَا أَحْكَامَهُاتِهِمْ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنَ الَّذِينَ حَكِيمٌ خَبِيرٌ ① أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَذِيرٍ وَبَشِيرٌ ②** وَإِنْ أَسْتَفْقِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④

قوله تعالى : ( **الَّذِينَ كَتَبْنَا أَحْكَامَهُاتِهِمْ** ) . تقدم القول فيه . ( **كَتَبْنَا** ) بمعنى هذا كتاب . ( **أَحْكَمْتُ آيَاتَهُ** ) في موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ما قيل في معنى « أحكمت آياته » قول قتادة ؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أي نُظمت نظماً محكمة لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أي لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى ؛ أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ . وقد تقدم القول فيه .  
(١) مابعد نفع الآية الأولى من سورة « بقره » . (٢) مابعد « ص » الآية الأولى من سورة « بقره » .



وقد يقع اسم الجنس على النوع ؛ فقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العباس : « أَحْكَمْتُ آيَاتَهُ » بالأمر والنهي ( ثُمَّ فَصَّلْتُ ) بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكت جملة ، ثم بينت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فصلت في التنزيل . وقيل : « فَصَّلْتُ » نزلت فجاءت لتدبر . وقرا عكرمة « فَصَّلْتُ » غفقا أى حكمت بالحق . ( مِنْ لَدُنْ ) أى من عند . ( حَكِيمٌ ) أى حكيم للأمر . ( خَيْرٌ ) بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ( أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) قال الكسائي والفراء : أى بالا ؛ أى أحكت ثم فصلت بالإلحاد لا الله . قال الزجاج : لثلا ؛ أى أحكت ثم فصلت لثلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ( إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ) أى من الله . ( نَذِيرٌ ) أى مخوف من عذابه وسوطه لمن عصاه . ( وَيَبَشِّرُ ) بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير ؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ( وَإِنْ أَسْتَفْغِرُوا رَبَّكُمْ ) عطف على الأول . ( ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ) أى أوجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفراء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الاستغفار . وقيل : استغفروهم من مآثف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المسآثف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكتابين . وقد تقدم هذا المعنى في « آل عمران » مستوفى . وفي « البقرة » عند قوله : « وَلَا تَحْذَرُوا آيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ؛ فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروهم من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . ( يَسْتَعْتَمُ مَتَاعًا حَسَنًا )



هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يتمتع بالمتاع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالذناب كما فعل بن أهلك قبلكم . وقيل : يتمتع بعمركم ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع الله بك وتمتع . وقال سهيل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالموجود ، وترك الحزن على المفقود . ( إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كلِّ مكروه وأمر مخوف ، مما يكون في القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرِّها ، والأول أظهر لقوله في هذه السورة : « وَيَأْقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتأوا بالقمط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحترقة والقدر والجيف والكلاب . ( وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ) أى يؤت كل ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كل من فضلت حسنة على سيئاته « فَضْلَهُ » أى الجنة ، وهى فضل الله ، فالكافية في قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يعنسه الإنسان من كلام غيره بلسانه ، أو عمل بعمله بيده أو رجله ، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتبه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ( وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ) أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يحسوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تَوَلَّوْا فقل لهم إني أخاف عليكم . ويمحوز أن يكون مستقبلا حذفته منه إحدى التائين والمعنى : قل لهم إن تتَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ .

قوله تعالى : ( إِلَىٰ اللَّهِ تَرْجِعُكُمْ ) أى بعد الموت . ( وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٠﴾



قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر من معاداة  
المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويطنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يثنون  
صدورهم » أى يطونها على عداوة المسلمين فيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون  
ما فى صدورهم من الشجاء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شريق ،  
وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنطق ، يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجب ،  
وينطوى له قبله على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكاً وأمتراً . وقال  
الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مر  
بالنبي صلى الله عليه وسلم تنى صدره وظهره ، وطأ رأسه وغطى وجهه ، لكيلا يراه  
النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ، حكى معناه عن عبد الله بن شداد قاله  
فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ،  
وأسفينا ثيابنا ، وتبنا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل :  
إن قوماً من المسلمين كانوا يتنكبون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبين الله  
تعالى أن التنكب ما أشتمل عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى  
ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « ألا إنهم  
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » قال : كانوا لا يخافون النساء ، ولا يأتون النساء  
وهم يفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس :  
« أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » ينبرون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى « يَثْنُونَ »  
والقراءتين الآخرين متقارب ، لأنها لا تشوى حتى يثنوها . وقيل : كان بعضهم يخفى على بعض  
يساره فى الطعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) فى الأصل : « يَثْنُونَ » ينبرون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير  
الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا قربناه عنهما ؛ وأما رواية « يَثْنُونَ » المذكورة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن  
عبية ، وبضده ما فى (إعراب القرآن للعساف) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ  
صدورهم » ينبرون بعد الواو فى وزن تنطوى ... الخ ، وهى الباء الآتية بالأصل . ومتعب بعض القسرين هذه  
القراءة بأنها غلط فى النقل لا تجمه . راجع روح المعاني والبروتفسير ابن عطية .



« لَيْسَتْخُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . ( الْآحِينَ يَسْتَفْتُونَ نَبِيَهُمْ )  
أى يُسْأَلُونَ رِعْسَهُمْ نَبِيَهُمْ . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَتَّى ظَهَرَ ، وَاسْتَشْفَى  
نُوبَهُ ، وَاضْمَرَى نَفْسَهُ مَعَهُ .

قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ  
مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ) « ما » أى « من » زائدة  
و « دابة » فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « من » ، أى  
من الله رزقها ؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ مَا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . وقيل : « على الله » أى  
فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى فى « النساء » وأنه  
سبحانه لا يجب عليه شئ . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ؛ وظاهر الآية  
العموم ومعناها الخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرْزَق . وقيل : هى عامة ،  
وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزِقت رُوحها ؛ ووجه النظم بما قبل : أنه سبحانه أخبر  
برزق الجميع ، وأنه لا يَقْفُلُ عن تربته ، فكيف تَحْفَى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو  
يرزقكم ؟ ! والدابة كل حيوان يَدْبُ . والرزق حقيقته ما يَتَغَذَّى به الحى ؛ ويكون فيه بقاء  
رُوحه ونفسه جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرْزَق وليس يصح  
وصفها بأنها مالكة لأمفها ؛ وهكذا الأطفال تُرْزَق الأب ولا يقال إن الأب الذى فى التدى  
ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق  
لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك  
محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدم فى « البقرة »<sup>(١)</sup> هذا المعنى والمحمد لله .  
وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الوحى يأتينا بالطحين ، والذى شقق

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٣ طبة أول آتية .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبة ثانية أو ثالثة .



والأشدق هو خلق الأرزاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ قيل له : الله يتل لك دثاره ودوام من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤت رزق من السماء ساقه لى من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخاف الفقر والله رازقي • ورازق هذا الخلق في السمير واليسير  
تَكْفَل بالأرزاق للخلق كلهم • وللصَّب في البيداء والحوت في البحر

وذكر الترمذي الحكيم في «نوارد الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أرمَلُوا من الزاد ، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ ذَابِيَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغوث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فومده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْعَةً بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلا منها ماشوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا زدنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : آذبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فآذا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : « ما أرسلت إليكم طعاما » فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيء رزقوه الله » ..

(١) أرسلوا من الزاد : أى قد زادهم ؛ وأمله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ؛ كأنه ليقع التراب .



قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُكَ الْمُسْتَفْزِهَاتُ ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فدفن ، قاله يَمَسُّم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستفزاها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : « مستفزاها » فى الرحم . « ومستودعها » فى الصلب . وقيل : « يعلم مستفزاها » فى الجنة أو فى النار . « ومستودعها » فى القبر ؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا نَمُوتُ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم فى « الأعراف » بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسما . قال كعب : خلق الله باقوته خضراء فنظر إليها بالهبة فصارت ماء يرتعد من خافة الله تعالى ؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ما كنا ، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وروى البخارى عن عمران بن حصين . قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : « آقبوا البشرى يا بني تميم » قالوا : بَشَرَتَا فَأَعْطِنَا [ عربتين ] فدخل ناس من أهل اليمن فقال : « آقبوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قِيلْنَا ، جئنا لتفقه فى الدين ، ولنسالك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كان الله ولم يكن شئٌ غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب » (١) راجع ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعه أول مرة ثانية . (٢) الزيادة من صحيح البخارى .



فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ : يَا عِمْرَانُ أَدْرَكَ نَافَتُكَ فَقَدْ تَعَبْتُ ، فَاطْلُقْتُ أَطْلُبُهَا فَإِنَا هِيَ يَضَعُ دُونَهَا السَّرَابُ ؛ وَإِيمُ اللَّهِ لَوِدِدْتُ أَنَهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ .

قوله تعالى : ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) أى خلق ذلك لِيَبْتَلِ عِبَادَهُ بِالْإِعْتِبَارِ وَالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَلَى الْبَعْثِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أَيْمٌ عَقْلًا . وَقَالَ الْحَسَنُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : أَيُّكُمْ أَزْهَدٌ فِي الدُّنْيَا . وَذَكَرَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِرَجُلٍ نَائِمٍ فَقَالَ : يَا نَائِمُ قُمْ فَمَعْبُدٌ ، فَقَالَ : يَا رُوحُ اللَّهِ قَدْ تَعَبِدْتُ ، فَقَالَ : « وَمَا تَعَبِدْتَ ؟ » قَالَ : قَدْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا ، قَالَ : ثُمَّ قَدْ نَفَقْتَ الْعَابِدِينَ . الضَّحَاكُ : أَيُّكُمْ أَكْثَرُ شُكْرًا .

مُفَاتِلُ : أَيُّكُمْ أَتَى اللَّهَ . أَبُو عَبَّاسٍ : أَيُّكُمْ أَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَرَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قَالَ : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا وَأَرْوَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ » فَجَمَعَ الْأَقَاوِيلَ كُلَّهَا ، وَسَيَأْتِي فِي « الْكَهْفِ » هَذَا أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ . ( وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ) أَيْ ذَلَّلْتُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى الْبَعْثِ ( مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ) وَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلشَّرِكِينَ لِقَالِهِمْ : هَذَا سِحْرٌ . وَكَثِيرٌ « إِنَّ » لِأَنَّهَا بَعْدَ الْقَوْلِ مُبْتَدَأَةٌ . وَحِكْمَةُ سَيُورِيهِ الْفَتْحُ . ( لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ) فَتَحَتِ اللَّامُ لِأَنَّهُ فَعْلٌ مُتَقَدِّمٌ لِأَضْمِرِهِ ، وَبَعْدَهُ « لَيَقُولُنَّ » لِأَنَّهُ فِيهِ ضَمِيرٌ . وَ ( سِحْرٌ ) أَيْ غُرُورٌ بَاطِلٌ ، لِبَطْلَانِ السِّحْرِ عِنْدَهُمْ . وَقَرَأَ حَزْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ « إِنَّ هَذَا إِلَّا مَا جَرُّمِيٌّ » كِتَابَةً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَتَيْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ( وَلَئِنْ أَتَيْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُعْدُودَةٍ ) اللَّامُ فِي « لَئِنْ » لِلتَّعْسِ ، وَالْجَوَابُ « لَيَقُولُنَّ » . وَمَعْنَى « إِلَى أُمَّةٍ » إِلَى أَجَلٍ مُعْدُودٍ وَحِينَ مَعْلُومٍ ؛ فَلَأَمَّةٌ هُنَا (١) رَاجِعُ الْمَسْئَلَةِ الثَّانِيَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّا جَاءُنَا مَعَالِ الْأَرْضِ ذُرِّيَّةً لَهُمْ » آيَةٌ ٧



الملة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقادة وجمهور المفسرين . وأصل الأئمة الجماعة ؛ فبهم من  
الحين والسين بالأئمة لأن الأئمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمضى  
إلى محيى أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الملاك . أو إلى آخره أئمة فيها من يؤمن  
ولا يبقى بعد آخرها من يؤمن . والأئمة أسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأئمة  
تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ » . والأئمة أيضا أتباع  
الأنبياء عليهم السلام . والأئمة الرجل الجامع لخير الذي يقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ  
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأئمة الدين والملة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى  
أُمَّةٍ » . والأئمة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِن أَتَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ »  
وكذلك قوله تعالى : « وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأئمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من  
ذلك : فلان حسن الأئمة أى القامة . والأئمة الرجل المنفرد يدينه وحده لا يشركه فيه أحد ؛  
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُبَيِّتُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بَنِي أُمَّةٍ وَحِدَةً » . والأئمة الأم ؛ يقال :  
هذه أئمة زيد ، يعنى أم زيد . ( لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ) يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكنيا للعذاب  
لتأخره عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أى المذى يحبسنا . ( أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا  
عَنَّهُمْ ) قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما باتى . ( وَحَاقَ بِهِمْ )  
أى نزل وأحاط . ( مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أى جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف .  
قوله تعالى : وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ تَزَعَّتْهَا مِنْهُ  
إِنَّهُ لَيَعُوسٌ كُفُورٌ ⑩ وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّسْتَهُ لَيَقُولُنَّ  
دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ⑪ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫

قوله تعالى : ( وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ) الإنسان أسم شائع للناس فى جميع  
الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلة . وقيل : فى عبد الله بن أبى  
(١) ( يستهزئ أمة ) لأنه كان تبا من أديان المشركين ، وأبى بالنسبة صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه



آية العزيز . « رحمة » أى نعمة . ( ثُمَّ زَيَّنَّا لَهُمْ ) أى سلبنا إياه . ( إِنَّهُ لَيُؤَسُّوهُ )  
أى يأمن من الرحمة ( كَفُورٌ ) لنعم حاسد لها ؛ قاله ابن الأعرابي . النحاس : « ليؤوس »  
من يئس يئأس ، وحكى سيويه يئس يئأس على قيل يفعل ، ونظيره حبيب يحسب ويتم  
يتعم ، ويئس يئيس ، وبعضهم يقول : يئس يئس ؛ لا يعرف فى الكلام إلا هذه الأربعة  
الأحرف من السالم جاءت على قيل يفعل ؛ وفى واحد منها اختلاف . وهو يئس و « يؤوس » على  
التكسير كغفور للبالغة .

قوله تعالى : ( وَلَئِنْ أَذْنَبْتَ غَفَاً ) أى حصة ورعاء وسعة فى الزق . ( بَعْدَ ضَرَاءٍ  
مَسَّةٍ ) أى بعد ضر وفقر وشدة . ( لَيَقُولُنَّ نَحَبَ السَّيِّئَاتِ هَئِى ) أى الخطايا التى تسوء  
صاحبها من الضر والفقر . ( إِنَّهُ لَفَرِحٌ بُخُوْرٌ ) أى يفرح ويفخر بما ناله من السعة ويغنى  
شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاجر إذا افتخر — وغفور للبالغة — قال يعقوب القارى : وقرا  
بعض أهل المدينة « لَفَرُحٌ » بضم الراء كما يقال : رجل فطن وحذر ونُدُس . ويجوز فى كلتا  
الفتن الإسكان لتقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ) يعنى المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو  
فى موضع نصب . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا  
الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو استثناء من « وَلَئِنْ أَذْنَبْتَ » أى من  
الإنسان ، فإن الإنسان يعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو استثناء متصل  
وهو حسن . ( أُولَئِكَ هُم مَغْفِرُونَ ) ابتداء وخبر . ( وَأَجْرٌ مَعْلُوفٌ ) ( كَبِيرٌ ) صفة .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ  
أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ  
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ  
سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١٧﴾



قوله تعالى : ﴿ فَطَمَعْتَ تَارِكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى فطمعت لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزولونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هم أن يدع سب آلهتهم فزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سالوك ؛ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام التنى مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركي مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لاتبعناك ، فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب آلهتهم ؛ فزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تَارِكَ » و « صدرك » مرفوع به ، والماء في « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضائق » ولم يقل ضيق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضائق عارض ، والضيق إلزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا ، أو لأن يقولوا . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبي أمية بن المنيرة الخزومي ؛ فقال الله تعالى : يا عباد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذروهم ، لا بأن تأتيهم بما يفرحونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد . قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ﴾ أم « بمعنى بل ، وقد تقدم فى « يونس » أى قد أزحت عليهم وإشكالم فى نبؤك بهذا القرآن ، وجميعهم به ؛ فإن قالوا : انقريته — أى أخلقت — فليأتوا بمتله مفترى برعهم . ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمُوا أَنَّكَ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون اقراءه » آية ٢٨ .



قوله تعالى : ( فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ) أى فى المعارضة ولم تنبأ لهم فقد قامت عليهم  
 الحجة ، إذ هم النّسب البغاة ، وأصحاب الألسن الفصحاء . ( فَأَعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ يَعْلَمُ الله )  
 وأعلموا صدق عهد ، وأعلموا ( أَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ) استفهام معناه الأمر .  
 وقد تقدّم القول فى معنى هذه الآية ، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال :  
 « قُلْ فَأَتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ، فقليل : هو على تحويل المخاطبة  
 من الأفراد ، إلى الجمع تظلياً وتضخياً ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل :  
 الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للجمع ، أى فليعلم الجميع « أَنَّما أُنْزِلَ يَعْلَمُ الله » ، قاله مجاهد .  
 وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فأعلموا » للشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعوهم  
 إلى المعاونة ، ولا تنبأ لكم المعارضة « فَأَعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ يَعْلَمُ الله » . وقيل : الضمير فى « لكم »  
 للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفى « فأعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نَوْفَ الْيَوْمِ  
 أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴿١٠٩﴾  
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( مَنْ كَانَ ) كاف زائدة ، ولهذا جزم الجواب فقال :  
 ( نَوْفَ الْيَوْمِ ) قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه  
 « نَوْفَ الْيَوْمِ » أى من يكن يريد ، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :  
 وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَةِ يَلْقَاهَا • وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بُسْلَمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقليل : نزلت فى الكفار ، قاله الضحاك ، واختاره  
 النحاس ، بديل الآية التى بسدها « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى  
 منهم بصلة ربح أو صدقة نكاته بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

(١) قال فى البحر : ولعل لا يصح لو كانت نكاته فكان على الشرط ويريد ، وكان يكون مجزماً .



له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في « برائة » مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا فليعمل له الثواب ولم يُنقص شيئاً في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » قاله ابن جرير إنما يعطى على وجه قصده ، وبحكم ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء « ضمت وصليت وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك » ثم قال : « إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار » . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديداً وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا » وقرأ الآيتين ، نحرجه مسلم بمعناه وأثره مذى أيضاً . وقيل : الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : ليس أحد بعمل حسنة إلا وثق ثوابها ؛ فإن كان مسلماً غلظاً وثق في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وثق في الدنيا . وقيل : من كان يريد [ الدنيا ] بفزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وثقها ، أى وثق أجر الفزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح المعموم .

الثانية - قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات » . وتلك هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان ، وتدل على أن من توضأ للتبرّد والتنظيف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة - ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التي في « الشورى » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قيدا وفسرها التي في « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ جَمَعَتْ لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئِنْ تُرِيدَ » إلى قوله : « عظمورا » فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما



في قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها مفسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاقِبَةَ » .  
والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتفيد ؛ ومثله قوله : « وَإِنَّا سَأَلْنَا عِبَادِي  
عَنِّي فَأَنَّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل دافع دأما  
على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « قَبْشِئْ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنِّ شَاءَ » . والنسخ  
في الأخبار لا يجوز ؛ لاحتماله تبذل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛  
فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور  
في الأصول ؛ ويأتي في « النحل » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ  
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ** ﴾ إشارة إلى التغلبد ، والمؤمن  
لا يُتَغَلَّبُ ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » الآية . فهو  
محمول على ما لو كانت موافقة هذا المرائي على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار في أيام  
معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضي الوعيد بسلب الإيمان ؛  
وفي الحديث [ الماضي <sup>(١)</sup> ] يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في « النساء »  
ويأتي في آخر « الكهف » . ﴿ **وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم :  
وحذف الماء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أى وباطل عمله .  
وفي حرف أبي وعبد الله « **وَبِاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا  
يعملون باطلا .

(١) في المسألة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخلون من سكا ... » آية ٦٧ .

(٢) في الأصل ( الماضي ) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضي حديث أبي هريرة المتقدم في عمل المرائي

« ممن وعلمهم ... » (٣) راجع ج ٥ ص ٢٢٢ طبعه أول مرة

(٤) في تفسير قوله تعالى : « فن كان يريز لقاء ربه ليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .



قوله نال ، أَفَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ  
وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ  
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتُنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَنْكَ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ابتداءً والخبر محذوف ؛ أى أفن كان على  
بينة من ربه فى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تبين به كغيره ممن يريد  
الحياة الدنيا وزينتها ؛ عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال أبى زيد :  
إن الذى على بينة من أتبع النبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله ، وهو  
النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أفن كان على بينة من ربه » النبى صلى الله  
عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَصَافِيٌّ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفن كان معه بيان من الله ،  
ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل - على ما يأتى - وقد بشرت به الكتب السالفة يضيّق  
صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسَلِّمُه . والهاء فى « رَبِّهِ » تعود عليه . وقوله :  
« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » روى عكرمة عن أبى عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعي .  
والهاء فى « مِنْهُ » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل .  
وقال مجاهد : الشاهد ملك من الله عز وجل يحفظه ويُسَدِّدُه . وقال الحسن البصرى وقادة :  
الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت  
الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن أبى عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛  
وروى عن على أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال  
له رجل : أى شيء نزل فيك ؟ فقال على : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وقيل : الشاهد هو  
صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه وغائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى



النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالحماء على هذا ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالحماء في « منه » للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والحماء في « منه » لله عز وجل . وقيل : البينة معرفة الله التي أشرق لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكِبَ في دماغه وأشرق صدره بنوره . ( وَمِنْ قَبْلِهِ ) أى من قبل الإنجيل . ( كِتَابُ مُوسَى ) رفع بالابتداء ، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوي عن الكلبي ؛ يكون معطوفاً على الحماء في « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريل كتاب موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ( إِمَامًا ) نصب على الحال . ( وَرَحْمَةً ) معطوف . ( أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ) إشارة إلى بنى إسرائيل ، أى يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاها القشيري . والحماء في « به » يجوز أن تكون للقرآن ، ويجوز أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم . ( وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ) أى بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . ( مِنَ الْأَحْزَابِ ) يعنى من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جبير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحاربون . وقيل : فريش وحلفائهم . ( قَالَتِ الْمَوَدَّةُ ) أى هو من أهل النار ؛ وأند

حسان :

فوردتموها حياض الموت ضاحية . فالتأمر موعداً والموت لآتياً



وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني [ثم يموت<sup>(١)</sup>] ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار » . ( فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ) أى فى شك . ( مِنْهُ ) أى من القرآن . ( إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ) أى القرآن من الله ، قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)

قوله تعالى : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم اتفروا على الله كذبا ، فاضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ( أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ) أى يحاسبهم على أعمالهم . ( وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ) يعنى الملائكة المحققة ، عن مجاهد وغيره ، وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون ، دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن يحيى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : « وأما الكفار والمنافقون فيناذى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله » . ( أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ) أى بعهده ويخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .



قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض  
نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله  
تعالى؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ( وَيَقُولُوا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سَوَّاهُ  
بِالنَّاسِ عَنْهَا إِلَى الْمَعَاصِي وَالشُّرَكَ ) . ( وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ) أعاد لفظ « هم » تأكيداً .  
قوله تعالى : أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءُ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ  
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال  
ابن عباس : لم يسجروني أن أمر الأرض فتخسف بهم . ( وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ ) يعني أنصاراً ، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا  
معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضي الله  
عنهما . ( يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ) أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ( مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ  
السَّمْعَ ) « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ( وَمَا كَانُوا  
يُبْصِرُونَ ) ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل  
وبما فعل ؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيبويه<sup>(١)</sup> :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلُ مَا أَمَرْتُ بِهِ • فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفاً ، والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أي وقت استطاعتهم السمع  
والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً . ويجوز أن تكون « ما » نافية  
لا موضع لها ، إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ، والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لم يرد سوى كسر الألف . أراد (بالسبب) لظن ورسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب : المال  
الطيب كالسباع وغيرها . وقال : لكتب جمع المال ؛ تكون مفعول الأثر ، مائة وألفاً . (شراة سيوطي) .



يستطيعون في الدنيا أن يسموا سماً يخفون به، ولا أن يصيروا إصاراً مهتد . قال الفراء :  
ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبعضهم النبي  
صل الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسموا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس :  
وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك  
ثقيلاً عليه .

قوله تعالى : **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْقَرُونَ** ﴿١١﴾ لا يجرم أنهم في الآخرة هم الأَخْسَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ** ) ابتداء وخبر . ( **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْقَرُونَ** ) أى ضاع عنهم أقدارهم وتلف .

قوله تعالى : ( **لَا يَجْرَمُ** ) العلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « **لَا يَجْرَمُ** » بمعنى  
حق ، « **فَلَا** » و « **يَجْرَمُ** » عندهما كلمة واحدة ، و « **أَنَّ** » عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفراء  
وعبد بن يزيد ؛ حكاه النحاس . قال المهدوي : وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة ،  
وهو قول الفراء أيضاً ؛ ذكره التعليق . وقال الزجاج : « **لَا** » هاهنا نفى ؛ وهو رد لقولهم :  
إن الأصنام تنفعهم ؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجرم بمعنى كسب ؛ أى كسب ذلك الفعل  
لم الخسران ، وفاعل كسب مضمرة ، و « **أَنَّ** » منصوبة بجرم ، كما تقول : كسب جفاؤك  
زيداً غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نصبنا رأسه في جذع نخل • بما جرمت يده وما أعطينا

أى بما كسبت . وقال الكسائي : معنى « **لَا يَجْرَمُ** » لا صد ولا منع عن أنهم . وقيل :  
المعنى لا قطع قاطع ، لحذف الفاعل حين كثرة استماله ، والجزم القطع ؛ وقد جرم النخل  
وأجرته أى صرته فهو جارم ، ونوم جرم وجزام وهذا زمن الجرام والحرام ، وجرمت صوف  
الشاة أى جزمته ، وقد جرمت منه أى أخذت منه ؛ وحلل جلست الشيء جلماً أى قطعت ،



وجعلت الجزور أجملها جَلَمًا إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجلته -  
ساكنة اللام - إذا أخذته أجمع، وهذه جملة الجزور - بالتحريك - أى لجمها أجمع؛  
قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا جرم، ولا عن ذا جرم،  
ولا أن ذا جرم، قال: وناس من قزارة يقولون: لا جرانهم بنيرميم. وحكى الفراء فيه  
لغتين آخرين قال: بنوعامر يقولون لا ذا جرم، قال: وناس من العرب يقولون: لا جرم  
بضم الجيم.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٢)

قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)** «الذين» اسم «إن» و«آمنوا» صلة، أى  
صدقوا. **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)** عطف على الصلة. قال ابن عباس:  
أخبتوا أتوا. مجاهد: أطاعوا. قتادة: خشعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن:  
الإخبات الخشوع للخافة الثابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من انخبت وهو  
الأرض المستوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإنابة إلى الله عز وجل  
المستمرة ذلك على استواء. «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون  
المعنى: وجهوا إخبارهم إلى ربهم. **(أُولَٰئِكَ)** خبر «إِنَّ».

قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (٢٣)

قوله تعالى: **(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ)** ابتداء، والخبر **(كَالْأَعْمَىٰ)** وما بعده. قال الأخفش:  
أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى] <sup>(١)</sup> والأصم، ومثل فريق  
المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال: **(هَلْ يَسْتَوِينَ)** فرد إلى الفريقين وهما آتنان؛



وروى عنه عن قتادة وغيره. قال الضحاك : الأعمى والأصم مثل الكافر . والسميع والبصير  
امثل المؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع .  
( مثلاً ) منصوب على التمييز . ( أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ) في الوصفين وتظنون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكَرْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٥﴾  
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ) ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام  
للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم .  
( إِنِّي ) أي فقال : إني ، لأن في الإرسال معنى القول . وقرا ابن كثير وأبو عمرو والكسائي  
« إِنِّي » بفتح الهمزة ، أي أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل « إنا » لأنه رجع من النية إلى  
خطاب نوح لقومه ، كما قال : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ثم قال : « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » .  
قوله تعالى : ( إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) أي أتروا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله  
وحده . ومن قرا « إِنِّي » بالكسر جملة معترضا في الكلام ، والمعنى أرسلناه بالآ تعبدوا  
[إلا الله] . ( إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ) .

قوله تعالى : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰكَ  
إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَىٰكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَىٰ الرَّأْيِ  
وَمَا تَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴿٦٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ( فَقَالَ الْمَلَأُ ) قال أبو إسحق الزجاج : الملا الرؤساء ، أي  
هم ملثون بما يقولون . وقد تقدم هذا في « البقرة » وضمها . ( مَا تَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا ) أي

(١) قال ابن حنبل : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية غاطية لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة  
إلى غاطية ، ولو كان الكلام أن آدم أو سمعه لصح ذلك ،

(٢) جامع ٤٣ ص ٤٤٣ طبعه أميل أبو الفتح .



أَتَمِّيًّا . ( مِثْلًا ) نصب على الحال . و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التثنية ؛ كما قال الشاعر :

• يَأْرُبُ مِثْلِكَ فِي النِّسَاءِ غَيْرِيَّة •

الثانية - قوله تعالى : ( وَمَا تَزَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُجَادِلُواكَ فِي الدِّينِ ) أرادوا جمع أرادوا وأرادوا جمع رادوا ؛ مثل كَلَبَ وَأَكَلَبَ وَأَكْلَبَ . وقيل : الأراذل جمع الأَرذل ، كَأَسَاوِدَ جمع الأَسْوَد من الحيات . والأَرذل النذل ؛ أرادوا أتبعت أخصاؤنا وسقطنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبهم إلى الحياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الدبابة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفي الحديث " إنهم كانوا حاككة وحجامين " . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبي الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والميثاق ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهم الدنف لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرقل لأبي سفيان : أشرف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال طحاوذا : إنما كان ذلك لاستيلاء الراسة على الأشراف ، وصعوبة الأنفكاك عنها ، والألفة من الأقياد للغير ؛ والفقر حلي عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والأقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيا .

الثالثة - اختلف العلماء في تعيين السفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السفلة هم الذين يتفلسون<sup>(١)</sup> ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات .

(١) هو أمير محبين للفن ، وتعام اليوت :

• يضاً . قد سَنَّبَا بِلَان •

هزيمة : الخثرة بين اليوت . وسَنَّا : أعطاهما ما ستنع به من طلائعها .

(٢) الخلفى : استبدال الولاية مع قدرهم بأصناف الهوما



د قال ثعلب عن ابن الأعرابي: السَّفلة الذي يأكل الدنيا بعينه؛ قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنياه غيره بفساد دينه. وسئل على رضى الله عنه عن السفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقيل لسالك بن أنس رضى الله عنه: مَنْ السفلة؟ قال: الذى يسب الصحابة. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما: الأرذلون الحاككة والمجامون. يحيى بن أكرم: الدبّاع والكّاس إذا كان من غير العرب.

الرابعة - إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنيت طالق؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال: إن امرأتى قالت لى يا سَفِلة، فقلت: إن كنتُ سَفِلة فأنيت طالق؛ قال الترمذى: ما صناعتك؟ قال: سَمَاك؛ قال: سَفِلة والله، سَفِلة والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن سفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ((بَادِيَ الرَّأْيِ)) أى ظاهر الرأى، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدأ يبدو إذا ظهر؛ كما قال:

• فالיום حين يَدُونُ للنَّظَارِ •

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدأ لى أن أفعل كذا، أى ظهر لى رأى غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأى. ويجوز أن يكون «بَادِيَ الرَّأْيِ» من بدأ يبدأ وحذف الهزة. وحق أبو عمرو الهزة فقرا «بَادِيَ الرَّأْيِ» أى أول الرأى؛ أى أتبعوك حين أتبدموا ينظرون، ولو أمتنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف «فى» كما قال عز وجل: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ». ((وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)) أى فى أتباعه، وهذا جحد منهم لنبوته. ((بَلْ نَقُفُّكُمْ كَذِبِينَ)) انلطاب لنوح ومن آمن معه.



قوله تعالى : قَالَ يَنْقُومُ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي  
 رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكَ أَنْزَلْنَا مَكُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴿٢٨﴾  
 وَيَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَنْقُومُ  
 مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ  
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ  
 لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ  
 إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ) أى على يقين ، قاله  
 أبو عمران الجوني . وقيل : على معجزة ، وقد تقدم في « الأنعام » هذا المعنى . ( وَأَتَانِي  
 رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ) أى نبوة ورسالة ، عن ابن عباس ، وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية  
 إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . ( فَعُمِّيَتْ عَلَيْكَ ) أى غُمِيَتْ عليكم الرسالة  
 والهداية فلم تفهموها . يقال : غُمِيْتُ عن كذا ، وغُمِيَ على كذا أى لم أفهمه . والمعنى : فَعُمِّيَتْ  
 الرحمة ، فقيل : هو مقلوب ، لأن الرحمة لا تَعْمَى إِنَّمَا يُعْمَى ضَلَالُهَا ، فهو كقولك : أدخلت  
 في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجل . وقرأها الأعمش وحزرة والكاساني « فَعُمِّيَتْ » .  
 يضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله ، أى فعماها الله عليكم ، وكذا في قراءة ابن « فعماها »  
 ذكرها المساوردي . ( أَنْزَلْنَا مَكُوهَا ) قيل : شهادة لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع  
 إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ، أى أنزلتمكم قولها ، وأوجبها عليكم ؟ وهو استفهام بمعنى  
 الإنكار ، أى لا يمكن أن أضلركم إلى المعرفة بها ، وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول







وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل . ( وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ) أى لا أقول إن مرقلي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؛ لدوامهم على الطاعة ، وأتصال عبادتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . ( وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ ) أى تستنفل وتحقر أعينكم ؛ والأصل تزدرهم حذف الماء والميم لطول الاسم . والدال مبذلة من تاء ؛ لأن الأصل في تزدرى تزترى ، ولكن التاء تبدل بعد الزاى دالا ؛ لأن الزاى مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أُرْزِيتُ عليه إذا عيته . وذرَّيتُ عليه إذا حقَّره . وأنشد الفراء :

يُباعِدُهُ الصَّدِيقُ وَتَزْدِرِيهِ • حَلِيلُهُ وَيَهْرَهُ الصَّغِيرُ

( لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ) أى ليس لاحترامكم لم تبطل أجورهم ، أو يتقص ثوابهم . ( اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ) فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ( إِنِّي إِذًا لَيِّنُ الظَّالِمِينَ ) أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإذًا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : قَالُوا يَبْنُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِئٍ مِمَّا تَحْمِلُونِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا يَبْنُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ) أى خاصمتنا فأكثر

خصوصتنا وبالفت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجدل



وهو شدة القتل؛ ويقال للصقر أيضا أجْدَلُ لشدة في الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»<sup>(١)</sup>  
 بأشجع من هذا . وقرا ابن عباس « فَأَكْثَرَتْ جَدًّا » ذكره النحاس . والجَدَل في الدين  
 محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فن قبله نوح وأطع، ومن رده  
 خاب وخسر . وأما الجدل لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه  
 في التارين ملوم . ( فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُّ ) أي من العذاب . ( إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) في قولك .  
 قوله تعالى : ( قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ) أي إن أراد إهلاككم عذبكم .  
 ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أي بفاتنين . وقيل : بنالين بكثرتم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا  
 ملئوا الأرض سهلا وجلا على ما يأتي .

قوله تعالى : ( وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ) أي إبلاغي وأجتهادي في إيمانكم . ( إِنْ أَرَدْتُ  
 أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ) أي لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدم في «برائة» معنى النصيح لغة . ( إِنْ كَانَ  
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ) أي يضلحكم . وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن  
 وافقهما؛ إذ زعما أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يقوى  
 التاوي؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فرد الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ  
 يُبَيِّنَ لَكُمْ » وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرها . وقد اكذبوا شيخهم اللعين إبليس على  
 ما بيناه في «الأعراف» في إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَمَا أَغْوَيْتَنِي » ولا محيص  
 لهم من قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله  
 سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي المضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا .  
 وقيل : « أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يفضي إلى الهلاك . الطبري : « يبويكم »  
 يهلككم بعذابه؛ حكى عن طي : أصبح فلان غاويا أي مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه  
 « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . ( هُوَ رَبُّكُمْ ) فإليه الإغواء، وإليه الهداية . ( وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )  
 تهديد ووعد .

(١) راجع ج ٧ ص ٧٧ طبة أمد أو ثانية . (٢) في تفسير قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ... »  
 طبة ٩٩ (٣) طابع ج ٥ ص ٤٤ طبة ثمانية أو كلمة ٤ ص ٤٠ طبة أمد أو ثانية



قوله تعالى : ( أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ) ينون النبي صلى الله عليه وسلم . آخرى اقبل و  
 أى اختلق القرآن من قبل نفسه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ، قاله مقاتل . وقال ابن  
 عباس : هو من عاودة نوح لقومه وهو أظهر ، لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ،  
 فالخطاب منهم ولهم . ( قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُمْ ) أى اختلقته واقتلته ، يعنى الوحي والرسالة . ( قُلْ  
 إِبْرَاهِيمُ ) أى عقاب إبراهيم ، وإن كنت محققا فيما أقوله فليسكم عقاب تكذيبى . والإبرام  
 مصدر أبرم ، وهو افتراء السبئية . وقيل : المعنى أى جزاء جرئى وكسبى . وجرم وأجرم  
 بمعنى ، عن النحاس وغيره . قال :

طريدٌ عشيةً ودميئٌ جريم • بما جرئت يدى وجنتى لسانى

ومن قرأ « وإبراهيم » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جرئ ، وذكره النحاس أيضا . ( وَأَنَا  
 بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ) أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن  
 قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا  
 وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ( وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ) « أنه »  
 فى موضع رفع على أنه أسم ما لم يُسم فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون  
 التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « يؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم ،  
 واستدامة كفرهم ، تحقيقا لتوول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال :  
 « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح  
 حمل أبنته على كفه ، فلما رأى الصبى نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ، فأعطاه حجرا ، ورمى  
 به نوحا عليه السلام فأدماه ، فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ



أمن . ( فَلَا تَقِيلُ مَا كَانُوا يَقُولُونَ ) أى فلا تنم بئلاكم حتى تكون بأناى أى حزينا .  
والبرؤس الحزن ، ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رزته • فلم ابتلس والرزة فيه تبيل  
يقال ابتأس الرجل إذا بلغه شئ يكره . والابتأس حزن فى استكانه .

قوله تعالى : ( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا ) أى أعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن  
معه . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ  
من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا والمعنى واحد ، فغير من الرؤية  
بالأعين ، لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير ، كما قال تعالى : « فَنَتِمَّ  
الْقَادِرُونَ » « فَنَتِمَّ الْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية  
وغيرها إلى معنى عين ، كما قال : « وَتُصْنَعُ عَلَى عَيْنِي » وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة ،  
وهو سبحانه منزّه عن الحواس والتشبيه والتكيف ، لا رب فيه . وقيل : المعنى « بأعيننا »  
أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك ، فيكون الجمع على هذا التكثير  
على بابيه . وقيل : « بأعيننا » أى بأبنائنا ، قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : « بأعيننا »  
بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعاونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا  
إليك من صنعها . ( وَلَا تَحْطِطِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ) أى لا تطلب إسهالهم فإنى  
مغرقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْءًا عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا  
مِنْهُ . قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٦٨﴾ فَسَوْفَ  
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٩﴾ حَتَّى إِذَا  
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ  
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٧٠﴾



قوله تعالى : ( وَيَصْنَعُ الْفُلَّ ) أى وطفى يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح حل الله عليه وسلم مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها ويبيعها ، ومائة سنة يعملها . وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال : بلغني أن قوم نوح ملّوا الأرض ، حتى ملّوا السهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن يتزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ، فكث نوح يفرس الشجر مائة عام لعمل السفينة ، ثم جمعها يبيعها مائة عام ، وقومه يسخرون ، وذلك لما راوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينة يبقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لما استنفذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرقام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الفلك » قال : يا رب ما أنا بخيار ، قال : « بل فإن ذلك يعني » فأخذ القدم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تحطى ، بفصلوا يتزول به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبي صار نجارا ، فعملها في أربعين سنة .

وحكى الثعلبي وأبو نصر الفشيري عن ابن عباس قال : اتخذ نوح السفينة في ستين . زاد الثعلبي : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن أصنعها بخوجو الطائر . وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدوي : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلمه كيف يصنعها ، وأختلقوا في طولها وعرضها ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا ، وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكوفي وقتادة وعكرمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذراع إلى المنكب قاله سليمان الفارسي . وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاها الثعلبي في كتاب العرائس . وروى علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لميسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فأطلق بهم حتى أتته إلى كتيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب ، قال أنهدرون ما هذا ؟



قالوا : لله ورسوله أعلم . قال : [ هذا كعب<sup>(١)</sup> حام بن نوح ] قال لضرب الكتيب بضماء  
وقال : ثم يأتى الله فإذا هو قائم يتنفض التراب من رأسه ، وقد شاب ، فقال له عيسى :  
أهلكا هلكت ؟ قال : لا بل مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شيت . قال :  
أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ، وماتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ،  
وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير .  
وذكري باقى الخبر على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلبى<sup>(٢)</sup> فيها حكاية النقاش : ودخل  
للساء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ، باب فيه السباع والطير ، وباب فيه الوحش ،  
وباب فيه الرجال والنساء . ابن عباس : جعلها ثلاث بطون ، البطن الأسفل للوحوش  
والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وربك هو فى البطن الأعلى ، وحمل معه  
جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعد بيت المقدس ؛ وكان إبليس  
معهم فى الكوئل<sup>(٣)</sup> . وقيل : جاءت الحية والمقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ،  
لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحدا ذكرك ؛ فمن  
قرأ حين يخاف مضرتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تضره ؛ ذكره القشيري وضربه .  
وذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له مرفوعا من حديث أبى أمامة قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم : " من قال حين يمسى صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب  
تلك الليلة " . قوله تعالى : ( وَكَلَّمَا طَرَفًا ) . ( مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ) .  
قال الأخفش والكسائى يقال : سَخِرْتُ به ومنه . وفى سخرتهم منه قولان : أحدهما - أنهم  
كانوا يرونه يبنى سفينته فى البر ، فيسخرّون به ويستهزئون ويقولون : يأنوح صرت بعد النبوة  
نجارا . الثانى - لما راوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يأنوح

(١) كذا فى الطبرى والدر المنثور والكشاف ، وفى الأصل ( غير سام بن نوح ) .

(٢) جاء فى البحر : وأخطفوا فى هيبتها من التزييع والطول ، وفى مقدار مدة عملها ، وفى المكان الذى عملت

فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أحوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال القصر الرازى : اعلم أن هذه المباحث لا تمضى ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يخلق بمرتبها

قائمة أصلا . (٣) الكوئل : مؤنر السفينة وفيه يكون الملاحون ومنهم . وقيل : هو السكان .



ما تصنع ؟ قال : أبني يطأ بمنى على الماء ؛ فنجبوا من قوله وحضروا منه . قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك حضروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان . ( قَالَ إِنَّ نَسْرَؤُنَا مِنَّا ) أى من فلنا اليوم عند بناء السفينة . ( فَأَنَا نَسْرُؤُنَكُمْ ) غدا عند الفرق . والمراد بالسخرية هنا الاستهجال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ) تهديد ، و « مَنْ » متصلة بـ « سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعمدية إلى مفعول ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويموز أن تكون « مَنْ » استهامية ؛ أى آيتا يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائى أن أناسا من أهل الججاز يقولون : سوف تعلمون ؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والقاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفَّ تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وتستعمل لثنتان ليست إحداها من الأخرى . ( وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ) أى يجب عليه ويترل به . ( عَذَابٌ مُّقِيمٌ ) أى دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ( حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ) أختلف في التنور على أقوال جمعة ، الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهرى وأبن عُيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك . الثاني — أنه تنور الخبز الذى يخبز فيه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحواذ حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فأركب أنت وأصحابك . وأنبع الله الماء من التنور ، فعلمت به أمر أنه فقالت : يا نوح فار الماء من التنور ؛ فقال : جاء وعد ربى حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ابن عباس : الثالث — أنه

(١) ورد في السان : قد قالوا سو يكون غشفوا الغلام ؛ وما يكون غشفي الغلام ؛ ما قبلوا العين طلب الخفة ؛ وسوف يكون غشفي العين .



موضع اجتماع الماء في السفينة ؛ عن الحسن أيضا . الرابع - أنه طلوع الصبح ، ونور  
الصبح ؛ من قولهم نور الصبح تنويرا ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الخامس -  
أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا ، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية  
التنوير بالكوفة . وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التنوير على يمين  
الداخل مما يلي مكنته . وكان فوران الماء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال  
الشاعر وهو أمية :

فار تنورهم وجأش بماء • صار فوق الجبال حتى علما

السادس - أنه أعلى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع - أنه العين التي بالجزيرة « عين الوردة » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان  
ذلك تنور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له « عين وردة » . وقال ابن عباس أيضا .  
فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتنافضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا  
أن الماء جاء من السماء والأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ  
عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة . والقوران الغليان . والتنوير اسم أعجمي  
عربيته العرب ، وهو على بناء فَعْل ؛ لأن أصل بنائه تَر ، وليس في كلام العرب نون قبل  
راء . وقيل : معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم حيي الوطيس إذا أشند  
الحرب . والوطيس التنور . ويقال : فارت قدر القوم إذا أشند حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركم قدركم لاشي . فيها • وقدر القوم حاميه تنفور

قوله تعالى : ( قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ) يعني ذكرا وأنثى ؛ لبقاء أصل  
النسل بعد الطوفان . وقرا حفص « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » بتووين « كل » أى من كل شيء .  
زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال للثنتين : هما  
زوجان ، في كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما  
زوجا . يقال : له زوجا نمل إذا كان له نملان . وكذلك عنده زوجا حاتم ، وعليه زوجا



قِيود ؟ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ اللَّهُ كَرًّا وَلَا نَفْيًا » . وقال لمرأته هي زوج الرجل ، والرجل هو زوجها . وقد يقال للثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضريين والصغيفين وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعالى : « وَأَنبَتْنَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعًا » أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكل زوج من النبیاج یلےه • أبو قدامة عجبُ بذلك معا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « اثنين » تأكيد . « وَأَهْلَكَ » أى وأحمل أهلك . « ( إِلَّا مِنْ سَبَقٍ ) » . من في موضع نصب بالاستثناء . « ( عَلَيْهِ الْقَوْلُ ) » منهم أى بالهلاك ؛ وهو أبنة كتمان وأمرأته وأبلة كانا كافرين . « ( وَمَنْ آمَنَ ) » قال الضحاك وابن جریر : أى أحمل من آمن بى ، أى من صدقك ؛ فـ « مَنْ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « ( وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ) » قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنیه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كاتين له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليوم تدعى قرية التمانين بتاحية الموصل . وورد في خبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجه خيراقي عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عتيبة وابن جریر ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام أمرأته في السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده أناسهم ، وأنهم حينما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كاتين وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة في دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .



قوله تعالى : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّبْنَاهَا نُفْرَسْنَاهَا إِنْ رَبِّي  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ  
وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنًا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾  
قَالَ سَافِرِي إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ  
اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ  
يَا نُوحُ ابْلغِ مَاءَكِ وَيَسْمَاءَ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ  
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ) أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ؛  
ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب الملق على ظهر الشيء . ويقال : ركبته الدين .  
وفي الكلام حذف ؛ أي اركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى اركبوها . و « في » للتأكيد  
كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقائدة « في » أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها  
لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ،  
واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم ؛ فذلك ستة أشهر ؛ وقاله قتادة وزاد ؛ وهو يوم  
عاشوراء ؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر  
الطبري في هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب في السفينة أول يوم في رجب ،  
وصام الشهر أجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، فبقيت أرسى على الجودي ، فصامه  
نوح ومن ومعه . وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة ؛  
ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الفرق فلم يثقلها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ،  
ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه .

قوله تعالى : ( بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيَا وَفُرْسَاهَا ) قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم  
فهما إلا من شذ ، على معنى بسم الله إجرأها وإرساؤها ، فُجْراها وفُرساها في موضع رفع



بِالْإِسْتِدَاءِ ، وَيُجِزُّ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ ، وَيَكُونُ التَّغْدِيرُ : بِسْمِ اللَّهِ وَقْتُ إِجْرَائِهَا  
 ثُمَّ حَذَفَ وَقْتُ ، وَأَقِيمَ « بِجَرَاهَا » مَقَامَهُ . وَقُرْأَ الْأَعْمَشُ وَحِزَّةً وَالْكَسَانِيُّ « بِسْمِ اللَّهِ بِجَرِيهَا »  
 بَفَتْحِ الْمِيمِ وَ « مُرْسَاهَا » بِضَمِّ الْمِيمِ . وَرَوَى يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَابٍ  
 « بِسْمِ اللَّهِ بِجَرَاهَا وَمُرْسَاهَا » بَفَتْحِ الْمِيمِ فِيهِمَا ، عَلَى الْمَصْدَرِ مِنْ بَرَتْ تَجْرَى جَرِيًا وَيَجْرَى ،  
 وَرَسَتْ رُسُومًا وَمَرَسَى إِذَا نَبَتَ . وَقُرْأَ بِجَاهِدٍ وَسُلَيْمَانَ بْنِ جُنْدُبٍ وَعَاصِمَ الْجَعْفَرِيَّ وَأَبُو رَجَاءَ  
 الْعُطَايِدِيَّ « بِسْمِ اللَّهِ بِجَرِيهَا وَمُرْسَاهَا » نَسَبَ اللَّهُ عَنْ وَجَلٍ فِي مَوْضِعٍ جَرٍ . وَيُجِزُّ أَنْ يَكُونَ  
 فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأً ، أَيْ هُوَ بِجَرِيهَا وَمُرْسَاهَا . وَيُجِزُّ النَّصَبُ عَلَى الْحَالِ . وَقَالَ  
 اللَّضْحَاكُ : كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ بِجَرَاهَا بَرَتْ ، وَإِذَا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ مُرْسَاهَا  
 رَسَتْ . وَرَوَى مَرْوَانَ بْنَ سَالِمٍ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ اللَّهَ بْنَ كَرِيزٍ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَمَّا لَأَمْتِي مِنَ الْفِرْقِ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ  
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » « بِسْمِ اللَّهِ بِجَرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وَفِي هَذِهِ  
 الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى ذِكْرِ الْبَسْمَلَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ كُلِّ فِعْلٍ ، كَمَا بَيَّنَّا فِي الْبَسْمَلَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . ( إِنَّ رَبِّي  
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) أَيْ لِأَهْلِ السَّفِينَةِ . وَرَوَى عَنْ أَبِي عُبَيْسٍ قَالَ : لَمَّا كَثُرَتْ الْأَرْوَاحُ وَالْإِفْتِنَاءُ  
 فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ يَنْزِلَ الْفَيْلَ ، فَوَقَعَ مِنْهُ خَيْرٌ وَخَيْرَةٌ فَأَقْبَلَ عَلَى الرُّوحِ ، فَقَالَ نُوحٌ :  
 لَوْ غَمَزْتُ ذَنْبَ هَذَا الْخَلْقِ لَفَعَلْتُ ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَأَرَوْا فَارَةً فَلَمَّا وَقَعَا أَقْبَلَ عَلَى السَّفِينَةِ وَجَاهِلًا  
 تَقَرُّضًا ، وَتَقَرُّضُ الْأَمْتَةِ وَالْأَزْوَادِ حَتَّى خَافُوا عَلَى حِبَالِ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ أَسْمَحَ  
 جِبَةَ الْأَسَدِ لِمَسْحِهَا ، فَخَرَجَ مِنْهَا سِتُورَانِ فَأَكَلَا الْفَتْرَةَ ، وَلَمَّا حَمَلَ الْأَسَدُ فِي السَّفِينَةِ قَالَ :  
 يَا رَبِّ مَنْ أَيْنَ أَطْعَمُهُ ؟ قَالَ : سَوْفَ أَشْفِيهِ ، فَأَخَذَتْهُ الْحُمَّى ، فَهُوَ الْدَّهْرُ مَحْمُومٌ . قَالَ أَبُو عُبَيْسٍ :  
 وَأَوَّلُ مَا حَمَلَ نُوحٌ مِنَ الْبَهَائِمِ فِي الْفَلَكَ حَمَلَ الْأَوْزَةِ ، وَأَتَتْهُمَا حَمَلَ الْحِمَارِ ، قَالَ : وَتَعَلَّقَ  
 الْإِنْسَانُ بِذَنْبِهِ ، وَيَدَاهُ قَدْ دَخَلَتَا فِي السَّفِينَةِ ، وَرَجُلَاهُ خَارِجَتَا بِعِيدٍ ، فَعَمِلَ الْخَلْقُ بِضَرْطِهِ



ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : أدخل وراك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : أدخل وراك ! وإن كان ملك الشيطان ؛ كلمة زلت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يقف في السفينة ، فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟ ! قال : أنت أذنت لي ؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فانرج . قال : مالك بد في أن تجلتي معك ؛ فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام نحرزان مضيئان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . ابن عباس : إحداهما بيضاء كياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه ؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ( وَيَمْ تَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ) الموج جمع موجة ؛ وهي ما أرفق من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نصت للوج . وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ( وَتَادَى نُوحٌ أَبْنَاهُ ) قيل : كان كافرا وأسمه كتمان . وقيل : يام . ويحوز على قول سيويه « وتادى نوح أبنة » بحذف الواو من « ابنة » في اللفظ ، وأشد<sup>(١)</sup> :

• لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ •

فأما « وتادى نوح أبنة وكان » فقرة شاذة ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنا » لحذف الألف كما تقول : « أبنة » ؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ( وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ ) أي من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن أبنة كان كافرا ، وأنه

(١) الليث للشيخ ، والشاهد في ( كانه ) حيث حذف الواو ضرورة . وقامه :

• إِذَا طَلَبَ الرُّسَيْفَةَ أَوْ زَمِيرٌ •

يصف حار وحش هاتجا يطلب زميته ، وهي أتناه التي يضمها ويجمها ؛ من رسقت الشيء أي جمته . ( شراهد ) سيويه ) .



ظن أنه مؤمن، ولتلك قال له: **(وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ)** وسباق. وكان هلك النداء من قبل أن يستيقن القوم الفرق؛ وقبل رؤية اليأس، بل كان في أول ما قار القنود، وظهرت العلامة لنوح. وقرأ حاصم **(يَا بَنِي أَرْكَبْ مَعَنَا)** بفتح الياء، والباقون بكسرها. وأصل «يا بني» أن تكون بثلاث ياءات، ياء التصغير، وياء الفعل، وياء الإضافة؛ فادغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع؛ هذا أصل قراءة من كسر الياء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء. قال النحاس: أما قراءة حاصم فشككة؛ قال أبو حاتم: يريد يا بنياء ثم يحذف؛ قال النحاس: رأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة. قال أبو جعفر النحاس: ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على أنه يدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا: «يا وَيْلًا» وكذا قال الشاعر:

• فإعجباً من رسلها المتحمل •

فيريد يا بنياء، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جادى عبدا لله في الشبهة. والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف. والكسر على أن تحذف الياء للنداء. والجهة الأخرى على أن تحذف لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: **(قَالَ سَآوِيَ أَي أَرْجِع وَأَنْضِمُ)** (إلى جبل يعصمي) أي يمنعني من الماء فلا أغرق. **(قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)** أي لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار. وأتصّب «حاصم» على التبرئة. ويجوز «لا عاصم اليوم» تكون لا بمعنى ليس. **(إِلَّا مَنْ رَحِمَ)** في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج. ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن حاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:



## على القبايع ونحو الكلا • ح لئى قولى • قاتبا

أى مفتوحا • وقال آخر:

دج المكارم لا تهض لبغيتها • وأقعد فأك أنت الطامم الكاسى

أى المعلوم المكسو • قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون «مَن» فى موضع رفع ؛ بمعنى لا يصم اليوم من أمر الله إلا الزاحم ؛ أى إلا الله • وهذا اختيار الطبري •  
ويحسن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابهِ ، ولا «إلا» بمعنى «لكن» •  
(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ) • بنى بين نوح وأبنيه • (فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) • قيل : إنه كان رابجا على فرس قد بطر بنفسه ، وأعجب بها ؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه : «يا بنى اركب معنا» لما استتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتفتته هو وفرسه ، وحيل بينه وبين نوح ففرق • وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصن فيه من الماء ، فلما فار التنور دخل فيه وأقفل عليه من داخل ، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك •  
وقيل : إن الجبل الذى أوى إليه «طور سيناء» •

قوله تعالى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِي) • هذا مجاز لأنها موات •  
وقيل : جعل فيها ما يميز به • والذى قال إنه مجاز قال : لو قُشَّ كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية حل حسن نظمها ، وبلاغة وصفها ، واشتمال المعانى فيها • وفى الأثر :  
أن الله تعالى لا يخل الأرض من مطر فى طام أو عامين ، وأنه مازل من السماء ماء قط إلا يحفظ ملك موكل به إلا ما كان من ماء الطوفان ؛ فإنه نخرج منه ما لا يحفظه الملك • وذلك قوله تعالى : «إِنَّا لَنَّا طَلْنِي الْمَاءَ حَمَلَتُكُمْ فِي الْبَحَارِ» • بقرت بهم السفينة إلى أن تنهى الأمر ؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وأمر الله الأرض بالابتلاع • يقال : بَلَعَ الماء ، يبلعه مثل منع يمنع ويبلع ببلع مثل حمد يحمده ؛ لعتان حكاهما الكسائى والتفراء • وبالبلوع



الموضع الذي يشرب الماء . قال ابن العربي : اتفق المسلمون على اسمه قد فسر . ما كان في الأرض وما نزل من السماء ، فأمر الله ما نزل من السماء بالإفلاق ، فلم تنص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلُغِي وَغِيضُ الْمَاءِ » . وقيل : ميز الله بين المائين ، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلمته ، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ( وَغِيضُ الْمَاءِ ) أى قص ، يقال : غاض الشيء وغضته أنا ، كما يقال : قص بنفسه وقصه غيره ، ويموز « غيض » بضم النون ، ( وَغِيضُ الْأَمْرِ ) أى أحكم وفرغ منه ، يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أحكم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الفرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صعيد . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الفرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير بل ماتوا بأجلهم . وحكى أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتهما رفعت يديها بأبنيها حتى ذهب بها الماء ، فلورحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي .

قوله تعالى : ( وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أى هلا كالم . الجودى جبل بقرب الموصل ، استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء ، فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكرًا لله تعالى ، وقد تقدم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فطاولت ، وبقى الجودى لم يتناول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه . وبقيت عليه أعوادها . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة » . وقال مجاهد : شاخت الجبال وطلاولت لتلاينها الفرق ، فعلا .

( ١ ) أى بإشمام الكرة النجم .



لله فوعلها خمسة عشر فرسا، وتطامن الجودى، وتواضع لأسر الله تعالى فلم يفرق، وروى  
السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودى أسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل<sup>(١)</sup> :

سُجَّاهُ ثُمَّ سُبَّاهُ بِمَوْدُلِهِ • وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودَى وَالْجُودُ

ويقال : إن الجودى من جبال الجنة، فلهاذا استوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال  
بثلاثة نفر، الجودى بنوح، وطور سيناء بموسى، وجراة بحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لما تواضع الجودى وخضع عز، ولما أرتفع غيره وأستعل ذلك، وهذه سنة  
الله في خلقه، يرفع من ينشع، ويضع من ترفع، ولقد أحسن القائل ،

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ تَخَضَّعَا • مِنَّا إِلَيْكَ فِعْرُهَا فِي فَلَا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت فاقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمى  
العضباء، وكانت لا تُسقى، بل جاء أصرايى على فعوده فسبها، فاشتد ذلك على المسلمين ،  
وقالوا : سُبَّتِ العضباءُ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقا على الله ألا يرفع  
شيئا من الدنيا إلا وضمه " . وخرج سلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قال : " ما قمعت صدقة من ماله وما زاد الله جسدا بغيره إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا  
رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد  
على أحد ولا يفخر أحد على أحد " - ترجمه البخارى .

مسئلة : - نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ ابن  
صاكر فى التاريخ له عن الحسن أن نوحاً أزل رسول بعثه الله إلى الأرض، فذلك قوله  
نصاً : • وَتَقَدَّرَ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا • . وكان قد  
كثرت فيهم المأصي، وكثرت الجبابة وهتوا عتوا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرا  
وعلانية، وكان صريحا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشد ما لقي نوح، فكانوا يدخلون عليه

(١) فيه الحان لأبي بن أبي العتات، وفى (حسين بنوت) : هو زيد بن عمرو، وقيل لودعة بن نوفل . والله  
أعلم .



فيمضونه حتى يترك وقيداً، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيهم ذلك إلا فراراً منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلق رأسه بثوبه، ويجعل أصبعه في أذنيه ليكلم يسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّ دَعْوَتِهِمْ لَتُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ». وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يفتني عليه فإذا أفاق قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال ابن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلق في ليد فيلقى في يسه يرون أنه قد مات، ثم يخرج فبدعهم، حتى إذا بئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني أنظر هذا الشيخ لا يتركك، قال: يا أبت أمكنني من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعي في الأرض فوضعه، فثنى إليه بالعصا فضربه فشجبه شجرة موشحة في رأسه، وسالت السماء، فقال نوح: «رَبِّ قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن بك لك في عبادك خيرة فاهدم وإن بك غير ذلك فصبني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآبسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن، قال: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، أي لا تحزن عليهم، «وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا» قال: يارب وأبى الخشب؟ قال: أغرس الشجر. قال: ففرس الساج حشرين سنة، وكف عن الدعاء، وكفوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه، فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها، فقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: أجعله على ثلاثة صور، رأسه كراس الديك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، ودينه كذب الديك، وأجعلها مطبقة وأجعل لها أبواباً في جنبها، وشأتها بئسر، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأول، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليها،



وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الله معه في الباب الأعلى لضعفها إلا يطاها السواب .

قال الأزهري : إن الله عز وجل بعث ريمًا فجعل إليه من كل زوجين اثنين، من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل فخرهم ، فجعل يضرب يديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفعها بيده في ذنبا ، فن ثم انكسر ذنبا فصار مقفونا وبنا حياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت ففسح على ذنبا فسقط حياؤها ، قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من المهدد زوجين ، فأتت المهددة في السفينة قبل أن تظهر الأرض ، فحملها المهدد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحبه وبه فحفر لها في قفاه قبرا فدفعها فيه ، فذلك الرث الناقع في قفا المهدد موضع القبر ، فذلك ثبات أقبية المهادد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت السجوة من الجنة مع نوح في السفينة " . وذكر صاحب كتاب « العروس » وغيره أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال التجاج : أنا ، فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت محتومة بخاتمي لا تطيري أبدا ، أنت يتفع بك أمي ، فبعث للثراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتس فلغته ، ولذلك يقتل في الحرم ، ودعا عليه بالخوف ، فذلك لا يأت البيوت . وبعث الحمامة فلم تجده فرارا فوقعت على شجرة بأرض سبا فحملت ورقة زيتونة ، ووجبت إلى نوح فلم يعلم أنها لم تستكن من الأرض ، ثم بشها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بواشي الحرم ، فإذا الله قد نصب من مواضع الكعبة ، وكانت طليتها حمراء ، فاختضبت وجلالها ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشرأي منك أن تهب في الطوق في مني ، والخصب في رجلي ، وأسكن الحرم ، فسح يده على عظامها وطوقها ، وروى لها الحرة في وجهها ودعا لها والتريتها بالبركة . وذكر القلي أن الله بعث بعد الثراب



الشُّدُجَ<sup>(١)</sup> وَكَانَ مِنْ جِلْسِ التَّلَاجِ ، وَقَالَ : لَئِكَ أَنْ تَسْفُرَ ، فَأَصْلَبَ لَخْضَةِ وَالْفَرْطَةِ  
فَلَمْ يَرْجِعْ ، وَآخَذَ أَوْلَادَهُ عِنْدَ مَرَمَتِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله تعالى : وَتَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ  
وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُ ابْنُ نُوْحٍ لَيْسَ مِنْ  
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي  
أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ  
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَتَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ) أى دعا . ( فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي )  
أى من أهل الذين وعدتهم أن تصيهم من الفرق ؛ فى الكلام حذف . ( وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ )  
بمعنى الصدق . وقال طبرستان : وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله : « وأهلك » وترك قوله :  
« إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن أبني من أهل » يترك  
على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنة  
فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن أبني من أهل » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال  
أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان ؛  
فأخبر الله تعالى نوحا بما هو مفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال أبنتك ما لم تعلمه  
أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك استعمل نوح أن يسأله . وعنه أيضا ؛ كان  
أبى أمراته . دليله قراءة على « وتادى نوح ابنها » . ( وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ) أى تفضل عليه وخير  
أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالفرق .

(١) الشُّدُجُ كسجج : طائر يفر فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . ( حياة الخليلين ) .



**القائمة - قوله تعالى : ( قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ )** الذين وعظمتهم الله  
النجيم ؛ قاله سعيه بن جبير . وقال الجهمود : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو من  
حلف مضاف ؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب . ( إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ  
صَالِحٍ ) فقرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » أى من  
الكفر والتكذيب ؛ وأخبره أبو عبيد . وقرأ الباقر : « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح  
بمخلف للمضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قَالَ :

تَوَحَّحَ مَا رَأَيْتُ حَتَّى إِذَا أَذْكُرْتُ • فَأَتَا هِيَ إِبْرَاهِيمَ وَإِدْبَارَ

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد . ويعسور  
أن تكون المساء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياي أن أنجي عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال  
الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبه . وكان لنير رشدة ؛ وقاله  
أرضاء جراحه . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان أبه ؛ قلت إن الله أخبر عن  
نوح أنه قال : « إن أبى من أهل » فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان أب  
أمرأته من زوج آخر ؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إن أبى من أهل » ونادى  
نوح أبه « ولا يختلف أهل الكافرين أنه أبه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينه من أهل  
الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ « ثغاثاهما » . وقال ابن جرير : ناداه وهو يحسب أنه  
أبته ؛ وكان ولد على فراشه ؛ وكانت أمراؤه خاتنه فيه ؛ ولهذا قال : « ثغاثاهما » . وقال ابن  
عباس : ما بنت امرأة نبي قط ، وأنه كان أبه لصلبه . وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد  
ابن جبيرة وحميد بن مهران وغيرهم ، وأنه كان أبه لصلبه . وقيل لسعيد بن جبيرة يقول نوح ؛  
« إن أبى من أهل » أكان من أهله ؟ أكان أبه ؟ فسبح الله طوبى لأم قال : لا إله إلا الله !  
حدثت الله عما صلى الله عليه وسلم أنه أبه ، ويقول إنه ليس أبه ! نعم كان أبه ؛ ولكن  
كان مخالفا في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » ؛ وهذا



هو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى بخلافة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفي عنه أنه أبه . وقوله : « نخاتهما » يعني في الدين لا في الفراش ، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فتي ؟ قال : إذا فار التنور ؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور ، فهذه خياتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتي إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا ، كما في الخبر « أولادكم من كسبكم » . ذكره القشيري .

الثالثة - في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه ، قال فلم مالك أنه قد فهمه الناس ؛ فقال مالك : الأديب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخبر خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الأب من الأهل لنة وشرطا ، ومن أهل البيت ؛ فمن وصى لأهله دخل في ذلك أبه ، ومن تضمنه مترله ، وهو في عياله . وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِمَّ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » فسمى جميع من ضمنه مترله من أهله .

الرابعة - ودلت الآية على قول الحسن وبجاهد وغيرهما أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال أخفا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد للفراش وللماهر الحجر » يريد الخفية . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرأ عروة بن الزبير « ونادى نوح أبنا » يريد ابن أمراته ، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه وعن علي رضي الله عنه ، وهي حجة للحسن وبجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة ، فلا ترك المتفق عليها . والله أعلم .



الخامسة - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُعْطِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي لتهلك من هذا السؤال ، وأحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ، أي الآتين . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَمُوتُوا لِلَّهِ أَبْنَاءَ ﴾ أي يحذركم الله وبهاكم . وقيل : المعنى أُرسلت أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوسا من مقام الجاهلين ، ويصله بها إلى مقام العلماء والعارفين ، فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، فشكر الله تفضله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال . ﴿ وَرَحْمَتِي ﴾ أي بالثوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي أعمالا . فقال : « يا نوح أهبط بسلام منا » .

قوله تعالى : قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّمْ سَمْعَتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أي قالت الملائكة ، أو قال الله تعالى له : أهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ، فقد أبتلت الماء وجفت . « بسلام منا » أي بسلامة وأمن . وقيل : بحسنة . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي نعم ثابتة ، مشتق من برك الجبل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، بجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ، على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ، وفي التثنية « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل في قوله : ﴿ وَأَمَّمْ سَمْعَتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيامة ، روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أمم من معك ، وذرية أمم سخطهم . وقيل : « من » للتبويض ، وتكون لبيان الجنس . « وأمم سخطهم » أُرضع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلت زينا وعمرو جالس . وأجاز الفراء في غير القراءة وأما ، وتقديره : ونتمتع أمما . وأعيدت « على » مع



« أم » لأنه معطوف على الكاف من « ملك » وهى ضمير المجرور، ولا يحذف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيويه وغيره . وقد تقدم فى « النساء » بيان هذا مستوفى فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » بالخفض . والباء فى قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها فى موضع الحال ؛ أى أهبط مسأماً عليك . و « مِنَّا » فى موضع جر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نعت للبركات . « وعلى أم » متعلق بما تعلق به « عليك » ؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » فى قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف ؛ لأنه فى موضع جر نعت للأم . و « معك » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ) أى تلك الأنباء ؛ وفى موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ( نُوحِيهَا إِلَيْكَ ) أى لنفث عليها . ( مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ) أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمجوس الآن يذكرونه . وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . ( فَاصْبِرْ ) أى اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . ( إِنَّ الْعَاقِبَةَ ) فى الدنيا بالظفر ، وفى الآخرة بالفوز . ( لِلْمُتَّقِينَ ) من الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَرُمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿١٢﴾ يَبْقَرُمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِى فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَيَبْقَرُمُ اسْتَغْفِرُوا



رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى  
 قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ  
 بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ نَقُولُ  
 إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي  
 بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٩﴾  
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا  
 إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ  
 إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٢﴾ وَتِلْكَ آدَاءُ بَجَدُوا بِمَا نَبَأْتِ  
 بِهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٣﴾ وَاتَّبَعُوا  
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا آدَاءُ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا  
 لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ( وَإِلَى آدَاءُ أَتَاهُمْ هُودًا ) أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا  
 نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : يا أخانيم . وقيل :  
 إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تخدم هذاني « الأعراف »  
 وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم طعان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛  
 وأما الأخرى فهو شئدان ولقمان المذكوران في قوله تعالى : « إِيَّاهُمْ نَبَأْتُ الْإِمَادِ » . وعاد آدم



وجبل ثم استقر على قوم أناسوا إليه . ( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ) بالخفض على اللفظ، و « غَيْرُهُ » بالرفع على الموضع، و « غَيْرُهُ » بالنصب على الاستثناء . ( إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتَرُونَ ) أى ما أنتم فى اتخاذكم لها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : ( يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ) تقدم معناه . والفطرة ابتداء الخلق . ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) تقدم أول السورة . ( يُرْسِلِ السَّمَاءَ ) جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ( عَلَيْكُمْ يَدْرَأَانَا ) نصب على الحال، وفيه معنى التكثير ، أى يرسل السماء بالمطر ستاها يتلو بعضه بعضا ، والعرب تحذف الماء فى مفعال على السبب ، واكثر ما يأتى مفعال من أفعل، وقد جاء هاهنا من قلل ؛ لأنه من ذوت السماء تَدْرَأُ وتَدْرَأُ فهو مدرار . وكان قوم هود أصغر عدا أهل بساتين وزروع وعسارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى « الأعراف » . ( وَزَيَّدْتُمُ ) عطف على يرسل . ( قُوَّةَ إِلَى قُوَّتِكُمْ ) قال مجاهد : شدة على شدتكم . الضحاك : خصباً إلى خصبكم . على بن عيسى : عزاً على عزكم . عكرمة : ولذا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حسبهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ؛ فقال لهم هود : إن أنتم أحبي الله بلادكم وورثكم المال والولد ؛ فذلك الفسوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم . ( وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ ) أى لا تعرضوا عما أدهوكم إليه، وتقموا على الكفر .

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) أى حجة واضحة . ( وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : ( إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَمْرًا كَ ) أى أصابك . ( بَعْضُ الْيَوْنَى ) أى أصابنا . ( يُسْوَ ) أى يحنون لسبب إياها، عن ابن عباس وغيره . يقال : مرأه الأمر واعتراه إذا ألم به . ومنه « وَأَطِيعُوا الْقَانِيعَ وَالْمُعْتَرَّ » . ( قَالَ إِنِّى أَنشِئُ اللَّهُ ) أى على نفسى .



( وَأَشْهَدُوا ) لى واشهدكم ، لانهم كانوا أهل نهادة ، ولكنه نهاية للتفريع ، أى تعرفوا  
 ( أَيْ بَرَى يَمُتُ شَرِكُونَ ) أى من عبادة الأصنام التى تصدونها . ( فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ) أى أتم  
 رواؤناكم فى عداوتى وضرى . ( ثُمَّ لَا تَنْتَظِرُونَ ) أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة  
 الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده  
 يقول لقومه : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبی صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح  
 صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَسْرَئِمَّكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية

قوله تعالى : ( إِنْ يَنْتَظِرُكَ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ) أى رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره .  
 ( مَا مِنْ دَابَّةٍ ) أى حشر تدب على الأرض ، وهو فى موضع رفع بالابتداء . ( إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
 بِنَاصِيَتِهَا ) أى يصرفها كيف يشاء ، ويمنعها مما يشاء ، أى فلا تصلون إلى صرى . وكل ما فيه  
 رُوح يقال له داب ودابة ، والمساء للبالغة . وقال الفراء : مالكتها ، والقادر عليها . وقال  
 القتيبي : فاهرها ، لأن من أخذت ناصيتها فقد قهرته . وقال الضحاك : يحبسها ثم يميتها ،  
 والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشعر فى مقدم الرأس . ونصوتُ الرجل أنصوه نصواً  
 أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ، لأن العرب تستعمل ذلك إذا  
 وصفت إنساناً بالقلّة والخضوع ، فيقولون : ما ناصية فلان إلا يسد فلان ، أى أنه مطيع له  
 يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمضى عليه جزوا ناصيته ليعرف  
 بذلك نفرا عليه ، غاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذى الحكيم فى « نواذر الأصول »  
 قوله تعالى : « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال  
 البعاد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن  
 يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيتهم ، فذلك النور آخذ بنواصيتهم ، يحريم  
 إلى أعمالهم المقطرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض  
 بخمسين ألف سنة ، رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » . ولهذا



قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصي ، وأيقنوا أن جميع خلقه متفادون بتلك الأنوار إلى ما قد بصره فيهم من الأعمال ، فأوفهم حظا من الملاحظة أقوام في العزم ، ولذلك ما قوى هود النبي صل الله عليه وسلم حتى قال : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْتَصِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصت وبرزت من غيب النيب فصارت منصوبة في المقادير ، قد تخذ بصرا الخالق في جميع حركات الخلق بقدره ، ثم وضعت حركات كل من دب على الأرض حيا في جهته بين عييه ، فسمى ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدر ، فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبي جهل فقال : « نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ » . يخبر أن النواصي فيها كاذبة خاطئة ؛ فعل سبيل ما تأولوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . ( إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) قال النحاس : الصراط في اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جل ثناؤه وإن كان يقدّر على كل شيء فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل في تدبيره ، ولا تفاوت في خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ( فَإِنْ تَوَلَّوْا ) في موضع جرم ؛ فلذلك حذف منه النون ، والأصل تَوَلَّوْا ، فحذفت التاء لاجتماع تامين . ( فَقَدْ أَبْلَقْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ) بمعنى قد بينت لكم . ( وَيَسْتَخِيفُ رَبِّي قَوْمًا فَيُفَرِّقُهُمْ ) أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويسبدونه . « وَيَسْتَخِيفُ » مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو مقطوف على ما يجب فيما بعد التاء من قوله : « فَقَدْ أَبْلَقْتُكُمْ » . وروى عن حفص عن حاصم « وَيَسْتَخِيفُ » بالجرم حلا على موضع التاء وما بعدها ؛ مثل « وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : ( وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا ) أي تسولكم وإعراضكم . ( إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ) أي لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ؛ فهو يحفظني من أن تسألوني بسوء .



قوله تعالى : ( وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ) أى عنايتنا بهلك عاد . ( نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رِجْعَةَ مَتَا ) لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة . وفي صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن نجي أحدا منكم عمله " قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتخمدني الله برحمته " . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن يتألم الهدى الذى هو وحشة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ( وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ مَتَابِ غِلْظٍ ) أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح المقيم كما ذكر الله في « الناريات » وغيرها وسياق . قال القشيري أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضر نجي الله منه النبي والمؤمنين معه ؛ نعم ! لا يبعد أن يتل الله نيا وقومه فيعصمهم ببلاده فيكون ذلك عقوبة للكافرين ، وتنجيصة للمؤمنين ، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ( وَتِلْكَ آيَاتُ ) ابتداء وغير . وحكى الكاسى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله أسماء لليلة . ( بَنَحْنَاهُ يَوْمَ رَجَبٍ ) أى كذبوا بالمعجزات وأنكروها . ( وَعَصَوْا رُسُلَهُ ) يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ؛ وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا يحث لو أرسل إليهم ألف رسول لمجدوا الكل . ( وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) أى أتبع سقاطهم رؤسائهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والسود والعنيد والمعاند للمعارض بالخلاف . ومنه قيل للمرق الذى يتفجر بالدم عائد . قال الرازي :

• ائى كيرُ لا أطيقُ العُنْدُ •

قوله تعالى : ( وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنَّا ) أى ألحقوها . ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ) أى واتبوا يوم القيامة مثل ذلك ؛ فالتزام كل قوله : • • ويوم القيامة • • ( أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا



رَبِّهِمْ ﴿ قَالَ الْفَرَسَاءُ : أَيْ كَفَرُوا نِعْمَةً رَّبِّهِمْ ؛ قَالَ : وَيَقَالُ كَفَرْتَهُ وَكَفَرْتَ بِهِ ، مِثْلُ شُكْرِهِ وَشُكْرَتِهِ لَهُ . ( أَلَا بَعُدْنَا لِمَا دَعَا قَوْمُ هُودَ ) أَيْ لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَابْعُدِ الْمَلَائِكَةَ . وَابْعُدِ التَّبَاعِدَ مِنَ الْخَيْرِ . يُقَالُ : بَعُدَ يَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ . وَبَعْدَ يَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا هَلَكَ ؛ قَالَ : لَا يَبْعُدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ \* سَمِ الْمُدَّةُ وَأَفَّةُ الْجُزْرِ

وقال النابغة :

فَلَا تَبْعُدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَلٌ • وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلٌ  
قوله تعالى : وَإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَإِلَى تَمُودَ ) أَيْ أَرْسَلْنَا إِلَى تَمُودَ ( أَخَاهُمْ ) أَيْ فِي النَّسَبِ . ( صَالِحًا ) . وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ « وَإِلَى تَمُودَ » بِالتَّنْوِينِ فِي كُلِّ التِّرَاثِ ؛ وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ الْحَسَنِ . وَأَخْتَلَفَ سَائِرُ الْقُرَّاءِ فِيهِ فَصَرَفُوهُ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَصْرِفُوهُ فِي مَوْضِعٍ . وَزَمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ لَوْلَا خِلَافَةُ السَّوَادِ لَكَانَ الْوَجْهَ تَرَكَ الصَّرْفَ ؛ إِذْ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَيْهِ التَّانِيثُ . قَالَ النُّحَاسُ : الَّذِي قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّانِيثُ كَلَامٌ مُرَدُّ ؛ لِأَنَّهُ تَمُودَا يُقَالُ لَهُ حَيٌّ ؛ وَيُقَالُ لَهُ قَبِيلَةٌ ، وَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْقَبِيلَةُ ، بَلِ الْأَمْرُ عَلَى ضِدِّ مَا قَالُ عَنْهُ سَيُوبَةُ . وَالْأَجُودُ عَنْهُ سَيُوبَةُ فَمَا لَمْ يُقَلَّ فِيهِ بَنُو فُلَانٍ الصَّرْفُ ؛ نَحْوُ قُرَيْشٍ وَثَقِيفٍ وَمَا أَشْبَهَهُمَا ، وَكَذَلِكَ تَمُودَ ، وَالْمَلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّذْكِيرُ الْأَصْلَ ، وَكَانَ يَقَعُ لَهُ مَذْكَرٌ وَمَوْثٌ كَانَ الْأَصْلُ الْأَخْفَ أَوَّلَى . وَالتَّانِيثُ جَيِّدٌ بِالْعِزِّ حَسَنٌ . وَأَنْشَدَ سَيُوبَةُ فِي التَّانِيثِ  
قَلْبَ الْمَسَامِيحِ الْوَلِيدُ تَمَاحَةً • وَكَفَى قَنْرِيشَ الْمُضِلَّاتِ وَمَادَهَا

(١) تقدم شرح البيت في هامش ج ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعدي بن الزراع يمدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك حرف قريش حلاط بن حنيفة ؛  
بصرف لها أكثر ما صرف لأخيه سعدا لما تعد له ؛ وطلب ذلك عليا . (شواهد حقايق) .



الثانية - قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدم .  
 ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتداء خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض  
 على ما تقدم في « البقرة » و « الأنعام » وهم منه . وقيل : أنشأكم في الأرض . ولا يجوز  
 إدغام الماء من « غيره » في الماء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج .  
 ﴿ وَاسْتَمَرَّكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم تمسكها وسكانها . قال مجاهد : ومعنى « استمركم » أعمركم  
 من قوله : أعمار فلان فلانا داره ؛ فهي له عمرى . وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين  
 القولين تكون استعمل بمعنى أفل ، مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : أطال  
 أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثمانية إلى ألف . ابن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم :  
 أمركم بمجارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى المحكم  
 عمراتها من الحرث والفرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة - قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية : الاستمرار طلب المارة ،  
 والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضي أبو بكر : تأتي كلمة استعمل في لسان  
 العرب على معان ؛ منها ؛ استعمل بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أى طلبت منه حلافا ؛  
 وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر أعتقدته سهلا ، أو وجدته سهلا ،  
 واستعملته أى أعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت ، كقولهم : استعملته  
 أى أصبته جيذا ؛ ومنها بمعنى فعل ؛ كقوله : قر في المكان واستقر ؛ وقالوا وقوله :  
 « يستهزون » و « يستسخرون » منه ؛ فقوله تعالى : « استمركم فيها » خلقكم لمبارتها ،  
 لا على معنى استجدته وأستهبه ؛ أى أصبته جيذا سهلا ، وهذا يستحيل في الخلق ، فيرجع  
 إل أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يبرهن الشيء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلب  
 من الله تعالى لمبارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه استدعى



ممارتها فإنه جاء بلفظ أستعمل، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا،  
وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [ رغبة <sup>(١)</sup> ] .

قلت: لم يذكر أستعمل بمعنى أفضل، مثل قوله: استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه؛ وهي:  
الرابعة - ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »  
في السكنى والرقبة. وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال: أحدها - أنها تملك للمناخ  
الرقية حياة المَعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبات المَعْمَر رجعت إلى الذي أعطاه أو لورثته؛  
هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط والليث بن سعد، وهو مشهور منذهب مالك، وأحد  
أقوال الشافعي، وقد تقدم في « البقرة » حجة هذا القول . الثاني - أنها تملك الرقية ومناها  
وهي هبة مبنولة <sup>(٢)</sup>؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حي وأحمد  
ابن حنبل وابن شبرمة وأبي عبيد؛ قالوا: من أعمر رجلا شيئا فهو له حياته، وبعد  
وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبته، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم قال: « العمرى جائزة » و« العمرى لمن وُجبت له » . الثالث - إن قال  
عُمرَكَ ولم يذكر العقب كان كالقول الأول، وإن قال لمقبك كان كالقول الثاني؛ وبه قال  
الزهري وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روى عن مالك؛ وهو  
ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه ومن أصحابه أنها ترجع إلى المَعْمَر؛ إذا انقضى  
عقب المَعْمَر؛ إن كان المَعْمَر حيا، وإلا فإلى من كان جانا ورثته، وأولى الناس  
بميراثه . ولا يملك المَعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقية شيء من الأشياء،  
وإنما يملك بلفظ العمرى المضممة دون الرقية . وقد قال مالك في الحبس أيضا: إذا حبس  
على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بينه حياته رجح إليه، وكذلك  
العمرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

(١) الزيادة من ابن العربي . (٢) راجع ١ ص ٢١٢ طبة ثانية أر ٢٢٤ . (٣) طبع ١

ص ٢٩٩ وما بعدها طبة ثانية أر ٢٢٤ . (٤) مبنية . مائة خميدانية للمصنف ٢٠



عليه وسلم قال : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَتَمَّرَ رَجُلًا غُمِرَى لَهُ وَلَعِقَبِهِ فَقَالَ قَدْ أُعْطِيَتْكُمَا وَعَقَبُكَ مَا بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَإِنَّمَا لَمْ يُعْطِيَهَا وَأَنَّمَا لَا تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَعْطَى عَطَاءَ وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ » . وعنه قال : إِنْ الْعَمْرَى الَّتِي أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ : هِيَ لَكَ وَلَعِقَبِكَ ، فَمَا إِذَا قَالَ : هِيَ لَكَ مَا عِشْتَ فَإِنَّمَا تَرْجِعْ إِلَى صَاحِبِهَا ؛ قَالَ مَعْمَرٌ : وَبِذَلِكَ كَانَ الزَّهْرِيُّ يَقِي .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثاني ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَأَسْتَمْعِرْكُمْ » بمعنى أَعْمِرْكُمْ ؛ فأَعْمَرَ الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجليل والثناء الحسن ، وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لها حياة وموت . وقد يقال : إِنْ الثناء الحسن يجرى بجرى العقاب . وفي التزييل : « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أَيْ ثَنَاءً حَسَنًا . وقيل : هو عهد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِهِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أَيْ سَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴾ أَيْ أَزْجِعُوا إِلَىٰ عِبَادَتِهِ . ﴿ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ أَيْ قَرِيبُ الْإِجَابَةِ لِمَنْ دَعَاهُ . وقد مضى في « البقرة » عند قوله : « فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ » القول فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقُومُونَ لَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَهَاتِنِي مِنْهُ رَحْمَةً مِّن يُّنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ مُخْسِرٍ ﴿٧٨﴾ وَيَقُومُونَ هَلِيلِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكَ آيَةٌ فَلَرُدُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا



يَسْأَلُونَ فَيَأْخُذْكَ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ أَنْ رَبُّكَ هُوَ أَتَقْوَىٰ الْعَزِيزُ ﴿١٨﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿١٩﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ آلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ آلَا بَعْدُ لَتَمُودَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ) أى كانوا يرجون أن تكون فينا سيدنا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوة . وقيل كان صالح يبيع المثلهم ويشترها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجائنا منك . ( أَتَيْنَاهَا ) استفهام معناه الإنكار . ( أَنْ تَعْبُدَ ) أى عن أن تعبد . ( مَا كَانَ بِعَبْدِ آبَائِنَا ) فإن في محل نصب بإسقاط حرف الجر . ( وَإِنَّا لَنَاقِلُ شَكَّ ) وفي سورة « إبراهيم » « وإنا » والأصل وإنا ، فاستقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ( مِمَّا تَدْعُونَا ) الخطاب لصالح . وفي سورة « إبراهيم » « تدعوننا » لأن الخطاب للرسل . ( إِلَيْهِ مُرِيبٌ ) من أربته فانا أربيه إذا علت به فعلا يوجب لديه الرية . قال المذلل :

كُنْتُ إِذَا أَوْتُهُ مِنْ قَبْلِ . نَيْمٌ حِطْفِي وَيَسْرُ قَوِي  
كَأَنَّمَا أَرَبُّهُ رَبِّي .

قوله تعالى : ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَنِّي مِنهُ رَحْمَةٌ ) هذم معناه في قول نوح . ( لَقَدْ يَنْصَرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ) استفهام معناه النفي ، أى لا ينصرني منه إن عصيته أحد . ( لَمَّا تَرَىٰ دُونِيَ فَتَرْتَمِجَنِي ) أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفراء :

(١) مرطبه بن نصر المذلل قال السان : ومعدايت الأول .

• انقسم ما رواه في

(٢) (مترجم) : ١٠٠٠٠٠٠



والتحريم لم يلا له صلى الله عليه وسلم؛ فكانه قال : غير تحريم لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تريدونى باحتجاجكم بدين آباءكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ( وَيَأْتِيهِمْ هَذِهِ نَافَّةُ اللَّهِ ) ابتداء وخبر . ( لَكُمْ آيَةٌ ) نصب على الحال ، والماعل معنى الإشارة أو التنبية فى « هذه » . وإنما قيل نافاة الله؛ لأنه أخرجها لم من جبل - على ما طلبوا - على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من محفرة صماء منفردة فى ناحية البحر يقال لها الكاثية ، فلما خرجت النافاة - على ما طلبوا - قال لهم صالح : « هذه نافاة الله لكم آية » . ( فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ) أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذّر ولا واذر إلا شاذ . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيويه : استغنوا عنه بترك . وقال غيره : لما كانت الروا ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمعنى لا واو فيه النوى ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . ( وَلَا تَمْشُوا ) جزم بالنهى . ( يُسَوِّرْ ) قال اللغزاء ، يقر . ( يَاخُذْكُمْ ) جواب للنهى . ( عَذَابٌ قَرِيبٌ ) أى قريب من عقربها . قوله تعالى : ( فَتَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتُّوْا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ) فيه مستلطان :

الأول - قوله تعالى : ( فَتَقَرُّوْهَا ) إنما عقربها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان رضا الباقين . وقد تقدم الكلام فى عقربها فى « الأعراف » . وبقى أيضا . ( فَقَالَ تَمَتُّوْا ) أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . ( فِى دَارِكُمْ ) أى فى بلدكم ، ولو أراد المثل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وصبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشئ ؛ فمقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن الفصل رعا ثلاثا على ما تقدم فى « الأعراف » . فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول ، ثم أحمرت فى الثانى ، ثم أسودت فى الثالث ، وهلكوا فى الرابع ؛ وقد تقدم فى « الأعراف » .



الثانية : استدلت علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يجتمع على إقامة أربع ليالٍ قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدم في « الفناء » ما للملأ في هذا .

قوله تعالى : ( ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ) أى غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .  
قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ) أى عذابنا . ( فَجَعَلْنَا صَالِحًا وَلَئِيمًا ) أى من فضيعته وذله .  
تقدم . ( وَمِنْ حَزْزِ يَوْمِئِذٍ ) أى ونجسانهم من حزى يومئذ ؛ أى من فضيعته وذله .  
وقيل : الواو زائدة ؛ أى نجسانهم من حزى يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيويه وأهل  
البصرة ، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لما » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكشاف :  
« يَوْمِئِذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم ؛  
حتشاً أبو زيد عن أبي عمرو أنه قرأ « ومن حَزْزِ يَوْمِئِذٍ » أدغم الياء فى الياء ، وأضاف ؛  
وكسر الميم فى « يومئذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون — مثل سيويه ومن  
قاربه عن أبي عمرو فى مثل هذا — الإخفاء ؛ فاما الإدغام فلا يجوز ؛ لأنه يلقى ساكناً ،  
ولا يجوز ، كسر الزاى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ أى فى اليوم الرابع صيغ بهم فأتوا ؟  
 وذكر لأن الصيحة والصبح واحد . قبل : صيحة جبريل . وقبل : صيحة من السماء فيما  
 صوت كل صاعقة ، وصوت كل شئ فى الأرض ، فقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا :  
 « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » وقال فى « الأعراف » « فأخذتهم الرجفة » وقد تقدم  
 بيانه هناك . وفى التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم  
 الأمر بقتة ؟ ! قالوا : لا نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورمحهم ومقدم ، وكانوا فيما يقال  
 أثنى عشر ألف فيسلة ، فى كل فيسلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والنفاج .  
 أزعروا يلاقون العذاب ، فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يحجبهم بحزامه



فَأَدْنَاهَا مِنْ رُجُومِهِمْ فَاشْتَوَتْ أَيْسَهُمْ ، وَنَدَلَتْ أَسْفَتَهُمْ عَلَى صُدُورِهِمْ مِنَ الْعَطَشِ ، وَمَاتَ كُلُّ مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْبَهَائِمِ . وَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْفُورُ مِنْ تِلْكَ الْعَيُونِ مِنْ غِلْبَانِهِ حَتَّى يَلِغَ السَّمَاءُ ، لَا يَسْقُطُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكَهُ مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ ، فَمَا زَالُوا كَذَلِكَ ، وَارْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ أَلَّا يَقْبِضَ أَرْوَاحَهُمْ تَعْذِيماً لَمْ إِلَى أَنْ غَرِبَتِ الشَّمْسُ ، فَصَبَحَ بِهِمْ فَأَهْلَكُوا . ( فَاصْبِحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ) أَيِ سَافِلِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، قَدْ لَصِقُوا بِالتُّرَابِ كَالطَّيْرِ إِذَا جَحَّتْ . ( أَلَا إِنَّ مُؤَدَّ كُفْرِهِمْ أَرَبُّهُمْ إِلَّا بَعْدَ يُؤْمَدُ ) تَقْدِمُ مَنَاءَهُ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٥٦﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ يَسْحَاقَ ﴿٥٧﴾ يَعْقُوبَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى ) هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بمذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من قبل عنده يحسن قراه ، وكانوا مروا بشاره إبراهيم ، فظنهم أضيافاً . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، قاله ابن عباس . الضحاك : كانوا تسعة . السدى : أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسن الوجوه ، ذرؤ وضاعة وجمال بارع . ( وَابَشَّرَى ) قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشره بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . ( قَالُوا سَلَامًا ) نصب بوقوع الفعل عليه ، كما تقول : قالوا خيراً . وهذا كتحريك الطبري . وأما قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً » فالثلاثة أسم فهم قوله ، ولو رفعا جميعاً



أو نصباً جميعاً ، قالوا سلاماً قال سلام ، جاز في العربية . وقيل : انتصب على المصدر .  
 وقيل : « قالوا سلاماً » أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون  
 قالوا سلاماً » أي صواباً ؛ فسلاماً معنى قولهم لا لفظه ؛ قال معناه أبنت العربي وأخترته .  
 قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بينه فقال خبراً عن الملائكة به سلام  
 عليكم بما صبرتم ، « سلام عليكم طيبه » . وقيل : دَعَا لَهُ ؛ والمعنى سَلِمَتْ سَلَامَةً . ( قال  
 سلام ) في رفعه وجهان : أحدهما - على إضمار مبتدأ أي هو سلام ، وأمرى سلام .  
 والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية ؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة  
 استعماله ، فحذف الألف واللام كما حذف من لا هم في قولك اللهم - وقرئ « وسلم » قال  
 للفراء : السَّلْمُ وَالسَّلَامُ بمعنى ؛ مثل الحِلِّ والحِلَالِ .

قوله تعالى : ( قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِمِثْلِ حَنِيزٍ ) فيه أربع عشرة مسألة ١١٧

الأولى - قوله تعالى : ( قَالَتْ أَنْ جَاءَ ) « أن » بمعنى حتى ؛ قاله صكرته  
 النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فإبت حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع  
 نصب يسقط حرف الجر ؛ التقدير : فإبت عن أن جاء ؛ أي ما أبطل عن مجيئه بسجل ؟  
 فلما حذف حرف الجر بقى « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير أم إبراهيم .  
 و « ما » نافية ؛ قاله سيوريه . وقال الفراء : فإلبث مجيئه ؛ أي ما أبطل مجيئه ؛ فإن  
 في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي .  
 وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي والذي لبث إبراهيم هو مجيئه بسجل  
 حنيز . و « حنيز » مشوي . وقيل : هو المشوي بمزاج حارة من غير أن تسمه النار .  
 يقال : حنّذت الشاة حينئذها حنّذاً أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة مُمْتَاة لتضجها فهي  
 حنيد . وحنّذت الفرس حينئذها حنّذاً ، وهو أن تحيضر شوطاً أو شوطين ثم تظاهر عليه  
 بالحلال في الشمس ليعرق ، فهو يحنّوذ وحنيد ؛ لأن لم يعرق قبل كما ؛ وحنّذ موضع قريب

(١) كما في الأصل والمائل المذكورة من الآية ٧١ و٧٢ أيضاً لا في هذه الآية حسب .



من المدينة . وقيل : الحنيد السيمط . ابن عباس وغيره : حنيد نصيج . وحنيد بمعنى محنود؛ وإنما جاء بسجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية - في هذه الآية من أدب الضيف أن يُجَلَّ قِراءه ، فيقدم الموجود الميسر في الحال ، ثم يتبعه بغيره إن كان له جَدَّة ، ولا يتكلف ما يضر به . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أول من أضاف حل ما تقدم في « البقرة » وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فساكن وراء ذلك فهو صدقة » . والجائزة العطية والصلة التي أصلها على التنب . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعاً ، فالضيافة مثله . والله أعلم . ونذهب إليّ وجوبها تمسكاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « ليلة الضيف حق » إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيها إشارة إليه كفاية ، والله الموفق لهديته . قال ابن العربي : وقد قال قوم : إن وجوب الضيافة كان في صدر الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبي سعيد الخدري نَحْرَهُ الأئمة ، وفيه : « فاستضافهم فأبوا أن يضيفوا فلدغ سيد ذلك الحية » الحديث . وقال هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لآلَمَ النبي صلى الله عليه وسلم لقوم الذين أبوا ، ولَيِّنَ لهم ذلك .

الثالثة - اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْتُون : إنما الضيافة على أهل القرى ، وأما الحضر فالفندق يتزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة على أهل الوبَر وليست على أهل المَدَر » . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أنس عبد الرزاق متروك الحديث ملسوب



إلى الكتب ، وهذا مما أغرد به ، ونسب إلى وضعه ، قاله أبو عمر بن عبد البر . قال  
أبن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى  
حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ، ولا شك أن  
الضييف كريم ، والضيافة كرامة ، فإن كان غريبا فهي فريضة .

الراحة - قال أبن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب  
من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياص في موضع النقل ، من أين علم  
أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ، جبريل وميكائيل وإسرافيل  
صلى الله عليهم وسلم ، وعجل الثلاثة عظيم ، فما هذا التفسير لكتاب الله بالرائى ؟ ! هذا بامانة  
الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة - السنة إذا قُدِّم للضييف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل ، فإن كرامة  
الضييف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ، فلما قبضوا أيديهم نكرم  
إبراهيم ، لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون ورامهم مكروه يفصدونه .  
وروى أنهم كانوا يَنْكُتُونَ بِقِدَاحٍ <sup>(١)</sup> كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما  
رأى ذلك منهم " نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً " أى أضمر . وقيل : أحسن ، والرجوس  
الدخول ، قال الشاعر :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يُحِبُّ به • فأوجس القلبُ من قرطاسه جَزَعًا

« خيفة » خوفاً ، أى نزعا . وكانوا إذا رأوا الصيف لا يأكل ظنوا به شرا ، فقالت الملائكة  
( لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ) .

السادسة - من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم  
لا ؟ وذلك ينبغى أن يكون بتلفت ومصارفة لا بتعديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قِدَاح (جمع قِدَح بالكسر) : السهم قبل أن يصل ويرى م



سليان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شجرة فقال له: أزل الشجرة عن لفتك، فقال له: أنتظر إلى نظر من يرى الشجرة في لفتي ٢! والله لا أكلت منك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وَلَسْتُ غَيْرُ مَنْ [زيارة<sup>(١)</sup>] باخل • يلاحظ أطراف الأكل على عمد

السابعة - قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم؛ تقول: نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهده، قال الشاعر:

وَأُنْكِرْتَنِي وَمَا كَانَتِ الدِّيَارُ نَكِرْتُ • من الحوادث إلا الشيب والصَّلَامَا  
بجمع بين اللتين. ويقال: نكرت لما تراه بيبك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ أبتهاء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصلي. وفي قراءة عبد الله بن مسعود « وأمرأته قائمة وهو قاعد ».

التاسعة - قوله تعالى: ﴿ فَصَحَّحَتْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللقويون:

وإني لآتي العرس عند طهورها • وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكاً

وقال آخر،

وَصَحَّحْتُ الْأُرَابَ فَوْقَ الصَّفا • كتيل دم الجسوف يوم اللقا

والعرب تقول: صحكت الأرب إذا حاضت؛ وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة: أخذ من قولهم: صحكت الكافورة - وهي فترة الطلعة - إذا انشقت. وقد أنكر بعض اللقويين أن يكون في كلام العرب صحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التمتع؛ قال أبو ذؤيب

(١) كذا في نسخة أخرى، وفي الأصول (زيارة) - (٢) البيت لا نص.



لجأة بمنزج لم ير الناس مثله . هو الضحك إلا أنه عمل التعليل

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ، ووعده من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشة وخدعه ؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيش في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ؛ قال الفراء ؛ لم أسمعه من ثفة ؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل ، فقام من موضعه فلقى بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم ، فذلك قوله : « وأمرأته قائمة » أي قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروح إبراهيم « فضحكت » لفسولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تهديم وتأخير ؛ المعنى : فبشرتها بإسحق فضحكت ؛ أي ضحكت سرورا بالولد ، وقد هيرت ؛ والله أعلم أي ذلك كان . قال الناس فيه أقوال : أحسنها - أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلما قالوا لا تخف ، وأخبروه أنهم رُسل ، فرح بذلك ، فضحكت أميراته سرورا بفرحه . وقبل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سيقبل بهم غناب فقم لوطا إليك ؛ فلما جاءت الرسل بما قالته سرّرت به فضحكت ؛ قال الناس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك أنكتشاف الأسنان . ويموز أن يكون الضحك إشراق الوجه ؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا ؛ أي مشرقا ، وأتيحت على روضة تضحك ؛ أي مشرقة . وفي الحديث :<sup>(١)</sup> « إن الله يبعث السحاب فيضحك أحسن الضحك » . جعل أنجلاء من البرق ضحكا ؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قواء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي « فضحكت » بفتح الحاء ؛ قال المهدي : وفتح « الحاء » من « فضحكت » غير معروف . وضحك يضحك ضحكا وضحكا [وضحكا<sup>(٢)</sup>] أربع لغات . والضحكة المرة الواحدة ، ومنه قول كثير<sup>(٣)</sup> : غلقت لضحكته رقاب المسال .

قاله الجوهري :

(١) وفسر الضحك هنا بالسرور أو التهنيد . راجع السان مادة (ضحك)

(٢) عمر الرداء إذا تيسر ضاحكا .

(٣) صدر البيت :

(١) التريادة من كتب اللغة :



الساخرة - وروى مسلم عن سهل بن محمد قال : دعا أبو أيوب الساعدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرمه ، فكادت أسفاته يومئذ خادمهم وهى العروس . قال سهل : لقدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أغضت له ثمرات من الليل في تورء<sup>(١)</sup> فلما أكل صغته إياه . وأخرجه البخارى وترجم له . باب قيام المرأة على الرجل في العرس وخدمتهم بالنفس . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في حرمها . وفيه أنه لا بأس أن يمرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهم لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة - ذكر الطبرى أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل قالوا : لا تأكل طعاما إلا بئس قال لهم : نعم أن تذكروا الله في أذله وتحمده في آخره . فقال جبريل لأصحابه : بحق أخذ الله هذا خلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يتر الله للملائكة أن يتشكروا في صفة الآدى جسداً وهيئة أن يشر لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدى وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة<sup>(٢)</sup> حتى إذا رأى التوقف وخاف جامته البشرى بخاة<sup>(٣)</sup> .

الثانية عشرة - سدد<sup>(٤)</sup> هذا على أن التسمية في أكل الطعام ، والله في آخره مشروع في الأمم قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه لرجل يطلب من يأكل معه ، فلقى يوماً رجلاً ، فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمع الله ، قال الرجل لا أدري ما أسمع ؟ فقال له : فانخرج عن طعماي ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فرحاً بجزائه . وقال : أرجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم ترقى لنفسي ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم ، أنت ؛ ودخل وسقى الله وأكل مؤمناً .

(١) التورء : إلقاء شيء في حريم . وهو هنا حرمه وصحبه من سفره جماعة .

(٢) الضيافة : من أين الربى .



الثالثة عشرة - قوله تعالى : ( فَبَشِّرْنَاهُم بِإِسْحَاقَ ) لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر  
تحت سارة أن يكون لها ابن ، وأنت لكبر سنّها ، فبشرت بولده يكون نيا وليد نيا ، فكان  
هنا بشارة لها بأن ترى ولدا ولدها .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ( وَيَمِّنْ وَرَأَاهُ يُعْقَبُ ) قرأ حمزة وعبد الله بن  
عاصم « يعقوب » بالنصب . ورضه الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراءه إسحق  
يعقوب . ويموز أن يرتفع بالفعل الذي يعمل في « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراءه  
إسحق يعقوب . ويموز أن يرتفع بالإنشاء ، ويكون في موضع الحال ؛ أى بشروها بإسحق  
مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب . وأجاز الكسائي  
والأخفش وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » في موضع جر على معنى : وبشرناها من وراء إسحق  
بمعقوب . قال الفراء : ولا يميز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض ؛ قال سيبويه ولوقلت ؛  
مررت بزيد أول من أمس وأمس مجرور كان قيحا ؛ لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه  
وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجاز لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه  
وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَنْتَوِيْلُنِي ٱلْأُذُنُ وَأَنَا۠ عَاجِزٌ وَهَلْكَ بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ  
هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾

فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ( يَا وَيْلَتَا ) قال الزجاج : أصلها يا ويلتي ؛ فأبدل من الياء  
ألف ، لأنها أخف من الياء والكسرة ؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفف  
على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يسجن منه ؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا خروجه  
من العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و( ٱلْأُذُنُ ) استفهام منها العجب ؛  
( وَأَنَا۠ عَاجِزٌ ) أى شيخه . ولقد عجزت تميز عجزا وعجزت تميزا ؛ أى طعنت في السن .  
( ١ ) والوجه عنه ( وأمس مجرور ) .



وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم ، عظمت عجيزتها عجزا وعجزا بضم العين وتضعها . قال مجاهد : كانت بنت ثعلب وتسعين سنة ، وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا .

الثانية - قوله تعالى : ( وَهَذَا بَلَىٰ ) أي زوجي . ( شَيْخًا ) نصب على الحال ، والفاعل فيه التنبية أو الإشارة . « وهذا بلى » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة ابن مسعود وأبي « وهذا حل شيخ » قال الثعالب : كما تقول هذا زيد قائم ، فزيد بدل من هذا ، وقام خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدا « وزيد قائم » خبرين ، وحكى صيبويه : هذا حل حامض . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة ، فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرضت بقولها : « وهذا بلى شيخا » أي من ترك غشيانها لها . وسارة هذه امرأة إبراهيم بنت هارون بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ، وهي بنت حم إبراهيم . ( إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) أي الذي بشرتوني به شيء عجيب . قوله تعالى : قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ لَيْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِأَنْتُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٦﴾

فيه أربع مسائل ،

الأول - قوله تعالى : ( قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ) لما قالت : « وأنا عجوز وهذا بلى شيخا » وتعجب أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أي من فضائه وقدره ، أي لا عجب من أن يرزقك الله الولد ، وهو إسحق . وهذه الآية استدلت كثير من العلماء على أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه آمن من إسحق ، لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتي الكلام في هذا ، وبيان في « الصفات » إن شاء الله تعالى .

(١) في تفسير قوله تعالى : « فالغ سبط النبي » آية ٥٠ : قال قوله تعالى : « حين فرغتم من حورهم »



الثانية - قوله تعالى : ( رَحْمَةً لِّلّٰهِ وَبَرَكَاتٌ ) مبتدأ ، والخبر ( عَلَيْكُمْ ) . وحكي  
سيو به « عليكم » بكسر الكاف لمجاورها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخبارا اشرف ؛  
لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم ؛ المسمى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل  
البيت . وكونه دعاء ؛ إنما يقتضي أنه أمر يُترجى ولم يحصل بعد . ونصب « أهل البيت »  
على الاختصاص ؛ وهذا مذهب سيو به . وقيل على النداء .

الثالثة - هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدل هذا على أن أزواج  
الأنبياء من أهل البيت ؛ فمأثمة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه  
وسلم ؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُظَاهِرُهُمْ نَبِيُّهُمْ » وسأى .

الرابعة - ودلت الآية أيضا على أن منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالحى  
عباده « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة الخو والزادة ؛ ومن تلك البركات أن  
جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسلالة . وروى مالك عن وهب بن كيسان عن  
أبى سعيد عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه  
رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك ؛ فقال  
أبى عباس - وهو يومئذ قد ذهب بصره - من هذا ؟ فقالوا الجمانى الذى يشاك ؛ فمزفه  
أياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن على رضى الله عنه أنه قال : دخلت  
المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى عصابة من أصحابه ، قلت : السلام عليكم ؛  
فقال : « وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشرون لك » . قال : ودخلت الثانية ؛ قلت :  
السلام عليكم ورحمة الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك » .  
فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فقال : « وعليك السلام ورحمة الله  
وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى السلام سواء » . ( إِنْهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ ) أى محمود  
مليح . وقد يتناما فى « الأسماء » .



قوله تعالى : قَلْبًا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَنِّدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَنْتَهِرُ إِبْرَاهِيمُ عَمْرَأَتَ عَن هَذَا إِنْهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ قوله تعالى : ﴿ قَلْبًا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف ؛ قال النابغة :

فارتاع من صَوْتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ ۖ طَوَعَ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدٍ  
﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق ويعقوب . وقال قتادة : بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا ؛ وأضاف إلى نفسه ، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدَب عن حُذَيْفَةَ ؛ وذلك أنهم لما قالوا : « إنا مهلكو أهل هذه القرية » قال لهم : أرايتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا نَحْسُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتَهْلِكُونَهُمْ ؟ قالوا : لا . قال : فأرسلون ؟ قالوا : لا . قال : فقتلون ؟ قالوا : لا . قال : فمضون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة - أو خمسة ذك حميد - قالوا : لا . قال قتادة : نحواً منه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرايتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مُّسْلِمٌ أَتَهْلِكُونَهَا ؟ قالوا : لا . فقال لإبراهيم عنده ذلك : « إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الظَّالِمِينَ » . وقال عبد الرحمن بن سُمَيْرَةَ : كانوا أربعمائة ألف . آبن جريح : وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائي أن « يجادلنا » في موضع « جادلنا » . قال النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضي فجعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه . وفيه جواب آخر - أن يكون « يجادلنا » في موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول القراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ (١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف قناعه نوراً وحشياً بأنه بات من الخوف الذي أدركه عماليد الذي أصابه ميت سوء ، ويحذر على ذلك الحال برأيه .



أَوَاهُ مُنِيبٌ ﴿١١١﴾ هَلُمَّ فِي «رَأْفَةٍ» مَعْنَى «لَا تُؤْزِرْهُم» . وَالْمُنِيبُ الرَّاجِعُ ، يُقَالُ : أَتَابَ إِذَا رَجَعَ . وَإِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا . وَقِيلَ : الْأَوَاهُ الْمُنَازَهَةُ أَسْفَلَ عَلَى مَا قَدَّحَتْ قَوْمُ لُوطٍ مِنَ الْإِيمَانِ .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أَيْ دَعْ هَذَا الْجِدَالَ فِي قَوْمِ لُوطٍ . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ عَذَابُهُ لَمْ . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَأَنبِيَاءٌ ﴾ أَيْ نَازِلُونَ بِهِمْ . ﴿ عَذَابٌ فَرُصَدُودٍ ﴾ أَيْ غَيْرُ مَصْرُوفٍ عَنْهُمْ وَلَا مَدْفُوعٍ .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا إِلَيْهِمْ فَصَاحَ لَهُمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ وَإِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَیْغَةِ الْإِنْسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿١١٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١١٥﴾ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْبَاسُ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَاهَا عَظِيمًا وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ ﴿١١٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيبٍ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا إِلَيْهِمْ ﴾ لَمَّا خَرَجَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَقَرِيْبِهِ لُوطٍ أَرْضُهُ فَرَاحَ بَصَرَتْ بَنَاتُ لُوطٍ - وَهِيَ تَسْتَفِيدَانِ - بِالْمَلَائِكَةِ



معلقا عن حبلهم فقالوا : ما فعلكم ؟ ومن اين انتم ؟ قالوا : من صنع كتاب محمد صلى الله عليه وسلم .  
 فلما : فكان أهلها أصحاب القومحسين ، فقالوا : ألبا من يضيقنا ؟ قالوا : نعم ! هذا الشيخ !  
 وأشارنا إلى لوط ؛ فلما رأى لوط هيتهم خاف قومه عليهم . ( مئى يوم ) أى ساءه عيبتهم ؛  
 يقال : ساء يسوء فهو لازم ، وساء يسوء فهو متعد أيضا ، وإن شئت ضمنت السين ؛ لأن  
 أصلها الضم ، والأصل سؤى بهم من السيء ؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء ،  
 وإن خفت اللزمة ألبت حركتها على الياء فقلت : « مئى يوم » غفغا ، ولغة شاذة بالتشديد .  
 ( وصاق يوم ذرعا ) أى ضاق صدره بعيبتهم وكرهه . وقيل : ضاق وسعه وطاقته . وأصله  
 أن يترع البعير بيديه في سيرة ذرعا على قدر سعة خطوه ؛ فإذا أجل على أكثر من طوفه ضاق  
 من ذلك ، وضعف ومد عقه ؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه  
 الذى أى غلبه ؛ أى ضاق عن حبه المكروه في نفسه ، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من  
 جاحلهم ، وما يعلم من فسق قومه . وقال : ( هذا يوم عيب ) أى شديد في الشر . وقال

الشاعر :

وَأَنْتَ إِلَّا تُرِضَ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ • يَكُنْ لَكَ يَوْمَ الْمَرَايقِ عَيْبٌ

وقال آخر :

يَوْمَ عَيْبٍ يَعْصِبُ الْإِبْطَالَ • عَصَبُ الْقَوِيِّ السَّلْمُ الطَّوَالُ

و يقال : عَصِبٌ وَعَصَبٌ على التكثير ؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب ؛ أى عصب  
 بالشر عصابة ؛ ومنه قيل : عُصْبَةٌ وَعَصَابَةٌ أى مجتمعو الكلمة ؛ أى مجتمعون في أنفسهم .  
 وعَصْبَةُ الرَّجُلِ الْمُتَجَمِّعُونَ مَعَهُ فِي النَّسَبِ ؛ وَتَعْصَبُ لِفُلَانٍ صُرْتُ كَعْصِيته ، وَرَجُلٌ مَعْصُوبٌ ،  
 لى يَجْمَعُ الْخَلْقَ .

قوله تعالى : ( وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ) في موضع الحال . « يهرعون » أى يهرعون .  
 قال الكسائي والقول وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إضراما مع رعدة ؛ يقال :  
 تعصم الرجل إضراما أى أسرع في رحلته من يرد أو غضب أو حتى ، وهو عَصْرٌ ، قال مهمل :



بِخَاءٍ يَمُرُّونَ وَهُمْ أَسَارَى • تَخَوُّعُهُمْ عَلَى رَعِيمِ الْأَنْوَى

وقال أخسر :

• بمجملات نحوه مہارج •

وهذا مثل : أولع فلان بالأمر ، وأرعبد زيد ، وزُجى فلان . ونجى . ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرع أى أهرمه حرصه ، وعلى هذا « يهرعون » أى يستحثون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرع الرجل أى أهرع ، على لفظ ما لم يسم فاعله . قال ابن القوطية : هرع الإنسان هرعاً ، وأهرع : يهيق وأستعجل . وقال الهروي : يقال : هرع الرجل وأهرع أى أَسْتُحِت . قال ابن عباس وقتادة والسدي : « يهرعون » يهرولون . الضحاك : يسعون . ابن عيينة : كأنهم يدفعون . وقال شمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجرى . وقال الحسن : مشى بين مشيين ، والمعنى متقارب . وكان سبب إسرارهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجاهلهم وهيتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فية ما رؤى مثلهم جمالاً ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له . وقيل : وجدوا أبنته تستقي ماء في نهر سدوم ، فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيتهم تخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليهم ، فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ، فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط للشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ( وَمِنْ قَبْلِ ) أى ومن قبل عيسى الرسل . وقيل : من قبل لوط . ( كَانُوا يَسْعَوْنَ السَّيِّئَاتِ ) أى كانت عاداتهم إتيان الرجال . فلما حاموا إلى لوط وقصدوا أضيافه



قام إليهم لوط مدافعا ، وقال : ( هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ) ابتداء وخبر . وقد اختلف في قوله ، « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صلبه . وقيل : بنان ؛ رثيا وزعورا ؛ فقيل : كان لهن سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما أبنتيه . وقيل : نديهم في هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت ستهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عتبة بن أبي لهب . والآخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحى ، وكانا كافرين . وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبير - أشار بقوله : « بَنَاتِي » إلى النساء ؛ جملة ؛ إذ نبي القوم أب لهم ؛ ويقوى هذا أن في قراءة ابن مسعود « التي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إفضاء ؛ روى هذا القول عن أبي عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عكرمة : لم يمرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : ( هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ) ابتداء وخبر ؛ أى أزوجهن ؛ فهو أظهر لكم مما تريدون ، أى أحل . وانتظر انتزعه عما لا يحل . وقال ابن عباس : كان رؤسائهم خطبوا بناته فلم يجبهن ، وأراد ذلك اليوم أن يهدى أضيافه بناته . وليس ألف « أظهر » للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح [ الرجال ] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : أَعْلَى هَيْبَلٍ أَعْلَى هَيْبَلٍ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « قل الله أعلى وأجل » . وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أَطْهَرُ » بالنصب على الحال . و « هن » عماد . ولا يميز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاتنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنت .



قال الزجاج : ويدل بها على أن كان محتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ( فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُوا فِي صُنْيِكُمْ ) أي لا تهينوني ولا تذلقوني . ومنه قول  
احسان :

فانزلك ربى يا عتب بن مالك • ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق  
مددت يميناً للنبي نعمداً • ودبت فام قطعاً بالسوارق  
ويموز أن يكون من الخزاية وهو الحياء ، والنجل ، قال ذو الرمة :  
خزاية أدركته بعد جوائيه • من جانب الجبل مخلوطاً بها الغضب

وقال آخر :

من البيض لا تخزي إذا الريح ألصقت • بها مرطها أو زایل الحلق جيداً  
وضيف يقع للثنين والجمع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ؛ قال الشاعر  
لا تعدى الدهر سفار الجازر • للضيف والضيف أحق زائر  
ويموز فيه التنية والجمع ؛ والأول أكثر كقولك : رجال صوم وفطر وزور . وتخزي  
الرجل خزاية ؛ أي استجيا مثل ذل وهان . وتخزي خزياً إذا انتضح ؛ يخزي فيها جميعاً .  
ثم ونجهم بقوله : ( أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ) أي شديد بأس بالمعروف وينهى عن المنكر .  
وقيل : « رشيد » أي ذو رشد . أو بمعنى راشد أو مرشد ، أي صالح أو مصلح . ابن  
عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد بمعنى الرشد ؛ والرشد والرشاد الهدى  
والاستقامة . ويموز أن يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم بمعنى المحكم .

قوله تعالى : ( قَالُوا أَتَقْدِرُ عَلَيَّ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ) روى أن قوم لوط خطبوا  
بناته فردهن ، وكانت ستم أن من رد في حطبة امرأة لم تحمل له أبداً ، فذلك قوله تعالى :

(١) (نزاية) أي من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام في وصف نود وحسن طارده الكلاب . وفيه :  
سنى إذا مؤت في الأرض واجسه • كمن دلو شاء نعى نعه المغرب  
بنى أن التوراة من المغرب فربح إلى الكلاب .



« قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق » وبعد ألا تكون هذه الخاصية فوجها الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هن قصدنا، ولانا عادة نطلب ذلك . ( وَإِنَّكَ لَتَمْلِكُنَّ مَا تَرْضَيْنَ ) إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : ( قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ) لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردهم، فقال على جهة التفتيح والاستكثارة : « لو أن لي بكم قوة » أى أنصاراً وأعواناً . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أن » فى موضع رفع بفعل مضمر، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لـ « لو » . وجواب « لو » محذوف، أى أرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون . ( أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ) أى الجنا وأضوى . وقرئ « أَوْ آوَى » بالنصب عطفاً على « قوة » كأنه قال : لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد، أى وأن آوى، فهو منصوب بإضمار « أن » ومراد لوط بالركن الشجرة، والمنعة بالكثرة . وبلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى في فروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد » الحديث، وقد تقدم فى « البقرة » . وخرجه الترمذى وزاد « ما بعث الله بعده نبياً إلا فى ثروة من قومه » . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة حديث حسن . وروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه، وهما بكسر الباء وهو يمسكه، قالت له الرسل : تنح عن الباب، فتفتحى وانفتح الباب، فصرهم جبريل يمتاحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء، قال الله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيقه فطمسنا أعينهم » . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط باباً والملائكة معه فى الدار، وهو يناظر قومه ويتأشدهم من وراء الباب، وهم يحاولون تسویر الجدار، فلما رأت الملائكة مالى من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا : يا لوط إن ركنك لشديد، وإهم آتيتهم عذاب غير مردود،



وإذ أرسل ربك ، فأتقح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب مصرهم جبريل بجناحه على ما تقدم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأنزلهما في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا أهدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أحمر من على وجه الأرض ، وقد سمحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : بالوط كما أنت حتى نصبح فسترى ، يتوعدونه

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وأضطرابه ومدافسته عرفوه بأصهم ، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدخول ، فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفت . ﴿ أَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ ﴾ أى بمكره . ﴿ فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ . فاسر . بوصل الألف وقطعها ، لفتان فصيحتان . قال الله تعالى : **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ** وقال : **سُبْحَانَ الَّذِي أُنسِرُ** . وقال الناجية : **فجمع بين اللتين** . **أُنسِرْتُ** عليه من الجوزاء سارية . **تُرْجى الشمال** عليه جامد البَرْد وقال آخر :

**نَحْنُ النَّصِيرَةُ دَمَةُ الْحَسَنِ** . **أُنسِرْتُ إِلَيْكَ** ولم تكن تُسرى  
وقد قيل : **« فَأَنسِرْ »** بالقطع ، إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ، ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرأة أسرى ليلة ظن أنه . قصى عملا والمرء ما عاش عاملا  
وقال عبد الله بن رواحة .

عند الصبايح يحمّد القوم السرى . وتنجلي عنهم غيابات الكرى  
﴿ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل . الضحاك : ببقية من الليل . قتادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنع من الليل . ابن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هده من الليل . وقيل : هزيع من

(١) وهو من (سرى) . يقول : إن الساعة سرت لي الجوزاء ، فلك شعرا بالجنة .



الليل . وكلها متقاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر :

وَنَائِمَةٌ تَنُوحُ بِقَطْعِ لَيْلٍ • عَلَى وَجْهِ بَقَارَةِ الصَّعِيدِ

فإن قيل : السرى لا يكون إلا بالليل ، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فأجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل » جاز أن يكون أوله . ( وَلَا يَنْتَفِ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) أى لا ينظر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ( إِلَّا أَمْرَأَتُكَ ) بالنصب ؛ وهى الفساة الواضحة الينة المعنى ؛ أى فاسرأهلك إلا امرأتك . وكذا فى قراءة أن مسعود « فاسرأهلك إلا امرأتك » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « إِلَّا أَمْرَأَتُكَ » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نداءً لأن المعنى بصير - إذا أبدلت وجزمت - أن المرأة أبيع لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته وحمله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومشله قولك : لا يقم أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : إنهم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره ؛ كأنه قال : إنهم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم إلا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هذه العذاب التفت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . ( إِنَّهُ مُصِيبُهَا )



أى من العذاب . وإنكأية في « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . استعجلهم بالعذاب لفيظه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر « أليس الصُّبْحُ » بضم الباء وهى لغة . ويعتدل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لملاكمهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطاً خرج بابنته ليس معه غيرها عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه وأماوته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت آبنائه فلا يهولنك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم . قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا مَالِيهَا سَافِلًا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم - وهى القرية العظمى - وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقم<sup>(١)</sup> ، فرفضها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نقيق حرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفى لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالجحارة . مقاتل : أهلكت أربعة ؛ ونجت ضعوه . وقيل : غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مِجْرَافًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمة الرحم ، وقد تقدم في « الأعراف » . وفى التفسير : أمطرنَا في العذاب ، ومطرنا في الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت ؛ حكاه الهروي . واختلف في « السجيل » فقال النحاس<sup>(٢)</sup> : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وبجيب اللام والنون اختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد الكثير ؛ وأشد<sup>(٣)</sup> ؛

• ضَرْبًا قَوَّاسِي بِهِ الْأَطْلَالُ مِجْنَاتَا •

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف ؛ هذا أهل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ طبعة أمم  
أرنا تانية . (٣) كما فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (الجنارى) . (٤) سائر البيت يتألف من ٥٥



قال النحاس : وردّ عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا يحين وذلك يحيل فكيف يستشهد به ؟ قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ؛ لأنّ أبا حنيفة ذهب إلى أنّ اللام تجلّ من النون لقرب أحدهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنّه لو كان على قوله لكان حجارة عجيلا ؛ لأنّه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأنّ شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنّه قد يقال لحجارة الأرحاء عجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أنّ عجिला طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إنّ عجिला لفظه غير حريرة حرّيت ، أصلها سنح وجيل . ويقال : سنك ويكل ؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطنين عربتهما العرب لجمعتهما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : « ليرسل عليهم حجارة من طين » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشددت . والسجيل عند العرب كل شديد صلّب . وقال الضحاك : يعنى الآجر . وقال ابن زيد : طين طيخ حتى كان كالآجر ؛ ومنه أنّ عجيلا أسم السماء الدنيا ؛ ذكره المروى ؛ وحكاه الثعلبي عن أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يردّه وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنّه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال في السماء ، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « ونزل من السماء من جبال فيها من برد » . وقيل : هو مما يجعل لهم أى كيب لم أن يصيبهم ؛ فهو فى معنى يحين ؛ قال الله تعالى : « وما أدراك ما يحين . نجاب مرقوم » قاله الزجاج وأختره . وقيل : هو فعل من أجهته أى أرسلته ؛ فكانها مرسلّة عليهم . وقيل : هو من أجهته إذا أعطيته ؛ فكانه مذاب أعطوه ؛ قال :

مَنْ يُسَاجِلْ يُسَاجِلْ مَا جِئْنَا . يَمْلَأُ الدُّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) البيت لفضل بن عباس بن حبة بن أبي لب . وأصل المسألة أن يستق ساقبان فيخرج كل واحد منهما فى جهة (دوره) مثل ما يخرج الأترأبما نكل قد طب ؛ فخره العرب مثلا لقاهرة . والكرب : الحبل الذى يشد على الخيل وهو الحبل الأول .



وقال أهل المعاني : السَّجِل والسَّجِين الشديد من الجمر والصَّرب ؛ قال ابن مَقْبِل :

وَرَجَلُهُ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِجَةً <sup>(١)</sup> • ضَرْبًا تَوَاحَى بِهِ الْأَبْطَالُ بَيْحًا

(مَنْضُودٌ) قال ابن عباس : متاج • وقال قتادة : نُضِد بعضها فوق بعض • وقال الزبيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا • وقال عكرمة : مصقوف • وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعنى متقارب • يقال : نُضِدَت المتاع والآلِين إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو مَنْضُود ونَضِيد ونَضْدٌ ؛ قال :

• وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجِّينِ فَالنَّضِيدِ •

وقال أبو بكر المَظَلِّي : مَعْد ، أى هو بما أعدّه الله لأعدائه الظَّالِمَة • (مُسُومَةٌ) أى معلمة ، من السِّيا وهى العلامة ؛ أى كان عليها أمثال الخوادم • وقيل : مكتوب على كل حجر أسم من رُمي به ، وكانت لاتسا كل حجارة الأرض • وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحجرة وسواد فى بياض ، فذلك تسويمها • وقال كعب : كانت معلمة بياض وحمرة ، وقال الشاعر <sup>(٢)</sup> :

فَلَا مَ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَا ضَا • لَهُ سِيْمَاءٌ لَا تَنْشُقُ عَلَى الْبَصَرِ

و «مُسُومَةٍ» من نعت حجارة • و «مَنْضُودٌ» من نعت «سَجِيل» • وفى قوله : (عِنْدَ رَبِّكَ) دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن • (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) يعنى قوم لوط ، أى لم تكن تخططهم • وقال مجاهد : يُرِيب قُرَيْشًا ؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد بعيد • وقال قتادة وعكرمة : بنى ظالمى هذه الأمة ؛ والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سَيَكُونُ فِي آخِرَاتِي قَوْمٌ يَكْفِي رِجَالَهُمُ بِالرِّجَالِ وَنِسَائُهُمُ بِالنِّسَاءِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَامُوا قَبِلُوا قَوْمَ لُوطٍ أَنْ يُرْسَلَ إِلَهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ بَحِيلٍ» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) وروى فى اللسان : ( يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ مِنْ مَرَضٍ )

(٢) البيت لأسيد بن عطاء الفراءى يمدح عتبة حين قاسمه ماله ؛ وبعده •

كانت القرية ملقت فوق نحره • روى بيده الترمذى وفى وجهه القم

وقوله : (هـ سِيْمَاءٌ لَا تَنْشُقُ عَلَى الْبَصَرِ) أى يفرح • من يله



يَعِيدُ . وفي رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالي والأيام حتى تستعمل هذه الأمة أديار الرجال كما استعملوا أديار النساء فصبب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك " . وقيل : المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببيعد ؛ وهي بين الشام والمدينة . وجاء « ببيعد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفي الحجارة التي أمطرت قولان : أحدهما - أنها أمطرت على المدن حين رفضها جبريل . الثاني - أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّقُوا الْإِكْثَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يُحِيطُ ﴿٨٦﴾ وَيَتَقَوْمِ أُوتُوا الْإِكْثَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٨﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَانُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَسْتَوْا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٩﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَ لَكُمْ إِلًا مَا أَتَاهُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩٠﴾ وَيَتَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٩١﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٢﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ



وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيرٌ ﴿١١﴾ قَالَ يَقَوْمِ اارْهَطِيْ اَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنْ لَّاهٍ  
وَأَتَّخِذُوهُ وَرَاءَ كُرْ طَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي مَبَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَتَقَوْمِ  
أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِيَّيْ عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ  
وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِيَّيْ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ  
شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ  
فَأَصْبَحُوا فِي دِيبَرِهِمْ جُثَثِينَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعِلًا لِّمَدِينٍ  
كَمَا بَعِلَتْ ثَمُودُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( وَإِلَى مَدِينٍ آخَرَهُمْ شُعَيْبًا ) أى وأرسلنا إلى مدِين ه ومدِين هم قوم  
شعيب . وفي تسميتهم بذلك قولان : أحدهما - أنهم بنو مدِين بن إبراهيم ؛ فقبيل : مدِين  
والمراد بنو مدِين . كما يقال مَضْرُ والمراد بنو مَضْر . الثاني - أنه أسم مدِينتهم ، فنسبوا  
إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدِين لأنه أسم مدِينة ؛ وقد هُتِمَ في الأعراف ه هنا  
المعنى وزيادة . ( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ) هتَم . ( وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْكَالَ  
وَالْمِيزَانَ ) كانوا مع كفرهم أهل بَخْسٍ وتطفيف ؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكل  
زائد ، واستوفوا بغاية ما يَقْدِرُونَ وظلموا ؛ وإن جاءهم مشتري الطعام باعوه بكل ناقص ؛  
وخصوا له بغاية ما يَقْدِرُونَ ؛ فأمروا بالإيمان إقلاطا عن الشرك ، وبالوفاء نيا عن التطفيف  
( إِيَّيْ أَرَأَيْتُمْ يُخْزَى ) أى في سعة من الرزق ، وكثرة من الثَم . وقال الحسن : كان سعرهم  
رخيصا . ( وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ ) وصف اليوم بالإحاطة ؛ وأراد وصف ذلك  
اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم ؛ وهو كقولك  
يوم شديد ؛ أى شديد حره . وأخطف في ذلك العذاب ؛ فليل . هو عذاب الظن في الآخرة .



وقيل : غلب الاستئصال في الدنيا ، وقيل : غلب السوء ، روى معناه عن ابن عباس .  
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان  
إلا أبتلاهم الله بالفطح والغلاء " . وقد تقدم .

قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ اقْبِرُوا أَلَيْكَ الْكَبِيرُ وَالْمِيزَانُ ) أمر بالإغناء بعد أن نهى عن  
التطيف تأكيذا . والإغناء الإتمام . « بالقسط » أى بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل  
كل ذى نصيب إلى نصيبه ، وليس يريد إغناء المكيال والموزون لأنه لم يقل : أقربوا بالمكيال  
والميزان ، بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المهود ، وكذا الصنجات . ( وَلَا تَقْسُوا الْكُلَاسَ  
أَشْيَافَهُمْ ) أى لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا . ( وَلَا تَتَوَلَّوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ) بين أن  
الخطيئة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ، وقد مضى في « الأعراف » زيادة  
لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ( بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ) أى ما يبقيه الله لكم بعد إغناء الحقوق بالقسط أكثر  
بركة ، وأحد مائة مما يتونه أتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم ، قال معناه الطبري .  
وفيه . وقال مجاهد : « بقية الله خير لكم » يريد طاعته . وقال الزجاج : وصية الله . وقال  
الفراء : مراقبة الله . بن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال  
ابن عباس : رزق الله خير لكم . ( إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا  
إن كانوا مؤمنين . وقيل : يجتمل أنهم كانوا يعرفون بأن الله خالقهم غافطهم بهذا . ( وَمَا أَنَا  
عَلَيْكُمْ بِحَافِظٍ ) أى رقيب أرقبكم عند بكم ووزنكم ، أى لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر  
منكم حتى أواخذكم بإغفاء الحق . وقيل : أى لا يتبلى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم  
بمصاصكم .

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا حَبِيبُ أَصْلَوَاتُكَ ) وقرئ « أَصْلَاتُكَ » من غير جمع . ( تَأْمُرُكَ أَنْ  
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ) « أن » في موضع تفسير ، قال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء .



وروى أن شيعا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها، وقلها وهو قول :  
 الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم ميّروه بما رأوه يستمرّ عليهم كثرة الصلاة،  
 واستمروا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان  
 عن الأعمش ، أى قراءتك تأمرك ؛ ودلّ هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يمت  
 الله نيا لإفرض عليه الصلاة والزكاة . ( **أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** ) زعم الفراء أن التقدير :  
 أو تمنّا أن تفعل في أموالنا ما نشاء . وقرأ السّلبى - والضّمك ابن قيس - « أو أن تفعل في أموالنا  
 ما نشاء » بالياء في الفعلين ، والمعنى : ما نشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : « أو أن » على هذه  
 القراءة معطوفة على « أن » الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما نهاهم عنه حذف<sup>(١)</sup>  
 الدّراهم . وقيل : معنى « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم  
 تمنعنا منه ؟ . ( **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ) يعنون عند نفسك بزعمك ، ومثله في صفة أبى  
 جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه  
 الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قولهم للبيشى : أبو البيضاء ، ولأبيّض أبو الجحون<sup>(٢)</sup> ؛  
 ومنه قول نخلة جهنم لأبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عيينة :  
 العرب تصف الشئ بضده للتطير والتفاؤل ؛ كما قيل لّديع سليم ، وللغلاة مفازة . وقيل : هو  
 تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدلّ ما قبله على صحته ، أى إنك أنت  
 الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آبائنا ! ويدلّ عليه « أصلتك تأمرك  
 أن تترك ما يعبد آبائنا » أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون  
 يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم ، وبعدمه أيضا ما يدلّ عليه « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ  
 مِنْ رَبِّى وَرَزَقْنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى أفلا أنهاركم عن الضلال ؟ ! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه  
 على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُرْبُظَةَ للنبي صلى  
 الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا !

(١) حذف الشئ . نقله من طريقه . (٢) الجحون هنا الأسود .



مسئلة - قال أهل التفسير: كان مما يتهاهم عنه، وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدرهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لفضل لهم للقراض، وكانوا يتعاملون على الصحاح عداً، وعلى المقرضة وزناً، وكانوا يحضون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدرهم، وكذلك قال جماعة من المصنفين المتقدمين كعبد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهما، وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن طعنة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس، فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» أنهم كانوا يكسرون الدرهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسئلة: قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث العتيق: من كسرهما لم تقبل شهادته، وإن أعذر بالجهالة لم يعذر، وأيس هذا موضع عذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلائنه أتى كبيرة، والكيثار تسقط العدالة دون الصغار؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلائنه أمرين لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك.

مسئلة: إذا كان هذا معصية وفساداً نرد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومروءة ابن المسيب يبرجل قد جلد فقال: ما هذا؟ قال: رجل يقطع الدنانير والدرهم؛ قال ابن المسيب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النخعي: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتني يبرجل وقد شهد عليه فضربه وحققه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزء من يقطع



الدرهم ؛ ثم أمر أن يُردَّ إليه ؛ فقال : إنه لم يمتنى أن أقطع بك إلا أنى لم أكن تفتد في ذلك قبل اليوم ، وقد تفتدت في ذلك فن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أنسرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على العصية ، وطريقاً إلى التجميل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصيل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدرهم خير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدرة ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الخرز أصلاً في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيتها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حرزها ، وحرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد وجل في قطع الدنانير والدرهم . وقد قال علماءنا المالكية : إن الدنانير والدرهم خواتيم الله عليهما اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتماً لله كان أهلاً لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أذنب ؛ وخاتم الله تُقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليت الحكم ، إلا أنى كنت محفوفاً بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للحدة الضلال ، فمن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله أحساباً لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي نَقِصْتُ . ( وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ) أَى واسماً حلالاً ، وكان شيعب عليه السلام كثير المال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أتاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى « أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي » أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي » أتأمروني بالعصيان في البخس والتطيف ، وقد أغثنى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن أَمْلِكَكُمْ ﴾ في موضع نصب بـ « ما يريد » . ﴿ (إِلَىٰ مَا أَنهَا كُنتُمْ) ﴾ أى ليس أتاكم من شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ (إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ



مَا اسْتَطَعْتُ ) أى ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة؛ وقال : « مَا اسْتَطَعْتُ » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « مَا » مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعنى . ( وَمَا تَوْفِيقِي ) أى رشدى ، والتوفيق الرشد . ( إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ) أى أضللت . ( وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) أى أرجع فإنا يتدل بى من جميع التواب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدوام؛ ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ( وَيَا قَوْمِ لَا يَحْزَنْكُمْ ) وقرا يحيى بن وثاب « يَحْزَنْكُمْ » . ( شِقَاقِي ) فى موضع رفع . ( أَنْ يُصِيبَكُمْ ) فى موضع نصب ؛ أى لا يملحنكم مصادق على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : لا يكسبكم شقاقى أصابكم العذاب؛ كما أصاب من كان قبلهم؛ قاله الزجاج . وقد تقدم معنى « يحزمنكم » فى « المسائلة » و « الشقاق » فى « البقرة » وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدى؛ ومنه قول الأخطل ،  
أَلَا مَنْ مِيلُغٌ عَنِّي رَسُولًا • فكيف وجدتم طعم الشقاق

وقال الحسن : إضرارى . وقال قتادة : فراق . ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ) وذلك أنهم كانوا حديث عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد ؛ فذلك وحده البعيد . قال الكسائي : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى : ( وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) تقدم . ( إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ) آسمان من أسمائه سبحانه ، وقد بيناها فى تكملة « الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى » . قال الجوهري : وددت الرجل أودته وإذا أحبه ، والودود المحبة ، والود والود والود والمودة المحبة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » .

(١) راجع ج ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبعه أول مرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٤٣ طبعه ثانية .

(٣) الرسول هنا بمعنى الرمالا .



قوله تعالى : ( قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَا تَقُولُ ) أى ما نفقهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتمطنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إصراراً عن سماعه ، واحتقاراً للكلام ؛ يقال : فقه يفقه إذا فهم فقهها ؛ وحكى الكسائى فقه فقهها<sup>(١)</sup> . ( وَإِنَّا لَنَرَاكَ فَيِّنًا ضَعِيفًا ) قيل : إنه كان مصاباً ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثوري ؛ وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن جبر يقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كفّ عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه عليّ بن عيسى . وقال السدى : وحيداً ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفاً » نصب على الحال . ( وَلَوْلَا رَحْمَتُكَ ) رفع بالابتداء ؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهطاء بلحجر الأبريوع ؛ لأنه يتوقّ به ويغيا فيه ولده . ومعنى ( رَحِمْنَاكَ ) لقنناك بالزجم ، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجوه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرحمناك » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدى :

تراجنا بمز القبول حتى • نصير كأننا قوساً رهان

والرجم أيضاً اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ( وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ) أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا متمتع .

قوله تعالى : ( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لَآرْهَطِي ) « أَرْهَطِي » رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم ( أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ) وأعظم وأجل وهو يملككم . ( وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِي ) أى اتخذتم ما جئكم به من أمر الله ظهوراً ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتل مخافة قوى ؛

(١) حارة الأصول ما خاطبة ، وصورت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقهها وقها ؛ وحكى الكسائى فقه فقهها إذا صار قها .



قال : جلّت أمره يظهر إذا فصرت فيه ، وقد مضى في « البقرة » . ( إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ )  
أى من الكفر والمعصية . ( مُحِيطٌ ) أى عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : ( وَيَأْتُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِلَى غَايِلٍ سَوْفَ تَعْمَلُونَ ) تهديد ووعيد ؛  
وقد تقدم في « الأنعام » . ( مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ) أى يهلكه . و « من » في موضع  
نصب ، مثل « يَعْلَمُ الْمُنْصِلُ مِنَ الْمُصْلِحِ » . ( وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ) عطف عليها . وقيل :  
أى وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : في غسل رفع ؛ تقديره : ويخزي من هو  
كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فيعلم كذبه ، ويدقّق وبال أمره . وزعم الفراء  
أنهم إنما جاءوا به هو « في » ومن هو كاذب « لأنهم لا يقولون مَنْ قائم ؛ إنما يقولون :  
مَنْ قام ، وَمَنْ يقوم ، وَمَنْ القائم » فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فَعَلْ وَيَفْعَلْ . قال  
النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله (١) :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرَى يَأْتِي . ضَعُفْتُ ذَرْعًا يَهْجِرُهَا وَالْكِتَابِ

(وَأَرْثَبُوا إِلَى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) أى استظروا العذاب والسخطة ، فإني منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ( وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ) قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم  
من أجسادهم . ( نَحْنُ شُعَبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَةٌ مِنَّا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ) أى  
صيحة جبريل . وأنت الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : « وآخذ الذين ظلموا  
الصيحة » فذكر على معنى الصياح . قال ابن عباس : ما أهلك الله اثنين بسذاب واحد إلا  
قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من  
تحته ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . ( فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَانُوا لَمْ  
يُفْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِلَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ ) تقدم معناه . وحكى الكسائي أن أبا عبد الرحمن  
السلمي قرأ « كَانُوا يَدْعُونَ » بضم العين . قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال يسد

(١) راجع ج ٢ ص ٤٠ طبع ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٨٩ طبع أول مرة .

(٣) هو عمر بن أبي ربيعة .



يَعِدُّ بَعْدًا وَيُؤَدِّئُ إِذَا هَلَكَ . وقال المهدوي : من ضم العين من « بعدت » فهي لغة تستعمل في الخير والشر ، ومصدرها البُعد ؛ و« بعدت » تستعمل في الشر خاصة ؛ يقال : يَعدُّ بَعْدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللُغَة ؛ وقد يجتمع معنى اللتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٦١  
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ١٦٢  
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ١٦٣  
وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ١٦٤

قوله تعالى : (( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا )) بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجّة ، وإزاحة كل علة « بِآيَاتِنَا » أي بالثبوت . وقيل : بالمعجزات . (( وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ )) أي حجة بينه ؛ يعني المصا . وقد مضى في « آل عمران » معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . (( إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ )) أي شأنه وحاله ، حتى أخذوه لها ، وخالفوا أمر الله تعالى . (( وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ )) أي بسديد يؤدي إلى صواب . وقيل : « برشيد » أي بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : (( يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ )) يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قدّمهم بقدّمهم قدما وقدّما إذا تقدّمهم . (( فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ )) أي أدخلهم فيها . ذَكَرَ بلفظ الماضي ، والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكانه كأنّ ؛ فهذا يعبر عن المستقبل بالماضي . (( وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ )) أي ينس المدخل المدخول ؛ ولم يقل ينس لأنّ الكلام يرجع إلى المورد ؛ وهو كما نقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك . والمورد الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .



قوله تعالى: (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً) أى فى الدنيا . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . (يَسْ أَرْفَدُ الْمَرْفُودُ) حكى الكسائى وأبو عبيدة: رَفَدَهُ أَرْفَدَهُ رَفَاءً ؛ أى أعته وأعطيته . وأسم المطية الرَّفْدُ ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرَّفْدُ أيضا القدح الضخم ؛ قاله الجوهري ، والتقدير: بئس الرَفْدُ رَفْدُ المرفود . وذكر الماوردى أن الرَفْدَ بفتح الراء القلح ، والرَفْدُ بكسرهما ما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكأنه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرَفْدَ الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الفرق النار ؛ قاله الكلبي .

قوله تعالى : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٥٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٥٦﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَانِ وَمِى ظَلِمَةٍ إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٥٨﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴿١٥٩﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنُفِثَتْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٦٠﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴿١٦٣﴾ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ ﴿١٦٤﴾



قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصَهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذلك » رفع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء ؛ والمعنى : ذلك النبأ المتقدم من أنباء الفرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويًا على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر ، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد متناصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والناس في قسم المنيّة بينهم • كالزرع منه قائمٌ وحصيدٌ

وقال آخر : <sup>(١)</sup>

إنما نحن مثلُ خامةٍ زرع • فتى يأتى يأت محصده

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حصدى وحصاد مثل مريض ومرضى ومرأض ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه ، وقد تقدم فى « البقرة » مستوفى . ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يبدون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقاتدة .

وقال لبيد :

فلقد تليت وكل صاحب جنة • ليسلى يعود وذاكم التتبيب

والناب الملاك والخسران ، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام ، فحذف المضاف ؛ أى كانت عبادتهم إياها قد خسرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى ﴾ أى كما أخذ هذه الفرى التى كانت لنوح وطاد وعمود يأخذ جميع الفرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدى وطلمة بن مصرف « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ الفرى » . وعن الجحدى أيضا « وكذلك أخذ ربك » كالجماعة « إذ أخذ

(١) البيت للفرعاع ؛ كافي اللسان . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طيبة ثانية أرفأة .



القرى . قال المهدوي : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من عتد من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أخذ ربك من أخذته من الأمم المهلكة إذا أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر ، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذ ؛ فإذا مضى ؛ أي حين أخذ القرى ؛ وإذا للاستقبل . ( وَيَوْمَ ظَلِمْتَ ) أي وأهلها ظالمون ؛ لحذف المضاف مثل : « وأسأل القرية » . ( إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) أي عقوبته لأهل الشرك موجبة عظيمة . وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) أي لعبرة وموعظة . ( لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ) . ( ذَلِكَ يَوْمٌ ) ابتداء وخبر . ( مَجْمُوعٌ ) من نته . ( لَهُ النَّاسُ ) أسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ارتفاع « الناس » بالابتداء ، وانلبر « مجموع له » فاعنا لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أي يحشرون لذلك اليوم . ( وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ) أي يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين اليمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ( وَمَا تَوْحِدهُ ) أي ما توح ذلك اليوم . ( إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ) أي لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . ( يَوْمَ يَأْتِي ) وقرئ « يوم يأت » لأن الياء تحذف إذا كانت قبلها كسرة ؛ فنقول : لا أدر ؛ ذكره القشيري . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء في الإدراج ، وحذفها في الوقف ؛ وروى أن أبياً وابن مسعود قرأا « يوم يأت » بإيالة في الوقف والوصل . وقرأ الأنعمش وحزمة « يوم يأت » بغير ياء في الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بإيالة ؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء ، ولا يحزم الشيء بغير جازم ؛ فاما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائي ؛ قال : لأن الفصل السالم يوقف عليه كالحجوز ، لحذف الياء ، كما



تحذف الضمة. وأما قراءة حزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بمجئتين :  
 أحدهما - أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه  
 بغير ياء . والحجة الأخرى - أنه حكى أنها لغة هذيل ؛ تقول : ما أدري قال النحاس : أما مجئته  
 بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله :  
 سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذهب ؛ وأما مجئته بقولهم : « ما أدري » فلا حجة  
 فيه ؛ لأنّ هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه .  
 وأنشد القراء في حذف الياء :

كَفَّكَ مَا يُبْقِي دِرْهَمًا • جَوْدًا وَآخِرَى تُسَيِّطُ بِالسَّيْفِ الدِّمَاءَ

أى تعطى. وقد حكى سيويه والخليل أن العرب تقول : لا أدري ، فتحذف الياء ويجزئ بالكسرة ،  
 إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود في النحوي إثبات الياء ؛  
 قال : والذى أراه أتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة ستة ؛ وقد جاء مثله في كلام  
 العرب . ( لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ ) الأصل نتكلم ؛ حذف إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار ،  
 أى لا نتكلم فيه نفس إلا بالماذون فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك التيسير .  
 وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعاة إلا بإذنه . وقيل : إن لم في الموقف وقفا بمنعون  
 فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين ، فيقول لم  
 قال : « لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِدُونَ » .  
 وقال في موضع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ » . وقال : « يَوْمَ  
 تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَادِلٍ عَنْ نَفْسِهَا » . وقال : « وَقَفَّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ » . وقال : « قَبُولُكُمْ  
 لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » . والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم  
 وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛  
 فأما التكلم والناطق بحجة لهم فلا ؛ وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن  
 الحجة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ؛ فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال



قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمتعون من الكلام ، وفي بعضها يطبق لهم الكلام ؛ فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ( فَنَهَمُ شَيْءٌ وَسَعِيدٌ ) أى من الأرض ، أو من الناس ؛ وقد ذكّرهم في قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقي الذي كُتِبَ عليه الشقاوة . والسعيد الذي كُتِبَ عليه السعادة ؛ قال لبيد :

فَنَهَمُ سَعِيدٌ أَخَذُ بِنَصِيهِهِ \* وَمِنْهُمْ شَيْءٌ بِالْمَعْشَةِ قَانِعٌ

وروى الترمذى عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية « فَنَهَمُ شَيْءٌ وَسَعِيدٌ » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شئ ، قد فرغ منه ، أو على شئ لم يُفْرَغْ منه ؟ فقال : « بل على شئ قد فرغ وجرت به الأقدام يا عمر ولكن كل مُيسر لما خُلِقَ له » . هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم في « الأعراف » .

قوله تعالى : ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ) ابتداء . ( فَنَفَى النَّارِ ) في موضع الخبر ، وكذا ( لَهْمُ فِيهَا زَيْفٌ وَشَيْقٌ ) قال أبو العالية : الزيف من الصدر ، والشيق من الحلق ، وعنه أيضا ضد ذلك . وقال الزجاج : الزيف من شدة الأثين ، والشيق من الأثين المرتفع جدا ؛ قال : وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزيف بمتلة ابتداء صوت الجير في النبيق ، والشيق بمتلة [ آخر ] صوت الحمار في النبيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزيف الصوت الشديد ، والشيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزيف مثل أول نبيق الحمار ، والشيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَشَرَجَ فِي الْجَوْفِ سَيْحِلًا أَوْ شَيْقٌ \* حَتَّى يُقَالَ نَاهِقٌ وَمَا نَهَقُ

وقيل : الزيف إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غما فيخرج بالنفس ، والشيق رد النفس . وقيل : الزيف ترديد النفس من شدة الحزن ؛ مأخوذ من الزفر وهو التحل على الظهر لشدة به ؛

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٤ مطبوعة أول آد ثانية . (٢) هو العجاج واليت من قصيدة له يصف فيها المعازة مطالعها :

بَقَامَ الْأَعْمَاقُ خَائِبًا مَحْتَرِقٌ \* مِثْلَهُ الْأَعْلَامُ لِمَا عَاطَفَ خَفَقَ

(٣) السحيل : الصوت الذي يمدى من صدر الحمار .



والشقيق النفس الطويل المختد؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاقق ؛ أى طويل . والزفير والشقيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى دوام السموات والأرض ، والتقدير : وقت ذلك . وأختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسياء كل ما علاك فأطلقك ، والأرض ما استقرت عليه قدمك ؛ وفى التزويل : « وأورثنا الأرض مُتَبَوِّأً مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » . وقيل : أراد به السماء والأرض المهودتين فى الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشئ ، وتأنيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنَّ لَيْلٌ ، أو مَالَ سَيْلٌ ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة تزدان إلى النور الذى أخذتا منه ؛ فهما دائماً أبداً فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأول — أنه استثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى أو جابر رضى الله عنهما . وإما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبى نضرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا من شاء إلا يدخلهم وإن شَقُّوا بالمعصية » . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شَقُّوا » عاماً فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من « خالدين » ؛ قاله قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل



«س جهنم حتى إذا صاروا كالحمصة أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميون»<sup>(١)</sup>  
 وقد تقدم هذا المعنى في «النساء» وغيرها . الثالث - أن الاستثناء من الزفير والشيق ؛  
 أى لم يمس فيها زفير وشيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل  
 الجنة من النعيم ما ذكره ، وما لم يذكر . حكاه ابن الأنباري . الرابع - قال ابن مسعود :  
 « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ  
 رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفتنهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق ، الخامس -  
 أن « إِلَّا » بمعنى « سوى » كما تقول في الكلام : ما معى رجل إلا زيد ، ولى عليك ألفا درهم  
 إلا الألف التى لى عليك . قيل : فالمنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك  
 من الخلود . السادس - أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول  
 في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن شاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ؛ فالمنى  
 أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين  
 الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعاني قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خَالِدِينَ فِيهَا  
 مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ،  
 وللحاسبة ، وقدر مكثهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر - وقوع  
 الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ  
 إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السباء والأرض المهوديتين في الدنيا ؛  
 واختاره الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقدار دوام السموات  
 والأرض ، وذلك مدة العالم ، والساء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تَبْدُلُ  
 الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ » تخلق الله سبحانه الآدميين وعالمهم ، وأشترى منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الحى : الرماد والنفس وكل ما احترق من النار ، والواحدة حمه .



بالجنة ، وعلى ذلك بأيامهم يوم الميثاق ، فمن وفى بالعهده فله الجنة ، ومن ذهب بريقته يخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرض ، فإنما دامت للعالمية ، وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ، فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله ، قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ، ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحق الأحدى ، فمن لقيه موحدا لأحدى يتي في داره أبدا ، ومن لقيه مشركا بأحدى يتي إلى بقي في السجن أبدا ، فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبِّكَ » من زيادة المدة التي تميز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ، فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا . وقد قيل : إن « آلا » بمعنى الواو ، قاله الفراء ، وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :  
وكل أبح مفارقة أخسوه • كتمر أيبك إلا الفرقدان

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكي : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى في « البقرة »<sup>(٢)</sup> بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ، كقوله تعالى : « وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى كما قد سلف ، وهو — التاسع — العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى ندب الشرع إلى استعمله في كل كلام ، فهو على حد قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آيِنِينَ » فهو استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك ، كأنه قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ، ويؤيده بقرينه قوله تعالى : « عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي عبيد قال : تقدمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

(١) البيت لمبرورين مسمى كرب . وقيل : هو لحضري حج عام . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير .

قال سيوريه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ، فقد نصت « كلا » يا

(٢) راجع ٢



في خلود القرطين في الدارين ، فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد خدمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتماً ، فلم يوجب الاستثناء في الموضعين خیاراً ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ وبحوه عن القراءة . وقول - حادى عشر - وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لافترقهم ، والاستثناء في الموضعين راجع إليهم ؛ ويأنه أن « ما » بمعنى « من » ، آستنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ وآستنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني ؛ كأنه قال تعالى : فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألا يخلفه فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يدخلون النار يسمون الأشقياء ، ويدخلون الجنة يسمون السعداء ، كما روى الضحاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سيدوا شقوا بدخول النار ثم سيدوا بالخروج منها ودخلهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحزمة والكسائي « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سيدوا أن الأول شقوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي « سَعِدُوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا الحسا لا يجوز ؛ لأنه إما يقال : سيد فلان وأسعده الله ، وأسعد مثل أمرئ ؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدي : ومن ضم السين من « سَعِدُوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعده الله ، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبي : « سَعِدُوا » بضم السين أى رزقوا السعادة ؛ يقال : سَعِدَ وأسعد بمعنى واحد . وقرأ الباقر « سَعِدُوا » بفتح



الذين قياما على شقوا، واختاره أبو حنيفة وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة ؛ تقول : منه سعيد الرجل بالكسر فهو سعيد ، مثل سليم فهو سليم ، وسعيد فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه مسعد ، كأنهم استغنوا عنه بمسعود . وقال القشيري : أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد مسعده الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعد ؛ فهذا بقوى قول الكوفيين . وقال سيويه : لا يقال سعيد فلان كما لا يقال شقي فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . ( عطاء غير مجذور )  
أي غير مقطوع ، من جذه يحده أي قطعه ؛ قال النابغة :

تَجِدُ السُّلُوفَ الْمَضَاعَفَ تَسْبُحُهُ • وَتُوقِدُ بِالصُّفَاحِ نَارَ الْحَبَابِ (١١)

قوله تعالى : ( فَلَا تَكُ ) جزم بالتي ؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ( في مريم )  
أي في شك . ( مِمَّا يَبْدُؤُهُمْ ) من الآلة أنها باطل . وأحسن من هذا : أي قل يا محمد لكل من شك « لا تلك في مريم مما يبدؤهم هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يبدؤهم كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ( وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ نَصِيْبُهُمْ يَوْمَ نُنْقِصُ ) فيه ثلاثة أقوال : أحدها - نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثاني - نصيبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث - ما وعدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما .  
قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٢)

قوله تعالى : ( وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ) الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤثروهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويحاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين في كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدق ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت لثابتة التيال يصف فيه السيوف . ويروي ( ويرتد ) . والفرق : الفرج المنسوب إلى سلق ؛ قرية باليمن . والمضاعف : التي تسع ستمئة . والمضاعف : الجارة للراض . والمضاعف : ضارب له شعاع باليل ؛ وقيل : نار المضاعف ما اقتض من شر والفرق الهواء بتصادم جريين .



لنظم بنشر القسامة عن طه لامة الى يوم القسامة . ( وَإِنَّهُمْ لَنِي شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ )  
 ان حلت على قوم موسى ، لى لى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كَلَامَ لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ رَمَّا يَعْمَلُونَ  
 بغير

قوله تعالى : ( وَإِنَّ كَلَامَ لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ ) أى إن كلام من الأمم التى عددهم  
 يرون بجزاء أعمالهم ، فكذلك قومك يا عبد . وأختلف القراء فى قراءة ( وَإِنَّ كَلَامَ ) فقراء  
 فعل للمبين سماع وآبن كبير وأبو بكر معهم - ( وَإِنَّ كَلَامَ ) بالتخفيف ، على أنها « إن »  
 للتحقق من التولية معمله ، وقد ذكر هذا النخيل وسيويه ، قال سيبويه : حدثنا من أتق  
 به أنه سمع العرب تقول : إِنَّ زَيْدًا لَمُطْلَقٌ ، وأشد قول الشاعر<sup>(١)</sup>  
 • كَانَ ظِلَّةً تَطْوَى إِلَى وَارِقٍ السَّلَمِ •

أراد كأنها ظلية خففت ونصب ما بعدها ، والبصريون يجوزون تخفيف « إن » المشددة  
 مع إعمالها ، وأنكر ذلك الكسائي وقال : ما أدرى على أى شيء قرئ « وَإِنَّ كَلَامَ » ! وزعم  
 القراء أنه نصب « كَلَامَ » فى قراءة من خفف بقوله : « لِيُوقِنَهُمْ » أى وإن ليوقينهم كَلَامَ  
 وأنكر ذلك جميع النحويين ، وقالوا : هذا من كبير الفلظ ، لا يجوز عند أحد زيدا لأضربه .  
 وشدد الباقون « إن » ونصبوا بها « كَلَامَ » على أصلها . وقرأ طاهر وحزرة وآبن عامر « كَلَامَ »  
 بالتشديد ، وخففها الباقون على معنى : وإن كَلَامَ ليوقينهم ، جعلوا « ما » صلة . وقيل : دخلت  
 لفصل بين اللامين اللتين تتلويان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بدوا . . وقال  
 الزجاج : لام « كَلَامَ » لام « إن » و « ما » زائدة مؤكدة ، تقول : إن زيدا لمطلق ، فإن

(١) هو : آبن حريم الشكرى ، ومدا لبيت :

• وَيَوْمَا تَوَافَا يَوْجُهُ خَسَمَ •

يجوز نصب الظلية بكان شيئا باقلا إذا حذف وعمل ، وأخبر بحذف لعم السام . ويجوز جر الظلية على تقدير :  
 كظلية ، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبري : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بد لام البين اسما قبلها .



تقتضى أن يدخل على جبرها أو اسمها لام كقولك : إن الله لغفور رحيم ؟ وقوله :  
 « إن في ذلك لَذِكْرَى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يتلقى بها القسم ، وتدخل على الفعل  
 ويلزمها النون المشددة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما »  
 زائدة مؤكدة . وقال الفراء : « ما » بمعنى « مَنْ » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطِغَنَّ »  
 أى وإن كلاً لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ،  
 غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى « مَنْ » . وقيل : ليست زائدة ،  
 بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إن » و « ليوفينهم » جواب القسم ، التقدير :  
 وإن كلاً خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « مَنْ » كقوله : « فَأَتَكُونُوا  
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ » أى مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدد « لما »  
 وقرأ « وَإِنَّ كَلَامًا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكى  
 عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقال : إن زياداً إلا لضربته ، ولا لما لضربته .  
 وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجهاً . وقال أيضاً هو وأبو علي الفارسي :  
 التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللتحويين في ذلك أقوال : الأول — أن أصلها  
 « لمن ما » فقلبت النون ميماً ، واجتمعت ثلاث ميّات ، غذفت الوسطى فصارت « لما » و « ما »  
 على هذا القول بمعنى « من » تقديره : وإن كلاً لمن الذين ؛ كقولهم :

وإِنِّي لَمَّا أَصْدِرُ الْأَمْرَ وَجْهَهُ \* إِذَا هُوَ أَعْيَا بِالسَّبِيلِ مَصَادِرُهُ

وزيف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثاني —  
 لأن الأصل لَمَنْ ، غذفت الميم المكسورة لاجتماع الميَّات ، والتقدير : وإن كلاً لمن خلق  
 ليوفينهم . وقيل : « لَمَّا » مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملاً للوصول على الوقف ؛ فهي  
 على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَمَّا » أى جامعاً لئال المأكول ؛ فالتقدير على  
 هذا : وإن كلاً ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك :  
 قياماً لأقومن . وقد قرأ الزهري « لَمَّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —



إِنْ « لِمَا » بِمَعْنَى « إِلَّا » حَكَى أَهْلُ الْكَلِمَةِ : سَأَلْتُكَ بِأَنَّهُ لِمَا قُلْتَ ، بِمَعْنَى « إِلَّا قُلْتَ » ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لِمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أَيْ إِلَّا عَلَيْهَا ، فَمَعْنَى الْآيَةِ : مَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَّا لِيُؤْفِقِيهِمْ ، قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَزَيْفُ الزَّجَاجِ هَذَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَا تَحَى لِقَوْلِهِ : « وَإِنْ كَلَّا لِمَا » حَتَّى تَقْبَلُوهُ « إِلَّا » وَلَا يُقَالُ : نَحَبُ النَّاسِ لِمَا زَيْدٌ . الرَّاجِحُ — قَالَ أَبُو غُنَّانٍ لِلْمَازِنِيِّ : الْأَصْلُ وَإِنْ كَلَّا لِمَا بِمُخَفَّفٍ « لِمَا » ثُمَّ قُلْتَ ، كَقَوْلِهِ :<sup>(١)</sup>

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدًّا « فِي بَاطِنِ ذَا بَعْدَ مَا أَخْصَبَا

وَقَالَ أَبُو إِسْحَقَ الزَّجَاجُ : هَذَا خَطَأٌ ! إِنَّمَا بِمُخَفَّفِ الْمُنْقَلِ ، وَلَا يَنْقَلُ الْمُخَفَّفُ . الْخَمَاسُ — قَالَ أَبُو عِيَدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ . يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّشْدِيدُ مِنْ قَوْلِهِ : لَمَعْتُ الشَّيْءُ أَلْمَهُ لِمَا إِذَا جُمِعَتْ ، ثُمَّ بَنَى مِنْهُ قَعْلٌ ، كَمَا قُرِئَ « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتَرَى » بِغَيْرِ تَوْنٍ وَبِتَوْنٍ ، فَالْأَلْفُ عَلَى هَذَا لِلتَّائِيثِ ، وَتَمَالَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ لِأَصْحَابِ الْإِمَالَةِ ، قَالَ أَبُو إِسْحَقَ : الْقَوْلُ الَّذِي لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ عِنْدِي أَنْ نَكُونَ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ ، وَنَكُونَ بِمَعْنَى « مَا » مِثْلُ : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لِمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ » وَكَذَا أَيْضًا تَشَدَّدَ عَلَى أَصْلِهَا ، وَنَكُونَ بِمَعْنَى « مَا » وَ « لِمَا » بِمَعْنَى « إِلَّا » حَكَى ذَلِكَ الْخَلِيلُ وَسِيبُويه وَجَمِيعُ الْبَصَرِيِّينَ ، وَأَنْ « لِمَا » يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى « إِلَّا » .

قُلْتَ : هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي ارْتَضَاهُ الزَّجَاجُ حَكَاهُ عَنْهُ النَّحَّاسُ وَغَيْرُهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ وَتَضَعِيفُ الزَّجَاجِ لَهُ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ « إِنْ » فِيهِ نَافِيَةٌ ، وَهِيَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ فَافْتَرَقَا<sup>(٢)</sup> . وَبَقِيَ قِرَاءَتَانِ ، قَالَ أَبُو حَاسِمٍ : وَفِي حَرْفِ أُبَيٍّ « وَإِنْ كُلُّ إِلَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ » . وَرَوَى عَنْ الْأَعْمَشِ « وَإِنْ كُلُّ لِمَا » بِمُخَفَّفٍ « إِنْ » وَرَفَعَ « كُلَّ » وَتَشْدِيدَ « لِمَا » . قَالَ النَّحَّاسُ : وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الْخَالَفَةُ لِلِسَوَادٍ تَكُونُ فِيهَا « إِنْ » بِمَعْنَى « مَا » لَا غَيْرَ ، وَتَكُونُ عَلَى التَّنْسِيرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ بِمَا خَالَفَ السَّوَادَ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ . ( إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ) تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ .

(١) الْبَيْتُ زَوْجٌ . (٢) وَرَوَتْ الْعِبَارَةُ الْآيَةُ بِإِحْدَى التَّسْعِ نَحْوِيَا لِعِبَارَةِ الْقُرْطُبِيِّ ، وَبَدَلَةُ بَكَّةَ (حَاشِيَةٍ) : (مَوَابٍ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ : إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ « إِنْ » فِيهِ نَافِيَةٌ وَالْقَوْلُ الْمُتَقَدِّمُ « إِنْ » فِيهِ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ فَافْتَرَقَا ) .



قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا  
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ( فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل :  
له والمراد أمته ؛ قاله السُّدِّي . وقيل : « استقم » أطلب الإقامة على الدين من الله وآسأله  
ذلك . فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : آستغفر الله أطلب الغفران . والاستقامة  
الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ؛ أى فاستقم على امتثال أمر الله .  
وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام  
فولا لا أسأل عنه أحدا منك ! قال : ” قل آمنت بالله ثم استقم “ . وروى القاري أبو محمد  
في مسنده عن عثمان بن حضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال :  
نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، أتبع ولا تتبدع . ( وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ) أى استقم أنت  
وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن أتبعه من أمته . قال ابن عباس :  
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك  
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : ” شيبني هود وأخواتها “ وقد  
تقدم في أول السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري يقول :  
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! روى عنك أنك قلت :  
” شيبني هود “ فقال : ” نعم “ فقلت له : ما الذي شيبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك  
الأمم ؟ فقال : ” لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » “ . ( وَلَا تَطْغَوْا ) نبه عن  
الطغيان . والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومنه « إِنَّا نَأْتِي الْمَاءَ » . وقيل : أى لا تعجبوا على أحد .  
قوله تعالى : وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٧﴾

(١) في الأمل (التنوي) وصوب عن (المر المتور) .



### فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُؤُوا ﴾ الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به ، قال قتادة : معناه لا تؤذوهم ولا تطيعوهم . ابن جرير : لا تملوا إليهم . أبو العالبة : لا ترضوا أعمالهم ، وكذا متقارب . وقال ابن زيد : الركون هنا الإذهان وذلك ألا ينكر طبعهم كفرهم .

الثانية - قرأ الجمهور « تَرْكُؤُوا » بفتح الكاف ، قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مصرف وقادة وغيرهما « تَرْكُؤُوا » بضم الكاف ، قال الفراء : وهي لغة تميم ونيس . وجود قوم رَكَنَ يَرَكُنُ مثل مَنَعَ يَمْنَعُ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية ؛ وقد تقدم . وهنا هو الصحيح في معنى الآية ، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن محبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ؛ وقد قال حكيم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه • فكل قرين بالمقارب يقتدي  
فإن كانت الصحبة عن ضرورة وثقة فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة » ،  
وصحبة الظالم على التيقية مستنناة من النهي بحال الاضطراب . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ تَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم بخالطهم ومصاحبهم ، ولا تهم على إعرابهم وموافقهم في أمورهم .

قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ »

(١) الإدمان : المصيبة . (٢) موطئة بين البعد . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٧ وما بعدها  
طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .



فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكرا لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يُفزع في النواصب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة .<sup>(١)</sup> وقال شيوخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ؛ فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات] ولا نفلا ؛ فإن الأوراد معلومة ، وأوقات التواقل المرغب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها التنب على البذل لا على العموم ، وإيس ذلك في قوة بشر .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيْ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحاك . وقيل : الطرفان الظهر والعصر . والزلف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راى جهر القراءة . وحكى الماوردي أن الطرف الأول صلاة الصبح بانفلاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقضه القول الذى قبله . ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربي : والعجب من الطبري الذى يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس ركوة<sup>(٢)</sup> ، وحاد عن البرجاس غلوة<sup>(٣)</sup> ؛ قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجبه معه على ذلك أحد .

(١) (حزبه) : نزل به مهم ، أو أحابه غم . (٢) ازباده عن ابن العربي . (٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (حادت القوس ركوة) ويضرب في الأدبار وانقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالهمز) : لمض على بأس مع أو نحوه مره . وغلوة : قد روية بهم .



قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأنه لم يجمع معه على ذلك أحد ؛ وقد ذكرنا من مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق - إلا من شذ - بأن من أكل أو جامع بعد طلوع النجى متعمداً أن يومه ذلك يوم فطر ، وطبه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدل على صحة ما قاله الطبري في الصبح ؛ وتبقى عليه المغرب والرد عليه فيه ما تقدم . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى في زلف من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها مترلة بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وابن أبي إسحق وغيرهما « وَزُلْفًا » بضم اللام جمع زَلِيفَ لأنه قد نطق بزليف ، ويموزان يكون واحدة « زُلْفَةٌ » لفظة ؛ كبُسْرَةٍ وبُسْرٍ ، في لفظة من ضم السين . وقرأ ابن محيصن « وَزُلْفًا » من الليل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفَةٌ تجمع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدُرَّةٍ ودُرٍّ وْبُرَّةٍ وْبُرٍّ . وقرأ مجاهد وابن محيصن أيضاً « زُلْفَى » مثل قُرْبَى . وقرأ الباقون « وَزُلْفًا » بفتح اللام كغرفة وغُرْف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات ، واحداها زُلْفَةٌ . وقال قوم : الزلْفَةُ أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ؛ فعل هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة العتمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : للمغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدم . وقال الأخفش : يعنى صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والمجد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَجْتَبَتْ الْكَبَائِرُ » .

قلت : سبب النزول بمضد قول الجمهور ؛ نزلت في رجل من الأنصار ؛ قيل : هو أبو اليسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ؛ حلاً بأمرأة فقيهاً وتلفظ بها فيها دون الفرج . روى



الترمذى من عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني طالت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها مادون أن أسمها وأنا هذا فاقض في ما شئت " فقال له عمر : لقد سترتك الله ! لو سترت على نفسك ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فاتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية ؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : " [ لا ] بل للناس كافة " . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبله حرام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فترلت « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولن عمل بها من أمتي " . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أتتني امرأة تتاجع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فاهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : أستر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخْلَفْتَ غَايَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ يَمْتَلِ هَذَا " حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » . قال أبو اليسر : فاتيته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله ! ألهذا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن <sup>(١)</sup> غريب ، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ؛ وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرض عنه ، وأقيمت صلاة الصبر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه الآية فدعاه فقال له :

(١) الزيادة من الترمذى . (٢) الذي في صحيح الترمذى (صحيح) يدل (غريب) .



« أشهدت معنا الصلاة » قال نعم ؛ قال : « أذهب فإنها كفارة لما فعلت » . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما علا عليه هذه الآية قال له : « قم فصل أربع ركعات » . والله أعلم . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم » ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .

الخامسة - دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام والس الحرام لا يجب فيهما الحد ؛ وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدوا فى ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء فى هذه المسئلة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء ، وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى « النور »<sup>(١١)</sup> إن شاء الله تعالى .

السادسة - ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقيم الصلاة » الآية . وقال : « أقيم الصلاة يدركك الشمس » الآية . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » . وقال : « واركعوا واجتهدوا » . وقال : « وقوموا لله قانتين » . وقال : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » على ما تقدم . وقال : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليك الذكر تبين للناس ما نزل إليهم » فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجودات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وستتها ، وما لا تصح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والقضائى ؛ فقال فى صحيح البخارى : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . وتتل ذلك منه الكفاة عن الكفاة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى



بَيْنَ جَمِيعٍ مَا بَالُنَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فَعَلَّ الدِّينَ، وَأَوْضَحَ السَّبِيلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» .

قوله تعالى: (ذَلِكَ ذِكْرِي لِلنَّاسِ) أى القرآن موعظة وتوبة لمن اعتقل وتذكره، وخص الناس بالذكر لأنهم المستفدون بالذكى . والذكر مصدر جاء بالالف التانيث .

قوله تعالى: وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: (وَاصْبِرْ) أى على الصلاة، كقوله: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» . وقيل: المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) معنى المصلين .

قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ) أى هلا كان . (مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ) أى من الأمم التى قبلك . (أُولُوا بَقِيَّةٍ) أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . (يَنْهَوْنَ) قومهم . (عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات، وهذا توبيخ للكفار . وقيل: لولا هاهنا للنفى، أى ما كان من قبلك، كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت . (إِلَّا قَلِيلًا) استثناء منقطع، أى لكن قليلا . (مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) نهوا عن الفساد فى الأرض . قيل: هم قوم يونس، كقوله: «لَا قَوْمَ يُؤْتَسَّرُونَ» . وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا وعصوا . (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أى من الاشتغال بالمبال واللذات، وإشراك ذلك على الآخرة . (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) .



قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ وَيُظْلِمَ أَهْلَهَا مُضِلُّونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسَانِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَى ) أى أهل القرى . ( وَيُظْلِمَ ) أى يترك وكفر . ( وَأَهْلَهَا مُضِلُّونَ ) أى فيما بينهم فى تهاطى الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب بخس المكيال والميزان ، وقوم لوط بالواط ؛ ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدم . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم وتقصا من حقوقهم ، أى ما أهلك قوما إلا بعد إغذار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ) قال معيد بن جبير : على لغة الإسلام وحدها . وقال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . ( وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ) أى على أديان شتى ؛ قاله مجاهد وقتادة . ( إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ) استثناء مقطوع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختفين فى الرزق ، فهنا



فَتَى وَهَذَا قَبِيرٌ « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » بالقناعة؛ قاله الحسن . ( وَلَئِكَ خَلَقْنَاهُمْ ) قال الحسن ومقاتل وعطاء : إِيَاءَ الإِشَارَةِ لِلْإِخْتِلَافِ؛ أَيْ وَالْإِخْتِلَافِ خَلَقْنَاهُمْ . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : وَلِرَحْمَةِ خَلَقْنَاهُمْ؛ وَإِنَّمَا قَالَ : « وَلَئِكَ » وَلَمْ يَقُلْ وَلِئِكَ، وَالرَّحْمَةُ مُؤَنِّتَةٌ لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ؛ وَأَيْضًا فَإِنَّ تَأْنِيثَ الرَّحْمَةِ غَيْرُ حَقِيقٍ، فَحَمَلْتُ عَلَى مَعْنَى الْفَضْلِ . وقيل: الإِشَارَةُ بِذَلِكَ لِلْإِخْتِلَافِ وَالرَّحْمَةِ، وَقَدْ يُشَارُ بِهَذَاكَ « إِلَى شَيْئَيْنِ مُتَضَادِّينَ » كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « لَا فَايْرُسُ وَلَا يَكْرَعَوَالٌ بَيْنَ ذَلِكَ » وَلَمْ يَقُلْ بَيْنَ ذَيْنِكَ وَلَا تَيْنِكَ، وَقَالَ : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وَقَالَ : « وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ يَهَا وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » وكذلك قوله : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » وهذا أحسن الأقوال إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَمُحِ أَيْ وَلَمْ ذَكَرْ خَلَقْنَاهُمْ؛ وَإِلَى هَذَا أَشَارَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا رَوَى عَنْهُ أَشْهَبُ؛ قَالَ أَشْهَبُ : سَأَلْتُ مَالِكَاً عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: خَلَقْنَاهُمْ لِيَكُونَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ؛ أَيْ خَلَقَ أَهْلَ الْإِخْتِلَافِ لِلْإِخْتِلَافِ، وَأَهْلَ الرَّحْمَةِ لِلرَّحْمَةِ . وروى عن ابن عباس أيضاً قال : خَلَقْنَاهُمْ فَرِيقَيْنِ، فَرِيقًا يَرْحَمُهُ وَفَرِيقًا لَا يَرْحَمُهُ . قال المهدوي : وَفِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ تَقْسِيمٌ وَتَأْخِيرٌ؛ الْمَعْنَى : وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَاقِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ وَلِئِكَ خَلَقْنَاهُمْ . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وَالْمَعْنَى : وَلِشَهَادَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ خَلَقْنَاهُمْ . وقيل هو متعلق بقوله : « فَبَيْنَهُمْ شَرٌّ وَبَيْنَهُمْ شَرٌّ » أَيْ لِلْمَعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ خَلَقْنَاهُمْ .

قوله تعالى : ( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ) معنى « تَمَّتْ » ثَبَتَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ وَقَدَّرَ فِي أَزَلِهِ؛ وَتَمَامُ الْكَلِمَةِ أَمْتَانَعُهَا عَنْ قَبُولِ التَّنْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ . ( لِأَمْلَاقِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) « مِنْ » لِيَانِ الْجُلُوسِ؛ أَيْ مِنْ جِنْسِ الْجَنَّةِ وَجِنْسِ النَّاسِ . « أَجْمَعِينَ » تَأْكِيدٌ؛ وَكَأَنَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُ قَارَهُ كَذَلِكَ أَخْبَرَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ أَنَّهُ يَمْلَأُ جَنَّتَهُ بِقَوْلِهِ : « وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ لِمِثْلُهَا » . نَحْوُهُ الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ .



قوله تعالى : **وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ**  
**فَوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : **(وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ)** «كلا» نصب بدخض معناه وكل الذي يحتاج إليه من أنباء الرسل قصص عليك . وقال الأخفش : «كلا» حال مقدمه ، كقولك : كلا ضربت القوم . **(عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ)** أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . **(مَا نَتَّبِعُ بِهِ فَوَادَكَ)** أى على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : تريدك به تثبيتا ويقينا . وقال ابن عباس : ما نشد به قلبك . وقال ابن جرير : نصبر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعاني : تطيب ، والمعنى متقارب . و«ما» بدل من «كلا» المعنى : قصص عليك من أنباء الرسل ما تثبت به فؤادك . **(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ)** أى فى هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخص هذه السورة لأن فيها لأخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصها بالذكر تأكيداً وإن كان الحق فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . **(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)** الموعظة ما يمتنع به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكر ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . **(وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)** أى يذكرون ما نزل به من هلك فيتوبون ؛ وخص المؤمنين لأنهم المتفظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : **وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ** ﴿١٢٢﴾ **وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** ﴿١٢٣﴾ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ**  
**وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ**  
**بِفَنَائِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١٢٤﴾



قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾  
وَأَنْتِظَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدم معناه .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى غيبهما وشهادتهما؛ غنظ لدلالة  
المنى . وقال ابن عباس : خزان السموات والأرض . وقال الضحاك : جميع ما غاب عن  
العباد فيهما . وقال الباقر : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه  
من الأرض . وقال أبو علي الفارسي : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى علم ما غاب  
فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً ؛ لأنه حذف حرف الجر؛ تقول :  
غبت في الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أى يوم القيامة ؛ إذ ليس  
لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص «يَرْجِعُ» بضم الياء وفتح الجيم؛ أى يَرُدُّ . ﴿فَاعْبُدْهُ  
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أى أبلغ إليه ووثق به . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى يحازى كلاً بعمله .  
وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالياء على المخاطبة . الباقر بياء على الخبر . قال الأخفش  
صعيد : «يعملون» إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم؛ قال : وقال بعضهم «تعملون»  
بالياء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وما ربك بغير غافل عما تعملون » .  
وقال كعب الأحمري : خاتمة التوراة خاتمة «هود» من قوله : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام .







## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فترلت السورة ؛ وسيأتي . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ففلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فقل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » ففلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكرزها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ؛ بالفاظ متباينة على درجات البلاغة ؛ وقد ذكر قصة يوسف ولم يكرزها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تنكر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : **الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿الرَّ﴾ تقدم القول فيه ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقبل : « الرَّ » اسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة « الر » . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعني القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته . وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توصلون بها في التوراة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآن » على الحال ؛ أي مجموما . و « عربيا » نعت لقوله قرآن . ويجوز أن يكون توطئة للحال ؛ كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيا » على الحال ،



أَيُّ يُقْرَأُ بِلُغَتِكُمْ يَا مُعْزَّرَ الْعَرَبِ . أَغَرَّبَ بَيْنَ ، وَمِنْهُ « الثَّيْبُ تُغْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا » .  
 ( لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ ) أَيُّ لَكِنْ تَعْلَمُوا مَعَانِيَهُ ، وَتَفْهَمُوا مَا فِيهِ . وَبَعْضُ الْعَرَبِ يَأْتِي بِأَنْ  
 مَعَ « لَمَلٍ » تَشْبِيهَا بِمَعْنَى . وَاللَّامُ فِي « لَمَلٍ » زَائِدَةٌ لِلتَّوَكِيدِ ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :  
 يَا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَ .

وَقِيلَ : « لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ » أَيُّ لَتَكُونُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ ؛ فَيَعُودُ مَعْنَى الشَّكِّ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى  
 الْكِتَابِ ، وَلَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقِيلَ : مَعْنَى « أَنْزَلْنَاهُ » أَيُّ أَنْزَلْنَا خَبَرَ يُوسُفَ ؛ قَالَ  
 النَّحَّاسُ : وَهَذَا أَشْبَهَ بِالْمَعْنَى ؛ لِأَنَّهُ يَرُودُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا : سَلَوَهُ لَمْ أَنْتَقِلْ آلَ يَعْقُوبَ مِنْ  
 الشَّامِ إِلَى مِصْرَ ؟ وَعَنْ خَبَرِ يُوسُفَ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا بِمَكَّةَ مُوَافِقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ ،  
 وَفِيهِ زِيَادَةٌ لَيْسَتْ عَنْهُمْ . فَكَانَ هَذَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — إِذْ أَخْبَرَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ  
 كِتَابًا وَلَا هُوَ فِي مَوْضِعِ كِتَابٍ — بِمِثْلَةِ إِحْيَاءِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَيِّتَ عَلَى مَا يَأْتِي فِيهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ  
 هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ) ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ . ( أَحْسَنَ الْقَصَصِ ) بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ ،  
 وَالتَّقْدِيرُ : قَصَصْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ . وَأَصْلُ الْقَصَصِ تَبَعُ الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَالَتْ  
 لِأَخِيهِ قُصِّهِ » أَيُّ تُبَيِّنْ أَمْرَهُ ؛ فَالْقَاصُ تَبَعُ الْأَنْفَارِ فَيُخْبِرُ بِهَا . وَالْحَسَنُ يَعُودُ إِلَى الْقَصَصِ  
 لَا إِلَى الْقِصَّةِ . يَقَالُ : فَلَانِ حَسَنَ الْاِقْتِصَاصِ لِلْحَدِيثِ أَيُّ جِدَّ السِّيَاقَةِ لَهُ . وَقِيلَ :  
 الْقَصَصُ لَيْسَ مَصْدَرًا ، بَلْ هُوَ فِي مَعْنَى الْأَكْسَمِ ؛ كَمَا يَقَالُ : اللَّهُ رَجَاؤُنَا ، أَيُّ مَرْجُونَانَا ؛ فَالْمَعْنَى  
 عَلَى هَذَا : نَحْنُ نَخْبِرُكَ بِأَحْسَنِ الْأَخْبَارِ . ( بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) أَيُّ بِوَحْيِنَا فِي « مَا » مَعَ الْفِعْلِ  
 بِمِثْلَةِ الْمَصْدَرِ . ( هَذَا الْقُرْآنَ ) نَصَبَ الْقُرْآنَ عَلَى أَنَّهُ نَمَتْ لَهُذَا ، أَوْ بَدَلَ مِنْهُ ، أَوْ عَطْفٌ  
 بَيَانٌ . وَأَجَازُ أَقْرَأَ الْخَفَضُ ؛ قَالَ : عَلَى التَّكْرِيرِ ؛ وَهُوَ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ « مَا » .

(١) الرز السراج ؛ ومذاليت .

• تحول في ه آلى انا •



وأجاز أبو إسحق الرقي على إختصار مبتدأ ، كأن سائلا سألَه عن الوحي فقيل له : هو القرآن .  
 ( وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَلِيلٍ مِنَ الْغَافِلِينَ ) أى من الغافلين عما هم هناك .

مسئلة - واختلف العلماء لم تسميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقسام ؟  
 فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ؛ وبما  
 قوله في آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص  
 بحسن مجازة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وغفوه عنهم - بعد العقابهم - عن ذكر  
 ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها  
 ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والإنس والأنام والطير ، وسير الملوك  
 والملوك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد  
 والفقه والسيرة وتعبير الرؤيا ، والسباسة والمعاشرية وتدير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح  
 للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا  
 بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها  
 كان ماله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وأمرأة العزيز ؛ قيل : ولذلك أيضا أسلم  
 بيوسف وحسن إسلامه ؛ ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع  
 إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ  
 كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( إِذْ قَالَ يُوسُفُ ) « إذ » في موضع نصب على الظرف ؛ أى اذكر لهم حين  
 قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمزة وكسر  
 السين . وحكى أبو زيد « يُؤْسَف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمي ؛ وقيل :  
 هو عربى . وسئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكما - عن « يوسف » فقال : الأسف في اللغة



الحزن؛ والإسيف البعد، وقد أجمعا في يوسف؛ فقلت ثم يوسف. (لَا يَبِيءُ يَا أَبَتِ) بكسر الهمزة قراءة أبي عمرو وطامع وثاقف وحزنة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التانيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التانيث على المذكر فيقال: ورجل نكحة وهزاة؛ قال النحاس: إذا قلت «يا أبت» بكسر الهمزة فالتاء عند سيويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها - أن قولك: «يا أبة» يؤدي عن معنى «يا أبا»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبت» فكسر دل على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتى»؟ وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبت» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبنا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا فلانا أقبل. وأجاز الفراء «يا أبت» بضم التاء. (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) ليس بين النحويين اختلاف أنه يقال: جاءني أحد عشر، ورأيت ومررت بأحد عشر، وكذلك ثلاثة عشر وتسعة عشر وما بينهما؛ جعلوا الأسمين أسماء واحدا وأعربوها بأخف الحركات. قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مستندا، ورواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة - وهو رجل من أهل الكتاب - فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذبال وقابس والمصبح<sup>(١)</sup> والضروح وذو الكنفات وذو القرع والقلق ووثاب والممودان؛ وأما يوسف عليه السلام تسجد له. قال ابن عباس وقادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كما في «مقد الجان» للعيني، وفي الأصل «الطلع».



آية . (رَأَيْتَهُمْ) توكيد . وقال : « رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ » بقاء مذكرا ، فالقول عند الخليل وسيويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والتسجود وهما من أفعال من يعقل يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن يعقل . وقد تقدم هذا المعنى في قوله : « وَتَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَسْكَدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (فَيَسْكَدُوا لَكَ كَيْدًا) أى يحالوا في هلاكك ؛ لأن تأويلها ظاهر ، فربما يحلهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام في « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق بعدى من المبهشات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة براهها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى « من سبعين جزءا » . وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « جزء من أربعين جزءا من النبوة » . ومن حديث ابن عمر « جزء من تسعة وأربعين جزءا » . ومن حديث العباس « جزء من خمسين جزءا من النبوة » . ومن حديث أنس « من ستة وعشرين » وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين من النبوة » . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه في الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرهما فن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ابن بطال . قال أبو عبد الله الحارثي : والأكثر والأصح عند أهل الحديث « من ستة وأربعين » . قال الطبري : والصواب أن



يُحَالُ إِنْ طَلَعَتْهُ الْأَحَادِيثُ أَوْ أَكْثَرُهَا صَحَاحٌ، وَلِكُلِّ حَدِيثٍ مِنْهَا مَخْرَجٌ مَعْقُولٌ؛ فَمَا قَوْلُهُ :  
 «إِنَّمَا جِزْمٌ مِنْ سَبْعِينَ جِزْمًا مِنَ النَّبُوءَةِ» فَإِنَّ ذَلِكَ قَوْلٌ عَامٌ فِي كُلِّ رُؤْيَا صَالِحَةٍ صَادِقَةٍ، وَلِكُلِّ  
 مُسْلِمٍ رَأَاهَا فِي مَنَامِهِ عَلَى أَيْ أَحْوَالِهِ كَانَ؛ وَأَمَّا قَوْلُهُ : «إِنَّمَا مِنْ أَرْبَعِينَ - أَوْ - سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ»  
 فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ مَنْ كَانَ صَاحِبَهَا بِالْحَالِ الَّتِي ذَكَرْتُ عَنْ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ  
 كَانَ بِهَا؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكْرُوهَاتِ،  
 وَاتِّظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَرُؤْيَاهُ الصَّالِحَةُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - جِزْمٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جِزْمًا مِنْ  
 النَّبُوءَةِ، وَمَنْ كَانَتْ حَالُهُ فِي ذَاتِهِ بَيْنَ ذَلِكَ فَرُؤْيَاهُ الصَّادِقَةُ بَيْنَ الْجِزْمَيْنِ؛ مَا بَيْنَ الْأَرْبَعِينَ  
 إِلَى السَّبْعِينَ، لَا تَنْقُصُ عَنْ سَبْعِينَ، وَتَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ؛ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ أَبُو عَمْرٍو  
 عَبْدُ الْبَرِّ فَقَالَ : اخْتِلَافُ الْأَثَارِ فِي هَذَا الْبَابِ فِي حُدُودِ أَجْزَاءِ الرُّؤْيَا لَيْسَ ذَلِكَ عِنْدِي اخْتِلَافٌ  
 تَضَادٌّ وَتَدَانُفٌ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ رَأَاهَا عَلَى  
 حَسَبِ مَا يَكُونُ مِنْ صِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَالذِّينِ الْمُنِينِ، وَحَسَنِ الْيَقِينِ؛ فَمَنْ قَدَّرَ  
 اخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهَا وَصَفَتْهَا تَكُونَ الرُّؤْيَا مِنْهُمْ عَلَى الْأَجْزَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْعَدَدِ؛ فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ  
 فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَيَقِينُهُ وَصِدْقُ حَدِيثِهِ، كَانَتْ رُؤْيَاهُ أَصْدَقَ، وَإِلَى النَّبُوءَةِ أَقْرَبَ؛ كَمَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ  
 يَتَفَاوَلُونَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ» .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض  
 وطرحه ؛ ذكر أبو سعيد الأسفأقيسي من بعض أهل العلم قال : معنى قوله : «جزء من ستة  
 وأربعين جزءا من النبوة» فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة  
 ثلاثة وعشرين عاما - فيما رواه عكرمة وعمرون دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما -  
 فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا ؛  
 وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه «المعلم» ، واختاره القنوي في تفسيره من سورة  
 «يونس» عند قوله تعالى : «لم البشرية» . وهو فاسد من وجهين : أحدهما - ما رواه

(١) السمرات (جمع سيرة) يكون الياء : شدة اليرد .



أبو سَلَمَةَ عن ابن عباس، وعائشة أَنَّ مَلَأَ الْوَحْيَ كَانَتْ عِشْرِينَ سِتَّةً ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَّرَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عِشْرِينَ ، وَهُوَ قَوْلُ عَمْرٍو وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ شِهَابٍ وَالْحَسَنُ وَطَهَّاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَلَى اخْتِلَافٍ عَنْهُ ، وَهِيَ رِوَايَةُ رُبْعَةٍ وَأَبَى غَالِبٍ عَنْ أَنَسٍ ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا الْحَدِيثُ بِطُلُّ ذَلِكَ التَّأْوِيلِ : الثَّانِي — أَنَّ سَائِرَ الْأَحَادِيثِ فِي الْأَجْزَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ تَتَّقِي بَعْضُهَا بَعْضًا .

الثالثة — إِنْمَا كَانَتْ الرُّؤْيَا جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا مَا يَجُزُّ وَيَمْتَنِعُ كَالطَّيْرَانِ ، وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ ، وَالْإِطْلَاعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ النَّبِيِّ ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مَبَشِّرَاتِ النَّبُوءَةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ " الْحَبِيثُ . وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَإِنَّ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ مِنَ اللَّهِ ، وَأَنَّهَا مِنَ النَّبُوءَةِ ؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ " وَأَنَّ التَّصَدِيقَ بِهَا حَقٌّ ، وَلَهَا التَّأْوِيلُ الْحَسَنُ ، وَرَبَّمَا أَغْنَى بَعْضُهَا عَنِ التَّأْوِيلِ ، وَفِيهَا مِنْ بَدِيعِ اللَّهِ وَلَطْفِهِ مَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ فِي إِيْمَانِهِ ؛ وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا بَيْنَ أَهْلِ الدِّينِ وَالْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْإِثْرِ ، وَلَا يَنْكَرُ الرُّؤْيَا إِلَّا أَهْلُ الْإِلْحَادِ وَشِرْكَمُذَّةٍ مِنَ الْمُعْتَرَةِ .

الرابعة — إِنْ قِيلَ : إِنْمَا كَانَتْ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ فَكَيْفَ يَكُونُ الْكَافِرُ وَالْكَاذِبُ وَالْمُخَلِّطُ أَهْلًا لَهَا ؟ وَقَدْ وَقَعَتْ مِنْ بَعْضِ الْكَافِرِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَا يَرْضَى دِينَهُ مَنَامَاتٍ صَحِيحَةٍ صَادِقَةٍ ؛ كَنَامِ رُؤْيَا الْمَلِكِ الَّذِي رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ ، وَمَنَامِ الْفَتْنَيْنِ فِي السَّجَنِ ، وَرُؤْيَا <sup>وَجُزْءِهِ</sup> يُحْتَنَصِرُ ، الَّذِي فَسَّرَهَا دَانِيَالُ فِي ذَهَابِ مَلِكِهِ ، وَرُؤْيَا كَسْرَى فِي ظَهْوَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنَامِ مَا تَكَلَّمَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِهِ وَهُوَ كَافِرٌ ، وَقَدْ تَرَجِمَ الْبُخَارِيُّ « بَابَ رُؤْيَا أَهْلِ السَّجَنِ » فَأَجَابَ — أَنَّ الْكَافِرَ وَالْفَاجِرَ وَالْفَاسِقَ وَالْكَاذِبَ وَإِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاؤُهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ لَا تَكُونُ مِنَ الْوَحْيِ ، وَلَا مِنَ النَّبُوءَةِ ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ صَدَّقَ فِي حَدِيثٍ عَنْ غَيْبٍ يَكُونُ خَبَرُهُ ذَلِكَ نَبُوءَةً ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْأَنْعَامِ » أَنَّ الْكَاهِنَ وَغَيْرَهُ قَدْ يُخْبِرُ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ فَيَصْدَقُ ، لَكِنْ ذَلِكَ عَلَى التَّنَوُّلِ وَالْقَلْبَةِ ، فَكَذَلِكَ رُؤْيَا هَؤُلَاءِ ؛ قَالَ الْمُهَلَّبِيُّ : إِنَّمَا تَرَجِمَ الْبُخَارِيُّ .



بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الحامسة - الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خير الأضغاث هي الحُلم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تنفي عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا ثلاثة منها أهو أيل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من سنة وأربعين جزءا من النبوة". قال قلت: سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فَعَلَ كالتَّسْمَى والبُشْرَى؛ وأنفسه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ ف قيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وضيقه؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرأى علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصبح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن الله ملكا يعرض الرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعان معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مباشرة أو مندرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره: "رأيت سوداء<sup>(١)</sup> نائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مَهْجَةٍ فَأَوَّلُهَا الْحُمَى".

(١) أي امرأة سوداء، كما في رواية الترمذي. (٢) المهجة: هي الخفة، ميمات أهل الشام.



و"رأيت سفي قد أقطع صدره وقرأ ثمرة فأولتهما رجل من أهل بني نحتل والبقرة من  
أصحابي يفتلون". و"رأيت أني أدخلت يدي في درج حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت يدي  
سوارين فأولتهما كذاين يخرجان بعدي". إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر  
معناه أولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام  
بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة - إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صبورا وقت رؤياه، والصغير لا حكم  
لعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: «لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ؟»  
فالجواب - أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك  
الحقيقي في البقطة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر  
الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان  
أبن اثنتي عشرة سنة.

الثامنة - هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على  
من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين العقيلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:  
"الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يتحدث بها صاحبها  
فإذا حلت بها وقعت فلا يتحدثوا بها إلا عاقلا أو مجبا أو ناصحا" أخرجه الترمذي وقال فيه:  
حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟  
فقال: أما النبوة فليعلم؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به،  
وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه  
لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا  
يتلاعب بالنبوة.

التاسعة - وفي هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذر المسلم أخاه المسلم من يخافه  
عليه، ولا يكون داخلا في معنى النبوة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن



يخص رؤياه على إخوته فيكنوا له كنبه، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى فائلته حسدا وكيدا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «استحبوا على [الإنجاء] حوائجكم بالكتان فإن كل ذي نعمة محسود». وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبخسه، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تبطل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرد القطع بعصمة الأنبياء من الحسد الدنيوي، وعن حقوق الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله، ولا التضات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الكبار، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصفات على ما تقدم وياتي.

السائرة - روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسررائها، وإنما يريها الله تعالى للمؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لتزول ابتلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على مجته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: «لَمْ يَكُنِ الْبَشَرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أنها الرؤيا الصالحة. وهذا حديث البخاري أخرجه على الأغلب، والله أعلم.



الحادية عشرة - روى البخاري عن أبي سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتروني حتى سمعت أبا قتادة يقول ؛ وأنا كنت لأرى الرؤيا فتروني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره " . قال علماؤنا : بفعل الله الامتانة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبي قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أنقل علي من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعددتها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذي كان عليه " . وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتحول ، والصلاة زيادة ، ففعل الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، وإذا تغمض تفل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا ونصرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٢١**

قوله تعالى : ( **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ) الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر ضووف ، وكذلك الكاف في قوله : **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ** . و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والاحتباء اختيار معالي الأمور للجنبي ، وأصله من جيت



التي أرى حظه ، ومنه جيت الماء في الخوض ، قاله النحاس . وهذا شاء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتمديد فيا مدده عليه من النعم التي أتاه الله تعالى ، التمكن في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الحاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ، وذلك منتهى الرؤيا . وحكى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام ، وهي معجزة له ، فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبيا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصديق رضي الله عنه من أعب الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيها ذكروا . وقد قيل في تأويل قوله : ( وَيَسْأَلُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : ( وَيَسْأَلُكَ عَنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) أي بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوانك إليك ، وقيل : بإخباتك من كل مكروه . ( سَأَلَهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ) بالخلعة ، وإخباته من النار ( وَإِسْحَاقَ ) بالنبوة . وقيل : من الذبح ، قاله حكيم . وأعلمه الله تعالى بقوله : ( وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ) أنه سيعطى بنى يعقوب كلهم النبوة ، قاله جماعة من المفسرين . ( إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ) بما يعطيك . ( حَكِيمٌ ) في عمله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّالِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَمَنْ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحْمِلُ لَكُمْ وَجْهَهُ أُبُيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ( لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّالِينَ ) يعني من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آية » على التوحيد ، وأختار أبو عبيد « آيات » على الجمع ، قال : لأنها خبر كثير . تن النحاس : و « آية » هنا قراءة حسنة ، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر



يوسف آية فيما خبروا به؛ لأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا: أخبرنا من رجل من الأنبياء كان بالشام أُنْجِرَ أبْنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ وإنما وجه اليهود من المدينة يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة «يوسف» بجملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزائدة؛ فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت. «آيات» موعظة؛ وقيل: عبرة. وروى أنها في بعض المصاحف «مبرة».

وقيل: بصيرة. وقيل: عجب؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أى عجب. قال التلمی في تفسيره: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسده؛ قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فيغوه بالعداوة؛ وقد هتتم رد هذا القول. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وأسمائهم: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولون ويساخر، وأهمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من مريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالى وجاد وأشر؛ ثم توفيت ليا فزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً. قال السهيلي: وأُمُّ يعقوبَ أسماءها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن أزر هو خال يعقوب.

وقيل: في أُمِّ الأمتين ليا وثلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾ «يُوسُفُ» رفع بالابتداء، واللام للتأكيد، وهى التى يتلقى بها القسم؛ أى والله ليوسف. «وَأَخُوهُ» عطف عليه. «أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا» خبره، ولا يتنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فآثمروا في كيدته. «وَتَحْنُ عَصْبَةً» أى جماعة، وكانوا عشرة. والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من تعظيها كالنفر



والرحط . ( إِنَّ أَبَاءَ قَتِيلٍ ضَلَالِ الدِّينِ ) لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ؛ بل أرادوا قتل قاتلهم ، في إثارة اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه . وقيل : لقي خطأ بين إثارة يوسف وأخاه عليا .

قوله تعالى : ( أَقْتُلُوا يُوسُفَ ) في الكلام حذف ، أى قال قاتل منهم : « أقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر . ( أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضاً ) أى في أرض ، فأسقط الخافض وانتصب الأرض ، وأشد سيوياً فيها حذف منه « في » :  
لَدُنْ هَـؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ يَسِيلُ مَتْنُهُ . فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ النَّعْلُ<sup>(١)</sup>

قال النحاس : إلا أنه في الآية حسن كثير ؛ لأنه يتمدى إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، فإذا حذفت الحرف تمدى الفعل إليه . والقاتل قيل : هو شمعون ؛ قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأحبار ؛ دان . وقال مقاتل : روبيل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضاً تبعد عن أبيه ؛ فلا بد من هذا الإحصار لأنه كان عند أبيه في أرض . ( يَحْتَلُّ ) جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو ( لَكُمْ وَجْهٌ أَيْبِكُمْ ) فيقبل عليكم بكيته . ( وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ) أى من بعد الذنب . وقيل : من بعد يوسف . ( قَوْمًا صَالِحِينَ ) أى تائبين ؛ أى تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَاتِلِ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْحَبِّ يَلْقَاهُ نَعْرُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

(١) البيت لساعدة بن جؤبة وقد وصف فيه رجلاً من اخوة يوسف ، فنهضه اضطرابه في نفسه أدق حال هزه بسلامة القلب في سيرة ؛ والصلان : سيرة سريع في الضرب . والقدن : اللانام فليلين . ويروى : له ؛ أى يستند عند الخزلية . ( شواهد سيوية ) .



فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْهُمْ ﴾ القاتل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب،  
قاله ابن عباس. وقيل : روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال : « فلن أبرح الأرض » .  
وقيل : شمعون . ﴿ وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة  
« في غيابة الجب » . وقرأ أهل المدينة « في غَيَابَاتِ الْجُبِّ » واختار أبو عبيد التوحيد، لأنه  
على موضع واحد لقوله فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضيق في اللغة ؛  
« وغيابات » على الجمع [ يجوز من وجهين ] : حكى سيبويه سيرَ عليه عشبَانَاتٍ وأصيلَانَاتٍ،  
يريد عِشبةً وأصيلاً، فجعل كل وقت منها عِشبةً وأصيلاً ؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغَيَّب  
غَيَابَةً [والآخر - أن يكون في الجب غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يغيب غَيَابَةً وَغَيَابَةً  
وغيَاباً ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا قَالِبَتَا شَهْرَيْنِ أَوْصَفَ نَالِي \* أَنَا ذَاكُمَا قَدْ غَيَّبْتَنِي غَيَابَ

قال المروى : والغَيَابَةُ شبه الجبِّ أو طاق في البرق فويق الماء، يغيب الشيء عن العين .  
وقال ابن عزيز : كل شيء غُيِّبَ عنك شيئاً فهو غَيَابَةٌ . قلت : ومنه قيل للقبر غَيَابَةٌ ؛  
قال الشاعر :

فَإِن أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتَنِي غَيَابَتِي \* فَسِيرُوا بِسِرِّي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجبُّ الرُكْبَةُ التي لم تُطَوَّ، فإذا طُوِيَتْ فهي بئر ؛ قال الأعشى :

لئن كُنْتُ فِي جُبٍّ نَمَائِنٍ قَامَةً \* وَرُقِيتَ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بَسْمَلُ<sup>(١)</sup>

وسميت جباً لأنها قُطِعَتْ في الأرض قطعاً، وجمع الجبِّ جِبِيَّةٌ وجِبَابٌ وأَجَابٌ ؛ وجمع بين  
الغَيَابَةِ والجِبِّ لأنه أراد لقوله في موضع مظلم من الجبِّ حتى لا يلاحظه نظر الناظرين قيل :

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) الجب : الناحية من الخوض أو البرزخ الماء فيصير كالكهف .

(٣) بصد :

فَيَسْتَدْرِجُكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْزَأَ \* وَتَسْلَمَ أَنِّي عَنْكَ غَيْرُ مَلِيعٍ

وَتَشْرُقَ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْنَعَهُ \* كَأَنَّهُ قَتَلَ مَعْدَانَ مِنْ الدِّمِ



هو بئر بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ؛ قاله وهب بن منبه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثانية - قوله تعالى : ( يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ) جزم على جواب الأمر . وقرأ بجاهد وأبو رجاء والحسن وقناة : « تَلْقَاهُ » بالياء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السَّيَّارَةِ سَيَّارَةٌ ؛ وقال سيويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد :  
وَتَشْرُقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدْعَتْهُ • كَمَا تَشْرُقُ صَدْرُ الْقَنَاقَةِ مِنَ الدَّمِ  
وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السَّيِّئِ أَخَذَنَ مَنَى • كَمَا أَخَذَ السَّرَّاءُ مِنَ الْمِثْلَالِ

ولم يقل شريق ولا أخذت . والسَّيَّارَةُ الجمع الذين يسرون في الطريق السفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السَّيَّارَةِ يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجهها في التدير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا ياذن لهم أبوهي ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة - وفي هنا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولاد ولا أمراء ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلة نبي ، فكانت هذه زلة منهم ، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكثرات ما قدامهم . وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة - قال ابن وهب قال مالك : طرح يوسف في الحب وهو غلام ، وكذلك روى ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صغيراً ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ »

- (١) البيت فلا معنى ، وهو يحتاج إلى زيد بن سبر الشياطين ، وكانت بينهما مباحة ومهاجاة ؛ فيقول له : بصره عليك مكره ما أذنت من القول وبصره للذهاب من التبع ، فلا نجد له خطا . والشرق بالماء كالنقص بالماء .  
(٢) سار الكثر (فتح السين الموحدة وكسرهما) وسره : أنزله .



فِي غِيَابِهِ الْجُحْبُ يَلْقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ « قال : ولا يلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَانُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَّ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أُرْسِلَهُ مَعَنَا قَدْ رَتَعَ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامسة - الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللقيط واللقطة ؛ ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْقِطُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحسبه . وقد اختلف العلماء في اللقيط ؛ ف قيل : أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر ، وتلا « وَشَرُّهُ يَمِّنُ يَحْسِبُ قَدَرَاهُمْ مَمْدُودَةٌ » وإل هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علي وجماعة . وقال إبراهيم النخعي : إن نوى رقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حر . وقال مالك في موطنه : الأمر عندنا في المنبذ أنه حر ، وأن ولأه جماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَتَقَى » قال : ففى الولاء عن غير الممتق . وانفق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لأبوالى أحدا ، ولا يرثه أحد بالولاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين ، اللقيط يوالى من شاء ، فمن والاه فهو يرثه ويعقل عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذى والاه ، فإن عقل عنه جنابة لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه : المنبذ حر ، فإن أحب أن يوالى الذى التقطه والاه ، وإن أحب أن يوالى غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حر . قال ابن العربي : إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ، ففضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيما نصارى ومسلمون قال ابن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زينة اليهود فهو يهودى ، وإن وجد عليه زينة النصارى فهو نصرانى ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية



على غير الإسلام . وقال فيه : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تقليبا لحكم الإسلام الذي يعملو ولا يُعَلَى عليه ، وهو مقتضى قول أنسب ؛ قال أنسب : هو مسلم أبدا ، لأنني أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . وأختلف الفقهاء في المنبوء تدل البيعة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولنا في ذلك ، وإلى هنا ذهب أنسب لقول عمر هو حر ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيعة في أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البيعة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكوافي .

السادسة - قال مالك في القيط إذا أنفق عليه المنقط ثم أقام رجل البيعة أنه أئنه فإن للمنقط يرجع على الأب إن كان طرعه متعديا ، وإن لم يكن طرعه ولكنه ضل منه فلا شيء . حل الأب ، والمنقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على القيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعي : كل من أنفق على من لا تجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم يكن فقيه قولان : أحدهما - يستقرض له في نفسه . والثاني - يقسط على المساكين من غير عوض .

السابعة - وأما للنفقة والضوال فقد اختلف العلماء في حكمها ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : النفقة والضوال سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هنا ذهب أبو جعفر الطحاوي . وأنكر قول أبي حنيفة القاسم بن سلام سلان الضالة لا تكون إلا في الحيوان والنفقة في غيرها ليسوان . وقال حنفا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإناث المسلمين : « إن أنكرت ضلت ثلاثتها » فاعلمت ذلك على الثلاثة .

الثامنة - جمع العلماء على أن النفقة مالم تكن ثانيا يسيها أو شيئا لا يقاء لها فإنها تُعرف حولا كاملا بأرجحها أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من منقطعها إذا ثبت له أنه صاحبها ، ولو سوا أن منقطعها إن اكتمل بعد الحل وأراد صاحبها أن يضمه فإن ذلك له ، وإن تصدق بها فصاحبها غير من التضمين ومن أن يتدل على أوجهها ، فأي ذلك خير كان ذلك له بلا حرج ؛



ولا تطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالة الغنم الخروف عليها أن لا أكلها .

التاسعة - وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها، فمن ذلك أن في الحديث دليلًا على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلا . وقال في الشاة: " لك أولأخيك أو للذئب " يحضه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتية وبه . ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ، هذا قول إسماعيل وابن إسحق رحمهما الله . وقال المزني من الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أمينًا عليها ، قال : وسواء قليل اللقطة وكثيرها

العاشرة - روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : " أعيرف عَقاصها ووكامها ثم عَرَفها سنة فإن جاء صاحبها والإشائك بها " قال : فضلالة الغنم يا رسول الله ؟ قال : " لك أولأخيك أو للذئب " قال : فضالة الإبل ؟ قال : " ما لك ولما معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها " . وفي حديث أبي قال : " أحفظ مددها ووعاءها ووكامها فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها " ففي هذا الحديث زيادة العدد ؛ تحريمه لمسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِصاص اللقطة ووكامها من إحدى علاماتها وأدلتها عليها ، فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له ، قال ابن القاسم : يُجبر على دفعها ، فإن جاء مستحق يستحقها بينة أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئًا ، وهل يخلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان ؛ الأول لأشهب ، والثاني لابن القاسم ، ولا يلزمه بينة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له ، وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) الفصاح : الرماح التي يكون به الفتحة ، جهل كان أو غيره . والوكا : هو الكيط الذي يشبهه الوطيس والمزاد بالفصاح والوكا . أن يمل الملتقط مدق واصفها من كذبه ، ويأخذها خفياء فهي أقوى بأخفافها على السر وهبوطه الماء والشجر .



ولو كانت اليقظة شرطاً في التفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والمدد معنى ؛ فإنه يستحقها باليقظة على كل حال ؛ ولما جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة - نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماءنا في البقر هل تلتحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الحليب والبنال والحير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تلتقط ، وقال أشهب وابن بكارة : لا تلتقط ؛ وقول ابن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " أحفظ على أخيك المؤمن ضأنه " .

الثانية عشرة - وأختلف العلماء في النفقة على الضوأل ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدواب والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أتفق عليه ويكون أحق به كالأمن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضوأل من أخذها فهو متطوع ؛ حكاه عنه الترمذي . وقال المزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً ، وما أذع قبل منه إذا كان مثله قصداً . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يهبها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة - ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللقطة بعد التعريف : " فاستمع بها " أو " فشانك بها " أو " فهي لك " أو " فاستنفقها " أو " ثم كُلها " أو " فهو مال الله يؤتية من يشاء " على ما في صحيح مسلم وغيره ما يدل على التملك ، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا نجاء ربه ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف<sup>(١)</sup>

(١) (إن لم تعرف) : أي إن لم تعرف صاحبها .



فاستغفها ولكن ودية عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأثما إليه " في رواية " ثم  
كُنْها فإن جاء صاحبها فأثما إليه " خرج البخاري ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها منى  
جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف ، تلك  
الظواهر ، ولا تنفك لقوله ، بخالفة الناس ، ولقوله عليه السلام : " فأثما إليه " .

قوله تعالى : قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ  
لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾  
قوله تعالى : ( قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ) قيل الحسن : أي حسد المؤمن ؟  
قال : ما أنساك بنى يعقوب ! ولهذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ؛ فعند ذلك  
أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : « يَا أَبَانَا  
مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لما تفاوضوا وافتقروا على رأى المتكلم الثاني عادوا إلى  
يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول . وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج  
معه يوسف فأبى على ما أبى . قرأ يزيد بن القعقاع وعمر بن عبيد والزهرى « لَا تَأْمَنَّا »  
بالإدغام ، وبغير إشماع وهو القياس ؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ما كنا . وقرأ طلحة بن  
مُصَرِّف « لَا تَأْمَنَّا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين - وروى  
عن الأعمش - « لَا يَتَمَّا » بكسر التاء ، وهى لغة تميم ؛ يقولون : أنت تضرب ؛ وقد تقدم .  
وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشباع ليدل على حال الحرف قبل إدغامه . ( وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ )  
أى فى حفظه وغفلة حتى نرتد إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة  
يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فينتد قال أبوهم : « إِنى لَيَحْزُنُنِى أَنَّ  
تَلْهَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية . ( أَرْسَلَهُ مَعَنَا  
غَدًا ) إلى الصحراء ( يَرْتَع وَيَلْعَب ) « غدا » ظرف ، والأصل عند سيبويه قَدَرٌ ، وقد  
نطق به على الأصل ؛ قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غَدَوَةٌ ،



وكذا بكرة . « نزع ونلب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نزع » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « نزع ونلب » بإياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بإياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب دَنَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلَا كيف شاء ؛ والمعنى : تنسح في الحصب ؛ وكل غصب راح ؛ قال :

• فارعى فزارة لاهتاك المرتع •

وقال آخر :

ترتع ما غفلت حتى إذا أذكرت • فأنما هي إقبال وإدبار

وقال آخر :

أكفراً بعد رد الموت حتى • وبعد عطائك المائة الزمانا

أى الزانة لكثرة المرمى . وروى معمر عن قتادة « ترتع » تسمى ؛ قال النحاس ؛ أخذه من قوله : « إنا ذهبنا نستيق » لأن المعنى : نستيق في العدو إلى غاية بيننا ؛ وكذا « يرتع » بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم ؛ أى ليتدرب بذلك ويتجمل ؛ فترتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القتيبي « ترتع » تتعارس وتتعاظف ؛ ويرعى بعضها بعضاً ؛ من قولك : رعاه الله ، أى حفظك . « ونلب » من اللعب . وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف قالوا « ونلب » وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحذور الذى هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلب » . ومنه قوله عليه السلام : « فَيَلَا بُكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ »<sup>(١)</sup> .

(١) فى الأصل (فارعى) وهو محريف . (٢) أليت تحشاء من فصيحة ترى بها أخاها حشوا . ومعنى (ترتع) ترى . نصف ناقة أو بقرة قدلت ولها ، فكما غفلت عنه ونسيت ، فإذا أدركته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فحشوها مثلاً فحشوا أخاها حشوا . (٣) هو القتل . (٤) الخطاب لما برن عبد الله ؛ وذكر ملا على عن العليي : أن الملاعبة عبارة عن الألفة النامة ، فإن اليب قد تكون حقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبة

كلمة بملان بكر



وقرأ مجاهد وقطادة : « رَيْع » مل معنى يَرِيع مطبته ، لحذف المفعول ، « ويلعب » بالرفع مل الاستئناف ، والمعنى : وهو من يلعب . ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافُظُونَ ) من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالا . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يقبض يراهم ، ثم لما فابوا عن عينه طرحوه ليمدو معهم إضرارا به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلَسِرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ) في موضع رفع ، أى ذهابكم به . أخبر عن حزنه لنتيجته . ( وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ ) وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شذ على يوسف فلذلك خافه عليه ، قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد أحترشته تريد أكله ، فدوا عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام ، فكانت العشرة أخوته ، لما تماكثوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتوارى في الأرض هو مقامه في الجب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ لخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكفى عنهم بالذئب مسارة لهم ، قال ابن عباس : فساهم ذلابة . وقيل : ماخافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصحارى . والذئب مأخوذ من تَذَامَبَتِ الرِّيحُ إذا جاءت من كل وجه ، كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) رَيْع من أَرِيع ؛ وقد ورد في الأصول بالياء ، والذي في تفسير ابن عطية والألوسي وأبي حيان من مجاهد وقطادة هو (بالنون) وجرم (تعب) قال ابن عطية : ( وقراءة مجاهد وقطادة « ريع » بضم النون وكره اللام . و « لعب » بالنون والجرم ) . (٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأحمسي : إن تذاامت مشتق من الذئب ؛ لأن الذئب يمشي في عدوه ؛ وتعب بأن أخذ القمل من الأسماء الجاردة قليل غالف لقياس .



لأنه يحيى من كل وجه . وروى ورش عن نافع « النَّيْبُ » بغير هـ ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة تخففها صارت ياء . ( وَأَنْتُمْ عَنْهُ قَائِلُونَ ) أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ( قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ النَّيْبُ وَتَعْنُ عُصْبَةٌ ) أى جماعة نرى النيب ثم لا زوده عنه . ( إِنَّا إِنَّا نَحْمِلُونَهُ ) فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع النيب عن أحيانا فنحن اعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « نحملون » بلأهلون بحقه . وقيل لما جازون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ) « أن » فى موضع نصب ؛ أى حل أن يجعلوه فى غيبة الجب . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أحد ملهيم ميثاقا فليظف ليحفظته ، وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنى شفقى عليه ؛ فإن جاع فاطمه ، وإن عطش فأسقه ، وإن أعبأ فأحمله ثم تجل برقه إلى . قال : فأخذوا يحملونه على أكافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُسِيمهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصراهم عنهم رماه للذى كان يحمل له إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من النيط والصف ؛ فاستأث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على ، وأقرب الأخوة إلى ، فارحمى وأرحم ضعى » فظلمه ظلمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فتنبك منا ؛ فلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتملق بأخيه يهونا وقال : يا أنى ! أرحم ضعى وعجزى وحدانية منى ، وأرحم قلب أيسك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيت وصيته وقضيت عهدك ؛ فرق قلب يهونا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا مادمت حيا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبي إلى أبيته ، ونعاهده



ألا يحسنت والله بنى، مما جرى أبداً، فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك  
 للمكانة عند يعقوب ، والله لن لم تدعه لثقتك معه ، قال : فإن أيتهم إلا ذلك فهاتنا هنا  
 الحب الموحش القفر، الذى هو ماوى الحيات والموام فألقوه فيه، فإن أصيب بنى من ذلك  
 فهو المراد، وقد استرحم من دمه ، وإن انفلت على أيدي سيارة ينهبون به إلى أرض فهو  
 المراد، فأجمع رأيهم على ذلك، فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ  
 فِي غِيَابَةِ الْحَبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف، أى فلما ذهبوا به واجمعوا على طرده فى الحب  
 ضلعت فتتهم . وقيل : جواب « لما » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِى » . وقيل  
 التقدير : فلما ذهبوا به من عند أبيهم واجمعوا أن يجعلوه فى غيبة الحب جعلوه فيها، هنا  
 على مذهب البصريين، وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة، والواو  
 ههنا تزد مع لما وحتى، قال الله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت،  
 وقوله : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرئ القيس :  
 ﴿ فَلَمَّا أَبْرَرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَنْقَضَى <sup>(١)</sup> .

أى انتهى، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْيَسِيرِ . وَتَدِينَاهُ » أى نادياه . وفى قوله :  
 ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة :  
 أعطاه الله النبوة وهو فى الحب على حجر مرتفع عن الماء . وقال الكلبي : ألقى فى الحب وهو  
 ابن ثمانى عشرة سنة، فما كان صغيراً، ومن قال كان صغيراً فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير  
 ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ » . وقيل : كان  
 مناماً، والأقول أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَتَنبَغْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه  
 سيلقاهم ويوجههم على ما صنعوا ، فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الحب تقوية لقلبه،  
 وتبشيراً له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به، فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمام البيت ، • يا بلن عبت ذى صفاق ضفيل •



في الحب إنداراله . (وَمَنْ لَا يَشْعُرُونَ) أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : يوحى الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم . وما ذكر من قصته إذ أتى في الحب - ما ذكره السدي وغيره - أن إخوته لما جعلوا يدلون في البئر تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ووزعوا قيصه؛ فقال : يا إخوتاه! ردوا علي قيصي أتواري به في هذا الحب، فإن مت كان كفي، وإن عشت أوارى به عورتى؛ فقالوا : أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فتؤنسك وتكسك؛ فقال : إني لم أر شيئا، فملوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى حفرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحب لإرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عيسى؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى حارسته بين الرمي والوقوع فأقصده على الصخرة سالما . وكان ذلك الحب مأوى الهوام؛ فقام على الصخرة وجعل يبكي، فتأدوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرحضوه بالصخرة فتمهم هونا، وكان هونا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين أتى في النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما أتى في الحب عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فالبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا : وما هي؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غربيا فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله



بمكان ، ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب ، يا صاحب كل وحيد ، يا ملجأ كل خائف ، يا كاشف كل كرب ، يا عالم كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا حى يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى ، حتى لا يكون لى هم ولا شغل فزعك ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ونجرا ، إنك على كل شىء قدير ، فقالت الملائكة : إلهنا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبي ، والدعاء دعاء نبي . وقال الصّحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الحب فقال له : ألا أملك كلمات إذا أنت قلتهن يحل الله لك خروجك من هذا الحب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، يا جابر كل كثير ، يا شاهد كل نجوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا مفزع كل كرب ، يا صاحب كل غريب ، يا مؤنس كل وحيد ، أيتى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سواك ، فرددها يوسف فى ليله مرارا ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الحب .

قوله تعالى : وَجَاءَ وَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١١٦﴾

فيه مستلثان :

الأولى — قوله تعالى : « وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال ، وإنما جاءوا عشاء ليكنوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العيين ، ولا تتندر بالنهار من ذنب فتتلجج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى النعم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فابن يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستيق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قبيصه ؟ على ما يأتى بيانه . وقال السدى وابن حبان : إنه لما قالوا أكله الذئب نزع منشا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهونا يده على مخارج نفْس يعقوب فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ؛ فقال لهم يهونا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أمانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يبق يعقوب إلا يرد السحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ؛



فقال : يا روبيل ! ألم أملك على ولى ؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُف عني بكلامك أخبرك ؛ فكُف يعقوب بكلامه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانية - قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن السمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إِذَا أَشْتَبَكَ دَمُوعٌ فِي حُدُودِ • تَيَّبَ مِنْ بَكْيٍ يَمْنُ تَبَاكِي

قوله تعالى : قَالُوا يَبْنَأُنَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيَتْرَكُنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾  
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « نستيق » تفعل ، من المسابقة . وقيل : أى تتفضل ؛ وكذا في قراءة عبد الله « إنا ذهبنا نتفضل » وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهري : التفضل في السهام ، والزَّهَانُ في الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال الفشيري أبو نصر : « نستيق » أى في الرمي ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والفرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو ، لأنه الأكلة في قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السدي وأبن حبان : « نستيق » نشد جريا لرى أينما سبق . قال ابن العربي : المسابقة شريعة في الشريعة ، وتخصلة بديعة ، وتكون على الحرب ؛ وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبجيله ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ؛ فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبته ؛ فقال لها : « هذه بتلك » .

قلت : وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لما رجعا من ذي قرد إلى المدينة فسبته سلمة ،

نحرمه مسلم .



الثانية - وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التي قد أُشْهِمَتْ [من الحَفِيَاءِ] <sup>(١)</sup> وكان أمداً ثَلَاثَةَ الْوَقَاعِ <sup>(٢)</sup>، وسابق بين الخليل التي لم تُضْمَرْ من الثَّيَّةِ إلى مسجد بنى زُرَيْقٍ، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بلونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني - أن تكون الخليل متساوية الأحوال. الثالث - ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة. والليل التي يجب أن تُضْمَرَ ويسابق عليها، وتقام هذه السنة فيها هي الخليل المعتدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة - وأما المسابقة بالنَّصَلِ والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قَرَلًا مَرَلًا فَبِئْسَ ما يَصِلُحُ خِجَاهُ، ومنا من يَنْقِصُ، وذكر الحديث. وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا سَبَقَ إِلَّا فِى نَصَلٍ أَوْ خَفٍّ أَوْ حَافِرٍ». وثبت ذكر النَّصَلِ من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي، وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العَضْبَاءُ لا تُسَبِّقُ - قال حميد: أو لا تكاد تُسَبِّقُ - بغاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: «حق على الله ألا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

الرابعة - أجمع المسلمون على أن السَّبَقَ لا يجوز على وجه الزَّهَانِ إِلَّا فِى الْخَلْفِ والحافر والنَّصَلِ؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَقُ فيما قار. وقد زاد أبو البختري

- (١) ضمير الخليل: هو أن يظهر عليها العقب حتى تسنن، ثم لا تخط إلا قوتاً لتخف. وقيل: قصد عليها سرورها، وتجل بالأخفة حتى تفرق تحتها، فينبه عليها ويستند لها، ويكون ذلك لفرو أو سابق.
  - (٢) الزيادة من (موطأ مالك). والحفيا: (بالدقيق) موضع بالمدنية بين ثنية الوداع من أمال أو سبعة.
  - (٣) الثنية في الجبل كالقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أهل الميل في رأسه؛ وثنية الوداع مشقة على المدينة سميت بذلك، لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بنى ذوق ميل.
  - (٤) «لا سبق»: هو وضع اليد ما يجيل السابق على سببه من المال؛ وبالكون مصدر. قالوا انطلقوا.
- الصحيح رواية فتح؛ أي لا يحل أخذ المال بالسياسة إلا في هذه الثلاثة.



القاضي في حديث الخف والحافر والتصل «أو جناح» وهي لفظة وضعا للرشد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته ؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَقَ إلا في الخيل والرمي ؛ لأنه قوة على أهل الحرب ؛ قال : وسَبَقَ الخيل أحب إلينا من سَبَقِ الرمي . وظاهر الحديث يسوى بين السَّبَقِ على التَّجَبُّ والسَّبَقِ على الخيل . وقد منع بعض العلماء الزَّهَّان في كل شيء إلا في الخيل ؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة ؛ وقد تُؤَوَّلُ قوله ؛ لأن حله على العموم يؤدِّي إلى إجازة القمار ، وهو محرم بانفاق .

الخامسة - لا يجوز السَّبَقُ في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، كما ذكرنا ؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَقُ فيه إلا بنهاية معلومة ورشَق معلوم ، ونوع من الإصابة ؛ مشروط تحسُّفاً<sup>(١)</sup> أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَقُ عطية الوالى والرجل غير الوالى من ماله متطوعاً فيحصل للسابق شيئاً معلوماً ؛ فن سَبَقِ أخذه . وسَبَقِ يخرج أحده المتسابقين دون صاحبه ، فإن سبقه صاحبه أخذه ، وإن سبق هو صاحبه أخذه ، وحسن أن يعضيه في الوجه الذى أحره له ، ولا يرجع إلى ماله ؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والسَّبَقُ الثالث - اختلف فيه ؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرج به صاحبه ، فأيهما سبق أحرز سَبَقَهُ وسَبَقِ صاحبه ؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخل بينهما محلاً لا يأمن أن يسبقهما ؛ فإن سبق المحل أحرز السَّبَقَ جِيعاً وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سَبَقَهُ وأخذ سَبَقِ صاحبه ، ولا شيء للمحل فيه ؛ ولا شيء عليه . وإن سبق الثانى منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعى - ؛ وحكم الفرس للمحل أن يكون مجهولاً جريحاً ؛ وحسب محلاً لأنه محل السَّبَقِ للمتسابقين أوله . وأخفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سَبَقَهُ وسَبَقِ صاحبه أنه فار ، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله



عليه وسلم قال : <sup>٢٨</sup> « من أدخل فرما بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس يجاز ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قار » . وفي الموطأ عن سعيد بن مسيب قال : ليس برهان الخليل بأس إذا دخل فيها محلل ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سبق لم يكن طيبة شيء ، وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . واختلف في ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلل في الخليل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ، وهو الأجود من قوله .

السادسة - ولا يخل على الخليل والإبل في المسابقة إلا محسّم ، ولو ركبا أربابها كان أولى ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخليل في السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السبق أن يسبق بالمدى <sup>(١)</sup> أو بعضه ، أو بالكفل أو بعضه . والسبق من المرأة على هذا النحو عنده ؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى أبو بكر وثلاث عمر ، ومعنى وصل أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصلوان موضع العجز .

قوله تعالى : ﴿ وَرَكَّا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِهِ ﴾ أي عند ثيابنا والثبتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » اخذوا ذلك من فيه فتحزموا به ، لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أي بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أي وإن كنا ، قاله المبرد وأبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتي بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولا تهمتنا في هذه القضية ، لشدة عيبك في يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

(١) الهادي : الحق لقوله « والجمع مراد » .



قوله تعالى : وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ  
 أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾  
 قوله تعالى : ( وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سبخة أو جدى ذبحوه .  
 وقال قتادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قيصه بدم مكذوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ،  
 فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وأسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان  
 بالمصدر ؛ يقال : هذا ضرب الأمير ، أى مضروبه ، وماء شرب أى مسكوب ، وماء غور  
 أى غائر ، ورجل عدل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَذِبٍ » بالذال غير المعجمة ، أى بدم طرى ؛ يقال  
 للدم الطرى الكذب . وحكى أنه المنعبر ؛ قاله الشعبي . والكذب أيضا البياض الذى يخرج  
 فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص البياض الذى يخرج فى الظفر  
 من جهة اختلاف اللونين .

الثانية — قال علماؤنا رحمه الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم  
 قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التثريب ؛ إذ لا يمكن اقتراس  
 الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه  
 السلام القميص فلم يجد فيه ترقوا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا  
 الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن  
 يسماعيل بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم سبخة . وروى سفيان عن يسماعيل  
 عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص .  
 وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُذِ  
 قيصه من دبره ، وحين أتى على وجهه ألبه فارتد بصيرا .



قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُذِّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قُذِّ هو الذى أتى به فارتدَّ بصبراً على ما أتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ؛ فاختلف قولهم ، فأنهمهم ، فقال لهم يعقوب : زعمون أنب الذب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يفضى إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شقٍّ يزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره ؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لآتيننا .

الثالثة : أستدل الفقهاء بهذه الآية في أعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام أستدل على كذبهم بصحة القميص ؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تناقضت ، فما ترجح منها فبما فيه الترجيح ، وهى قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ، قاله ابن العربي .  
قوله تعالى : ( قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ النَّفْسُ لَكُمْ آمْرًا قَصِيرًا ) .  
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذب » قال لهم : لم يترك الذب له عضواً فتأتونى به أستانس به ؟ ! ألم يترك لى ثوباً أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَثِيرٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه ، فأروه فتشمه وقبله ، ثم جعل يقبله فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كالיום ذنباً أحكم منه ؛ أكل أبى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمنفضب باكياً حزينا وقال : يا معشر ولدى ! دلونى على ولدى ؛ فإن كان حياً رددته إلى ؛ وإن كان ميتاً كفنته ودفنته ؛ فقبل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أينما كيف يكذبنا ؛ فى مقالتنا ! فقالوا نخرجهم من الحب ونقطعهم عضواً عضواً ، ونأت إيانا بأحد أعضائه فيصطقلنا



في مقاتلته ويقطع بأسه ؛ فقال يهوذا ؛ والله لئن فعلت لأكون لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرن  
 أباكم بسوء صليكم ؛ قالوا ؛ فإذا منعتنا من هذا فمالوا نصطد له ذنباً ، قال ؛ فاصطادوا  
 ذنباً ولطخواه بالدم ، وأوثقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا ؛ يا أبانا ! إن هذا الذنب  
 الذي يحمل باغتنا ويفترسها ، ولعله الذي ألجأنا بأخينا لا نملك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال  
 يعقوب ؛ أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتصبص له الذنب ، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له ؛ آدن  
 آدن ؛ حتى ألقى خذته بخذته فقال له يعقوب ؛ أيها الذنب ! لم فجعتني بولدي وأورثتني  
 حزنا طويلا ؟ ثم قال ؛ اللهم أطلقه ، فأنطقه الله تعالى فقال ؛ والذي أصفاك نيا ما أكلت  
 لحمه ، ولا مرقت جلده ، ولا نتقت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالي بولدك عهد ، وإنما  
 أنا ذنب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقد ، فلا أدري أحي هو أم ميت ،  
 فاصطادني أولادك وأوثقوني ، وإن لحوم الأبناء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، والله !  
 لا أقت في بلاد يكذب فيها أولاد الأبناء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال ؛ والله لقد  
 أبتم بالجهة على أنفسكم ؛ هذا ذنب جيم نخرج يتبع ذمام أخيه ، وأتم ضيعت أخاك ، وقد علمت  
 أن الذنب يرى مما جئتم به . ( بَلْ سَوَّلَتْ ) أي زينت . ( لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ) غير ما تصفون  
 وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه ؛ ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) وهي ؛

الثانية - قال الزجاج ؛ أي فشأن والذي اعتقده صبر جميل . وقال قطرب ؛  
 لي فصبري صبر جميل . وقيل ؛ أي فصبر جميل أولى بي ؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف .  
 ويروي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال ؛ " هو الذي لا شكوى  
 معه " . وسيأتي له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم ؛ قرأ عيسى بن عمر  
 فيما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال ؛ وكذا قرأ الأشهب الثقفي ؛ قال وكذا  
 في مصحف أنس وأبي صالح . قال المبرد « فصبر جميل » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن  
 الثاني ؛ قال رب عندي صبر جميل ، قال ؛ وإنما النصب على المصدر ، أي فلا صبرت صبرا  
 جميلا ؛ قال ؛



شَكَاَ إِلَىٰ جَمَلٍ طَوَّلَ النَّسْرَ • صَبْرًا جَمِيلًا فَكَلَّمَا بَنِيَّ

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى • وقيل : المعنى لا أشارككم على كتابة الوجه  
وعبوس الجبين ، بل أشارككم على ما كنت عليه معكم ، وفي هذا ما يدل على أنه عفا من  
مؤاخذتهم • وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان  
يرفعهما بخرقه ؛ ف قيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحران ؛ فأوحى الله إليه  
أَتَسْكُنُونِي يَا يَعْقُوبُ ؟ ! قال : يا رب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لي • ( وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ) آيَتُهُ  
وخبر • ( عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ ) أى على احتمال ما تصفون من الكذب •

الثالثة — قال ابن أبي رفاعه : يبنى لأهل الراى أن يبهما رأيهم عند ظن يعقوب  
صلى الله عليه وسلم وهو نبي ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَعَبْنَا نَسْتَقِي وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَا عَيْنَا  
فَأَكَلَهُ اللَّذَبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فاصاب حساء ؛ ثم قالوا  
له : « إِنَّ أَبْنَاكَ مَرَّقَ وَمَا نَجِدُنَا إِلَّا يَمَامًا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِنُتِيبَ حَافِظِينَ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ  
لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » فلم يصب •

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دُلُوفَهُمْ قَالَ يَبْنَشَرِي  
هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ<sup>١</sup> وَاللَّهُ عَلِيمٌ<sup>٢</sup> بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ) أى رفقة مازة يسبرون من الشام إلى مصر فاخطوا  
الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجيب ، وكان الجيب في قفزة بعيدة من المعمران ، إنما  
هو للزمامة والمجاز ، وكان مأواه ملما فغلب حين أتى فيه يوسف • ( فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ )  
فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل • وجاءت • •  
والوارد الذي يرد الماء يستقى للقوم ؛ وكان اسمه — فيا ذكر المفسرون — مالك بن دهم<sup>٣</sup> •

(١) ويرى (صبر جميل) في البيت ويحمل على إجماع بيتنا أو غيره • • يرى (صيرة جميل) على لغة أهل الشام •

(٢) دهم • هو بالذال المعينة والذال تصحيف كالقاسم •



من العرب العاربة . ( فَأَتَى دَلَوَهُ ) أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملاها ، ودلّاهما أى أخرجهما عن الأسمى وغيره . ودلا - من فوات الواو - يدلو دلوها ، أى يجذب وأنخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ، اتباعا للمستقبل . وجمع دَلَوُ في أقل العدد أدلى ، فإنما كثرت قلت : دلى ودلى ؛ فقلت الواو ياء ، إلا أن الجمع يابه التغيير ، ويفرق بين الواحد والجمع ؛ ودلاه أيضا . فتعلق يوسف بالجبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شطر الحسن " . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، خنم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، فليظ الساعدين والمضطرين ، تحبب البطن ، صغير الشرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شمع الشمس من ثنائه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجلال من جده سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دهم قال : « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » هذه امرأة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ابن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يحز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما - أسم الغلام ، والثاني - يا أيتها البشرية هذا حيئك وأوانك . قال قتادة والسدي : لما أدلى للملئ دلوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدي : نادى رجلا أسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسما ؛ وإنما يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ نَبْعَثُ نُفُولًا عَلَى قُلُوبِهِمْ » وهو ثقيبة ابن أبي معيط ، وصده « يَا بَيْتِي لَمْ أَجِدْ فُلَاكَ خَلِيلًا » وهو أربيا



لبن خلق ؛ قاله النحاس والعسّى في نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أؤكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيويوه ، وكذا قال السهيلي . وقيل هو كما تقول : واسروراه ! وإن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهذا أصح لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون « بشرى » في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ؛ أى انتبهوا لقرحتي ومروري ؛ وعلى قول السدى يكون في موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا كلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك يا رجلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . ( وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً ) الماء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعه » نصب على الحال . قال مجاهد : أسره مالك بن دُعر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرقة ، وقالوا لهم : هو بضاعه استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس أسره إخوة يوسف بضاعه لما استخرج من الحب ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعت ! هذا عبد لنا أبق ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تُفتر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنتفكك ؛ فقال : أنا أقول لكم بالعبودية ، فافتر لم يباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لأخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل فتلك ؛ ففعل الله أن يجعل لك مغرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمعة العبيد ؛ قالوا : هو تربى في مجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتادب بأدبنا ؛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت في مجورهم ، وتلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن يمتوه مني أشترته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك ۞

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

الزَّاهِدِينَ ﴿١٢٥﴾



فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى أشرت ، وشريت بمعنى  
بعت لغة ؛ قال الشاعر <sup>(١)</sup> :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي \* مِنْ بَعْدِ بُرْدِ كُنْتُ هَامَةً

أى بعت . وقال آخر :

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتْ الْمِيْرُ عَبْرَةً \* وَفِي الصَّدْرِ حُرْازٌ مِنَ اللُّؤْمِ حَامِرٌ <sup>(٢)</sup>

﴿ يَتَمَنَّى بَخْسٍ ﴾ أى نقص ، وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بئس مبخوس ،  
أى مقصود . ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه  
من خلق وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الحب فأخبر  
إخوته بغاؤا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البر يتعزفون الخبر ،  
فأروا أثر السيارة فاتبوهم وقالوا : هذا عبدنا أبى منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بخص  
ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطية : « بخص » حرام . وقال ابن العربى :  
ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه  
فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلق وجه أبيهم  
عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطعا ؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا  
بضاعة فأروا أنهم لم يسكوا عنه ثمننا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا  
القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم  
أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشعمي :  
قليل . وقال ابن حبان : زئف . وعن ابن عباس وآبن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ  
كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو : يزد بن فرخ الهيرى ؛ ( برد ) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للناخ ، قاله  
فدحيل باع قومه من رجل - وحامر ، حاصر ، وقيل : أى تمض عرق . ( اللسان ) .



ومقاتل ؛ اثنين وعشرين درهما ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمن ؛ وقاله مجاهد ؛  
وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بنيس » من نعت  
« ثمن » . « دراهم » على البدل والتفسير له . ويقال : دراهم على أنه جمع درهم ، وقد  
يكون اسما للجمع عند سيويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مد الكسرة فصارت ياء ، وليس  
هذا مثل مد المقصور ؛ لأن مد المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد  
التحويون ؛

تَسْنِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ حَاجِرَةٍ • تَقَى الدَّرَاهِمُ تَتَقَادَّ الصَّيَارِفُ

(ممدودة) نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم مثلًا لا وزنا بوزن . وقيل ؛  
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون  
ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانية — قال القاضي ابن العربي : وأصل التقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :  
« لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى » .  
والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما حينها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها المد تخفيفا عن  
الخلق لكثرة المعاملة ، فيشقى الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لحاز بيع بعضها ببعض  
هذا إذا لم يكن فيها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت ماد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك  
كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تخدم .

الثالثة — وأختلف العلماء في الدرهم والدنانير هل تسعين أم لا ؟ وقد اختلفت  
الرواية في ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظاهر من قول  
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ابن القاسم إلى أنها تسعين ، وحكى عن الكرخي ؛ وبه  
قال الشافعي . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا لا تسعين فإذا قال : بتك هذه الدنانير بهمة

(١) البيت لفرزدق ؛ وصف تارة سرية السير في الهواجر ؛ فنهج خروج الحصى من تحت مناسمها بإرتفاع الدرهم  
عن الأصابع إذا قلت .



الدرهم تملقت الدنانير بذمة صاحبها ، والدرهم بذمة صاحبها ؛ ولو تبينت ثم تلفت لم يتعلق  
بذمتها شيء ، وبطل المقد كبيع الأعيان من المروض وغيرها .

الرابعة - روى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر ،  
وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة - قوله تعالى : ( وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ) قيل : المراد إخوته . وقيل :  
السيارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبطا ، لا عند الإخوة ؛ لأن  
المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبي منّا - والزهد قلة  
الرياسة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، وراوا أن القليل من ثمنه  
في الأفراد أولى .

السادسة - في هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطيئ بالثمن البسيط ،  
ويمكن البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع ذرة ذات خطر عظيم بدينار ثم قال لم أعلم أنها  
ذرة وحسبها تحسب<sup>(١)</sup> لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أي  
في حسنه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواحي نفوس القوم  
إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى . وحكى  
سيبويه والكشاف زهدت وزهدت بكسر الميم وفتحها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَتْهُ مِنْ مُضَرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَنُونَهُ  
عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَرُ وَلَئِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمَكَّنَّا يَوسُفَ فِي الْأَرْضِ  
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(١) المختلة : نزع أبيض يشاكل اللون .



قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ) قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ، إذ لم يكن ذلك عقداً ، مثل : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » . وقيل : لهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، بخرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضحاك : هذا الذي اشتراه ملك مصر ، وقيقه العزيز . السبكي : وأسمه قطيفر . وقال ابن إسحق : لطيفر بن رويحب اشتراه لأمراته راحيل ، ذكره الماوردي . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقي حبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ، ذكره القشيري . وقد ذكر القوليين في اسمها التملبي وغيره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطيفر وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من الهللفة . وقيل : هو فرعون حوسي ، لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في « ظفر »<sup>(١)</sup> بيانه . وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزان الملك ، واشترى يوسف من مالك بن دُحمر بشرين ديناراً ، وزاده حلة وطين . وقيل : اشتراه من أهل الرقة . وقيل : ترايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه يسكاً وعتبراً وحريراً وورقا وذهباً ولآلئاً وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ، فابتاعه قطيفر من مالك بهذا الثمن ، قاله وهب بن منبه . وقال وهب أيضاً وغيره : ولما اشترى مالك بن دُحمر يوسف من أخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : « هذا ما اشترى مالك بن دُحمر من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بشرين درهما ، لقد شرطوا له أنه أبى ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً سلسلاً ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودعهم يوسف عند ذلك ، فجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلتوني ، رحمكم الله وإن لم ترحموني ، قالوا : فالتفت الأغنام ما في بطونها دماً عيطاً لثقة هذا التوديع ، وحمله على قتب بغير غطاء ولا وطاء ، مقيداً مكبلاً سلسلاً ، فز على مقبرة آل كتمان فرأى قبراً له . وقد كان وكل به أسود يحرسه فنفل الأسود . فالتقى يوسف نفسه على قبر أمه وجعل يتخف



ويستحق القبر ويضطرب ويقول : يا أئمانه ! أرفى رأسك ترى لديك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولاً فزقوا بيني وبين والدي ، فالإله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين ، فننقده الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره فإذا هو بياض على قبر ، فأنمله فإذا هو إياه ، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا ، فقال له : لا تنفل ! والله ما هربت ولا أقيت ، وإنما صررت بقبر أُمى فأحببت أن أودعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ، فقال الأسود : والله إنك لبعيد سوء ، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ، فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فاسالك بحق آبائي إبراهيم وإسماعيل ويعقوب أن تغفر لي وترحمني ، فضجت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غصص صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عالمها سافلها ؟ قال : تنبت يا جبريل ، فإن الله حلیم لا يعجل ، فضرب الأرض بمخاضها فأظلمت ، وأرتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ، فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا ؟ — فإني أسافر منذ كنت وكنت ما أصابني قط مثل هذا — فقال الأسود : أنا لظلمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ، ولا أشك أنه دعا علينا ، فقال له : ما أردت إلا هلاكا ! آيتنا به ، فأناه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمك بغداة ما رأيت ، فإن كنت تفتنص فأقتصص ممن شئت ، وإن كنت تغفو فهو الظن بك ، قال : قد عفوت رجاء أن يغفو الله عني ، فانبجست النجفة ، وظهرت الشمس ، وأضاء مشارق الأرض ومغارها ، وجعل التاجر يزوره بالنداء والعشي ويكرمه ، حتى وصل إلى مصر فاعستل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، ورد عليه جماله ، ودخل به البلد نهارا قسط نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطيعير وزير الملك ، قاله آبن عباس على ما تقدم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزانة الأرض ، فلك بعده قابوس وكان كافرا ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فآمن . « اكرمي مثواه » أي منزله ومقامه بطيب العلم واللباس الحسن ، وهو



ماخوذ من نوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تَقَدَّمَ فى « آل عمران » وقصره . ( عَسَى أَنْ يَتَغَفَّلَا )  
 أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . ( أَوْ تَخَذَهُ وَلَدًا ) قال ابن عباس : كان حُصُورًا  
 لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف  
 قال « أَوْ تَخَذَهُ وَلَدًا » وهو ملكه ، والولدية مع العبدية متناقض ؟ قيل له : يستغنى ثم يتخذ  
 ولدا بالتبني ؛ وكان التبنى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أوّل الإسلام ، حتى ما يأتى  
 بيانه فى « الأحزاب » إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة  
 ثلاثة ؛ العزير حين يفرس فى يوسف فقال : « عَسَى أَنْ يَتَغَفَّلَا أَوْ تَخَذَهُ وَلَدًا » ، وبنت  
 شعيب حين قالت لأبيها فى موسى « أَسْتَأْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينُ » ، وأبو بكر  
 حين استخلف عمر . قال ابن العربي : عجبا للفسرين فى اغفالهم على جلب هذا الخبر !  
 والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر » وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن  
 الصديق إنما ولى عمر التجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحة وطولها ، والإطلاع  
 على ما شاهد منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شعيب فكانت  
 معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى « القصص » . وأما أمر العزير فيمكن أن يجعل فراسة ؛  
 لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ) الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما  
 اقتضاه من إخوته ومن الحب فكذلك مكّاه ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى  
 تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . ( وَلَعَلَّهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ )  
 أى فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب : « وَيَسْأَلُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى  
 مكّاه لنحوى إليه بكلام منا ، ونعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . ( وَآلَهُ  
 قَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ) الهاء واجبة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شئ ، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٢ طبعه أول مرة - (٢) راجع المصنف الأول والثاني فى تفسير آية ٥ .

(٣) راجع تفسير آية ٧٥ - (٤) راجع تفسير آية ٢٦ .



تسلمه فيما يريد أن يقول له : كن فيكون . وقبل : ترجع إلى يوسف ؛ أي الله غالب على  
أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يهلكه إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كاند . ( وَلَكِنْ أَكْثَرُ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ) أي لا يعلمون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم  
الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه . وقيل :  
للمنى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن  
بالقدر . وقالت الحكمة في هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب  
ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص ؛ ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى  
صار مليكا ومحبدا بين يديه ؛ ثم أراد الإخوة أن يخلوهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق  
عليهم قلب أبيهم ، وأفكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، فقال : « يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ »  
ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا  
عليه حتى أفروا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة ، وقالوا لأبيهم : « إِنَّا كُنَّا  
خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلَى سَوَّلْتُ لَكُمْ  
أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا » ثم احتالوا في أن تزول محبة من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشرق  
في قلبه ، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن أبنته بالكلام غلبته ، فغلب أمر الله حتى قال العزيز :  
« أَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْخَاطِئِينَ » ، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر  
الساق فغلب أمر الله ففنى الساق ، وليث يوسف في السجن يضع ستي .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٧﴾

بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ «أشده» عند سيوريه جمع، واحده شدة . وقال الكسائي : واحده شد ، كما قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارُ كَأَنَّمَا • خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعَظِيمِ

(١) هو حنظل القبيح - وشدة النهار : أى أشدّه - بيني أطلاه - والبان : الصدر، وقيل : وسطه في الليل - ما بين الليلين، وروى : «البان» - والسلم حجارة شجر أو بنت صلبه، أو الرصعة، وهي عجوة وروثها عذاب.



وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون نقصان  
بعد . وقال مجاهد وقناة : الأثد ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك  
ابن أنس : الأثد بلوغ الحلم ؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و «الأحكام» مستوفى .  
(آيَتَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) قيل : جعلناه المستوفى على الحكم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى  
وأيتناه علما بالحكم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحكم النبوة ، والعلم علم  
الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتي النبوة صبيًا قال : لما بلغ أشده زدها فهما  
وعلمًا . (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) بنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر  
يوسف ؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان يخرج ظاهرًا على كل محسن فالمراد  
به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قامى ما قامى  
ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن  
لك في الأرض .

قوله تعالى : وَرَوَدَتْهُ أَنَّى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابُ  
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بِرَهْنِ رَبِّهِ  
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَرَوَدَتْهُ أَنَّى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) وهى امرأة العزيز ، طلبت منه  
لأن يواظمها . وأصل المراودة الإراادة والطلب برفق ولين . والرود والرياد طلب الكلاء ؛ وقيل ؛  
هى من رويد ؛ يقال : فلان يمشى رويدا ، أى برفق ؛ والمراودة الرقى في الطلب ؛ يقال

(١) راجع ج ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعه أدل أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها

طبعه أدل أو ثانية .



في الرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه . والرود الثاني ؛ يقال : أرودني أمهني . ( وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ) غلق للكثير ، ولا يقال : غلق الباب ؛ وأغلق يقع للكثير والتقليل ؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

ما زلت أغلق أبواباً وأفتحها • حتى أتيت أبا عمرو بن عمار

يقال : إنها كانت سبعة أبواب فظقتها ثم دعه إلى نفسها . ( وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ) أَي هَلُمَّ وأقبل وتعال ؛ ولا مصدر له ولا تصرف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجل ما فيها وأصحها إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما علمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما علمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والماء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة والحسن ومجاهد وعكرمة ؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزرة والكسائي . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا في القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلُمَّ وَتَعَالَ . وقرأ ابن أبي إسحاق النحوي « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي « وآبن كثير » هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء ؛ قال طرفة :

ليس قومي بالأبدين إذا ما • قال داج من العشيّة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فينب مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثاب « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ما كنة والتاء مضمومة . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ما كنة والتاء مضمومة . وعن ابن طاهر وأهل الشام « وَقَالَتْ هَيْتُ » بكسر الهاء وبالحمزة وفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتَ لَكَ » بفتح التاء لانتفاء الساكنين ، لأنه صوت نحومة وصحة يجب ألا يعرب ،



والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ، ومن كسر التاء فأنا كسرها لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعاني لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيث وبعد . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر — أن يكون فعلا من هَاء يَمِيء مثل جاء يَمِيء ؛ فيكون المعنى في « هَيْت » أى حسفت هَيْتَكَ ، ويكون « لَكَ » من كلام آخر ، كما قول : لَكَ أَعْنَى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تَهَيَّأتْ لك ؛ وكذلك من قرأ « هَيْتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — معمر بن الْمُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تَهَيَّأتْ ! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هذا ؟ وقال الكسائي أيضا : لم تُحَكَّ « هَيْتُ » عن العرب . قال عكرمة : « هَيْتُ لَكَ » أى تَهَيَّأتْ لك وتريفت وتخصمت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع في العربية . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرَّجُلُ يَهَاءُ وَيَمِيءُ هَيْأَةً فَهَاءُ يَمِيءُ مثل جاء يَمِيءُ ، وهَيْتُ مثل جِئْتُ . وكسر الهاء فى « هَيْت » لفظة لقوم يؤثرون كسر الهاء على فتحها . قال الزجاج : أجمود القراءات « هَيْت » بفتح الهاء والتاء ؛ قال طَرَفَةُ :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما • قال داج من العشرة هَيْتَ

بفتح الهاء والتاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلغَ أَسِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا

إِنِّ الرِّقَاقَ وَأَهْلَهُ • يَسْلُمُ إِلَيْكَ قَهْتِ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : « هَيْت » كلمة بالمرىانية تدعوه إلى قسمها . وقال السدي : معناها بالقبطية هَلَمْ لك . قال أبو عبيد كان الكسائي يقول : هى لفظة لأهل حَوْرَانِ وقعت إلى أهل الحجاز معناه تمال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شبيغا طالما من حَوْرَانِ فذكر أنها



لنعمهم ، وبه قال مكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعو بها إلى نفسها ، وهي كلمة حث وإقبال على الأشياء ، قال الجوهري : يقال هَوَّتْ به وهَيْتَ به إذا صاح به ودعاه ، قال :

فَدَرَانِي أَنْ الْكَرَى أَسْكَ • لَوْ كَانَتْ مَعْنِيًا بِهَا لَهَيَّا

أى صاح ، وقال آخر :

• يَحْدُو بِهَا كُلُّ قَى هَيَاتِ •

قوله تعالى : ( قَالَ مَآذَ اللَّهِ ) أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتهى إليه ، وهو مصدره أى أعوذ بالله مآذاً ، فيحذف المفعول وينصب المصدر بالفعل المحذوف ، ويضاف المصدر إلى أسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : مررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو . ( إِنَّهُ رَبِّي ) يعنى زوجها ، أى هو سيدى أكرمنى فلا أخزونه ، قاله مجاهد وأبن إسحق والسدى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولى بطفءه ، فلا أركب ما حرّمه . ( إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ) وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرّحِمِ صَوْرَتِي رَبِّي ، قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرَكَ ! قال : هو أول شئ يسأل منى فى قبري ، قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظر إلى ربى . قالت : يا يوسف ! أرفع بصرَكَ فأنظر فى وجهي ، قال : إني أخاف العمى فى آخرتى . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف ! القبطون فادخل منى ، قال : القبطون لا يسترنى من ربى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقض حاجتى ، قال : إذا يذهب من الجنة نصيبى ، إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجمها ، إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يحلن إلى يوسف يسئل شهوة حتى نبأه الله ، فأتى عليه هبة النبوة ، فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه . واختلف العلماء فى همه ، ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القبطون : المذنب ، أجمعى ، وقيل : لغة أهل مصر وروبر



(لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولكن لما رأى البرهان ما هم به؛ وهذا لوجوب المعصية لأتباعه؛ قال الله تعالى: (كَذَٰلِكَ لِنُصِرفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ) فإذا في الكلام تهديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه هم بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لم يهت بها. وقال أحمد بن حنبل: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين المروى في كتابه. قال جميل:

هَمَّتْ بِهِمْ مِنْ بُيُوتِنَا لَوْ بَدَأَ • شَفِيتُ غَلَايِلَ الْهَوَىٰ مِنْ فُرَادِيَا

آخر:

هَمَّتْ وَلَمْ أَفْضَلْ وَكَذْتُ وَلَيْتَنِي • تَرَكْتُ عَلَىٰ غَنَائِ تَبْكِي حَلَاثِي

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: هم بها تمنى زوجيتها. وقيل: هم بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه فسد بها بالحرام فامتنعت فضر بها. وقيل: إن هم يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وطائفة، فها ذكر القشيري أبو نصر، وابن الأثير والنحاس والماوردي وغيرهم. قال ابن عباس: حلّ الهَيَّانُ<sup>(١)</sup> وجلس منها مجلس الخائن، وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجلها يترع ثيابه. وقال سعيد ابن جبير: أطلق يَكَّةَ سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الإكيتين، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته. قال ابن عباس: ولما قال: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّكُمْ أَخْتِي بِالْأَقْرَبِ» قال له جبريل: ولا حين همت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: «وَمَا أَتَىٰ نَفْسِي». قالوا: والآنكفاف في مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للتواب.

(١) الهَيَّانُ شداد السراويل.



قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»<sup>(١)</sup>  
 إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى  
 ما هم به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» وجوابه لم تتناسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا  
 القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلاً للذين يروا  
 أن تو يتم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ،  
 وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجل زليخا وأخذ فى حل  
 ثيابه ونكته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام :  
 وآين عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه هم بها ، وهو أعلم بالله ويتأويل كتابه ، وأشد تعظيماً  
 للأنياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى  
 الأنياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا ينسوا من التوبة . الفزوى : مع أن لذة الأنياء حكا ؛  
 زيادة الوجل ، وشدة الحياء بالجهل ، والتخل عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بمد  
 الأمل ، وكونهم أمة رجاء أهل الزلل . قال القشيري أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف  
 هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للمقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القليل لا يؤاخذ  
 به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا  
 لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس ؛  
 والبرهان صرفه عن هذا المم حتى لم يصر عزماً مصمماً .

قلت : هذا قول حسن ؛ ومن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه  
 الآية إن كون يوسف فى هذه التازلة لم يصح كونه نبياً ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان  
 كذلك فهو مؤمن قد أوتى حكماً وعلماً ، ويمحور عليه المم الذى هو إرادة الشئ دون موافقة  
 وأن يستصحب الخاطر الردى . على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبياً فى ذلك الوقت  
 فلا يمحور عليه عندى إلا المم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شئ مما ذكر من حل نكته

(١) راجع تفسير آية ٨٤ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .



ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون في ديوان الأنبياء وتفضل فعل السفهاء » فإتّما معناه العبدّة بالنبوّة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح ؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه ، وهو قول جماعة من العلماء ؛ وإن كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون المهّم الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر ؛ وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق ، إذ لا قدرة للكلف على دفعه ؛ ويكون قوله : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أى من هذا المهّم ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخالفة النفس لما زكّى به قبل وبرئ ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ما تقدّم بيانه ، وخبر الله تعالى صدق ، ووصفه صحيح ، وكلامه حق ؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته ، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله ؛ فما تعرّض لأمرأة العزيز ، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنها وفر منها ، حكمة خُصّ بها ، وعملاً بمقتضى ما علمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال أرقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمنتهى وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرّاء<sup>(١)</sup> . وقال عليه السلام مخبراً عن ربه : " إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإذا كان ما بهم من العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب ؛ وفي الصحيح : " إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " وقد تقدّم . قال ابن العربي : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية ، — وأى إمام — يعرف بأبن عطاء ! تكلم يوماً على يوسف وأخبره حتى ذكر تبرّئه مما نسب إليه من مكروه ؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليفة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيّد ! فإذا يوسف هم وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن النهاية من تمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمعلم ، وانظر إلى فطنة العاقل في سؤاله ،

(١) من هاء ، أى من أبيل ، على نسخة من صحيح مسلم من جرّاء .



وجواب العالم في اختصاره واستيفائه ؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » إنا أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا قررت عصمته وبراهمه ببناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَبُ بْنُ عَمِيانَ : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته امرأة فسامته ففسدت نفسها فامتنع عليها وتركها ، فقالت : إن لم تفعل لأشبهرك ؛ فخرج وتركها ، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذي هممتُ ، وأنت سليمان الذي لم تهتم ؟ ! فإن هَذَا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ؛ ولو قدرنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ؛ ولو ظقت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة نليف عليه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( تَوَلَّى أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) والجواب مخوف لعلم السامع ؛ أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ؛ فروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكمل بالبرز والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستعجى من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستعجى من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا في سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الرِّثْيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَاءَ سَيْلًا » . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها « وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب في الإنبياء وتعمل لحمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران طامعا على أئمنته يتوعدنه فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سراويله فمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف ! فولى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال : مثل له يعقوب فنضرب



صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، وقص تلك الشهوة وله ؛ وقيل غير هذا . وبالحجة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وأمتنع عن المعصية

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ) الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رضا ، بأن يكون خبر ابتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نداء لمصدر محذوف ؛ أى أريانه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء التناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وآبن طاهر « المخلصين » بكسر اللام ، وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقر بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صل الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : ( وَاسْتَبَقَا أَلْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )

قوله تعالى : ( وَاسْتَبَقَا أَلْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ ) .

فيه مستثنان :

الأولى — قوله تعالى : ( وَاسْتَبَقَا أَلْبَابَ ) قالت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذى يجمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتماديا ، هى لثمة إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركه قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خلفه ، قبضت فى أعلى قيصه فتحزق القميص عند طوقه ، وتزل التحريق إلى أسفل القميص .



والاستباق طلب السبق إلى الشيء ؛ ومنه السباق . والفقد القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً ؛ قال النابغة <sup>(١١)</sup> :

تَقْدُ السُّلُوقِ الْمُضَاعَفَ تَسْجُهُ • وَتَوْقُدُ الصُّفَاحَ نَارَ الْحُبَابِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرَضاً . وقال المفضل بن حرب : قرأت في مصحف « فلماً رأى قَيْصَهُ عَطُ مِنْ دُرٍّ » أى شَقَى . قال يعقوب : العَطُ الشَّقَى في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من « استبقا » في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءنى عبد الله في التنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءنى عبد الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأول حرف مد ولين . ومنهم من يقول : عبد الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانية - في الآية دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قد القميص مقبلاً ومدبراً ، وهذا أمر أنفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُذِّد من خلف تمرق من تلك الجهة ، وإذا جُذِّد من قدام تمرق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ( وَأَلْقَى سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ) أى وجدا العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد الزوج ؛ والقبط يسمون الزوج سيِّداً . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد ؛ فلما رأت زوجها طليت وجهها للحيلة وكادت فقالت : ( مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ) أى زنى . ( إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) تقول : يُضْرَب ضَرْباً وَجِيعاً . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع « أن يسجن » لأن المعنى : إلا السجن . ويموز أو عذاباً أيما بمعنى : أو يمتدب عذاباً أيما ؛ قاله الكاساني .

(١) يصف السورف ، وقد تقدم شرح البيت هامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كما البارة في الأصل وفي « البحر المحيط » ، ولم تقف على مادة ( وارط و والاط ولاط ) بمعنى ( انظر ) .



قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا  
 إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾  
 وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾  
 فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ  
 عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ لِإِنَّكَ كُنتِ  
 مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ( قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قال العلماء : لما برأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن  
 المحب إثارة المحبوب - قال « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها  
 وكذبها عليه . قال نوف الشامي وغيره : كان يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية ،  
 فلما بقت به غضب فقال الحق .

الثانية - ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ) لأشهادها لما تعارضا في القول أحتاج الملك إلى  
 شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه  
 حكم منه وليس بشهادة . وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول - أنه  
 طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ؛ الحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه  
 وسلم ، وهو قوله : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ » وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال  
 القشيري أبو نصر : قيل كان صبيا في المهد في البار وهو ابن خالته ، وروى سعيد بن  
 جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صَنَاءُ » فذكر  
 منهم شاهد يوسف ؛ فهذا قول - الثاني - أن الشاهد قد التقيص ؛ ووله ابن أبي نجيع  
 من مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان المجاهد لم ينج من لسان المجاهد .



وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتجر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوثة لم تَشْقِي؟ قال له: سَلْ من يَدُقُّ. إلا أن قول الله تعالى بعد «من أهلها» يبطل أن يكون القميص . الثالث - أنه خَلَقَ من خَلَقَ الله تعالى ليس بإنسي ولا ينجي؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يرد قوله: «من أهلها» . الرابع - أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والبلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدري أيكما كان قدام صاحبه؛ فإن كان شق القميص من قدامه فانت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدي . قال السدي: كان ابن عباس وروى عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم . وروى عن ابن عباس - رواه إسماعيل عن سيمك عن عكرمة - قال: كان رجلا ذا لجة . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك . وقال عكرمة: لم يكن بصبي، ولكن كان رجلا حكيمًا . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا . قال أبو جعفر النعمان: والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلا مائلا حكيمًا شاوره الملك بقاء هذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم قننى عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بخالف للحديث "تكم أربعة وهم صغار" منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ، وفي هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي .

قلت: قد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جبير وهلال بن يساف<sup>(١)</sup> والضحاك أنه كان صبيًا في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيًا تكلم لكان الدليل قس كلامه، دون أن يحتاج إلى



استدلال بالتمييز، وكان يكون ذلك نرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. ومباني من تكلم في المهذمن الصبيان في سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثة — إذا تزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتة بجاء قوم فأدعوها، وليست لهم بينة فإن السلطان يتكلم لهم في ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم. وقال محمد في مناع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجل فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للراة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: (إِنَّ كَانَ قَبِصُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ) كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل؛ لأن حروف الشرط تزد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبره محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أى إن يعلم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدي عن العلم. « قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ » نفبر عن « كان » بالفعل الماضي، كما قال زهير:

وكان طوى كشما على مُسَكِنَةٍ . فلا هو أبداها ولم يتقدم

وقرأ يحيى بن عمر وأبى إسحق « مِنْ قُبُلٍ » بضم القاف والباء واللام، وكذا « دُبُرٍ » قال الزجاج: يعملها غائتين كقبْل وبعْد؛ كأنه قال: من قُبْلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز « مِنْ قُبُلٍ » « ومن دُبُرٍ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال من بابه. وروى محبوب عن أبى عمرو « مِنْ قُبُلٍ » « ومن دُبُرٍ » مخفقان مجروران.

(١) اللام: انظر للأمر ترجمه . (٢) الكشح: الجنب؛ ويقال: طوى كشمه على كذا إذا

أخبره. والمستكنة: الحقة. وروى: (ولم يجهم).



قوله تعالى : ( فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ) قيل : قال لما ذلك المزير عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأفعال » . ( إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ) وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهن وأحياهن في التخلص من ورطتهن . وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » . »

قوله تعالى : ( يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ) القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، لحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد وأكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وَأَنْتَ ( أَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ ) يقول : استغفرى زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ( إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) ولم يقل من الخطائيات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فقلب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخطائين ، أو من القوم الخطائين ؛ مثل « إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » . وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِئِينَ . وقيل : إن القائل ليوسف أعرض ولما استغفرى زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فذلك كان ساكنا . وعدم النسبة في كثير من أهل مصر موجود . الثانى — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وصفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْمَانَهُنَّ



وَقُلْنَا حَسْبُ اللَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ  
فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَّتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ  
لَّمْ يَفْعَلْ مَا أمُرُهُ لَيَجْعُنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَسُوءُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «يُسُوءُ» بضم التون، وهي قراءة الأعمش  
والمفضل والسلمي، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت  
الأعراب وقال الأعراب، وذلك أن القصة أنتشرت في أهل مصر فتحدث النساء . قيل :  
أمرأة ساق العزير، وأمرأة خبازه، وأمرأة صاحب دوابه، وأمرأة صاحب سمكة . وقيل :  
أمرأة الخابج ، عن ابن عباس وغيره . ﴿تَرَاوَدُّ قَتَاةً عَنْ نَفْسِهِ﴾ الفتي في كلام العرب  
الشاب، والمرأة قاة . ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيل : شغفها غلبا . وقيل : دخل حبه في شغافها ؛  
عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن حكمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شغافها .  
وقال الحسن : الشَّغَفَ باطن القلب . السدى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة  
عليه . وقيل : هو وسط القلب؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى  
شغافها فغلب عليه؛ قال النابغة :

وقد حال ثم دون ذلك داخل • دخول الشغاف يجنيه الأصابع<sup>(١)</sup>

وقد قيل : إن الشغاف داء، وأشد الأصمى للراجز :

• ينجيها وهي له شغاف •

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن عيصن والحسن «شَغَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابي :  
معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهري : وشغفه الحب أحرق  
قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شَغِفَ بكنا فهو مشغوف . وقرأ الحسن «قَدْ شَغَفَهَا»  
قال : بطنها حباً . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل ملهى ؛

(١) بنى أصابع الخمين، يقول : قد حال عن البكا . كل البكا هم مثل في القزاة حتى لم يبق حظه ما



لأن شَافَ الجبال أعاليها ؛ وقد شُفِيَ بذلك شَفَا بِإِسْكَانِ النِّينِ إِذَا أُولَعَ بِهِ ؛ إِلَّا أَنْ  
أَبَا عَيْلَةَ أَشَدَّ يَتَأَمَّرُ الْقَيْسَ :

لَتَقْتَلَنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فَوَادَهَا • كَمَا شَفَّ الْمَهْمُوتُ الرَّجُلُ الطَّالِي

قال : فشبهت لوعة الحب وجواه بذلك . وروى عن الشعبي أنه قال : الشَّفَّ بالنِّينِ  
المعجمة حب ، والشَّفَّ بالعَيْنِ غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَفَّهَا »  
بكسر النين ، ولا يعرف في كلام العرب إلا « شَفَّهَا » بفتح النين ، وكذا « شَفَّهَا » أى تركها  
مشعوفة . وقال سعيد بن أبى عمرو بن عروة عن الحسن : الشَّافَ حجاب القلب ، والشَّافَ  
سويداء القلب ، فلو وصل الحب إلى الشَّافَ لَمَاتَ ، وقال الحسن : ويقال إن  
الشَّافَ الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبه بقلبه كصق  
الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ( إِنْ لَرَأَى فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ ) أى فى هذا الفعل . وقال قتادة : « فثابها »  
وهو قى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المالك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال  
مقاتل عن ابن عباس النهديّ من سلمان الفارسيّ قال : إن امرأة العزيز استوهبت زوجها  
يوسف فوجه لها ، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا ؛ قال : هو لك ؛ فربته حتى  
أبغى وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وترين وتدعوه من وجه اللطف  
فقصمه الله .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِمُكْرَمٍ ) أى بنبئتة إياها ، واحتيالق فى ضمها . وقيل :  
إنها أطلعتهم واستأمتهم فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ( أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ )  
فى الكلام حذف ؛ أى أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ تَدْعُوهُنَّ إِلَى وَلِيْمَةٍ لِّتُؤَمِّنَهُنَّ فَمَا وَقَعَتْ فِيهِ ؛ فقال مجاهد  
عن ابن عباس إن امرأة العزيز قالت لزوجها : إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة ؛  
فقال لها : افعلى ، فاتخذت طعاما ، ثم تجددت لهن البيوت ؛ تجددت أى زينت ؛ والتجد ما يتجدد .

(١) المنهية : الحيلة بالقطران ، وإذا منى البحر بالقطران يجد له لغة مع لغة ككرة الموى مع لغة .



به البيت من المتاع أى يُزَيِّن، والجمع مُجُود؛ عن أبى صيد؛ والتنجيد الترين؛ وأرسلت إلين أن يحضرن طعامها، ولا تختلف منكَن امرأة من سميت. قال وهب بن منبه: لانهن كن أربعين امرأة فغن على كره منهن، وقد قال فهن أئمة بن أبى الصلت:

حتى إذا جثنها قسرا • ومهدت لهن أنضادا وكبا<sup>(١)</sup>

وَيُروى أنماطا. قال وهب: بغفن وأخذن مجالسهن. (وَأَعَدَّتْ لهن مَنَكًا) أى هيات لهن مجالس يتكنن عليها. قال ابن جبير: فى كل مجلس جَام فيه صل وأُتْرَج وسكنين حاد. وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير «مَنَكًا» مخفقا ضم مهموز، والمَنَك هو الأُتْرَج بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد. روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: المَنَك مَقْلَا الطعام، والمَنَك مخفقا الأُتْرَج؛ وقال الشاعر:

تَشْرَبُ الإِمَّ بالصُواعِ جَهَارًا • وَتَرَى المَنَكَ بَيْنَنَا مُسْتَارًا

وقد تقول أزد شُوعَة: الأُتْرَجَة المَنَكَة؛ قال الجوهري: المَنَك ما يُقْبِه الخاتنة. وأصل المَنَك الزُمَارُود. والمَنَكَاء من النساء التى لم تُخْفَض. قال الفراء: حدثني شيخ من قحاة أهل البصرة أن المَنَك مخفقا الزُمَارُود. وقال بعضهم: إنه الأُتْرَج؛ حكاه الأخفش. بن زيد:

أُتْرَجًا وعسلًا يؤكل به؛ قال الشاعر:

فَطَلْنَا بنِمْصَةٍ وَأَتَكْنَا • وَشَرَبْنَا الحَلَالَ من قُلَّةِ

أى أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: (وَأَعَدَّتْ) من العَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدَّة لشيء. (مَنَكًا) اصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: مجلسا، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام مَنَكًا، مثل «وَأَسَّالِ القَرْيَةَ»؛ ودل على

(١) كذا البيت فى الأصل. (٢) الزمَارُود: الرقائق الملقوفة بالهم وغيره، أو هو نوى، يشبه الأترج.

(٣) خفَضَ الجارية: خنَّها، وكذا الصبي، والأعراف أن الخفَضَ لجارية والخنن لصبى. (٤) هو جبل

ابن مصر، والمقلل جمع قلَّة، والقلَّة الحب السليم. وقيل: الجفرة الكورة. وقيل: الكوز الصغير. وقيل: خريفك



هذا الخلف « وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كما قال في كتاب « إعراب القرآن » له . وقال في كتاب « معاني القرآن » : وروى معمر عن قتادة قال : « المتكا » الطعام . وقيل : « المتكا » كل ما أنكى عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صححت بذلك . وحكى القتيبي أنه يقال : أنكنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل في « متكا » مونكا ، ومثله مُتَرَن ومُتَعَد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : أنكنا بشئ أنكنا . ( كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ) مفعولان ؛ وحكى الكسائي والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

قَبِيتَ فِي السَّامِ غَدَاةً قُرٌّ • بِسَكِّينٍ مُّوَقَّعَةِ النَّصَابِ

الموهري : والغالب عليه التذكير ، وقال :

رُبْرِي نَاصِحًا فَمَا بَدَا فَإِذَا خَلَا • فَذَلِكَ سَكِّينٌ عَلَى الْحَلْفَانِي حَاقِذُ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله تعالى : ( وَقَالَتْ أَنُحَرِّجُ عَالِينَ ) بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تنقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لمن : لا تقطنن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك أدع لي إيلاء فادع يوسف ، وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شد ميثره ، وحسره عن ذراعيه ؛ فقالت لخادم : أدع لي إيلاء ، أى أدع لي الرب ؛ وإيل بالعبرانية الرب ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يحيى ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ، فلما انحدر قالت لمن : أقطنن مامعكن . ( فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ) بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ، قاله وهب بن منبه . سعيد بن جبير : لم يخرج عليهن حتى زيتته ، فخرج طيهن بغاة فدهشن فيه ، وتحميرن لحسن وجهه وزيتته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأثرج ، واختلف



في معنى « أَكْبَرُهُ » قروى جَوَّير عن الضَّعَّك عن ابن عباس : أعظمته وهبته ؛ وعنه أيضا  
أَمْتين وأَمْتين من الدَّهَش ؛ وقال الشَّاسِرُ :

إِذَا مَا رَأَيْنَ الْفَعْلَ مِنْ فَوْقِ قَارِيَةٍ • صَبَلْنَ وَأَكْبَرْنَ الْمَنَى الْمَدْفَنَاتِ<sup>(١١)</sup>

وقال ابن سحمان عن مدة من أصحابه : إنهم قالوا أَمْتين عشقا ؛ وهب بن مُنْبَه : عشقته  
حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دَهَشًا وحيرة ووجُداً بيوسف . وقيل : معناه حُضْنُ  
من الدَّهَش ؛ قاله قتادة ومقاتل والسَّدي ؛ قال الشَّاسِرُ :

نَاقَى النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا • نَاقَى النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِنْجَارًا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك في كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يكن حُضْنُ  
من شدة إعظامهن له ، وقد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال  
أكبرته ، ولا يقال حُضْنُهُ ، فليس الإِجَارُ بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهري فقال : يجوز  
أَكْبَرْتُ بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّزِ الصَّغَرِ إِلَى الْكِبَرِ ؛  
فال : والماء في « أَكْبَرُهُ » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ؛ وهذا مزيف ؛ لأن  
هاء الوقف تسقط في الوصل ، وأمثلة منه قول ابن الأنباري : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل ؛  
أى أكبرن إِنْجَارًا ، بمعنى حُضْنُ حَيْضًا . وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف ؛  
أى أعظمن يوسف وأجللته .

قوله تعالى : ( وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ) قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل : خَدَشْنَهَا .  
وروى ابن أبي تيجان قال : حَزَّ بِالسَّكِينِ ، قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً بَيِّنَ  
منه اليد ، إنما هو خَدَشٌ وحَزٌّ ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خَدَشَ الإنسان يد صاحبه  
قطع يده . وقال عكرمة : « أَيْدِيَهُنَّ » أَكْأَمَهُنَّ ، وفيه بُدٌّ . وقيل : أَنَامَلَهُنَّ ؛ أى ما وجدن  
أَلْسِنَةً فِي الْقَطْعِ وَالْجَرَحِ ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يسير إلى الكثرة ، فيمكن أن  
ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها في مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عددهن .

(١١) قلعة • الخيل الصغار المنقطع عن الخيل • وقيل : الهرة الطيبة • وقيل هرة



قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء « وَقُلْنَ حَاشًا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام في « لله » موصلا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَ لَكَ وَحَاشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زَيْدٍ وَحَاشَا زَيْدًا؛ قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد جمع أنها فعل لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

• وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَنْوَامِ مِنْ أَحَدٍ •

وقال بعضهم: حاش حرف، وأحاشى فعل. ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابي: اللهم أغفر لي ولئن يسمع، حاشا الشيطان وأبا الأصمعي؛ فنصب بها. وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ » بإسكان الشين، وعنه أيضا « حاش الإله ». ابن مسعود وأبي: « حَاشَ اللَّهُ » بنير لام، ومعه قول الشاعر:

حاشا أبي ثوبان إن به • ضنا عن الملأاة والشتم

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحشأ بمعنى الناحية، قول: كنت في حشأ فلان أى في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيد أى تحيى زيد من هدا وتباعده عنه، والاستثناء إخراج وتحيية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من الحاشاة؛ أى حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما أُقْرِفَ به، أو من أن يكون شرًا، لحاشا وحاش في الاستثناء حرف جر عند سيبويه، وعلى ما قال المبرد وأبو علي فعل.

قوله تعالى: ﴿يَا هَذَا بُشْرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: « ما » بمترلة ليس؛ تقول: ليس زيد قائما، و« ما هَذَا بُشْرًا » و« ما هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ». وقال الكوفيون: لما حذف الباء

(١) صدر البيت: • وَلَا أَدْرِي قَامِلًا لِي فَاسْ يَنْتَه •

وهو من نصبة يمدح بها الثمان ويمتد إليه. (٢) كلام مشدود. (٣) هوسمة بن عمرو الأسدي، وقيل: هو هبشج الأسدي، واسم مذهب من الطلاح. والملاءة: القوم.



نصبت؛ وشرح هذا - فيما قاله أحمد بن يحيى - أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فوضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفراء، قال : ولم تعمل «ما» شيئا؛ فالزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمر، لأن المعنى كالتمر ! فرد أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون أما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض؛ لأن الفراء أجاز نصا ما بمنطلق زيد، وأنشد :

أَنَا وَاقِعٌ أَنَّ لَوْ كُنْتُ حُرًّا • وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَتِيقُ

ومنع نصا النصب؛ ولا تعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز : ما ليك براغب زيد، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيد منطلقا بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا

أَتَيْتُا تَجْعَلُونِ إِلَى نَيْلَا • وَمَا تَيْمٌ لِيْ حَسْبَ نَيْدٍ

النَّد والتَّيْد والتَّيْدَةُ المثل والنظير . وحكى الكسائي أنها لغة تيمامة ونجد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين؛ قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى

قلت : وفي مصحف حفصة رضي الله عنها «مَا هَذَا بِشَيْرٍ» ذكره الفَرَزْدِيُّ . قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر : وذكرت النسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة ملك؛ وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهم : «حاش لله» تبرئة ليوسف عما رمت به امرأة العزيز من المراودة؛ أى بعد يوسف عن هذا وقولهم : «لله» أى خوفه، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجى يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى : أنه في التبرئة عن المعاصي كاللائكة؛ فعلى هذا لا تنافس . وقيل : المراد ترجمه عن مشابة البشر في الصورة، لمرط جماله . وقوله : «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما بلغت قوله



تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهم لوجب على الله أن يرد عليهم ، ويبين كذبهم ، وهذا باطل ؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه ؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان ، وفي الحسن كأنه ملك ؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة ؛ فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه ومده عن التهم . ( إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ ) أي ما هذا إلا ملك ؛ وقال الشاعر :

فَلَسْتَ لِأَنْتَى وَلَكِنْ لِمَلَايِكَةٍ • تَنْتَلِّ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن «مَا هَذَا بِشَيْءٍ» بكسر الباء والشين ، أي ما هذا عبداً مُشْتَرًى ، أي ما ينبغي لثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : «أَيْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيده ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بمن ، أي مثله لا بمن ولا يقوم ، فيراد بالشراء على هذا المعنى المشتري به ، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف ، فألبه على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقدرًا بشرائه . وقراءة العامة أشبه ؛ لأن بعده «إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولأن مثل «بِشَيْءٍ» يكتب في المصحف بإلواء

قوله تعالى : ( فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُتْنَتْنِي فِيهِ ) لما رأت أختانهم ييوسف أظهرت مذر نفسها بقولها : «لُتْنَتْنِي فِيهِ» أي بحبه ، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطبري . وقيل : الهاء لقب ، و «ذلك» على باب ه ، والمعنى : ذلك الحب الذي لُتْنَتْنِي فِيهِ ، أي حب هذا هو ذلك الحب والورم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ( وَلَقَدْ رَاودُهُ عَنْ قَهْوِهِ فَاسْتَعَمَّ ) أي امتنع ؛

(١) هو رجل من عبد القيس جاهل ، يمدح بعض القوم ، قيل : هو النعمان ، وقال ابن السرياق : هو لأن وجة يمدح به عبد الله بن الزبير . ومك — كما قال الكاسي — أصله ما لك بتقديم الهزة ؛ من الأولك ، وهي الرسالة ، لم تلبث ودفعت الهم قليل : ملك ، ثم تركت مزمة لكثرة الاستعمال فقيل : ملك ، فلما جرد ودعوا إليه قالوا : سلاتك وملأك أيضاً . ( السان ) .



وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المصيبة. وقيل : « استعصم » أى استعصى ، والمعنى واحد . ( وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِّرَهُ لَيَسْجَنَنَّ ) عاودته المراودة بمحض منتهى ، وهتكت جلباب الحياء ، وودعت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لومًا ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . ( وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِغِينَ ) أى الأذلاء . وخط المصحف « وليكونا » بالالف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد ، ونون التأكيد ثقيل وتخفف والوقف على قوله : « ليسجن » بالنون لأنها مثقلة ، وعلى « ليكونا » بالالف لأنها مخففة ، وهى تشبه نون الإعراب في قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا ، ومثله قوله : « لَنَسْمَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالالف ، كقول الأعشى :

وَلَا تَعِيدِ الشَّيْطَانَ وَإِنَّهُ فَاعِيدٌ <sup>(١)</sup>

أراد فاعيدا ، فلما وقف عليه كان الوقف بالالف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ( قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ) أى دخول السجن ، لحذف المضاف ، قاله الزجاج والحاس . « أحب إلى » أى أسهل على وأهون من الوقوع في المصيبة ؛ لا أن دخول السجن مما يُحِبُّ على التحقيق . وحكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف ! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إلى ، ولو قلت العافية أحب إلى لعوفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه قرأ « السِّجْنُ » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبي إسحق

(١) مدلوليت : • وهذا الصب المنسوب لا تفككه •

ومر من تصبده يمدح بها عبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .



وعبد الرحمن الأعرج ويقوب ؛ وهو مصدر تحته سجنًا . ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ) أى كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتي رأينه ؛ فإنهن أمرنه بمطاعة امرأة العزيز ، وكان له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ؛ والقصد بذلك أن تبدله فى حقها ، وتأمره بمساعدتها ، فظلمه بحبيب ؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! أقض لى حاجتى فانا خير لك من سبتك ؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد امرأة العزيز فى ادعته إليه من الفاحشة ؛ وكفى عنها بخطاب الجمع إما تعظيم شأنها فى الخطاب ، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الاحتيال والاجتهاد ؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها ؛ قال عمر بن لُحَا :

تراءت كى تكيدك أم يشر • وكيد بالسبرج ما تكيد

( أَصْبُ إِلَيْنِ ) جواب الشرط ، أى أمل إلين ؛ من صبا يصبو - إذا مال واشتاق - صُبُوا وَصَبُوا ؛ قال :

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي • وَهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصِي

أى إن لم تلطف بى فى اجتناب المصيبة وقعت فيها . ( وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم ، أو ممن يعمل عمل الجاهل ؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمنع عن معصية الله إلا بعون الله ؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ( فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ) لَمَّا قَالَ . ( وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ) تمريض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم أصرف عني كيدهن ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . ( كَيْدَهُنَّ ) قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز ، على ما ذكر فى الآية قبل ؛ والمعوم أولى .



قوله تعالى : ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جُنَّتُهُ

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله تعالى : ( ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ ) أى ظهر للعزير وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف - من قد القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحرَّ الأيدي ، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف - أن يسجنوه كتماناً للقصة ألا تشيع في العامة ، وللمحاولة بينه وبينها . وقيل : هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله : « ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : أبلغها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالجواب مكان خوف الذهاب ، لتشتتى إذا مُنعت من نظره ؛ قال :

وما صِباهُ مشتاقٍ على أمل \* من اللقاء كشفاقٍ بلا أمل

أو كادت رجاء أن يمل حسبه فيذل نفسه .

الثانية - قوله تعالى : ( لَيْسَ جُنَّتُهُ ) « يسجنته » في موضع الفاعل ؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه ؛ هذا قول سيويه . قال المبرد : وهذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ؛ ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهو المصدر ؛ أى بدا لهم بدأه ؛ وحذف لأن الفعل يدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحق لمن أبو موسى أبوه \* يؤقحه الذي نصب الجبالا

أى وحق الحق ، وحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأى لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه ، وحذف أيضا القول ؛ أى قالوا : ليسجنته ، واللام جواب ليعين مضمراً ؛ قاله اللزاء ، وهو فعل مذكر لا فصل مؤنث ؛ ولو كان فعلاً مؤنثاً لكان يسجنَّته ؛



ويدل على هذا قوله «لم» ولم يقل لم، فكانه أخبر عن النسوة وأعانتهن فلب المذكور؛  
قوله أبو علي . وقال السدي : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه  
شهرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في «لم» لللك .

الثالثة - قوله تعالى : ( حَتَّىٰ حِينٍ ) أي إلى مدة غير معلومة ؛ قاله كثير من  
المفسرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جبير :  
سنة أشهر . وحكى اليك أنه عني ثلاثة عشر شهرا . عكرمة : تسع سنين . الكلبي : خمس  
سنين . مقاتل : [ اثنتى عشرة سنة <sup>(١)</sup> ] . وقد مضى في «البقرة» القول في الحين وما يرتبط  
به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثنتى عشرة سنة . و «حتى» بمعنى إلى ؛  
كقوله : « حَتَّىٰ مَطَاجِ الْفَجْرِ » . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من همّه بالمرأة . وكُنْ  
العزيز - وإن صرف براءة يوسف - أطاق المرأة في سجن يوسف . قال ابن عباس : عثر  
يوسف ثلاث عثرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : « أذكرني عند ربك » فلبث  
في السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : « إِنَّكُمْ آسِرُقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ  
سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ،  
وما رضى بذلك لعظيم مغزته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له  
إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه  
يسقط عنه إثم الزنى وحده . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضئيف ،  
فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الخرج  
في الدين «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» . وبإتاني بيان هذا في «النحل» إن شاء الله .  
وصبر يوسف ، واستعان به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدم .

(١) الزيادة عن (روح المعاني) وتفسير (الصهر الرازي) . (٢) راجع ج ١ ص ٣٢١ وما بعدها



فوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أُرْسِي عَصْرًا نَخْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ قَوْقُ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَيْنَا رِيقِي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ( وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ ) « فتیان » تنبيه قى ؛ وهو من ذوات الباء ء وقولهم : اَلْفُتُو شَاذ . قال وهب وغيره : حل يوسف الى السجن مقيدا على حمار ، وطيف به « هذا جزء من بعضي سيده » وهو يقول : هذا أيسر من مقطعات النيران ، وسرايل القطران ، وشرب الخمر ، وأكل الزقوم ؛ فلما انتهى يوسف الى السجن وجد فيه قوما قد أقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : أصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يا فتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال ابن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه في السجن ؛ فكان يُعْزَى فيه الحزين ، ويسود فيه المريض ، ويدأوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله ، ويبكى حتى تبيكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن . (١) مقطعات النيران : من على نحو قوله تعالى : « فطمت لهم ثياب من نار » أى غيظت وسويت وجعلت لبوسا لهم .



مع يوسف ، وأجبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف ! لقد أحبتك حبا  
لم أحب شيئا حبك ، فقال : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل  
بي إخواني ما فعلوه ، وأحبتي سيدتي فقتل بي ماري ، فكان في حبسه حتى غضب الملك على  
خيازه وصاحب شرايه ، وذلك أن الملك عَمَّرَ فيهم قُلُوبَهُ ، فقدموا إلى خيازه وصاحب شرايه  
أن يسمّاه جميعا ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر  
الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف ، فذلك قوله : « وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ  
فَتَيَان » وقد قيل : إن الخباز وضع السم في الطعام ، فلما حضر الطعام قال الساق : أيها الملك !  
لا تأكل فإن الطعام مسموم . وقال الخباز : لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ، فقال الملك  
للساق : أشرب ! فشرب فلم يضره ، وقال الخباز : كُلْ ، فأبى ، فغضب الطعام على حيوان  
فنفق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقي في السجن تلك المدة مع يوسف . وأسم الساق منجا ،  
والآخر مجلت ، ذكره الثعلبي عن كعب . وقال النقاش : اسم أحدهما شرم ، والآخر  
مرهم ، الأول بالشين المعجمة ، والآخر بالسين المهملة . وقال الطبري : الذي رأى أنه  
يمصنمرا هو بنوه ، قال السهيلي : وذكر اسم الآخر ولم أفيده . وقال « فتيان » لأنهما كانا  
عبدين ، والعبد يسمى قتي ، صغيرا كان أو كبيرا ، ذكره الماوردي . وقال الفشيري :  
ولعل الفتي كان اسما للعبد في عرفهم ، ولهذا قال : « تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » . ويحتمل  
أن يكون الفتي اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا . ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف  
لجوده أو قبله ، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه . « قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ  
نَخْرًا » أي عنباً ، كان يوسف قال لأهل السجن : إني أعبّر الأحلام ، فقال أحد الفتيين  
لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا العبد العبراني ، فسألاه من غير أن يكون رأيا شيئا ، قاله  
أبن مسعود . وحكى الطبري أنها سألاه عن علمه فقال : إني أعبّر الرؤيا ، فسألاه عن  
رؤياهما . قال أبن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رؤياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق  
ثاويلها . وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ



حديثاً . وقيل : إنها كانت رؤيا كذب سألها عنها نوحياً ، وهذا قول ابن مسعود  
والسدي . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذباً ، والآخر صادقاً ، قال أبو بكر . ودرو  
الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تعلم كاذباً كُفِّ يوم القيامة  
أن يعقد بين شعيرتين [ ولن يعقد بينهما ] » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .  
ومن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كذب في حُلْمه كُفِّ يوم القيامة عقْد شعيرة » .  
قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ، فقال لهما يوسف  
ما لي اراكما مكروبين ؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ، قال : قصصا علي ، قصصا عليه ،  
قالا : نبشنا بتأويل ما رأينا ، وهذا يدل على أنها كانت رؤيا متام . ( إنا نراك من المحسنين )  
فإحسانه ما كان يعود المرضى ويدلوهم ، ويُعزّي الخزانى ، قال الضحاك : كان إذا مرض  
الرجل من أهل للسجن قام به ، وإذا ضاق وتسع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له .  
وقيل : « من المحسنين » أي العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق ،  
« من المحسنين » لنا إن فسرته ، كما تقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فما رأينا ؟  
قال الخياط : رأيت كآتي اختبزت في ثلاثة تنابير ، وجعلته في ثلاث سلال ، فوضعت على رأسي ،  
بلغاه الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كآتي أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبهى ،  
فصعرتن في ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كما دقي فيما مضى ، فذلك قوله : « إني  
أراني أعصر نخراً » أي عنباً ، بلغة عمان ، قاله الضحاك . وقرأ ابن مسعود « إني أراني  
أعصر عنباً » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتز بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومنعه عنب فقال  
له : ما مأك ؟ قال : نحر . وقيل : معنى « أعصر نخراً » أي عنب نحر ، لحنف المضاف .  
ويقال : نخرة ونخمر ونخور ، مثل تمر وتمر ونخور . « قال » لهما يوسف : ( لا يأتياكم طعام

(١) الزيادة من صحيح الترمذي ، قال شارحه : لما نبه نظري ظهر لي أن الحق بما لم يرقد من الكلام هذا  
باطلاً لم يشربه أي لم يبله ، فقيل له اعتد بين شعيرتين ولا يتعد له ذلك أبداً ، عقوبة لفقد بين كلمات لم يكن منها  
فيها ، فتكون العقوبة من جنس المعصية .



تُرْزَقَانِهِ) بمعنى لا يحبسك غنا طعام من مملكتك (إِلَّا نَبَاتُكَ بِتَأْوِيلِهِ) لتعلمنا أنى أعلم تأويل رؤياك ، فقالا : أفضل ! فقال لهما : يحبسك كذا وكذا ، فكان على ما قال ، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف . وبين أن الله خصه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، معنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياك ، والعلم بما يأتيك من طعامك والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولا ما يتعلق بالدين لتتسوا ، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما بقى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليستعذبا به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ في غيره فقال : « لَا يَأْتِيَنَّكَ طَعَامُ تُرْزَقَانِهِ » فى النوم « إِلَّا نَبَاتُكَ » بتفسيره فى القبطه ، قاله السُّدِّى ، فقالا له : هذا من فعل المَزَايِنِ والكَهَنَةِ ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكنهن ، وإنما ذلك مما علمنيه ربى ، إنى لا أخبركما به تكهنًا وتنجيًا ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جريج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى القبطه ، فعل هذا « ترزقانه » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كمنى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها لإخبارهما بالغيوب

قوله تعالى : ( وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ) لأنهم أنبياء على الحق . ( مَا كَانَ ) أى ما ينبغي . ( لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ) « من » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : ( ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ) إشارة إلى عصمته من الزنى . ( وَعَلَى النَّاسِ ) أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسل إليهم . ( وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ) على نعمه بالتوحيد والإيمان .



قوله تعالى : **يَصْبِحِي السَّجْنَ** **أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ** **خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴿١٦﴾ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْخُكْرُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( **يَصْبِحِي السَّجْنَ** ) أى يماكنى السجن ؛ وذكر الصلبة لطول مقامها فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . ( **أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ** ) أى فى الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون فى العدد . ( **خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ) وقيل : الخطاب لما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك لإزاما للعبادة ؛ أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع « خير أم الله الواحد القهار » الذى فهو كل شيء . نظيره « **اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشِيرُونَ** » . وقيل : أشار بالفرق إلى أنه لو تعدد الإله لفرقوا فى الإرادة ولعلنا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا تفرقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : ( **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ** ) بين عجز الأصنام وضعفها فقال : « ما تعبدون من دونه » أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . ( **سَمَّيْتُمُوهَا** ) من تلقاء أنفسهم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : « ما تعبدون » وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . ( **إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** ) حذف المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهة من عند أنفسكم . ( **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** ) ذلك فى كتاب . قال معبد بن جبير : ( **مِنْ سُلْطَانٍ** ) أى من حجة . ( **إِنْ الْخُكْرُ إِلَّا لِلَّهِ** ) الذى هو خالق الكل . ( **أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** ) . ( **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ) . أى القويم . ( **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ) .



قوله تعالى : يَصْصِحِّي السَّحْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْمًا  
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ  
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١١﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَحْمًا ) أى قال للساق : إنك تَرُدُّ  
على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأما أنت فتُدعى  
إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ؛ قال : رأيت  
أو لم تَرَ ( قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ) . وحكى أهل اللغة أن سقى وأسقى لثان بمعنى  
واحد ، كما قال الشاعر :  
سَقَى قَوْمِي نَبِيَّ جَدِيدٍ وَأَسَقَى • مُسَيِّراً وَالتَّبَائِلَ مِنْ هَلَالِ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاء ناوله فشرب ، أو صَبَّ الماء في حلقه ،  
ومعنى أسقاء جعل له سقيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا » .

الثانية - قال ملأونا : إن قيل من كذب في رؤياه ففسرها الما برله أيلزمه حكما ؟  
قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي ، وتفسير النبي حكم ، وقد قال :  
إنه يكون كذا وكذا فأوجده الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته ؛ فإن قيل : فقد روى  
عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كآني  
أُعْشِبْتُ ثم أُجْدِبْتُ ثم أُعْشِبْتُ ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن  
ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قُضِيَ لك ما قُضِيَ  
لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان مُحَدَّثًا ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) حوله ؛ ومع : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهي أم كلاب وكلاب بن ربيعة . وماعل سقى هو المطر .

(٢) محدث : ملهم ، أو يلق في روجه النبي ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . ( التاملان ) .



على ما ورد في أخباره ؛ وهي كثيرة ؛ منها - أنه دخل عليه رجل قال له : أظنك كاهنًا فكان كما ظن ؛ ترجمه البخاري . ومنها - أنه سأل رجلًا عن اسمه فقال له أسماء فبها النار كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال ، ترجمه الموطأ . وسألي لهذا مزيد بيان في سورة «المجمرة» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾  
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ) «ظن» هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين . وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين ؛ قال : إنما ظن يوسف نجاته لأن العايرين ظنوا وربك يخلق ما يشاء ، والأول أحمق وأشبه بحال الأنبياء ، وإن ما قاله للفتين في تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنما يكون ظننا في حكم الناس ، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانية - قوله تعالى : ( اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ) أى سيدك ، وذلك معروف في اللغة : أن يقال للسيد رب ؛ قال الأضحي :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً • وَإِذَا تَوَشَّدَ فِي الْمَهَارِقِ أُنْشَدَا

أى أذكركم ما رأيته ، وما أنا عليه من عبادة الرؤيا لالك ، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب . وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ أَسَىٰ رَبِّكَ أَلْطَمَ رَبِّكَ وَضَىٰ رَبِّكَ وَلَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلَيْفَلَّ سَيْدَىٰ مَوْلَاىَ وَلَا يَقِلُّ أَحَدُكُمْ عَيْدَىٰ أُمِّى وَلَيْفَلَّ قَتَاىَ قَتَاىَ غَلَامِى » . وفى القرآن : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » • إلى

(١) فى تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمؤمنين » آية ٧٥ •

(٢) مروي عن (عاشق بالمعاريق) بقوله : إذا توشد بما فى الكتب أجاب أى إذا سئل أصل . والمعرق : الصحيفة .



وَيْكُ . « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَآئِي » أَي صَاحِبِي ، بَنِي الْعَزِيزِ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ شَيْءٍ وَاسْمِهِ قَدْرِيَّةٌ رَّبُّهُ ، فَهُوَ رَبُّهُ . قَالَ الْعَلَمَاءُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ » وَيُقَالُ « مَنْ بَابِ الْإِرْشَادِ إِلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْأَوَّلَى ، لَا أَنْ يُطْلَقَ ذَلِكَ الْاسْمُ عَزَمَ ، وَلَا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ » أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ رَجِيًّا أَي مَالِكُهَا وَسَيِّدُهَا ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْقُرْآنِ فِي إِطْلَاقِ ذَلِكَ اللَّفْظِ ، فَكَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا تَقْبُضَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مَادَّةَ فَتْرِكَ الْأَوَّلَى وَالْأَحْسَنَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ قَوْلَ الرَّجُلِ عَبْدِي وَأُمِّي يَجْعُ مَضْنِينَ : أَحَدُهُمَا - أَنَّ الْعِبُودِيَّةَ بِالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَفِي قَوْلِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ لِمَوْلَاكَ عَبْدِي وَأُمِّي تَعْظِيمٌ عَلَيْهِ ، وَإِضَافَةٌ لَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِمَا أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ . وَالثَّانِي - أَنَّ لِمَوْلَاكَ يَدْخُلُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي اسْتِصْفَاةِ بَنَاتِكَ التَّسْمِيَةِ ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى سَوَاءِ الطَّامَةِ . وَقَالَ ابْنُ شُعْبَانَ فِي « الزَّاهِي » « لَا يَقُلُ السَّيِّدُ عَبْدِي وَأُمِّي وَلَا يَقُلُ الْمَوْلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبِّي » وَهَذَا يَحْمِلُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَا يَقُلُ الْعَبْدُ رَبِّي وَلِيُقَالُ سَيِّدِي » لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالْإِغْفَاقِ ، وَأَخْتَلَفَ فِي السَّيِّدِ هَلْ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ لَا ؟ فَإِذَا قُلْنَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَالْفَرْقُ وَاضِعٌ ، إِذْ لَا التَّيَسُّرَ وَلَا إِشْكَالَ ، وَإِذَا قُلْنَا إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَلَيْسَ فِي الشُّبُهَةِ وَلَا الْإِسْتِغْنَاءُ كَلْفِظِ الرَّبِّ ، فَيَحْصُلُ الْفَرْقُ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرَعِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الثَّالِثَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَنسَاءُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » الضَّمِيرُ فِي « فَأَنسَاءُ » فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّهُ حَادِثٌ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَي أَنسَاءَ الشَّيْطَانِ ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَلَّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ يُوسُفَ لِسَاقِ الْمَلِكِ - حِينَ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُتَجَوَّعُ وَيُؤْوَدُ إِلَى حَالَتِهِ الْأَوَّلَى مَعَ الْمَلِكِ - « أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ » نَسِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنْ يَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَعِيثَ بِهِ ، وَجَنَحَ إِلَى الْإِعْتَصَامِ بِمَخْلُوقٍ ، فَضَوَّقَ بِالْبَلَاءِ . قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَيْرٍ الْيَكْنَسِيُّ : دَخَلَ جَبْرِيلُ عَلَى يُوسُفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّجْنِ فَعَرَفَهُ يُوسُفَ ، فَقَالَ : يَا أَحَا الْمُنْذَرِينَ ! مَالِي أَرَاكَ يَنْزِلُ الْخَاطِطِينَ ؟ ! فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا طَاهِي الطَّاهِرِينَ ! يَهْرَبُكَ



السلام رب العالمين ويقول : أما استحييت إذ استنحت بالآدميين ؟ ! ومزني ! لا يلبثك في السجن بضع سنين ، فقال : يا جبريل ! أهو عني راض ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالي الساعة . وروى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول مجننه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ ! قال : الله تعالى ، قال : فن أخرجك من الحب ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف منك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بخلق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلت مني ! أسألك بآله إبراهيم وإسماعيل والشيخ يعقوب عليهم السلام أنت ترحمني ، فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال « أذكرني عند ربك » ما لبث في السجن بضع سنين » . وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منها « أذكرني عند ربك » ولو ذكر يوسف ربه خلّصه . وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا كلمة يوسف — يعني قوله « أذكرني عند ربك » — ما لبث في السجن ما لبث » قال : ثم يبكي الحسن ويقول : نحن نزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجي ، فهو الناسي ؛ أي أنسى الشيطان السابق أنت يذكر يوسف لربه ، أي لسيده ، وفيه حذف ، أي أنساه الشيطان ذكره لربه ؛ وقد رجع بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسي غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ فَدَلَّ عَلَى أَن النَّاسِي السَّاقِيَ لَا يُؤْسَفُ مَع قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما



السيان فلا عصمة للأنياء عنه إلا في وجه واحد، وهو انظر عن الله تعالى فيما يلقونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم السيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فَنَسِيَ ذَرِيَّتَهُ". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: ( قَلَّتْ فِي السَّجْنِ بِضْعُ سِنِينَ ) البضع قطعة من الدهم مخطف فيما؛ قال يعقوب عن ابن زيد: يقال بَضَعُ وَبَضَعُ بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال المروزي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومضاهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مадون نصف المقدر، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "أذهب فزائد في الخطر"<sup>(١)</sup>. وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطِرَب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المسند التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جرير وقَتادة ووهب بن منبه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة سنة.

(١) الخطر (بالفتح): الزمن والخط. والحديث في شأن امرأة أبي بكر رضي الله عنه فريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت فريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أذهب فزائد في الخطر وما دد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الزمان. راجع صحيح الترمذي في تفسير قوله تعالى: «أَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ...» الآية.



سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن نحسا وبُضعا . وأشتاقه من بضعت الشيء أى قطمته ، فهو قطعة من اللد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِسَ سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التى مضت ، فالْبِضْعُ مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب ابن منبه : حبس يوسف في السجن سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين ، وعُذِبَ يُحْتَصَرُ بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصرى عن سعيد بن أبى عروة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتى عشرة سنة .

الخامسة - في هذه الآية دليل على جواز التماق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا ، فإن الأمور بيد مُسَبِّهَا ، ولكنه جعلها سلسلة ، ورُكِّب بعضها على بعض ، فحريكها سنة ، والتحويل على المنتهى يقين ، والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من اللسان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر ، وهذا بين تأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُذُبَاتٍ خُضِرٍ وَأَنرَ يَابَسَاتٍ يَتْلَبَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ) لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه ، فَنَزَلَ جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخبرك من محبتك ، ومُخَيَّرٌ لك في الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويطيعك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على اخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك ، وهى كيت وكيت ، وتأويلها كذا وكذا ، فلما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج ، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشقة ، وجعلها آخرًا بشرى ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الرّيان بن الوليد رأى في نومه كأنما يخرج من نهر يابس سبعُ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، في أثرهن سبع عِجَاف - أى مهازيل - وقد أقبلت العِجَاف على السِّمَانِ فأخذن بأذانهن فأكلتهن ، إلا القرنين ، ورأى سبع سُذُبَاتٍ خُضِرٍ قد أقبل



طين سبع يابسات فأكلتهن حتى أتيت عليهن فلم يبق منهن شيء. وعن يابسات، وكذلك البقر  
كُنَّ عَجَافاً فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السَّيَّانَ، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم  
منهم والبصير بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشرف قومه، فقال: « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَقُونِي  
فِي رُؤْيَايَ » فقص عليهم، فقال القوم: « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » قال ابن جرير قال لي عطاء:  
إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس  
قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، ينسجها الكاذبة. وقال المروسي: قوله  
تعالى « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أي أخلط أحلام. والضغث في اللغة الخزيمة من الشيء كالقبل  
والكلا وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك بيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد:  
أضغاث الرؤيا أهولها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: (سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) حذفت الهاء من «سبع» فراق بين المذكر والمؤنث.  
« سِمَانٌ » من نعت البقرات، ويجوز في غير القرآن سبع بقرات سماناً، نعت للسبع، وكذا  
خُضْرًا، قال الفراء: ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا». وقد مضى في سورة « البقرة »<sup>(١)</sup> اشتقاقها  
ومعناها. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المميز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت  
سماناً فهي سني رضاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بجر وإبان  
سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر  
« يشبه بعضها بعضاً ». وفي خبر آخر في الفتن « كأنها صياح البقر » يريد لتشابهها، إلا أن  
تكون صُفْراً كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شعبة القرون  
وكان الناس ينفرون منها، أو كان النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو  
يضرب عليهم، ويقتل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخدام والغلة والسنة لما يكون  
فيها من الولد والغلة والنبات. (يَا أَكُلُوهُنَّ نَسِجٌ عَجَافٌ) من عَجَفَ يَعْجَفُ، على وزن عَطَمَ  
يَعْطُمُ، وروى عَجَفَ يَعْجَفُ على وزن حمد يحمّد.

(١) راجع ج ١ ص ٢١٦ طبة ثانية أو ثالثة. (٢) صياح البقر: قرونها.



قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْئُونِي فِي رُؤْيَايَ ) جمع الرؤيا رَوَى ، أى أخبروني بحكم هذه الرؤيا . ( إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ) العبارة مشتقة من عبور النهر ، بمعنى صَبَرَت النهر ، بلغت شاطئه ، فصار للرؤيا عبر بما يؤول إليه أمرها . واللام في « للرؤيا » للثنين ، أى إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُرُونَ ، ثُمَّ يَنْ فَقَالَ : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَلَمِينَ ﴿٤٤﴾

فيه مستطاب :

الأول - قوله تعالى : ( أَضْغَتْ ) قال الفراء : ويجوز « أَضْغَاتٍ أَحْلَامٍ » قال النحاس : النصب بعيد ، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل ، إنما هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِفَتْ ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرها ضِفَتْ ، قال الشاعر :

• كِصْفَتْ حُلْمٌ غَرٌّ مِنْهُ حَالِهِ •

قوله تعالى : ( وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نَفَّسُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ عِلْمَ مَا لَا تَأْوِيلَ لَهُ ، لا أنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أَنْتِشُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعمل أن القوم يحزوا عن التأويل ، لا أنهم آذعوا ألا تأويل لها . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرها ، وإنما أرادوا حوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فتقدم علم . و « الأحلام » جمع حُلْمٍ ، والحُلْمُ بالضم ما يراه النائم ، تقول منه حَلِمَ بالفتح وأَحْلَمَ ، وتقول : حَلَمْتُ بكذا وسَلَمْتُهُ ، قال :

حَلَمْتُهَا وَبَنُو فِدَةٍ دُونَهَا • لَا يَبْعَدَنَّ خِيَالُهَا الْمُحَلِّمُ

وأصله الأناة ، ومنه الحِلْمُ ضد الطيش ، فقيل لما رُئِيَ في النوم حُلْمٌ لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة .

(١) رفيدة : أبوس من العرب ، يقال لهم الرفيدات ، كما يقال لآلهة هيرة الهيرات . اللسان



**الْقَائِمَةُ** - في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تصبر ،  
 لأن القوم قالوا : « أضاعت أحلام » ولم تقع كذلك ، فإن يوسف فسرها على سبيل الجذب  
 والخشب ، فكان كما عبر ، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فلذا عبرت وقعت .

قوله تعالى فَوَقَّالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ  
 بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٥٠﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَنَعِ بَقَرَتِ سِمَانِ  
 يَا كُلُّهُنَّ سَنَعُ عَجَافٍ وَسَنَعُ سُبُلَتِ خُضْرٍ وَآخِرَ بَابِ سَبْتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ  
 إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا ) بنى ساقى الملك . « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد  
 حين ، عن ابن عباس وغيره ، ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن  
 درستويه : « والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه  
 قال - والله أعلم - : وادكر بعد حين أمة ، أو بعد زمن أمة ، وما أشبه ذلك ، والأمة  
 الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد ، وفى المعنى جمع ، وكل جنس  
 من الحيوان أمة ، وفى الحديث : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » .

قوله تعالى : ( وَادَّكَرَ ) أى تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : « أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ » .  
 وقرأ ابن عباس - فيما روى عفان عن همام عن قتادة عن عكرمة عنه - « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .  
 النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » ، بفتح المعزة  
 وتخفيف الميم ، أى بعد نسيان ، قال الشاعر :

أَمِيتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسِي حَدِيثًا • كَنَّاكَ الدَّهْرَ يَوْدَى بِالْعُقُولِ

وعن شَيْبَلِ بْنِ حَزْرَةَ الشُّبِّي « بَعْدَ أُمَّةٍ » بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ، وهو  
 مثل الأَمة ، وهما لغتان ، ومعناها النسيان ، ويقال : أَمِيتَ يَأْمُهُ أَنَّهَا إِذَا نَسِيَ ، فلي هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) مضطرب ابن مأكولا (بفتحها) .



«وَأَذْكُرْ بَعْدَ أَمْرِ» ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أمه ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري «إمه» بمعنى أقر وأعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأشبھ العقلي - «بَعْدَ إِمَّةٍ» أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي النسي يوسف لقضاء الله تعالى في بقاءه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بسببه حبس هو والنجار ؛ فقله : «وَأَذْكُرْ» أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل أذكر أذكركم ؛ والذال قرينة المخرج من التاء ؛ ولم يحز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب البحر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار أذكركم ، فادغموا الذال فى الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : «أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن «أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» وقال : كيف ينبئهم البليغ ؟ ! قال النحاس : ومعنى «أنبئكم» صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سألت . «فَارْسَلُونِ» خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . «يُوسُفُ» نداء مفرد ، وكذا «الصِّدِّيقُ» أى الكثير الصدق . «أَقْبِنَا» أى فارسلوه . بقاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . «لَقَدْ لَرَجِعُ إِلَى النَّاسِ» أى إلى الملك وأصحابه . «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» التعبير ، أو «لعلهم يعلمون» مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾  
فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : «قَالَ تَزْرَعُونَ» لما أعلمه بالرؤيا جعل يفهمها له ، فقال : السبع من البقرات السماء والسبيلات الخضرة سبع سنين مخضبات ؛ وأما البقرات الجفاف



والسبلات-اليابات فسبح ستين مجديات ؛ فذلك قوله : ( تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ) أى ، متواليه متتابعه ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كما دتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب « دأبًا » بتحريك الهززة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، « دأبًا » وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة<sup>(١)</sup> إلا دَأَب . والقول الآخر : إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفا من حروف الخلق ؛ قاله القسراء ، قال : وكذلك كل حرف فُتح أوله وسكن ثانيه فتثقله جائز إذا كان ثانيه هززة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال<sup>(٢)</sup> :

كَدَأَيْكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَيرِثِ قَبْلَهَا •

وقد معنى فى « آل عمران » القول فيه . ( مَّا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ) قيل : لئلا يسوس ، ويكون أبقي ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ( إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ) أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى أزرعوا .

الثانية - هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والبقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من مصرفة الله تعالى وعبادته الموصلة إلى السعادة الأخرية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه •

(١) اللسان « دأبًا » بتحريك الهززة و « دأبا » بكسرتها وهى قراءة الجمهور من السبحة كآنى تفسير ابن عطية .

(٢) هو أمر القرطبي ؛ وقام البيت : • وجارثها أم الرباب بمائل •

(٣) جامع ج ٤ ص ٢٤ وما بعدها طبعه أملى أو ثانية •



قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

فيه مستلثان :

الأول - قوله تعالى : ( سَبْعَ شِدَادٍ ) يعنى السنين المجدبات . ( يَأْكُلْنَ ) مجاز ، والمعنى يأكل أهلهن . ( مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ) أى ما اذخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل : نهارك يا مغرور سهو وغفلة . وذلِكَ يَوْمٌ وَالرَّدى لَكَ لازمٌ

والنهار لا تسهو ، واللَّيل لا ينام ؛ وإنما يُسهى فى النهار ، ويُنَام فى الليل . وحكى زيد ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الأتنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضه ، حتى إذا كان يومٌ قرِّبه له فأكله كله ؛ فقال يوسف : هذا أول يوم من السَّبع الشِّداد . ( إِلَّا قَلِيلًا ) نصب على الاستثناء . ( يَمَّا تَحْصِنُونَ ) أى مما تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى استبقاء البذر تحصين الأوقات . وقال أبو عبيدة : تحمزون . وقال قهادة : « تحصنون » تذرّون ، والمعنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانية - هذه الآية أصل فى حجة رؤيا الكافر ، وأنها تُخرّج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبى ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى التبليغ ، وحجة للواسطة بين الله - جل جلاله - وعباده .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَيَفِي

يُعَصِّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ( ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ) هذا خبر من يوسف عليه السلام بما لم يكن فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم النبى الذى آتاه الله . قال قتادة : زاد الله علمه سنة لم يسألوه



عنها إظهارا لفضله ، وإعلاما لحكاته من العلم ومعرفته . ( فِيهِ بَقَاُ النَّاسِ ) من الإغاثة  
أو النوث ؛ غَوَتْ الرجل قال واغوثاه ، والأكسم النَّوْتُ وَالنَّوَاتُ وَالنَّوَاتُ ؛ واستغاثني فلان  
فاغثته ، والأكسم النيث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والنيث المطر ؛ وقد غاث النيثُ  
الأرض أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يميئها غَيَا ، وَغِيَتْ الأرضُ ثَغَاتُ غَيَا ، فهي أرض  
مَغِيَّةٌ وَمَغِيوَةٌ ؛ بمعنى « يث الناس » يُمَطَّرُونَ . ( وَفِيهِ بِمَصْرُونَ ) قال ابن عباس : بمصرون  
الأعقاب والذهب ؛ ذكره البخارى . وروى حجاج عن ابن جريح قال : بمصرون السمب نهرا  
والسمسم دُهنا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدل ذلك على كثرة  
النبات . وقيل : « بمصرون » أى يَبْقُونَ ؛ وهو من المَصْرَةِ ، وهي المَخْجَةُ . قال أبو حنيفة :  
والمَصْرُ بالتحريك المَلْجَأُ والمَنْجَاةُ ، وكذلك المَصْرَةُ ؛ قال أبو زيد :

صَادِيًا يَسْتَنِيثُ غَيْرَ مَنَاتٍ • وَلَقَدْ كَانَ حُصْرَةُ الْمُتَجَوِّدِ

والمُتَجَوِّدُ الْقَزِيعُ . واعتصرتُ بفلان وتَصَرْتُ أى التجأت إليه . قال أبو النوث : « بِمَصْرُونَ »  
يَسْتَفِلُّونَ ؛ وهو من عصر السمب . واعتصرت ما له أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى  
« تُمَصَّرُونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمَطَّرُونَ ؛ من قوله : « وَأَتَزَلَّيْنِ الْمُصْعِرَاتِ  
مَاءَ تَجَابَا » وكذلك معنى « تُمَصَّرُونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ  
إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ  
عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْكُمْ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ  
لِلَّهِ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْعٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّسْتُ حَصْحَصَ الْحَقُّ  
أَنَا رُودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّالِقِينَ ﴿٥١﴾

(١) قاله في رواية ابن اخيه وكان مات عطشا في طريق مكة .



قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ ) أى فذهب الرسول فأخبر الملك ، فقال : آتوني به . ( فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ) أى بإمره بالخروج قال : ( أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ) أى حال النسوة . ( اللَّاتِي قَطَعْنَ آيَاتِنَ ) فإني أن يخرج إلا أن تصح براءته لملك مما قُذِفَ به ، وأنه حبس بلا جرم . روى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم [ ابن الكريم <sup>(١)</sup> ] يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم — قال — ولو لَيْتُ في السجن ما لَيْتُ ثم جافى الرسول أجبت — ثم قرأ — " فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن آياتهن " — قال — " ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد " [ إذ قال " لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد " <sup>(٢)</sup> ] فابست الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه . وروى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له " أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطعنن قلبي " وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يرحم الله أنى يوسف لقد كان صابرا حلما ولو لبثت في السجن ما لبثته أجبت الداعى ولم أتمس العُذْر " . وروى نحوه هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخارى ، وليس لأبن القاسم في الديوان غيره . وفي رواية الطبري " يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى فخرجت سريعا أن كان حلما ذا أناة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه وافته بغفرله حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشتراط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادتهم الباب " <sup>(٣)</sup> . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا ، وطلبا لبرائة الساحة ؛ وذلك أنه — فيما روى — خشي أن يخرج وينال من الملك

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) الزيادة من صحيح الترمذى

(٣) الحديث في قسم الطبري يختلف في اللفظ عما هنا



مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فبإزاء الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذي راود  
 امرأة مولاة ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ، ويحقق منزله من العفة والخير ؛  
 وحينئذ يخرج للأحطاء والمترلة ؛ فلهذا قال للرسول : أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ،  
 ومقصود يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمرى هل  
 سمجت بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لزمام الملك العزيز له .  
 فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ،  
 ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم  
 إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأى ، له جهة أيضاً من الجودة ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت  
 بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والتوازل هي معرّضة  
 لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على  
 الأحرز من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه التازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل  
 ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف  
 عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله ، ففيه من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التي ذهب  
 النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : ﴿ قَاَسَا لَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذَكَرَ النِّسَاءَ بجملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل  
 العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفي الكلام عنذوف .  
 أى فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة  
 العزيز - وكان قد مات العزيز - فدعاهن قُلْ قَالِ مَا خَطْبُكُنَّ أَي ما شأنكن . ( إِذْ رَاوَدَتْهُنَّ  
 يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ) وذلك أن كل واحدة منهن كَلَّت يوسف في حق نفسها ، كل ما تهتم ،  
 أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهن . ( قُلْنَ حَاشَ  
 لِلَّهِ ) أى معاذ الله . ( مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ) أى زنى . ( قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ  
 الْحَقُّ ) لما رأت إقراوهن ببراءة يوسف ، وبأنه لم يشهد عليها إن أنكرت أقوت



هي أيضا؛ وكان ذلك لطفًا من الله بيوسف . و « حَصَصَ الْحَقُّ » أى تَبَيَّنَ وظاهر؛ وأصله حَصَصَ، ففعل : حَصَصَ، كما قال : كَبِكُوا فى كَبِوا، وكَفَكَفَ فى كَفَفَ؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصَّ استئصال الشيء ؛ يقال : حَصَّ شعره إذا استأصله جزأ؛ قال أبو قيس بن الأسَلْتِ :

قد حَصَّتِ اليَضَةُ رَأْسِي قَا • أَلْقَمْتُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ<sup>(١)</sup>

وسنة حصاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جرير :

يَا وى إِلَيْكُمْ بَلَاءٌ • وَلَا تَجِدُ • من ساقه السنة الحَصَاءُ وَالذَّيْبُ

كأنه أراد أن يقول : والضعف ، وهى السنة المجدية ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ فعنى « حصص الحق » أى أقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي خِدَاشًا فَإِنَّهُ • كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَّصَ الْحَقُّ ظَالِمٌ

وقيل : هو مشتق من الحِصَّة ؛ فالعنى : بانت حِصَّةُ الحق من حِصَّةِ الباطل . وقال مجاهد وقادة : وأصله مأخوذ من قولهم : حَصَّ شعره إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحِصَّةُ من الأرض إذا قطعت منها . والحِصَصُ بالكرم التراب والمجارة ؛ ذكره الجوهري . (أَنَا رَأَوْدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصَّادِقِينَ) وهذا القول منها — وإن لم يكن سال عنه — إظهار لتوحيده وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ؛ حتى لا يخامر نفسا ظن ، ولا يخالطها شك . وشددت التون فى « حَظْبُكُنَّ » و « رَأَوْدَتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكور .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُفُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾



قوله تعالى : ( ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ) اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أفرزت بالصدق ليعلم أنى لم أخنّه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت عن الخيانة ، ثم قالت : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » بل أنا راودته ، وعلى هذا هى كانت مقرة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ، أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على الغائب توقيرا لذلك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ، قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ، فقال يوسف : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أخن سدى بالغيب ، فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حلت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » الآية . وقال السدى : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حلت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ، أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخن بالغيب ، وأنى لم أغفل من مجازاته على أمانته . ( وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ) معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيم

قوله تعالى : ( وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ) قيل : هو من قول المرأة . وقال القشيري : فالظاهر أن قوله « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل ، وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار فى قوله : « وَمَعَهَا » . قال أبو بكر الأنباري : من الناس من يقول : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ،



لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَاوُدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين يقولون  
 المحم عن يوسف عليه السلام ؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى  
 قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل ببعضه ببعض ، ولا يكون فيه وقف تام على  
 حقيقة ؛ ولستأختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لَيْسَ لِي<sup>(١)</sup>  
 أَنَّى لَمْ أَخُوهُ بِالصَّبِ » كره نبي الله أن يكون قد زكى نفسه فقال : « وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي » وتركبة  
 النفس مذمومة ؛ قال الله تعالى : « فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء » . وقيل :  
 هو من قول العزيز ؛ أى وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف . ( إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ )  
 أى مشتبهة له . ( إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ) في موضع نصب بالاستثناء ؛ و « ما » بمعنى من ؛  
 أى إلا من رحم ربي فعصمه ؛ و « ما » بمعنى من كثير ؛ قال الله تعالى : « فَأَنكِحُوا مَا طَابَ  
 لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو استثناء متقطع ، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة  
 بالسوء ؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تقولون في صاحب لكم إن  
 أتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أعتصمه وأعرجتموه واجتمعوه  
 أفضى بكم إلى خير غاية » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال :  
 « فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم » .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمُوهُ  
 قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي ) لما ثبت للملك براءته مما نسب  
 إليه ؛ وتحقق في القصة أمانيته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن  
 جلاله قال : « أَتُوتَنِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي » فانظر إلى قول الملك أولا - حين تحقق علمه -  
 « أَتُوتَنِي بِهِ » فقط ؛ فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « أَتُوتَنِي بِهِ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي »  
 وروى عن وهب بن مَثَبَةَ قال : لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسي ربي من خلقه ،

(١) راجع ج ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعه امل اراتانية .



مَرَّ جُلُوءَهُ، وَجَلَّ شَتَاؤُهُ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ؛ ثُمَّ دَخَلَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمَلِكِ نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ نَغْلَهُ مَسَاجِدًا،  
ثُمَّ أَقْبَضَهُ الْمَلِكُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ - ( إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ) - . ( قَالَ ) لَهُ يَوْسُفُ :  
( أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ) ( لَخَزَانِ ) ( عَالِمٌ ) بِوُجُوهِ تَصَرُّفَاتِهَا . وَقِيلَ : حَافِظُ  
الْحَسَابِ ، طَلِيمٌ بِالْأَكْسَنِ . وَفِي الْخَبَرِ : " يَرْحِمُ اللَّهُ أَنْبَى يَوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ  
لَا سَتَمَلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَلَكِنْ أَتَزَدُكَ سَنَةً " . وَقِيلَ : إِنَّمَا تَأْتَرُ تَمْلِكُهُ إِلَى سَنَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ :  
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِخَيْرِكَ مِنْ خَيْرِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ غَيْرِهِ ؛ ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمَلِكِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ  
فَقَالَ : مَا هَذَا اللِّسَانُ ؟ قَالَ : هَذَا لِسَانُ عَمِّي إِسْمَاعِيلَ ، ثُمَّ دَعَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ فَقَالَ : مَا هَذَا  
اللسان ؟ قَالَ : لِسَانُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ؛ وَكَانَ الْمَلِكُ يَتَكَلَّمُ بِسَبْعِينَ لِسَانًا ،  
فَكَلَّمَا كَلَّمَ يَوْسُفَ بِلِسَانِ أَجَابَهُ يَوْسُفُ بِذَلِكَ اللِّسَانِ ، فَاعْجَبَ الْمَلِكُ أَمْرَهُ ، وَكَانَ يَوْسُفُ  
إِذْ ذَاكَ أَبْنَى ثَلَاثِينَ سَنَةً ؛ ثُمَّ أَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَالَ : أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ رُؤْيَايَ ، قَالَ  
يَوْسُفُ : نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ ! وَآيَتٌ سَبْعُ بَقَرَاتٍ سَيِّمَانٍ شُهْبًا غُرًّا حَسَنًا ، كَشَفَتْ لَكَ عَنْهُنَّ النَّيْلَ  
فَطَلَمْنَ عَلَيْكَ مِنْ شَاطِئِهِ تَشْخَبُ<sup>(١)</sup> أَخْلَافُهَا لَنَا ؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْتَظِرُ إِلَيْهِنَّ وَتَتَعْجَبُ مِنْ حَسَنَتِنَ  
إِذْ تَنْصَبُ النَّيْلَ فَتَارُ مَاؤُهُ ، وَبَدَأَ أُنْثَى ، نَفْرَجَ مِنْ حَمَمِهِ وَوَحَلَهُ سَبْعُ بَقَرَاتٍ يَعْجَافُ شُعْتُ  
غُبْرِ مَقْلَصَاتِ الْبَطُونِ ، لَيْسَ لَهَا ضُرُوعٌ وَلَا أَخْلَافُ ، لَهَا أَنْيَابٌ وَأَضْرَاسُ ، وَأَكْفُ  
كَأَكْفِ الْكَلَابِ وَخِرَاطِيمُ نَكَرَاطِيمِ السَّبَاعِ ، فَاخْتَلَطْنَ بِالسَّمَانِ فَاقْتَرَسْنَهُنَّ اقْتِرَاسَ السَّبَاعِ ،  
فَأَكَلْنَ لَحْمَهُنَّ ، وَمَرَّقْنَ جُلُودَهُنَّ ، وَحَطَمْنَ عِظَاهُمْنَ ، وَشَمَشْنَ مَخَنَّهُنَّ ؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْتَظِرُ  
وَتَتَعْجَبُ كَيْفَ غَلِبْنَهُنَّ وَهَنَ مَهَازِيلَ ! ثُمَّ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُنَّ سِمَنٌ وَلَا زِيَادَةٌ بَعْدَ أَكْلِهِنَّ !  
إِذَا بَسِيعُ سَنَابِلِ خَضِرٍ طَرِيَاتٍ نَاعِمَاتٍ ، مُمْتَلِئَاتٌ حَيًّا وَمَاءً ، وَإِلَى جَانِبِهِنَّ سَبْعُ يَابِسَاتٍ لَيْسَ  
فِيهِنَّ مَاءٌ وَلَا خَضَرَةٌ فِي مَنبَتٍ وَاحِدٍ ، عَرِيقُهُنَّ فِي الثَّرَى وَالْمَاءُ ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَقُولُ فِي نَفْسِكَ :  
أَيُّ شَيْءٍ هَذَا ؟ ! هَؤُلَاءِ خَضِرٌ مَثَرَاتٌ ، وَهَؤُلَاءِ سَوْدٌ يَابِسَاتٌ ، وَالْمَنبَتُ وَاحِدٌ ، وَأَصُولُهُنَّ

(١) تَشْخَبُ : تَقِيلُ .



في الماء، إذ هبت ريح ففرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر الثمرات، فانبثقت  
 فيهن النار فأحرقتهن؛ فصرن سودا مقبرات؛ فانبثقت مذمورا أيها الملك؛ فقال الملك،  
 والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب مما سمعتُ منك! فاسترى في رؤيا أيها  
 الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزود زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛  
 فإنك لو زرعت على حجر أو متد لثبت، وأظهر الله فيه الثناء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه  
 وسنبله تنبي له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسنبل علقا للدواب، وحجاً للناس، وتأمراً  
 الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراك الخمس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعت لأهل مصر  
 ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يبتاعون منك، ويجتمع عنك من الكنوز ما لا يجتمع  
 لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً  
 ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام: «أجعلني على خزانة الأرض»  
 أي على خزانة أرضك؛ وهي جمع خزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، تقول  
 النابضة:

لَمْ يُمْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ • مِنَ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرُكَوَادِبِ

قوله تعالى: «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله:  
 «فَلَيْكَ لِيَعْلَمَ» جرى في السجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر:  
 «أَتُؤَنِّئِي بِهِ» تأكيداً. «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصاً لنفسي، أفوض إليه أمر  
 مملكتي، فذهبوا ليعاقبوا به؛ ودل على هذا «فَلَيْكَ لَعَلَّهُ» أي كلم الملك يوسف، وسأله  
 عن الرؤيا فأجاب يوسف فذ: «قَالَ» الملك: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا بِكَيِّنْ أَمِينٌ» أي ممكن  
 نافذ القول، «أمين» لا تخاف غدرا.

قوله تعالى: «قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»



فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ) قال سعيد بن منصور، سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أي على حفظها، فحذف المضاف . ( إِنِّي خَفِيفٌ ) لما وُلِّيت ( عَليمٌ ) بأمره . وفي التفسير : إني حاسب كاتب ؛ وأنه أول من كتب في القراطيس . وقيل : « خفيظ » لتقدير الأقوات « عليم » ببنى المجاعات . قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أنى يوسف لو لم يقل أجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخر ذلك عنه سنة » . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورثاه بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب ، مكللا بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مرتقة<sup>(١)</sup>، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، بغلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وقوض إليه أمر مصر، وعزل قطيف عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزان كثيرة خير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قطيف تلك الليالي، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدن ؟ ! فقالت : أيها الصديق لا تلمنى؛ فإنى كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فليبتى نفسى، فوجدتها يوسف هذرا فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان تزويجه زليخا امرأة العزيزين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخا مات زوجها يوسف في السجن، وذهب ما لها وعى بصرها بكاء على يوسف، فصارت تكفف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها،

(٢) الرقعة (بالكسر) : النكا والخفة .

(١) ردها بمقهة : قده .



وكان يوسف ركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقبل لها : لو تزوجت له لعله يسعفك بشئ ؛ ثم قيل لها : لا تفعل ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخلق حبيبي منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه ، فنادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمصيبتهم ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فأثابها ، فقالت : أنا التي كنت أخدمك على صدور قديمي ، وأرجل جحشك يدي ، وتربيت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهل وعُتوى فذقت وبال أسرى ، فذهب مالي ، وتضعض ركني ، وطال ذلي ، وعُيى بصرى ، وبعد ما كنت مغبولة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكتفئ الناس ، فنهتم من ربحني ، ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجددين مما كان في نفسك من جبك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا بخمسين ضعفا ، لكن ناولني صدر سوطك ، فتناولها فوضعت على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا : إن كنتِ أيمنا تزوجناك ، وإن كنتِ ذات بعل أغبتك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك ! ألم يُرثني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقاتلتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تزوجت له ، فقال لها : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلى من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زُفّت إليه ، فقام يوسف بصلي ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هي عنزاه ، فسألها ، فقالت : يا نبي الله إن زوجي كان عيتنا لا يأتي النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ؛ قال : فمأثا في خَفَضَ عيش ، كل يوم يحدّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين ؛ إفرائيم ومنشا . وفيها روى



أن الله ألقي في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها ، فقال لها : ما شئت لا تخشيني كما كنت في أول مرة ؟ قالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء .

الثانية - قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للربيع الفاضل أن يعمل للربيع الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يمارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وبغوره فلا يجوز ذلك . وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليوم غير جائز ، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه . والله أعلم . قال المسوردي : فإن كان المولى ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما - جوازها إذا عمل بالحق فيما تقبله ؛ لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره . الثاني - أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من توثيق الظالمين بالمعونة لهم ، وتركيتهم بتقليد أعمالهم ، فاجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بيوافين : أحدهما - أن فرعون يوسف كان صالحاً ، وإنما الطاغى فرعون موسى . الثاني - أنه نظر في أملاكه دون أعماله ، فزالته عنه التبعة فيه . قال المسوردي : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها - ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليته من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه ، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثاني - ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفئ ، فلا يجوز توليته من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق ، ويمتدح فيما لا يستحق . والقسم الثالث - ما يجوز أن يتولاه لأهله ، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، ففقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضين ، وتوسطاً بين مجبورين جاز ، وإن كان إكزام إجبار لم يجوز .

الثالثة - ودلت الآية أيضاً على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً ، فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :



”يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها“. وعن أبي بردة قال قال أبو موسى: ”أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي صلى الله عليه وسلم يستألك، فقال: ”ما تقول يا أبا موسى— أو يا عبد الله بن قيس—“ قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أظلماني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواك تحت شفته وقد قلصت<sup>(١)</sup>، فقال: ”لن— أو— لا نستعمل على عملنا من أراد“ وذكر الحديث، أخرجه مسلم أيضا وفيه فالحجاب: أو لا— أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لثنين ذلك عليه، ووجب أن يتولاهما ويسأل ذلك، ويغير بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: ”لا تسأل الإمارة“ فإن في سؤالها والحرس عليها مع العلم بكثرة آفاتنا وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله عليه السلام: ”وكل إليها“ ومن أباحا لعلمه بآفاتنا، وتخوفه من التقصير في حقوقها قرنها، ثم إن أبطل بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: ”أمين عليها“. الثاني— أنه لم يقل: إني حبيب كريم، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ”الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم“ ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ”إني حفيظ عليم“ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث— إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله



تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الزجاج - أنه رأى ذلك فرصا متبينا عليه ؛ لأنه لم يكن هناك ضيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الساوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما أقرن بوصلة ، أو تعلق بطاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تركبة ومراعاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من التقرب بأهله .

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَنْبُؤًا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (٥٦) وَلَا أَجْرَ الْأَعْرَةِ خَيْرَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَنْبُؤًا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ » أي ومثل هذا الإتمام الذي أنعمنا عليه في تخريبه إلى قلب الملك ، وإيجائه من السجن مكانه في الأرض ؛ أقدرناه على ما يريد . وقال اليكّا الطبري قوله : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه النبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِذِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبْ » وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خير ، والذي آتاه من الثمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما يأتي . يقال : مَكَّنَاهُ وَمَكَّنَالَهُ ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَكُمْ » . قال الطبري : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الزمان يوسف على عمل قطيف وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملكه بعد سنة

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خير ، بلقاء بمرجيب ، وهو نوع جيد من أنواع الثمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل تمر خير هكذا » قال : لا والله يا رسول الله ، إنا لأخذنا الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : « لا تحمل مع الجمع بالهراهم ثم ائتج بالهراهم جنيها » . (البيهقي) .



ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : <sup>٢٧</sup> لو أن يوسف قل إلى حفيظ  
 طم إن شاء الله لك في وقته <sup>٢٨</sup> . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بـزوجة إطفير راحيل ، فدخل  
 بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا ، أبى يوسف ، ومن زعم أنها زليخا  
 قال : لم يتزوجها يوسف ، وأنها لما رآته في موكبها بكّت ، ثم قالت : الحمد لله الذى جعل الملوك  
 عبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله  
 حتى ماتت عنده ، ولم يتزوجها ؛ ذكره الماوردى ؛ وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره  
 الثعلبي ؛ فافقه أعلم . ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تطفّل بالناس ، وجعل يدعوهم  
 إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء ، قال وهب والسدي  
 وابن عباس وضيهم : ثم دخلت السنون الخصبية ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم  
 أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت القلّة أمر بها بجمع ، ثم بنى لها الأهرام ، فجمعت  
 فيها في تلك السنة قلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه قلّة كل سنة كذلك ، حتى إذا  
 انقضت السبع الخصبية وجاءت السنون المجذبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ، فإن  
 الله سلط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان ؛  
 إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت  
 عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا  
 ويمزّ إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف ، فأنبّه الرجال والنساء والصبيان  
 ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون ، وأنبّه الملك ينادى الجوع الجوع ! !  
 قال : قدما له يوسف فأبراه الله من ذلك ، ثم أصبح فتادى يوسف في أرض مصر كلها ؛  
 معاشر الناس ! لا يزرع أحد زروا فيضيع البذر ولا يطلع شئ . وجاءت تلك السنون بهول  
 عظيم لا يوسف ؛ قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه  
 الجوع في نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا  
 أو أن القحط ؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنّ القحط هلك فيها كل شئ أعدوه في السنين



للقصة : **يقبل أهل مصر يطعمون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أول سنة بالقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم في السنة الثانية بالحناء والجواهر ، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب ، حتى آخى عليها لجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالعيد والإماء ، حتى آخى كل الكل ؛ وباعهم في السنة الخامسة بالمقار والضباع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعا ؛ وباعهم في السنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حرولا عبد إلا صار عبدا ؛ وقال الناس : والله ما رأينا ملكا أبجل ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صنع ربى فيما خَوَّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه ؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ؛ ولا أنا إلا من بهض عيالِكَ ، وخَوَّلَ من خَوَّلَكَ ؛ فقال يوسف عليه السلام : إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرع من البلاء لأكون عليهم بلاء ؛ وإنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملأهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستن بسنّى . ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : اتجموع ويملك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسف طبّاح الملك أن يجعل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثم جعل الملوك غداهم نصفه النهار .**

قوله تعالى : **( يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ )** أى بإحساننا ، والرحمة النعمة والإحسان . **( وَلَا تُضِجُ آبْرَ الْمُحْسِنِينَ )** أى ثوابهم . وقال ابن عباس ووهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره في الحب ، وفي الرق ، وفي السجن ، وفي صبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة . وقال الماوردى : وأختلف فيما أوتيّه يوسف من هذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه . الثانى — أنه أنعم عليه بذلك فضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله في الآخرة .



قوله تعالى: (وَلَا تُجْرِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ) أى ما تعطيه في الآخرة خيراً مما أعطيتكم في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية المصوم في كل مؤمن متقٍ؛ وأنشدوا:  
أما في رسول الله يوسف أسوة • لملك مجوساً على الظلم والإفك  
أقام جميل الصبر في الحبس برهة • قال به الصبر الجميل إلى الملك  
وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مضيق الخوف مُنْصَحُ الْأَمْنِ • وأول مفروج به آخر الحزن  
فلا تياسن فاقه ملك يوسف • نرائنه بعد الخلاص من السجن

وأنشد بعضهم :

إذا الحادثات بلغت النهى • وكادت تدوب لمن المهج  
وحلّ البلاء وقبّل العزاء • فند التناهي يكون الفرج

والشعر في هذا المعنى كثير .

قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) (٥٨)

قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) أى جاءوا إلى مصر لئلا أصابهم القحط ليمتاروا؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز . قال ابن عباس وغيره : لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بحث يعقوب عليه السلام ولده لليمية، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، ولبنه وقربه ورحته ورأفته وعدله وسيرته، وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة بالناس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيم من الطعام على عدد رهوسهم ، لكل رأس وسقا . (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) يوسف (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) لأنهم خلقوه صبياً ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التملك، مع طول المدة ؛ وهي أربعون سنة . وقيل : أنكره لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيل : رآه لابس حرير ، وفي صفته طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد ترأى زى فرعون مصر، ويوسف

(١) الوتر ستون مائة ، والأصل في الوتر المثل .



وَأَمَّ عَلَى مَا كَانَ مَعَهُمْ فِي الْمَلْبَسِ وَالطَّيِّبَةِ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ وَرَأَى سِرْفَهُمْ يَرْفُوهُ . وَقِيلَ :  
لَنُكَرُوهُ لِأَمْرِ خَارِقٍ أَمْتَنَا أَمْتَنَ اللَّهُ بِهِ يَعْقُوبُ .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْمِكُمْ  
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِهِ  
فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿١٦﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿١٧﴾  
قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزْتُ الْقَوْمَ تَجْهِيْزًا أَيْ تَكَلَّفْتُ لَهُمْ  
بِجَهَّازِهِمْ لِلْسَفَرِ ، وَجَهَّازُ الْعَرُوسِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْإِسْدَاءِ إِلَى الزَّوْجِ ، وَجُزْزُ بَعْضِ  
الْكُوفِيِّينَ الْجَهَّازُ بِكَسْرِ الْجِيمِ ، وَالْجَهَّازُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الطَّعَامُ الَّذِي أَمْتَنَاهُ مِنْ عِنْدِهِ .  
قَالَ السُّدِّيُّ : وَكَانَ مَعَ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَحَدُ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَهُمْ عَشْرَةٌ ، فَقَالُوا لِيُوسُفَ :  
إِنْ لَنَا أَحَدٌ تَخَفَ عَنَا ، وَبَعِيرُهُ مَعَنَا ، فَسَالِمٌ لَمْ تَخَفْ ؟ فَقَالُوا : لَحَبَّ أَبِيهِ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا  
لَهُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَخٌ أَكْبَرُ مِنْهُ نَجَرَ إِلَى الْبَرِيَّةِ فَهَلَكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَرَدْتُ أَنْ أَرَى أَحَاكِمَ هَذَا  
الَّذِي ذَكَرْتُمْ ، لِأَعْلَمَ وَجْهَ عَجَبِ أَيْمِكُمْ إِيَّاهُ ، وَأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ ، وَيُرَوِّى أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَهُ شَعْبُونَ  
وَهَيْئَةً ، حَتَّى يَأْتُوا بِأَخِيهِ بَنِيَامِينَ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ لِلتَّرْبِجَانِ قُلْ لَهُمْ : لَنَنْتَكِمَ مُخَالَفَةَ  
لِلْقَتْنَانِ ، وَزَيْتِكُمْ مُخَالَفَ لَزَيْنَا ، فَلَعَلَّكُمْ جَوَاسِمِينَ ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ ! مَا نَحْنُ بِجَوَاسِمِينَ ، بَلْ نَحْنُ  
بَنُو آدَمَ وَاحِدٍ ، فَهُوَ شَيْخُ صَدِيقٍ ، قَالَ : فَكَمْ عِدَّتْكُمْ ؟ قَالُوا : كَذَا آتَيْنِي عَشْرَ فَنَهَبَ أَخِي  
لَنَا إِلَى الْبَرِيَّةِ فَهَلَكَ فِيهَا ، قَالَ : فَايْنِ الْآخَرُ ؟ قَالُوا عِنْدَ أَبِينَا ، قَالَ : فَمِنْ يَسْلَمُ صِدْقَكُمْ ؟  
قَالُوا : لَا يَعْرِفُنَا هَاهُنَا أَحَدٌ ، وَقَدْ عَرَفْنَاكَ أَنْسَابِنَا ، فَبَايَ شَيْءٌ تَسْكُنُ فَسُكِّنْ إِلَيْنَا ؟  
فَقَالَ يُوسُفُ : ﴿ أَتَأْتُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْمِكُمْ ﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَأَنَا أَرْضِي بِذَلِكَ  
« أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفْلِ » أَيْ أَمَّتَهُ وَلَا أَبْخَسَهُ ، وَأَزِيدُكُمْ حِمْلَ بَعِيرٍ لِأَخِيكُمْ .  
« فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِهِ فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي » تَوَعَّدَهُمْ أَلَّا يَبِيعَهُمُ الطَّعَامَ إِنْ لَمْ يَأْتُوا بِهِ .  
قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفْلِ ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّهُ رَخَّصَ  
لَهُمْ فِي السَّعْرِ فِصَارَ زِيَادَةِ فِي الْكَيْلِ . وَالثَّانِي - أَنَّهُ كَالَهُمْ بِمِجَالٍ وَافٍ . ﴿ وَأَنَا خَيْرٌ



لِلْفَتَرَيْنِ) فيه وجهان : أحدهما أنه خير للضعفين ، لأنه أحسن ضيقهم ؛ والله سبحانه .  
الثاني - وهو محتمل ؛ أي خير من نزلت عليه من المؤمنين ؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ  
من النزل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو النار .

قوله تعالى : ( فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا بَلَّ لَكُمْ عِنْدِي ) أي فلا إيمانكم شيئاً فيما بعد ،  
لأنه قد وقّاهم بخلهم في هذه الحال . ( وَلَا تَقْرَبُوهُ ) أي لا أتزلكم عندي منزلة القريب ،  
ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه ؛ لأنه على العود حثهم . قال السدي : وطلب منهم  
وهبة حتى يرجعوا ؛ فارتبهم شمعون عنده ؛ قال الكلبي : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم  
الحلب أجملهم قولاً ، وأحسنهم رأياً . و « تقرّبون » في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذف  
منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبراً لكان « تقرّبون » بفتح التون .

قوله تعالى : ( قَالُوا سَوَاءٌ مِنْهُ أَبَاهُ ) أي سنطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا .  
( وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ) أي لضامنون الحق ، به ، ومعتلون في ذلك .

مسألة - إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟  
فيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها - يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك  
ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فأتبع أمره فيه . الثاني - يجوز أن يكون أراد بذلك  
أن يبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث - لتضاعف المسرة ليعقوب  
بموجوع ولديه عليه . الرابع - ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لئيل كان منه  
إليه ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ  
يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْكَ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ )

قوله تعالى : ( وَقَالَ لِفَتَاتِهِ ) هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وطامم ؛ وهو أختناه  
أبي حاتم والشمس وغيرهما . وقرا سائر الكوفيين « لِفَتَاتِيهِ » وهو أختنا أبي عبيد ؛ قال :



وهو مصنف عبد الله ذلك. قال الثعلبي: وهما لثان جيدان؛ مثل الصبيان والصبية.  
 قال النعماني: «تعبته» عاقل للسواد الأعظم؛ لأنه في السواد لا ألف فيه ولا نون،  
 ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضا فإن فيه أشبه من فتيان؛ لأن فيه  
 عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يعملوا البضاعة في الرجال أشبه. وكان هؤلاء الفتيان  
 يسبون جهلهم، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالهم. ويوزن أن يكونوا أحرارا،  
 وكانوا أحوالهم، وبضاعتهم أمان ما اشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودنانير.  
 وقال ابن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافرين ويسمى رحلا؛ قال ابن الأنباري:  
 يقال للواء رحل، ولليت رحل. وقال: ﴿لَهُمْ يَعرُفُونَهَا﴾ لجواز ألا تسلم في الطريق.  
 وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمهم أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه.  
 وقيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: استفتح أن يأخذ من أبيه وإخوته  
 ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا في الرجوع إليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ  
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا اخْنَاءَنَا نَكْبَلْ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ  
 إِلَّا كَمَا أَمِئْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهٗ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ  
 الْكَرَّهِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِيعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا  
 يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَئِيعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخْنَاءَنَا  
 وَزَادَدُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم:  
 «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه،  
 وأن شمعون مرهين حتى يعلم صدق قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا اخْنَاءَنَا نَكْبَلُ﴾ أى قالوا عند ذلك:



« فأرسل معنا أخانا نكل » والأصل نكلال ، فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم « نكل » بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين « يكل » بالياء ؛ والأوّل اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكلال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكلال معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي » . ( وَإِنَّا لَهُ نَحَافُظُونَ ) من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ( قَالَ هَلْ أَسْتَكُمَّ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِيتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ) أى قد فرطتم في يوسف فكيف أنتم على أخيه ! . ( فَاقْهَ خَيْرٌ حَقًّا ) نصب على البيان ؛ وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : « فاقه خير حافظا » قال الله تعالى : وعزني وجلالي لأرقدن عليك أبنيك كليهما بعد ما توكلت على .

قوله تعالى : ( وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ) الآية ليس فيها معنى يشكل . ( مَا نَبِيٍّ ) « ما » استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أى شئ نطلب وراء هذا ؟ ! وقى لنا الكيل ، ورده علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يطيّبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية ؛ أى لا نبني منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التى رددت إلينا . وروى عن علقمة : رددت إلينا بكسر الزاء ؛ لأنّ الأصل رُددت ، فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الزاء . وقوله : ( وَتَمِيرُ أَهْلَنَا ) أى تجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مَا تَرَا فَكُنْتَ حَوَلَا • مَتَى يَأْتِي قِيَامُكَ مَنْ تُنِيتُ

وقرأ السامى بضم النون ، أى نعينهم على الميرة . ( وَزَدَادُ كَيْلٍ بِبِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ بَيْعٍ ) أى جمل بيع لبنيامين .



قوله تعالى : قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾

فيه مستان :

الأول - قوله تعالى : ( تَأْتُون ) أى تعطون - ( مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ) أى عهدا يوثق به . قال السدي : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يسلمونه ؛ واللام فى ( لَتَأْتُنَّنِي ) لام القسم . ( إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ) قال مجاهد : إلا أن تهلكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ( فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ) أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتيدير والمعدل .

ثانية - هذه الآية أصل فى جواز الخيالة بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المحتل به مالا . وقد ضعف الشافعى الخيالة بالوجه فى المال ؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان بن أبى شيبة : إذا تكفل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يحن به لزمه الدية وأرض الجراح ، وكانت له فى مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الخيالة بالوجه . والصواب بفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حد أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾



فيه مع مسائل :

الأولى - لما هزموا على الخروج خشي عليهم العيين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ ولما خاف عليهم العيين لكونهم أحد عشر رجلا رجُل واحد ؛ وكانوا أهل جمال وكِمال وبَسْطَة ؛ قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

الثانية - وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التعزز من العيين ، والعيين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العيين تُدْخِلُ الرجل القبر والجَلَّ القَدْرُ" . وفي تَعْوِذِهِ عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل من لَأَمَةٍ" ما يدل على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حنيف بالترار <sup>(١)</sup> فَرَعَ جَبَّةً كانت عليه ، وعاصر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد ، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء ، فوعك سهل مكانه وأشدت وعكته ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن سهلا ومك ، وأنه غير راضٍ بمك يا رسول الله ؛ فأنابه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَلَأَمٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ أَلَّا يَرْتَكِبَ" <sup>(٢)</sup> إِنْ الْعَيْنِ حَقٌّ تَوْضَأُ لَهُ " فتوضأ له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ في رواية " اغتسل " فنسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجلتيه وداخل لذاره في قدح ثم صب عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أحضرم الكشعين ؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فنسنت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العيين حق ، وأنها تحتل كما قال صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول علماء الأئمة ، ومنه أهل السنة ؛ وقد أنكروا طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأئمة ، وبما يشاهد من ذلك في الوجود ؛ فكيف من وجبل

(١) الترار : ماء بالادية . (٢) يرتك : قال يارك الله فيه ؛ وهذا القول يطل تأخير العيين وسبأه .



ادخلته العين القبر ، وكمن جل ظهر ادخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال :  
« وَمَا هُمْ بِضَازِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . قال الأصمعي : رأيت رجلا عبونا مع بقرة  
تحلب فأعجبه شخبها فقال : أيتها هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهل كما  
جئنا ، المورى بها والمورى عنها . قال الأصمعي . وسمعت يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني  
وجدت حرارة تخرج من عيني .

الثالثة - واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف  
المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : « أَلَا بَرَكْتُ » فدل على أن العين لا تضر  
ولا تعدو إذا بَرَكَ العائن ، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله  
أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة - العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالآغسال ، ويُحبر على ذلك  
إن أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لاسميا هذا ؛ فإنه قد يخاف على آلمعين الهلاك ، ولا ينبغي  
لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سميا إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .  
الخامسة - من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ؛ وقد  
قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف  
أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنهي ؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه  
عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح  
فيه ولا يفسق به ؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة - روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دُخِلَ على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بابن جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما : « مالي أراهما ضَارِعِينَ<sup>(١)</sup> »  
فقالتا حاضتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعا أن تُسْتَرْقَى لهما إلا أنا  
لا ندرى ما يوافيك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) الضارع : الخيف الضار الجسم .



لو سبق شيء القدر سبقتة العين . وهذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت  
 محبس التسمية من النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة حصلة صحاح وفيه أن الرقي  
 مما يستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه أي تضعفه وتقله ، وذلك بقضه  
 لله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعة - أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة بالاعتقال للعين ،  
 وأمر هنا بالاسترقاء ، قال ما رواه : إنما يستر من العين إذا لم يعرف العائن ، ولما إذا عرف  
 الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ) أي من شيء أحلره عليك ؛  
 أي لا ينعفع الحذر مع القدر . ( إِنَّ الْحُكْمَ ) أي الأمر والقضاء . ( إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ )  
 أي أصطلت ووثقت ( وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ) .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي  
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُمْ  
 لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلِمَتْهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا  
 عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِسْ وَبِمَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ  
 ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرْقُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ) أي من أبواب شئ . ( مَا كَانَ )  
 يعني عنهم من الله من شيء ) إن أراد إيقاع مكروه بهم . ( إِلَّا حَاجَةٌ ) استثناء ليس من  
 الأول . ( فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ) أي خاطر خطر قلبه ؛ وهو وصيته أن يتفوقوا ؛  
 قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك مدحهم وفقرهم



فيطش بهم حسداً أو حذراً، قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للسين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة، فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ( وَإِنَّهُ ) يعنى يعقوب . ( لَّنُوعِلِمَ لَكَ عِلْمَاهُ ) أى بأمر دينه . ( وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ) أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لنوعلم » أى عمل، فإن العلم أول أسباب العمل، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : ( وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ) قال قتادة : ضمه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبنى أخوه مفردا فضمه إليه وقال : اشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرا من إخوته : ( إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ ) أى لا تحزن ( يَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاهِزَهُمْ بِمِيزَانِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ) لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردني إليهم، فقال : قد علمت اقيام يعقوب بن عزيزاد غمه، فأبى بنيامين الخروج، فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يحل بك : فقال : لا أبالي ! فدفن الصاع في رحله، إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك . والتجهيز التسريح وتبجيز الأمر، ومنه جهز على الجريح أى قتله، وبجيز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد، إناؤه رأسان في وسطه مقيض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر، قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع، وأشد :

• تَشْرَبُ الْخَمْرَ بِالصَّوَاعِ جِهَارًا •

واختلف في جلسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المكوك، من فضة مرصع بالجواهر، يحصل كل الرأس؛



وكانت للعباس واحد في الجاهلية، وسأله مالك بن الأزرق ما الصواع؟ قال : الإناء؛ قال فيه الأعمش :

لَه دَرَمُكَ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبُ • وَقِلْدَرُ وَطَبَاخُ وَصَاعٌ وَدَيْسِقُ<sup>(١)</sup>

وقال عكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ؛ وبه كمال طعامهم مبالغة في إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لينة الطعام . والصاع يذكر ويؤنث ؛ فمن أنه قال : صُوعٌ ؛ مثل أدور ، ومن ذكره قال أصواع ؛ مثل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطَّرْجَمَالَةُ بلفظة خَيْر . وفيه قراءات : « صُوعٌ » قراءة العامة ؛ و« صُوعٌ » بالعين المعجمة ، وهي قراءة يحيى بن يعمر ؛ قال : وكان إناء أصيغ من ذهب . و« صُوعٌ » بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا . و« صُوعٌ » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبي . و« صَبَاعٌ » بين الصاد والالف ؛ قراءة سعيد بن جبير . و« صَاعٌ » بالف بين الصاد والعين ؛ وهي قراءة أبي هريرة .

فوله تعالى : ( ثُمَّ أَذْنُ مَوْدَّنٍ آيَتُهُا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَتَارْقُونَ ) أى نادى مناد وأعلم . « وَأَذْنٌ » للكثير ؛ فكانه نادى صراخا « آيَتُهُا الْعَبْرُ » . والعبر ما أمتير عليه من الحجر والإبل والبغال . قال مجاهد : كان عيرهم حميرا . قال أبو صيدة : العبر الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العبر ، كقوله : « وأسأل القرية » ويا خيل الله اركبي : أى أصحاب خيل الله ، وسبأى . وهنا اعتراضان : الأول — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالعود طوعا وفيه حقوق الأب بزيادة الحزن ، وواقفه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف المارقة إلى إخوته وهم بكره وهو — الثانى — فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد ظم على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأخير ، أولا تراه لما فقدته قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يمتزج على بنيامين ؛ ولعل يوسف إنما واقفه على القعود بوخى ؛ فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) الديس : خزان من فضة . واليت من ضبعة يدح بها الحق سطلها .

أرفت وما هذا البهاد المورق • وما بي من سقم وما بي معشوق



يوسف السرة إلى إخوته فاجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فاقوه في الحب ، ثم باعوه ، فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصلى إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر - وهو أنه أراد أنبأ أليبر حالكم حال السراق ، والمعنى : إن شئنا لنترك صار عندكم من غير رضا للملك ولا مله . جواب آخر - وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصاع في رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ، أي أو لأنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ لِي أُولَئِكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى- » والنرض ألا يمزى إلى يوسف للكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صَوَاعَ التَّمْلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ) . البعير هنا الجمال في قول أكثر المفسرين . وقيل : إنه الحمار ، وهي لغة لبعض العرب ، قاله مجاهد وأخاره . وقال مجاهد : زعيم هو المؤذن الذي قال : « أنبأ البعير » . والزعيم والكفيل والجميل والضمين والتفيل سواء . والزعيم الرئيس .

ثاني :

وَأَنَا زَعِيمٌ إِنَّ وَجْهَ مُلْكَا . فبَيَّرَ تَوْبَتَهُ الْفَرَاتِي أَنْوَدَا

(١) هو أمرؤ القيس . والفراطي : سبع يسبح ربك . بدي الأسد كأنه ينادي الناس : هو فارس عرب . والأزود : الخائف في شدة ، أي إن ملكي فبصراني أسير سبها شديدا يحل في الضيق من شدة جانب .



وقالت ليلي الأخيلى ترى أخاها :

وَتُعْرِقُ عَنْهُ الْقَبِيضُ تَحْلُلُهُ • يَوْمَ الْقَاءِ مِنَ الْحَيَاءِ مَبِيًّا  
حَتَّى إِذَا رَفَعَ اللَّوَاءَ رَأَيْتُهُ • [ تَحْتَ اللَّوَاءِ <sup>(١)</sup> عَلَى الْخَيْسِ زَعِيًّا

الثانية - إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوثنى ؛ فصح ضمانه، غير أنه بدل مالٍ للشارق، ولا يحمل للشارق ذلك، فلهذا كان يصح في شرعهم، أو كان هذا جمالة، وبذل مال لمن يفتش ويطلب.

الثالثة - قال بعض العلماء : في هذه الآية دليلان : أحدهما - جواز الجعل وفد أجزى للضرورة ؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صح . وثان الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛ بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائرة التي يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجهول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجهول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين، كسائر العقود ؛ أقوله : « وَلَمَّا جَاءَ بِهِ جُلٌّ يَبِيرُ » وبهذا كله قال الشافعى .

الرابعة - متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من جاء بآبق فله أربعون درهما » ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال ابن خزيمة : « ولما قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا في هذا كله الشافعى .

(١) كذا في الأصل ولله ترقية . وفي مخطوطة يخرق القبيض أقوال : الأول - أن ذلك إشارة إلى جذب الفتاة له . الثاني - أنه يترجمها فكسوها ويكنى بما زوجها . الثالث - أنه غليظ الماكب ؛ وإذا كان كذلك أسرع انفرق إلى قبضه . الرابع - أنه كثير التزومات متصل الأسفار ؛ ففيه منخرق لذلك .

(٢) كذا في « أمالي القاضي » ، « والشمس والشمراء » ، « الحاشية » وفي الأصول : يوم المباح .



لخامسة - الدليل الثاني - جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو فيريوسف عليه السلام . قال مطاوعة : إذا قال الرجل تخلفت أو تكفلت أو ضمنت أو واثقت حمل لك أو زعم أو كفيل أو ضامن أو قيسل ، أو هو لك عندى أو على أو إلى أو قبلى فذلك كله حالة لازمة . وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات ؛ وهو أحد قولى الشافعى فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا تكفل بنفسه عليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا ضمن المال فلا شيء عليه من المال ؛ والمجته لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛ فإذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوته عليه ، وعزاه منه ؛ فذلك لزمه المال . وأحجج الطحاوى للكوفيين فقال : لما ضمن المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة - واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما ؟ فقال الثورى والكوفيون والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يغلس الثرم أو يغيب ؛ لأن التبديع بالذى عليه الحق أولى ، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الجبل ، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أى الرجلين شله . وقال ابن أبى ليل : إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط للمكفول له طيهما أن يأخذ أيهما شاء ؛ وأحجج بمرآة الليث من الذين يضمن أبو قتادة<sup>(١)</sup> ونحوه قال أبو ثور .

(١) الحديث : روى سقة بن الأكرع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى ببناتة فقال : " هل عليه من دين ؟ " قالوا : نعم ، قال : " هل ترك شيئا ؟ " قالوا : لا ، قال : " صلوا على صاحبكم " ، قال أبو قتادة : صلى عليه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فصل عليه .



السابعة - الزمانة لا تكون إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتناقض بالنسبة من الأموال ، وكان ثابتاً مستقراً ؛ فلا تصح الجمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبد إن غمزر رقاً وأفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره .  
 وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة في الحدود والقصاص ، وقالوا : إذا قال المظنون أو المدعى القصاص يبقى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وأحتج لهم الطحاوي بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمرو بن مسعود وجابر بن عبد الله والأشعث أنهم حكوا بالكفالة بالنفس بمحض الصحابة .

قوله تعالى : **قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** ﴿٧٦﴾ **قَالُوا قَالِ بَرَآءَةٌ إِنَّ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** ﴿٧٧﴾ **قَالُوا بَرَآءَةٌ مِّنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ بَرَآءٌ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴿٧٨﴾  
 قوله تعالى : **( قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ )** يروى أنهم كانوا لا يتزلون على أحد ظالمًا ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواه الجهم الأئمة للامتنع في زرع الناس . ثم قال : **( وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ )** يروى أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم ؛ أي لمن رد ما وجد فكيف يكون سارقاً ؟ !

قوله تعالى : **( قَالُوا قَالِ بَرَآءَةٌ إِنَّ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ )** المعنى : لما جئنا الفاعل إن يأن كذبكم ؟ فأجاب إخوة يوسف : **( بَرَآءَةٌ مِّنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ بَرَآءٌ )** أي يستبعد ويسترقى . « بَرَآءَةٌ » مبتدأ ، و « مِّنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ » خبره ؛ والتقدير : جزاؤه استبعاد من وجد في رحله ؛ فهو كناية عن الاستبعاد ؛ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . **( كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ )** أي كذلك تفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يسترقوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يستقر بنفسه ؛



لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند اهل مصر ان يرمى ضمنى  
ما أخذ ؛ قاله الحسن والسدى وغيرهما .

مسئلة - قد تقدم في سورة « المائدة » أن القطع في السرقة ناسخ لما تقدم من  
الشرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿بَدَأُ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ  
أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ  
يَسْأَلَ اللَّهَ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿بَدَأُ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسف برحالم لنفى التهمة  
والرأية من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرهما ، لفنان ؛ وهو ما يحفظ  
فيه المتاع ويصونه . ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى استخرج السقاية  
أو الصواع عند من يؤتى ، وقال : « ولين جاء به » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا  
وعصمهم ، وظنوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا : ويحك يا بنيامين ! ما رأينا كال يوم قط ،  
ولنت أمك « راحيل » أخوين لصين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى  
بمن وضعه في متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ، قالوا :  
فمن جعل الصواع في رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة في رحالك . ويقال : إن المفتش  
كان إذا فرغ من رحل رجل استغفر الله عز وجل تأمبا من فعله ذلك ؛ وظاهر كلام قتادة  
وغيره أن المفتش كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع حتى فرغ منهم ، وأتى  
لى رحل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله  
لا نخرج حتى نخفسه ؛ فهو أطيب لضحك ونفوسا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا الفتش  
عن يوسف يقتضى أن المؤذن مرقم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى ؛  
ويجوز ذلك قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ .



قوله تعالى : ( كَذَلِكَ كُنَّا لِيُوسُفَ ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « كُنَّا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القُتَيْبِيُّ : دبرنا .  
ابن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكنت وتلك غيرُ إرادة • لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالجيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا  
لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، ونحوت التحليل .

الثانية - أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع  
والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأخل الساعي أنه لا يميل  
له التحيل ولا نقصان ، ولا أن يفتق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق . وقال مالك :  
إذا فوت من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عند  
الحول ، أخذاً منه بقوله عليه السلام : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » . وقال أبو حنيفة : إن نوى  
بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول يوم لا يضره ؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ،  
ولا يتوجه إليه معنى قوله : « خَشْيَةُ الصَّدَقَةِ » إلا حينئذ . قال ابن العربي : سمعت أبا بكر  
محمد بن الوليد الميموني وغيره يقول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي  
الذماني صاحب عشرات آلاف من المال ، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم :  
كبرت سنّي ، وضعت قوتّي ، وهذا مال لا احتاجه فهو لكم ، ثم يخرجهم فيحملهم الرجال على  
أعناقهم إلى دور بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أملنا حياتك ،  
وأما المال فأى رغبة لنا فيه مادمت حيا ؛ أنت ومالك لنا ، نفقه إليك ، ويسير الرجال  
به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ يريد بقيد الملك إسقاط الزكاة على رأى أبي  
حنيفة في التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرق ؛ وهذا خطب عظيم ؛ وقد صنف البخاري  
رضي الله عنه في جامعه كتابا مقصودا قال : « كَلَبَ الْجَلِيلَ » .



قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفترق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشية الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك ، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة ، وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تاترا الرأس ، الحديث ؛ وفي آخره : « أفلح إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » . وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بيرحقتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبا أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون أكثر أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زينتات ويقول أنا أكثرك » الحديث . قال المهلب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفرقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : « أفلح إن صدق » أن من دام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك فخره عند الله ؛ وما أجازته الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الحسب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط ، والله حسيه ؛ وهو كمن فر من صيام رمضان قبل رؤية الحلال بيوم ، وأستعمل سفرا لا يحتاج إليه ، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يجل ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة - قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وهم عظيم ، وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » قيل فيه : كما مكَّنَّا ليوسف ملك نفسه من أمره العزيز مكَّنَّا له ملك الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا ينسبه ما ذكره . قال الشافعي : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِمِلْكِكَ ضَعْفًا فَأُتْرِبَ بِهِ وَلَا تُخْشَفْ » وهذا ليس



حيلة ، إنما هو حل للبعين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشافعي : ومثله حديث أبي سعيد الخدري في عامل خير أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر جنب ، الحديث ؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا ويتاع جنينا من الذي باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المالكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جنينا بجمع ، والدراهم ربا ؛ كما قال ابن عباس : بحرية بجزيرة<sup>(١)</sup> والدراهم ربا

قوله تعالى : ﴿ فِي دِينِ آلَيْكَ ﴾ أى سلطانه ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عاده ، أى بظلم بلا حجة . مجاهد : في حكمة ؛ وهو استرقاق السراق . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله تملأ وعدرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والإيمان . وقرئ « ترفع درجات من نشاء » بمعنى : ترفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى في « الأنعام » وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن عتبة عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير قال : كما عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم عليم ؛ فقال ابن عباس : بئس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَبْنَؤُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَدُنَّا أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴿٧٨﴾ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرهوبا فيه . (٢) كذا في الأصل مقى « أحكام القرآن لابن العربي » . (٣) راجع ٧ ص ٣٠ وما بعدها طبع أول مرة ثانية .



قوله تعالى : ( قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ) المعنى : أى أتحدى  
 باخيه ، ولو أتحدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليرموا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛  
 وأنه إن سرق فقد جذب به عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل  
 فى الأخلاق . وقد أختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره  
 أن عمه يوسف بنت إسمحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها منطقة إسمحق لسنها ؛  
 لأنهم كانوا يتوارثون بالسِّن ، وهذا مما يُسَخَّحُ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَقَ أَسْتَمِيدَ .  
 وكانت عمه يوسف حضنته وأحبته حباً شديداً ؛ فلما ترصع وشَبَّ قال لها يعقوب : سَلِمَى  
 يوسف إلى ؟ فليست أقدر أن يغيب عني ساعة ؛ فولمت به ، واشفقت من فراقه ، فقالت له :  
 دعه عندى أيا ما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسمحق لحزمتها  
 حل يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ منطقة إسمحق ، فانظروا من أخذها ومن  
 أصابها ، فالتفتت ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت :  
 إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ،  
 إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك هبَّه إخوته فى قولهم : « إن يسرق  
 فقد سرق أخ له من قبل » . ومن هاهنا تعلَّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به  
 عمته . وقال سعيد بن جبير : إنما أمرته أن يسرق صنما كان يلجئه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه  
 على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيروها بها ؛ وقاله قتادة . وفى كتاب  
 الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية التوفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق<sup>(١)</sup>  
 نخباه فعيَّره بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المساكين ، حكاه ابن عيسى .  
 وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ( فَأَسْرَفَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ) أى أسرفى نفسه قولهم :  
 « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » قاله ابن شجرة وابن عيسى . وقيل : إنه أسرفى نفسه

(١) السرقة (بالفتح) هنا المصلحة من اقم للمخرج .



قوله : « أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : « والله أعلم بما تصفون » أى الله أعلم أن ما قاتم كذبى وإن ، فكانت لله رضا . وقد قيل : إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا أَبَتَا النَّعِيزِ إِنَّا لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا نَحْنُ أَحَدُنَا مَكَانَهُ ) خاطبوه باسم العزير إذ كان في تلك اللحظة بزل الأول<sup>(١)</sup> أو موته . وقولهم : « إن له أبا شيخا كبيرا » أى كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السن ، لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « نَحْنُ أَحَدُنَا مَكَانَهُ » أى عبداً بَدَلَهُ ، وقد قيل : إن هذا مجاز ، لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حري سرق ببدل من قد أحكت السنة عندهم رقه ، وإنما هذا كما تقول لمن تركه فعله : أقتلني ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنتك مبالغ في استزلاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « نَحْنُ أَحَدُنَا مَكَانَهُ » حقيقة ، وبعبء عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حراً ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحالة ، أى أخذ أحداً مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف يعقوب جلية الأمر ، فنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحالة في الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضي ، غير لازم إذا أبى الطالب ، وإنما الحالة في مثل هذا على أن يلزم الحيل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، ولا يجوز إجماعاً . وفي « الواضحة » أن الحالة في الوجه فقط في الحدود جائزة ، إلا في النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس . واختلف فيها عن الشافعي ، فزعمها ، ومرة أجازها .

قوله تعالى : ( إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ) يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا ، وهذا تأويل ابن إسحق .

قوله تعالى : ( قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ) مصدر . ( أَنْ تَأْخُذَ ) في موضع نصب ، أى من أن تأخذ . ( إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ) في موضع نصب ، « نأخذ » . ( مَتَاعًا عِنْدَهُ ) أى معاذ الله أن تأخذ البرى ، بالمجرم ، ونخالف ما تأخذنا عليه . ( إِنَّا إِذَا لَطَّالُونَ ) أى أن تأخذ غيره



قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَبَسَّوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ قُلْنَا أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِى أَوْ يَخُفَّرَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْخَاصِمِينَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا اسْتَبَسَّوْا مِنْهُ ) أى يسأوا ، مثل غيب واستحجب ، وتخيّر واستسخر . ( خَلَصُوا ) أى أفردوا وليس هو معهم . ( نَجِيًّا ) نصب على الحال من المضمر فى . خَلَصُوا وهو واحد يؤذى عن جمع ، كما فى هذه الآية ، ويقع على الواحد كقوله تعالى : وَلَقَرَبَّانَاهُ نَجِيًّا وجهه أنجيّة ، قال الشاعر :

إِنِّ إِنَّا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةً • وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ  
• هُنَاكَ أَوْصِيْنِى وَلَا تُوصِى بِنَهْ •

وفرا ابن كثير • اسْتَبَسَّوْا • وَلَا تَابَسَّوْا • • إنه لَا يَأْسُ • • أَفَلَمْ يَأْسَ • بالف من غير همز على القلب ، فتمت الهمزة وأثرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة ، والأصل قراءة الجماعة ، لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء - يأسا - والإيأس ليس بمصدر أيس ، بل هو مصدر أَسْتَأْوَسَ وَإِيَّاسًا أى أعطيت . وقال قوم : أيس رئيس لنتان ، أى فلما يسأوا من ردة أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتشاورون فيما مَرَضَ لهم . والنجى قيل بمعنى المنابى .

قوله تعالى : ( قَالَ كَبِيرُهُمْ ) قال قتادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السن . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبي : هوذا ؛ وكان أعفاهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لادى ، وهو أبو الأنبياء . ( أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ )

(٨٠) هو جهم بن دويل القريوى جلف قويا أسهم العرب والفرس ، فرعدوا على دكايمهم ، واضطربوا طينا ، ورعدا بطيم على كاهنهم سقوت . وقيل : إنما فرعه خلا ليزول الأمر لهم . والأرضية الخيال إلى عقل بما والمراد لله تحت الخيال . ( وَلَا تُوصِى بِنَهْ ) الياء لأنه يتخاطب بوزن .



مُوتِقًا مِنْ اللَّهِ) أى عهدا من الله فى حفظ أبنته وورثه إليه . (وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ)  
« ما » فى محل نصب عطفا على « أَنْ » والمعنى : ألم تعلموا أن أبائكم قد أخذ عليكم موقفا  
من الله ، وتعلموا تفريطكم فى يوسف ؛ ذكره النحاس وغيره . و « مِنْ » فى قوله : « وَمِنْ  
قَبْلِ » متعلقة بـ « تعلموا » . ويجوز أن تكون « ما » زائدة ؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما « من قبل »  
و « فى يوسف » بالفعل وهو « فرطتم » . ويجوز أن تكون « ما » والفعل مصدرها ، و « من  
قبل » متعلقا بفعل مضمر ، التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل ؛ فـ « ما » والفعل  
فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتلقى به « من قبل » . (لَقَدْ أَرْسَلْنَا  
إِلَى الْأَرْضِ) أى أزمها ، ولا أبرح مقيا فيها ؛ يقال : برح برأحا وبروحا أى زال ، فإذا دخل  
الشيء صار مبيثا . (حَتَّى يَأْتِيَ لِي أُمِّي) بالرجوع فإني استحي منه . (أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي) بالمرور  
مع أى فامضى معى إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وأخذ أبى ،  
أو أعجز فأنصرف بعذر ، وذلك أن يعقوب قال : « لئلا أتى به إلا أن يحاط بكم » ومن حاربه  
وتعجز فقد أحبط به ؛ وقال ابن عباس : وكان يهودا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرتد وجهه  
مائة ألف ؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهودا قال  
لأخوته - وكان أشد غضبا - : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر ؛  
وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه ؛ قالوا : بل أكفنا الملك ومن معه تكفك  
أهل مصر ؛ فبعث واحدا من إخوته فعادوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق ، فأخذ  
كل واحد منهم سقوا ؛ ثم إن يهودا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! بن لم تحل معاً  
أخانا لأصيحن صبيحة لا أتقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها ؛ وكان ذلك خاصا  
فيهم عند الغضب ؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة ، فغضب يهودا وأشد غضبه ، وأنتفجت  
شعراته ، وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب ؛ كان إذا غضب ، أقشع جلده ، وانتفخ جسده ،  
وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب ، حتى تغط من كل شعرة قطرة دم ؛ وإذا ضربته  
الأرض برجله تزلزلت وتهتم البليان ، وإن صاح صبيحة لم تستمع حامل من النساء والبيان



والطير إلا وضعت حلق بطنا، تماما أو غير تمام؛ فلا يبدأ غضبه إلا أن يهتك دماء، وتمسكه  
يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه هوذا قد تم وكل كلم ولما له صغيرا  
بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كفتي هوذا من حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى  
السيف، فالتفت بينا وشمالا لعله يرى لمحتا من إخوته فلم ير؛ فخرج مسرعا إلى إخوته  
وقال: هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فإين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب  
إلى الجبل؛ فخرج فلقبه، وقد احتمل حخرة عظيمة؛ قال: ما نصنع بهذه؟ قال: أذهب  
إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رموس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها أو فالتفها  
في البحر، ولا تعدنّ حدثا؛ فوالذي أتخذ إبراهيم خيلا! لقد مسني كُف من نسل يعقوب؛  
ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشا، فقال: يا معشر العبرانيين! انظرون أنه  
ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركّله برحله فدحا به  
من خلف الحداد - الرُّكْل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رَكَه رَكَه؛ قاله الجوهري - ثم  
أمسك هوذا بإحدى يديه فصرعه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب  
أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بضواحه فوضع بين يديه، ثم قرءه  
قرة فخرج طينته، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول:  
إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم قرء قرة ثانية وقال: إنه  
يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاهم صغيرا فحسدوه وزرعوه من أيهم ثم أنفقوه؛ فقالوا: أيها العزيز!  
أستر طينا سر الله عليك، وأمن طينا من الله عليك؛ ففسره قرة ثالثة وقال إنه يقول:  
إن هؤلاء طرخوا صغيرهم في الحب، ثم باعوه بيع العيد بجن بجنس، وزرعوا لأبيهم أن الذنب  
أكله؛ ثم قرءه رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أنذتم ذنبا منذ تمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛  
ولم تتوبوا إليه؛ ثم قرءه خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك ابن تلعب  
لأبائهم حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم قرء سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء  
لو بنى لحيك ما كنتم ولا عقيم والمرك؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. فيتوى بالحقائق أنطق



أيدئهم وأرجلهم ، ففَضَرَعُوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف  
إذ هو حي لنكون طوع يده ، وتربا يطا علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى  
وقال لهم : أنحروا عني ! قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجلعتكم نكالا .

فوله تعالى : **أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ  
وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿١١﴾**

فوله تعالى : ﴿ **أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ** ﴾ قاله الذي قال : « **فَإِنَّ أَرْحَ الْأَرْضِ** » . ﴿ **فَقُولُوا**  
**يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ** ﴾ وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو زين « **إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ** » . النحاس :  
وحدثني محمد بن أحمد بن عمر قال حدثنا ابن شاذان قال حدثنا أحمد بن أبي سريح البغدادي  
قال : سمعت الكسائي يقرأ « **يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ** » بضم السين وتشديد الزاء مكسورة ؛  
على ما لم يُسمِّ فاعله ؛ أي تُسب إلى السرقة ورُوي بها ؛ مثل خُونته وفُسْته وبغزته إذا نسبته  
إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « **سَرَقَ** » يحتمل معنيين : أحدهما — علم منه السرقة ، والآخر —  
اتهم بالسرقة . قال الجوهري : والسرقة والسرقة بكسر الزاء فيهما هو أسم الشيء المسروق ؛  
والمصدر سَرَقَ يسرق سَرَقًا بالفتح .

فوله تعالى : ﴿ **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا** ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — فوله تعالى : « **وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا** » يريدون ما شهدنا قط إلا بما علمنا ،  
واما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقفت لهم تهمة من قول بنيامين :  
**دَسَّ هَذَا فِي رَحْلِ مَنْ دَسَّ بِضَاعَتَكُمْ فِي رِحَالِكُمْ** ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ما شهدنا  
عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقُّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله ابن زيد . ﴿ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ**  
**حَافِظِينَ** ﴾ أي لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يسرق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقناة : وما كنا

(١) هو الباسم بن الفضل بن شاذان ، كافي « في النهاية »



نعلم أن أبتك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال  
أبن عباس : يعنون أنه سرق ليلا وهم نيام ، والغيب هو الليل لغة جبر ، وعنه : ما كنا نعلم  
ما يصنع في ليلة ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام بمراى منا لم يجر خلل ، فلما غاب عنا  
خفيت عنا حاله . وقيل معناه : قد أخذت السرقة من رحله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ،  
ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سرقوه ولم يسرق .

الثانية - تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ، فإن الشهادة  
مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن علم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل  
في الشهادات ، ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة  
الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ، وكذلك الشهادة على الخط - إذا تيقن أنه خطه أو خط  
فلان - صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه ؛  
قال الله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشَّهَادَةِ خَيْرُ الشَّهَادَةِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسَالِمَهَا » وقد مضى  
في « البقرة » .

الثالثة - اختلف قول مالك في شهادة المروء وهو أن يقول : حررت فلان فسمعت  
يقول كذا ؛ فإن استوعب القول شهد في أحد قوليهِ ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهده ؛  
والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب  
وتبين عليه أنه المسلم ؛ فكان خير الشهادة إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهادة إذا كتمها .  
الرابعة - إذا ادعى رجل شهدة لا يحتملها عمره وقت ؛ لأنه ادعى باطلا فأكذبه .

البيان ظاهره

قوله تعالى : وَمَنْ لِّ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي لَقَبَلْنَا فِيهَا

وَأَنَا لَصَلِّقُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٧) طبع ٢٠٠٠ م ١٤٢١ هـ



## فيه مستثنان

الأول - قوله تعالى: ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْمِيرَ ﴾ حَقَّقُوا بها شهادتهم عنده ، ويرفعوا التهمة عن أنفسهم لثلاثتهم بقولهم . « وأسأل القرية » أى أهلها ، فخذف ؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قرأها نزلوا بها وأما رواها منها . وقيل المعنى : « وأسأل القرية » وإن كانت جادا ، فانت نبي الله ، وهو ينطق الجداد لك ؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إحصاء ؛ قال سيبويه : ولا يجوز كَلَمْ هندا وأنت تريد غلام هند ؛ لأن هندا يُسَكَل . والقول في المير كالقول في القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا

الثانية - في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد شككم ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفيّة <sup>(١)</sup> بقلبيها من المسجد على رسلكما إنما هي صفيّة بنت حُجّة فقالا : سبحان الله ! وكبرّ عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الذم وإن خشيته أن يقذف في قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم

قوله تعالى : قَالَ بَلَى سَوَّلَتْ لَكُمُ انْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى

أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٤٧﴾

## فيه مستثنان :

الأول - قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلَى سَوَّلَتْ ﴾ أى زَيَّنَتْ . ﴿ لَكُمُ انْفُسُكُمْ ﴾ إن أبى سرق وما سرق ، وإنما ذلك لأمر يريد به الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأن صبر جميل ؛ أو صبر جميل أولى بى ، على ما هتكم أول السورة .



الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكره في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم بحريه عليه وهو العليم الحكيم، ويتقذى بمعقوب وسائر المؤمنين، صلوات الله عليهم. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال ابن جريح عن مجاهد في قوله تعالى: «فصبر جميل» أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ بَتَّ لَمْ يَصِرْ». وقد تقدم في «البقرة» أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته وأسترجع وإن تقادم عهدها. وقال جوير عن الضمك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطى على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من أحسن من هذه الأمة في مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَأْتِيَنِي رَيْبٌ جِيمًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره ، لأن يوسف حمل وهو عبد لإعياك لنفسه شيئاً ، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس ، ثم حبس ، فلما تمكن أحتال في أن يعلم أبوه خبره ، ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك ، فلا يدعوا الرسول بصل إليه . وقال : «هم» لأنهم ثلاثة ، يوسف وأخوه ، والمتخلف من أجل أخيه ، وهو القائل : «فلن أبرح الأرض» . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحال . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ بما يقضى .

قوله تعالى : وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يٰٓأَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوسُفَ وَأَبِیْضَتَ عَيْنَاهُ  
مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٦﴾

### فیه ثلاث ساقی :

الأول - قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم؟ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين شتم حزق، وبلغ جهده، وجند الله مصيبتة له في يوسف فقال: (يَا أَسَفَا



عَلَى يُوسُفَ ﴿ وَقَسَىٰ أَنه بَيَّاسٌ فَلَمْ يَذْكُرْهُ ۚ عَنْ أَبِي عِيسَى - وقال سعيد بن جبيرة : لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع ، ولو كان عنده لما قال : « يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » .  
قال قتادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحاك : يا جزناه ! قال كثير :  
فَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَنْصَرَأُهُ • وَلِلنَّفْسِ لَمَّا سُلِّتْ قَسِيْلَتِ

والأسف شدة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك .  
وقال الزجاج : الأصل يا أسفى ، فأبدل من الياء ألب لخفة الفتحة . ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ قيل : لم يصيرهما ست سنين ، وأنه عمى ، قاله مقاتل . وقيل : قد تبيض العين ويبق شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ، وإنما أبيضت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « من الحزن » . وقيل : إن يعقوب كان يصلى ، ويوسف قائما معترضا بين يديه ، فغطّ في نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غطّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غطّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبخطيئته ، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته « أَنْظَرُوا إِلَى صَنِيعِ ابْنِ خَلِيلٍ قَائِمًا فِي مَنَاجَاتِي يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِي ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ! لَا تُزَيِّنُ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ لَتَفْتُ بَيْنَهُمَا ، وَلَا فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَتَفْتُ إِلَيْهِ عَمَانِينَ سَنَةً ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ مَنْ قَامَ بَيْنَ يَدَيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ مِرَاقَبَةٌ نَظْرِي » .

الثانية - هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة - وإن لم يطل - يدل على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد روى البخارى عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " . وسيأتي ما للعلماء في هذا في أول سورة « المؤمنين » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب - صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا - فالعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها - أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حى خاف على دينه ، فاشتد حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلمه إليهم صغيرا ، فندم على ذلك . والجواب الثالث - وهو أنها ههنا



الحزن ليس بحضور، وإنما انحطوط الولولة وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تدمع العين ويحزن القلب ولا قول ما يُسخط الرب " . وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظوم ملوء من الحزن ممسك عليه لا يته، ومنه كَظُمَ الغيظ وهو إختناؤه ، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه ، قال الله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » أى ملوء كرا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ، وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كَظُمَ مغموم ، قال الشاعر :

فَإِنْ أَلْكَ كَاظِمًا لِمَصَابِ شَأْسٍ \* فَأَتَى الْيَوْمَ مَطْلَقًا لِسَانِي

وقال ابن جريح عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهب عيناه من الحزن « فهو كظيم » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : « فهو كظيم » قال : فهو كيد ، بقول : يعلم أن يوسف حى ، وأنه لا يدرى أين هو ، فهو كيد من ذلك . قال الجوهري : الكد الحزن المكثوم ، تقول منه كيد الرجل فهو كيد وكيد . النحاس : يقال فلان كظيم وكاظم . أى حزين لا يشكو حزنه ، قال الشاعر :

خَضَضْتُ قَوِيَّ وَأَحْتَسِبُ فِتْنَاهُ \* وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ الْمَنَاءِ كُظُمُ

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِكِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أى قال له ولده : « تالله تفتنا تذكر يوسف » قال الكاسي : فَنَاتُ وَقِتَتْ أَفْعَلْ ذَلِكَ ؛ أى مازلت . وزعم الفراء أن « لا » مضمر ؛ أى لا تفتنا ، وأنشد :

قُلْتُ بَيْنَ اللَّهِ أَرْحُ قَاعِدًا \* وَلَوْ قَطُّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) البيت لا مرئى للنبس و « بين » بالرفع على الاشتداء وإضمار الخبر ، والقدير : بين الله لازمى ؛ وبالصب على إضمار فعل ، وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصفناه طرق عجيبه تغرته الرقاب ، وأمرته بالانصراف ، فقال لما هذا ، وأراد : لا أرحح لحلف « لا » . والأوصال ( جمع وصل ) وهى المقاصل .



أى لا أريح ؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضرع  
في القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك  
لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما قتي وقتاً فهوما لفتان ،  
ولا يستعملان إلا مع الجهد ؛ قال الشاعر<sup>(١)</sup> :

فما قَبِلْتُ حَتَّى كَانَ غَبَارَهَا • سُرَادِقُهُ يَوْمَ نَدَى وَبَاحَ رُفْعُ

أى ما برحت ففتنا نرج . وقال ابن عباس : تزال . (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا) أى نالها . وقال  
ابن عباس وبجاهد : دفنا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَرَى مَسَى فامْرَضَنِي • وَقَسَمًا زَادَنِي مَرَضًا

كَذَاكَ الْحَبُّ قَبْلَ الْيَنَى • عَمَّا يُوزِنُ الْحَرَضًا

وقال قتادة : هربا . الضحك : بالياء دأبًا . محمد بن إسحق : فاسدا لا عقل لك . الفراء :  
الحارض الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحَرَض . ابن زيد : الحَرَض الذى قدوة إلى أولئك المعصية  
الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذابا من الهم ؛ وقال الأخفش : ذاهبا .  
ابن الأنبارى : هالكا ، وكلها مقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن  
أو المشق أو الحرَم ، عن أبى عبيدة وغيره ؛ وقال العَرَّجى :

إِنِّ أَمْرُؤُ جَلَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي • حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَقَنِي السَّهْمُ

قال النحاس : يقال حَرَضَ حَرَضًا وَحَرَضَ حَرُوضًا وَحَرُوضَةً إِنَّا بِلَى وَسِيمٌ ؛ ورجل  
حَارِضٌ وَحَرِضٌ ، إلا أن حَرَضًا لا يبقى ولا يجمع ، ومثله قَيْنٌ وَحَرِيٌّ لا يثنان ولا يجمان .  
التمليح : ومن العرب من يقول حَارِضٌ لذكره ، والمؤنثة حَارِضَةٌ ، فإذا وصف بهذا اللفظ حتى  
وجمع وأنت . وقال : حَرِضٌ يَحْرُضُ حَرَاةً فهو حَرِيزٌ وَحَرِيزٌ . ويقال : رجل حَرِضٌ ،  
ويُقْسَدُ :

طَلَبَتْهُ الْخَيْلُ يَوْمًا كَامِلًا • وَلَوْ أَلْفَتْهُ لَأَتَتْهُ عُرْبًا

(٢) الضمير قبل .

(١) حوامس بن حزام بن الحامل .



وقال أمرؤ القيس :

أرى المرة ذا الأذواد بُصِيحٌ مُحَرَّضًا • كلما حُرِّضَ يَكْرِ في الدِّيارِ مَرِيضٌ<sup>(١)</sup>

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه المم إذا أسقمه ، ودجل حارض أى أحمق . وقرأ أنس « حُرَّضًا » بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأشتان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحُرْضُ والحُرْضُ الأشتان . ( أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ) أى الميتين ، وهو قول النجيع ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك . قوله تعالى : ( قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ) حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء

للمهلكة التي لا يتبألها أن يخفيا ، وهو من بثنه أى فرقته ، فسميت المصيبة بئاً مجازاً ، قال ذوالرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَجٍ لَيْسَ نَاقِي • فَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ

وَأُسْقِيهِ<sup>(٢)</sup> حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْشِي • تُكَلِّمُنِي أَتَجَارُهُ وَمَلَايَعُنُهُ

وقال ابن عباس : « بَثِّي » همى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . ( وَخَرَى إِلَى اللَّهِ ) معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ( وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى ساجد له . قاله ابن عباس . وقاعدة : إني أعلم من إحسان الله تعالى إلى ما يوجب حسن ظني به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكد هذا رجاءه . وقال السدي : أعلم أن يوسف حي ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخلفه وقوله أحسست نفس يعقوب أنه ولده قطع ، وقال : لله يوسف .

قوله تعالى : يَنْبِئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا

مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يَأْيَسُونَ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ<sup>(٣)</sup>

(١) الأذواد : جمع فرد ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : القى من الإبل ، يقول : أرى المرة

هذا الحال يدرك الحرم والمرضى ، ونقضاء بعد ذلك فلا تنفى كثرة ماله ، كما أن البكر يدرك ذلك .

(٢) أسقيه : لمصره بالسبا .



قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ آيَاتُنَا لَكُمْ فِي هَذِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) هذا يدل على أنه يتقن حياته ، إما بالرؤيا ، وإما بإطلاق لفظ تعالى للذهب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ، وهو أظهر . والتحسس طلب الشيء بالحواس ، فهو تفقّل من الحسن ، أى أنهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وأخال طيكم فى أخذه فلما ألوا عنه وعن مذهبه ، وروى أن ملك الموت قال له : أطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برّة البضاعة ، واحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك رجعهم إلى جهة مصر دون غيرها . ( وَلَا تَبْتَئِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ) أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ابن زيد ، يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ( إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ) دليل على أن القنوط من الكبار ، وهو اليأس ، وسبأى فى « الزمر » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْئَةٍ مُرْجَبَةٍ فَلَاؤِفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ) أى المتنع . ( مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرَّ ) هذه المرة الثالثة من حودهم إلى مصر ، وفى الكلام جذف ، أى غفرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسْنَا » أى أصابنا « وَأَهْلُنَا الضَّرَّ » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يسدى حاله إلى من يرجو منه النفع ، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالج به ، ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل التخطئ والصبر والتجلد فى التوابع الحسن ، والتعفف عن المسئلة أفضل ؛ ولحسن الكلام

(١) فى تفسير قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » آية الله من السورة المذكورة .



في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثي وحزني  
إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أي من جميل صفة ، وغريب لطفه ، وطائفة من  
عباده ؛ فاما الشكوى على غير مثلك فهو السفه ، إلا أن يكون على وجه البت والتسليم ؛  
كما قال ابن دريد :

لَا تَحْسَبَنَّ يَا دَهْرُ أَتَى ضَارِعٌ • لِنَكْبَةٍ تَعْرِفُنِي عَرَقَ الْمُدَى  
مَارَسْتَ مَنْ هَوَى الْأَفْلَاكُ مِنْ • جَوَانِبِ الْجَوْعِ عَلَيْهِ مَا شَكَا  
لَكُنْهَا تَقْنَةُ مَضُودٍ إِذَا • جَاشَ لُغَامُ<sup>(١)</sup> مِنْ تَوَاحِيَا عَمَا

قوله تعالى : ( وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ) البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شيء ؛  
بحسب قول : أبضعت الشيء وأستبضعته أي جعلته بضاعة ؛ وفي المثل : استبضعت التمر  
إلى حجره .<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ( مُزَجَّاةٌ ) صفة لبضاعة ؛ والإجزاء السوق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى :  
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ النَّاسَ » والمعنى أنها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب :  
البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . وأختلف في تعيينها ؛ فقبل : كانت قديداً وحشياً ؛ ذكره  
الواقدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقيل : خلق القرائير والجبال ؛ روى عن  
أبي عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة  
للخضراء والصنوبر وهو البطم ، حب شجرة بالشام ، يؤكل ويمصر الزيت منه لعمل الصابون ،  
قاله أبو صالح ؛ فيأخذونها بدرهم لا تتفق في الطعام ، وتتفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذنا منا  
زبحساب جيد تتفق في الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ابن عباس أيضاً . وقيل : ليس  
رطبها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال  
والأدم ؛ ومنه كانت سويقاً منخلًا . والله أعلم .

(١) اللغام : الزبد ؛ وهو ما يتقيه البعير من له ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه ببعض رأبته .

(٢) حمزة : مدينة بالبصرة .



قوله تعالى : ( فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما يتبع بالدرهم الجياد لا تنقصا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جرير : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيم . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى فضل علينا بما بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جبير والسدي والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدق علينا » بالزيادة على حقنا ؛ قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : المعنى « تصدق علينا » برزأنا إليها . وقال ابن شجرة : « تصدق علينا » نَجُوزَ عَنَّا ؛ واستشهد بقول الشاعر :

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا أَبْنَ هَفَّانَ وَأَخْنَسِبْ . وَأَمْرُ عَلَيْنَا الْأَشْمَرَى لَبَّائِيَا

( إِنَّ اللَّهَ يَمْيِزُ الْمُتَصَدِّقِينَ ) مبنى في الآخرة ؛ يقال : هذا من مَآرِضِ الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يميزك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصحح لم إخراجهم بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفي الحديث : « إِنَّ فِي الْمَآرِضِ لَمُدْحَاجَةً مِنَ الْكُذْبِ » .

الثانية - استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيل على البائع ؛ قال ابن القاسم وابن نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوَزَانُ والمِيزَانُ وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عِدَّةً مطبوعة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليه أن يوزنها ويميز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه مَعْبُوتًا - صَبْرَةً أو مالا حق توفيقه - غفل بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفيق من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفيق ، وإن تلف فهو منه قبل التوفيق .

(١) المارِضُ : جمع مَرَضٍ ، من المَرِضِ وهو خلاف الصريح من القول .



الثالثة - وأما أجرة التقدير البائع؛ لأن المتاع الدافع لدرامته يقول : إنها طيبة، فانت الذي تدعى الرذاعة فأنتظر نفسك ؛ وأيضاً فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذي عليه القصاص ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه ، إلا أن يتمكن من ذلك طامعاً ؛ ألا ترى أن فرضاً عليه أن يفدى يده، وبصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطاع على المقتص . وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبايع .

الرابعة - يذكر للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق علي ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن ينتهي التواب ، والله تعالى متفضل بالتواب بجميع النعم لا رب غيره ؛ وسمع الحسن رجلاً يقول : اللهم تصدق علي ؛ فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من ينتهي التواب ؛ أما سمعت قول الله تعالى : « إن الله يحيزي المتصدقين » فل : اللهم اعطني وتفضل علي .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ أَتَى يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوْهُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ يَاسَافَ بِصَبْرٍ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ استفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله : ﴿ لَتَنْبِتَهُمْ يَامِرِيهِمْ ﴾ . ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ دليل على أنهم

(١) لم يصدقوا قول الله ، كما في تفسير البخرت



كانوا صفارا في وقت أحزم يوسف، غير أنباء، لأنه لا يوسف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدل على أنه حسنت حاله الآن؛ أي قطع ذلك إذ أنتم صفار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم: «وإن كنا خاطئين» على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياة وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تقول إليه العاقبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا: «مَسْنَا وَأَهْلُنَا الْحَرُّ» خفضوا له وتواضعوا رفق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» فتنبهوا فقالوا: «أئِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ» قاله ابن إسحق. وقيل: إن يوسف قُبِسَ فشبهوه بيوسف واستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف» الآية، ثم تبسم يوسف - وكان إذا تبسم كأن ثنياه للؤلؤ المنظوم - فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: «أئِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ». وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان يعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف» رفع التاج عنه فرفقوه، فقالوا: «أئِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ». وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب رد ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صني الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر - أما بعد - فإنا أهل بيت بلاه ونحن، ابتلى الله جدى إبراهيم بنمود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ابتلاني بولد كان لي أحب أولادى إلى حتى كُفَّ بصرى من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب أرتمدت مفاصله، واقشعر جلده، وأرشى عينيه بالبكاء، وعيّل صبره فباح السر. وقرأ ابن كثير «إِنَّكَ» على الخبر، ويحوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله: «وَبَلَكَ نِمْفَةً». ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو نظميًا للقصة. ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أى بالنجاة والملك. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى الصابرين فى بلانه، الفاعلين بطاعته. وقرأ ابن كثير «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ» بإثبات الباء، والقراءة به جائزة على أن تجعل



« مَنْ » بمعنى الذى، وتدخل « يَتَّقِ » فى الصلة، فثبت الياء لا غير، ورتفع « ويصبر » . وقد يجوز أن تجزم « ويصبر » على أن تجعل « يَتَّقِ » فى موضع جزم « ومن » للشرط، وثبت الياء، وتعمل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل، كما قال :

ثم نادى إذا دخلت دمشقاً • يا يزيد بن خالد بن يزيد

وقال آخر :

الم يأتيك والانباء تنبى • بما لاقت لبؤى بني زياد

وقراءة الجماعة ظاهرة، والماء فى « إنه » كناية عن الحديث، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزان خففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، وأسم الفاعل مؤثر، والمصدر إيتار . ويقال أترت التراب إيتارة فانا مشير ؛ وهو أيضا على أقل ثم أقل، والأصل أثير نقلت حركة الياء على التاء، فاقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين . وأترت الحديث على فعلت فانا أثير<sup>(١)</sup> والمعنى : لقد فضلك الله علينا ، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خطيئتنا خطا إذا أتى الخطيئة، وفى ضمن هذا سؤال العفو . وقيل لابن عباس : كيف قالوا « وإن كنا لخاطئين » وقد تعمدوا لذلك ؟ قال : وإن تعمدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تحطى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيَّامٌ ﴾ أى قال يوسف — وكان حليبا موقفا — :

« لا تريب عليكم اليوم » وتم الكلام . ومعنى « اليوم » : الوقت . والتريب التعبير والتوبيخ، أى لا تعير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوري وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام : « إذا زنت أمة أحدمك فليجلدها الحد ولا يثرَبَ عليها » أى لا يعيرها؛ وقال بشر :

فَعَفَوْتُ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُتَرِّبٍ • وتركتم لعقاب يوم سَرَمِدٍ

(١) كذا فى الأصل وإمراء القرآن النحاس . ويلاحظ أن من الفعل واولاها، وعطى فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لالتقاء الساكنين .



قال الأصمى : تَرَبُّتٌ عليه وَعَمَّرَتْ عليه بمعنى إذا قُبِحَتْ عليه فعله . وقال الزجاج : للمنى لا إفساد لما بينى وبينكم من الحرمة ، وحق الإخوة ، ولكم عندى العفو والصنع ، وأصل التريب الإفساد ، وهى لغة أهل الجحاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بِضَادَتِي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذَ الناسُ باليت فقال : « الحمد لله الذى صدق وَعْدَهُ ونصر عِبْدَهُ وَهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَهُ » ثم قال : « ماذا تظنون يا معشر قريش ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وأبن أخ كريم وقد قَدَرْتَ ، قال : « وأنا أقول كما قال أنى يوسف « لا تريب عليكم اليوم » فقال عمر رضى الله عنه : فِفَضْتُ عِرْقًا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أنى كنت قد قلت لم حين دخلت مكة : اليوم نتقم منكم ونفعل ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولى . ( يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ) مستقبل فيه معنى الدعاء ؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على « عليكم » والأول هو المستعمل ؛ فإن فى الوقف على « عليكم » والابتداء بـ « اليوم يغفر الله لكم » جَزَمَ بالمغفرة فى اليوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بين . وقال عطاء الخراسانى : طلب الخواص من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ نعت للقميص ، والقميص مذكر ، فاما قول الشاعر :

تَدْعُو هَوَازَانَ الْقَمِيصُ مُفَاضَةً . فوق النطاقِ تُسَدُّ بِالْأَزَارِ

فنديره : [ والقميص ] دِرْعُ مُفَاضَةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قال لم يوسف « أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوْهُ عَلَى وَجْهِ ابْنِ يَأْتِ بِصِيرا » قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدُّ عَلَى يعقوب بصره ، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان ذلك كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبَةٍ من فضة وعلقه فى عنق يوسف ، لئلا كان يخاف عليه من



العين، واخبره جبريل فان أرسل فيصك فإن فيه ربح الجنة، وورع الجنة لا يقع على سلم ولا مبتلى إلا عوف . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه مصره، وكان الذي حل قيصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه فيصك بدم كذب فأخزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسره، وليعود إليه مصره، فخله به حكاه السدي . ( وأتوني بأهلكم أجمعين ) لتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وآمرأة . وقد قيل : إن التميمص الذي بعثه هو التميمص الذي قُذ من ذبزه، ليعلم بمقبوب أنه عجم من الزبي ، والقول الأول أصح ، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره القشيري والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أُنْ تُفَنِّدُونُ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَكَلَّهِ إِنَّكَ لَنِي ضَلَّكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾ فَلَمَّا أُنْ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْسُفُفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا فِيْصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ) أى خرجت متلفة من مصر إلى الشام ، يقال : فصلت فصولا ، وفصلته فصلا ، فهو لازم ومتعد . ( قَالَ أَبُوهُمْ ) أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ( إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه ، فقال لمن بقى : ( إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ) . قال ابن عباس : هاجت ريح فخلت ريح فيص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان لبال . وقال الحسن : مسيرة عشر لبال ؛



وعنه أيضا مسيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يَنتَ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : حَبَّت رِيحٌ فَصَقَّتَ الْقَمِيصَ <sup>(١)</sup> فراحَتْ رَوَانِحَ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا وَاتَّصَلَتْ بِمُقُوبٍ ، فوجد ريح الجنة فلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : « إني لأجد » أى أشم ؛ فهو وجود حاسة الشم . (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسْفِهُون ؛ ومنه قول النابغة :  
إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلْمَلِكِ لَهُ • قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَأَحْدِثْهَا عَيْنَ الْفَنِّدِ <sup>(٢)</sup>  
أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جبيرة والضحاك : لولا أن تكذبون . والفند الكذب . وقد أَفْنَدَ إِفْنَادًا كَذَبًا ؛ ومنه قول الشاعر :

هَلْ فِي آفَتَاكَ الْكَرِيمِ مِنْ أَوْدٍ • أَمْ هَلْ لِقَوْلِ الصَّدُوقِ مِنْ فَنِّدٍ <sup>(٣)</sup>

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُفَجِّحُون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والفند التقيح ، قال الشاعر :  
بِأَصْحَابِي دَعَا لَوْحِي وَتَفْنِيدِي • فَلَيْسَ مَا قَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودٍ  
وقال ابن الأعرابي : « لولا أن تُفَنِّدُون » لولا أن تُضَعِّفُوا رَأْيِي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأى من كبر . وقول رابع : تُضَلِّلُون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلومونى ؛ والتفند اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقَتَادَةُ ومجاهد أيضا : تُهَرِّمُون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى ؛ يقال فَنَدَهُ تَفْنِيدًا إِذَا عَجَزَهُ ، كما قال ر  
• أَهْلَكْنِي بِاللَّوْمِ وَالتَّفْنِيدِ •

ويقال : أَفْنَدَ إِذَا نَكَمَ بِالْخَطَا ؛ وَالتَّفْنَدُ الْخَطَا فِي الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ ، كما قال النابغة :

• ... فَأَحْدِثْهَا عَيْنَ الْفَنِّدِ •

أى أمتنعها عن اتساعها في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر

يَا عَاذِلِي دَعَا الْمَلَامَ وَأَقْصِرَا • طَالَ الْمَسْوَى وَأَطْلَا التَّفْنِيدَا

(١) صفقت الريح الشيء . وصفقته إذا قلته شيئا وشبلا وردده . (٢) شبه الشاعر النيمان بيدا سليمان

عليه السلام لشم ملكه ؛ وقيل أبيت :

وَلَا أَرَى قَاعًا فِي النَّاسِ يَشِبُّهُ • وَلَا أَحَاشَى مِنَ الْأَنْوَامِ مِنْ أَحَدٍ

(٣) أود ، عوج .



ويقال : أَقْنَدَ فَلَانًا الدَّهْرُ إِذَا أَقْسَدَ ؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَقْمَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ \* إِذَا كُفِّ الْإِفْنَادُ بِالنَّاسِ أَقْنَدَا

قوله تعالى : ( قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَ تَلْقَىٰ ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ) أى لقي ذهاب عن طريق الصواب .  
وقال ابن عباس وابن زيد : لقي خطيئتك الماضى من حب يوسف لانتساء . وقال سعيد بن جبير : لقي جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قتادة وسفيان : لقي محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقربائه . وقيل : بنو يديه وكانوا صغاراً ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ( فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرُ أَقْنَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ) أى على عينيه . ( فَأَرْتَدَّ بِصَبْرٍ ) «أَنْ» زائدة ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُطْعِماً بالذم ؛ قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إلى بقميص التَّرْتَمَةِ فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرَحَةِ . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يشبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئاً ، وما خبزنا شيئاً منذ صبح ليل ، ولكن هؤن الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل المطايا والنخائر . ودلت هذه الآية على جواز البذل والميabat عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك - الطويل - وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى زعت ثوبى فكسوتهما إياه بشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدم بكا له فى قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا ، وكسوة كعب ثوبه للبشير مع كونه ليس له غيرها دليل على جواز مثل ذلك إذا أرتجى حصول ما يستشتر به ، وهو دليل على



جواز اظهار القرع بعد زوال النجم والترح . ومن هذا الباب جواز حنافة الصبيان ، وإطعام الطعام فيها ، وقد تخر عمر بعد سورة « البقرة » جزوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ( قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) ذكّرهم قوله : « إِنَّمَا أَشْكِي بَحْتِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله تعالى : ( قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ) في الكلام حذف ، التقدير : فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ، وهذا يدل على أن الذي قال له : « والله إنك لفي ضلالك القديم » بنو بنيه أو غيرهم من قوابته وأهله لا ولده ؛ فلنهم كانوا غيبا ، وكان يكون ذلك زيادة في العقوق . والله أعلم . وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظلما له ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لما قدر وبأل ربما لم تطلب نفس المظلوم في التحلل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحللته منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحل عليه » قال المهلب فقولته صلى الله عليه وسلم : « أخذ منه بقدر مظلمته » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبينة ، والله أعلم

قوله تعالى : ( قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ) قال ابن عباس : أنشدناه إلى السحر . وقال المنذ بن الصباح عن طاوس قال : سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الخياط - من كتاب الترمذي - عن ابن عباس أنه قال : بينا نحن عند رسول الله



صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبي طالب - رضى الله عنه - فقال: - بآبى أنت وأُمى -  
 فَقَالَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ صَدْرِي ، فَا أَجِدْنِي أَقْدَرُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :  
 " أَفَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِنَّ وَيَنْفَعُ بِهِنَّ مِنْ عِلْمِهِ وَيُبَيِّنُ مَا تَعَلَّمْتَ فِي صَدْرِكَ " .  
 قَالَ : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَعَلَّمَنِي ، قَالَ : " إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثَلَاثِ  
 اللَّيْلِ الْآخِرِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالِدُعَاءِ فِيهَا مُسْتَجَابٌ وَقَدْ قَالَ أَنَسِي يَعْقُوبُ لَبْنِيهِ « سَوْفَ  
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » يَقُولُ حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ " وَذَكَرَ الْحَدِيثُ . وَقَالَ أَيُّوبُ بْنُ أَبِي تَيْمِيَّةَ  
 السَّخَّيَّانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » فِي اللَّيَالِي الْبَيْضِ ، فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ ،  
 وَالرَّابِعَةِ عَشْرَةِ ، وَالْخَامِسَةِ عَشْرَةِ فَإِنَّ الدُّعَاءَ فِيهَا مُسْتَجَابٌ . وَعَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : « سَوْفَ  
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » أَيْ أَسْأَلُ يَوْسُفَ إِنْ عَفَا عَنْكُمْ أَسْتَغْفِرْتُ لَكُمْ رَبِّي ؛ وَذَكَرَ سُيُدُ بْنُ دَاوُدَ  
 قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامٌ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مَحَارِبِ بْنِ دَنَاءٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ :  
 كُنْتُ أَتَى الْمَسْجِدَ فِي السَّحَرِ فَأُتِيَ بِدَارِ بْنِ مَسْعُودٍ فَاسْمَعُهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي  
 فَأَطَعْتُ ، وَدَعَوْتَنِي فَاجْتَبَيْتَ ، وَهَذَا سَحَرٌ فَأَغْفِرْ لِي ؛ فَلَقِيتُ أَبْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : كَلِمَاتُ أَسْمَعُكَ  
 تَقُولُنَّ فِي السَّحَرِ ؟ فَقَالَ : إِنْ يَعْقُوبُ أَخْبَرَنِيهِ إِلَى السَّحَرِ بِقَوْلِهِ : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ( فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ) أَيْ قَصْرًا كَانَ لَهُ هُنَاكَ . ( أَوَى إِلَيْهِ أَبُو يَهُيَ )  
 قِيلَ : إِنْ يَوْسُفَ بَعَثَ مَعَ الْبَشِيرِ مَائِي رَاحِلَةً وَجَهَاظًا ، وَسَأَلَ يَعْقُوبَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ  
 جَمِيعًا ؛ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أَوَى إِلَيْهِ أَبُو يَهُيَ ، أَيْ ضَمَّ ؛ وَيَعْنِي بِأَبُو يَهُيَ أَبَاهُ وَخَالَتَهُ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ  
 قَدْ مَاتَتْ فِي وَلَادَةِ أَخِيهِ بَنِيَامِينَ . وَقِيلَ : أَحْيَا اللَّهُ أُمَّهُ تَحْقِيقًا لِلرُّؤْيَا حَتَّى سَجَدَتْ لَهُ ، قَالَهُ  
 الْحَسَنُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْبَقَرَةِ » أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لَبْنِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَاَمَّا نَبِيَّهُ .  
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ( أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ) قَالَ أَبُو جُرَيْجٍ : أَيْ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ  
 رَبِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ قَالَ : وَهَذَا مِنْ تَقْدِيمِ الْقُرْآنِ وَتَأْخِيرِهِ ؛ قَالَ النُّحَاسُ : يَدْبَحُ أَبْنَ جُرَيْجٍ إِلَى أَنَّهُمْ  
 قَدْ دَخَلُوا مِصْرَ فَكَيْفَ يَقُولُ : « أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . وَقِيلَ ثَانِيًا قَالَ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ »  
 تَهْنِئَةً وَحُزْمًا . « كَسَيْنَ » مِنْ الْقَطْعِ ، أَوْ مِنْ فِرْعَوْنَ ؛ وَكَانُوا لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بِمُحَاوَزِهِ .



قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ  
هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي  
إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ  
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَسَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ) قال قتادة : يريد السرير، وقد تقدمت محاملة ؛  
وقد يُعبر بالعرش عن الملك والمالك نفسه ؛ ومنه قول النابغة الذباني :

• عُروشٌ تَقَانُوا بَعْدَ عِزٍّ وَأَمْنَةٍ •

(١١)  
وقد تقدم .

قوله تعالى : (وَنُحِرُوا لَهُ سُجَّدًا) •

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَنُحِرُوا لَهُ سُجَّدًا» الهاء في «نُحِرُوا لَهُ» قيل : لأنها تعود على الله  
تعالى، المعنى : وخرُّوا شكراً لله سبحانه ؛ ويوسف كالقيلة لتحقيق رؤياه، وروى عن الحسن ؛  
قال النقاش : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : «رَأَيْتُمْ  
لِي سَاجِدِينَ» . وكان تحيتهم أن يسجدوا للوضع الشريف ، والصغير الكبير ؛ سجد يعقوب وخالته  
وإخوته ليوسف عليه السلام ، فاشتغل جلده وقال : «هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ» وكان بين  
رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سامان الفارسي : وعبد الله بن شداد :  
أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شداد : وذلك أنهما تبطل الرؤيا . وقال قتادة : خمس  
وثلاثون سنة . وقال السدي وسعيد بن جبير وعكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجسر  
أبن فرقة وقُضيل بن عياض : ثمانون سنة . وقال ذهب بن منبه : أثنى يوسف في الحب وهو  
أبن مع عشرة سنة ، وقاب عن أبيه ثمانين سنة ، وحاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرين



سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة .  
وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة . والله أعلم .  
الثانية - قال سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن - في قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » - قال : لم يكن مجبودا ، ولكنه سُنَّه كانت فيهم . يُؤْمِنُونَ بِرَبِّهِمْ إِيْمًا ، كذلك كانت تحميمهم . وقال النورى والضحاك وغيرهما : كان مجبودا كالسجود الملهود عندنا . وهو كان تحميمهم . وقيل : كان ألتخاء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم بِالتَّكْنِي وَالْإِتِّخَاء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الإلتخاء . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لاعادة ؛ قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الإلتخاء والتكنى الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند العرب ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أت أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا ألتقوا ألتحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، وورثة مستقرة ، لا سيما عند النقاء الأمراء والرؤساء ؛ تكبوا عن السير ، وأعرضوا عن السنن .  
وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! ألتحنى بعضنا إلى بعض إذا ألتقينا ؟ قال : « لا » ؛ قلنا : ألتعتنى بعضنا بعضا ؟ قال « لا » . قلنا : ألتصالح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم » .  
تحريمه أبو عمر في « التمهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » - يعنى سعد بن معاذ - قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال الملتية ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم ليقولوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه ، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لفته خطأ لم يجوز له أن يحزنه على ذلك ؛



لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يتَّخِلَّ له الناسُ قياماً فليتبوأ مقعده من النار " وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كرامته لتلك

الثالثة - فإن قيل : فما نقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك مماثر إذا بعد عنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تشبه بغيرنا فليس منا " . وقال : " لا تُسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأُكُفِّ والتَّصاري بالإشارة " . وإذا سلَّم فإنه لا يتخفى ، ولا أن يُقبل مع السلام يده ، ولأن الأئمتاء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله . وأما قبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أنصالم التي أحدثوها تعظيماً منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا قوموا عند رأسى كما قوم الأعاجم عند رموس أكاسرتها " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وتذب إليها ، وقال : " تصالحوا يذهب الغيل " وروى غالب التَّمَار عن الشَّعْبِيِّ أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا التقوا تصالحوا ، وإذا قدموا من سفرٍ تصالحوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعاقة ؛ وذهب إلى هذا سَمْنُون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السَّلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدين ، ولا مقولاً نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاستوى معه . قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدَّأْب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البراء بن مازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقيت ذنوبهما بينهما " .



قوله تعالى : ﴿ وَفَدَّ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الحب استعمالا للكرم ؛ لتلايد ذكر إخوته صنيعهم بعد عفوهم بقوله : « لا ترتيب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الحب في وقت الصفا جفاً ، وهو قول صحيح دل عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ يَأْ بَدْعُونِي إِلَيْهِ » وكان في الحب بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعصاة ، وفي الحب مع الله تعالى ؛ وأيضاً فإن الميتة في النجاسة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرهم به ؛ وأيضاً دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكرب فيه أكثر ؛ وقال فيه أيضاً : « أذكرني عند ربك » فموجب فيه . ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ؛ وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية . وقيل : لأنه كان خرج إلى بداء ، وهو موضع ؛ وإياه عن جيل بقوله :

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ شَقاً إِلَى بَدَا \* إِلَى وَأَوْطَانِي بِلَادُ سِوَاهَا

فيعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بدأ القوم بدأوا إذا أتوا بدأ ، كما يقال : قَارَوْا غَوْرًا أَيْ أَتَوْا الْقَوْرَ ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بدأ ؛ ذكره القشيري ، وحكاه للساوودي عن الضعك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ وإيقاع الحسد ؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي ؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكريماً منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخطابي : اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يهابون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يتنبهون ؛ كقوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قتادة : لطف يوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله عن البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارف أرض مصر وقع ذلك يوسف أسنداً فزعزعه وأسمه لاريان لأن يأذن الله في تلقى أبيه يعقوب ، وأخبره

﴿ إِنَّكَ فَتَنَّا ﴾ موضع من الكتب والشم . ﴿ وَنَزَّلْنَا فِيهِ خَزَائِنَ خَبْرٍ ﴾



بقلموه فاذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملاك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يعيش متكا على يد يهوذا ؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليداه بالسلام فشنع من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مذهب الأحران ، وبكى وبكى معه يوسف ؛ فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى أبيه من الحزن ؛ قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ؛ بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقر عيني بعد المصوم والأحران ، ودخل مصر في اثنين وعشرين من أهل بيته ؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ؛ رواه عكرمة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خثيم : دخلوها وهم اثنتان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وأمرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والمحمى والزمنى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعين سنة في أغبط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه ليحرق بالشام ففعل ، ثم أنصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جبير : قبل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عيصو ، فدفنا في قبر واحد ؛ فمن ثقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، من قبل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب ويعصو في بطن واحد ، ودفنا في قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(١) أى منه يعقوب عليه السلام لأن القادي يسلم ، قاله النبي في « عند الجنان » . وقال الأوزي : ليس أن يخرجهما كل الله .



قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ( رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ) قال قتادة :  
لم يمتن الموت أحد ، نجي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ، حين تكلمت عليه النعم وجمع له  
الشمل أشاق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يمتن الموت ، وإنما غنى  
الوفاة على الإسلام ، أى إذا جاء أجلي توفى مسلما ، وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن  
عبد الله التستري : لا يمتن الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفر  
من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق عب للقاء الله عز وجل ، وثبت في الصحيح عن أنس قال  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتن أحدكم الموت لضُرْ نزل به فإن كان لابد فمتنيا  
فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي " رواه مسلم . وفيه  
عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتن أحدكم الموت ولا يدع به  
من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم أقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا " .  
وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام غنى الموت والخروج من الدنيا وقطع  
العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا في شرعه ، أما أنه يجوز بمنى الموت  
والدعاء به عند ظهور الفتن وظلماتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .  
« ومن » من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبويض ، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ »  
لأن ملك مصر ما كان كل الملك ، وعلم التفسير ما كان كل العلوم . وقيل : « من » للجنس ؛  
كقوله : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى  
تأويل الأحاديث .

(١٥١) قيل : وجه صحة على التي من حيث إنه بمنى الهم . وقال ابن جرير : فيه إيهام إلى أن الأول نهي  
على إيهامه ويكونه جمع بين قضي حذف حرف العلة وإياه .



قوله تعالى : ( فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) نصب على التثنية للنسب ، وهو وب ، وهو تداء مضاف ، والتقدير : يارب ! ويجوز أن يكون تداء ثانيا . والفاطر الخالق ، فهو سبحانه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء ، ولا مثال سبق ، وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ، عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسمى فى شرح اسماء الله الحسنى . ( أَنْتَ وَلِيُّ ) أى ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . ( تَوَفَّيْ مُوسَىٰ بِالصَّلَاحِينَ ) يريد آباءه الثلاثة : إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه ، كل يحب أن يدفن فى عظامهم ، لما يرحون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال ، فأرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفترق الماء بمصر فيميز عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شرفا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى بنى إسرائيل أخرجه من النيل ، ونقل تابوته بعد أربعين سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آباءه لدعوته : « وَالْحَقُّنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام . وعن الحسن قال : أتى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله ففأش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد لإفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ، فى قول ابن طيعة . قال الزهرى : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ، فهو يوشع بن نون ، وهو قفى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نينا ، وهو الذى أفتح أريحا ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، وأسوتقت له الشمس حسب ما تهتم فى « المسألة » . وولد لمنتشا بن يوسف موسى بن منتشا ، قبل موسى بن عمران ؛ وإجل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠ وما بعدها طبع

(٢) راجع ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبع الثانية .



المدينة، وقتل التلاميذ، وبني الجدار، وموسى بن مشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ، وكان  
 كمن جيس يتكرهكم، والحق الذى قاله ابن عباس، وكذلك فى القرآن. ثم كان بين يوسف  
 وموسى أم وقرونه، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله تعالى: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ**  
**لَتَسْمِعَهُمْ إِذْ اجْتَمَعُوا أَمْرُهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ**  
**وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾ وَمَا تَسْلُطُ عَلَيْهِ مِنْ بَرٍّ إِلَّا ذِكْرُ**  
**لِلْعَالِينَ ﴿١٥٨﴾**

قوله تعالى: **(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)** أبشدها وخبر. **(نُوحِيهِ إِلَيْكَ)** خبر ثان. قال الزجاج: ويعجز أن يكون ذلك بمعنى الذى، و«نوحيه إليك» خبر؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك، يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب «نوحيه إليك» أى نعلك بوحى هذا إليك. **(وَمَا كُنْتَ لَتَسْمِعَهُمْ)** أى مع إخوة يوسف **(إِذْ اجْتَمَعُوا أَمْرُهُمْ)** فى القاء يوسف فى الحب. **(وَهُمْ يَمْكُرُونَ)** أى بيوسف فى إلقائه فى الحب. وقيل: «يمكرون» يعقوب حين جاءوه بالقميص ملطفاً بالدم، أى ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: **(وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)** ظن أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا، فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته، تقول: حرص يحرس، مثل: ضرب يضرب. وفى لغة ضعيفة حرص يحرس مثل حديد يحمّد. والحرص طلب الشيء باختيار.

قوله تعالى: **(وَمَا تَسْلُطُ عَلَيْهِ مِنْ بَرٍّ)** «مين» صلة، أى ما تسلم جعلا. **(إِنْ هُوَ)** أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى. **(إِلَّا ذِكْرُ)** أى عظة وتذكير **(لِلْعَالِينَ)**.



قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا  
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾  
أَفَلَمْ نَأْتِ بِهَمَّ غَشِيَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ  
أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ( وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) قال الخليل وسيويه : هي  
« آى » دخل عليها كاف التشبيه وبيئت معها ، فصار في الكلام معنى كم ، وقد مضى  
في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السموات والأرض » في « البقرة » .  
وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أى هم غافلون معرضون عن تأملها . وقيل  
عزيمة وعمر بن فائد « وَالْأَرْضِ » رضا آبئاء ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرا السدنى  
« وَالْأَرْضِ » نصبا بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرا ابن  
مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ) نزلت في قوم أتوا بالله  
خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يبيدون الأوثان ، قاله الحسن ومجاهد وطاهر والشعبي  
وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصفونه  
بغير صفته ويعملون له أندادا ، وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب منهم شرك وإيمان ،  
آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنبارى . وقال  
ابن عباس : نزلت في تلبية مشركى العرب : لييك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه  
وما ملك . وعنه أيضا أنهم النصارى . وعنه أيضا أنهم المشبهة ، آمنوا بجملا وأشركوا

(١) طبع ١١٥ ص ١١٥ طبع طبع طبع طبع طبع

(٢) طبع ١١٥ ص ١١٥ طبع طبع طبع طبع طبع



مَفْصَلًا. وقيل : نزلت في المنافقين؛ للمسي : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا في السماء؛ وذلك أن الكفار يفتنون ربه في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدماء؛ بيانه : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْبَبُ إِلَيْهِ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيهِ » الآية؛ وفي آية أخرى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَلَئِمَّا عَرِيضٌ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الملكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجوت، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجملون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدخان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان في سبئي القحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ كَاذِبُونَ » والوسود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أي إلا وهم كاذبون والله أعلم .

قوله تعالى : ( أَقَامُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ) قال ابن عباس : مجللة . وقال مجاهد : غذاب ينشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَنْشَأُ الْمَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وفيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعني الصواعق والقوارع . ( أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ ) يعني القيامة . ( بَنَّةٌ ) نصب على الحال؛ واصله المصدر . وقال المبرد : جاء من العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَعَ أَمْرُهُمْ بَنَّةٌ وَبَنَاءَةٌ؛ قال النحاس : ومعنى « بننة » إصابة من حيث لم يتوقع . ( وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ) وهو توكيد . وقوله « بننة » قال ابن عباس : تصيح الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتي .



قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ﴾ آتيناؤه وخبره أى قل يا محمد هذه طريقى وسبلى ومنهاجى،  
 قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوى . مقاتل : دعى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه  
 وادعوا إليه يؤدنى إلى الجنة . (على بصيرة) أى على يقين وحق؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا .  
 (أنا) توكيد . (ومن أتبعني) عطف على المضمر . (وسبغان الله) أى قل يا محمد : «وسبغان  
 الله» . (وما أنا من المشركين) الذين يخفون من دون الله آئندا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
 أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ  
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ حَتَّى إِذَا  
 أَسْتَشِيسَ الرُّسُلَ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَأْسٍ  
 وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا رد على  
 القائلين : «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجالا ليس معهم امرأة ولا جنى ولا ملك؛ وهذا  
 يرد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن في النساء أربع نيات حواء وآسية وأم  
 موسى وصرم» . وقد تقدم في «آل عمران» شئ من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن؛  
 لم يبعث الله نبيا من أهل البادية لتلبه الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار  
 أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ، ولا من  
 للنساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أى من أهل الأمصار؛ لأنهم  
 أحلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا  
 محموزا؛ من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْإِنْسِ» والله أعلم .



قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم (فيعتبروا) . (ولدار الآخرة خير) ابتداء وخبره . وزعم القراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ، كيوم الخميس، وبارحة الأولى؛ قال الشاعر

ولو أقوت عليك ديار عيس<sup>(١)</sup> • عرفت الدل عرقان اليقين

أي عرقانا يقينا؛ وأحتج الكسائي بقولهم: صلاة الأولى؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به؛ والأجود الصلاة الأولى، ومن قال صلاة الأولى فعناه: عند صلاة الفريضة الأولى؛ وإنما نعتت الأولى لأنها أول ما صلى حين فرضت الصلاة، وأول ما أظهر؛ فلذلك قيل لها أيضا الظاهر . والتقدير: ولدار حال الآخرة خير، وهذا قول البصريين؛ والمراد بهذه الدار الجنة؛ أي هي خير للثقلين . وقرئ «ولدار الآخرة» . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقرن بآلاء على الخبر .

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾<sup>(٢)</sup> وهذه الآية فيها تزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، يبنى الوقوف عليه لئلا يزول الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا لم نأغب أمهم بالعقاب «حتى إذا استيأس الرسل» أي يشعروا من إيمان قومهم «وظنوا أنهم قد كذبوا» بالتشديد؛ أي أيقنوا أن قومهم كذّبواهم . وقيل المعنى: حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبواهم، لأن القوم كذبوا، ولكن الأنبياء ظنوا وحسبوا أنهم يكذبونهم؛ أي خافوا أن يدخل قلوب اتباعهم شك؛ فيكون «وظنوا» على باب في هذا التأويل: وقرأ ابن عباس وآمن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن القعقاع والحسن وقتادة وأبو رجاء الطاردي وعاصم وحزرة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعشى وخلف «كذبوا» بالتخفيف؛ أي ظن القوم أن الرسل كذبواهم فيما أخبروا به من العذاب،

(١) وفي رواية: «ذلك فرحت ديار عيس» (٢) راجع ص ٢٤١ من طه الجزء ٢



ولم يصدقوا . وقيل : المعنى ظن الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم . وفي رواية عن ابن عباس : ظن الرسل أن الله أخلف ما ودهم . وقيل : لم تصح هذا الرواية ؛ لأنه لا يظن الرسل هذا الظن ، ومن ظن هذا الظن لا يستحق النصر ؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرًا ﴾ ؟ ! قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد إن صحت الرواية أن المراد خطر بقلوب البشر هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به » . ويجوز أن يقال : فروا من ذلك الظن ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا بشرا فضضوا من طول البلاء ، ونسوا وظنوا أنهم أخلفوا ؛ ثم نلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقال الترمذي الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعده الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا يتقص ذلك الشرط والمهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس وانظت من هذا الوجه . وقال المهدي عن ابن عباس : ظنت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وفرا مجاهد وحيد — « قد كذبوا » بفتح الكاف والذال مخففا ، على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، لما رأوا من فضل الله عز وجل في تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [ لما ] أيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفي البخاري عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسأله عن قول الله عز وجل : « حتى إذا استبأس الرسل » قال قلت : أكذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت : فقد استيقوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ! لعمري ! لقد استيقنوا بذلك ؛ فقالت لها : « وظنوا أنهم قد كذبوا » قالت . معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك برها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أباغ الرسل [ الذين آمنوا ] بهم وصدقهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استبأس الرسل [



مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَلَّتِ الرِّسْلُ أَنْتَ أَنْبَاءَهُمْ كَذَّبَهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا عِنْدَ ذَلِكَ .  
 وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « جَاءَهُمْ نَصْرُنَا » قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — جَاءَ الرِّسْلُ نَصْرُ اللَّهِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ .  
 الثَّانِي — جَاءَ قَوْمَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ( فَتَجَى مَنْ نَشَأُ ) قِيلَ : الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ آمَنَ  
 مَعَهُمْ . وَرَوَى عَنْ عاصِمٍ « فَتَجَى مَنْ نَشَأُ » بَنُونَ وَاحِدَةٌ مَفْتُوحَةٌ الْيَاءُ ، وَ« مَنْ » فِي مَوْضِعِ  
 رَفْعٍ ، أَسْمَ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ ، وَاخْتَارَ أَبُو عُبَيْدٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ لِأَنَّهَا فِي مَصْحَفِ عُثْمَانَ وَسَائِرِ  
 مَصَاحِفِ الْبِلْدَانِ بَنُونَ وَاحِدَةٌ . وَقَرَأَ ابْنُ مَيْمُونٍ « فَتَجَى » فَعْلٌ مَاضٍ ، وَ« مَنْ » فِي مَوْضِعِ  
 رَفْعٍ لِأَنَّهُ الْفَاعِلُ ، وَعَلَى قِرَاءَةِ الْبَاقِينَ نَصْبًا عَلَى الْمَفْعُولِ . ( وَلَا يَرْدُ بَأْسُنَا ) أَيُ عَذَابِنَا . ( عَنِ الْقَوْمِ  
 الْمُجْرِمِينَ ) أَيُ الْكَافِرِينَ الْمَشْرِكِينَ .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ  
 حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ  
 وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ) أَيُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ ، أَوْ فِي قِصَصِ  
 الْأَنْبِيَاءِ ( عِبْرَةٌ ) أَيُ فِكْرَةٌ وَتَذَكُّرَةٌ وَعِظَةٌ . ( لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) أَيُ الْعُقُولِ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ  
 عَنْ الزَّهْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّمِيمِيِّ : إِنَّهُ يَمْقُوبُ عَاشَ مِائَةَ سَنَةٍ وَسَبْعًا  
 وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَتَوَفَّى أَخُوهُ عِيسَى مَعَهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَقُبِرَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ :  
 « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . ( مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى )  
 أَيُ مَا كَانَ الْقُرْآنَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، أَوْ مَا كَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ حَدِيثًا يُفْتَرَى . ( وَلَكِنْ تَصْدِيقَ  
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ) أَيُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنْ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا نَاقِلٌ  
 مِنْ زَعْمِ أَنَّهُ الْقُرْآنُ . ( وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ) مِمَّا يَحْتَاجُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَالشَّرَائِعِ  
 وَالْأَحْكَامِ ( وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » <sup>(١)</sup> [ إلى آخرهما ]

قوله تعالى : الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①

قوله تعالى : ( الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ) تقدم القول فيها . ( وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ ) يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك ( مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذي » في موضع رفع عطفا على « آيات » أو على الأبداء ، و « الحق » خبره ؛ ويجوز أن يكون موضعه جرا على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ، وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ . الْحَقُّ » يعني ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذي » خفضا نعتا للكتاب ، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق ؛ ومنه قول الشاعر

إلى الملك أقدم وابن المهام • ولتت الكتيبة في المزدحم <sup>(٢)</sup>

يريد : إلى الملك أقدم بن المهام ، ليت الكتيبة . ( وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

(١) الزيادة من قسم البحر . (٢) أقدم ( جمع العاف ) ، السيد ، والكتيبة : الجيش ، والمزدحم : محل الازدحام .



قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٠﴾**

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)** الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال ؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : **« بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا »** قولان : أحدهما - أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قتادة وإيَّاس بن معاوية وغيرهما . الثاني - لها عمد ، ولكننا لا نراه ؛ قال ابن عباس : لها عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يُمكنك بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ؛ ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كهر الكافر ؛ ذكره الفَرَزَوِيُّ . والعمد جمع عمود ؛ قال النابغة :

وَنَحِيسُ الْجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَمْ . يَنْوُونَ تَدْمَرُ بِالْصَّفَاحِ وَالْعَمَدِ <sup>(١)</sup>

**(ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)** تقدم الكلام فيه . **(وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)** أي ذلَّهما لمنافع خلقه ومصالح عباده ؛ وكل مخلوق مُدَّللٌ للخلق . **(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)** أي إلى وقت معلوم ؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تُكْوَرُ الشمس ، ويُحْسَفُ القمر ، وتُكْدَرُ النجوم ، وتُنْثَرُ الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي يتنيان إليها لا بما وزانها . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلَّك في شهر ، والشمس في سنة . **(يُدِيرُ الْأَمْرَ)** أي يصرفه على ما يريد . **(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)** أي يُبَيِّنُهَا أي من قدر على هذه الأشياء بقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : **(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)** .

(١) ويريد : وخبر الجن . وطيس : ذل ؛ وكسر : به بالثام ناطحا سدا سليمان عليه السلام . والصفاح حجارة مراص رفاق . وعمد : جمع عمود . (٢) راجع به ٧ ص ٢١٩ طيبة أول أدبانية .



قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْنِي عَنْكَ الْإِيلَ الْنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ، أى بسط الأرض طولاً وعرضاً . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالاً نوابت ، واحداها راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ، والإرساء الثبوت ، قال عنترة :  
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لَدَاكَ حُرَّةٌ • تَرْسُو إِذَا قُتِسَ الْجَبَانُ تَطْعُ  
وقال جميل :

أَحِبُّهَا وَالَّذِي أَرَسَى قَوَاعِدَهُ • جَبًا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطْنًا  
وقال ابن عباس وعطاء : أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس .  
(٢)

مسئلة - فى هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة ، ورد على من زعم أن الأرض تنوى أبوابها عليها ، وزعم ابن الراوندى أن تحت الأرض جسماً صاعداً كالرَّيح الصَّاعِدَةِ وهى منحدره فاعتدل الماوى والصَّاعِدَى فى الحَرَم والقُوَّة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة نصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياهها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والانثى ، وهذا خلاف

(١) قبل آيت

ومرفت أن متى إن تانى • لا يجنى ثلثا الفراء الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة •



النس . وليل ، معنى « زوجين » نومان . كالحلوة والحامض ، والرطب والبابس ،  
والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ) أى دلالات وعلامات  
( لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) .

قوله تعالى : وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ أَعْنَابٍ  
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِصُلٌ بَعْضُهَا عَلَى  
بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ①

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ) في الكلام حذف ؛ المعنى :  
وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى :  
وتقيكم البرد ، ثم حذف لعم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات  
الصحارى وما كان غير عامر

الثانية - قوله تعالى : « متجاورات » أى قُرَى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها  
واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تفاوتت في الثمار والتمر ؛ فيكون البعض حلوا ، والبعض  
حامضا ؛ والنصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم ،  
وإن أنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته  
وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضل عن معرفته ؛ فإنه نبه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ »  
على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدل دليل على  
بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف .  
وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سيخة  
مع تجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عما يقول الظالمون  
والجاحدون علوا كبيرا .



**الثالثة - نعت الكفرة - لنهم الله -** **إِنَّ كُلَّ لَاحِظٍ جِثَّتْ نَظْفُ لَاحِظٍ** مانع، وأتوا ذلك في التمار الخارية من الاتجار، وقد اتوا بجمعها، وأنكروا معناها، وأنكروا الأعراس . وقالت فرقة: بحدوث التمار لا من مانع، وأتوا الأعراس طعنا، والدليل على أن الحادث لا بد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه، وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل تخصص خصمه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، وأستيفاء هذا في علم الكلام.

**الرابعة -** قوله تعالى: **( وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ )** قرأ الحسن « وجنات » بكسر اللام، على تقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: **( وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ )** . ويعرف أن تكون مجرورة على الخلل على « كل » التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون: « جنات » بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. **( وَزَرَعَ وَنَخِيلٌ صُتُونٌ وَغَيْرُ صُتُونٍ )** بالرفع . ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجنات، أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل . وخفصها الباقون نسقًا على الأعناب، فيكون الزرع والنخيل من الجنات، ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ما تقدم في « وجنات » . وقرا مجاهد والسلمي وغيرهما « صُتُونٌ » بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لفتان، وهما جمع صنو، وهما النخلتان، يجمعهن أصل واحد، وتشتب منه رموس قصير نخيل، نظيرها قنوان، واحدها قنؤ . وروى أبو إسحق عن البراء قال: الصُتُونُ المجتمع، وغير الصُتُونُ المتفرق، والناس: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صُتُون . والصُتُونُ المثل، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **« تَمَّ الرَّجُلُ صُتُو أَبِيهِ »** . ولا فرق فيها بين التنبيه والجمع، ولا بالإعراب، فغرب نون الجمع، وتكسر نون التنبيه، قال الشاعر:

العلم والحلم جُتَا كَرَم • للرد زين إذا هما اجتمعا  
صُتُونٍ لَا يُسْتَمُّ حُسْنُهُمَا • لآ يجمع ذا وذاك معا



**ثلاثاء - قوله تعالى : ( يُسْقِي سَائِدًا وَاحِدًا )** كصالح بن آدم وخبيثهم ، أبوهم  
 وإسمه ، قاله النحاس والبخاري . وقرأ حاتم وابن حاتم « يُسْقِي » بالياء ، أى يُسْقِي ذلك كله .  
 وقرأ الباقر بن النعمان ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ، قال أبو عمرو :  
 والثاني أحسن ، لقوله : ( وَتُفَضَّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ) ولم يقل بعضه . وقرأ  
 حمزة والكسائي وغيرهما « وَتُفَضَّلُ » بالياء رداً على قوله : « يُدَبَّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَضَّلُ »  
 هو « يُفَضِّلُ » . الباقر بن النعمان على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت  
 النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة  
 واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله :  
 « يُسْقِي سَائِدًا وَاحِدًا » و « الْأَكْل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلوى والحامض والفارسي  
 والدقل . وروى مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله  
 تعالى : ( وَتُفَضَّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ) قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض »  
 ذكره الترمذي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لى آدم ، أصلهم  
 واحد ، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد ؛  
 ومنه قول الشاعر :

الناس كالنبت والنبت ألوان • منها شجر الصندل والكافور والبان

• ومنها شجر ينضج طول الدهر قطران •

( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ  
 جَدِيدٍ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَنْعَانِهِمْ  
 وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾



قوله تعالى : ( وَإِنْ تَعَجَّبَ فَقُولْهُمْ ) أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بما  
ما كنت عندهم الصادق الأمين فاعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يتعجب ، ولا يحور  
عليه التعجب ، لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وإما ذكر ذلك ليتعجب منه تيه والمؤمنون .  
وقيل المعنى : أى إن عجت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خالق السموات  
والأرض والنهار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يصعب منه الخلق ، لأن الإعادة  
في معنى الابتداء . وقيل الآية في منكرى الصانع ، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة  
الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب ، ونظم الآية يدل على الأول والثاني ،  
لقوله : ( أَيْدَا كُنَّا تَرَابًا ) أى أنبت إذا كنا ترابا ؟ ! . ( أَيْدَا لَقِيَ خَلْقِي جَدِيدٌ ) وقوى  
« إِنَّا » . و ( الْأَغْلَالُ ) جمع غُلٍّ ، وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليد إلى العنق ، أى يُنَلَوْنَ يوم القيامة ،  
بدليل قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل :  
الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ  
قَبْلِهِمُ الْأَمْثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ  
لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⑤ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ  
إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ⑥

قوله تعالى : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ) أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم  
يطلبون العذاب ، قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا  
حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل العافية ، وقد حكم سبحانه بتأخير  
العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل : « قبل الحسنة » أى قبل الإيمان  
الذى يرجى به الأمان والحسنات . و ( الْأَمْثَلُ ) العقوبات ، الواحدة مُثْلَةٌ . وروى  
عن الأعمش أنه قرأ « الْأَمْثَلُ » بضم الميم وإسكان الشاء ، وهذا جمع مُثْلَةٌ ، ويموز



وَالْمَلَأَتْ . تَهْلِكُ مِنَ الْعَصَةِ كَمَا تَهْلِكُ ، وَقِيلَ : لَوْ أَنَّهَا تَهْلِكُ مِنْ الْعَصَةِ .  
وَرَوَى عَنْ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ قَالَهُ : الْمَلَأَتْ . فَتَحَ الْمِمْ وَاسْتَكَانَ النَّاءُ ، فَهَذَا جَمْعُ مَثَلَةٍ ، فَمِنْ خَلْفِ  
الْعَصَةِ لَتَهْلِكُ ، ذَكَرَهُ جَمِيعُهُ النَّماسُ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَعَلَى قِرَاءَةِ الْجَمَاعَةِ وَاحِدَةٌ مَثَلَةٌ ، نَحْوُ صَدَقَةٍ  
وَتَمِيمٍ تَضُمُ النَّاءُ وَالْمِمْ هِيْمًا ، وَاحِدُهَا عَلَى لَتَهُمْ مَثَلَةٌ ، بِضَمِّ الْمِمْ وَجَزْمِ النَّاءِ ، مِثْلُ : قُرْفَةٍ  
وَعُفْرَاتٍ ، وَالْقَمَلُ مِنْهُ مَثَلَةٌ بِهَ أَتَمَلُّ مِثْلًا ، فَتَحَ الْمِمْ وَكَوْنُ النَّاءِ . ( وَإِنَّ رَبَّكَ  
لَهُوَ مُقْسِرٌ ) أَيُّ قَوْمٍ تَحَاوِزُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا آمَنُوا ، وَعَنِ الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَابُوا . وَقَالَ  
أَبْنُ عَبَّاسٍ : أَرَبِي آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : وَإِنْ رَبُّكَ لَهُ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .  
( وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ) إِذَا أَصْرَزُوا عَلَى الْكُفْرِ . وَرَوَى حَادِبُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ بْنِ زَيْدٍ  
عَنْ عَبْدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ « وَإِنْ رَبُّكَ لَهُ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ  
لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ لَا عَفْوُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَتَحَاوُزُهُ  
لَمَّا حَتَا أَحَدًا عِشَى وَلَوْ لَا عَفَاكَ وَوَعِيدُهُ وَعَنَابُهُ لَأَتَكَلَّ كُلُّ أَحَدٍ » .

قوله تعالى : ( وَيَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا آيَةً ) أَيُّ هَلَا ( أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ ) .  
لَمَّا أَقْرَحُوا الْآيَاتِ وَطَلَبُوا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ( إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ )  
أَيُّ مُنْذِرٍ . ( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) أَيُّ نَبِيٍّ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ . وَقِيلَ : الْهَادِي اللَّهُ ، أَيُّ عَلَيْكَ  
الْإِنْتِزَارُ ، وَاللهُ هَادِي كُلِّ قَوْمٍ إِنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُمْ .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ  
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأولى - قوله تعالى : ( اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ) أَيُّ مِنْ ذِكْرِ وَاحِدٍ ، صَدِيقٍ ، وَصَاحِبٍ ،  
صَالِحٍ وَطَالِحٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : أَنَّ اللَّهَ سَبْعَانَةٌ مُفْرَدٌ بِسْمِ الْغَيْبِ وَحْدَهُ  
( ر ) رَابِعٌ - ص ٧ وما يسطو عليه أولي أوتانية .



لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مقاتيح القيب خمس » الحديث . وفيه « لا يعلم ما تقيض الأرحام إلا الله » . واختلف العلماء في تأويل قوله : ( وَمَا تَقْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّهُ ) فقال قتادة : المعنى ما تُسقط قبل التسعة الأشهر ، وما تزداد فوق التسعة ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك قصصا في ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تمامها لما قص ؛ وعنه : النقيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : الفيض والزيادة يرجعان إلى الولد ؛ كقصان أصبح أو غيرها ، وزيادة أصبح أو غيرها . وقيل : للنقيض انقطاع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه . وقال عطاء والشعي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ؛ وأنها كانت تقي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار بالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، ترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة ، فالحقه القافة بهما ، فعلاه عمر بالدرّة ، وسأل نسوة من قريش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد ؟ فقلن : إن الأول خلا بها وخلاها ، فحاضت على الحمل ، فقلن أن عنتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى ، فتمش الولد بهما الثانى ؛ فقال عمر : الله أكبر ! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ؛ ولا قل ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان للحامل تحيض ، وكانت سائر المرأة من الدم حيضا لما سمع استبراء الأمة بحيض ؛ وهو جماع . وروى عن مالك في كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر .



**الرسالة -** وعنه في الأشهر من الأهل كالأشهر الفرمية، والله أعلم  
 في الطلب من بني أمية طاعة وأغنى في كتاب ابن حارث أنه إن قصص عن الأشهر  
 لثلاثة أيام فإن الولد يلحق لثلاثة قصص الأشهر وزيادتها؛ حكاية ابن عطية .

**الخامسة -** واختلف العلماء في أكثر الخلل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد  
 من مائسة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدوماً يتحول ظل المنزل ؛ ذكره  
 الثاقفي وقاله جميلة بنت سعد بنت عبد بن سعد وعن الليث بن سعد : إن أكثره  
 ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايته، والمشهور عنه  
 خمس سنين؛ وروى عنه لا حذله، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهي الرواية الثالثة عنه .  
 وعن الزهري سبع وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع، والشافعي : مدة  
 الثمانية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : ستان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول :  
 ستة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر :  
 وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرفت من أمر النساء والله التوفيق .  
 وروى الثاقفي عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إن حدثت عن مائسة أنها  
 قالت : لا تزيد المرأة في حملها على ستين قدراً ظل المنزل ، فقال : سبحان الله ! من يقوله  
 هذا ؟ ! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجها  
 رجل صدق ؛ حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره  
 المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع  
 سنين، وكانت تسمى حاملة القبيل . وروى أيضاً قال : بينا مالك بن دينار يوماً جالس  
 إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لك امرأة حبل منذ أربع سنين قد أصبحت  
 في كرب شديد ، فضرب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا  
 أنباء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ربيع فأخرجه منها  
 الساعه ، وإن كان في بطنها جارية فأبطلها ظلاماً ، فأكفمتها ما تشاء وتثبت ، وعندك



أثم الكلب ، ودفن مالك بده ، ودفن الناس أيديهم ، ويعد الرسول إلى الرجل قتله ، لعنه  
 أمراك ، فذهب الرجل ، لما حط مالك بده حتى طلع الرجل من بطن المسجد على وقته  
 غلام جعد قَطَطٌ<sup>(١)</sup> ، ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما فطمت سواره ، وروى أيضا أن  
 وجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! ما بقيت من امرأتى سكين بلقت  
 وهي حبل ، فشاور عمر الناس في رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان  
 لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما  
 قد خرجت ثيتاه ، فعرف الرجل الشبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ، فقال عمر : عجرت  
 النساء أن يلدن مثل معاذ ، لولا معاذ لملك عمر . وقال الضحاك : وضعتى أمى وقد حملت  
 بي في بطنها ستين ، فولدتى وقد خرجت سنن . ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أمه  
 ستان ، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين ،  
 فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشق بطنها وأخرج وقد نبئت أسنانه . وقال حماد  
 ابن سلمة : إنما سمى هريم بن جبان هريما لأنه بقى في بطن أمه أربع سنين . وذكر الفزقوى أن  
 الضحاك ولد لستين ، وقد طلعت سنه فسمى صحاكا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا  
 لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فز به طير فقال : كش .

السادسة — قال ابن خزيمة : أقل الحيض والنفس وأكثره وأقل الحمل وأكثره  
 مأخوذ من طريق الاجتهاد ، لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر  
 ما أظهره لنا ، ويوجد ظاهرا في النساء نادرا أو متنادا ، ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع  
 سنين وخمس سنين حكنا بذلك ، والنفس والحيض لما لم نجد فيه امرأة مستقرا رجنا فيه  
 إلى ما يوجد في النادر منهن .

السابعة — قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين عن المالكيين أن أكثر الحمل  
 تسعة أشهر ، وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكى ، وهم الطبايعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قَطَط : شديد الجعودة . (٢) مرد الصبي : ما قطعه الفأفة .



في الزم الكواكب السبعة ، فأخذ منها شهرا ، ويكون الشهر الرابع منها الشمس ، وذلك  
بمترك وبضطرب ، وإذا تكامل التعامل في السبعة الأشهر من الكواكب السبعة نادى في الشهر  
الثامن إلى زحل ، فيقوله يردد ، فيالتي تمكنت من مناظرتهم لمواقاتهم ! ما بال المرجح  
بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره ؟ الله أخبركم بهذا أم على الله فترون ؟ ! وإذا  
جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدوير إلى ثلاث أو أربع ، أو يعود إلى جميعها  
مرتين أو ثلاثا ؟ ! ما هذا الحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثامنة - قوله تعالى : ( وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ) يعني من النقصان والزيادة .  
ويقال : بمقدار = قدر خروج الولد من بطن أمه ، وقدر مكانه في بطنها إلى خروجه . وقال  
قاعدة : في الرزق والأجل . والمقدار القدر ، وعموم الآية يتناول كل ذلك ، والله سبحانه أعلم .  
قلت : هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة ، أي هو عالم  
بما غاب عن الخلق ، وبما شهده . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى  
الشاهد ، فبشبه سبحانه على أقراده بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ،  
فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد ، فاما أهل الطب الذين يستدلون بالإمارات والعلامات فإن  
قطعوا بذلك فهو كفر ، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وماهم عليه : ولم يقدح ذلك في الممدوح ،  
فإن العادة يجوز أن تكسرها ، والعلم لا يجوز تبذله . و ( الكثير ) الذي كل شيء دونه .  
( المتعالي ) عما يقول المشركون ، المستعلى على كل شيء بقدرته وقهره ، وقد ذكرناهما في شرح  
الأسماء مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ  
هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ( سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ) إسرار القول : ما حثت به  
المرء نفسه ، والجهر ما حدث به غيره ، والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من



خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفاً لعضوائه  
التقدير : سرٌّ من أسر وجهه من جهر سواء منكم ؛ ويجوز أن يتعلق « سواء » على معنى ؛  
يستوى منكم ، كقولك : مررت بزيد . ويجوز أن يكون على تقدير : سر من أسر منكم  
وجه من جهر منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر  
به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا مدل . وقيل : « سواء » أى مستو ، فلا يحتاج إلى  
تقدير حذف مضاف . ( وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ) أى يستوى فى علم الله  
السر والجهر ، والظاهر فى الطرقات ، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقطرب  
المستخفى بالليل الظاهر ؛ ومنه خفيت الشيء وأخفيتها أى أظهرته ؛ وأخفيت الشيء أى  
استخرجته ؛ ومنه قيل للنباش المخفى . وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَتْقَاهُنَّ كَأَمَّا • خَفَاهُنَّ وَدَّقَ مِنْ عَيْشِي مَجْلِبٌ

والسارب المتوارى ، أى الداخل سرّاً ؛ ومنه قولهم : أنسرب الوحش إذا دخل فى مكانه .  
وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر ، « سارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف »  
بالمعاصى ، « سارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » « ذاهب » الكسائى : سَرَبَ  
يَسْرُبُ سَرَبًا وَسُرُوبًا إِذَا ذَهَبَ ؛ وقال الشاعر :

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ خَلِيلِهِمْ • وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ سَارِبٌ

أى ذاهب . وقال أبو رجا : السارب القاهب على وجهه فى الأرض ؛ قال الشاعر :

• أُنَى سَرَبَتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سُرُوبٍ •

وقال الفتي : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة ؛ من قولهم : أنسرب

الماء . وقال الأصمى : خَلَّ سِرْبَهُ أى طريقه .

(١) أفاق (جمع حقن) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس بحسرة الفترة  
والودق : المطر . وغيث مجلب : مصوت ، و يروى مجلب (بالحاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب النخلى  
ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يهتدون على الثقة ، وحسبوا ظلمهم عن أن يتقدم تنبيه إلهم خوفاً  
أن ينادى عليها ، ونحن أعزاء خلعتنا فريد لذهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخثيم ، ونعم البيت :

• وتقرب الأحلام غير قريب •



له سلم . لم مَعَقَبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ  
أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا  
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿لَمْ مَعَقَبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبها ملائكة النهار . وقال : «مُعَقَّبَاتٌ» والملائكة ذُكرَ أنَّهُ لانه جمع مُعَقَّبَةٍ ، يقال : مَلَكَ مُعَقَّبٌ ، وملائكة مُعَقَّبَةٌ ، ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع . وقرأ بعضهم : «لَمْ مَعَقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» . ومعاقب جمع مُعَقَّبٌ ؛ وقيل للملائكة معقبة على لفظ الملائكة . وقيل : لَكِنَّهُ لَكُنْفَةٌ ذَلِكُمْ مِنْهُمْ ، نحو نسبة وعلامة وراوية ، قاله أبو جهمري وغيره . والتعقب العود بسند البدء ، قال الله تعالى : «وَلِي مَذْيُومًا وَلَمْ يُعَقَّبْ» أي لم يرجع ، وفي الحديث : «مُعَقَّبَاتٌ لَا يُجِيبُ قَائِلُهُنَّ» - أو - فاعلُهُنَّ «فذكر التسييح والتحديد والتكثير» . قال أبو الجهم : «تُجِيبْنَ» ومُعَقَّبَاتٌ «لأنهن طادت مرة بعد مرة ، ففعل من غير عمل ثم عاد إليه فقد عَقِبَ» . والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعتركة على الحوض ؛ فإذا أنصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي المستخفي بالليل والسواب بالنهار . ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في الحفظ : قيل : يشمل أن يكون توكل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة ، لطفًا منه به ، فإذا جاء للتدبر خلوا بينه وبينه ، قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما . قال أبو مجاز : جاء رجل من مُرَادٍ إلى علي فقال : احترس فإن ناسًا من مُرَادٍ يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

(١) قال الزخري : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيها ، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير . وقال ابن جني : إنه تكسير معقب كطعم ومطاعم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهمزة من الجمع ودعوت الياء عنها ؛ قال الأزهري : وله الأظهر - «روح المعاني» . (٢) الحديث في الدعاء وهو جماعة في «صحیح مسلم» : «مُعَقَّبَاتٌ لَا يُجِيبُ قَائِلُهُنَّ دَرَكُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعَ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً» . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها قتلت معقب كل صلاة . (٣) مراد (بالضم) وأمره داله مهلة ؛ فيلة من قبائل العرب سميت باسم أيا .



رجل مَلِكِينَ يَحْفَظَانَهُ مَا لَمْ يَقْدَرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ الْأَجَلَ حَصَنَ حَصِينَةً؛ وَعَلَى هَذَا «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أَيْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِلِذْنِهِ «فَ» مِنْ «بَعْنَى الْبَاءِ» وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ يَقُومُ بَعْضُهَا بِمَقَامِ بَعْضٍ . وَقِيلَ : «مِنْ» بِمَعْنَى «عَنْ» ؛ أَيْ يَحْفَظُونَهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ ؛ أَيْ حَفَظَهُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ ؛ يَقُولُ : كَسَوْنَهُ عَنْ عُرَى وَمِنْ عُرَى ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جَوْعٍ» أَيْ عَنْ جَوْعٍ . وَقِيلَ : يَحْفَظُونَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، حَتَّى لَا تَحُلَّ بِهِ عِقَابُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ مِنَ النِّعَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَإِذَا أَصْرُوا حَانَ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبَ وَنَزَلَتْ بِهِمُ النَّعْمَةُ ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ الْحَقْلَةُ الْمُعَقَّبَاتُ . وَقِيلَ : يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْخَلْقِ؛ قَالَ كَعْبٌ : لَوْلَا أَنْفُ اللَّهِ وَكُلُّ بِكْمِ مَلَائِكَةٍ يَذْبُونُ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ تَحْفَظْتُمْ مِنَ الْخَلْقِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؛ وَخَصَّمَهُمْ بِأَن قَالَ : «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» لِأَنَّهُمْ ضَرِيعَتَانِ ؛ كَمَا قَالَ : «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أَيْ لَيْسَ بِمَا تَسَاهَدُونَهُ أَتَمَّ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ : لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ؛ وَهُوَ مَرْصُوعٌ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبْنِ جُرَيْجٍ وَالتَّخَنُّشِ ؛ وَعَلَى أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ وَالْخَلْقَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا تَقْدِيمَ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرَ . وَقَالَ أَبُو جُرَيْجٍ : إِنْ الْمَعْنَى يَحْفَظُونَ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : يَكْتُبُونَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ . وَيَجُوزُ إِذَا كَانَتِ الْمُعَقَّبَاتُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ فِي «لَهُ» اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا ذَكَرْنَا ؛ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّخَنُّشِ، فَهَذَا قَوْلٌ . وَقِيلَ : «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يَعْنِي بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَيْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْفَظُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ؛ وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ الرَّسُولِ فِي قَوْلِهِ : «لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي إِنْهَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أَيْ سِوَاكُمْ مِنْ أَسْرَرِ الْقَوْلِ وَمِنْ جَهْرِ بِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَضُرُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ يَحْفَظُونَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ هَذَا إِلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ : «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أَيْ يَحْفَظُونَ الْمَهْدَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .

وقول راجع — أن الراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أجسام ومن خلفهم



يحفظونهم ؛ فإذا جاد أمر الله لم يشؤا منهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وكذلك قال الضحاك ؛ هو السلطان التحرس من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل قبا عذوفا ، تهديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدوي ؛ ومن جعل للمعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أمر القول ومن جهربه فله حراس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المصاحي ، ويحفظونه من أن ينجح فيه وعظ ؛ قال القشيري ؛ وهذا لا يمنع الرب من الإهمال إلى أن يحق العذاب ؛ وهو إذا قهر هذا المصاحي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للمقوية ؛ فكانه الذي يحمل المقوية بنفسه ؛ فقله : « يحفظونه من أمر الله » أي من امتثال لأمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛ قال الماوردي ؛ ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما - يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني - يحفظونه من الحزن والهوام المؤذية ، ما لم يأت قدره - قاله أبو أمامة وكعب الأحبار - فإذا جاء المقدور حلوا عنه ؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقادة وابن جريج ؛ وروى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ - « معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه [ من أمر الله <sup>(١)</sup> ] يحفظونه » فهذا قد بين المعنى . وقال تاج الدين المدوني ؛ دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من ملائكة ؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرها وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب قال لا لعلة يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه



فبئس القسرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استجابه لما يقول الله تعالى  
 « مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى  
 « لَهُ مَقْبَلَاتٌ مِنْ يَمِينٍ وَيَدْيِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [ وملك قابض على ناصيتك  
 فإذا تواضعت لله رفعتك وإذا تجبرت على الله قصصك ] وملكان على شفتيك وليس يحفظان  
 عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكان  
 على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يسدلون ملائكة الليل على ملائكة النهار  
 لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإليس مع ابن آدم  
 بالنهار وولده بالليل . ذكره الثعلبي . قال الحسن : الملقبات أربعة أملاك يحتمون عند  
 صلاة الفجر . وأختار الطبري أن الملقبات المواكب بين أيدي الأئمة وخلفهم ؛ والماء  
 في « له » لمن ؛ على ما تقدم . وقال العلماء وضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره  
 على وجهين : أحدهما - قضى حوله ووقوعه بصاحبه ؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يشتره .  
 والآخر - قضى مجبئه ولم يقض حوله ووقوعه ؛ بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة  
 والحفظ .

قوله تعالى : ( إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ) لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما يقيمهم ( أخبر الله تعالى في هذه  
 الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو من هو منهم  
 بسبب ؛ كما غير الله بالمنزعين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة  
 الشريعة ؛ فليس معنى الآية أنه ليس يتزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ؛ بل قد تتزل  
 المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم - وقد سئل أنهلك وفينا الصالحون ؟  
 قال - : « نعم إذا كثرت السيئات » . والله أعلم .

قوله تعالى : ( وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ) أي هلاكًا وعذابًا ( فَلَا مَرَدَّ لَهُ ) . وقيل ؛  
 إذا أراد الله بهم بله من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى



أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأفئدتهم ، حتى يبحث  
أحدهم من حقيقته بكفنه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ( وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ) أى ملها ؛  
وهو معنى قول السدي . وقيل : من ناصر يمتنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

• ما في السماء سوى الرحمن من وال •

ووال وكفائر وقدير .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْثِيُ السَّحَابَ  
الْبَيْقَالَ** (١٢) **وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ  
الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ وَهُوَ شَدِيدُ  
الْمِحَالِ** (١٣)

قوله تعالى : ( **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْثِيُ السَّحَابَ** ) أى بالمطر .  
« والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وحب وتحاب في الجمع أيضا . ( **وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ  
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ** ) قد مضى في « البقرة » القول في الرعد والبرق  
والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛  
أى يريكم البرق في السماء خوفا لاسافر ، فإنه يخاف إذا هلك ما يناله من المطر والهول والصواعق ؛  
قال الله تعالى : « **أَذَى مِنْ مَطَرٍ** » وطعما للحاضر أن يكون عقبه مطر وخصب ؛ قال معناه  
قناة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطعما في غيبة المنزل للخط .  
( **وَيُنْثِيُ السَّحَابَ** ) قال مجاهد : أى بالماء . « **وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ** » من قال إن الرعد  
صوت السحاب فيجوز أن يسجع الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله :  
« **وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** » فلو كان الرعد ملكا لسنل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك  
قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة



خائفون من الله ليس يخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم من على بيته ومن على يماره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الزعد ملك يسوق السحاب، وإن يجرك الماء لقي قفرة إبهامه، وأنه موكل بالسحاب بصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبح الله؛ فإذا سبح الزعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فعندها يقل القطر، وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي سيحت له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي يسبح الزعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرسى من السماء والأرض، وعن بيته سبعون ألف ملك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على بيته وسبح سبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يماره وسبح سبح الجميع من خوف الله . (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ) ذكر المارودي عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرني ! من أين أتى نبي ربك، أين لؤلؤ أم من ياقوت ؟ بغامت صاعقة فأحرقت . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي صلى الله عليه وسلم قرا يدهونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبروني عن رب محمد ما هو، ومن هو، أين فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستظم القوم مقالته؛ فقال : أجيب محمدنا إلى وب لا يعرفه ! فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبينما التفت يراهم يدهونه إذ أرقعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم؛ فرعدت وأبرقت ودمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أحرقت صاحبكم، فقالوا : من أين علمت ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ » ذكره الحلي عن الحسن والشعبي جمعا عن أس ، وسلي . وقيل : نزلت الآية في أربد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن ربيعة ، وفي عامر بن الطفيل، قال ابن عباس : لعلى عامر بن الطفيل لما به يهودي



لعمري إن يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلوا  
 للمسجد ، فاستشرف الناس لجلال طاهر وكان أعور ، وكان من أجل الناس ؛ فقال رجل من  
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله طاهر بن لُقَيْل قد أقبل نحوك ؛ فقال :  
 "دعته فإن يريد الله به خيرا يهد" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا عجد مالي إن أسلمت ؟ قال :  
 " لك ما للمسلمين وطبك ما على المسلمين " . قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال :  
 " ليس ذاك إلي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء " . قال : أنتجسني على القبروات  
 على المآذر ؟ قال : " لا " . قال : فما تجعل لي ؟ قال : " أجعل لك أئنة الخيل تنزرو  
 عليها في سبيل الله " . قال : أو ليس لي أئنة الخيل اليوم ؟ قم معي أكلك ؛ فقام معه  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أوما إلى أزيد : إذا رأيتني أكله فذر من خلفه  
 وأضره بالسيف ؛ فجعل يناصم النبي صلى الله عليه وسلم ويواجهه ؛ فاختلط أزيد من سيفه  
 شبرا ثم حمله الله ، فلم يقدر على سَلِّه ، وبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة  
 في يوم حاتيف صاج فأحرقته ، وولى عامر هاربا وقال : يا عجد ! دعوت ربك على أريد حتى  
 قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جردا ، وتيانا مُردا ؛ فقال عليه السلام : " يملك الله من ذلك  
 وأبناء قيلة " . بنى الأوس والخزرج ؛ فزل عامر بيت امرأة سلُولية ؛ وأصبح وهو يقول :  
 والله لئن أحمركم لي محمد وصاحبه - يريد ملك الموت - لأخذتهما برمي ؛ فأرسل الله ملكا  
 قطعه بيمينه فأذراه في التراب ؛ وخرجت على ركبته غُذَّة عظيمة في الوقت ؛ فماد إلى بيت  
 السلُولية وهو يقول : غُذَّة كفدة البعير ، وموت في بيت سلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فبات  
 على ظهره . ورثي يزيد بن ربيعة أخاه أريد فقال :

يا عينُ هَلَّا بَكَتِ أُرَيْدُ إِذْ قُرُ . نَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ<sup>(١)</sup>  
 أَخْشَى عَلَى أُرَيْدِ الْحَتُوفِ وَلَا . أَرْهَبُ نَوَّهَ السَّيَّالِ وَالْأَسَدِ  
 بَحْتِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْمَا . رِيسَ يَوْمِ الْكَرِيمَةِ النَّجْدِ<sup>(٢)</sup>

(١) أذواء : قه ورى .

(٢) أسرار الجبل ؛ إذ أخرج إلى الصمد .

(٣) نهج : طريق الإبل .

(٤) سكة : فسلة معدة .







فأسقطهم ذلك، فرجع إليه فأعلمه فقال: «أرجع إليه فأعلمه» فرجع إليه وقد أصابته صاحقة،  
 وحاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يحادلون في الله» . (وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ)  
 قال ابن الأعرابي: «الحال» المكروه، والمكروه من الله عز وجل التدبير بالحق. النعاس: المكروه  
 من الله إصبال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد  
 وهو شديد الحال: «الحال» أي القصة. وقال الأزهري: «الحال» أي القوة والشدة. والحال: الشدة؛  
 المص أصلية، وما حلت فلاناً حالاً أي قاربه حتى يبين أينما أشد. وقال أبو عبيد: «الحال»  
 العقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: «الحال» الجدال؛ يقال: ما حل من أمره  
 حتى جادل. وقال القتيبي: «الحال» أي شديد الكيفية وأصله من الحيلة، جعل فيه كيم المكان؛  
 وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة  
 بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مهاد  
 وملاك وميراث، وغير ذلك من الحروف. ومقفل إذا كانت من نبات الثلاثة فإنه يمي.  
 بإظهار الواو مثل: مزود ومحول ومحور، وغيرها من الحروف؛ وقال: «وقرأ الأعرابي» -  
 «وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الخول؛ ذكر  
 هذا كله أبو عبيد الهروي، إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي؛ وأقارب الصحابة والتابعين  
 بمعناها، وهي ثمانية: أولاً - شديد العداوة؛ قاله ابن عباس - وثانياً - شديد الخول؛  
 قاله ابن عباس أيضاً. وثالثاً - شديد الأخذ؛ قاله علي بن أبي طالب - ورابعاً - شديد  
 الخلد؛ قاله ابن عباس. وخامساً - شديد القوة؛ قاله مجاهد؛ سادساً - شديد الفضحة؛  
 قاله وهب بن منبه. وسابعاً - شديد الهلاك؛ قاله الحارثي؛ وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً.  
 وثامناً - شديد الحيلة؛ قاله كافة. وقال أبو عبيد: «الحال» الحيلة؛ قاله الحسن أيضاً.  
 والله أعلم بالصواب

فرع نبع يتدفق من تحت الأرض . كثير القوي شديد الحال



وقال آخر: <sup>(١١)</sup>

وَلَيْسَ يَنْفُتْ أَنْوَامُ فَكْلٍ • أَعَدَّ لَهُ الشَّفَايَبَ وَالْخَالَا

وقال عبد المطلب ،

لَأُفْهَمَ إِنْ الْمَرْيَمَ • سَخَّ رَحْلَهُ فَأَمْنَعَ حِلَاكًا <sup>(١٢)</sup>

لَا يَفْلِتُ صَلِيْبُهُمْ وَمَا • لَكُمْ عَدُوًّا يَحَالِكُ

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أى لله دعوة الصديق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما ، لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ، قال المأوردي : وهو أشبه بسياق الآية ، لأنه قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام والأوثان . ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا لياسمهم من الإجابة لدعائهم ، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد ، قال :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها • من الودّ مثل القابض الماء باليد

(١) هو ذو الرمة ، ووليت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي ردة بن أبي موسى . والقبس : الاغلاط . والشفازيب : قال الأصمى : الشفزية ضرب من الحية في الصراع ، وهو أن يدخل الرجل بين رجل صاحبه فيصره ، والمخس : فكل رجل من القوم أحد له جنة كذا . (٢) اللحال (بالكسر) : القوم القبيحون المتجاهدون ، وهو جمع سكان الحرم .



وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها - أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظلمات الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا . لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء يبلغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثاني - أنه كالظلمات الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالفه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث - أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجد في كفه شيء منه . وزعم القراء أن المراد بالماء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للماء ، وأن المثل كن مديده إلى البئر بغير رشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدي • وبئر ذي حفرت وذو طويث

قال علي رضي الله عنه : هو كالملطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفه « إلى الماء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كاستجابة باسط كفه إلى الماء ؛ واللام في قوله : « ليبلغ فاه » متعلقة بالباسط ؛ وقوله : « وما هو ببالفه » كناية عن الماء ؛ أي وما الماء يبلغ فاه . ويجوز أن يكون « هو » كناية عن القم ؛ أي ما القم يبلغ الماء . ( وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال . لأنها شرك . وقيل : إلا في ضلال أي بضل عنهم ذلك الدماء ، فلا يجدون منه سبيلا . كما قال : « أَيْمَنَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا » . وقال ابن عباس : أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَمِنْ ظِلِّهِمْ بِالْعُدْوَىٰ وَالْآصَالِ ⑩

قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ) قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . ومن قتادة أيضا يسجد الكافر كرها حين لا يحميه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كرها مانعه من الخضوع وأثر الضم.



وقال ابن زيد : « طوعا » من دخل في الإسلام رغبة ، و « كرهه » من دخل فيه رهبة بالسيف وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فآلف السجود ، و « كرها » من يكره نفسه لله تعالى ، فالآية في المؤمنين ، وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من في الأرض . قال القشيري : وفي الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص ؛ فالمؤمن يسجد طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمُتَّقِينَ ؛ فالآية مجولة على هؤلاء ؛ ذكره الفراء . وقيل على هذا القول : الآية في المؤمنين ؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود ، ومنهم من يثقل عليه ؛ لأن الترام التكليف مشقة ، ولكنهم يحملون المشقة إخلاصا وإيمانا إلى أن يألفوا الحق ويمرّوا عليه . والمسلك الثاني — وهو الصحيح — إجماع الآية على التسميع ؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا ، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ به . والثاني — وهو الحق — أن المؤمن يسجد بيده طوعا ، وكل مخلوق من المؤمنين والكفار يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ؛ وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسييح دلالة لا تسييح عبادة . ( وَظَلَّ لَمْ بِالْفِدْوِ وَالْأَصَالِ ) أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالفدو والآصال ؛ لأنها تين في هذين الوقتين ، ويميل من ناحية إلى ناحية ؛ وذلك تصرف الله إياها على ما يشاء ؛ وهو كقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلٌّ لَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّيْءِ يُجِئُهُ اللَّهُ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره . وقال ابن الأنباري : يحصل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها ، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت . قال القشيري : في هذا نظر ؛ لأن الجبل عين ، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة لها ، والسجود بمعنى الميل ؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت . و « الآصال » جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ، وهو ما بين المصر إلى النروب ، ثم أصائل جمع الجمع ؛ قال أبو ذؤيب الهذلي :

تَسْمِي لَأَنْتِ لَيْتَ أُنْزِمُ لَهْلَه . وَأَتَصَدُّ فِي أَفْيَافِهِ بِالْأَصَالِ



و «ظَلَامٌ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرتفع بالأستاء والخبر محذوف، التقدير: وظلامٌ مُجَدَّدٌ بالقدو والآصال . «والقدو» يجوز أن يكون مبدراً، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوى كونه جمعا مقابلة الجمع الذي هو الآصال به .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَنَبِّئْهُ خَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَنْ هو . (قُلْ أَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) هذا يدل على أنه تراهم بأن الله هو الخالق [ولا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أفتخذكم من دونه أولياء» معنى؛ دليله قوله : «وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أى فإذا أعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلا فقال : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرِك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعْمى مثل لما عبده من دون الله، والبصير مثل الله تعالى : (أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) أى الشرك والإيمان . وقرأ ابن محيىن وأبو بكر والأعمش وحمة والكشاف «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بمحقق . الباقيون بالناء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ قَسَابَةُ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ) هنا من تمام الاحتجاج؛ أى خلق غير الله مثل



خلقته فشاء فخلقهم فلا يهرون حتى الله من خلقهم . ( قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ )  
 أى قل لهم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فترى لذلك أن يسجد كل شيء . والآية رذيل  
 للمشركين والفتوية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ( وَهُوَ الْوَاحِدُ ) قبل كل شيء .  
 ( الْقَهَّارُ ) الغالب لكل شيء ، الذى يطلب فى مراده كل مريد . قال القشيري أبو نصر ،  
 ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصابع ؛ أى سألهم عن خالق السموات  
 والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحق فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عجز الجناد  
 وعجز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تقرر هذا وبأن أن الصانع هو الله فكيف  
 يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شبهة لخلق ،  
 ولم يغير فعل هذا عن فعل ذلك ، فم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! .

قوله تعالى : أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَسَدُوا بِهِ أُولَئِكَ هُمُ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَا وَهُمْ بِهِمْ مِنْهُمُ إِلَّا أَلْهَادُ ١٨ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِلَّا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ١٩  
 قوله تعالى : ( أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا )  
 ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق  
 ينجيات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، على ما نبهته . قال مجاهد :



**لَكَ أَوْدِيَةٌ قَدْرًا** ، قال : بقدرتها . وقال ابن جرير : بقدر صغرها وكبرها . وقرا  
**الْأَثْنَيْنِ الْقَبْلَ وَالْحَسَنَ** ، **قَدْرَهَا** ، يسكن اللال ، والمثنى واحد . وقيل : معناها بما قدر  
لها . والأودية جمع الوادي ، ومنى واديا لغروجه وسيلانه ، فالوادي مل هذا اسم لواء  
السائل . وقال أبو علي : « أودية » توسع ، أى سال ماؤها لخفف ، قال : ومنى « بقدرها »  
بقدر مياهها ، لأن الأودية ما سالت بقدر انفسها . « فَأَحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالما  
ماليا مرغضا فوق الماء ، وتم الكلام ، قاله مجاهد . ثم قال : ( **وَيَمْكُؤُ قُدُونٌ طَيِّبٌ فِي الْأَنْبَارِ** )  
وهو المثل الثاني : ( **أَنْضَاءَ حَلِيقَةٍ** ) أى حلبة الذهب والفضة . ( **أَوْ مَتَاعَ زَبَدٍ مِثْلَهُ** ) قال  
مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مِثْلَهُ » أى يعلو هذه الأشياء زبد  
كما يعلو السيل ، وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا ،  
كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبت في الأرض من المعادن  
فقد خالطه التراب ، فأما يوقد عليه ليزوب فيزياله تراب الأرض . وقوله : ( **كَذَلِكَ يَضْرِبُ**  
**اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْبُجُ جُفَاءً** ) قال مجاهد : جمودا . وقال أبو حنيفة قال أبو عمرو  
ابن العلاء : **أَجْفَاءُ الْقَيْدَرِ** إذا غلت حتى ينصب زبدعا ، وإذا جمد في أسفلها . **وَالْجُفَاءُ**  
**مَا أَجْفَاءَ الْوَادِي** أى رمى به . وحكى أبو حنيفة أنه سمع زُؤبة يقرأ « جُفَالًا » قال أبو حنيفة :  
**يُحَالُ أَجْفَلَتِ الْقَيْدَرُ** إذا فذفت بزبدعا ، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعت . ( **وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ**  
**النَّاسَ فَيَمْكُؤُ فِي الْأَرْضِ** ) قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء  
وما خلس من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ، وهو أن المثلين ضربهما الله  
للحق في شانه ، والباطل في اضمحلاله ، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل  
كاضمحلال الزبد والحبث . وقيل : المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ،  
فشبه القرآن بالمطر لمعوم خيره وبقاء نفعه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن  
مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقتها . قال ابن عباس : « **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** »  
قال قرآنا ، « **فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب



«سوق المروم» : إن مح هذا التفسير للمنى به أن الله سبحانه على شركائه المصروفين القلوب بالأودية ، ومثل المحكم بالصافي ، ومثل المشابه بالزبد . وقيل : الزبد عذيق النفس وغزال الشك ترشح من حيث ما فيها فضطرب من سلطان تلعبها ، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجد في الوادى باقيا ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السيئة ، والأخلاق الزكية ، التى بها جمال الرجال ، وقوام صالح الأعمال ، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء ، وبهما قيمة الأشياء . وقرأ حميد وابن نجيم ، ويحيى والأعمش وحزرة والكشاف وحفص « يوقدون » بالياء ، واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر ، ولا غطابة هاهنا . الباقون بالياء لقوله فى أول الكلام : « أفأخذتم من دونه أولياء » الآية . وقوله : « فى النار » متعلق بمحذوف ، وهو فى موضع الحال ، وذو الحال المساء التى فى « عليه » التقدير : ومما توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا . وفى قوله : « فى النار » ضمير مرفوع يعود إلى المساء التى هى أسمى ذى الحال . ولا يستقيم أن يتعلق « فى النار » بـ « يوقدون » من حيث لا يستقيم أو قدت عليه فى النار ، لأن الموقد عليه يكون فى النار ، فيصير قوله « فى النار » غير مفيد . وقوله : « أجنّاء حليّة » مفعول له . « زبد مثله » ابتداء وخبر ، أى زبد مثل زبد السيل . وقيل : إن خبر « زبد » قوله : « فى النار » . الكشاف : « زبد » ابتداء ، و « مثله » نعت له ، والخبر فى الجملة التى قبله ، وهو « مما يوقدون » . ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ) أى كما بين لكم هذه الأمثال تمثلك بضرها بينات . تم الكلام ، ثم قال : ( الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ) أى أجابوا استجاب بمعنى أجاب ، قال :

• فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ جِيبٌ •

وقد تقدم ، أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوت . ( الحسنى ) لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا ، والنعيم المقيم عندا . ( وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ )

( ١٧ ) حر : أبو مشرجه الكرم بن عبد الصمد الطبرى ، زيل مكة المكرمة ، المتوفى بها سنة ٧٨٨ هـ ، وكناه :

«سوق المروم» فى علم القراءات - ( كشف القنون ) .

( ١٨ ) هو كعب بن سعد التميمى بنى لهذا أبان المنارة ، وصدر البيت : • وداع دعا بمن يجيب إلى الذى •



لَمْ يَهْدُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ . (لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أى من الأموال . (وَيَسْتَلْسِمَهُ) ملك لم (لَا تَكْتُمُوا بِهِ) من مطلب يوم القيامة، نظيره في آل عمران . (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) . (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَنْ يَبْقَىٰ مِنْ أَحْيِيمٍ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ذَرْبًا وَلَوْ أَقْنَدُوا بِهِ) حسب ما تقدم بيانه هناك . (أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْخِصَابُ) أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فرقد السجني قال إبراهيم النخعي : يا فرقد ! أندري ما سوء الحساب ؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسب الرجل بفتنه كله لا يفقد منه شيء . (وَمَا أَوَاهُمْ) أى يسكنهم ومقامهم . (جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْيَهَادُ) أى الفرائض الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعالى : (أَفَنَسِيءٌ يَلْمُ أَمَنَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) هذا مثل خربه الله للؤمن والكافر، وروى أنها زلت في حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله . والمراد بالتمنى عصى القلب، والجاهل بالدين عصى القلب . (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) .

قوله تعالى : الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ

بِهِ سِتْرَانِ :

الأولى - قوله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ) هذا من صفة ذوى الألباب ؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهد أسم الجنس ؛ أى يجمع عهود الله، وهى أواصره ونواحيه التى وصى بها عبده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع القروض ؛ وتجنب جميع المعاصى . وقوله : (وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ) يحتمل أن يريد به جنس الوائيق، أى إذا عقدوا طاعة الله عهدا لم يقضوه . قال قتادة : تقسم الله على عباده فى نقص الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ وما بعدها، ص ١٣١ وما بعدها طبعه أهل أرقانة .

(٢) السجني (بفتح السين) إلى السبعة موضع بالبرية .



الله جل جلاله حين اخرجهم من مكاب ابيهم لهم . وقال قتال : هو ما تكلم به من  
من الناس في عهد النبي .

الطبعة : روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : تكلم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بمجة أو ثمانية أو تسعة فقال : " ألا يتابعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " <sup>١</sup>  
وجاء حديث عهد بمجة قلنا : قد بايعناك [ حتى قالها ثلاثا ] فبسطنا أيدينا فيبايعنا . فقال  
قائل : يا رسول الله ! أنا قد بايعناك [ فلي ماذا يتابعك ؟ قال : " أن تعبدوا الله ولا تشركوا  
به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتطيعوا ويطيعوا ] - وأسركمة خفية - قال لا تسألوا  
الناس شيئا " قال : ولقد كان بعض أولئك التفرسقط مسوطة فسال أحدا أن يتأوله  
(له) . قال ابن العربي : من أعظم المواقف في الذكر ألا يسأل مواء ، فقد كان أبو حمزة  
الطبرستاني من كبار العباد سمع أن أمانا بامرئ رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا  
شيئا ، الخشب ، فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء ما عدوا نيك إذ رأوه ، وأنا ما عدت  
ألا أسأل أحدا شيئا ، قال : فخرج حاجبا من الشام يريد مكثينا هو عسى في الطريق من الليل  
قد بقي من الحجاب لعد ثم اتبعهم ، فبينما هو عسى إليهم . إذ سقط في بئر على حاشية الطريق ،  
فما حل في قعره قال : أستميت لعل أحدا يسمعي . ثم قال : إن الذي عاهدته براني  
ويصمني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر به ذاك البئر فمر ،  
فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا ، إنه ينبغي سد هذا البئر ، ثم قطعوا خشبا ونصبوها على  
ثم البئر وضطوها بالتراب ، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث  
بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : ليس قد عاهدت من  
برائك فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب  
يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدي فألقني في مرة واحدة  
إلى قعر البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ، فسمعت هاتفا يقول : كيف جأيت عمرة التوكل ، وأنشد

(له) الزيادة من كتب الخطب .



لَهَا فِي حَيَاتِي مَكَةَ أَنْ أَكْشِفَ الْمَوَى • فَأَخْبَتَنِي بِالْعِلْمِ مَكَةَ مِنَ الْكُشْفِ  
تَلَقَّفَتْ فِي أَمْرِي فَأَبْدَتْ شَامِدِي • إِلَى قَاتِي وَاللَّطْفِ بِدَمْرِكَ بِاللَّطْفِ  
تَرَامَتْ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَانَسَا • تُخْبِرُنِي بِالنِّيبِ أَنَّكَ فِي كَفِّ  
أَرَانِي وَبِي مِنْ هَيْتِي لَكَ وَحَقَّةُ • فَتَوَسَّنِي بِاللَّطِيفِ مِنْكَ وَالْمُطِيفِ  
وَتُحْيِي عِيْمَا أَنْتَ فِي الْمُبِّ حَقُّهُ • وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ الْحَيَاءُ مَعَ الْحَتِيفِ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاختدوا به إن شاء الله  
تهنئوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزرعه إعانة  
هل نفسه ، وذلك لا يحل ، ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ،  
كأن يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستجاره  
دبلا ، واستكاثمه ذلك الأمر ، واستتاره في الغار ، وقوله لسُرَّاقَة : " أَخْفِ عَنَّا " . فالتوكل  
المندوح لا يُبَالُ بفعل محظور ، وسكوت هذا الواقع في البر محظور عليه ، وبين ذلك أن الله  
تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطَّلها مَدْمَعًا  
للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، وذَا حِلْكَةُ التَّوَاضُعِ ؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ إِنَّمَا هُوَ اعْتِدَاءُ الْقَلْبِ عَلَى  
اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ مِنْ ضَرُورَتِهِ قَطْعُ الْأَسْبَابِ ؛ وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا جَاعَ فَلَمْ يَسْأَلْ حَتَّى مَاتَ دَخَلَ  
النَّارَ ؛ قَالَهُ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَضِرَّهُ ، لِأَنَّهُ قَدْ دُلَّ عَلَى طَرِيقِ السَّلَامَةِ ، فَإِذَا تَقَاعَدَ عَنْهَا أَعَانَ  
عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَلَا تَنَفَّاتَ إِلَى قَوْلِ أَبِي حَمْزَةَ : « جَاءَ أَسَدٌ فَأَخْرَجَنِي » فَإِنَّهُ  
إِنْ مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ يَقَعُ مِثْلُهُ أَتَقَافًا ، وَقَدْ يَكُونُ لَطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ الْجَاهِلِ ، وَلَا يَنْكَرُ أَنْ  
يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى لَطِيفٌ بِهِ ، إِنَّمَا يَنْكَرُ فَعْلَهُ الَّذِي هُوَ كَتَبَهُ ، وَهُوَ إِعَانَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ وَدِيعَةٌ  
لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُ ، وَقَدْ أَمَرَهُ بِحِفْظِهَا .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخِفُونَ صَوَةَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ**



وَالْحَسَنَةَ السَّيِّئَةَ أَوْ لَيْتَ لِمَنْ عَقَّبَى النَّارَ ﴿١٣﴾ جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا  
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ  
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى النَّارِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ظاهره في صلة الأرحام؛ وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. (وَيَتَخَشَّعُونَ رَبَّهُمْ) قيله في قطع الرحم. وقيل : في جميع المعاصي. (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) «سوء الحساب» الاستقصاء فيه المناقشة؛ ومن ثوبش الحساب عتَب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبيرة : معنى «يصلون ما أمر الله به» الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم. الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل راجعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح. «ويتخشعون ربه» فيما أمرهم بوصله، «ويخافون سوء الحساب» في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، والله توفيقنا.

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) قيل : «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماضٍ فلا ينقطع على «يوفون». وقيل : هو من وصف من تقدم، ويموز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرمون بالحسنة السيئة». قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله. وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوائث والنواب. وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله. (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة» وغيرها. (وَيَدْرَمُونَ



**الجنة السنية** : أى ينفون بالسل الصالح السنى من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زبد  
**يغفون النار بغير** . جبه بن جبر : يغفون التكر بالمعروف . الضحاك : يغفون الفحش  
**بالسلام** . جوير : يغفون الظلم بالغفر . ابن شجرة : يغفون الذنب بالثوبة . القتيبي :  
 يغفون منه الجاهل بالحلم؛ فالسنة السنية، والحلم الحسنه . وقيل : إذا هموا بسنة رجعوا  
 عنها واستغفروا . وقيل : يغفون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها  
 كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ » ومنه  
 قوله عليه السلام لحاذ : « وَأَتَيْتُكَ الْبَيْتَةَ الْحَسَنَةَ تَحْتَهَا وَخَالِي النَّاسِ بِحُلُقٍ حَسَنٍ » .

قوله تعالى : ( أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار  
 فدا داران : الجنة للطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة .  
 وقيل : عني الدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا .

قوله تعالى : ( جَنَّاتٌ مِّنْ دُونِهَا ) أى لهم جنات عدن؛ ف«جنات مدن» بدل من  
 «عقبي» . ويجوز أن تكون تفسيراً لمعنى «الدار» أى لهم دخول جنات مدن؛ لأن «عقبي  
 الدار» حدث، و«جنات عدن» من، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف  
 مضاف إلى المفعول . ويجوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف . و«جنات  
 مدن» وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القشيري أبو نصر عبد الرحيم .  
 وفى صحيح البخارى : « إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه  
 عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » . فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صح  
 فكذلك خبر . وقال عبد الله بن عمرو : إن فى الجنة قصراً يقال له عدن، حوله البروج  
 والمروج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حبة لا يدخله إلا نبي أو صدق  
 أو شهيد . و«مدن» مأخوذ من عدن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة  
 «الكهف» إن شاء الله . ( وَتَبَوَّءُوا مِنْ آدَمَ بَنِي آدَمَ وَأَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ) يجوز أن

(١) الحربة (بكر الحاء المهملة وضحا) : ضرب من الهرة ايجنة منز . (٢) آية ٤١ .



يكون مطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آباءهم وأزواجهم ولدياتهم لم  
 يعقى الدار . ويجوز أن يكون مطوفا على الضمير المرفوع في « يدخلونها » وحسن المطف  
 لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح  
 من آباءهم ، أى من كان صالحاً لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « من »  
 نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آباءهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم ليحققه الله بهم  
 كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان  
 طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية . قال القشيري : وفي هذا نظره ، لأنه  
 لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان ؛ فالأظهر أن  
 هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غداً تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع  
 قربائهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

فوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتخف والهدايا من عند  
 الله تكملة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم ؛ فاضمر القول ، أى قد سلمت من  
 الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله ،  
 فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ يَمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فهما «  
 مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعاق  
 بمحذوف ؛ أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل :  
 على الفقر في الدنيا ؛ قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روى عن  
 عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون من يدخل الجنة من  
 خلق الله » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتُنقَّى بهم  
 الكماره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لما قضاء فتأبىهم الملائكة فيدخلون عليهم  
 من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وقال مجاهد بن إبراهيم : كان النبي صلى  
 الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم



عني الصبر فكانت أبو بكر وحنان؛ وذكره السيوطي من أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أتى قرصة الشعب يقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنيهم حقى الدار » . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ، وقال الحسن البصري رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل ما بها - « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهما «<sup>(١)</sup> أنهما قالوا : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : أطلقوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والحن في الدنيا . قال على بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فنيهم أجر العاملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم » . ( فنتم عقي الدار ) أى نتم قاطبة الدار التي كنتم فيها ؛ علمتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا اسم ، و« الدار » هي الدنيا . وقال أبو عمران الجوني : « فنتم عقي الدار » الجنة عن النار . وعنه : « فنتم عقي الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** (١٥) **اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ** (١٦)

(١) قرصة الشعب : فريضة . والشعب : ما اخرج بين جبلين . والشهداء : كانوا يجبل أحد .

(٢) في الأصل : « أنه قال » .



قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ تَحْتِهَا ) لما ذكر للفرع

والمواصلين لأمره ، وذكر ملزم ذكر حكمهم . فحسب اليقين ، ترك أمره . وقيل : إسماعيل  
عقوله ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ( وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ )  
أى من الأرحام ، والإيمان بجميع الأنبياء . ( وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ) أى بالكفر وأرتكاب  
المعاصي . ( أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ ) أى الطرد والإبعاد من الرحمة . ( وَلَهُمْ سَوْءُ النَّارِ ) أى سوء  
المثقب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص : والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحثوثية .

قوله تعالى : ( اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ) لما ذكر عاقبة المؤمنين وعاقبة  
المشركين أنه تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار امتحان ؛ فيسطر الرزق  
على الكافر لا يبدل على كرامته ، والتفتير على بعض المؤمنين لا يبدل على إلهائهم . « ويقدر »  
أى يضيق ؛ ومنه « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر  
الكفاية . ( وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) يعنى مشرك مكة ؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا  
ما عند الله ؛ وهو معطوف على « ويفسدون فى الأرض » . وفى الآية تهديد وتأخير ؛  
التقدير : والذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون  
فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ) أى فى جنبها ( إِلَّا مَتَاعٌ )  
أى متاع من الأمتعة ؛ كالقصة<sup>(١)</sup> والسكرجة . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ؛ من متاع النهار  
إذا ارتفع ، فلا يذله من زوال . أبى عباس : زاد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا  
ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يترود منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولم  
سوء النار » ثم أبتدأ « الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يوسع ويضيق .

قوله تعالى : ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ )

قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا

وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٧٨﴾

(١) السكرجة : إمام صغير كل فيه الشئ القليل من الأدم ، وهى مارية .



قوله تعالى : ( وَمَنْ لَّهُنَّ كَرِهًا لَّآ قَوْلَ كَيْفَ لَيْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ) قوله تعالى :  
 ان أقترح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تنقل على الصديق ، والقائل  
 عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . ( قُلْ إِنْ لَّهِ )  
 صَرْ وَجَلْ ( يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ) أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلال بهما  
 يضلكم عند نزول غيرها . ( وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْتَابَ ) أي من رجع . والماء في « إليه »  
 للفق ، أو للإسلام ، أو لله عز وجل ، على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه  
 بقلبه . وقيل : هي النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا ) « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ، أي يهدي الله  
 للذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . ( وَتَطْمَئِنُّ )  
 قُلُوبُهُمْ يَذْكُرُ اللَّهُ ) أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ، قال : أي وهم تطمئن قلوبهم  
 على اللوام بذكر الله بالسهم ، قاله قتادة . وقال مجاهد وقاتدة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان  
 ابن عيينة : بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالخلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله  
 وإنعامه ، كما توجه بذكر عذله وأنتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أي يذكرون الله  
 ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ( أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ) أي قلوب  
 المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الخلف ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل :  
 « بذكر الله » أي بطاعة الله . وقيل : بشواب الله . وقيل : بوعده الله . وقال مجاهد : هم  
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ

مَعَاب (١٩)

قوله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ) ابتداء وخبر . وقيل : معناه  
 لهم طوبى ، ف « طوبى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل



لم كُوفِي ۝ وَصَلَتْ عَلَيْهِ ۝ وَحَسَنَ مَا بِهِ ۝ عَلَى الْوُجْهِينَ لِلذَّكُورِ ۝ قَرَعَ لَوْ مَحْصَب ۝  
 وَذَكَرَ الرِّزَاقَ ۝ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ تَعْمَرِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ الْبُكَّالِيِّ عَنْ حَبِيبَةَ  
 لَيْثٍ مَوْلَى السَّائِي ۝ قَالَ ۝ جَاءَ أَصْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ الْجَنَّةِ وَذَكَرَ الْخَوْضَ  
 فَقَالَ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ ۝ قَالَ ۝ نَمَّ شَجَرَةٌ تَدْعِي طُوبَى ۝ ۝ قَالَ ۝ يَا رَسُولَ اللَّهِ ۝ أَيْ شَجَرٌ أَرْضُنَا  
 تَشْبَهُ ۝ قَالَ ۝ لَا تَشْبَهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ إِلَّا نَبَتَ الشَّامُ هُنَاكَ شَجَرَةٌ تَدْعِي الْخَوْضَ تَجِبُهُ  
 عَلَى سَاقٍ وَيَقْتَرِشُ أَعْلَاهَا ۝ ۝ قَالَ ۝ يَا رَسُولَ اللَّهِ ۝ إِنْهَا عِظَمُ أَصْلُهَا ۝ قَالَ ۝ لَا أَرَأَيْتَ جَدَمَةً  
 مِنْ إِبْلِ أَهْلِكَ مَا أَحْطَطَتْ بِأَصْلِهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ رَفَقَتُهَا هَرَمًا ۝ ۝ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ۝ وَقَدْ كَتَبْنَا  
 وَكَأَلَهُ فِي أَبْوَابِ الْجَنَّةِ مِنْ كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ» ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ۝ وَذَكَرَ ابْنَ الْمُبَارَكِ قَالَ ۝ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ  
 عَنْ الْأَشْعَثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ۝ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يُقَالُ لَهَا  
 طُوبَى ۝ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا ۝ تَقَتَّقِي لِعَبْدِي عَمَّا شَاءَ ۝ فَتَقَتَّقِي لَهُ مِنْ فَرْسٍ بِسَرِّجِهِ وَبِلَاحِهِ  
 وَهَيْئَتِهِ كَمَا شَاءَ ۝ وَتَقَتَّقِي عَنْ الرَّاحِلَةِ بِرَحْلَيْهَا وَزِمَامِهَا وَهَيْئَتِهَا كَمَا شَاءَ ۝ وَعَنِ النَّجَابِ وَالْيَابِ ۝  
 وَذَكَرَ ابْنَ وَهْبٍ مِنْ حَدِيثِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ ۝ طُوبَى ۝ شَجَرَةٌ  
 فِي الْجَنَّةِ لَيْسَ مِنْهَا دَارٌ إِلَّا فِيهَا غَصْنٌ مِنْهَا ۝ وَلَا طَيْرٌ حَسَنٌ إِلَّا هُوَ فِيهَا ۝ وَلَا ثَمَرَةٌ إِلَّا هِيَ مِنْهَا ۝  
 وَقَدْ قِيلَ ۝ إِنَّ أَصْلَهَا فِي قِصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَنَّةِ ۝ ثُمَّ تَنْقَسِمُ فَرُوعُهَا عَلَى مَنَازِلِ  
 أَهْلِ الْجَنَّةِ ۝ كَمَا أَنْتَشِرَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الدُّنْيَا ۝ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ۝ طُوبَى  
 لَهُمْ ۝ فَرِحَ لَهُمْ وَقَرَّةٌ عَيْنٍ ۝ وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ «طُوبَى» أَسْمُ الْجَنَّةِ بِالْحَبَشِيَّةِ ۝ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ۝  
 الرِّبْعُ مِنْ أُنْسٍ ۝ هُوَ الْبُسْتَانُ بِلُفَةِ الْمُنْدَبِ ۝ قَالَ الْقُشَيْرِيُّ ۝ إِنْ صَحَّ هَذَا فَهُوَ وَفَاقٌ بَيْنَ اللَّتَيْنِ ۝  
 وَقَالَ قَسَّادَةٌ ۝ «طُوبَى لِمَنْ» حَسَنِي لِمَنْ ۝ عِزَّةٌ لِمَنْ ۝ نَمَى لِمَنْ ۝ إِبْرَاهِيمُ التَّخَنُّي ۝ خَيْرٌ لِمَنْ ۝  
 وَعَنْهُ أَيْضًا كِرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ ۝ الضَّحَاكُ ۝ غِظَّةٌ لِمَنْ ۝ النَّمَّاسُ ۝ وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ ۝  
 لِأَنَّ طُوبَى فَعْلٌ مِنَ الطَّيِّبِ ۝ أَيْ الْبَيْتِ الطَّيِّبِ لِمَنْ ۝ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَرْجِعُ إِلَى النَّبِيِّ الطَّيِّبِ ۝  
 وَقَالَ الزَّجَّاجُ ۝ طُوبَى فَعْلٌ مِنَ الطَّيِّبِ ۝ وَهِيَ الْحَالَةُ الْمُسْتَطَابَةُ لِمَنْ ۝ وَالْأَصْلُ طُيِّبٌ ۝ فَصَلَّتْ  
 إِلَيْهِ وَأَوَّاسُ لَسْكُونَهَا وَضَمَّ مَا قَبْلَهَا ۝ كَمَا قَالُوا ۝ مَوْسَمٌ وَمَوْقِنٌ ۝



قلت : والصحيح أنها شجرة ، تحدث للزروع التي ذكرته وهو صحيح على ما ذكره  
 للسجلى ، ذكره أبو عمر في التمهيد ، ومن قلناه ، وذكره أيضا التعليق في تفسيره ، وذكر أيضا  
 للمهدوي والقشيري عن معاوية بن قرّة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 « طوبى لشجرة في الجنة غرسها الله بيده وقنع فيها من روجه تُنبِت الحِلْيَ والحُلل وإن أغصانها  
 لَتُرَى من وراء سور الجنة » . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع التعليق . وقال آبن  
 عباس : « طوبى » شجرة في الجنة أصلها في دار على ، وفي دار كل مؤمن منها عُصْن . وقال  
 أبو جعفر محمد بن علي : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : « طوبى لهم وحسن مآب »  
 قال : « شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة » ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : « شجرة  
 أصلها في دار على وفروعها في الجنة » فقيل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : « أصلها  
 في داري وفروعها في الجنة » ثم سئلت عنها فقلت : « أصلها في دار على وفروعها في الجنة »  
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن داري ودار على غدا في الجنة واحدة في مكان واحد » .  
 وعنه صلى الله عليه وسلم : « هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دار من دوركم إلا مدلت فيها  
 عُصْن منها » . ( وَحَسَنُ مَّآبٍ ) آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : للذين آمنوا وتطمئن  
 قلوبهم يذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ  
 لَبِثُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي  
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ) أي أرسلناك كما أرسلنا  
 الأنبياء من قبلك ، قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه السلام  
 الإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . ( لَبِثُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) بني القرآن .  
 ( وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ) قال مقاتل وأبى جريح : زلت في صلح الحديبية حين أرادوا



أن يكتبوا كتاب الصلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : « أكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب الجامة ، بمنون مُسَلِّمة الكذاب ؛ أكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : « أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال مشركو قريش : لن كنت رسول الله ثم قاتلك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا قاتلهم ؛ فقال : « لا ولكن أكتب ما يريدون » فزلت . وقال ابن عباس : زلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أعبدوا الرحمن » قالوا : وما الرحمن ؟ فزلت ( قُلْ ) لهم يا محمد ؛ للذي أنكرتم ( هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ) ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اخضعت أسماء صفاته . ( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ) وأعتمدت ووثقت . ( وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ) أى مرجى فدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بقضائه ، وتسليلا لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الجحيم ويقول : « يا الله يا رحمن » فقال : كان محمد ينهأ عن عبادة الألهة وهو يدعو إلهم ؛ فزلت هذه الآية ، ونزل « قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِشَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ( وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ) هذا متصل بقوله : « ولا أتزل عليه آية من ربه » وذلك أن قرا من منبرك مكة فبهم أبو جهل وعبد الله بن أبي



المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتاهم ، فقال له عبد الله : إن سرتك أن تبك فسير لنا جبال مكة بالقرآن ، فأقبحها عنا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيقة ، وأجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ، حتى تفرس وتزرع ، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه . وسخر لنا الريح فركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا وحوادثنا ، ثم نرجع من يومنا ؛ فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت ؛ فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأحي لنا قصب جنك<sup>(١)</sup> ، أو من شئت أنت من موتانا نساله ، أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى : « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال » الآية ؛ قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك ؛ والجواب عن جوابه : لمكان هذا القرآن ، لكن حذف إيجازا ، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قاله أمرؤ القيس .

قُلُوا أَنَّهُ نَفْسٌ مَوْتٌ جَمِيعَةٌ • وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا

يعنى لمات على ؛ هنا معنى قول قتادة ؛ قال : لو قتل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفراء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لما آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا يُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . ( بَلِّغْهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا ) أى هو المالك لجميع الأمور ، الفاعل لما يشاء منها ، فليس ما تنسونه بما يكون بالقرآن ، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ( أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ) قال الفراء قال الكلبي : « يئس » بمعنى يعلم ، لغة النحس ؛ وحكاها القشيري عن ابن عباس ؛ أى أفلم يعلموا ؛ وقاله الجوهري في الصحاح .



وقيل : هولة هوازن ، أى أظلم يعلم ، عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو حنيفة :  
أظلم يعلموا ويبتعوا ، وأشد في ذلك أبو حنيفة لما لك بن حوف النصرى :  
أَقُولُ لَمْ يَلْمِ بِالشَّعْبِ إِذْ يَسْرُونِي . أَلَمْ تَيْسُوا أَنَّى أَنَّى فَأَيْسَ زَهْمُ  
يَسْرُونِي مِنَ الْمَيْسَرِ ، وقد هضم في « البقرة » وروى ياسر بن من الأسر . وقال رباح  
ابن حنيفة :

أَلَمْ يَتَّيَسَّ الْأَقْوَامُ أَنَّى [ أَنَا ] أَبْنُهُ . وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْقَيْسِيَةِ نَاتِيًا .  
في كتاب الرد « أنى أنا أبنة » وكذا ذكره القزويني : ألم يعلم ، والمعنى على هذا : أظلم يعلم الذين  
آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس  
للمعروف ، أى أظلم يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، فلهذه أن الله تعالى لو أراد  
هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين آمنوا بزول الآيات طمعا في إيمان الكفار . وقيل على  
وَأَبْنِ عَبَّاسٍ : « أَلَمْ يَتَّيَسَّ الَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القشيري : وقيل لابن عباس  
المكتوب « أظلم يئس » قال : أظن الكتاب كتبها وهو غصص ، أى زاد بعض الحروف  
حتى صار « يئس » . قال أبو بكر الأنباري : روى عكرمة عن ابن أبي نعيم أنه قرأ :  
يُفَيِّنُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وبها أحتج من زعم أنه الصواب في الثلاثة ، وهو باطل عن ابن عباس  
لأن مجاهدا وسعيد بن جبير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف بقراءة  
أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، ثم إن معناه : أظلم يئس ،  
فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا قطع عليها ، وتأتى بتأويلها .  
وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردناه

(١) ذكر في « لسان العرب » أن قاتل البيت هو حميد بن ذئيل البرمكي : قال : وذكر بعض العلماء أنه  
نزل به جابر بن حميد دليل قوله فيه : « أنى أن فارس زهمن » وزهمن : فرس حميد . وقوله : يسرونى عن الأسر  
الجزور : أى يجزرونى ويقتسمونى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه ضياء فسريرا عليه باليسر فحذفوا حرف الضياء  
عدائه . (٢) راجع ج ٣ ص ٥٢ طبة أول أدقانية . (٣) لم ترد في الأصول لغة « فناء »  
والواجب إلتفاتنا كما في كتاب « الدرد » إذ أن البيت من الطويل ، وهدايتنا لا يستقيم .



ولما سقوطه يطل القرن ، ولزوم أصحابه البهتان . ( أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ) . أَنْ : مخففة من التعلية ، أى أنه لو يشاء الله ( لَمَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ) وهو يرد على القدرة وغيرهم .  
قوله تعالى : ( وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ) أى داهية تنجزهم بكنفهم وعتوهم ، ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجسع قوارع ، والأصل فى القرع للضرب ، قال :

أَتَى بِلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَسَبٍ • فَسَرُّهُ الْقَوَائِيزُ أَفْوَاهُ الْإِبَارِقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أربد أو من قتل أو أسر أو جذب ، أو غير ذلك من المذاب والبلاء ، كما نزل بالمستزئرين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عكرمة من ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُبَيِّضُهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ( أَوْ تَحُلُّ ) أى القارعة ( قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ) قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ، أى لا تزال تصيبهم القوارع فتزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ( حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ) فى فتح مكة ، قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ، أى تصيبهم القوارع ، وتخرجهم إلى المدينة يا محمد ، فتحل قريبا من دارهم ، أو تحل بهم محاصرا لهم ، وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولِفِلاخ ضير ، ويا تى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وفهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخْلَلْتُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٦﴾ أَقْسَنُ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ مَن مَّوَّهُمْ أَمْ يَكُونُونَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا

(١) هو الأثير الأسمى ، وأسمه المنيرة بن عبد الله . والبلاد : الدال تقدم المرويت . والنصب : النصب والبيان وما بعده . والقوائيز : جمع قارعة ، وهى أمان يشرب بها الخمر .



عَنِ السَّبِيلِ وَيَنْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ كَثِيرًا ۖ ثُمَّ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَّا إِلَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فِي الْعَذَابِ ﴾ (١) الاستهزاء في «البقرة» ومعنى الإملاء في «آل عمران» أي أخذهم ، وأخذهم عليهم ، فأخذت الكافرين مدة ليؤمن من كان في قلبه أنه يؤمن منهم ، فلما حق القضاة أخذتهم بالعقوبة . ﴿ كَيْفَ كَانَ مَقَابِلَ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم ، فكذلك لأصنع بمشركي قولك .

قوله تعالى : ( أَفَنُوحًا قَامَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ) ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود ، بل هو بمعنى التولى لأموال الخلق ؛ كما يقال : قام فلان بئفل كذا ، فإنه قام على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب ، ويحفظها ويرزقها ويحفظها ويحارها على عملها ؛ فالعنى : أنه حافظ لا ينفل ، والجواب عنزوف ؛ والعنى : أفن هو حافظ لا ينفل كمن ينفل . وقيل : أفن هو قائم أى عالم ، قاله الأعشى . قال الشاعر :

فلولا رجال من قريش أعرمة • سرقم ثياب البيت والله قائم

أى عالم؛ فافقه عالم يكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكرون ببنى آدم؛  
عن الضعفاء . ( وَجَعَلُوا ) حال ؛ أى قد جعلوا؛ أو عطف على « استنزلت على آدم »  
وجعلوا؛ أى تتوا ( لِلَّهِ شُرَكَاءُ ) يعنى أصناما جعلوها آلهة . ( قُلْ مَتَّوْمٌ ) أى قل لهم  
يا محمد : « متَّوْمٌ » أى يتوا أسماهم ، على جهة التهديد ؛ أى إنما يسمون : للآلئ والعزى  
ومتَّوْمٌ وهبل . ( أَمْ تَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ) « أم » استفهام توبيخ ؛ أى لتتبعونه ؛  
وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم فى المعنى ؛ لأن قوله : « متَّوْمٌ » معبلة  
أهم أسماء الخلقين « أم تتبعونه بما لا يعلم فى الأرض » ؟ . وقيل : للمعنى قل لهم أتتبعون الله  
بباطن لا بظاهره ، أم بظاهر من القول يعلمه ؟ فإن قالوا : باطن لا يعلمه أحوالهم وإلهالهم  
( ١ ) راجع ١ ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ و ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٢ و ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٧ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ و ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٣٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٠ و ٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٥٦ و ٣٥٧ و ٣٥٨ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٣ و ٣٨٤ و ٣٨٥ و ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٨ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤١٣ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٤١٦ و ٤١٧ و ٤١٨ و ٤١٩ و ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٧ و ٤٢٨ و ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢ و ٤٣٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥ و ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٤٤١ و ٤٤٢ و ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٤٦ و ٤٤٧ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و ٤٥١ و ٤٥٢ و ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٥٥ و ٤٥٦ و ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٣ و ٤٦٤ و ٤٦٥ و ٤٦٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ و ٤٦٩ و ٤٧٠ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٧٥ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٨ و ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٢ و ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٥ و ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٤٨٨ و ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٤٩١ و ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٤٩٦ و ٤٩٧ و ٤٩٨ و ٤٩٩ و ٥٠٠ و ٥٠١ و ٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩ و ٥١٠ و ٥١١ و ٥١٢ و ٥١٣ و ٥١٤ و ٥١٥ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢٤ و ٥٢٥ و ٥٢٦ و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٢٩ و ٥٣٠ و ٥٣١ و ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٣٤ و ٥٣٥ و ٥

أولاً أمانة -



يظهر بطلان قولهم : موصوم ، هنا موصوم اللات والفرى قولهم : الله لا يعلم نفسه  
شريكا . وقيل : . أم تهنونه . حلف على قوله . . ابن هو قائم . أي ابن هو قائم ،  
أم تهنون الله بما لا يعلم ، أي أتم تهنون الله شريكا ، والله لا يعلم نفسه شريكا ، أنتهنونه  
بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه ! وإنما خص الأرض بنى الشريك هنا وإن لم يكن  
له شريك في غير الأرض لأنهم آدعوا له شركاء في الأرض . ومعنى ( أم يظهر من القول ) :  
الذي أنزل الله على أنبيائه ، وقال قتادة : معناه يباطل من القول ، ومنه قول الشاعر :  
أَعْيَرْتَنَا الْبَاتِئَا وَمُسَوَّمَتَا . وَذَلِكَ حَافِرٌ يَا بْنَ رِبْعَةَ ظَاهِرُهُ

أي باطل . وقال الضحاك : يكتب من القول . ويحتمل خاسئا - أن يكون الظاهر من القول  
حجة يظهر منها قولهم ، ويكون معنى الكلام : أنتهنونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محججين .  
( بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَمٌ ) أي دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرم ، قيل : استدراك  
على هذا الوجه ، أي ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرم . وقرا ابن عباس  
وعجاءه - . بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَمٌ . مسمى القاتل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زين  
للكافرين مكرم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويحوز أن يسمى الكفر مكرما ؛ لأن مكرم  
بالرسول كان كفرا . ( وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ ) أي صنم الله ، وهي قراءة حمزة والكسائي .  
الباقون بالفتح ، أي صدوا ضريم ، واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ »  
الله . وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حجة  
في « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في منزه أهل السنة ؛ ففيه إثبات  
القدر ، وهو اختبار أبي عبيد . وقرا يحيى بن وثاب وعلقمة - « وَصَدُّوا » بكسر الصاد ؛  
وكذلك « هَيْدُهُ بِضَاعَتَا رَيْتَ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على ما لم يسم فاعله ؛ وأصلها صُدُّوا  
وَرُدِّدَتْ ، فلما أدعت الدال الأولى في الثانية قلت حركتها على ما قبلها فأنكسر .  
( وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ ) بخلافه ( قَلَّ مِنْ هَادٍ ) أي موق ؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين  
ومن تابعهم لقوله : « ومن يضل الله » ، فكل ذلك قوله : « وَصَدُّوا » . ومعظم القراء



يقفون على التل من غير الياء ، وكذلك وال وواق ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا فاض والى والى  
وهادى ، فتحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين . وقرأى « فاه من هادى هادى والى »  
و « واق » بالياء ، وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى ووالى وواق بالياء ؛ لأن حذف الياء  
في حالة الوصل لالتقاءها مع التنوين ، وقرأتنا هذا في الوقف ؛ فرددت الياء فصار هادى ووالى  
وواق . وقال الخليل في نداء فاض : يا فاضى بانيات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النداء ، كما  
لا تنوين في نحو الداعى والمتالى .

قوله تعالى : ( لَمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى للشركين الصادقين بالقتل والسبي  
والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ( وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ) أى أشد من  
قولك : شق على كذا يشق . ( وَمَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ) أى مانع يمنعهم من عذابه  
ولا دافع . و « من » زائدة .

قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ  
النَّارُ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ( مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ) اختلف النسخة في رفع « مثل » فقال  
سبويه : أرفع بالابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مثل الجنة . وقال  
الخليل : أرفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى صفة الجنة التى وعد المتقون  
تجرى من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى يقوم زيد ؛ قولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ، والمثل  
بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » وقال :  
« وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو على وقال : لم يسمع مثل بمعنى الصفة ؛  
إنما معناه الشبه ؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضعه ومتصرفاته ، كقولهم : مررت برجل  
مثل ؛ كما نقول : مررت برجل شريك ؛ قال : وفسد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا



إِنَّ كَلَامَهُ صِفَةٌ كَانَ قَبْلَهُ كَلَامٌ ، صِفَةُ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا أَنْهَارٌ ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحِيمٍ ؛ لِأَنَّ  
الْأَنْهَارَ فِي الْجَنَّةِ قَسَمًا لَا صِفَتًا . وَقَالَ الزَّجَاجُ : مَثَلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا مَا ظَلَمْنَا عَابِدًا زَمَانًا  
وَالْمَعْنَى : مَثَلُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَأَنْكَرَهُ أَبُو حَالٍ فَقَالَ : لَا يَخْلُو الْمَثَلُ عَلَى  
قَوْلِهِ أَنْ يَكُونَ الصِّفَةُ أَوْ الشَّبَهَ ، وَفِي كَلَامِ الْوُجْهِينَ لَا يَصِحُّ مَا قَالَهُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الصِّفَةِ  
لَمْ يَصِحَّ ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : صِفَةُ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ ، بَخَلْتَ الْجَنَّةَ خَبْرًا لَمْ يَسْتَقِمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ  
لَا تَكُونُ الصِّفَةَ ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا شَبَهَ الْجَنَّةِ جَنَّةٌ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّبَهَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمِثَالَةِ الَّتِي بَيْنَ  
الْمِثَالَيْنِ ، وَهُوَ حَدَّثَ ، وَالْجَنَّةُ غَيْرُ حَدَّثٍ ؛ فَلَا يَكُونُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي . وَقَالَ الْفَرَاهِيدِيُّ : الْمَثَلُ  
مَقْعَمٌ لِلتَّائِيدِ ؛ وَالْمَعْنَى : الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ  
كَثِيرًا بِالْمَثَلِ ؛ كَقَوْلِهِ : « لَيْسَ كَيْثَلُهُ شَيْءٌ » ؛ أَيْ لَيْسَ هُوَ كَشَيْءٍ . وَقِيلَ التَّقْدِيرُ : صِفَةُ  
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ صِفَةُ جَنَّةٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . وَقِيلَ مَعْنَاهُ : شَبَهَ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ  
الْمُتَّقُونَ فِي الْحَسَنِ وَالنِّعْمَةِ وَالْخُلُودِ كَشَبَهَ النَّارَ فِي الْعَذَابِ وَالشَّدَةِ وَالْخُلُودِ ؛ قَالَهُ مُقَاتِلٌ .  
( أَلَكُلَّمَا دَانِمُ ) لَا يَنْقَطِعُ ؛ وَفِي الْخَبَرِ : « إِذَا أَخَذْتَ ثَمَرَةً عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى » وَقَدْ بَيَّنَّاهُ  
فِي « التَّذَكُّرَةِ » . ( وَظَلْمًا ) أَيْ وَظَلَمًا كَذَلِكَ ؛ غَضَبٌ ؛ أَيْ ثَمَرُهَا لَا يَنْقَطِعُ ، وَظَلْمًا لَا يَزُولُ ؛  
وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ يَزُولُ وَيَفْنَى . ( تِلْكَ عَقَبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَقَبَى  
الْكَافِرِينَ النَّارُ ) أَيْ عَاقِبَةُ أَسْرَ الْمُكْذِبِينَ وَأَخْرَجَتْهُمُ النَّارُ يَدْخُلُونَهَا .

قوله تعالى ه وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌ وَلَا مَكْنَانٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌ وَلَا مَكْنَانٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَرٌ وَلَا مَكْنَانٌ  
وَمِنْ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ  
وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ لَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ (١٦)

قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ ) أَيْ بَعْضُ مَنْ أَدَّى  
الْكَتَابَ يَفْرَحُ بِالْقُرْآنِ ، كَابْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَ الْحَبَشَةِ ؛ فَالْفَرْحُ طَامٌ ، وَالْمُرَادُ  
الْخُصُوصُ مِنْ قَوْلِ قَتَادَةَ هُمْ أَصْحَابُ مَدَنٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْرَحُونَ بِنُورِ الْقُرْآنِ ؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ



وابن زيد . ومن يجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكلب . وقيل : هم جماعة أهل الكلب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساعم قلة ذكر الرحمن في القرآن منع كثرة ذكره في التوراة ؛ فسالوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلْ أَذْعُوا اللَّهَ أَوْ أَذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا الرحمن اليسامة ، يعنون مُسَلِّمَةَ الْكُذَّابِ ؛ فزلت : « وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ ثُمَّ كَافِرُونَ » « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » ففرح مؤمنو أهل الكلب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكَلْبُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ( وَمِنَ الْأَحْزَابِ ) يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيه من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ( قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ ) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، واتبرأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزى ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ( إِلَيْهِ أَدْعُو ) أى إلى عبادته أَدْعُو الناس . ( وَإِلَيْهِ مَأْبٍ ) أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ  
بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنْ أَعْلَمَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ) أى وكما أنزلنا عليك القرآن فانكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى . فكتب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه



من الأحكام . وقيل : لئلا يلزم بالحكم العربي القرآن كله ، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .  
 ﴿ وَلَيْنِ أَتَّبَعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ لَمَبِدٍ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ، وَفِي التَّوْحِيدِ إِلَىٰ خَيْرِ  
 الْكُتُبِ . ﴾ ( بَقَدْ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ) أى ناصر ينصرك . ( وَلَا وَاقٍ )  
 يمنعك من عذابه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأئمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا  
 وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ  
 كِتَابٌ ﴿٢٨﴾

فيه مستطانات :

الأولى - قيل إن اليهود ما بوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعيرته بذلك  
 وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همه إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن  
 النساء ، فأزل الله هذه الآية ، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ  
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما  
 التخصيص في الوحي .

الثانية - هذه الآية تدل على الترفيف في النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل ،  
 وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المسلمين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛  
 قال صلى الله عليه وسلم : " تزوجوا فإنى مكاتبكم الأمم " الحديث . وقد تقدم في « آل عمران » .  
 وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتقى الله في النصف الثانى " . ومعنى ذلك  
 أن النكاح يعف عن الزنى ، والعفاف أحد الخصالتين اللتين ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شرَّ آثنتين ورجَّ الجنة ما بين لحيه وما بين رجله " خرجه  
 الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى يسوت أزواج النبي



صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أنا أنا فإني أصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلى وأزفد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " . أخرجه مسلم بمعناه ؛ وهذا بين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لأختصمتنا ، وقد تقدم في « آل عمران » الحصة على طلب الولد والزوج على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة . وأطؤها وما أشتهيها ؛ قيل له : وما يملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حتى أن يخرج الله مني من يكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم النبيين يوم القيامة ؛ وإني سمعته يقول : " عليكم بالابكار فإنهن أعذب أنواما وأحسن أخلاقا وأنتن أرحاما وإني مكاتر بكم الأيام يوم القيامة " يعنى بقوله : " أنتن أرحاما " أقبل للولد ؛ ويقال للراة الكثيرة الولد نائق ؛ لأنها ترى بالأولاد رميا . ونرج أبو داود بن معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال " لا " ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : " تزوجوا الودود الولود فإني مكاتربكم الأيام " . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : ( وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) عاد الكلام إلى ما أفتروا من الآيات — ما تقدم ذكره في هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حظر ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ( لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ) أى لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء والضحاك ؛ أى لكل أمر كسبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ؛ نظيره : لكل نيا مستقر ؛



يَنْ أَنْ الْمُرَادَ لَيْسَ عَلَى اقْتِرَاحِ الْأَمْرِ فِي زَوَالِ الْعَذَابِ، بَلْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لِكُلِّ مَدَّةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ، وَأَمْرٌ مُقَدَّرٌ لَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ . وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » عَنْ شَهْرِبْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أَرْتَقَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُورَ سَيْنَاءَ رَأَى الْجَبَّارُ فِي إصْبَعِهِ خَاتَمًا، فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا هَذَا ؟ وَهُوَ أَطْلَمُ بِهِ، قَالَ : شَيْءٌ مِنْ سُلَى الرِّجَالِ، قَالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَائِي مَكْتُوبٌ أَوْ كَلَامِي ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : فَارْتَقِبْ عَلَيْهِ « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

قوله تعالى : يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَيَعْنِدُهُ وَأَمْ الْكِتَابِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ( يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ) أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به « ويثبت » ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته ؛ يقال : محوت الكتاب محواً، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى ويثبته، كقوله : « والذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أى والذَّاكِرَاتِ اللَّهَ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم « وَيُثَبِّتُ » بالتخفيف، وشَدَّدَ الباقر، وهى قراءة ابن عباس، واختار أبو جاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ابن عمر : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ إِلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْمَوْتَ » . وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلَّا أَمْشِيَةً وَالْخُلُقَ وَالْأَجَلَ وَالزَّقَّ وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ؛ وعنه : هما كتابان سوى أَمِّ الْكِتَابِ، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، (وَعْنِدُهُ أَمُّ الْكِتَابِ) الذى لا يتغير منه شيء . قال القشيري : وقيل السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْخُلُقُ وَالزَّقَّ لا تتغير ؛ فالآية فيها عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القوم نوع تحكيم .

فت : مثل هذا لا يدرك بالراى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح قالوا به يجب ويوقف عنده، وإلَّا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم، ومثلنا



بروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبن مسعود وأبن وائل وكعب الأحبار وغيرهم ،  
 وهو قول الكلبى . وعن أبى عثمان النهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يظوف  
 باليت وهو يبيى ويقول : اللهم إن كنت كيتبى فى أهل السعادة فأنبتنى فيها ، وإن كنت  
 كيتبى فى أهل الشقاوة والذنب فأعنى وأنبئتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء  
 وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كيتبى فى السعداء فأنبتنى  
 فيهم ، وإن كنت كيتبى فى الأشقياء فأعنى من الأشقياء وأكيتبى فى السعداء ؛ فإنك تمحو  
 ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت  
 كيتبنا أشقياء فأح وأكيتبنا سعداء ، وإن كنت كيتبنا سعداء فأنبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء  
 وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال ذهب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنابك  
 بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يحو الله ما يشاء وثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك  
 ابن دينار فى المرأة التى دعا لها : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأينبها فلانها فلانك تمحو  
 ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تخدم فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت  
 النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَرَهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُسْأَلَ فِي أَثَرِهِ فَلْيَسْطَلْ رِجْلَهُ »<sup>(١)</sup>  
 ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ » فذكره بلفظه  
 سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما - معنوى ، وهو ما سبق بعده منثناء الجميل والذكر  
 الحسن ، والأخر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآثر - يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ؛  
 والذي فى علم الله ثابت لا يتبدل له ، كما قال : « يحو الله ما يشاء وثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل  
 لأبن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَحَبَّ  
 أَنْ يَمُدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِهِ وَأَجَلِهِ وَيُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَقْبَلِ اللَّهَ وَلْيَسْطَلْ رِجْلَهُ » كيف يزداد فى العمر  
 والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً  
 مُّصَدَّقاً » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل



الثاني - - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا أتني البعد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء ، وإذا عصي وقطع رحمه قصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء ، فيزيد في أجل البرزخ ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والتقصان ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية ؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ ، في اختبار جبر الأئمة ، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السنة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظلة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكلبي : يحو من الرزق ويزيد فيه ، ويحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت ونجرت ونحوه ، وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : يحو الله ما يشاء من الفرائض والتوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا يفسخه ، وحيلة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدثنا بكر بن سهل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس « يحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وعنده أم الكتاب » يقول : حيلة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جبير أيضا : يغفر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال مكرمة : يحو ما يشاء - يعني بالثوبة - جميع الذنوب ويثبت بليل الذنوب حسنت [ قال تعالى ] : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال



الحسن : « يحو الله ما يشاء » من جاء أجله « وشئت » من لم يأت أجله . وقال الحسين  
 يحو الآباء ، وشئت الأبناء . وعنه أيضا : يُمسحُ اللَّحَظَةُ من الذنوب ولا يُنسى . وقال  
 السدي : « يحو الله ما يشاء » يعني : القمر « وشئت » يعني : الشمس ؛ بيانه قوله :  
 « قَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حاله  
 النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجاء أمسه ، ومن أراد بقائه أثبتته ووزع  
 إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علي بن أبي طالب :  
 يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » وشئت ما يشاء  
 منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، وشئت قرنا ، وقيل :  
 هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمصيبة الله فيموت على ضلاله ، فهو الذي  
 يحو ، والذي يشئت : الرجل يعمل بمصيبة الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من  
 ديوان السيئات ، ويثبت في ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبي والمارودي عن ابن عباس .  
 وقيل : يحو الله ما يشاء — يعني الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال هيس بن عباد في اليوم  
 العاشر من رجب : هو اليوم الذي يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقد تهم من  
 يجاهد أن ذلك يكون في رمضان . وقال ابن عباس : إن فيه لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام  
 من دزة بيضاء ، لها دفتان من باقوتة حمراء ، فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون خطرة ؛ فيثبت  
 ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله  
 سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يتيقن من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد  
 فيه فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبدل القضاء الله ؛ وهذا لغو والإجماع  
 مما سبق به القضاء ، وقد تهم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنه  
 ما يكون مصروفا بسلبه وهو المبحو ، والله أعلم . التزيين : وحكى أن ما في اللوح يخرج  
 من القريب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحمل التبديل ، لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله تعالى  
 وما في قلبه من خفي لا يمكنه لا يتل . ومنه أم الكتاب : لم أعلم ما كتب من الآيات



وقبرها . وقيل : أم الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجري فيه التبديل . وقيل : إنما يجري في الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه حاملون ، فقال لعلمه : كن كتابا ، ولا تبديل في علم الله ، وعنه أنه الذكر ، دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهذا يرجع معناه إلى الأول ، وهو معنى قول كعب : قال كعب الأحبار : أم الكتاب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق .

قوله تعالى : وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ( وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ) « ما » زائدة ، والتقدير : وإن نُرِيَنَّكَ بعض الذي نعدهم ، أي من العذاب ؛ لقوله : « لَمْ نَذَّبْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا صَبَّوْا قَارِعَةً » أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ( أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ ) ليس عليك إلا البلاغ ؛ أي التبليغ ، ( وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ) أي الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : ( أَوْلَمْ يَرَوْا ) يعني أهل مكة . ( أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ) أي نقصدها . ( نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ) اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » صوت طسائها وصلحاتها . قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : الطرف والطرف الرجل الكريم ، ولكن هذا القول جيد ، لأن مقصود الآية : « إِنَّمَا أَرِيتُمْ الْقِصَصَ فِي أُمُورِهِمْ » ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ، لَأَنَّهُمْ يَحْمِلُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى أَحْبَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وقال مجاهد أيضا







قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝

قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ) أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسول وكادوا لم يكفروا بهم . ( فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ) أى هو مخلوق له مكر المالكين ، فلا يضره إلا بلائنه . وقيل : فله خير المكر ، أى يجازيهم به . ( يَعْلَمُ مَا تَكْتَسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ) من خير وشر ، فيجازى عليه . ( وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ ) كذا غرامة نافع وآين كبيرواى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عني أبو جهل . ( لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ) أى فاقية دار الدنيا نوايا وعقابا ، أولين الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ( وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ) قال قتادة : هم مشركو العرب ، أى لست بنبي ولا رسول ، وإنما أنت متقول ، أى لما لم ياتهم بما أقرحوا قالوا ذلك . ( قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ ) أى قل لم ياعد ، « كفى بالله » أى كفى الله ( شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ) بصدق وكذبكم . ( وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول انحصوم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم الباري والنباى وأصحابه ، قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أبى عبد الله بن سلام قال : لما أريد [ قتل ] عثمان جاءه عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرتك ، قال : أخرج إلى الناس فأطردم منى ، فإنك تخرج خبرى من داخل ؟ فخرج عده من سلام إلى الناس فقال : أيا الناس ، إنه كان أسى فى الجارية فلان ، فماتوا



رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، وزلت في آيات من كتاب الله، فزلت في « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » وزلت في « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » الحديث . وقد كتبناه بكاله في كتاب « الذكوة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وآمن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ذكره الثعلبي . وقال القشيري : وقال ابن جبير السورة مكية وآمن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؟ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام ، فمن عنده علم الكتاب جبريل ، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرءون « ومن عنده علم الكتاب » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « ومن عنده علم الكتاب » وإن كان في الرواية ضعف ؛ وروى ذلك مسليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد الجبائي أنه قرأ كذلك - « ومن عنده » بكسر الميم والميم والدال « علم الكتاب » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين ؛ إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وهو حديث باطل ؛ النبي صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أي بابها ، فمنهم الباب المنفتح ، ومنهم المتوسط ، على قدر منزلتهم في الصلوة . ولما من ذلك



أهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سلام فعول على حديث الترمذى ؛ وليس يمتنع أن يترى في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛ وبعضه من النظام أن قوله تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هـ بِنَى قَرِيشًا ؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يحتمل أيضا ؛ لأن البراهين إذا صححت وعرفها من قسرا الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

---



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة إبراهيم

مكة كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدينتين  
وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا »

إلى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : « ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ) » تقدم معناه . ( لِيُخْرِجَ النَّاسَ ) أى بالكاتب ،  
وهو القرآن ، أى بدعائلك إليه . ( مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) أى من ظلمات الكفر والضلالة  
والجهل إلى نور الإيمان والعلم ؛ وهذا على التمثيل ، لأن الكفر بمنزلة الظلمة ، والإسلام بمنزلة  
النور . وقيل : من البدعة إلى السنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ( بِإِذْنِ  
رَبِّهِمْ ) أى بتوفيقه وإيادهم ولطفه بهم ، والباء في « بإذن ربهم » متعلقة بـ « تخرج » وأضيف  
الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي . ( إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ )  
هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واد ، لأنهما شئ واحد ؛ وأما هو  
العزير الذى لا مثل له ولا شبه . وقيل : « العزير » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « العزير »  
المنيع في ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان ، والمجد في كل مكان على كل حال  
وروى يقيم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعبسى بن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما  
مُتَّعَ محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعبسى ، وكفر الذين آمنوا بعبسى ؛ فنزلت  
هذه الآية ، ذكره الماوردي .



قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ**  
**لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢١﴾** **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**  
**عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ**  
**بَعِيدٍ ﴿٢٢﴾**

قوله تعالى : **( اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )** أى ملكا وعبيدا  
وآختراعا وخلقا . وقرا نافع وأبن عامر وغيرهما « الله » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل :  
« الذى » صفة ، والخبر مضمرة أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادر على كل  
شئ . « الباقيون بالخلف » نعتا للعزير الحميد فقدم النعت على المفعول ، كقولك : « مررت  
بالظريف زيد » . وقيل : على البذل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلم  
فلا يوصف ؛ كما لا يوصف يزيد وعمره ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن  
معناه أنه للمفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخلف على التقديم والتأخير ، مجازه  
إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف  
على « الحميد » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال ابن الأنبارى : من خفض وقف  
على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : **( وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ )** قد تقدم معنى الويل فى « البقرة »  
وقال الزجاج : هى كلمة تقال للمذاب والمهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم .  
**( الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا )** أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين »  
فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمرة أى هم الذين .  
**وَالَّذِينَ يَصْعَدُونَ** مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، وأستحب



البقاء في نعمها على النعم في الآخرة، وصَدَّ عن سبيل الله - أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو دخل في هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف على امتي الأئمة المضلون" وهو حديث صحيح، وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان. وقيل: «يستحبون» أي ياتسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تنتمس إلا بطاعته دون معصيته. (وَيَبْقَوْنَ غَيًّا) أي يطلبون لما زينا وبلا لمواقفة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تذكر وتؤث. والموج بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائما؛ وفتح العين في كل ما كان قائما، كالخائط والأرج ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» وغيرها. (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) أي ذهب عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ) أي قبلك يا محمد (إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) أي بلغتهم؛ ليتبينوا لهم أمر دينهم؛ ووحيد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي آسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الترجمة المحجة؛ وقد قال الله تعالى: «وما أرسلك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا». وقال صلى الله عليه وسلم: «أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحر وأسود من خلقه». وقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». خروجه مسلم، وقد تقدم. (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) رد على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمطروف على



« ليين » لأن الإرسال إنما وقع للثنين لا الإضلال . ويموز النصب في « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ( وقو ) التزيُّر الحكيم ( تقدم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ) أى بمجئنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات . ( أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) نظيره قوله تعالى لنينا عليه السلام أول السورة : « لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَأَنْطَلِقَ أَلَمْلَأَ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا » أى أَمْشُوا .

قوله تعالى : ( وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ) أى قل لهم قولاً يذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقَتادة : بنم الله عليهم ؛ وقاله ابن كعب ورواه صرفوع ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن آتبه ، إلى سائر النعم ؛ وقد تسمى النعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم (٢) .

### • وَأَيَّامِ لَنَا غَرٌّ طَوَالٍ •

(١) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والصاع وبده والسنين ونقص من الثمرات .  
(٢) البيت من سقطه وقامه :

• صَبَا الْمَلِكُ فِيهَا أَنْ نَدِيْنَا •

وقد يكون تسميتها غرا لملهم على الملك وامتناعهم به ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعاتهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على ( يَا ) فى البيت قبله ، ويموز أن يحمل الرواد بدلا من رب .



ومن ابن عباس أيضا ومقاتل : يوقن الله في الأيام السابقة ؛ يقال فلان عالم بالأيام  
 الحبيب ، أى يوقنهما . قال ابن زيد : يعنى الأيام التى استقيم فيها من الأيام للأنبياء ؛ وكذلك  
 روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبري : وعظمهم بما سلف في الأيام  
 الماضية لهم ؛ أى بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا حينئذ مستذلين  
 واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس  
 عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بيننا موسى عليه  
 السلام في قومه يذكركم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونبرأؤه » وذكر حديث المنذر ؛ وذلك  
 هذا على جواز الوعد المرقن للقلوب ، المقصود لليقين ، الخالي من كل بدعة ، والمنتهى من  
 كل ضلالة وشبهة . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) أى في التذكير بأيام الله ( لآيَاتٍ ) أى دلالات .  
 ( لِكُلِّ صَبَّارٍ ) أى كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه . ( شَكُورٍ ) لنعم الله . وقال  
 قتادة : هو العبد ؛ إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر . وروى عن النبي صلى الله عليه  
 وسلم أنه قال : « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية —  
 « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . ونحوه من الشئ موقوفا . وتوارة الحسن  
 البصري عن المجتاج سبع سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمته فأيت سئته ، وعجبه  
 شكوا ، وقرا « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وإنما خص بالآيات كل صباه  
 شكورا لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَشَاءُ » وإن كان  
 منيرا للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ  
 أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ  
 نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ① وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ  
 شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ②



قوله تعالى : ( وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوْنَ آبَاءَكُمْ وَيُسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ )  
تقدم في «البقرة» مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ( وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ) قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى وأذكريا عهد إذ قال ربك كذا . و «تأذَّن» وأذَّن بمعنى أعلم ؛ مثل أوعد وتوعد ؛  
دوى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :  
فَلَمْ تَشْعُرْ بِضَوْءِ الصَّبَاحِ حَتَّى • سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَ

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ( لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ ) أى لئن شكرتم إثمى لأزيدنكم من فضل . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعنى . ابن عباس : لئن وحَّدْتُم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نص فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى «البقرة» ما للعلماء فى معنى الشكر . ومثل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : أَلَا تَتَقَوَّى بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجددة منك على . قال : يا داود الآن شكرتى .  
قلت : لحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا بصرفها فى غير طاعته ؛  
وأشبه الهادى وهو يأكل ؛

أَنَّا نَأْكُلُ رِزْقَهُ لَنَقُومَ فِيهِ • بطاعته وتشكر بعض حقه  
فَلَمْ تَشْكُرْ لِنُعْطِهِ وَلَكِن • نُقَوِّتُ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

فُضِّلَ بِاللِّقْمَةِ ، وخفته العبرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فأنهب للزبد . ( وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ) أى مجدتم حتى . وقيل : نعى ؛ وعد بالعذاب على الكفر ، كما وعد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشبهة .

(١) راجع ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها طية ثانية أرفألة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها طية ثانية .



قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ بِحَيْثُ  
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
وَعَادُ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا لَدَيْكُمْ بِهِ  
وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ( وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ بِحَيْثُ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ )  
أى لا يلحقه بذلك قصص ، بل هو الغنى ، والحجيد ، أى المحمود .

قوله تعالى : ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ ) النبا المشهر ، والنج  
الأنبياء ، قال :

• أَلَمْ يَأْتِكُمْ وَالْأَنْبِيَاءُ تَنبِيْهُ •

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل ، من قول الله ، أى وأدرك يا عبد الله كذا .  
وقيل : هو ابتدائه خطاب من الله تعالى . وشهر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصة الله  
في كتابه . وقوله : ( وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ) أى لا يحصى عددهم إلا الله .  
ولا يعرف نسبهم إلا الله ، والنسبون وإن نسبوا إلى آدم فلا يتبعون لحصه جميع  
الانم ، وإنما ينسبون البعض ، ويمسكون عن نسب البعض ، وقد روى عن النبي صلى الله  
عليه وسلم لما سمع النساين ينسبون إلى معد بن عدنان ثم زادوا فقال : " كذب النساين  
( أطلقه يقول ) لا يعلمهم إلا الله " . وقد روى عن جريرة بن الزبير أنه قال : ما وجدته  
لشعبه يترك ما بين عدنان وإسماعيل . وقال ابن عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون

(١) القائل هو قيس بن ربيعة ، وقام البيت : • ما لانت ليرين بن زياد • • • • •

وعجبا على القرني كثرى • بأدراع وأسياف حنّاء

• ربيعة بن زياد : الرعي بن زياد وإخوته ، أخذ قيس درما فاستاق قيس إلى الرعي لكه ما بها ليد الله بن جهم  
وهو مراد بالقرني — يدرج وسوف .



لَا لَا يَمُوتُونَ . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » : كَذَبَ الْقَسَاوُونَ .  
 (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى بالبراهين والدلالات . (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) أى جعل  
 أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها عضاً مما جاء به الرسل ، إذ كان فيه تسفيه  
 أحلامهم ، وشتم أصنامهم ؛ قاله ابن مسعود ، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد ، وقرأ « عَضُوا  
 عَلَيْكُمُ الْأَثَامِلَ مِنَ الْقَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم  
 إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم  
 إلى أفواههم : أَنْ أَسْكُتَ ، تَكْتُمِيهَا لَهُ ، ورداً لقوله ؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى ؛  
 والضميران للكفار ، والقول الأول أصحها إسناداً ؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي  
 عن سفيان عن أبي إسحق عن أبي الإخوص عبد الله في قوله تعالى « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ »  
 قال عَضُوا عَلَيْهَا غِيظاً ؛ وقال الشاعر :

مَلَأَتْ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَمُتْدِي . وَدَقَّةٌ عَظِيمٌ سَاقٍ وَيْدِي  
 وَيَمُدُّ أَمْلِي وَجَفَاءَ عُوْدِي . عَضْتُ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ

وقد مضى هذا المعنى في « آل عمران » مجزئاً ، والحمد لله . وقال مجاهد وقتادة : ردوا على الرسل  
 قلوبهم وكذبواهم بأفواههم ؛ فالضمير الأول للرسل ، والثاني للكفار . وقال الحسن وغيره :  
 جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم ؛ فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل .  
 وقيل معناه : أومأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها  
 على أفواه الرسل ليسكتهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : رد الرسل أيدي القوم في أفواههم .  
 وقيل : إن الأيدي هنا التهم ؛ أى ردوا نيم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب ؛ ويجوز  
 للرسل بالشرائع نيم ؛ والمعنى : كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « ق » بمعنى الباء ؛  
 يقال : جلست في البيت والبيت ، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال  
 أبو عبيد : هو ضرب مثل ، أى لم يؤمنوا ولم يحيوا ؛ والعرب تقول للرجل إذا أسك عن



لجلوالب وسكت قد ردت يده في فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القتيبي : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردت يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : حضوا على الأبدى حتما وغيظا ؛ لقول الشاعر ،

تَرُدُّونَ فِي فِيهِ غِشَّ الْمَسْوِ • دِ حَتَّى يَمُتَّ مِنْ الْأَكْفِ

يعنى أنهم يضيظون المسود حتى يموت من أصابه وكفيه . وقال آخر :

قَدْ أَتَى أَنَامِلَهُ أَرْمَةٌ • فَاحْضَى بِمَعْصَى عَلَى الْوُطَيْفِ

وقالوا : — يعنى الأثم للرسول — (( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ )) أى بالإرسال من زعمكم ، لا أنهم أنفروا أنهم أرسلوا . (( وَإِنَّا لَنَاقِلُكُمْ )) أى فى رب ومريم . (( بِمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ )) من التوحيد . (( مُرِيبٌ )) أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا لوجب ريبه وشكًا ؛ أى نظن أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْتِيَكُمْ لِكَ أَجَلٌ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ  
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا  
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (( قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ )) استفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله  
أى فى توبيخه ؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحمل وجهها ثالثا : أى قدرة الله شك ؟  
لأنهم متفقون عليها ومختلفون فى ما عداها ؛ يدل عليه قوله : (( فَأَطِِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ))  
خالقها ومخرعها ومنشئها وموجدتها بعد العدم ؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا لله .  
(( يَدْعُوكُمْ )) أى إلى طاعته بالرسول والكتب . (( لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ )) قال أبو حنيفة :  
« من » زائدة . وقال سيوطي : هى التبيين ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجمع .

(١) أَرَمَةٌ : ضياء والرغيف لكل ذى أرج ، ما فوق الرغيف البخل الساق .



وقيل : « من » اللبل وليس بزائلة ولا مَبْقُصَة ؛ أى تكون المغفرة بدلا من الذنوب .  
 ( وَيُرْسِلُكُمْ إِلَى آجِلٍ مُّسَمًّى ) يعنى الموت ، فلا يذبكم في الدنيا . ( قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ ) أى ما  
 أنتم . ( إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) في الهيئة والصورة ؛ تاكلون مما ناكل ، وتشربون مما نشرب ،  
 ولستم ملائكة . ( تُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا عِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ آيَاتًا ) من الأصنام والأوثان .  
 ( فَاتَّخِذُوا سُلْطَانًا مُّبِينًا ) أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا  
 ومهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَمُنُّ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ  
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ  
 عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا مَسْلَبًا وَلَنُضِرَّنَّ عَلَىٰ مَا عَازَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ  
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) أى في الصورة والهيئة كما قلتم .  
 ( وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَمُنُّ مِنْ عِبَادِهِ ) أى يفضل عليه بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والحكمة  
 والمعرفة والمداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : بهذا قول حسن ؛ وقد نرجح الطبري من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذر : يا عمر  
 بوصني ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال : « ما من يوم ولا ليلة  
 ولا ساعة إلا وقته فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن  
 يلوهمهم ذكره » . ( وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ) أى بحجة وآية ( إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) أى بمشيئته ،  
 وليس ذلك في قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما يطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ  
 الخبر ؛ ومثناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ( وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ )  
 اللهم صل على محمد وآل محمد



قوله تعالى : ( وَمَا لَنَا لَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ ) « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و « لنا » الخبر ، وما بعدها في موضع الحال ، التقدير : أى شئ لنا في ترك التوكل على الله . ( وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ) أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى من خطئته وقبحته . ( وَلَنُصَبِّرَنَّ ) لام قسم ، مجازة : والله لنصبرن ( عَلَى مَا آذَيْنَا ) به ، أى من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفيننا ويشيننا ( وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ) .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ) (١٧) ( وَلَنَسْكَنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ) (١٨) قوله تعالى : ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ) اللام لام قسم ، أى والله لنخرجنكم . ( أَوْ لَتَعُودُنَّ ) أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ، قاله الطبري وغيره . قال ابن العربي : وهو غير مفقور إلى هذا التقدير ، فإن « أو » على بابها من التخيير ، خير الكفار الرسل . إن أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم ، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده ، ألا ترى إلى قوله : ( وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ) وقد تقدم هذا المعنى في « الأعراف » وغيرها . ( فِي مِلَّتِنَا ) أى إلى ديننا ( فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنَسْكَنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ )

قوله تعالى : ( ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ) أى مقامه بين يدي يوم القيامة ، فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمقام مصدر كالقيام ، يقال : قام قياماً ومقاماً ، وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة . وبالضم فعل الإقامة ، و « ذلك لمن خاف مقامي » أى قياي عليه ، ومراقبتي له ، قال الله تعالى : « أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامي » أى عذابي ، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .



فه ممل ، وكَسْتَفْتَحُوا وَخَبَّ كُلُّ جَبَّارٍ عَيْنَهُ ﴿١٥﴾ مِنْ دَوَائِهِ  
جَهَنَّمَ وَنَسَقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يَسْفِغُهُ وَيَأْتِيهِ  
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَكَسْتَفْتَحُوا ) أى وأسفصروا ؛ أى أذن للرب فى الاستفتاح على قومهم ،  
والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى فى « البقرة » . ومنه الحديث : إن النبي  
صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتَحُ بِصَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ ، أى يستنصر . وقال ابن زيد : استفتحت  
الأنهم بالدعاء كما قالت قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ؛ وروى  
عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : « إِنَّهُمْ كَذِبُونِ فَاتَحِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَصًّا » وقالت الأنهم ؛  
لأن كان هؤلاء صادقين فضننا ، عن ابن عباس أيضا ؛ نظيره « أَقْنِاْ وَمَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ  
الصَّادِقِينَ » « أَقْنِاْ بِمَا تَعِدُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » . ( وَخَبَّ كُلُّ جَبَّارٍ عَيْنَهُ ) ( الجبار  
للتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس . والعنيد المعاند  
لحق والمجانِب له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَدَ عن فومه أى تباعد عنهم . وقيل ؛  
هو من العنَد ، وهو الناحية وعائد فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضًا ؛ قال الشاعر :

إِنَّا زَلْتُ فَأَجْعَلُونِي وَسَطًا • إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا

وقال المروى قوله تعالى : « جبار عنيد » أى جائر عن القصد ؛ وهو العنود والعنيد والمعاند ؛  
وفى حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقُ عَائِدٍ . قال أبو عبيد : هو  
الذى عند وبنى كالإنسان يماند ؛ فهذا العرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلة . وقال شمر : المعاند  
الذى لا يرقا . وقال عمر بن كزيم : أَعْمُ العنود ؛ قال اللبث : العنود من الإبل الذى  
لا يخالطها إنما هو فى ناحية أبدا ؛ أراد من هم بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفت به إليها .  
وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كيسان : هو الشاخ بأفقه . وقيل : العنود والعنيد الذى



يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل السنود  
الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصي . وقال قتادة : العنيد الذى أى أن يقول  
لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن  
الحق جبار وعنيد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدوى .  
وحكى الساموردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل  
يوما فى المصحف ففرج له قوله عز وجل : « وأسفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فزق  
المصحف وأنشأ يقول :

أُؤَمِّدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ • فَمَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدٌ

إِذَا مَا جِثَّتْ رِجْلُكَ يَوْمَ حَشِيرٍ • فَقُلْ يَا رَبِّ مَرْقِي الْوَلِيدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شر قتلة ، وصُلب رأسه على قصره ، ثم حل سور بلده .

قوله تعالى : ( مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ) أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعده هلاكه .

ووراء بمعنى بعده ؛ قال النابغة :

حَلَقْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً • وَلَيْسَ وَرَاءَهُ لِسَرِّهِ مَدْبَهُ

أى بعد الله جل جلاله ، وكذلك قوله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ،

وقوله تعالى : « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » أى بما سواه ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بما

بعده . وقيل : « من وراءه » أى من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بِالْفُهُ • لَا حَاضِرٌ مُعِجٌ عَنْهُ وَلَا بَادِي

وقال آخر :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمِيَّ وَطَاعِنِي • وَقَوْمِي تَسْمِيَّ وَالْفَلَاحُ وَرَائِيَا

وقال ليلى :

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَأَخْتُ<sup>(١)</sup> مَنِيَّ • أُرُومُ الصَّمَاغِيِّ طَلِيهَا الْأَصَابِعُ

(١) كذا فى ديوانه ، وفى الأصل : « إن بلغت منى » .



مرحله لعمري . وفي التنزيل : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ » أي أمامهم ؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو علي فُطِرْب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من وراءك ، أي سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : في قوله « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ » أي من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من تَوَارَى ؛ أي أستر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، بفهم تَوَارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَنُسِقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أي مثل الأسد ؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القرظي والريج بن أنس : هو غُبَالَة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيل : هو من ماء كرهته تصد عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدد . وذكر ابن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « وَنُسِقَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَجْعَرُهُ » قال : « يُقَرَّبُ إِلَى فِيهِ فَيَكْرَهُه فَإِذَا أَدْنَى مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ يَقُولُ اللَّهُ « وَسَقُوا مَاءً حَيًّا قَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ » وَيَقُولُ « وَإِنْ يَسْتَقْبِلُوا يَمَاتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَسْوِي الْوُجُوهُ يَلْسُ الشَّرَابُ » خريجه الترمذي ، وقال : حديث غريب ؛ وعبيد الله بن بسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أحاد عبد الله ابن بسر . ( يَجْعَرُهُ ) أي يَحْصَاهُ جرعا لا مرة واحدة لمراته وحرارته . ( وَلَا يَكَادُ يُبِينُهُ ) أي يطمئه ؛ يقال : جرع الماء وأجترعه وتجعره بمعنى . وساغ الشَّرَابُ في الحلق يسوغ سَوَا إذا كان سلسا سهلا ، وأسأغه الله إساغَةً . و « يَكَادُ » صلة ؛ أي يسيفه بعد إبطاء ، قال الله تعالى : « وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » أي فعلوا بعد إبطاء ؛ ولعلنا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » فهذا يدل على الإسافة . وقال ابن عباس : لا يميزه ولا يبرحه . (٢)

(١) آية ٢٠ من سورة الحج . (٢) كذا في الأصل ؛ ولله « لا يميزه ولا يبرحه » .



مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ) قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ،  
 ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه ، كقوله : « لَمْ يَنْفُتْهُمْ ظُلُّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ  
 ظُلُّ » . وقال ابراهيم التيمي : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ، لا لام  
 التي في كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه يأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى  
 من إبهام رجله . وقال الأخفش : يعنى البلى التي تصيب الكافر في النار سماها موتا ،  
 وهي من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكل به نوع من  
 العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة ؛ إما حية تنشه ،  
 أو عقرب تلسبه ، أو نار تسمعه ، أو فيد رجله ، أو قل في عنقه ، أو سلسلة بقرن بها ،  
 أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب :  
 إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب  
 منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَبِأَيِّهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال  
 الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق رُوحه في حنجرته فلا يخرج من فيه  
 فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتتفعه الحياة ؛ ونظيره قسوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا  
 وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله في جسده آلاما كل واحد منها كالم الموت . وقيل : « وما  
 هو بميت » لتناول شدائد الموت به ، وأمتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه .  
 قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ  
 فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْقَبُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من  
 استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ( وَمِنْ وَرَائِهِ ) أى من أمامه . ( مَذَابٌ  
 خَلِيطٌ ) أى شديد متواصل الآلام من غير قنور ، ومنه قوله : « وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً »  
 أى شدة وقوة . وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ خَلِيطٌ »  
 قال : حبس الأتاس .



قوله تعالى : **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** (١٨) **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** (١٩) **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** (٢٠)

قوله تعالى : ( **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ** ) اختلف التحويلون في رفع «مثل» فقال سيويه : أرفع بالابتداء والخبر مضمرة التقدير : وفيما يتلى عليكم أو يقص «مثل الذين كفروا برَبِّهم» ثم ابتداء فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أي كمثل رماد ( **اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ** ) . وقال الزجاج : أي مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد ، وهو عند الفزاء على الغناء للمثل ، التقدير : والذين كفروا برَبِّهم أعمالهم كرماد ، وعنه أيضا أنه على حذف مضاف ؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا برَبِّهم كرماد ؛ وذكر الأول عنه المهدوي ، والثاني الفشيري والنسفي . ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان اسم ؛ «قُتِلَ» بمعنى صفة . ويجوز في الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الذين» وأنصل هذا بقوله : «وَحَاطَبَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحَبَّطَةٌ غير مقبولة . والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء ، فنصرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يحرقها كما تحرق الرِّيحُ الشديدة الرماد في يوم عاصف . والعصف شدة الريح ، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفي وصف اليوم بالمُصَوَّف ثلاثة أقاويل ، أحدها - أن المصوَّف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الريح تكون فيه ، فجاز أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حارٍّ ويوم بارد ، والبرد والحز فيها . والثاني - أن يريد «في يوم عاصف» الريح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر ،

• إذا جاء يومٌ مظلمُ الشمسِ كاسف •

يريد كاسف الشمس الخف ، لأنه قد مر ذكره ؛ ذكرهما المروى . والثالث - أنه من نص الريح ، غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : **بِحَرْصٍ تَعْرِيبٍ** ، ذكره



التعلي - والساودي - . وقرا ابن اسحق وابراهيم بن ابي بكر « في يوم ماضيه » . ( لَا يَقْدِرُونَ )  
يعنى الكفار . ( يَمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ) يريد في الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البر  
في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ( ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ) أى الضلال الكبير ؛ وإنما  
جعله كبيرا بعيدا لقوات استندوا به بالموت .

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ) الرؤية هنا رؤية  
القلب ؛ لأن المعنى : ألم يته عليك اليه . وقرا حمزة والكسائي - « خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ » . ومعنى « بالحق » يستدل بهما على قدرته . ( إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ) أيما الناس ؛  
أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تمصوه فإنكم إن مصصوه يذهبكم  
( وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ) أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال .  
( وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ) أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا  
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا  
لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ هَدْيَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَانَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ  
نَجِيصٍ ٢٦ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ  
الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ  
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ  
وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي لِي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ  
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٧

(١) هذه الآية ياتى بها في الحديث . هو لا يما لكم فاما علم الحديث .

مع الحديث .



قوله تعالى : ﴿ وَبَرُّوا اللَّهَ جَمِيعًا ﴾ أى برّوا من قيوهم ، يعنى يوم القيامة . والبرُّوز  
الظهور . والبرّاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة برّزة أى تظهر للناس ؛ فعنى « برّوا »  
ظهروا من قيوهم . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، وأنصل هذا بقوله : « وَحَآبِ  
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما استفتحوا فاحلّكوا ، ثم بمنوا للحساب فبرّوا لله جميعا  
لا يستمر عنه سائر . « يَهْ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الضَّمْعَاءُ ﴾ يعنى الأتباع  
﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تبع مصدر ، التقدير :  
ذوى تبع . ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحرس ، وخادم وخدم ، وراصد  
ورصد ، وباقر وبقر . ﴿ قَهْلَ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾  
أى شيئا ، و « مِنْ » صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه  
النفق . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه .  
وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب  
لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعُنَا  
أَمْ صَبْرَنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى  
الأكس ؛ يقال : حاص فلان عن كذا أى فز وزاع يحيص حيصا وحيوصا وحيصانا ؛ والمعنى :  
ما لنا وجه نقاعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول أهل  
النار إذا اشتدّ بهم المذاب تمالوا نصبر فيصبرون تحمّانة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم  
قالوا هلّمّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون تحمّانة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا « سواء  
علينا أجزعا أم صبرنا ما لنا من محيص » . وقال محمد بن كعب القرظى : « ذُكر لنا أن  
أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والمذاب ما قد ترون ،  
فهلمّ فلنصبر ؛ فعمل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ؛  
فاجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : « سواء علينا أجزعا أم صبرنا  
مهما بن محيص » أى متبى ، فقام إليهم عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَمَنْدُوقُ الْحَقِّ



وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي  
وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ يَقول: لست بمفزع عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ  
بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبه في كتاب «الذكرة» بجله .

قوله تعالى : ( وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ) قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة  
خطيبا في جهنم على منبر من نار يسلمه الخلائق جميعا . ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حصل  
أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، على ما يأتي بيانه في «مرهم» عليها السلام .  
(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ) يعنى البعث والجنة والنار وتواب المطيع وعقاب العاصي  
فصدق وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا نواب ولا عقاب فأخلفتكم .  
وروى ابن المبارك من حديث عتبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث  
الشفاعة قال : «فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي فيأتون بإذنت الله لي أن أقوم فيقوم  
مجلس من أطيب ريح تنبها أحد حتى أتى ربي فيشفعني ويحصل لي نورا من شعر رأسه  
إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون  
ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا  
فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أتى ريح تنبها أحد ثم يعظم نحيبهم ويقول عند ذلك : «إِنَّ اللَّهَ  
وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ» الآية . «وعد الحق» هو إضافة النبي إلى نفسه كقولهم  
مسجد الجامع ، قال الفراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق أو وعدكم وعد الوعد الحق  
فصدقكم ، غنص المصدر لدلالة الحال . (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أى من حجة وبيات  
أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينه لكم في الدنيا (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)  
أى أغرستم فتأبتموني . وقيل : لم أفرهم على ما دعوتكم إليه . «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو  
استثناء منقطع ، أى لكن دعوتكم بالسوراس فاستجبت لي بختياركم «فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا  
أَنْفُسَكُمْ» . وقيل : «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أى على قلوبكم ووضوح إيمانكم لكن



دهونكم فاستجبت لي، وهذا على أنه خُطِبَ العاصي المؤمن والكافر بالحاد، وفيه نظر لقوله :  
 « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خُطِبَ الكفار دون العاصين الموحدين ؛ والله أعلم .  
 ( فَلَا تُلَومُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ ) إذا جتمعوني من غير حجة . ( مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ) أي  
 بمفيتكم . ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ) أي بمفيتي . والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة  
 والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُنِيت . قال سلامة بن جندل :

كنا إذا ما اتانا صارخٌ فصرخُ • كَانَ الصارخُ له قرعُ الظناب<sup>(١)</sup>

قال أمية بن أبي الصلت :

ولا تجزعوا إلى لكم غير مصرخ • وليس لكم عندي غناء ولا نصر

بها . صرخ فلان أي استنثت يصرخ صرخا وصرأا وصرخة . وأصطرخ بمعنى صرخ .  
 والتصرخ تكلف الصراخ . والمُصْرِخ المُنِيت، والمستصرخ المستنث ؛ قول منه : استصرخني  
 فأصرخته . والصرخ صوت المستصرخ . والصرخ أيضا الصارخ، وهو المُنِيت والمستنث ،  
 وهو من الأضداد؛ قاله الجوهري . وقراءة العامة « بمصْرِخِي » بفتح الباء . وقرأ الأعمش  
 وحزة « بمِصْرِخِي » بكسر الباء . والأصل فيها بمصرخين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت  
 ياء الجماعة في ياء الإضافة، فن نصب فلاجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها  
 تمين فيها الفتح مثل : هَوَايَ وَصَاصِي، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : فَلَامِي  
 وفَلَامِي، ومن كسر فالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الباء أخت الكسرة . وقال  
 الفراء : قراءة حزة وهم منه، وقُلْ من سلم منهم من خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة  
 ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال خُطْرُب : هذه لغة بني ربِيع يزيدون على ياء الإضافة  
 ياء . القشيري : والذي ينشئ عن هذا أن ما يثبت بالتواتر من النبي صلى الله عليه وسلم  
 لا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو رديء، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أنصح  
 منه، قلل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حزة أنصح . ( إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي

(١) الظناب (جمع) عصبه • وحرف الظناب من لحم • وحرف الظناب من لحم • وحرف الظناب من لحم •  
 (٢) الظناب من لحم • وحرف الظناب من لحم • وحرف الظناب من لحم • وحرف الظناب من لحم •



مِنْ قَبْلُ) اى كفرت بإشراككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ «حـا» بمعنى المصنوع .  
 وقال ابن جرير<sup>(١)</sup> : إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونى فى الدنيا من الشرك بالله تعالى . فتادة ،  
 إني عصيت الله . الثورى : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ( إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .  
 وفى هذه الآيات ردّ على القدرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم ؛ أنظر إلى قول  
 المتبوعين : « لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنْ أَنَا اللَّهُ وَمَعَكُمْ وَمَعَدَ الْحَقِّ » كيف  
 باعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دركات النار ؛ كما قال فى موضع آخر : « كُفَّا أَتَى  
 إِلَهُنَّهَا فُوجٌ سَأَلْتَهُمْ تَزَيَّيْنَهَا » إل قوله : « فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ » واعتراهم فى دركات نلقى بالحق  
 ليس بنافع ، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه فى الدنيا ؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا  
 بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا مَسِيئًا عَسَىٰ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و « عسى » من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ( وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ) أى فى جنات لأن دخلت  
 لا يتعدى ، كما لا يتعدى قبضه وهو خرجت ، ولا يقاس عليه ؛ قاله المهدوى . ولما أخبر  
 تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل  
 مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وَأَدْخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) أى  
 بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذن تعظيما وضعفيا .  
 ( يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ) تقدم فى « يونس » . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ  
 أَضَلُّهَا نَائِبَتْ وَقَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٨﴾ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا  
 وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾



فيه مستان :

الأولى - قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ) لما ذكر تعالى مثل أعمال الكفار وأنها كرماد تشتت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مثل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسر ذلك المثل فقال : ( كَلِمَةً طَيِّبَةً ) النخلة ، فحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جريج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية القوفي والزبيع بن أنس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعكرمة : الشجرة النخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبه بالنخلة في المنبت ، وشبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وثواب الله له بالنظر . وروى من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مثل الإيمان كمثل شجرة نابتة الإيمان حُرُوقُها والصلاة أصلُها والزكاة فروعُها والصيام أغصانُها والتأذى في الله نباتُها وحسن الخلق ورقُها والكف عن عارم الله ثمرُها " . ويجوز أن يكون المعنى : أصل النخلة ثابت في الأرض ، لئى حُرُوقُها تسترب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية . ونرجع الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه يقناع فيه رطب ، فقال : " مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تَرَى أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ وَإِذِنْ رِيحُهَا - قَالَ - هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار - قَالَ - هي الخنثى " . وروى عن أنس قوله [ وقال ] : وهو أصح . ونرجع للدارقطني عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ترى أكلها كل حين بإذن ربها . قال : " النخلة - هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار - قَالَ - هي الخنثى " . وروى عن أنس قوله [ وقال ] : وهو أصح . ونرجع للدارقطني عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا ما هي " فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السبيل : ولا يصح فيها ما روى عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند ؛ لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي - ثم قال - هي النخلة " نرجعه مالك في « الموطأ » عن رواية ابن القاسم وغيره إلا يحى فانه أسقطه عن روايته . ونرجعه لأهل الصحيح وزاد (١) النخلة ، قاله القاسم في « الموطأ » . (٢) الله قال الترمذي : « صحيحه على ما صح » .



فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلته؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهي النخلة لا تسقط لها أثملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبين معنى الحسب والمالهنة .

قلت : وذكر القرطبي عنه عليه السلام "مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبه نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينفع به" . وقال: "كُلُوا مِنْ عَمَلِكُمْ" يعني النخلة خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى . وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تسعت النصفون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يست وزهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الانفتاح لأنها لا يعمل حتى تُفَقَّع قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خيرُ المالِ سَكَّةُ مَابُورَةٌ ومُهَرَّةٌ مَامُورَةٌ" . والإبار اللِّفَاحُ وسيأتي في سورة الحجر<sup>(١)</sup> . بيانه . ولأنها من فضلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صور آدم من الطين فضلت قطعة طين فنصورها بيده وغرسها في جنة عدن . قال النبي صلى الله عليه وسلم، "أَكْرَمُوا عَمَلَكُمْ" قالوا: ومن عملي يا رسول الله؟ قال: "النخلة" . (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ) قال الربيع: "كُلَّ حِينٍ" عُذْوَةٌ وَعَشِيَّةٌ كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس: وعنه "تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ" قال: هو شجرة الهند لا تنعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبيه بعمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة . وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعي بيت النابغة: تَأَذَّرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُورِ سَمَاءٍ . تَطْلُقُهُ حِينًا وَحِينًا تَرَأَّجِعُ<sup>(٢)</sup>

(١) كذا في الأصل . (٢) السكة : الطريقة المصققة من النخل، والمهرة للسامرة الكبيرة الجدي وقتاج؛ أراد خير المال نتاج أو زوج . (٣) في تفسير قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحَةً آتِيَةً مِنْ طِينٍ» البيت في وصف حية؛ و «تَأَذَّرَهَا الرَّاقُونَ» أي أخذ بعضهم بعضا لا يفرحوا . (٤) معنى «تَطْلُقُهُ حِينًا وَحِينًا تَرَأَّجِعُ» أنها تخرج الأرباع من السلم تارة وتارة فتسقط عليه . معناه: «تخرج منه سمها لتأذي بها لا تراقى لا أنها صالحة وقولهم: «تسبح من حية» .



فهذا بين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتوسيعه حال مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يتال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والبشر والبلح والزهو والتمر والطلع . وفي رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة في الجنة تنمر في كل وقت . و«مثلاً» مفعول به مضرب، «وكلية» بدل منه، والكاف في قوله : «كشجرة» في موضع نصب مل الحال من «كلية» التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية - قوله تعالى : ( تَوَنَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ) لما كانت الأشجار تنوي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين، ولهذا قلنا بمن حلف ألا يكلم فلانا حيناً ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة . وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» قيل في «التفسير» : أربعمائة عامه وحكي عن عكرمة أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين ففلا منه خير، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله : فسألتني عنها فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك، قوله : «وإن أدري لعله فتنه لكم ومتاع إلى حين» فأرى أن تمسك ما بين صرام النخلة إلى حملها، فكانه أعجبه، وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه سنة أشهر ابتاعاً لعكرمة وغيره . وقد مضى ما للمعالي في الحين في «البقرة» صنفوا والحمد لله . ( وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ) أي الأشياء للناس . ( لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) ويستنبون، وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَثَلُ كُلِّ نَفْسٍ كَشَجَرَةٍ خَائِفَةٍ آجَنْتُ مِنْ قَوْنِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝

قوله تعالى : ( وَمَثَلُ كُلِّ نَفْسٍ كَشَجَرَةٍ خَائِفَةٍ ) الكلمة الخبيثة كلمة الكفر . وقيل : الكافر نفسه . والشجرة الخبيثة شجرة المستنقل كما في حديث أنس وهو قول ابن عباس ويحاجه

(١) تابع ١٠

(٢) صريحه : هو يطلع لها .

(٣) الزمر، البقرة

٣٦٩ ما يطلع لها لم ٣٦٩



وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنها شجرة لم تنحلق على الأرض . وقيل : هي شجرة التوم؛  
عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَّأَةُ أو الطحلبة . وقيل : الكَثُوث، وهي شجرة لا ورق  
لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر :

• وَهُمْ كَثُوثٌ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرْقَ <sup>(١)</sup> •

( أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ) أقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول قبيط <sup>(٢)</sup>:

هو الجلاء الذي يَمْتَثُ أَصْلَكُمْ • فن رأى مثل ذا يوماً ومن مِمِّمَا

وقال الموزج : أخذت جنتها وهي نفسها ، والجنته شخص الإنسان قاعدا أو قائما . وجنته  
قلعه ، وأجنته أقتلعه من فوق الأرض ؛ أى ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من  
الأرض . ( مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ) أى من أصل في الأرض . وقيل : من ثبات ؛ فكذلك الكافر  
لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ، وما يصمد له قول ضب ولا عمل صالح . وروى معاوية  
ابن صالح عن علي بن أبي طلحة في قوله تعالى « وضرب الله مثلا كلمة طيبة » قال : لا إله إلا الله  
« كشجرة طيبة » قال : المؤمن ؛ « أصاها ثابت » لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن ؛  
« ومثل كلمة خبيثة » قال : الشرك ، « كشجرة خبيثة » قال : المشرك ؛ « أجنت من فوق  
الأرض ما لها من قرار » أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المثل إلى الدماء  
إلى الإيمان والدماء إلى الشرك ؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدماء إلى الشيء .

فوله تعالى : يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ <sup>(٣)</sup>

فوله تعالى : ( يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ) قال ابن عباس : هو

لا إله إلا الله . وروى النسائي عن البراء قال قال : « ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

(١) تمامه :

• وَلَا نَسِيمَ وَلَا ظِلَّ وَلَا غَمْرَ •

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب . (٢) هو قبيط بن سمر الإداي . وميت من لصدقة ميت بها إلى لوت

مصرهم كسرى وجنته ؛ ظر يفتخر إلى لوت ؛ ففكرهم كسرى ومصرهم .



في الحياة الدنيا وفي الآخرة » نزلت في مذاب القبر؛ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّي الله  
وديني دين عهد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا  
وفي الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكنا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء <sup>(١)</sup> [ أنه ] قوله ، والصحيح  
فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم عن البراء عن النبي  
صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخاري ، حدثنا جعفر بن عمر ، قال حدثنا شعبة عن علقمة بن  
مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا  
أقعد المؤمن في قبره أتاه آت ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله » يثبت  
الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة « . وقد بينا هذا الباب في كتاب  
« التذكرة » و بينا هناك من يفتن في قبره ويسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال  
سهل بن عمار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال :  
أتاني في قبري ملكان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيك ؟ فأخذت  
بلحيتي البيضاء وقلت : المثلئ يقال هذا وقد ماتت الناس جواباً كما ثمانين سنة ؟ ! فذهبوا  
وقالا : أكتبْتَ عن حريز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبنض <sup>(٢)</sup> [ علياً ] فابفضه  
الله . وقيل : معنى « يثبت الله » يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن ربيعة :

يُثَبِّتُ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ • تَلَيَّتْ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرَا

وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت : وقال القفال وجاعة : « في الحياة  
الدنيا » أي في القبر ؛ لأن الموق في الدنيا إلى أن يبعثوا « وفي الآخرة » أي عند الحساب  
وحكاية الماوردي عن البراء قال : المراد بالحياة الدنيا المسألة في القبر ، والآخرة  
المسألة في القيامة : ( وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ) أي عن حجتهم في قبورهم كما ضلّوا في الدنيا

(١) أي قول البراء . (٢) في الأصل « مَن » ومع في كتاب « التذكرة » قوله . راقى

في « تهذيب التهذيب » أنه كان يبنض علياً .



بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري ؛ فيقول : لا تدريت<sup>(١)</sup> ولا تلت<sup>(٢)</sup> ؛ وعند ذلك يُضرب بالمقاييع على ما ثبت في الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب « التذكرة » . وقيل : يهلهم حتى يزدادوا ضلالا في الدنيا . ( وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ) من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مُسَاهِلَةَ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أليكون معي عقل ؟ قال : « نعم » قال : كُفيت إذا ؛ فأزل الله عن وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ

قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ) أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلي وغيرهما . وقيل : نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر . قال أبو الطفيل : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : هم قريش الذين يُحَرِّمُوا يوم بدر . وقيل : نزلت في الأبخريين من قريش بنى مخزوم وبني أمية ، فأما بني أمية ففتنوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فاحلکوا يوم بدر ، قاله علي بن أبي طالب وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما . وقول راجع : أنهم متنصرون العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه حين لطم فجعل له عمر الفصاص بمنزلها ، فلم يرض وأنف فارتد متنصرا وطلق إليهم في جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقتادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

(١) قيل في معنى « ولا تلت » ؛ أي لا قرأت ؛ من تلا يقرأ ، وقالوا جئت بالياء لمالك بها الياء .

(٢) المقاييع : سياط من حديد ورسها موحدة .



تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ مَارِ لَطْمَةٍ • وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرٌ  
تَكْفُفُنِي مِنْهَا بِلَحَاجٍ وَتَحْوَةٌ • وَبَعْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْأَمُورِ  
فَبَالِقَتِي أَرَعَى الْفَخَاصَ بِسَلْدَةٍ • وَلَمْ أَنْكَرِ الْقِسْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ

وقال الحسن : إنها عامة في جميع المشركين . ( وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ ) أى أنزلوهم . قال  
ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر أحلوا قومهم ، أى الذين أتبعوهم . ( دَارُ الْبَوَارِ )  
قبل : جهنم ، قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ، قاله علي بن أبي طالب ومجاهد . والبوار  
المهلك ، ومنه قول الشاعر :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَهُمْ أَطَالَ حَرْبٍ • غَدَاةُ الْحَرْبِ إِذْ خِيفَ الْبَوَارُ

( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ) بين أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف  
على « دار البوار » ، لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار » فلورفعها رافع بإضمار ،  
على معنى : هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى « يصلونها » الحسن الوقف على « دار البوار » .  
( وَيُنَسِّسُ الْقَرَارُ ) أى المستقر . قوله تعالى : ( وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ) أى أصناما عبدوها ،  
وقد تقدم فى « البقرة » . ( لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ) أى عن دينه . وقرا ابن كثير وأبو عمرو  
يفتح الياء ، وكذلك فى الج « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمها  
الباقون على معنى يضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعل معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله  
على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ( قُلْ تَمَتَّعُوا ) وعيد لهم ،  
وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو مقطوع . ( فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ )  
أى مردكم ومرجكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْتَلَى ﴿١١﴾



قوله تعالى : ( قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ) أى إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر ،  
فقل لمن آمن وحقى عبوديته أن ( يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ) يعنى الصلوات الخمس ، أى قل لهم اقيموا ،  
والأمر معه شرط مقدر ، قول : أطلع الله يدخلك الجنة ؛ أى إن أطلعت يدخلك الجنة ؛ هذا  
قول القراء . وقال الزجاج : « يقيموا » مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقموا فأسقطت اللام لأن  
الأمر دل على الغائب بـ « قل » . قال ويحتمل أن يقال : « يقيموا » جواب أمر مخذوف ؛  
أى قل لهم اقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ( وَبَنَّفِقُوا لِمَا رَزَقْنَاهُمْ مِرًا وَعَلَانِيَةً ) يعنى  
الزكاة ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السر ما خفى والملائية ما ظهر . وقال القاسم  
ابن يحيى : إن السر التطوع والملائية القرض ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » مجزؤا عند  
قوله : « إِنْ تَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِيَاهُ » . ( مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَلُ )  
تقدم فى « البقرة » أيضا . و « خلل » جمع خلة كقلة وقلال . قال :  
• فَلَسْتُ بِمَقْلٍ لِّلْخَلَالِ وَلَا قَالِي •

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَنْجَحَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَّكَ وَخَرَّ لَكَ الْفُلُكَ لِيَجْعَلَ  
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَخَرَّ لَكَ الْأَنْهَارُ ۝ (٢٢) وَخَرَّ لَكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
دَائِبِينَ وَخَرَّ لَكَ الْبَلَّ وَالنَّهَارُ ۝ (٢٣) وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ  
وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝ (٢٤)

قوله تعالى : ( اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ) أى أبدعها واختراعها على غير مثال  
سبق . ( وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ) أى من السحاب . ( فَأَنْجَحَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ ) أى من الشجر

(١) راجع ج ٣ ص ٢٢٢ وما بعدها طبعه امل اوتانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها  
طبعه امل اوتانية . (٣) قاله امرؤ القيس ، ومدرج البيت :  
• صرفت الحوى ضيق من خشية كبرى •



نَمَاتُ ( رِزْقًا لَكُمْ ) . ( وَنَحَرَّ لَكُمْ الْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ) تقدم معناه في « البقرة » .  
 ( وَنَحَرَّ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ) يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وترزقوا ، والبحار المسالحة  
 لاختلاف المنافع من الجهات . ( وَنَحَرَّ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ) أى فى إصلاح  
 ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّوْبُ مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل :  
 دائسين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يهربان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روى معناه عن  
 ابن عباس . ( وَنَحَرَّ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ) أى تسكنوا فى الليل ، وتنبهوا من فضله فى النهار ،  
 كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتنبهوا من فضله » .

قوله تعالى : ( وَأَنَّا كُمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ) أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛  
 فحذف ، عن الأخفش . وقيل : المعنى وَأَنَّا كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، ومن كل ما لم تسألوه ،  
 فحذف ، فلم نسأله شمس ولا قمر ولا كثيرا من نعمه التى أبدأنا بها . وهذا كما قال :  
 « سَرَّابِلُ قَبِيكُمُ الْحَرِّ » على ما يأتى . وقيل : « مِنْ » زائدة ؛ أى أَنَّا كُمْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .  
 وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما « وَأَنَّا كُمْ مِنْ كُلِّ » بالثنون « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت  
 هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس  
 والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ( وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ )  
 أى نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وقويم  
 الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر ؟ !  
 وحلا أستمتم بها على الطاعة ؟ ! ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلُومٌ كَفَّارٌ ) الإنسان لفظ جنس وأراد به  
 الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي  
 وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ قَدْ  
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾



قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا) بنى مكة وقد مضى في « البقرة »<sup>(١)</sup> . (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) أى اجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنى » بنى من صلته وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعوه . وقرأ المجدرى وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَّبْتُ ذلك الأمر؛ وأجنته وجنته إياه فتجانب وأجنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمَى يقول في قصصه : من يامن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » كما عبدها أبى وقوى .

قوله تعالى : (رَبِّ إِنِّهْنِ أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) لما كانت سببا للإضلال أضاف الفعل اليهن مجازا؛ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ جُمَادَات لَا تَفْعَلُ . (فَمَنْ تَعْبَىٰ) في التوجد . (فَلَنُؤْمِتَهُنَّ) أى من أهل ديني . (وَمَنْ عَصَايَ) أى أَصْرَعِي الشُّرَكَ . (فَلَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) قيل : قال هذا قبل أن يعترف الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَايَ » فيما دون الشرك .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارى عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل؛ اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع ٢٧ ص ١١٤ وما بعدها طبعه د. ت. (٢) المنطق : التلاق وهو أن تلبس المرأة

ثوبها ثم تشد وسطها بنى، وترفع وسط ثوبها وترسل على الأسفل عند ساعة الأشغال فلا تنظر في ذلها .



بها ماء فوضعهما هناك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قَى إِبْرَاهِيمُ  
 مصطَلقا فحبته أُم إِسْمَاعِيلَ، فقالت : يا إِبْرَاهِيمُ ! أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه  
 لَبَن ولا شئ، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : الله أمرك بهذا؟  
 قال : نعم . قالت إِذًا لَا يَضِيعُنَا، ثم رجعت، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ  
 لَا يَرُونَهُ، أَسْتَقْبَلَ بَوَجهِ الْبَيْتِ، ثم دعا بهذه الدُّعَوَاتِ، ورفع يديه فقال : « رَبِّ إِنِّى  
 أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » حتى بلغ « يَسْكُرُونَ » وجعلت أُم إِسْمَاعِيلَ تُرَضِعُ إِسْمَاعِيلَ  
 وتُشْرِبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا قَدِمَا فِي السَّاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ أَبْنَاهُ، وجعلت تنظر  
 إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ <sup>(١)</sup> - فَأَنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فوجدت الصَّفا أقرب  
 جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فقامت عليه، ثم أَسْتَقْبَلَتْ الْوَادِىَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فلم تر أحدا،  
 فوهبطت مِنَ الصَّفا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِىَ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثم سمعت سعى الإنسان  
 الْمَجْهُودِ، ثم جاوزت الْوَادِىَ، ثم أتت الْمَرْوَةَ فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر  
 أَحَدًا، ففعلت ذلك سبع مرّات، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذلك سعى  
 النَّاسِ بَيْنَهُمَا » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صِه ! تريد نفسها، ثم تَسَمَّعَتْ  
 فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ : قَدْ أَسَمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ <sup>(٢)</sup> ! فَإِذَا هِىَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ  
 فَبَجَّتْ بَقِيَّةً - أَوْ قَالَ يَجْنَحُهُ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فبَعَثَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا،  
 وجعلت تقرف من الماء في سِقَاتِهَا وَهُوَ يَفُورُ بِعَدَمِ تَقَرُّفٍ، قال ابن عباس قال النبي  
 صلى الله عليه وسلم : « يَرِجُّهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتُ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَنْسَرِفْ مِنَ  
 الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمَ عَيْنًا مَعِينَا » قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الْمَلِكُ :  
 لَا تَخَافِ الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَنْبِئُهُ هَذَا الْغَلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ، وذكر  
 الْحَلِيتَ بِطَوْلِهِ .

(١) يَلْبَطُ : يَمْشِى . (٢) غَوَاثُ (بِالْقَنْبَرِ) كَالْبَيَاضِ (بِالْكَسْرِ) مِنَ الْإِطَاعَةِ وَهِيَ الْإِمَامَةُ ؛

وَلَوْ رَوَى بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ . (٣) « وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا » : مَرَحَاةً صَنَعَهَا رَجُلٌ مِنْ إِطْلَاقِ الْقَوْلِ هَلْ

تَقُولُ . (تَطْلُقُ) .



مسئلة - لا يجوز لأحد أن يتعالى بهذا في طرح ولده وحياله بأرض مضجعة أتكالا على العزيز الرحيم ، وأقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقوله غلاة الصوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : آله أسرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر بسد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل بجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، وترك أخته وأمه هناك وركب منصرفا من يومه ، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى ، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية .

الثانية - لما أراد الله تأسيس الحال ، وتمهيد المقام ، وخطّ الموضوع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل الملك فبحث عن الماء ، وأقامه مقام الغذاء ، وفي الصحيح أن أبا ذر رضى الله عنه أجترأ به ثلاثين من يوم وليلة ، قال أبو ذر : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسميت حتى تكسرت هكئى ، وما أجدر على كبدى بشفقة جوع ، وذكر الحديث . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماء زمزم لما شرب له إن شربته تشفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربته لقطع ظمئك قطعه » وهى هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل . وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء . قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن سمحت نيته ، وسلمت طويته ، ولم يكن به مكذبا ، ولا يشربه مجربا ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح المجربين . وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذى وحديث أبي رحمه الله قال : دخلت الطواف في ليلة ظلماء فأخذنى من الجبل ما شغلنى ، فجلست أحضر حتى آذانى ، ونحنت إن خرجت من المسجد أن أظا بعض تلك الأقدام ، وذلك أيام الحج ، فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم ففضلت منه ، فذهبنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن في زمزم عينا في الجنة من قبل الزكن .

(١) شفقة الجوع ، وهو زمزله . (٢) هزمة جبريل : أى ضربا يرمطه نفع الماء .

(٣) تعلق : أكثر من الشرب حتى قد جبهه ما سلاه .



الثالثة - قوله تعالى : ( **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** ) « من » في قوله تعالى : « من ذرِّي »  
التبويض أى أسكنت بعض ذرئتي ؛ يعنى إسماعيل وأمه ، لأن إسماعيل كان بالشام . وقيل :  
هى صلة ؛ أى أسكنت ذرئتي .

الرابعة - قوله تعالى : ( **عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ) يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى  
قبل الطوفان ، وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة » . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه  
غيره ، ووصفه بأنه محرم ، أى يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع وأستحلال . وقيل :  
محرم على الجبارة ، وأن تُنهك حرمة ، ويستخف بحقه ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى القول  
في هذا في « المائدة » (١).

الخامسة - قوله تعالى : ( **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ** ) خصها من جملة الدين لفضلها  
فيه ، ومكانتها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « خمس صلوات كتبهن  
الله على العباد » الحديث . واللام في « ليقيموا الصلاة » لام كي ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون  
متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رغب إلى الله أن يوقفهم لإقامة  
الصلاة .

السادسة - تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن  
معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد  
اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة  
أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول صلى الله  
عليه وسلم بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم : « صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد  
الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدى هذا بمائة صلاة » قال الإمام  
الحافظ أبو عمر : وأسد هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله

(١) راجع ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبع ثانياً . (٢) راجع ٦ ص ٣٢٥ طبع أملاً مرة ثانية .



ابن الزبير وجوده ، ولم يخلط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبي خيثمة سمعت  
يحيى بن معين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر محمد بن أحمد قال سمعت أبي يقول :  
حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زرعة الرازي عن حبيب المعلم فقال : بصري ثقة ،  
قلت - وقد تخرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن الزبير  
عن النبي صلى الله عليه وسلم الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التيمي البستي في المسند الصحيح  
له ، فالحديث صحيح وهو الحق عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى  
عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير . روله موسى الجني عن نافع  
عن ابن عمر ، وموسى الجني ثقة ، أني عليه القطان واحد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة  
والتورقي ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم  
عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة  
في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام  
أفضل من مائة ألف فيما سواه " وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرقة قد روى عنه أبو زرعة  
الرازي ، وأخذ عنه ابن وضاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حفيظ فهما  
حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضاح ، حدثنا يوسف بن هدي عن  
عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
" صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن  
الصلاة فيه أفضل " قال أبو عمر : وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من أئمت  
رشدته ، ولم تَل به عصيته . وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا  
يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم  
على ما في هذا الباب . وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العبدین يترز لها في كل  
بلد إلا مكة فإنها تُصل في المسجد الحرام . وكان عمرو بن عثمان بن مسعود وأبو الدرداء وجابر  
يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ؛ وإلى هنا ذهب الشافعي ، وهو قول  
عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن



آدم طيه السلام لما أهبط إلى الأرض قال : يارب هذه أحب إليك أن تمَد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة .

السادسة - قوله تعالى : ( فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ) الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب . وقد يُسرَّ عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤادًا قادني بصَّبَابَةٍ • إليك على طول المدى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وفد ، والأصل أفئدة ، فقد تمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي ، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تهوى إليهم ؛ أي تتزعم ؛ يقال : هوى تحوه إذا مال ، وهوت الناقصة تهوى هويًا فهي هاوية إذا عنت عدوا شديدا كأنها في هواء بر ، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسامون ؛ بقوله : « تهوى إليهم » أي تحن إليهم ، ونحن إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد « تهوى إليهم » أي تهوهم ويحبهم . ( وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ) فاستجاب الله دعاءه ، وأثبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يحب إليهم من الأمصار . وفي صحيح البخاري عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : « بقاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل بطالع تركته فلم يحسد إسماعيل ، فقال أمرأته عنه فقالت : نخرج يبتني لنا ، ثم سأله عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرٌ نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابه ؛ قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ألحقني بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يحده ، ودخل على أمرأته فسألها عنه فقالت : نخرج يبتني لنا . قال :



كيف أنتم ؟ وسأها من عندهم وحيتهم قالت : نحن خير رسمة وأتمت على الله . قال : ما طعماكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شربكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لم فيه " قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » سأل أن يجعل الله الناس يهون السكنى بمكة ، فيصير بيتا محترما ، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جرهم . ففى البخارى - بعد قوله : وإن الله لا يضيع أهله - وكان البيت مرقعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم قافلين من طريق كذا ، فترزوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عاتقا فقالوا : <sup>(١)</sup> إن هذا الطائر ليؤد على ماء ! نعمدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا <sup>(٢)</sup> أو جريين فإذا هم بالماء ، فأخبرهم بالماء فاقبلوا . قال : وأتم إسماعيل عند الماء فقالوا أناذنين لنا أن نزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " [فألقى] ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأئس " فترزوا وأرسلوا إلى أهلهم فترزوا معهم حتى إذا كان بها أهل آيات منهم ، شب الغلام ، ومات أم إسماعيل ، بغاه إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

(٢) الجبرى : الرسول .

(١) العاتف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يعضى .

(٣) أنى أى وجد ذلك الحى الجرمى أم إسماعيل ، أو أنى استئذان جرهم بالترزول أم لإسماعيل والمحال أنها تحب

للأئس ؛ فقال أنى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستئذان .



قوله تعالى : ( رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَىٰ وَمَا نَعْلَنَ ) أى ليس يخفى عليك شئ من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما اعلمه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسيكا بواد غير ذى زرع . ( وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ) قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » قال الله : « وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء » . ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ) أى على كبر سنى وسن أسراى ، قال ابن عباس : ولده لإسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وأثنى عشرة سنة . وقال مسعود بن جبير : بشر إبراهيم بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ( إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ) . قوله تعالى : ( رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ) أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ( وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ) أى وأجعل من ذريتى من يقيمها . ( رَبَّنَا وَقَبَلُ دُعَاءٍ ) أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : « الدعاء سُبْحُ العبادَةِ » وقد تقدم في « البقرة » . ( رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) قيل : استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » بفتح أباه . وقيل : استغفر لهما طمعا في إيمانهما . وقيل : استغفر لهما بشرط أن يسلموا . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد روى أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لي ولوالدي وكان أبواه قد ماتا كافرين أنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأشهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحق . وكان إبراهيم التخفى بقرأ « وَلِوَالِدَيَّ » بفتح أبيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يعقوب ذكره المساوردي والنحاس . ( وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « للمؤمنين » كلهم وهو أظهر . ( يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ) أى يوم يقوم الناس للحساب .



قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ  
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ  
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْغَلَتْهُمْ أَعْيُنُهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ) وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بصدد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى أصبر كما صبر إبراهيم . وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إهمال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ، وتمزية للظالم . ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ) يعنى مشرك مكة يعلمهم ويؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسامى ورؤى عن أبي عمرو أيضا « تؤخرهم » بالنون للتنظيم . ( لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ) أى لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، قاله الفراء . يقال : شَخَصَ الرجل بصره وشَخَصَ البصر نفسه أى سَما وطَمَح من هول ما يرى . قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُونَ . ( مُهْطِعِينَ ) أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقنادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أھطع يھطع إعطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » أى مسرعين . قال الشاعر

بدجلة دارهم ولقد أراهم \* بدجلة مهطعين إلى السماع

وقيل : المهطع الذى ينظر في ذلّ وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرُقوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أى مدمي النظر . وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أھطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . ( مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ) أى رافعي رؤوسهم ينظرون في ذلّ . وإقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة (١) والقُتبي وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع في الصلاة

(١) الإقناع في الصلاة أن يرفع المصل رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .



وأفنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .  
وقيل : ناكسى رموسهم ؛ قال المهدوي : ويقال أفنع إذا رفع رأسه ، وأفنع إذا طأطأ رأسه فلفة  
وخضوعا ، والآية محملة الوجهين ، وقاله المبرد ، والقول الأول أمراف في اللغة ؛ قال الرازي :  
أَفْنَضَ<sup>(١)</sup> نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَفْنَمًا . كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَمًا  
وقال الثناخ يصف إبلا :

يُبَاكِزْنَ الْعِضَاءَ بِمَقْتَعَاتِ<sup>(٢)</sup> • فَوَاجِدُهُنَّ كَالْحَدِيدِ الْوَقِيعِ

بمى : رموس مرفوعات إليها لتناولهن . ومنه قيل : مقنعة لارتضاعها . ومنه قنع  
الرجل إذا رضى ؛ أى رفع رأسه عن السؤال . وقنع إذا سأل أى أتى ما يتقنع منه ؛ عن  
النحاس . ومنه قنع أى معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مقنع بالتشديد ؛ أى عليه بيضة ؛  
قاله الجوهري . ( لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي  
شاخصة النظر . يقال : طَرفَ الرجلُ يَطْرِفُ طرفًا إذا أطبق جفنه على الآخر ، فسمي النظر  
طرفًا لأنه به يكون . والطَّرف العين . قال عنترة :

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارِي • حَسْبِي يُوَارِي جَارِي مَاوَأَا

وقال جميل :

وَأَقْصِرْ طَرْفِي دُونَ جُمْلِ كَرَامَةٍ • لِحُمْلٍ وَلِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ

( وَأَقْصَرْتُهُمْ هَوَاءً ) أى لا تقنى شيئًا من شدة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير .  
السدي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومرة وابن زيد :  
خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذى ليس فيه شيء ،  
إنما هو هواء ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المحجوف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَيْلِسُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنَى • فَأَنْتَ مُجُوفٌ تَحِبُّ هَوَاءً<sup>(٣)</sup>

(١) أنفض رأسه : حركه . (٢) العضاء : كل شجر يظم وله شوك . والحداء (فتح الحاء) وقيل (بكرها)  
جمع حداء ، وهى القاس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالهؤوس فى الحداء .  
(٣) المحجوف والمجوف : الجبان الذى لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يندل : رجل خبيث .  
أى جبان ؛ كأنه منزع القواد .



وقال زهير يصف ناقة صخرة الرأس :

كَانَ الرَّحْلُ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ • مِنَ الظِّلَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءً

فارغ أى حال؛ وفى التزيل : « وَأَصْبَحَ قَوَادُّمُ مُوسَى قَارِعًا • أَى مِنْ كُلِّ نَبِيٍّ إِلَّا مِنْ مُمْ

موسى • وقيل : فى الكلام إضمار؛ أى ذات هواه وخلاه •

قوله تعالى : وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أُنِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ لَوْ

كَوْنُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ( وَأَنْذِرِ النَّاسَ ) قال ابن عباس : أراد أهل مكة • ( يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ )

وهو يوم القيامة ؛ أى خوفهم ذلك اليوم • وإنما خصهم بيوم العذاب وإن كان يوم

الغروب لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي • ( فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ) أى فى ذلك اليوم

( رَبَّنَا أُنِزْنَا ) أى أهملنا • ( إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ) سالوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق

فى الآخرة • ( نَجِبْ دَعْوَتَكَ ) أى إلى الإسلام ( وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ) • فيجابوا : ( أَوْ لَمْ تَكُونُوا

أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ) يعنى فى دار الدنيا • ( مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ) قال مجاهد : هو قسم قريش

أنهم لا يبعثون • ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وَأَقْسَمُوا أَنَّهُ جَهْدُ أَيْمَانِهِمْ

لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ » • « مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما - ما لكم من انتقال

عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد - الثانى - « ما لكم

من زوالٍ » أى من العذاب • وذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى قال : لأهل النار

ممس دعوات يهيمهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ، يقولون :

« رَبَّنَا آمَنَّا بِأَنْتَ الْغَنِيِّ وَأَحْيَيْنَا أَنْتَ الْيَقِينُ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله

« ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » •

(١) " فوق سعل " • شبه الناقة فى سرعتها بالظلم ، فكان رجلها قوة • والصعل ، الصخر الرأس ، وهذا

وصف الظلم •



ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُقُوا مِمَّا نَبِئْتُمْ لَقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيْنَاكُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرَّسُولَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ » يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : « أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْرِكُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُقُوا فَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » . ويقولون : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : « آخِشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها أبداً، خرجه ابن المبارك في « دقائقه » بأطول من هذا - وقد كتبه في كتاب « الذكوة » - وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ ظَلَمْتُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » . وقد مكرؤا مكرهم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « آخِشُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبع بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال : لحديثي الأزهري ابن أبي الأزهري أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ » .

قوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ ظَلَمْتُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وقد مكرؤا مكرهم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ ظَلَمْتُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنفال) أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بما كنتم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : « وَنَبَّيْنَكُمْ كَيْفَ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي ، وليناسب قوله : « كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَنَبَّيْنَكُمْ » وهي مثلها في المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .



قوله تعالى : ( وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ ) أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والملائكة عن ابن عباس وغيره . ( وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَوَلَّى مِنْهُ الْجِبَالُ ) . وفى معنى « ما » أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهته ؛ « وإن » بمعنى « ما » فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى - « فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ » . الثالث - « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ أَلا تَحْذَرُهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا » أى ما كنا . الرابع - « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ » الخامس - « وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فَيَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ » . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن على وابن مسعود وأبى « وإن كاد » بالبدال . والعامة على كسر اللام فى « لتزول » على أنها لام المحذوف وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ ابن جريح والكاسى « لتزول » بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ، أى ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطبرى : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنبارى : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدثناه أحمد بن الحسين : حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانييل قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبارا من الجبابرة قال لا أتبى حتى أعلم من فى السموات ، فعمد إلى فراخ نُسور ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى أشدت وعَصَلَتْ وأستعْلَجَتْ أمر بأن يُتَخَذَ تَابُوتٌ يسع فيه رجلين ، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لم شديد حره ، وأن يستوثق من أرجل النُسور بالأوتاد ، وتُسَدَّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثَارَ النُسور ، فلما رأت اللحم طلبته ، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛ فقال الجبار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب ، فقال : أغلق الباب ؛ ثم صعدت فى التابوت ما شاء الله أن تصعد ، فقال الجبار لصاحبه : أفتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُدْءًا ، فقال : نكس المصا فنكسها ، فانقضت النُسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هذه كادت الجبال تزول من



سماها ضياء قال : فسمعت مليا رضى الله عنه يقرأ : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ » بفتح اللام الأولى من « لَتَرْوُلَ » وضم الثانية . وقد ذكر التلويح هذا الخبر بمعناه ، وأن الجبار هو النمرود الذى حاج إبراهيم في ربه ، وقال مكرمة : كان معه في التايوت غلام أسرد ، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُفَيْتُ نَفْسُكَ إِلَهَ السَّمَاءِ . قال مكرمة : تَلَطَّخَ بدم سمكة من السماء ، فذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معاق . وقيل : طائر من الطير أصابه السهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنْكسَ اللحم ، فهبطت النسور والتايوت ، فسمعت الجبال خفيف التايوت والنسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأن الساعة قد قامت ، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال الفشيري : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال . وذكر الماوردي عن ابن عباس : أن النمرود بن كنان بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا ، ومرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعا ، وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذ حصنا ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصرح عليهم فهلكوا جميعا ، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ » وفي الجبال التي عني زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما - جبال الأرض . الثاني - الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوتهم ورسوخه كالجبال . وقال الفشيري : « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم لحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرًا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى ، فالجبال مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » في تقديرهم « لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » وتؤثر في إبطال الإسلام . وقرئ : « لَتَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرًا عظيمًا ترول منه الجبال ، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(١) تشب هذه القصة ابن حنبل في تفسيره . بعد أن حكاه عن الطبري بقوله : « وذلك عني لا يصح عن مل من أنى طالب وصي الله عنه ، وفي هذه القصة ضعف من طريق المنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسراك ومف ، ويعد أن يبرد أحد بنه في مثل هذا » . (٢) عبارة التلويح في « قصص الأنبياء » : ( كُفَيْتُ فَهَلْ إِلَى السَّمَاءِ ) .



طيه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا » . والجبال لا تزل ولا تزل ولكن العبارة عن عظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ( فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ) اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا بحسب ؛ و « رُسُلُهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الانساع، والمعنى : مخلف وعده رسله ؛ قال الشاعر :

تَرَى النُّورَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ • وَسَائِرُهُ بِأَيْدِى الشَّمْسِ أَجْمَعِ

قال القتيبي : هو من المقدم الذى يوضحه التأخير، والمؤخر الذى يوضحه التقديم، وسواء فى قولك : مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده . ( إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ) أى من أمدائه ومن أسمائه المنتقم وقد بيناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ • وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ( يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ ) أى أذكر يوم تبدل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

(١) يصف الشاعر هاجرة قد أبلغت الطيران إلى كنسا ، ترى النور مدخلا لرأسه فى ظل كناه لما يجده من الحرارة، وسائر دواز النسي .



الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبذل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومد أرضها؛ ورواه ابن مسعود رضى الله عنه؛ أخرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب، قال حدثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تُبذل الأرض غير الأرض فيسطها ويمدّها مد الأديم المُكافئ" لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ثم يزجر الله الخلق زجرا فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [من كان في بطنها قى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها] ذكره القرطبي . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها، فترة كالمثل ومرة كاللدهان ؛ حكاه ابن الأنباري ؛ وقد ذكرنا هنا الباب مينا في كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثوبان إمامي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاءه خبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبذل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ " في الظلمة دون الجسر " وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبذل الأرض غير الأرض والسموات » فإن يكون الناس يومئذ ؟ قال : " على الصراط " أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخبره الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تبذل وتزُل، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أديم عكاظي : منسوب إلى عكاظ ، وهو ما حمل الياضج بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة .  
(٢) عبارة الأصل هنا نافعة ومعرفة ، والزائدة والتصويب من تفسير الطبري  
وكتاب « التذكرة » . (٣) الجسر : الصراط .



وسلم: «يُحْتَرُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقَرَصَةِ النَّخْلِ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ» .  
وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل : « يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ ضِعْرَ الْأَرْضِ » قال : تَبْدِلُ خُبْرَةً يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » . وقال ابن مسعود : إنها تبدل بأرض غيرها ببيضاء كالقنصة لم يُعْمَلْ عليها خطيئة . وقال ابن عباس : بأرض من فضة ببيضاء . وقال عليّ رضي الله عنه : تبدل الأرض يومئذ من فضة والسما من ذهب وهذا تبديل العين ، وحسبك . ( وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ) أَي مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ :

قوله تعالى : ( وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ) وهم المشركون . ( يَوْمئِذٍ ) أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ( مُقَرَّنِينَ ) أي مشدودين ( فِي الْأَصْفَادِ ) وهي الأغلال والقيود ، واحدها صَفْدٌ وَصَفْدٌ . ويقال : صَفَدْتُهُ صَفْدًا أَي قَيْدَتُهُ وَالْأَسْمُ الصَّفْدُ ، فَإِنَّا أَرَدْتُ التَّكْثِيرَ قُلْتُ : صَفَدْتُهُ تَصْفِيدًا ، قَالَ عَمْرُو بْنُ كَثْمَرٍ :

فَأُبُوا بِالْثَّهَابِ وَالسَّابِيَا • وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصْفِدِيَا

أَي مُقْبِدِيَا . وَقَالَ حَنَّان :

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُنْصَدُّ صَفَادُهُ • صَفِيرٌ إِذَا لَاقَى الْكَرِيهَةَ حَامٍ

أَي غُلَّةٍ . وَأَصْفَدْتُهُ إِصْفَادًا أَعْطَيْتُهُ . وَقِيلَ : صَفَدْتُهُ وَأَصْفَدْتُهُ جَارِيَانٍ فِي الْقَيْدِ : وَإِلْإِعْطَاءٍ جَمِيعًا ، قَالَ النَّابِغَةُ :

• فَلَمْ أَعْرِضْ أَبَيْتَ اللَّعْنُ بِالصَّفْدِ •

فَالصَّفْدُ الْعَطَاءُ لِأَنَّهُ يُقْبَدُ وَيُعِيدُ ، قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ ،

وَقَبِضْتُ نَفْسِي فِي ذِرَاكِ حَبَّةٍ • وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَبْدًا تَقْبِدًا

(١) النخ : الخبيخ الحواري . والحواري : ما حرق أي يضر . والملم الأم

(٢) حتى أبيت اللعن : أي أبيت أن تأتي شيئا تلحق به ، ومصدر أبيت :

• عطا الله لأن تسمع لقائه •

(٣) القرا (القنص) : القنص (القنص) وكل ما استترت به ، تقول : أنا في ذرا فلان أي في كنفه وسننه .



لَوْلَا يَهْرُونَ كُلَّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانٍ فِي قَوْلٍ ، بَيَّانُهُ قَوْلُهُ : « أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ »  
 مِنْ قِرَائَتِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ . وَقِيلَ : لَهُمْ الْكَفَارُ يَجْمَعُونَ فِي الْأَصْفَادِ كَمَا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا  
 عَلَى الْمَلْعُومِ . ( سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ ) أَيْ قَصْعِهِمْ ، عَنْ ابْنِ دُرَيْدٍ ، وَغَيْرِهِ ، وَاحِدَاهَا سِرَالٌ ،  
 وَالْفِعْلُ سَرَّطُ وَسَرَّطْتُ غَيْرِي ، قَالَ كَسْبُ بْنُ مَالِكٍ :

تَلَقَّيْتُكُمْ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَمْ . مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْمِجْبَا سَرَّابِلُ

« مِنْ قِطْرَانٍ » بِمَعْنَى قِطْرَانِ الْإِبِلِ الَّتِي تُنَابَهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَذَلِكَ أُنْبِغَ لِاشْتِمَالِ النَّارِ لَهُمْ .  
 وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّامِثَةَ إِذَا لَمْ تَنْبِ قَبْلَ مَوْتِهَا تَقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرَالٌ مِنْ قِطْرَانٍ  
 وَيُدْرَعُ مِنْ حَرْبٍ . وَرَوَى عَنْ حَمَادٍ أَنَّهُمْ قَالُوا هُوَ النَّحَاسُ . وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ عَمَرَ : « قِطْرَانٍ »  
 بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَسْكِينِ الطَّاءِ . وَفِيهِ قِرَاءَةٌ ثَلَاثَةٌ : كَسْرُ الْقَافِ وَجَزْمُ الطَّاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي النَّجْمِ :  
 جَوْنٌ كَأَنَّ الْقَرْقَ الْمُسَوَّحَ . تَلَسَّهُ الْقِطْرَانُ وَالْمُسَوَّحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرَانٍ » وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ  
 وَيَعْقُوبَ ، وَالْقِطْرُ النَّحَاسُ وَالصُّفْرُ الْمَذَابُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَتُوفَى أَفْرَغُ عَلَيْهِ قِطْرًا » .  
 وَالْآنَ : الَّتِي قَدْ أَتَتْهُ إِلَى حَرِّهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَبَيْنَ حِمِيمِ آيَةٍ » . ( وَتَنْقِشِي )  
 أَيْ تَضْرِبُ ( وَجُوهَهُمُ النَّارُ ) تَنْقِشِيهَا . ( لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ) أَيْ بِمَا كَسَبَتْ .  
 ( إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ) تَقْدِمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ( هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ) أَيْ هَذَا الَّذِي أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ بِبَلَاغٍ ، أَيْ تَبْلِغٍ وَعِظَةٍ .  
 ( وَلِيَنْتَرُوا بِهِ ) أَيْ لِيَخْشَوْهُ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقُرِئَ : « وَلِيَنْتَرُوا » بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالذَّالِ ،  
 يُقَالُ : يَنْتَرُ بِالْشَيْءِ ، يَنْتَرُ إِذَا عَلِمْتَ بِهِ فَاسْتَعِدَدْتَ لَهُ ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا مِنْهُ مَصْدَرًا كَمَا لَمْ يَسْتَعْمِلُوا  
 مِنْ عَمَلٍ وَلا مِنْ عَمَلٍ ، وَكَأَنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوا أَنَّ الْفِعْلَ كَقَوْلِكَ : سَرَفْتُ أَنْ يَنْتَرُ بِالْشَيْءِ . ( وَلِيَعْلَمُوا  
 أَنَّ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ) أَيْ وَلِيَعْلَمُوا وَحِدَانِيَةَ اللَّهِ بِمَا أَقَامَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ . ( وَلِيَذْكُرُوا أُولُو

( ١ ) نَسَجَ الْقَرْقَ تَرَجَ مِنَ الْجَدِّ . ( ٢ ) « قِطْرُ » : ضَبَطَ فِي « دُرُوحِ الْحَقَائِقِ » بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الطَّاءِ . وَتَوَرَيْنِ  
 الْوَاءِ ، وَمِنْهُ فِي « الْبَحْرِ الْمَحْظُوطِ » ، وَضَبَطَ بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِهَا مَعَ سُكُونِ الطَّاءِ . قَبْلَهُ ثَلَاثُ لَفَاتٍ .



الآلِساب) أى وليتَظ أصحاب العقول . وهذه الالامات فى وء ليندروا ء وء ليعلموا ء  
و « ليدكر » متعلقة بمحذوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلناه . وروى يمان بن رثاب أن هذه  
الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وسئل بعضهم هل لكاتب الله عنوان ؟  
فقال : نعم ؛ قبل : وأين هو ؟ قال يقوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ليندروا به »  
إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .







# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : **الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴿١﴾

تقدم معناه . و « الكاب » قيل فيه : إنه اسم الجنس الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنها بالكاب المين . وقيل : الكاب هو القرآن، جمع له من الاسمين .

قوله تعالى : **رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴿٢﴾

«رُب» لا تدخل على الفعل، فإذا لحقها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : وربما قام زيد، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء، و«يود» صفة له، أي ربه شيء يود الكافر . وقرأ نافع وعاصم «ربما» مخففة الباء . الباقون مشددة، وهما لثانين . قال أبو حاتم : أهل الجواز يخففون ربما، قال الشاعر :

رُبَّمَا ضَرِيَّةٌ بِسَيْفٍ صَقِيلٍ • يَنْبُؤُ بِبُصْرَى وَطَعْنَةٍ نَجْلَاءِ<sup>(١)</sup>

وتميم وقيس وربيعة ينقلونها . وحكى فيها : رُبَّمَا وَرُبَّمَا، وَرُبَّمَا وَرُبَّمَا، تخفيف الباء وتشديدها أيضاً<sup>(٢)</sup> . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير، أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين، قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

(١) راجع ج ٨ ص ٣٠٤ طبعة أولى أو ثانية . البيت لعدي بن الزلاء النسائي . وبصري : جده قرب الشام، هي كرى حوران، كان يقوم فيها سوقاً تجارية . قال صاحب خزنة الأدب : «... وإمام مع أخاه بن أبي بصري لاشتمالاً على معتقد من الأئمة» أي بين أماكن بصري ونواحيها . وروى الشريف الحسين في حماس : «دون بصري» ودون هنا بمعنى قبل أو بعني خلف . وقال اللحي : يعني منه . راجع الخزانة في الشاهد التاسع والتميم يد السيادة . (٢) قال ابن هشام في الخنى : «وقد رب ست عشرة لغة : ضم الراء، وفتحها» وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع «الثاني» ساكنة أو بحركة . ومع التجرد منها : فهذه اثنتان عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء . وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف .



الآرَبِيَّاءُ أَهْدَتْ لَكَ الْعَيْنَ نَظْرَةً • فَصَارَكَ مِنْهَا أَنْهَاءُكَ لَا تُجِيدُ<sup>(١)</sup>

وقال بعضهم : هي للتقليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها ؛ لشغلهم بالغذاب ؛ والله أعلم . وقال : « رُبَّمَا يَوَدُّ » وهي إما تكون لما وقع ؛ لانه لصديق الوعد كأنه عيان قد كان . ونحو ج الطبراني أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعبرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم فنعكم فلا يبقى موحداً إلا أخرجه الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وماوهم في النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هذا القتي إنما هو عند المعاناة في الدنيا حين تبين لهم الهدى من الضلالة . وقيل : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

فيه مسائل ثلث .

الأولى — قوله تعالى : ( ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا ) تهديد لهم . ( وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ ) أي يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أي شغله . ولجى هو عن الشيء يَلْجَى . ( فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية مفسوخة بالسيف .

الثانية — في سند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . وطول الأمل داء

(١) أي لا تنجز ؛ يقال : ما يجدي منك هذا ؛ أي ما ينفعني . وفي بعض نسخ الأصل : لا تنجز ؛ أي لا تنجز ؛ وفي بعض نسخ لا تنجز . ولم نرى لمرة ثانية البيت



عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه، ولم يفارقه دأماً ولا نجمع فيه دواء، بل أعياء الأطباء ورأس من برئه الحكماء والعلماء. وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نجا أول هذه الأمة باليقين والزهّد وبهاك أنحرما بالخل والأمل". وروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً وبينون شيئاً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً وبئس انهم قبورا وأملهم ضروراً. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً، فمن يشتري منى اليوم تركهم بدرهمين! وأنشد:

يا إذا المؤمل آمالاً وإن بعدت • منه وزعم أن يحظى بأنصافها

أنى نفوز بما ترجوه ويك وما • أصبحت في ثقة من تيل أداها

وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني، ويغيب التشاغل والتفكير، ويغلب على الأرض ويحيل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد باليمان فلا يحتاج إلى بيان ولا يطلب صاحبه بيهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة

قوله تعالى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِخِرُونَ ﴿٢﴾

«من» صلة؛ كقولك: ما جاني من أحد. أى لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدم قبله. ونظيره قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحِخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»<sup>(١)</sup>.



قوله صلى : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾  
لَوْ مَا تَأْتِيكَ بِالْمَلَأَيْكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان  
الملائكة دلالة على صدقه . و ( لَوْ مَا ) تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال القراء :  
للم في « لَوْ مَا » بذلك من اللام في لولا . ومثله استولى على الشيء واستولى عليه ، ومثله  
خالته وخالته ، فهو خلى وخلى ؛ أى صدق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول :  
لوما زيد لضرب غيره . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مقبل :  
لوما الحياء ولوما الذين عبتكما . ببعض ما فبكما إذ عبتا عورى  
يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأشد أهل اللغة على ذلك :  
فستون عقر الثيب أفضل مجديكم . بنى ضوطرى لولا الكي<sup>١</sup> المقنما  
أى هلا تمدون الكي المقنما .

قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَأَيْكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾  
قرأ حفص وحمة والكسائي ( مَا نُنَزِّلُ الْمَلَأَيْكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ) واختاره أبو عبيد . وقرأ  
أبو بكر والمفضل « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَأَيْكَةَ » . الباقون « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَأَيْكَةَ » وتقديره : ما ننزل  
بتأين حذفنا إحداها تخفيفا ، وقد شدد التأين ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله :  
« نُنَزِّلُ الْمَلَأَيْكَةَ وَالرُّوحَ » . ومعنى ( إِلَّا بِالْحَقِّ ) إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد .  
وقال الحسن : إلا بالذاب إن لم يؤمنوا . ( وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ) أى لو نزلت الملائكة  
بإهلاكهم لما أهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو نزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

(١) البيت لم يرهجوز الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الافة بالسيف . والثيب (بكر التون) : جمع ثاب ،  
وهي ثافة المنية . وضوطرى : هو الرجل الضخم التيم الذى لا غنا عنه ؛ وهى كلمة ذم وسب . والكى ، الشجاع  
الفتكى فى سلاحه ؛ لأنه كى قسه أى شقها بالبرق واليضة . والفتح : الذى على رأسه اليضة والمخفر .  
(٢) آية ؛ سورة القدر .



بعد ذلك لم ينظروا . واصل « إِنَّا » اذْأَن - ومما حفظ - فمض إليها الله واستقبلوا  
المهزة لخدغها .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ) يعني القرآن . ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) من أن يزد  
فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البناني : حفظه الله من أن يزيد فيه الشياطين باطلا  
أو ينقص منه حقا ؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا ، وقال في ضربه : « بِمَا أَسْتَفِظُوا » ،  
فَوَكَّلْ حفظه إليهم فبدلوا وضربوا . أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله من أبيه  
الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكوفي القمي قال :  
قرأت على الشيخة العالمة نضر النساء شبهة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الديلمي وذلك  
بجملتها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم  
الشيخ الأجل العامل عقيب النجاة أبو الفوارس طراد بن محمد الزبي فرامة عليه وأنت تسمعين  
سنة تسمعين وأربعمائة ، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد  
أبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز أبن جريح المعروف بالطوماري حدثنا الحسين بن فهم  
قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : كان لأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر ، فدخل  
في جملة الناس وجعل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فكلم فأحسن  
الكلام والعبارة ، قال : فلما تقوض المجلس دعاه الأمون فقال له : إسرائيل ؟ قال نعم .  
قال له : أسلم حتى أقبل بك وأصنع ، ووعده . فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف . قال :  
فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فكلم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوض المجلس  
دعاه الأمون وقال : ألسنت صاحبة بالأس ؟ قال له : بلى . قال : فلما كان سبب إسلامك ؟  
قال : انصرفت من حضرتك فأحييت أن امتحن هذه الأديان ، وأنت ترى حسن الخط ،

(١) قال في قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » ، « إِنَّا » : سورة المائدة ، « نَزَّلْنَا » : ما جازع ١٦ ص ١٥٨  
جانبه لم يزل له ثمانية .



فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكتيبة فاشترت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشترت مني ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلها الوراقين فتصححوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . قال يحيى بن أكرم : فحجبت تلك السنة فليقت سفبان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » حفظه الله عز وجل علينا فلم يضيع . وقيل : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يقول مليا أو ننقول عليه . أو « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ مِنَ النَّاسِ » . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إن » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيد لاسم « إن » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجل تكون نفوذا للتركات لحكمها حكم التركات .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِبَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ، لحذف . والشبَع جمع شعبة وهي الأمة ، أي في أهمهم ؛ قاله ابن عباس وقادة . الحسن : في فرقههم . والشعبة : للفرقة والطائفة من الناس المتألفة المتفقة الكلمة . فكان الشبَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلِسَ كُفْرًا » . وأصله مأخوذ من الشبَّاع وهو الحطاب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشبَع هنا الفرى .

(١) آية ١١ سورة المائدة . (٢) آية ٦٧ سورة المائدة . (٣) راجع ٧ ص ٩ طبعه أحمد إرناية .



قوله تعالى : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾  
 نسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك قيل من  
 قبلك من الرسل .

قوله تعالى : كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ  
 وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ) أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ( في قُلُوبِ  
 الْمُجْرِمِينَ ) من قومك ، عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكتك في قلوب من تقدم من  
 شيخ الأولين كذلك نسلكتك في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن من قبلهم  
 برسولهم . وروى ابن جرير عن مجاهد قال : نسلكت الكذب . والنسك : إدخال الشيء في الشيء  
 كإدخال الخيط في الغيظ . يقال : سلكت سلكتك سلكتا وسلوكا ، وأسلكه إسلاكا . وسلكت  
 الطريق سلوكا وسلكتا وأسلكه دخلا ، والشيء في غيره مثله ، والشيء كذلك والفتح ، والخيط  
 في الجوهرة ، كله فعل وأصل . وقال عدي بن زيد :

(١١) • وقد سلوكك في يوم عَصيب •

والنسك ( بالكسر ) الخيط . وفي الآية رد على القدرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلكت  
 القرآن في قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذى عليه أكثر أهل التفسير ،  
 وهو أزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلكت الذكر إلزاما للجنة ؛ ذكره الفريزى .  
 ( وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ) أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من  
 للملاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم  
 يقتدون بأولئك .

(١) هذا مجزأ ، ومعه كافي في السان وشعرا . قصصية •  
 • وكنت وإن غصك لم أعمد •

(٢) في الأصول ، ودعاء •



قوله تعالى وَلَوْ قَفَّحْنَا عَلَيْهِم بِآبَاءِ مَنْ أَسْمَاءُ فَقَلَّوْا فِيهِ يَعْرجُونَ ﴿١٥﴾  
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٦﴾

يقال : ظلّ فعل كذا، أى يغله بالنهار . والمصدر الظلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المجز : إن صحر . ( يعرجون ) من عرج يرج أى صيد . والمعارج المصاعد . أى لو صعدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضحير في « عليهم » للشركين . وفي « فقلّوا » السلاكة ، تنهب ونجى . أى لو كشف هؤلاء حتى يأتوا أبوا في السماء تصمّد فيها الملائكة وتقلّ لقلّوا : وأبنا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ( سُكِّرَتْ ) سُكَّتْ بالسحر ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُكِّرَتْ . الكلبي : أغشيت أبصارنا ؛ وعنه أيضا عجميت . قتادة : أخذت . وقال للزُّوج : دبر بنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جَوَّير : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : « سكرت » غَشِيَتْ وَغُطِّيَتْ . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر • وجعلت عين الحروود تسكر

وقال مجاهد : « سكرت » حَسِبَتْ . ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهرة • فلبست بطنقي ولا ساكرة<sup>(١)</sup>

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : سُكِّرَتْ . قال ابن عَرَبٍ : « سُكِّرَتْ أبصارنا » سُكَّتْ أبصارنا ؛ هو من قولك : سَكَّرْتُ النهر إذا سدّدته . ويقال : هو من سُكَّرَ الشراب ، كأن المين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكر . وقرأ ابن كثير « سُكِّرَتْ » بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِّرَتْ ملكة . قال المهدوي : والتخفيف والتشديد

(١) في اللسان مادة سكر : « جللت » بالهمزة والفتح ، ومعنى « جللت » انصب وبت لا يرج . ودية نطق لا مشرق لايه فيها ولا حق ، ولا مطرولا . (٢) حارة ابن الأعرابي كالدفع الأصل . « سكرت ملكة ، وسكرت ملكة ، ولم تزل في مدّة » ملكة تكرير من التضاعف مع حرف .



في «سكوت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدي من معناه «والمعروف أن «سكر» لا يتعدى. قال أبو صل : يجوز أن يكون سُمع متعديا في البصر. ومن قرأ «سُكُوت» فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكان، كأنها جرت مجرى السكان لعدم تحصيله. وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، وبالتشديد أخذت، ذكرهما الماوردي. وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سُكُوت» بالتخفيف. قال الحسن : أى يُحسرت. وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سُكُوت أبصارهم إذا غشيها تُمادير<sup>(١)</sup> حتى لا يبصروا. وقال القراء : من قرأ «سُكُوت» أخذه من سكور الريح. قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة. والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال : هو من السكر في الشراب. وهذا قول حسن، أى غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكان ما غطى، غفله. يسكور الريح سكوتها وتورها، فهو يرجع إلى معنى التحجير.

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدل بها على وحدانيته. والبروج : القصور والمنازل. قال ابن عباس : أى جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها. وأسماء هذه البروج : الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والمقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأوابها من أجل العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخشب والجناب. وقالوا : أفلك اثنا عشر برجاً، كل برج ميلان ونصف. وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها. وقد تقدم هذا المعنى في النساء<sup>(٢)</sup>. وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها. وقيل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

(١) التُمادير : ضئيل البصر. وقيل : هو الشيء الذي يترأى للأنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب.

(٢) راجع ج ٥ ص ٢٨٤ طيبة أولى أو ثمانية.



بني السبعة السارة . وقال قوم : هم ربياء ، أي قصورا ويوتا فيها الحرم ، خلقها الله في السماء . فآله أعلم . ( وزينها ) بني السماء كما قال في سورة الملك : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » . ( للظلمين ) للمتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ (١٧)

أي مرجوم . والرجم الرمي بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرده . وقد تقدم . وقال الكسائي : كل رجم في القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحفظ جميعها بعد بعثه وحُرسَ منهم بالشُّب . وقاله ابن عباس رضي الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا ينجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسما فيحدثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حتى والتسع باطل ، فإذا رأوا شيئا مما قالوه صدقوه فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فلما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب ؛ على ما يأتي .

قوله تعالى : إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ۝ (١٨)

أي لكن من استرق السمع ، أي الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيل ، هو متصل ، أي إلا من استرق السمع . أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحي وغيره ؛ إلا من استرق السمع فأن لم تحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فأنما الوحي فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ » . وإذا استمع الشياطين

(١) وهم — حسب ترتيب الصاعد — : القمر ، عطارد ، الزهرة ، الشمس ، المريخ ، المشتري ، زحل .

(٢) آية ٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ طبعه أدل أو ثانية . (٤) في سورة الصافات

في قوله تعالى : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُرُوكِ ... » آية ٦ وما بعدها . وفي سورة الجن في قوله تعالى :

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ... » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة النجم .



إلى شيء ليس يوشى فانهم يقدفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تبيهم الشهاب فتفظمهم أو تحيلهم<sup>(١)</sup>؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ قَاتِبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ اتبعه : أدركه وحلقه . شهاب : كوكب مضى .  
وكذلك شهاب ناقب . وقوله : « يشهاب قيس » بشعلة نار في رأس عود؛ قاله ابن عزيز .  
وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عَصْرِيَّة <sup>(٢)</sup> • مسموم في سواد الليل مُتَضِيب

وسمى الكوكب شهابا لبريقه ، يشبه النار . وقيل : شهاب لشعلة من نار، قيس لأهل الأرض، فتحرقهم ولا تمود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعد الشياطين أنوaja تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب، فيأتى أصحابه وهو يلهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدثون بها أهل الأرض . الكلمة حتى والتسع باطل . فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقهم بكل ما جاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا في سورة « صبا » إن شاء الله تعالى .<sup>(٣)</sup>

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يمحرق ويحرق ويحبل ولا يقتل . وقال الحسن وطائفة : يقتل ؛ فعل هذا القول في قتلهم بالشهب قبل اللقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما - أنهم يقتلون قبل إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى ضربهم ؛ فعل هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكهانة . والثاني - أنهم يقتلون بعد إلقاءهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لا قطع الاستراق وانقطع الإحراق ؛ ذكره المسوردي .

(١) الحبل (بكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إبليس ، وسرق : ممل ومضغيب : منقش من مكانه . (٤) في قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عند آية ٢٦ »



الله : وقوله لا تقل أمح مل ما يأتي ياته في «الصفات» . واختلف هل كان رؤى  
 الشهب قبل المبعث ؟ فقال الأكثر من نم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتي  
 بيان هذه المسألة في سورة «الحج» إن شاء الله تعالى . وفي «الصفات» أيضا . قال الزجاج :  
 وأرى بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم لما حدث بعد مولده ؛ لأن الشعراء في القديم  
 لم يذكره في أشعارهم ، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق والسيل . ولا يبعد  
 أن يقال : انقضاء الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين ، ثم صار  
 رجوما حين ولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاء الكواكب ،  
 فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرمون  
 بشعلة من نار من الموى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشهاب في اللغة النار الساطعة . وذكر  
 أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجعت الشياطين بجحوم  
 لم تكن ترجم بها قبل ، فاتوا عبد ياليل بن عمرو التقي فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد  
 أعتقوا رقبهم وميتوا أنفاسهم لما رأوا في النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — :  
 لا تمسكوا ، وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف  
 فهي من حدثت . فنظروا فإذا هي نجوم لا تُعرف ، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلتفتوا حتى  
 سمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَوْبَقْنَا فِيهَا  
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١١ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ  
 يَرْزُقِينَ ۝١٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ هذا من نعمه أيضا ، وما يدل على كمال قدرته .  
 قال ابن عباس : بسطانها على وجه الماء ؛ كما قال : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَى

(١) في قوله تعالى : « لا يستعبد إلا الملائة الأعلى ... » آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .



بسطها . وقال : « وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا فَتَمَّ الْمَاهِدُونَ » . وهو يريد على من فُعم أنها كالكرة .  
وقد تقدم . ( وَأَنْتَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي ) جبالا ثابتة لئلا تتحرك بأهلها . ( وَأَنْتَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ ) أى مقدر معلوم ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإما قال « موزون » لأن  
الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذائبة • حدى لكل غنايم ميزانه

وقال قتادة : موزون يعنى مقسوم . وقال مجاهد : موزون معدود . ويقال : هذا كلام  
موزون ؛ أى منظوم غير متثر . فعل هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات  
والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْتَبَهَاتَا حَسًّا » . والمقصود من الإنبات  
الإنشاء والإيجاد . وقيل : ( أَنْتَبَهَاتَا ) أى فى الجبال ( من كل شئ موزون ) من الذهب  
والفضة والنحاس والرصاص والفضة حتى الزرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزنه . روى  
معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار مما يكال ويوزن . وقيل :  
ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ( وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ )  
بنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها ؛ واحدها معيشة ( بسكون الباء ) . ومنه قول جرير :

تكلفى مَعِيشَةً آل زيد • ومن لى بالمرقق والصاب

وَالْأَصْلُ مَعِيشَةٌ عَلَى مَفْعِلَةٍ ( بتحرك الياء ) . وقد تقدم فى الأعراف . وقيل : إنها الملابس ؛  
قاله الحسن . وقيل : إنها التصرف فى أسباب الرزق مدة الحياة . قال الماوردى :  
وهو الظاهر . ( وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ) يريد الدواب والأنعام ؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم  
العييد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ رَزَقُوهُمْ » . ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ) ولغظه « من » يجوز أن يتناول  
العييد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، غلب من يعقل . أى

(١) آية ٤٨ سورة القاريات . (٢) فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » آية ٣ سورة الرعد  
راجع ج ٩ ص ٢٨٠ طبة أول أدتانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصاب  
الغزل المضروب بالرج ، يزعم به . (٥) داجع ج ٧ ص ١٦٧ طبة أول أدتانية .  
(٦) آية ٣١ سورة الإبراء .



جعلنا لكم فيها ما يشي وعيدا وإماء ودواب وأولادا رزقهم ولا ترزقونهم . فمنه . مل  
هذا التأويل في موضع نصب ؛ قال مناه مجاهد وغيره . وقيل : أولاد به الوحش . قال  
سعيد : قرأنا منصوب « وَمَنْ لَمْ يَلِدْ يَرْزُقْ » قال : الوحش . فمنه . على هذا تكون  
لما لا يعقل ؛ مثل « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ عَلَى بَطْنِهِ » الآية . وهي في محل خفض عطف على  
الكاف والميم في قوله : « لَكُمْ » . وفيه فتح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف  
الظاهر على المضممر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به ويزيد . ولا يجوز مررت به  
وزيد إلا في الشعر . كما قال :

فاليوم قُربت تهجونا ونسيتنا . فأذهب فاك والأيام من عجب

وقد مضى هذا المعنى في « البقرة » وسورة « النساء » .

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

مَعْلُومٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) أى وإن من شيء من أرزاق الخلق  
ومنافعهم إلا عندنا خزائنه أى المخرجات من السماء لأن به نبات كل شيء . قال الحسن :  
المطر خزائن كل شيء . وقيل : الخزائن المفااتيح ، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبي .  
والمعنى واحد . (وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى  
حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ  
بِقَدَرٍ مَا يُنْشَاءُ » . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من  
عام . ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فبمطر قوم ويحرم آخرون . وربما كان المطر فى البحار  
والنقار . والخزائن جمع الخزانة . وهو الموضع الذى يستوفيه الإنسان ما له . والخزانة أيضا  
مصدر تحزن يحزن . وما كان فى خزانة الإنسان كان معدا له . فكذلك ما بقدر عليه الرب



فكانه معه؛ قاله القشيري. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: «وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ». والإزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله: «وَأَنزَل لَّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»<sup>(١)</sup> وقوله: «وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ»<sup>(٢)</sup>. وقيل: الإزال بمعنى الإعطاء، وسماه إزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء.

قوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِمُجْتَزِينَ»<sup>(٣)</sup>

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: «(وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ) قراءة العامة «الرياح» بالجمع. وفرا حزمة بالتحديد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد. كما يقال: جاءت الريح من كل جانب. كما يقال: أرضٌ سباسب<sup>(٤)</sup> وثوب أخلاق. وكذلك تفعل العرب في كل شيء أنسح. وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ «لوايح» وهي جمع. ومعنى لوايح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخبر والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لواحاً لأنها تحمل السحاب؛ أي نُقِلَتْ وتصرفه ثم تَمَرِّيه فتستدبره، أي تنزله؛ قال الله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نِّفَالًا» أي حملت. وناقعة لواح ونوق لوايح إذا حملت الأجنة في بطونها. وقيل: لوايح بمعنى ملقمة وهو الأصل، ولكنها لا تلقح إلا وهي في نفسها لواح، كأن الرياح لقيحت بخير. وقيل: ذوات تلقح، وكل ذلك صحيح؛ أي منها ما يُلْقِح الشجر؛ كقولهم: حبشة راضية؛ أي فيها رضاء، وليل نائم؛ أي فيه نوم. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لقيحت الناقة (بالكسر) لقحا ولقحا (بالتفتح) فهي لواح. وألقحها الفحل أي ألقي إليها

(١) آية ٦ سورة الإسراء. (٢) آية ٢٥ سورة الحديد. (٣) السبب: الأرض المستوية البعيدة.

(٤) مَرَّتْ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا انْزَلَتْ مِنَ الْمَطَرِ. (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف.



الله فخلته ، فالرياح كالقفل للسحاب . قال الجوهري : ورياح لوانغ ولا يقال ملاغ ،  
وهو من التوامر . وحكى القسدي عن ابن عسقة : فلياغ بمعنى ملاغ ، ذهب إلى أنه جمع  
مقبعة ومكبح ، ثم حذفت زوائده . وقيل : هو جمع لاخته ولاغ ، على معنى ذات اللقاح  
على النسب . ويعوز أن يكون معنى لاغ حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاغ وحامل ،  
والشمال حائل وعقيم . وقال صيد بن عمير : يرسل الله للبشرة نفق الأرض <sup>(١)</sup> قبا ، ثم يرسل  
الكثيرة فتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث اللوانغ فتلقح الشجر . وقيل : الريح  
لللاغ التي تحمل الندى فتسجه في السحاب ، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبي هريرة  
قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «الريح الجنوب من الجنة وهي الريح  
اللاوانغ التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس» . وروى عنه عليه السلام أنه قال :  
«ما هيئ جنوب إلا أبع الله بها مينا فدفقة» . وقال أبو بكر بن عياش : لا تنطر قطرة من  
السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ، فالصيا تهيجها ، والدبور تلقحها ، والجنوب  
تدثرها ، والشمال تنزفها .

الثانية - روى ابن وهب وابن القاسم وأشبه وابن عبد الحكم عن مالك - واللفظ  
لأشهب - قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » فلقاح القمح عندى  
أن يجيب ويستئيل ، ولا أدري ما يبس في أكمامه ، ولكن يُحب حتى يكون لويس حينئذ  
لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت .  
وليس ذلك بأن تورد . قال ابن العربي : إنما عول مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح  
الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمثابة تحبيب التمر وتسبيله ،  
لأنه سُمي باسم تسترك فيه كل حامله وهو اللقاح ، وعليه جاء الحديث «نبى النبي صلى الله  
عليه وسلم عن بيع الحب حتى يشتد» . قال ابن عبد البر : الإبار عند أهل العلم في النخل  
اللقح ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع [ ذكرور ] النخل فيدخل بين ظهري طلع الإناث .



ومعنى ذلك في سائر التمار طلع الثمرة من الثبر وغيره حتى تكون الثمرة مهيئة سقوطها إليهم والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من التسليم التذكير ، وفي لا يذكر التذكير من وزن ما ثبت ويسقط ما يسقط . وحد ذلك في الزرع ، ظهوره من الأرض ، قال مالك . وقد روى عنه أن إزاره أن يحب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع ثمره فأنثر إزاره وقد أبرغره من حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ، لأنه قد جاع عليه وقت الإبر وثمرته ظاهرة بعد نعيها في الحب . فإن أبر بعض الحائط كان المبر يورثها له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعه .

الثالثة - روى الأئمة كلهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلاً بعد أن تؤبر فثمرتها للذي باعها إلا أن يشترط المبتاع . ومن ابتاع عبداً قاله للذي باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول في البيع إلا بالشرط ، لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالباً . بخلاف التي لم تؤبر ، إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود ، فلم يميز للبائع اشتراطها ولا استثناءها ، لأنها كالجين ، وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناءها وهو قول الشافعي .

الرابعة - لو اشترى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طيبها هل مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد . وعنه في رواية لا يجوز . وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر ونقهاء الحديث . وهو لأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

الخامسة - وما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاح ، والملاح الفحول من الإبل ، الواحد مفتح . والملاح أيضاً الإناث التي في بطونها أولادها ، الواحدة ملفحة (فتح القاف) . والملاح مافي بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملفوحة ، من قولهم : فُحيت ، كالحموم من حُم ، والمجنون من جُن . وفي هذا جاء النهي . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم :



له نبي من النبي وهو يسح ما في بطون الإناث . ونهى من المضامين والملاقيح : قال  
لهم حيد : للمضامين ما في البطون ، وهي الأجنة . والملاقيح ما في أصلاب الفحول . وهو  
قول سيلين السبب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما في ظهور الجنال ، والملاقيح  
ما في بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأى الأمرين كان ، فعلماء المسلمين  
يجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المسزني عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما في البطون  
لبعض الأعراب :

مَبْتَنِي مَلَاقِحًا فِي الْأَبْطِينِ . تَنْتَجِعُ مَا تَلْقَحُ بَعْدَ أَزْمِنِ

وذكر الجوهري على ذلك شاهدا قول الرازي :

إِنَّا وَجَدْنَا طَرْدَ الْهَوَامِلِ . خَيْرًا مِنْ ثَلَاثَانِ وَالْمَسَائِلِ

وَعِدَّةُ الْعَامِ وَعَارِمُ قَابِلِ . مَلْقُوحَةٌ فِي بَطْنِ ذِي حَامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأنظك يسمى  
صاه . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر  
لشبابكم ولشرب مواشيكم وأرصكم . وقيل : سقى وأسقى بمعنى . وقيل بالفرق ، وقد  
تقدم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندهم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء  
نقله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً يَنْقُرُ فَاسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شئ سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا  
وإِلَيْنَا رُجُوعٌ » . فملك كل شئ لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت

(١) كذا في الأصل . (٢) الهوام : الإبل المهمة . والثانان : الأبن . والثاب : الناقة المسنة .  
والحائل : التي تم تحمل . (٣) راجع ج ١ ص ١٧ طبة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان .  
(٥) آية ١٨ سورة المؤمن . (٦) آية ٤ سورة مريم .



الذعوى، فكان الله وارثا من هذا الوجه . وقيل : الإحياء من هذه الآية إحياء النسل  
في الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : **وَأَن تَرْجَعَهُمْ** .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا**  
**الْمُسْتَأْخِرِينَ** (٢٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ( **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ** ) فيه ثلاث  
تأويلات : الأول - « المستقدمين » في الخلق إلى اليوم ، و « المستأخرين » الذين لم يخلقوا  
بعد ؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثاني - « المستقدمين » الأموات ، و « المستأخرين »  
الأحياء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثالث - « المستقدمين » من تقدم أمة بعد  
و « المستأخرين » أمة بعد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مجاهد . الرابع - « المستقدمين » في الطاعة  
والخير ، و « المستأخرين » في المعصية والشر ؛ قاله الحسن وقتادة أيضا . الخامس -  
« المستقدمين » في صفوف الحرب ، و « المستأخرين » فيها ؛ قاله سعيد بن المسيب . السادس -  
« المستقدمين » من قتل في الجهاد ، و « المستأخرين » من لم يقتل ؛ قاله القرطبي . السابع -  
« المستقدمين » أول الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبي . الثامن -  
« المستقدمين » في صفوف الصلاة ، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم  
فله تعالى ؛ فانه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة .  
إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن  
عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس ،  
فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لتلايها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون  
في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ، فأنزل الله عن وجهه **«وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ**  
**مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ** » . وروى عن أبي الجوزاء ولم يذكر ابن عباس . وهو أصح .



**الثانية** - هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة وعلى فضل الصف الأول؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا». فإذا جاء الرجل عند الزوال فتر في الصف الأول مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب في الفضل: أول الوقت، والصف الأول، ومجاورة الإمام. فإن جاء عند الزوال فتر في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأول، فقد حاز فضل أول الوقت وفاته فضل الصف الأول والمجاورة. فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأول دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أول الوقت وفضل الصف الأول، وفاته مجاورة الإمام. فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأول فقد فاته فضيلة أول الوقت، وحاز فضيلة الصف الأول ومجاورة الإمام. وهكذا. ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي كما قال صلى الله عليه وسلم: «يأتي منكم أولو الأحلام والنبي» الحديث. فما يلي الإمام يقبض أن يكون لمن كانت هذه صفته، فإن تولها غيره أخر وتقدم هو إلى اللوضع؛ لأنه حقه بأمر صاحب الشرع، كالحرباء هو موضع الإمام تقدم أو تأخر؛ قاله ابن العربي.

قلت: وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه: تأخر يا فلان، تقدم يا فلان؛ ثم يتقدم فيكبر. وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليخز ساجدا فيغفر لمن خلفه. وكان كعب يتولى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك، ويذكر أنه وجد كذلك في التوراة. ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وسيأتي في سورة «الصفات» زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى.

**الثالثة** - وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة، فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال؛ فإن القيام في نحر العدو، وبيع العيد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدم إليه أفضل، ولا خلاف فيه ولا خفاء به. ولم يكن أحد يتقدم في الحرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا واقفة إذا حمز الباس تنقح به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) أي: إلا أن يترعوا.



قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ أَثَرٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ ﴾ أى بحساب والجزاء . (إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) تقدم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ بنى آدم عليه السلام . ( مِنْ صَلْصَالٍ ) أى من طين يابس ؛ عن ابن عباس وغيره . والصلصال : الطين المزخبط بالبرمل فنصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طيخ بالنار فهو الفخار ؛ عن أبي عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنتد أهل اللغة :

• كَتَبُوا الْمَصْلِلَ الْحَوَالِ •

وقال مجاهد : هو الطين المُنْبَت ؛ واختاره الكسائي . قال : وهو من قول العرب : صل اللحم وأصل إذا أتت - مطبوخا كان أو نيئا - يصل صلولا . قال الخطبة :

ذَاكَ فَيَسْئَلُ ذَا قِيْدِهِ • لَا يُفِيدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصَّلُولُ

وطين صَلَل ومضلل ؛ أى يصوت إذا قهرته كما يصوت الحديد . فكان أول نزول ؛ أى متفرق الأجزاء ثم بُل نصار طينا ، ثم ترك حتى أتت نصار حمأ مسنونا ؛ أى متغصا ، ثم يس نصار صلصلا ؛ على قول الجمهور . وقد مضى في «البقرة» بيان هذا . والحمأ : الطين الأسود ، وكذلك الحمأة بالنسكين ؛ يقول منه : حيث البئر حمأ (بالنسكين) إذا تجمعت حباتها . وحيث البئر حمأ (بالتحريك) كثرت حباتها . وأحاثها إحماء ألقيت فيها الحمأة ؛ عن ابن السكيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكعكة . والجعم حمء ، مثل تمره وعمر . والحمأ المصدر ، مثل الملح والجزع ، ثم سمي به . والمسنون المتغير . قال ابن عباس : هو التراب المبلل للمتن ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أرتاة . (٢) هذا مجزئ . ونماه كالقالبان ؛

مترس تصد إذا صبا الصر • ت مصدر المصلل الجزوال

(٣) راجع المسألة الأولى ج ١ ص ٢٧٩ طبة ثانية أرتاة .



فَعَلَّ صَلَاحًا كَالْفَخَارِ . ومثله قول مجاهد وقتادة ، قَالَا : المتن المتغير ؛ من قولهم : قد  
 أَسْنِ الْمَاءَ إِذَا تَغَيَّرَ . ومنه « يَسْنَهُ » و « مَا غَيْرَ أَسْنِ » . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :  
 صَقِيتُ صَدَائِي رُضَابًا غَيْرَ ذِي أَسْنٍ • كَالْمَسْكِ قُتَّ عَلَى مَاءِ الْمُنَاقِيدِ  
 وقال الفراء : هو المتغير ، وأصله من قولهم : سَنَبْتُ الْحَجَرَ عَلَى الْحَجَرِ إِذَا حَكَّكَ بِهِ . وما يخرج  
 من الحجرين ، يقال له السَّنَانَةُ وَالسَّيْنُ ؛ ومنه المَسْنُ . قال الشاعر :  
 تَمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَةِ الْحَمْرِ • سَرَاهُ تَمَشَّى فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ  
 أَيْ عَمَكُوكَ تَمَلَّسَ . حُكِيَ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ قَالَ لِأَبِيهِ : أَلَا تَرَى عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانٍ  
 يُسْتَبَبُ بِأَبْنَتِكَ • فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : وَمَا قَالَ ؟ فَقَالَ قَالَ :  
 هِيَ زَهْرَاءُ مُثَلُّ لُؤْلُؤَةِ الْقَوْ • أَصْ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ  
 فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : صَدَقَ ! فَقَالَ يَزِيدُ : [ إِنَّهُ يَقُولُ ] :

وَإِذَا مَا تَسَبَّهَتْ لَمْ تَجِدْهَا • فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونَ  
 فَقَالَ : صَدَقَ ! فَقَالَ : أَيْنَ قَوْلُهُ : ثُمَّ خَاصَرْتُهَا ... الْيَتِ . فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : كَذَبَ . وَقَالَ  
 لِمَوْعِيزَةَ : الْمَسْنُونُ الْمَصْبُوبُ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : سَنَنْتُ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ عَلَى الْوَجْهِ إِذَا  
 صَبَبْتَهُ . وَالسَّنُ الْعَصَبُ . وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحَةَ عَنْ أَبِي عُبَّاسٍ قَالَ : الْمَسْنُونُ الرُّطْبُ ؛  
 وَهَذَا بِمَعْنَى الْمَصْبُوبِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَصْبُوبًا إِلَّا وَهُوَ رَطْبٌ . النَّعَاسُ : وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ ؛  
 لِأَنَّهُ يَقَالُ : سَنَنْتُ الشَّيْءَ ، أَيْ صَبَبْتُهُ . قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : وَمِنْهُ الْأَثَرُ الْمَرْبُوعُ (١) مِنْ عَمْرِو  
 أَنَّهُ كَانَ يَسْنُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَا يَسْنَهُ . وَالشَّنُّ (بِالْشَيْنِ) تَفْرِيقُ الْمَاءِ ، وَبِالسَّيْنِ الْمَهْلَةُ  
 صَبٌّ مِنْ قَبْرِ تَفْرِيقٍ . وَقَالَ سَيَبَوَيْه : الْمَسْنُونُ الْمَصُورُ . أَخَذَ مِنْ سُنَّةِ الْوَجْهِ وَهُوَ صَوْرَتُهُ .  
 وَقَالَ خُذْرَاءُ :

فَرِيكَ سُنَّةٌ وَجْهِ غَيْرُ مَقْرِفَةٍ • مَلَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا تَقَبِ

(١) فِي السَّنِّ : التَّضَرُّبُ . (٢) الزَّيَادَةُ عَنِ السَّنِّ . (٣) فِي نَهْجَةِ ابْنِ الْأَثِيرِ : «ابْنُ عَمْرِو» .

(٤) السُّنَّةُ : السُّورَةُ ، وَالْمَقْرِفَةُ : الَّتِي دَنَتْ مِنَ الْمِجَنَةِ ، وَالْيَتِيبُ : الْأَثَرُ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْفَرَّاحُ : وَقَوْلُهُ  
 فِي مَعْرِفَةٍ : لَيْسَ غَيْرُ مِجَنَةٍ ، ضَرْفَةُ كَرَمَةٍ .



وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم ؛ من قولهم : وجهه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصَّلصال التراب المدقق ؛ حكاية المهدوي . ومن قال : إن الصَّلصال هو المنتن فاصله صَلال ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَلٍ » مفسر لخمس الصَّلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : **وَأَلْبَنَّا خَلْقَنَّهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السُّمُومِ** ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (( **وَأَلْبَنَّا خَلْقَنَّهُ مِن قَبْلُ** )) أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : بنى إبليس ، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسمى جانا لتواريه عن الأيمن . وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لِمَا صَوَّرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ بِفِعْلِ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفٌ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَ خَلْقًا لَا يَتَّكِلُ<sup>(١)</sup> »** . ( **مِنْ نَّارِ السُّمُومِ** ) قال ابن مسعود : نار السموم التي خلق الله منها الجن جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التي تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهي نار تكون بين السماء والجناب . فإذا أحسنت الله أمرا اخترقت الجناب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت . **فَالْمَثَلَةُ<sup>(٢)</sup> الَّتِي تَسْمَعُونَ نَرَقَ ذَلِكَ الْجَنَابِ** . وقال الحسن : نار السموم نار دونها سمج ، والذي تسمعون من انقطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة . — قال : — وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظير ؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر ؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي . وقد خرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »** .

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها من الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند البشيم ، وقيل : لا يملك دفع الوسواس منه . (٢) المثلة : صوت وقع الحائط ونحوه .



فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرى : مارج من نار نار لا دخان لما خلق منها الجن ، والسوم الريح الحارة تؤث ؛ يقال منه : سم يؤث فهو يوم مسوم ، والجمع سائم . قال أبو عبيدة : السوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيري : وسميت الريح الحارة سموا لدخولها في مسام البدن .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَإٍ مَّنْسُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ) تقدم في « البقرة » . ( إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ ) من طين . ( فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ) أى سويت خلقه وصورته . ( وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ) لنفخ إبرة الريح فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن من ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه لتكريمه لا لتكرمه ؛ كقوله : " أرضى وسمانى وبقى وفاقه الله وشهر الله " . ومثله « وروح جئت وقد قدسني » النساء ١٥١ . وذكرنا فى كتاب ( التذكرة ) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لسمى واحد . وصياتى ذلك إن شاء الله .  
وهو قال إن الروح هو الحياة فالمراد : فإذا ركبت فيه الحياة . ( فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ) أى تعبدوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا بسجود عبادة . وفيه أن يفضل من يريد ؛ تفضل الأول على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى . وقال القفال : كانوا يقتضون من آدم ، وأصحابه بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة .  
وقيل : أسمى بالسجود فيه عند آدم ، وكان آدم قبله لهم .

(٢٨) طبع ١٠ ص ٣٥٥ طبع ٢٢ ل ٢٤٢ . (٢٩) طبع ٦ ص ١٢ طبع ١٤ ل ٢٤٢ .

(٣٠) طبع ١٠ ص ٣٦١ طبع ١٤ ص ٣٦٢ طبع ٢٢ ل ٢٤٢ .



قوله تعالى : فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى  
لَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ( فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ) فيه مسائل ثلاث :  
الأولى - لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ، لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ، كما تقدم في « البقرة » بيانه .  
ثم قيل : كان من الملائكة ، فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ،  
فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة » هذا كله مستوفى . وقال ابن عباس : الجن  
أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن  
يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر . فأدم أبو الإنس . والحاف أبو الجن . وإبليس  
أبو الشياطين ؛ ذكره الماوردي . والذي تقدم في « البقرة » خلاف هذا ، فاعلمه  
هناك .

الثانية - الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : فلان  
على دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أبواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط  
عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيالات والموزونات والمقدرات .  
وقال مالك وأبو حنيفة رضى الله عنهما : استثناء المكيال من الموزون والموزون من المكيال  
جائز ، حتى لو استثنى الدرهم من الحنطة والحنطة من الدرهم قبل . فاما إذا استثنى المقومات  
من المكيالات أو الموزونات ، والمكيالات من المقومات ، مثل أن يقول : على عشرة دنانير  
إلا ثوبا ، أو عشرة أبواب إلا دينارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم التفسير بجمع المبلغ . وقال  
محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المترجم بجملة ما أقر به . والدليل

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع ج ٧ ص ١٦٩ طبة أول أو ثانية . (٢) طبع ١٥ ص ٢٩٦ طبة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع ج ١ ص ٢٩٤ طبة ثانية أو ثالثة .



لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» فأستثنى السلام من جملة اللغو. ومثله «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ» وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ». وقال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس • إلا اليعافير وإلا العيس

فأستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة:

— — — — — • — — — — —

قوله تعالى: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» (٣٦)  
 قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَتَّبِعْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ (٣٧)  
 قَالَ فَانْزُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٨) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٩)  
 قوله تعالى: «(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ) أي ما المانع لك. (أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) أي في ألا تكون. (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَتَّبِعْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ) بين فكبره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدم في «الأعراف»  
 بيانه. «(قَالَ فَانْزُجْ مِنْهَا) أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة.  
 (فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) أي مرجوم بالشبه. وقيل: ملعون مشوم. وقد تقدم هذا كله مستوفى في البقرة والأعراف. «(وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ) أي لعني؛ كما في سورة «ص»»

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة. (٢) آية ٥٠ سورة الكهف. (٣) لم يذكر المؤلف رحمه الله في قول النابغة، أوله مقطوع من النسخ. وله يشير إلى قوله:

حققت بينا فردي متشوية • ولا لم إلا حسن ظن جاحب

وهذا البيت أوردته سيوريه في كتابه شاهد على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المتقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم. والمتشوية: الاستثناء في العين. والمعنى: حققت غير متشوية بيني وبين جاحبي تام معنى مقام العلم الذي يوجب العين. (رابع كتاب سيوري). (٤) راجع ٧ ص ١٧ طبعة أوله أرتانية. (٥) آية ٤٤.



قوله تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٨﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن من نعمته منه بقرته عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يجاب له دعاءه ؛ ولكن سال تأخير منابه زيادة في بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ بمعنى من المؤمنين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به الضقة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويعلمه إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما - كلمه على لسان رسوله . الثانى - كلمه تفلظا فى الوعيد لا على وجه التكرمة والتعريب .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرِيَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ  
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرِيَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى الإغواء والزينة فى الأعراق . وزينته هنا يكون بوجهين : إما بفعل المعاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلهم عن طريق الهدى . وروى ابن طيمية عبد الله عن دُراج أبى السمع عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتي وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .



قوله تعالى : **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ** ﴿١٠﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ، أى الذين استخلصهم وأخلصهم . وقرا  
الباقون بكسر اللام ، أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمانية أن  
الغواريين سألوا عيسى عليه السلام من المخلصين لله فقال : " الذى يعمل ولا يحب أن  
يحمده الناس " .

قوله تعالى : **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ** ﴿١١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة .  
الحسن : « على » بمعنى إلى . مجاهد والكشاف : هذا على الوعيد والتهديد ، كقولك لمن  
تهتده : طريقك على ومصيرك إلى . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَا يَرْصُدُ <sup>(١)</sup> » . فكان معنى  
الكلام : هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كلاً بعمله ، معنى طريق العبودية . وقيل : المعنى  
على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهداية . وقرا ابن  
سيرين وقناة الحسن وقيس بن عباد وأبو رجاء ومحمد بن يعقوب « هذا صراط على مستقيم »  
يرفع « على » وتوحيده ، ومعناه رفع مستقيم ، أى رفع في الدين والحق . وقيل : رفع أن  
يُنال ، مستقيم أن يمال .

قوله تعالى : **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ**

**مِنَ الْقَاوِينَ** ﴿١٢﴾

**بِهِ مَسْأَلَانِ**

الأولى - قوله تعالى : ( **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ) قال العلماء : معنى  
على قلوبهم . وقال ابن عينة : أى فى أن يقيم فى ذنب يمتهم فحوى ويضيقه عليهم .  
وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(١) كذا ١٢ سورة القصص



قلت : لعل قائل يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء طيبها السلام بقوله :  
 « فَأَزَلَّمَا الشَّيْطَانُ » ، ومن جملة من أصحاب نية بقوله « إِنَّمَا اسْتَزَلَّمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ  
 مَا كَتَبُوا » فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ،  
 ولا ياقينهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول ، بل تزيه النوبة وتمحوه الأوبة . ولم يكن خروج  
 آدم عقوبة لما تناول ، على ما تقدم في « البقرة » بيانه . وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم  
 فقد مضى القول عنهم في آل عمران . ثم إن قوله سبحانه : « لئس لك عليهم سلطان »  
 يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ،  
 وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة ، كما فعل بيلال ، إذ أتاه يهتدي كما يهتدي الصبي  
 حتى نام ، ونام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا  
 وقالوا : ما كفارة ما صنعتنا بشربنا في صلاتنا ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس  
 في النوم تفريط » ففرج عنهم . ( إِلَّا مَنْ أَتَيْكَ مِنَ الْغَاوِينَ ) أي الضالين المشركين . أي  
 سلطانه على هؤلاء ، دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

ثانية - وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير  
 من القليل ، مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد  
 ابن حنبل ، لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما استثناء الأكثر من الجملة  
 فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين ،  
 وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٢﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ  
 يَكُلُّ بِبَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءًا مَّقْسُومًا ﴿٢٣﴾

(٢٢) آية ٣٦- سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران ، ج ٤ ص ٢٤٢ طبع في المطبع

(٢٣) طبع في ج ٤ ص ٢٤٢ طبع في المطبع (٢٤) آية ١٠٠ سورة النمل .



قوله تعالى : ( وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَتَمِّينَ ) يحيى إيليس ومن اتبعه . ( لما سبعة أبواب ) أى أطلاق ، طبق فوق طبق ( لكل باب ) أى لكل طبقة ( منهم جزء مقسوم ) أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون القنوي قال : سمعت حطان ابن عبد الله الرقاشي يقول سمعت علياً رضي الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ ثلثاً : هي مثل أبوابنا . قال لا ، هي هكذا بعضها فوق بعض ، - زاد الطلي - ووضع إحدى يديه على الأخرى - وأن الله وضع الجنان على الأرض ، والثيران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها لظى ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية ، وكل باب أشد حراً من الذي يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدرجات ، وهي مختصة بالمصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي التي تخل من أهلها تنصفق الرياح أبوابها . ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . قال الضحاك : في الدرك الأعلى للمحمديين ، وفي الثاني النصارى ، وفي الثالث اليهود ، وفي الرابع الصابئون ، وفي الخامس المجوس ، وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » - وقد تقدم في النساء - ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ، وقال : « قَدْ يَكْفُرُ يَدُكُمْ فَإِنِّي أَعَذَّبُ عَذَاباً لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » . وقسم معاذ بن جبل رضي الله عنه العمل السوء من هذه الأمة تقسيماً على تلك الأبواب : ذكرناه في كتاب ( التذكرة ) . وروى الترمذي من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلجهم سبعة أبواب باب منها لظى سلق سيقه على أمي » قال : حديث غريب . وقال أبي بن كعب : بلجهم سبعة أبواب باب منها ضرورية . وقال وهب بن منبه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع ج ٥ ص ٢٢٤ طبعة أول أدفانية . (٢) آية ٢٦ - سورة طه . (٣) آية ١١٥ سورة المائدة . (٤) في كتاب الفرائد للقرطبي : « قال كعب رضي الله عنه : لشبه نور ، ولما قاتل الحمرورية عشرة أنول . وكان يقول : بلجهم سبعة أبواب ، باب منها ضرورية . قال : ولقد تروا في زمان داود عليه السلام » .



سنة، كل باب أشد حراً من الذي فوقه بسبعين ضعفاً وقد ذكرنا هنا كله في كتاب التذكرة  
وروى سلام الطويل عن أبي صفيان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم  
في قول الله تعالى : « لما سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء  
شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفقوا غيظهم  
بغضب الله، وجزء صبروا وغيظهم بحظهم من الله، وجزء عتوا على الله . ذكره الحلي  
أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) له، وقال : فإن كان ثابتاً للمشركون  
بالله هم التوبة . والشاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهاً أولاً إلا لهم، ويشكون في شريعته  
أنها من عنده أم لا . والنافلون عن الله هم الذين يحمدونه أصلاً ولا يشكونه، وهم الدهرية .  
والمؤثرون شهواتهم على الله هم المتهكمون في المعاصي ؛ لتكذيبهم رسل الله وأمره ونبيه .  
والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله ومائر الداعين إليه ، المذبذبون من يصح  
لهم أو ينهب غير مذهبهم . والمصبرون رغبهم بحظهم من الله هم المتكرون بالبحث والحساب ؛  
فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاتون على الله الذين لا يبالون ،  
بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً، فلا يتفكرون ولا يتوبون ولا يستدلون . والله أعلم بما  
أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . وروى أن سلمان الفارسي رضي الله عنه  
لما سمع هذه الآية « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » فتر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ،  
فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية  
« وإن جهنم لموعدهم أجمعين » ؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي ؛ فأزل الله تعالى  
« إن المتقين في جنات وعيون » . وقال بلال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي  
في مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله  
صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لما سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » فخرت  
الأعرابية منفيشاً عليها ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم وجبتها فانصرف ودعا بماء فصب



على وجهها حتى أفاقت وحلست ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا هذه مالك ؟ "   
 فقالت : أهذا شيء ممن كذب الله المتزل ، أو قوله من ثقاءه فسك ؟ قال : " يا أعرابية   
 هل هو من كتاب الله تعالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائي يذهب على كل باب   
 منها ؟ قال : " يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يذهب أهل كل منها على قدر   
 نعمانهم " فقالت : والله إنى امرأة مسكينة ، مائى مال ، ومائى إلا سبعة أعبد ، أشهدك   
 يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى . فأتاه   
 جبريل فقال : " يا رسول الله ، بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها وفتح   
 لها أبواب الجنة كلها " .

قوله تعالى : **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ** <sup>(١٥)</sup> **أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ**

**۝ آمِينَ ۝** <sup>(١٦)</sup>

قوله تعالى : **( إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ )** أى الذين اتقوا القواش والشر .   
**( فِي جَنَّاتٍ )** أى بساتين . **( وَعُيُونٍ )** هى الأنهار الأربعة : ماء ونحر ولبن وعسل . وأما   
 العيون المذكورة في صورة « الإنسان » : الكافور والزنجبيل والسلبيل ، وفى « المطففين » :   
 النسيم ، فيلقى ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عيون » على الأصل ، والكسر   
 مراعاة لليلة ، وقرئ بهما . **( أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ آمِينَ )** قراءة العامة « ادخلوها » بوصل   
 الألف وضم لتمامه من دخل يدخل ، على الأمر . تقديره : قيل لادخلوها . وقرأ الحسن   
 وأبو العلاء **صُورِي** عن يعقوب « ادخلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الحلة   
 على الفعل المجهول ، من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين في مثل   
 « برحمة أدخلوا الجنة » وشبهه ؛ إلا أنهم هاءنا اتقوا حركة الهمزة على التنوين ، إذ هى ألف   
 قطع ، ولكن فيه لتساك من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيقل على اللسان . **( بِسَلَامٍ )**   
 هى سلامة من كل دلعوافة . وقيل : بتجة من الله لهم . **( آمِينَ )** أى من الموت والعذاب   
 والعزل والزوال .



قوله تعالى : وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ﴿٥٨﴾

قال ابن عباس : أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عيان ، فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فينسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، ويجرى عليهم نضرة النعيم ، ونحوه عن علي رضي الله عنه . وقال علي بن الحسين : تزلت في أبي بكر وعمر وعلي والصحابة ، بنى ما كان بينهم في الجاهلية من الغل . والقول الأول أظهر ، يدل عليه سياق الآية . وقال علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلمة والزبير من هؤلاء . والغل : الخقد والعداوة ؛ يقال منه : غل يغل . ويقال من الغلول وهو السرقة من الغنم : غل يغل . ويقال من الخيانة : أغل يغسل . كما قال :  
جرى الله عنا حمزة بن نوفل • جرأه يغسل بالأمانة كاديب

وقد مضى هذا في آل عمران . (٢١) (إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابًا ، عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاعوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود . وسرر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع مهبط للسرور . والأول أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكدلة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صبيته إلى الجانية وما بين عدن إلى أيلة . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

(١) البيت للسريرين توب من آيات في أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن توب سيد قومه أغار على بني أسد فسي منهم امرأة منهم يقال لها « حمزة بنت نوفل » فوهبا لأخيه التمر ففرقتها فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً ، ثم قالت له في بعض أيامها : إني قد اشتقت إلى أهل ، فقال لها : إني أخاف أن صرت إلى أهلك أن تطلبني على نفسك فواتته لرجس إلي ، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .  
(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبع أول مرة ثانية . (٣) صفا . موضعان ، أحدهما بآمن وهي النطش ، وأخرى قرية بالقوفة . والجانية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . مأبلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (من صميم البلدان)



أَوْ مِنَ الْمَضْمَرِ « ادْخُلُوا » ، أَوْ مِنَ الْمَضْمَرِ « آمِينَ » ، أَوْ يَكُونُ حَالًا مُقَدَّرَةً مِنَ الْمَاءِ  
وَالْمِمْ فِي « صَدْرِهِمْ » . ( لَا يَسْمَعُهُمْ فِيمَا نَسَبُ ) أَيْ إِمَاءٌ وَتَعَبٌ . ( وَهَاتَمٌ مِنْهَا يُخْرِجِينَ )  
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ دَائِمٌ لَا يَزُولُ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا فِيهَا بِاقُونَ . أَكَلَهَا دَائِمٌ ، « إِنَّ هَذَا كَرِزْقُكَ  
مَا لَهُ مِنْ تَقَادُّرٍ » .

قوله تعالى : نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾ وَأَنَّ عَذَابِي  
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٧﴾

هَذِهِ الْآيَةُ وَزَانُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعِقَابِ مَا طَمَعَ  
بِحِجَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ " أَنْجَرَهُ مُسْلِمٌ مِنْ  
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْفَاتِحَةِ . وَهَكَذَا يُبْنَى لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَذْكُرَ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ  
فِيخْزِفُ وَيَرْجَى ، وَيَكُونُ الْخُوفُ فِي الصَّعَةِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُ فِي الْمَرَضِ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ  
أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى الصَّعَابَةِ وَهُمْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ : " أَنْضَحُكُمْ  
وَيَنْ أَيْدِيَكُمْ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ " فَشَقَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ . ذَكَرَهُ الْمَسَاوِدِيُّ وَالْمُهْدَوِيُّ .  
وَلَفْظُ التَّلَاقِ عَنْ ابْنِ عَرَفَةَ قَالَ : أَمْلَأَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ  
بَنُو شَيْبَةَ وَنَحْنُ نَضْحَكُ فَقَالَ : " مَا لَكُمْ تَضْحَكُونَ لَا أَرَأَيْتُمْ تَضْحَكُونَ " ثُمَّ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا كَانَ  
عِنْدَ الْخَيْمِ رَجَعَ الْقَهْقَرَى فَقَالَ لَنَا : " إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَقَالَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْطَلِقَ  
عِبَادِي مِنْ رَحْمَتِي « نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .  
فَالْقُرْطُبِيُّ إِسَاسٌ ، وَالرَّجَاءُ إِهْمَالٌ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا .

قوله تعالى : وَتَبَشِّرُهُمْ عَنْ ضَرِيفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا  
سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ  
عَلِيمٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ ابْتَزُّنِي صَلَّى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٦١﴾



قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ <sup>(١)</sup> ضَيْفُ إِبْرَاهِيمَ : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط . وقد تقدم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب ليكلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله إليك . وقد مضى من حكم الضيف في « هود » ما يكتفى والمحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث « حين تضيف الشمس للغروب » ، وضيفوفة السهم ؛ والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى سلموا سلاما . ﴿ قَالَ إِنَا مِنْكُمْ وَجِئْنَاكُمْ بِخَبَرٍ فَزَعُونِ خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرب العجل وإبراهيم لا يأكلون ، على ما تقدم في هود . وقيل : أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم ؛ قاله مقابل . وقال الجمهور ، عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُنَّ عَلَى أَنَّ مَسْنَى الْكِبَرِ ﴾ « أنف » مصدرة ؛ أى على مس الكبر إياي وزوجتي ، وقد تقدم في هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : « قِيمَ يُبَشِّرُونِ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجَل » بضم التاء . والأعمش « بشرعوني » بغير ألف ، ونافع وشيبة « يُبَشِّرُونِ » بكسر النون والتخفيف ؛ مثل « اتحاجوني » وقد تقدم تعليله . وقرأ ابن كثير وابن محيصن « يُبَشِّرُونِ » بكسر النون مشددة ، تقديره تبشرونني ، فأدغم النون في النون . الباقون « تبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لاخلف فيه ، وأن الولد لا بد منه . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد آيس من الولد لتسرط

(٢) راجع ج ٩ ص ٦٤ طبعه أول مرة .

(٤) راجع ج ٩ ص ٦٥ طبعه أول مرة .

(٦) طبعه ج ٧ ص ٧٧ طبعه أول مرة .

(١) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبعه أول مرة .

(٣) ضاف السهم ، ملك من الملقب أم الربية .

(٥) راجع ج ٩ ص ٦٩ طبعه أول مرة .



الكبر . وقراءة العامة « من القانطين » بالألف . وقرأ الأعشى ويحيى بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من « القانطين » . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنَطَ يَقْنَطُ ؛ مثل حذر يحذر . وفتح النون وكسرهما من « يقنط » لفتان قرئ بهما . وحكى فيه « يقنط » بالضم . ولم يأت فيه « قنط يقنط » . [و] من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللتين ، وأخذ في الماضي بلغة من قال : قَنَطَ يَقْنَطُ ، وفي المستقبل بلغة من قال : قَنَطَ يَقْنَطُ ؛ ذكره المهدوي .

قوله تعالى : قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

أى المكذبون الزاهبون عن طريق الصواب . يعنى ، أنه استعد الولد لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا نَتْلُو مِنْكُمْ إِلَّا قُورْآنًا مَجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَمْرًا نَقُدرْنَا إِنهَذَا لِنِ الْغَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

فيه ستان .

الأولى - لما علم أنهم ملائكة - إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالوالد - قال : فما نخطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فإنا أمركم وشأنكم وما الذى جثم به . ( قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجْرٍ مِجْرِمِينَ ) أى مشركين ضالين . وفي الكلام إضمار ؛ أى أرسلنا إلى قوم مجرمين لتهلكهم . ( إِلَّا آلَ لُوطٍ ) أتباعه وأهل دينه . ( إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ ) وقرأ حمزة والكسائي « لَمُنَجِّوهُمْ » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجي ، واختاره أبو سعيد وهو مطلق . والنتيجة والإجماع التخليص . ( إِلَّا أَمْرًا ) استثنى من تلك قوم لوط .



في « الأعراف » <sup>(١١)</sup> وسورة « هود » <sup>(١٢)</sup> بما فيه كفاية . ( قَدَرْنَا إِنَّمَا لَنَا الْقَارِنَ ) أى قضينا  
وكتبنا إنما لمن الباقين في العذاب . والغابر : الباقي .

قال :

لا تكسح الشول بأغبارها \* إنك لا تدري من الناج .

الأغبار غايا اللين . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرْنَا » بالتخفيف هنا وفي النمل ، وشدد  
الباقون . المروى : يقال قدر وقدر ، بمعنى .

الثانية - لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفي إثبات ومن  
الإثبات نفي ؛ فإذا قال رجل : له على عشرة دراهم إلا أربعة . إلا درهما ؛ ثبت الإقرار  
بسبعة ؛ لأن الدرهم مستثنى من الأربعة ، وهو مثبت لأنه مستثنى من منى ، وكانت الأربعة  
منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة ، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك  
لو قال : على خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثه ؛ كان عليه أربعة دراهم وثلاث . وكذلك إذا  
قال : لفلان على عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله ،  
والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها  
ثمانية عشر . والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان ،  
وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِهِ  
أَلَّ لُوطُ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا أمرأته » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال :  
« إلا أمرأته » فاستثناهما من آل لوط ، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا  
الحكم في الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا أثنين إلا واحدة طلقت اثنين ؛ لأن  
الأ واحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهى الثلاث . وكلما كل ما جاء من هذا فنفعه .

- (١) راجع ٧ ص ٢٤٣ طبة أول أرثانية . ٢ . (٢) راجع ٩ ص ٦٢ طبة أول أرثانية .  
(٣) القائل هو الخياط بن حذوة . والكسح : ضرب ضرب القاذرة بالمد البارد ليصف لنا رذاذ في ظهره فيكون  
القوى لما على الجذب في العام القابل . والشوك : جمع شاكس من الإبريق أى طية من حطبها أو من حطبها  
أشهرتف لبنا . والأغبار : جمع الغبر ، وهى بقية اللبن في الشرع . (٤) في قوله تعالى : « فَأَنبِئْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ عَادُونَ »



قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ( فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ) أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا غفاه عليهم من فئة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ( قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ) أى يشكون أنه نازل بهم ، وهو العذاب . ( وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ) أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ( وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) أى فى هلاكهم . ( فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ) تقدم فى هود . ( وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ) أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فينال العذاب . ( وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) نهبوا عن الالتفات ليجدوا فى السبيل ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجمهم الصبح . وقيل : المعنى لا يتخلف . ( وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ) قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صفد ، قرية من قرى لوط . وقد تقدم . وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليعين ، وإنما سمي اليعين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : " من ها هنا " وحده حنأ ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقا بذلك العذاب ، فلما لغت الأرض قال إبراهيم : " أيقنت بالله " فسمى اليعين .

قوله تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤١﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَرِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٤٢﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَوْلَىٰ نَهَكَ مِنَ الْعُلَاقِ ﴿٤٤﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٥) ناهى عن الإفشاء



قوله تعالى : ( وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ) أى أوحينا إلى لوط . ( ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ) نظيره « فَفُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ( مُصْبِحِينَ ) أى عند طلوع الصبح . وقد تقدم . ( وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ) أى أهل مدينة لوط ( يَسْتَبْشِرُونَ ) مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ( قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضَيْفِي ) أى أضيافى ، ( فَلَا تَفْضَحُونِ ) أى تخجلون . ( وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ) يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزياء وهو الحياء والخجل . وقد تقدم فى هود . ( قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْمَالَيْنِ ) أى عن أن تضيف أحدا لانا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرابة ؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف . وقيل : أولم تنهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ( قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) أى قروءوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدم بيان هذا فى هود .

قوله تعالى : لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَكَاغِبٌ لِّى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى : قال المفسرون : أقمهم الله تعالى ما هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جل جلاله بحياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقاتك يا محمد . وقيل وبقاتك . وهذا نهاية العظم غاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : وما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

- |                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| (١) راجع ج ٦ ص ٢٢٧ طبة أدل أدلة | (٢) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبة أدل أدلة |
| (٣) راجع ج ٧ ص ٢٥٥ طبة أدل أدلة | (٤) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبة أدل أدلة |



ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتي ضعفيه من شرف لمحله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخليل وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط لحياة عهد أرفخ . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يخرج له ذكر لغير ضرورة .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة عهد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا في قصة لوط . قال الفشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أي كانوا في سكرتهم يعمهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بناتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحل بهم صباحا . فإن قيل : فقد أقسم تعالى بالتيث والزيتون وطور سينين ؛ لما في هذا ؟ قيل له : ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداه، فكذلك نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداه . والعمر والعمر (بضم العين وتفتحها) لفتان ومعناها واحد ؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عمرك الله، أي أسأل الله تعمرك . و « لعمرك » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك مع أقسم به .

الثانية - كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال لإبراهيم النخعي : يكره للرجل أن يقول لعمرى ؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤثنين يقسمون بحياتكم وميتكم، وليس من كلام أهل القرآن، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المتلة والزفة لمكانه ، فلا يحل عليه سواه ولا يستعمل في غيره . وقال ابن حبيب : يشنى أن يُصرف لعمرك في الكلام لهذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربي : حبه أقول لكن الشرح قد قطعه في الاستعمال ورد القسم إليه .

قلت : القسم لعمرك ولعمرى ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .



لَقَمَرِي وَمَا تَحْمِلُنِي عَلَىٰ جَهَنَّمَ • لَقَدْ نَفَقْتُ بَطْلًا عَلَى الْأَفَارِعِ

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى • لَكَاطُولُ الْمُرْتَمَى وَثِيَاءَ بِالْيَدِ<sup>٢١</sup>

أَيُّهَا الْمُنْعَكِ الْغُرْبَا سَهِيلاً • عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْقَانِ

إِذَا رَضِيتَ عَلَى بَنِي قَشِيرٍ • لَعَمْرُ اللَّهِ أَجَبْنِي رِضَاهَا

• ذکرہ الزہراء اوی •

وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أفسم بالنبي صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة. قال أبو

إنها يمين تتعلق بها كفاارة ، إلا أنه من قصد الكذب كان معلوما ، لأنه في الباطن مستخف بما

بِحَيَاةِ نَبِيِّهِ فَإِنَّمَا أَرَادَ بَيَانُ التَّصَرُّحِ لَنَا أَنَّهُ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَخْلُفَ بِحَيَاتِهِ ، وَعَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ

هَوَىٰ « وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا » « لَا أَقِيمُ هَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلُّ هَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدُ مَا وَلَدَ »

وخالق عيشك وحياتك، وحق محمد؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق.. قال

(١) لواء الأفاع: من لوائح عرف، وكأولها كوكبا إلى الشمال. (٢) قبلة القرة: في القبة.

والطول : الحليل . وقناه : ما في مـ



يَا بَنِيكُمْ" وقال : إنما نهي عن الحلف بالإباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم :  
 " ليجل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية " . وما لك حل الحديث على ظاهره .  
 قال ابن خزيمة مناد : واستدل أيضا من جوز ذلك بأن إيمان المسلمين جرت منذ عهد  
 النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى أن أهل  
 المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال : احلف لي بحق ما حواه هذا القبر ،  
 وبحق ساكن هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالجرم والمشاعر العظام ،  
 والركن والمقام والمحراب وما يئتل فيه .

قوله تعالى : فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٦﴾ جَعَلْنَا عَلَيْهَا مَابِلًا  
 وَآمَظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِّنْ يَّجِيلٍ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ) نصب على الحال ، أي وقت شروق  
 الشمس . يقال : أشرقت الشمس أي أضاءت ، وشرقت إذا طلعت . وقيل : هما لتنازع  
 يعني . وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو  
 المراد في الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أول العذاب كان عند الصبح وامتد إلى  
 شروق الشمس ، فكان تمام الملاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب .  
 وتقدم ذكر « يجيل » .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٨﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى - قوله تعالى : ( لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ) روى الترمذي الحكيم في ( تواتر الأصول ) من  
 حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المتوسمين » وهو  
 قول مجاهد . وروى أبو جيسى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم : ( المتوسمين )



عليه وسلم : " اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ - ثُمَّ قَرَأَ - « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » " . قال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ . وَقَالَ مِقَاتٌ وَأَبْنُ زَيْدٍ : لِلتَّوَسِّمِينَ لِّلْفَكْرَيْنِ .<sup>(١)</sup>  
الضَّحَّاكُ : لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَوْكَلْنَا وَرَدَّتْ عَكَظًا قَبِيلُهُ • بَعَثُوا إِلَى عَرَبَقَهُمْ يَتَوَسَّمُ

وَقَالَ قَتَادَةُ : لِّلْمُعْتَبِرِينَ . قَالَ زُهَيْرٌ :

وَفِيهِنَّ مَلَأَى لِّلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ • أُنْبِئُ لَعِينِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لِلتَّبَصُّرِينَ ، وَالْمَعْنَى مُتَفَارِبٌ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَابِدَا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ " . قَالَ الْعُلَمَاءُ : التَّوَسُّمُ تَفَعُّلٌ مِنَ التَّوَسَّمَ ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي يَسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَطْلُوبٍ غَيْرِهَا . يَقَالُ : تَوَسَّمتُ فِيهِ الْخَلِيرَ إِذَا رَأَيْتَ مِيسَمَ ذَلِكَ فِيهِ . وَمِنْهُ قَوْلُ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إِنِّي تَوَسَّمتُ فِيكَ الْخَلِيرَ أَعْرِفْهُ • وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ

آخِرُ :

تَوَسَّمتُهُ لَأَ رَأَيْتَ مِهَابَهُ • عَلَيْهِ وَقَلَّتِ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وَاتَّسَمَ الرَّجُلُ إِذَا جَعَلَ لِنَفْسِهِ عِلَامَةً يُعْرِفُ بِهَا ، وَتَوَسَّمَ الرَّجُلُ طَلَبَ كَلَاءِ التَّوَسِّمِ • وَاتَّسَدَ :  
وَأَصْبَحَنَ كَالدَّوْمِ النَّوَائِمِ غُدُوَّةً • عَلَى وَجْهِهِ مِنْ ظُلْمَانِ مُتَوَسِّمٍ

وَقَالَ ثَعْلَبٌ : الرَّاسِمُ النَّاظِرُ إِلَيْكَ مِنْ فَرَقِكَ إِلَى قَدَمِكَ . وَأَصْلُ التَّوَسُّمِ التَّنَبُّهُ وَالتَّفَكُّرُ ؛  
مَأْخُذٌ مِنَ التَّوَسُّمِ وَهُوَ التَّأْنِيفُ بِمُحْدِدَةٍ فِي جِلْدِ الْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ وَحِدَةٍ  
الْخَاطِرِ وَصَفَاءِ الْفِكْرِ . زَادَ غَيْرُهُ : وَتَفْرِيقُ الْقَلْبِ مِنْ حُشْوِ الدُّنْيَا ، وَتَطْهِيرُهُ مِنْ أَدْنَاسٍ  
لِلْمَعَاصِي وَكَدَوْرَةِ الْأَخْلَاقِ وَفُضُولِ الدُّنْيَا . رَوَى تَهَشُّلٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « لِلتَّوَسِّمِينَ » قَالَ :  
لِأَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْخَلِيرِ . وَزَعَمَتِ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا كِرَامَةٌ . وَقِيلَ : يَلْ هِيَ اسْتِدْلَالُ بِالْعَلَامَاتِ ؛

(١) هو طريف بن تميم البصري (من شواهد سيوري) .



ومن العلامات ما يبدو ظاهر لكل أحد وبأول نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببدي النظر. قال الحسن: المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعملون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار؛ فهذا من الدلائل الظاهرة. ومثله قول ابن عباس: ما سألتني أحد عن شيء إلا عرفت أفيقه هو أو غير فيقه. وروى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بقاء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارا، وقال الآخر: بل حدادا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارا وأنا اليوم حداد. وروى عن جندب بن عبد الله البجلي أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به. قلنا له: كأنك عرفت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حُرُورِيًّا؛ فكان رأس الحُرُورِيَّة، واسمه مرداس. وروى من الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن حيد فقال: هذا سيد فتان البصرة إن لم يُحَدِّث، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى حجره نامة إخوانه. وقال لأيوب: هذا سيد فتان أهل البصرة، ولم يستش. وروى عن الشعبي أنه قال لملود الأزدى وهو يماريه: إنك لا تموت حتى تُكَوَّى في رأسك، وكان كذلك. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مذبح فيهم الأشتر، فصعد فيه النظر وصوبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث. فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للساميين منه يوما عصيبا؛ فكان منه في الجنة ما كان. وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مرَّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان: يدخل أحدكم على وفي جيبه أثر الزنى! فقال له أنس: أوتجأ بقد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال لا! ولكن برهان وفراسة وصدق. ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين.

الثانية - قال أبو بكر بن العربي: «إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مظاهر المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس. وقد كان قاضي القضاة الناسي للملكي يفتد أيام كوني بالثام يحكم بالقراسة في الأحكام، تجرياً على طريق إياس



ابن معاوية أيام كان قاضياً ، وكان شيخنا نضر الإسلام أبو بكر الشافعي صنف جزءاً في الردة عليه ، كتبه لي بخطه وأعطانيه ، وذلك صحيح ، فإن ملأناك الأحكام معلومة شرطاً مدركة قطعاً وإستيفراً منها .

قوله تعالى : وَإِنَّمَا لَيْسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِبِينَ ﴿٨٠﴾ فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لَيْسَامٌ مِّمَّنْ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ( وَإِنَّمَا ) بمعنى قرى قوم لوط . ( لَيْسِيلٌ مُّقِيمٌ ) أى على طريق قومك يا أحمد إلى الشام . ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ) أى لعلبة للصدقين . ( وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِبِينَ ) يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غياض وورايض وشجر مثمر . والأَيْكَةُ : الفَيْضَةُ ، وهى جماعة للشجر ، واجمع الأَيْكُ . وروى أن نجرهم كان قوماً وهو المقل . قال النابغة :

تَجَلَّوْا بِقَادٍ مَّتَى حَامَةِ أَيْكَةٍ • بَرَدًا أَسْفَ لِنَاتِهِ بِالْإِنْمَةِ

وقيل : الأَيْكَةُ اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأَيْكَةُ وَلَيْكَةُ مدينتهم بمكة من مكة . وتقدم خبر شعيب وقومه . ( وَإِنَّمَا لَيْسَامٌ مِّمَّنْ ) أى بطريق واضح فى نفسه ، بمعنى مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأَيْكَةِ يتنبرها من يتر عليها .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٢﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام ، قال الله تعالى : « وَحِجْرًا مَّحْجُورًا » أى حراماً محرماً . والحجر العقل ، قال الله تعالى : « لَدَى حِجْرِ » والحجر حجر القميص ، والحجر أفسح . والحجر الفرس الأثني . والحجر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ، أى المدينة .



قاله الأزهري . قتادة : وهي ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادي الذي فيه نمود . الطبري : هي أرض بين الحجاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ( الْمُرْسَلِينَ ) وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد في الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحاً ومن تبعه ومن تقدمه من النبيين أيضاً . والله أعلم . وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل المجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجننا وأستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفي الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجر أرض نمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبريقوا ما استقوا ويملفوا الإبل للعجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي ردها الناقة . وروى أيضاً عن ابن عمر قال : صرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم " ثم زبر فأسرع .

قلت : وفي هذه الآية التي بين الشارح حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء واختلف في بعضها الفقهاء ، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا أرض بابل فإنها مملونة " .

مسئلة : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر نمود وإلقاء ما عجن وخبره لأجل أنه ماء سخط ، فلم يحز الانتفاع به فراراً من سخط الله . وقال " اعلفوه الإبل " .



قلت : وهكذا حكم الماء النجس ولما عجن به .. وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلقه الإبل والبهايم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه بعلقه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلق ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الخمر الإنسانية يوم خيبر ؛ فدل على أن لحم الخمر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الجمام أن يعلق الناسخ<sup>(١)</sup> والرفيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تجنيس . قال الشافعي : ولو كان حراما لم يأمره أن يطعمه رقيقه ؛ لأنه متعبد فيه كما تعبد في نفسه . ورابعها — أمره صلى الله عليه وسلم بعلق الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه لياكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن بقادت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأول دليل على بنض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجادات ضرر مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبيب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثير :

أحب لحبها السودان حتى • أحب لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمر على الديار ديار ليل • أقلل إذا الجدار إذا الجدار

وما تلك الديار شغف قلبي • ولكن حب من سكن الديار

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار مخطف وبقعة غضب . قال ابن العربي : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناسخ : المبر يستق عليه . (٢) . الرواية المنهدة : « وما حب الديار » . والبيان لحنون ليلي .

لراجع نهاية الأدب في الشاهد للشمس بن عبد الملتين .



فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى في سبع مواطن : فى المَزْبَلَةِ والمُحْزَرَةِ والمَقْبَرَةِ وقَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وفى الحمام وفى معادن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مرثد وجابر وأنس : حديث ابن عمر استأذنه ليس بذلك القوي ، وقد نُكِّلَ فى زيد بن جُبيرة من قَبْلِ حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المنصوبة والكنيسة والبيعة والبيت الذى فيه تمائيل ، والأرض المنصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائما أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هذه المواضع ما مُنع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لطلبها ؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه نوب طاهر كالخام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة يخط كالبحر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلى فى أعطان الإبل وإن فرش نوبا ؛ كانه رأى لما عتلتين : الاستئثار بها وفقارها ففسد على المصلى صلاته ، وإن كانت واحدة فلا بأس ؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلى على بساط فيه تمائيل إلا من ضرورة . وكره لغير القاصم الصلاة إلى القبلة فيها تمائيل ، وفى الدار المنصوبة ، فإن فعل أجهل . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المنصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عندي بخلاف الأرض فإن النفل لا تدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمة لا يطلها المملك .

قلت : الصحيح - والله أعلم - الذى يدل على النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا واد به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهري فقال : وأخرجوا عن الموضع الذى أصابكم فيه النفلة . وقول حلق : نهائى وسوء لله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقوله عليه

(د) فى الحديث : « لأننا نستر ما حولنا بالباطل » فلا تكاد تسلم بياضها من النجاسة .

(هـ) هى واحدة .



السلام حين مرّ - ياخجر من تمسود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين " ونبه عن الصلاة في معادن الإبل إلى غير ذلك مما في هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح بجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متبقية تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من أعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ما روى في هذا الباب من التنبى عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لمعوم قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض كلها مسجدا وطهورا " ، وقوله صلى الله عليه وسلم غبرا : إن ذلك من فضائله ومما خصّ به ، وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صلى الله عليه وسلم : " أوتيت خمسا - وقد روى ستا ، وقد روى ثلاثا وأربعا ، وهى تنهى لى أزيه من تسع ، قال فيمن - " لم يؤمن أحد قبلى بعثت لى الأحمر والأسود ونصرت بالرعب وجعلت أسمى خير الأمم وأجملت لى النعام وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت الشفاعة وبعثت بموامع الحكيم وبيننا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يمنى وأعطيتهم الكوثر وخيم لى النبون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها ، وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها للقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيا ثم كان نبيا قبل أن يكون رسولا ، وكذلك روى عنه . وقاله : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ، فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقول أحدكم لنا خير من يونس بن مئ " وقال : " السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا نغفر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل



تردد إلى أن قبضه الله ، فن حاشا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ والاستثناء ولا القصاص ،  
وجاز فيها الزيادة . وقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " .  
أحرزا الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الإنجاس .  
وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : " حينما أدركك الصلاة فصل فإن الأرض كلها مسجد " .  
ذكره البخاري ولم يخص موضعا من موضع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال :  
أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيعة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث  
الترمذي الذي ذكرناه فهو حديث أفراد به زيد بن جبيعة وأنكره عليه ، ولا يعرف هذا  
الحديث مستندا لإرواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جبيعة . وقد كتب الليث بن سعد  
إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع  
لا أعلم من حدث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحلواني عن سعيد بن أبي مرزوق  
عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد روى عن علي بن أبي طالب  
قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن أصل في المقبرة ، ونهى أن أصل في أرض بابل  
فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذي رواه عن علي هو سعيد  
ابن عبد الرحمن النخعي ، بصري ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن علي ، ومن دونه  
مجهولون لا يعرفون . قال أبو عمر : وفي الباب عن علي من قوله غير مرفوع حديث  
حسن الإسناد ، رواه الفضل بن ذكوان قال : حدثنا المغيرة بن أبي الحزأ الكندي قال حدثني  
أبو النخعي شجر بن عنبس قال : خرجنا مع علي إلى الحورية ، فلما جاوزنا سودبا وقع  
بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أسيئت ، الصلاة الصلاة ، فإني إن بكلم أحدا .  
قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أسيئت . قال علي ، ولكن لا أصل في أرض خسف الله بها .  
والكفيع بن أبي الحزأ كوفي ثقة ، قاله يحيى بن معين وغيره . وشجر بن عنبس من كبار أصحابه  
علي . وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
" للأرض كلها مسجد إلا للمقبرة والحمام " . قال الترمذي : رواه سفيان الثوري عن عمرو بن



يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمرو :  
 قسقط الاحتجاج به عند من لا يرى للرسل حجة ، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولما  
 قول كما قال بعض المتأولين لمذهب المدنيين : إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها  
 مقبرة المشركين خاصة ، فإنه قال : المقبرة والحمام بالآلف واللام ؛ فغير جائز أن يرد ذلك إلى مقبرة  
 دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة  
 ولا خبر صحيح ، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول ، ولا دلّ عليه غوى الخطاب ولا خرج  
 عليه الخبر . ولا يتخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من  
 أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم  
 فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما  
 لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة مخطّ ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم يبني مسجده في مقبرة المشركين وينشئها ويسويها ويبني عليها ، ولو جاز لقاتل  
 أن ينخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من  
 أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة في المقبرة لم ينخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الآلف  
 واللام إشارة إلى الجنس لا إلى المهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لينة  
 صلى الله عليه وسلم ولم يحمله ؛ لأنه بحث ميتًا . ولو ساء بلأهل أن يقول : مقبرة كنا بطائر  
 لأننا أن يقول : حمام كنا ؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزة  
 والمجزرة ؛ غير جائز أن يقال : مزيله كنا ولا مجزرة كنا ولا طريق كنا ؛ لأن التحكم في دين  
 لله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبًا طاهرًا تنظيفًا جائزًا .  
 وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كيسة أو ربيعة على موضع طاهر ، أن صلاه ماضية جائزة .  
 وقد تقدم هذا في سورة « براءة » . ومعلوم أن الكيسة أقرب إلى أن تكون بقعة مخطّ من المقبرة ؛



لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة . وقد وردت السنة باتخاذ البيع  
والكنائس مساجد . روى للنسائي عن طلق بن علي قال : خرجنا وتسلنا إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فابعدناه وصلينا معه ، وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا  
أتيتكم أرضكم فأكسروا بيعكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص  
أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقد  
تقدم في « براءة » . وحسبك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى مبنيا  
في مقبرة المشركين ، وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها . ومن كره الصلاة في المقبرة سواء  
كانت لمسلمين أو مشركين التورى وأبو حنيفة والأوزاعي والشافعي وأصحابهم . وعند  
التورى لا يبعد . وعند الشافعي أجزاء إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة ؛ للأحاديث  
المعلومة في ذلك ، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صنوا في بيوتكم  
ولا تغزوها قبورا " ، ولحديث أبي هريرة العنوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
" لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة  
فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل  
لا يحتمل تأويلا ، ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه  
من خطأ القول الذي لا يستغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

وثالثها من الخائض ياق فيه التثنية والعدرة ليكرم فلا يصلى فيه حتى يسقى ثلاث مرات ،  
كما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخائض ياق فيه  
العدرة والتثنية قال : " إذا سقى ثلاث مرات فصل فيه " . وخرجه أيضا من حديث نافع عن  
ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطة التي تاتي فيها العذرات وهذا الزبل ، أيصلى فيها ؟ فقال :  
إذا سقيت ثلاث مرات فصل فيها . رُفِعَ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . اختلفا  
في الإسناد ، والله أعلم .

(٤) هكذا في الأصول . ويلاحظ أنه في تقدم السابعة ذكر .



قوله تعالى : وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ( وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا ) أى آياتنا . كقوله : « آتَيْنَا غَدَامَنَا » أى غداثنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمة : نروجها من الصخرة ، ودُّوَتْناجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة . كالبر وغيره . ( فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ) أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : وَكَانُوا يَخْتُونُ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ

الصَّبِيحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

النحت في كلام العرب : البرى والنجر . نحت يحنه ( بالكسر ) نحا أى براه . والثناء البراية : والمنح ما يحن به . وفى التزيل « أَسْبَدُونَ مَا يَخْتُونُ » أى تجرون وتصنمون . فكانوا يختنون من الجبال بيوتا لأنفسهم شدة قوتهم . ( آمين ) أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمين من الموت . وقيل : من العذاب . ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّبِيحَةَ مُصْبِحِينَ ) أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصبيحة فى هود والأعراف . ( فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) من الأموال والحصون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ ۖ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلِيقُ

الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

(١) آية ٦٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع ٩٠ ص ٦١ وج ٧ ص ٢٤٢ طبة أمه وناية .



قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والقضاء .  
 وقيل ، أى لأجازى الحسن والمسيء ؛ كما قال : « وَبَقِيَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ » . ( وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ) أى  
 لكائنة فيجزى كل بعمله . ( فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ) مثل « وَأَعْرَضْ عَمَّا يُجْرَىٰ جِيلًا » (١) أى تجاوز  
 عنهم يا محمد ، وأعف عفواً حسناً ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « نَحْنُ دَوْمٌ  
 وَأَقْلَوُكُمْ حَيْثُ تَقْتَتُمُوهُمْ » . ( وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ : « لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْبَيْتِ  
 وَبُعِثْتُ بِالْحَصَادِ وَلَمْ أَبْعَثْ بِالزَّرَاعَةِ » ) قاله عكرمة ويجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ ، وأنه أمر  
 بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ( إِنَّ  
 بِكَ هُوَ الْخَلْقَ ) أى المقدر للخلق والخلق . ( الْعَلِيمُ ) بأهل الوفاق والفاق .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ (٢٧)

اختلف العلماء في السبع المثاني ؛ فقيل : الفاتحة ؛ قاله علي بن أبي طالب وأبو هريرة  
 والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه  
 ثابتة ، من حديث أبي بن كعب وأبي سعيد بن الملق . وقد تقدم في تفسير الفاتحة . وخرج  
 الترمذي عن حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم  
 القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص ، وقد  
 تقدم في الفاتحة . وقال الشاعر :

نشدتك بتمت القرآن • أم الكتاب السبع من مثاني

وقال ابن عباس : هي السبع الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،  
 والأنعام ، والأعراف ، والأففال والتوبة معاً ؛ إذ ليس بينهما التسمية . وروى النسائي

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة الشاء .

(٤) كذا في الأصول وتفسير القاري . وفي كتاب الجامع الصغير : « بالهاء » . (٥) كذا في الأصول .

(٦) راجع ج ١ ص ٥٠ - طبعة ثانية أرتالة



حدثنا علي بن مجمر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطُول، وسُميت مثنائي لأن العبر والأحكام والحدود تُثبت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بجملة ، ولم ينزل من الطُول شيء إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوماً ، فأنزله إلى السماء الدنيا فكأنما أتاه محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل عليه بعد . ومن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله القرزق حين يُمسي • مُضِيعاً <sup>(١)</sup> لِلْفَصْلِ وَالْمَثَانِي

وقيل : المثنائي القرآن كله ؛ قال الله تعالى : « كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي » . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس . وقيل له مثنائي لأن الأنبياء والقصص تُثبت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نوراً ساطعاً يهتدى به • يُخَصُّ بِتَرْجِيلِ الْقُرْآنِ الْمُعْظَمِ

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثنائي أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعدد نعم وأنباء قرون ؛ قاله زياد بن أبي مريم . والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثنائي ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ؛ إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده . قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إصغار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدم في الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعاً من المثنائي القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى الملك القصرم وابن الممام • وليت الكتيبة في المُرْدَمِ

وقد تقدم عند قوله : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » <sup>(٢)</sup> .



قوله تعالى : لَا تَحْدُثْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ  
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِّضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾  
فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْدُثْ عَيْنُكَ ﴾ المعنى : قد أغْنَيْتُكَ بِالْقُرْآنِ عما في أيدي  
الناس ، فإنه ليس منا من لم يتغنَّ بِالْقُرْآنِ ، أى ليس منا من رأى أنه ليس يتغنى بما عنده  
من القرآن حتى يضح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وفى سبع  
قوافل من البصري وأذرعَات ليهود فربطة والنضير في يوم واحد ، فيها البر والطيب والجوهر  
وامتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها وأنفقناها في سبيل الله ،  
فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني » أى فهمي خبر لكم من القوافل السبع ، فلا  
تحدن أعينكم إليها . وإني هذا صار ابن عيينة ، وأورد قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغنَّ  
بالقرآن » أى من لم يستغن به . وقد تقدم هذا المعنى في أول الكتاب . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا  
مِنْهُمْ ﴾ أى أمثالا في النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض في النعم ، فهم أزواج .

الثانية - هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال  
العد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَحْدُثْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ بِهِ » الآية . وليس كذلك ، فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« حُبُّ إِلَى مَنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالضُّبَابُ وَجُعَلَتْ قُوَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . وكان عليه الصلاة  
والسلام يشاغل بالنساء ، جيلة الآدمية وتشوف الحلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ،  
ولا تنزله عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أخرى من ذلك وأولى .  
ولم يكن في دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان في دين عيسى ،

(١) راجع ١٠ ص ٥٢ طبة ثالثة أدتانه . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا في سنن  
الشيخ ومسنن الإمام أحمد . وفى في الأصول : « حب إلى من دنياكم ثلاث » طه « وبكفة » ثلاث  
لا يستقيم الكلام .



وإنما شرع الله سبحانه حنيفة ممتعة خالصة من الحرج خفيفة على الآدمي ، يأخذ من الآدمية بشهوئها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانتكاف من اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى ، لما قلب على الدنيا من الحرام ، وأضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانمة من تحزم مصانمته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ” يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن “ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيل : المعنى لا تحزن على ما متوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه . وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب . ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن جأنيك لمن آمن بك وتواضع لهم . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرسخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه « وَأَضْمُّهُمْ بِذَلِكَ إِلَى جَنَاحِكَ » وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحبك نية لزمي قوم • يمد على أني سقم جأحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعالى : وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى

الْمُقْسِمِينَ ﴿١٢﴾

في الكلام حذف ؛ أى إني أنا النذير المبين مذابا ، لحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال في موضع آخر : « أَنذَرْتُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وقيل : الكاف زائدة ، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقسمين ؛ كقوله : « لَيْسَ كَيْتِلُهُ شَيْءٌ » . وقيل : أنذرتكم



مثل ما أنزلنا بالمقسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فأصدق بما أقوم وأعرض عن المشركين الذين بقوا ، فإنا كفيناك أولئك الرضاء للذين كنت تظن منهم ما تلقى .

وأختلف في « الْمُقْسِمِينَ » على أقوال مسبعة : الأول - قال مقاتل والفسراء : هم ستة عشر رجلا بينهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فأقسموا أعقاب مكة وأقاربها وبناجها يقولون لمن سلكتها : لا تقربوا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن . وثموا المقسمين لأنهم اقسموا هذه الطرق ، فأتمهم الله شريرة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكا على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى - قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، وبعضه عمرا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . الثالث - قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وثموا مقسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس - قال قتادة : قسموا كتابهم ففترقوه وبدعوه وحرفوه . السادس - قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، فاقسموا على قتله فقسموا مقسمين ، كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » . السابع - قال الأخفش : هم قوم اقسموا أيماناً تعالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وحبشة وشيبة أبناء ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبه ابن الجراح ، ذكره الماوردى .

قوله تعالى : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١١﴾

هذه صفة المقسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألتهم » . وواحد العيدين عضة ، من عضيبت الشيء تضعب أى فرقته ، وكل فرقة عضة . وقال بعضهم : كانت فى الأصل



عِصْوَةً فَتَقَصَّتِ الْوَاوُ ، وَلِذَلِكَ جُمِعَتْ عَضِيضٌ ، كَمَا قَالُوا : يَمِيزِينَ فِي جَمْعِ عِزَّةٍ ، وَالْأَصْلُ مِنْ  
عِزْرَةٍ . وَكَذَلِكَ ثُبْنَةٌ وَثْنِينَ . وَيَرْجِعُ الْمَعْنَى إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْمُتَقَسِّمِينَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :  
آمَنُوا بَعْضُ وَكَفَرُوا بَعْضُ . وَقِيلَ : تَزَقُّوا أَفْأَوِيلَهُمْ فِيهِ بِغُلُوهُ كَذِبًا وَبَحْرًا وَكِهَانَةً وَشَعْرًا .  
عَضْوَتُهُ أَيْ فَرْقَتُهُ . قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ رُؤْبَةُ — :

• وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمُعْضَى •

أَيْ بِالْمُفْرَقِ . وَيُقَالُ : تَقَصَّاهُ الْمَاءُ وَأَصْلُهُ عَصَبَةٌ ، لِأَنَّ الْعِصَّةَ وَالْعِضِيضَ فِي لَفْظٍ قَرِيبٍ  
السَّحَرِ . وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْسَّاحِرِ : عَاضِيهِ وَلِلْسَّاحِرَةِ عَاضِيَةٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْبَاطِلِ • يَتِي فِي عَقْدِ الْعَاضِيَةِ الْمُعْضَى

وَفِي الْحَدِيثِ : لَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَاضِيَةَ وَالْمُسْتَعِضَّةَ ، وَقَسَرَ : السَّاحِرَةَ  
وَالْمُسْتَحِيرَةَ . وَالْمَعْنَى : أَكْثَرُوا الْبُهْتَ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَوَعَّوْا الْكُذْبَ فِيهِ ، فَقَالُوا : سَحَرُ وَأَسَاطِيرُ  
الْأَوَّلِينَ ، وَأَنَّهُ مَفْتَرَى ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . وَظَنِيَ عِصَّةً فِي التَّقْصَانِ شَفْهُ ، وَالْأَصْلُ شَفْهُةٌ ، كَمَا  
قَالُوا : سَنَةٌ ، وَالْأَصْلُ سَنَةٌ ، فَتَقَصَّوْا الْمَاءَ الْأَصْلِيَّ وَأَثَبَتْ هَاءُ الْعَلَامَةِ وَهِيَ لِلتَّائِيثِ .  
وَقِيلَ : هُوَ مِنَ الْعِصَّةِ وَهِيَ التَّخِيمَةُ . وَالْعِصِيَّةُ الْبَهْتَانُ ، وَهُوَ أَنَّ عِصَّةَ الْإِنْسَانِ يَقُولُ فِيهِ  
مَا لَيْسَ فِيهِ . بِقَالَ عِصْمَةُ عَصْبًا رَمَاهُ بِالْبَهْتَانِ . وَقَدْ أَعْضَتْهُ أَيْ جَثَّتْ بِالْبَهْتَانِ . قَالَ  
الْكِسَائِيُّ : الْعِصَّةُ الْكُذْبُ وَالْبَهْتَانُ ، وَجَمْعُهَا عِضْوَنٌ ، مِثْلُ عِزَّةٍ وَعِزْوَنٌ ، قَالَ تَمَالِي :  
• الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِيضًا • . وَيُقَالُ : عَصَّوهُ أَيْ آمَنُوا بِمَا أَحْبَبُوا مِنْهُ وَكَفَرُوا بِالْبَاقِي ،  
فَاجْتَبَطَ كُفْرَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ . وَكَانَ الْفَرَاءُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ مَأْخُذٌ مِنَ الْعِصَاةِ ، وَهِيَ شَجَرُ الْوَادِي  
وَيُخْرِجُ كَالشُّوكِ .

قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ لَنَسْأَلُنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَرَى ذِكْرُهُمْ عَمَّا  
عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا . وَفِي الْبَحَارِيِّ : وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ  
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .



قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذي الحكيم قال : حدثنا الجارود بن مصاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نبيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « فوريك لنساءنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : « من قول لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عندنا من صدق لا إله إلا الله ووفائها ، وذلك أن الله تعالى ذكر في ترتيبه العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المتي به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعمل عملٌ . وإما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا إله إلا الله » أي من الوفاء بها والصدق لمفاتها . كما قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتعمل ولا الدين بالتقوى ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال لا إله إلا الله خلصا دخل الجنة » قيل : يا رسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله » . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عهد إلى آلا يأتني أحد من أتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت له الجنة » قالوا : يا رسول الله ، وما الذي يخلط بلا إله إلا الله ؟ قال : « حرصا على الدنيا وجمعها لها ومنعها لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة » . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله تمنع العباد من تخطئ الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإنما أثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ركت عليهم وقال الله كذبتم » . أمايندها في نواذر الأصول .

قلت : والآية بجموعها تدل على سؤال الجميع ومحاسنتهم كافرين ومؤمنين ، إلا من دخل الجنة بغير حساب هل ما يناه في كتاب ( التذكرة ) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب ؟ قلنا : فيه خلاف ، وقد كراه في التذكرة . والذي يظهر سؤاله ، والآية وقوله : « وَفَقَوْمٌ مِنْهُمْ مَسْئُولُونَ » وقوله : « إِنَّ إِلَهًا لَرَأَاهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ حِسَابَهُمْ » . فإن قيل : فقد قال تعالى :



« وَلَا يُسَالُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » <sup>(١)</sup> وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسَالُّ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْشٍ وَلَا جَانٌ » <sup>(٢)</sup>  
 وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » <sup>(٣)</sup> ، وقال : « إِنْهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ » <sup>(٤)</sup> . قلنا : القيامة  
 مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة  
 مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار  
 واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تفرغ وتوبيخ  
 فيقول لهم : لم عصيت القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قُطْرُبُ هذا القول . وقيل : « لنسألهم  
 أجمعين » <sup>(٥)</sup> ، يعنى المؤمنين المكلفين ؛ بياؤه قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ » . والقول  
 بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٥﴾  
 إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ( فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ ) أى بالذى تؤمر به ، أى بفتح رسالة الله جميع الخلق  
 لتقوم الحججة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدع القوم أى تفرقوا ،  
 ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ » <sup>(١)</sup> أى يتفرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع  
 الفرق والشق . قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأنته :

وكانت رِبَابَةً وَكَانَهُ يَسْرُ \* يُفِيضُ عَلَى الْفِدْلِاحِ وَيَصْدَعُ <sup>(٢)</sup>

أى يفرق ويشق . فقوله : « أَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » قال القرطبي : أراد فأصدع بالأمر ،  
 أى أظهر دينك ، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع  
 بما تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فأصدع بما تؤمر » أى فزق جمعهم وكلتهم بأن تدعوم  
 إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ، فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

(١) آية ٧٨ سورة القصص . (٢) آية ٣٩ سورة الرحمن . (٣) آية ١٧٢ سورة البقرة .  
 (٤) آية ١٥ سورة المطففين . (٥) آية ٣٠ سورة النازعات . (٦) آية ٣٠ سورة البقرة .  
 (٧) الآية : الجنة التى تجمع فيها السهام . والمير : صاحب المير الذى يضرب بالفتاح .



قوله تعالى : ( وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ) أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن  
 اللبالات بقولهم ، فقد برك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو مفسوخ بقوله  
 « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً  
 حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد  
 الجهر بالركن في الصلاة . « وأعريض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق :  
 لما تأمدا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع  
 بما تؤمر وأعريض عن المشركين » إنا كفيناك المستهزين . الذين يفعلون مع الله إلفاً آخر  
 فسوف يعلمون . . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ، فإن الله كافيك من أذاك  
 كما كافاك المستهزين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ،  
 والحارث بن العلاء ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يثوث ،  
 والحارث بن العلاء ، أهلهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر في يوم واحد ؛ لاستهزائهم برسول الله  
 صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فز به الأسود  
 ابن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فتمى ووجعت عينه ، فقل بضرب رأسه الجدار .  
 ومرت به الأسود بن عبد يثوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه ثلث من حيا . ( يقال :  
 حين ( بالكسر ) حياً وحين للقول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحين ، والمرأة حياء ، قاله  
 في الصحاح ) . ومرت به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أترجرج بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه  
 قبل ذلك بسمين ، وهو يمز سبله ، وذلك أنه مرت رجل من خزاعة يريش ثيلاً له فعلق سهم  
 من نبله بلزازه فخدش في رجله ذلك الخدش وليس بنبي ، فانتفض به فقتله . ومرت به  
 الحارث بن العلاء فأشار إلى أنف رجله ، ففرج على حمار له يريد الطائف ، فريض به على  
 شربة فدخلت في أنف رجله شوكاً فقتله . ومرت به الحارث بن العلاء ، فأشار إلى رأسه

(١) آية سورة الفرقة . (٢) قيل ( بالعربك ) ، كتاب المسبة ، فعل ذلك كما دأبوا .

(٣) القبة ، بنت جاني لكل ، له ترك .



فامتخط فيما يقتله . وقد ذكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : أنهم المراد بقوله تعالى : « نَحْرُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم ؛ على ما يأتي .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾  
هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٦٧﴾  
قوله تعالى : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ) أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب .  
( بِمَا يَقُولُونَ ) أى بما نسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناوله وتناوله أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٨﴾  
فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : ( فَسَبِّحْ ) أى فاقزع إلى الصلاة ، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس ؛ وذلك تفسيرا لقوله : ( وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ) ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاخلصوا له الدعاء " . ولذلك خص السجود بالذكر .

الثانية - قال ابن العربي : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود فحسبوا فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بجواب زكريا من البيت المقدس طهره الله ، يسجد في هذا الموضع وسجدت معه فيها ، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ما هنا سجدة عند أبي حذيفة وثمان بن رباب ،

ورأى أنها واجبة .



### قوله تعالى : **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ١١

فيه مسألة واحدة - وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيك اليقين » وكان قوله : « واعبد ربك » كافياً في الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة في هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تقارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقل أبداً ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبداً ؛ لاحتمال لفظ الأبد لحظة واحدة وجميع الأبد . وقد تقدم هذا المعنى . والمراد استمرار العبادة مدة حياته ، كما قال المبد الصالح : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . ويركب على هذا أن الرجل إذا قال لأمراته : أنت طالق أبداً ، وقال : نويت يوماً أو شهراً كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقتهما حياتهما لم يرجعهما . والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية ، وكانت من المبايعات ، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان - أعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به » وذكر الحديث<sup>(١)</sup> . انفرد بإخراجه البخاري رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يميناً أشبه بالشك من يمين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون . وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرتك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ؛ وهو قول مجاهد وقادة والحسن . والله أعلم . وقد روى جبير بن نفير عن أبي مسلم الخولاني أنه سمعه يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أوصى إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوصى إلى أن أسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واجهد ربك حتى يأتيك اليقين »<sup>(٢)</sup> .

(١) صحيح ٢٢٠ طبة ٤٦٠ - (٢) راجع صحيح البخاري ٢٠٢٠ طبة ١٥١



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة النحل

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عتد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هي مكية غير قوله تعالى : « وَإِنْ مَاقِمُكُمْ مَعًا يَوْمَئِذٍ لَأَعْرِضْتُمْ عَنْهُ » الآية ؛ نزلت بالمدينة في شأن التنزيل بحزمة وقتل أحد . وغير قوله تعالى : « وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ » . وغير قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ » الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ مَعَدٍّ مَأْلُوسًا » حكى ، في شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله : « وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ اللَّهِ تَمَّ قَلِيلًا - إِنْ قَوْلُهُ - بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ①

قوله تعالى : ( أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) قيل : « أَى » بمعنى أتى ؛ فهو كقولك : إن أكرتني أكرتلك . وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه أت لا محالة ، كقوله : « وَتَأْدَىٰ أَصْحَابُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . و « أَمْرُ اللَّهِ » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جرير والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائض وأحكامه . وفيه بعد ؛ لأنه لم يُنقل أن أجدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩٥ وما بعدها

(٦) آية ١١ سورة الأعراف .



وغيرهم ، حتى قال النضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ،  
فَأَسْتَعِجِلْ الْعَذَابَ .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمرو بن وهب : واقفت ربى في ثلاث : في مقام  
إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر ، خرج مسلم والبخارى . وقد تقدم في سورة البقرة .  
وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ  
التَّنُورُ » . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت  
« أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ » قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأسكوا  
هن بعض ما كنتم تعملون ، فأسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فقلت  
« أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » الآية . فاشفقوا وانتظروا فحرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا :  
« مَا نَرَى شَيْئًا » فقلت : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون  
وخافوا ، فقلت : « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بَعَثْتُ أَنَا  
وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وأشار بأصبعيه : السبابة والى تاليها . يقول : أن كادت لتسبق فسبقتها .  
وقال ابن عباس : كان بعث النبي صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما  
هرأ به أهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .  
قوله تعالى : ( مَبْحَاثُهُ وَتَنَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) أى تقربا له عما يصفونه به من أنه  
لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه  
بالمعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن  
أشراكهم . وقيل : « مَا » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

(١) فاجع ٢٤ ص ١١٢ طبة آية (٢) ١٠ ص ١٠٠ (٣) الله سورة القصص

(٤) فالتسعة الأخيرة .















Bibliotheca Alexandrina



0615328